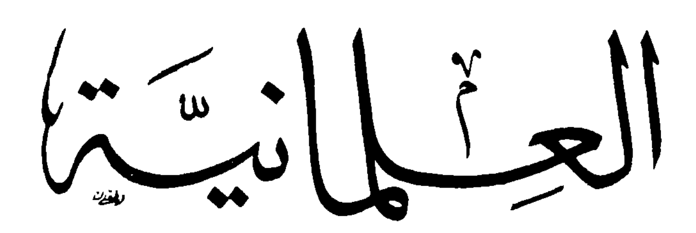

العلمانية
تأليف
د. سفر بن عبد الرحمن الحوالي
دار الهجرة



نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة

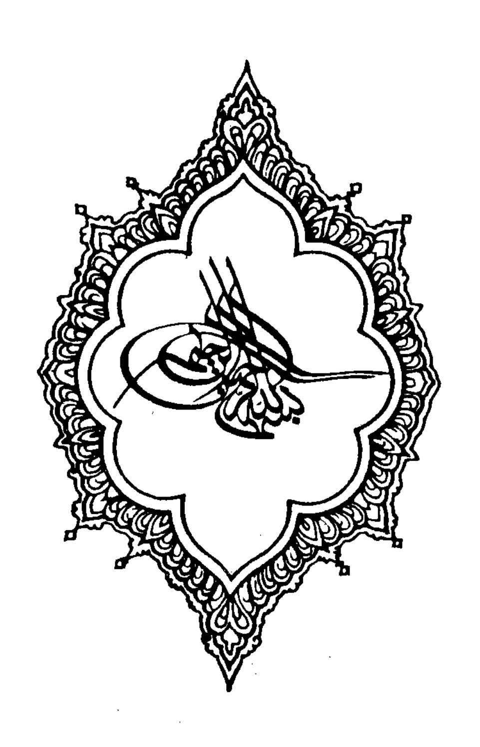
تأليف

سفر بن عبد الرحمن الحوالي



العلمانية

نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾.

(النحل: ٥١، ٥٢)

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

(الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

(المائدة: ٥٠)

المقدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فقد أعظم الله تعالى المنة على هذه الأمة بأن بعث فيها أفضل رسول وأنزل إليها أكمل دين وأقوم شريعة، فكانت الأمة التي استحقت أن تسمى «المسلمين» لتحقق معاني الإسلام فيها: إسلام القلب والجوارح، إسلام الفرد والمجتمع، إسلام الحياة كلها لله تعالى وحده لا شريك له.

وهو الإسلام الذي تضمنته تلك الكلمة العظيمة التي تعدل الكون كله، بل ترجح به ﴿لا إله إلاّ الله﴾. وظلت الأمة الإسلامية قروناً تقود الجماعة البشرية وتسيطر على العالم المتحضر إلاّ قليلاً وتتبوأ مركز الأمة الوسط بين العالمين؛ كل ذلك بفضل إدراكها لتلك الكلمة العظيمة والعمل بمقتضاها وتحقيق مدلولها في واقع الحياة. ثم أخذ شأن الأمة الإسلامية في الانحطاط وحضارتها في الذبول؛ وفقدت شيئاً فشيئاً، مركزها المرموق ومنزلتها السامية، ولم يكن لذلك من

سبب إلّا أن نور ﴿لا إله إلّا الله﴾ قد خَفَتَ، ومقتضياتها قد أهملت، ومدلولاتها قد انحسرت.

ولما كانت كلمة ﴿لا إله إلّا الله﴾ هي روح هذه الأمة وسرّ وجودها ومنبع حياتها، فإنها ظلّت تفقد من ذاتيتها وأصالتها بمقدار ما تفقد من نور هذه الكلمة العظيمة حتى آل الأمر في العصور الأخيرة إلى الفقدان الكامل أو شبه الكامل.

وعندما تصاب أمة من الأمم بهذا المرض المدمر: «فقدان الذات»، فإن أبرز أعراضه يتمثل في الانبهار القاتل بالأمم الأخرى والاستمداد غير الواعي من مناهجها ونُظُمها وقِيَمها.

وقد وقع ذلك في حياة الأمة الإسلامية تأويلاً لقوله صلى الله عليه وسلم (لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو أن أحدهم دخل حجر ضب لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جَامَعَ امرأته بالطريق لفعلتموه)(*).

ولم يكن أخطر من هذا المرض إلّا الجهل بحقيقته وعدم إدراك أسبابه فكان التشخيص الخاطىء سبباً في العلاج الخاطيء، الذي جاء بمضاعفات جديدة.

لقد خُيِّل للأمة أنّ هذا الداء العضّال يمكن مداواته باستعارات ساذجة ومظاهر جوفاء وترقيعات صفيقة تتلقاها جميعها من الكفار الذين أصبحت تخجل من أن تسميهم بهذا الاسم، بل أسمتهم «العالم المتحضر» و«الأمم الراقية»!!

وكان استعدادنا الذاتي وقابليتنا للذوبان هما المبرر الأكبر للحرب

(*) رواه مالك بسند صحيح، وأصله عند مسلم.

النفسية الشرسة التي نسميها «الغزو الفكري»، تلك التي استهدفت مقومات وجودنا وأُسس أصالتنا.

وجاءت طلائع الغزو الفكري ـ كما هو الحال في سبل الشيطان ـ متعددة الشعارات، متباينة الاتجاهات، عليها من البهرجة والبريق ما يكفي لتضليل وإغراء أمة منبهرة مهزوزة.

جاءت الاشتراكية والقومية والوطنية والديمقراطية والحرية وفلسفة التطور واللادينية... وغيرها من المسميات والشعارات. وَسَرَتْ عدوى هذه الأوبئة سَرَيان النار في الهشيم، وتغلغلت في العقول والقلوب التي فقدت رصيدها من ﴿لا إله إلاّ الله﴾ أو كادت، وتربت على ذلك أجيال ممسوخة هزيلة، أخذت على عاتقها مهمة تعبيد أمتها للغرب والإجهاز على منابع الحياة الكامنة فيها.

ومرّت في مطلع هذا القرن حقبة مظلمة راجت فيها سوق الأفكار الموبوءة والمذاهب المنحرفة، حتى أظهر أعداء الاسلام تفاؤلهم بأن هذه الأمة ستلفظ أنفاسها عما قليل.

ولكن الله تعالى ردّ كيدهم في نحورهم وأنبت في وسط الركام والظلام رجالاً صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه؛ فانفجرت في كل بلد إسلامي حركة جهادية، وانبثق من تلك الحركات فكر أصيل يستمد من الكتاب والسنّة مباشرة، مهتدياً بالوثبات التجديدية التي لم يخل منها عصر من عصور الإسلام. وتكمن قوة هذا الفكر، بل حياته، في سر واحد فقط، هو إدراكه أن سبب انحطاط هذه الأمة هو انحرافها عن حقيقة «لا إله إلاّ الله» وأن الطريق إلى بعثها يبتدىء من تصحيح مفهوم هذه الكلمة وما تفرّع منها وإزالة ما عَلِقَ في ذهن الأمة حولها من غبش واضطراب.

وكان مقتضى هذا الادراك ــ من الوجهة المنهجية العلمية ــ أن ما يسمى «علم الكلام» الذي شغل علماء العقائد الماضون به أنفسهم أصبح مسألة تاريخية، وأن العودة إلى صفاء العقيدة الإسلامية ووضوح تصوراتها ومفهوماتها تستدعي منهجية أصيلة نقية كل النقاء من التأثيرات الاغريقية القديمة ومن إيحاءات وسموم الغزو الفكري الحديث.

ولم يكن الإيمان بهذه الحقيقة سهل المنال، بل ان الرجال الذين اكتشفوها عانوا بأنفسهم مرارة التجربة وهم يحاولون دراسة الاسلام وفق منهجية غريبة عنه، ورأوا أن من حق دينهم ومن حقنا نحن الأجيال التالية أن لا تتكرر المأساة وأن ينيروا الطريق باختطاط منهج علمي أصيل وتأسيس دراسات إسلامية تخصصية تدرس العقيدة الإسلامية، بل تدرس الأفكار والمذاهب غير الإسلامية على ضوء ذلك المنهج الأصيل.

وكان من هؤلاء الرجال: الشيخ الفاضل محمد أمين المصري، رحمه الله، (الرئيس السابق لقسم الدراسات العليا بكلية الشريعة بمكة المكرمة)، الذي بذل جهده لإدخال مادة «المذاهب الفكرية» ضمن برنامج الدراسات العليا لفرع العقيدة.

وكان من توفيق الله تعالى أن عهد بتدريس هذه المادة إلى عَلَم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، هو الأستاذ «محمد قطب» حفظه الله.

وكان من توفيقه سبحانه لكاتب هذا البحث أن يلتحق بفرع العقيدة وأن يختار رسالته لنيل درجة التخصص الأولى «الماجستير» في هذه المادة وعلى يد ذلك الأستاذ.

وإذ كان عليَّ أن أختار مذهباً فكرياً ليكون موضوعاً لرسالتي، فقد هداني الله لاختيار مذهب «العلمانية» وآثرته على غيره لأسباب، منها:

١ ـ غموض المدلول الحقيقي لهذا الاصطلاح الخادع بالنسبة لكثير من المثقفين فضلاً عن العامة؛ فبالرغم من الكساد الذي بدأت المذاهب الأخرى، كالشيوعية والاشتراكية، تمنى به بعد اكتشاف الجماهير لحقيقتها؛ ما تزال أسهم العلمانية مرتفعة، سواء باسمها الصريح، أو تحت شعار الديمقراطية، أو شعار «الدين لله والوطن للجميع»، أو شعار «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين».

٢ ـ التوافق بين ذات العلمانية بوصفها فكرة غريبة واعية وبين موضوعها المتمثل في عزل الدين عن توجيه الحياة، وهو ما يعاني منه الواقع الإسلامي المعاصر، فالعلمانية ـ موضوعياً ـ موجودة في كل نواحي الحياة الإسلامية المعاصرة وإن لم يكن لها وجود ذاتي متكامل، كما هو الحال في أوروبا... هذا التوافق يجعل تقبلها ـ ذاتياً ـ أمراً سهلاً، ومن ثم يحتّم على ذوي الاختصاص دراستها وكشف زيفها وإيضاح تعارضها مع المفهوم الصحيح للإسلام ومقتضيات «لا إله إلّا الله».

وقد عرفت منذ اللحظة الأولى أن مهمتي ليست بيسيرة، وأنَّ عليَّ أن أخوض في ميادين بعيدة عن مجال دراستي الشرعية البحتة جاعلاً كل قراءاتي السابقة في الفكر الغربي بمثابة التمهيد فقط لما يجب عليَّ أن أنهض به.

وفعلاً خصصت نصف المدة المحددة للرسالة ـ تقريباً ـ في اطلاع دائب وقراءة متواصلة مسترشداً بالتوجيهات القيمة والآراء

السديدة التي كان أستاذي الفاضل يزودني بها باستمرار، فاطلعت على أمهات النظريات والاتجاهات في السياسة والاقتصاد والعلم والاجتماع والأدب والفن وكنت كلما ازددت إيغالاً في الاطلاع ازدادت ثقتي وقَوِيَ عزمي على إكمال الطريق. ومع أن المراجع المذكورة آخر الرسالة لا تساوي إلاّ جزءاً مما قرأت، فإنني لا أشعر بشيء من الخسارة، بل أحمد الله تعالى الذي أراني الفكر الجاهلي الأوروبي على حقيقته.. والحق أنني علمت علم اليقين أن هذا الفكر ليس باطلاً فحسب، بل هو أيضاً تافه هزيل، وتمنيت من أعماقي أن يهب الله كل شباب أمتي ما وهب لي من معرفة تفاهته وهزاله.

ثم ابتدأت الكتابة مقسمًا الموضوع خمسة أبواب:

* **الباب الأول**: موضوعه دين أوروبا الذي انحرفت عنه إلى اللادينية، أثبت فيه تحريف الدين النصراني وأنه لا يمثل دين الله الحق لا في العقيدة ولا في الشريعة. وتعرضت بالنقد للتحريفات والبِدَع والخرافات النصرانية. ورغم اتفاقي مع دعاة اللادينية في نقد النصرانية، فقد كنت مخالفاً لهم في منهجهم، وفي بعض الأحيان أعرض وجهة نظرهم وأنقدها.

وسيلحظ القارىء في هذا الباب الإفاضة وعدم التساهل، وما ذاك إلاّ نتيجة اقتناعي بأن السبب الأكبر في انحراف أوروبا من صنع الكنيسة، وأنَّ الإسلام يحارب الخرافة كما يحارب الإلحاد.

* **الباب الثاني**: موضوعه أسباب العلمانية.

مع أن تحريف النصرانية في الحقيقة هو السبب الممهد للعلمانية فقد خصصت هذا الباب للأسباب المباشرة لها، وهي:

١ ـ **الطغيان الكنسي**: دينياً وسياسياً ومالياً، مؤيداً بالشواهد التاريخية.

٢ ـ **الصراع بين الكنيسة والعلم**، عَرَضْت فيه الصراع النكد عرضاً تاريخياً منذ نظرية كوبرنيك إلى نظرية نيوتن مروراً بمدرسة النقد التاريخي ومذهب الربوبيين والملحدين الأوائل.

٣ ـ **الثورة الفرنسية** التي نجحت في إقامة أول دولة لادينية في أوروبا النصرانية، أوضحت أسبابها وآثارها واستغلال القوى الهدامة لها.

٤ ـ **نظرية التطور** التي كانت إيذاناً بانتهاء وصاية الكنيسة الفكرية على اوروبا وانسحابها من الميدان، إلى الأبد.. وقد تحدثت عن الآثار المدمرة للنظرية في الفكر والحياة وتطبيقها المريب في حقول المعرفة وميادين السلوك.

والحق أنَّ هناك أسباباً قد لا تقل عن هذه، غير أنني آثرت أن لا أعرضها، بصفتها أسباباً مستقلة؛ فالقوى الهدّامة: «اليهود»، يمكن اعتبارها سبباً مستقلاً، لكنني لم أعرضها بهذا الاعتبار، لأن اليهود ـ كما سيتضح من ثنايا البحث ـ يستغلون الأحداث ولا يصنعونها، فاكتفيت بعرض نماذج من استغلالاتهم في مواطنها، مثل:

استغلال الثورة الفرنسية لتحطيم الرابطة الدينية والخروج من (الجيتو).. واستغلال الداروينية لنشر الإلحاد والاباحية.. واستغلال الثورة الصناعية للسيطرة على اقتصاد العالم.. واستغلال الديمقراطية لتوجيه السياسة الدولية..

على أنني قد عرضت نظريات اليهود مستقلة في مواطنها، مثل «ريكاردو وماركس في الاقتصاد، ودوركايم وفرويد في الاجتماع والأخلاق»، وذلك لضمان وحدة الموضوعات وتماسكها. ومثل هذا يقال في حركة الإصلاح الديني التي هزّت الكنيسة وحطمت الوحدة الشكلية للعالم المسيحي.

* **الباب الثالث: العلمانية في الحياة الأوروبية:**

وهو الباب الرئيسي في الموضوع، وقد قسمته ـ حسب التقسيم التقليدي ـ ستة فصول:

ـ **الأول: في الحكم والسياسة**، تعرضت فيه للفكر السياسي اللاديني وأشهر نظرياته، مثل: «النظرية الخيالية، نظرية العقد الاجتماعي، نظرية الحق الإلهي»، ثم النظريات الحديثة التي تقوم على «الميكافيللية، فلسفة التطور، الديمقراطية» بتفسيريها الليبرالي والشيوعي.

وقد انتهجت أسلوب النقد بطريق العرض، فقد كنت أعرض أيّ نظرية كما يراها أصحابها، عرضاً يوحي للقارىء بنقدها دون أن أتقول عليهم، وهكذا في بقية الفصول.

وقد رأيت أن أفضل أسلوب لردّ هذه النظريات هو عرض آثارها الواقعية ونتائجها التطبيقية، مستشهداً بشهود من أهلها، وذلك لسببين:

١ ـ أنَّ تطبيق أي نظرية هو المحكّ الحقيقي لنجاحها أو إخفاقها.

٢ ـ أنَّ مناقشة تفصيلات النظريات اللادينية المختلفة فوق كونها تستهلك جهداً كبيراً لا تتفق مع حكم الإسلام فيها، الذي يرفض تلك التصورات جملة رفضاً أساسياً، كما سيتضح في الباب الخامس.

ـ **الثاني: في الاقتصاد**، تحدثت فيه عن النظام الاقطاعي، ثم عن المذاهب اللادينية الاقتصادية: «المذهب الطبيعي (الفيزيوقراطي)، المذهب الكلاسيكي الرأسمالي، المذهب الشيوعي»، عارضاً نظريات كل مذهب. ثم عقبت على ذلك بعرض الواقع المعاصر والنتائج

الفظيعة التي نجمت عن فصل الاقتصاد عن الدين، مؤيداً كل ذلك بالشواهد الواقعية، سواء في الغرب الرأسمالي أو الشرق الشيوعي.

ـ **الثالث**: **علمانية العلم**، تحدثت فيه عن الأسس والملابسات التي قامت عليها لادينية العلم، مثل موقف الكنيسة والإرث الديني والوثني في النفسية الأوروبية، الذي يصور الإله عدواً للإنسان يتعمد تجهيله كما في سفر التكوين وأساطير الاغريق.. ومظاهر لادينية العلم، مثل «استبعاد الغائية والاكتفاء بالعلل الصورية، حذف إسم الله من أي بحث علمي والاستعاضة بتعبيرات ملتوية كما في مسألة أصل الحياة وتعميم التفسيرات الميكانيكية للكون والحياة، ورفع شعار العلم للعلم في الغرب والعلم للمذهب في الدول الشيوعية». وعقبت ـ كالمعتاد ـ بالحديث عن أثر الفصل بين العلم والدين في المجتمع المعاصر ونتائجه السيئة، مثل انتشار الإلحاد وظهور الفوضى العقائدية والقلق على الأجيال المثقفة واستحالة العلم نفسه إلى خطر يهدد البشرية جمعاء.

ـ **الرابع**: **علمانية الاجتماع والأخلاق**، مهّدْت له بالحديث عن مجتمع وأخلاق القرون الوسطى في ظل الكنيسة، ثم فصّلت القول في النظريات والمدارس الاجتماعية اللادينية ـ مبتدئاً بالحديث عن أصول وولادة علم الاجتماع ـ وهي «نظرية العقد الاجتماعي المدرسة الطبيعية، المدرسة الوضعية العقلية (كونت، دوركايم) النظرية الاجتماعية الشيوعية، النظرية العضوية والنفعيون، الدراسات النفسية الحديثة (السلوكية، التحليل النفسي))»، ثم أردفت لذلك بالحديث عن الواقع الاجتماعي والأخلاقي المعاصر مكتفياً بنموذج واحد، هو قضية المرأة وما نجم عنها من الشرور الاجتماعية المستطيرة.. وقدمت نماذج واقعية للهبوط الخلقي الشائن الذي تعاني منه المجتمعات اللادينية المعاصرة، شرقاً وغرباً.

ـ الخامس: في الأدب والفن، تحدثت فيه عن الاتجاهات الأدبية الأوروبية:

١ ـ عصر النهضة «الكلاسيكية الجديدة» وما هدفت إليه من بعث التراث الوثني الاغريقي وإنماء النزعة الانسانية

٢ ـ العصر الحديث:

(أ) **الرومانسية**: تصويرها للهروب، مثاليتها، تأليه الطبيعة.

(ب) **الواقعية**: نشأتها، أهدافها، ميزاتها الفنية.

٣ ـ الأدب المعاصر «من الواقعية إلى اللامعقول» المؤثرات الفكرية والاجتماعية فيه، اتجاهاته الكبرى:

(أ) **الإباحية**، مع سرد نماذج لها.

(ب) **الضياع «اللاإنتماء»، مع أمثلة أدبية له.**

وفي مقابل الواقع المعاصر في كل مجال عرضت هنا نماذج موجزة لمدارس الضياع المعاصرة «الوجودية، الرمزية، السوريالية، العدمية.. الخ».

وكان من أبرز العقبات التي واجهتني في هذا الباب محاولة عرض النظريات المعقدة بأسلوب موجز سهل الإدراك.. وأحمد الله إذ أعانني على ذلك.

ـ السادس: ماذا بقي للدين، وهو تكملة عامة للباب مع التركيز على يوم الدين أو «ساعته!» وبيان الإفلاس الذي مُنِيَتْ به الكنائس وكيف أصبحت مباءات للمفاسد العصرية.

* **الباب الرابع: العلمانية في الحياة الاسلامية:**

لقد رأيت، منذ وضع خطة الموضوع، أنه لا ينبغي بحث

العلمانية بصفتها مذهباً فكرياً غربياً دون التعرض لآثارها في الحياة الاسلامية.

والحق أن العلمانية في العالم الإسلامي جديرة برسالة مستقلة، لكنني أرجو أن أكون قد وفقت لعرض أسبابها ومظاهرها عرضاً شافياً.. مع مراعاة حجم الرسالة ومدتها هذا مع أن الحديث عن العلمانية ونتائجها في أوروبا هو في الحقيقة شامل لمظاهرها في كل مكان على سبيل الإجمال.

وقد قسمت هذا الباب فصلين كبيرين:

ـ **الأول**: أسباب العلمانية في العالم الاسلامي، وقد أوجزتها في سببين بارزين:

١ ـ **انحراف المسلمين** الذي يقابل تحريف النصرانية في أوروبا، أوضحت فيه صور ذلك الانحراف، لا سيما ما يتعلق منها بالتوحيد والعقيدة وانحسار مفهومات الإسلام في مجال الشعائر التعبدية بتأثير الأفكار الصوفية والركود الحضاري العام، واختتمته بنماذج لتقبل المسلمين الذاتي للعلمانية.

٢ ـ **التخطيط اليهودي الصليبي**: تحدثت فيه عن جذور العداوة التاريخية للمسلمين من قبل اليهود والنصارى وأبديّتها والخطة الجديدة للغزو وإفادتها من الواقع الإسلامي المنحرف، وقسمت المؤامرة أربعة أجنحة كبرى (قوى الاحتلال المباشر، المستشرقون، المبشرون ،الطوائف اليهودية والنصرانية والباطنية).. وفصلت القول في جهود وأعمال كل جناح في سبيل تحقيق الهدف المشترك: إخراج المسلمين من دينهم وصبغهم بالصبغة الغربية اللادينية.

ـ الثاني: مظاهر العلمانية في الحياة الاسلامية.. وهو فصل كبير قسمته إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ في الحكم والتشريع، تحدثت فيه عن بداية الانحراف المتمثلة في تخلف المسلمين الحضاري، وجمود الاستنباط الفقهي، وتوهُّم دعاة اليقظة بأن سبب تأخُّر المسلمين هو عجزهم التنظيمي والإداري وما أدى ذلك إليه من تبلور فكرة «الإصلاح» واستيراد التنظيمات ثم التشريعات الكافرة وكيف انتهى الأمر بالحركة الإصلاحية إلى العلمانية الكاملة في تركية، وإلى إقصاء الشريعة في البلاد العربية ـ ومصر خاصة ـ بالتعاون بين الاستعمار ودعاة الإصلاح، وأثر ذلك في ظهور الأفكار السياسية اللادينية والأحزاب المتعددة الانتماءات.

٢ ـ في التربية والثقافة: تحدثت فيه عن المستوى التربوي والثقافي للعالم الإسلامي قبل احتكاكه بالحضارة الغربية اللادينية وكيف تمت الازدواجية الخطرة في التعليم، وحركة التغريب الأولى، ثم عن الدعوات الهادفة إلى لادينية التربية والثقافة، مثل «الدعوة إلى اقتباس الحضارة الغربية خيرها وشرها، واحتقار الماضي الاسلامي تربوياً وتاريخياً، وتطوير الأزهر، وتطبيق المناهج التعليمية الغربية، واستيراد المذاهب اللادينية في الفكر والأدب».

٣ ـ في الاجتماع والأخلاق، ابتدأته بالحديث عن سوء تمثيل المجتمع الإسلامي لحقيقة لإسلام، والتقبل الذاتي لتقليد الغرب.. ثم فصّلت القول فيما أسمي «قضية تحرير المرأة»، ابتداء من جمال الدين الأفغاني ورفاعة الطهطاوي، وانتهاء بقاسم أمين وحركة النهضة النسائية! . مع إيضاح دور العلماء والزعماء والأدباء الذين

أسهموا في المؤامرة، وسَريان الفكرة إلى بلاد الشام والمغرب، فضلاً عن تركية، والنتائج الواقعية لها.

* **الباب الخامس: حكم العلمانية في الاسلام:**
وقد رأيت أن يكون هو خاتمة أبواب الرسالة، وقسمته فصلين:
ـ **الأول**: فصل تمهيدي بعنوان: **هل للعلمانية في العالم الإسلامي مبرر؟** أوضحت فيه الفروق الجوهرية بين الإسلام والنصرانية المحرفة عقيدة وشريعة وتاريخاً وواقعاً، مما ينفي أي مبرر عقلي لاستيراد هذا المذهب المنحرف.

ـ **الثاني: حكم العلمانية في الإسلام**: بيّنت فيه حكم العلمانية على ضوء أصول العقيدة الإسلامية والمدلول الحقيقي لكلمة «لا إله إلاّ الله» ومفهومَي «الطاغوت والعبادة»، وخرجت من ذلك بنتيجة هي أن العلمانية تتنافى مع الإسلام من جهتين:

١ ـ كونها حكماً بغير ما أنزل الله.

٢ ـ كونها شركاً في عبادة الله، وفصّلت القول في ذلك مورداً الأدلة من الآيات والأحاديث ومستشهداً بأقوال علماء السلف.

ومن خلال ذلك ناقشت شبهة التعلل بحرية أداء الشعائر التي تسمح بها بعض الأنظمة العلمانية، وشبهة قصور الشريعة عن مجاراة التطور الإنساني والإحاطة بجوانب الحياة المعاصرة.

والحق أن تضخم حجم الرسالة مع انتهاء المدة المقررة لها قد حالا دون الإفاضة والتفصيل في بعض الموضوعات ـ لا سيما ما يتعلق بالواقع الاسلامي المعاصر ـ كما حالا دون وضع فهارس تفصيلية للأعلام والموضوعات تعين القارىء على الإفادة من الرسالة بصورة أوفى، أما التعريف بالأعلام فلعله يتضح من خلال عرض نظرياتهم

وآرائهم بالإضافة إلى الإشارة إلى سنة الوفاة وقد أعرّف العلَم في الحاشية إذا اقتضى الأمر ذلك.

وكل ما أرجوه هو أن يتقبل الله مني هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع بهذه المحاولة المتواضعة من يسلك هذا الطريق من بعد، لنصل إلى فكر إسلامي أصيل متكامل.

وإنني إذ أشكر الله تعالى على توفيقه ومنه، لأَشكر من بعده فضيلة نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وسعادة عميد كلية الشريعة بمكة المكرمة، وفضيلة المشرف على هذه الرسالة.. وكل من أَسْهَمَ بجهده المشكور في شيء منها، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

تَعـريفُ العِـلمَانيّة

لفظ العلمانية ترجمة خاطئة لكلمة (Secularism) في الإنجليزية، أو (Secularite) بالفرنسية[1]، وهي كلمة لا صلة لها بلفظ «العلم» ومشتقاته على الإطلاق.

فالعلم في الإنجليزية والفرنسية معناه (Science) والمذهب العلمي نطلق عليه كلمة (Scientism)[2] والنسبة إلى العلم هي (Scientific) أو (Scientifique) في الفرنسية.

ثم إن زيادة الألف والنون غير قياسية في اللغة العربية، أي في الاسم المنسوب، وإنما جاءت سماعاً ثم كثرت في كلام المتأخرين كقولهم: «روحاني، وجسماني، ونوراني...».

والترجمة الصحيحة للكلمة هي «اللادينية» أو «الدنيوية»، لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب، بل بمعنى أخص هو ما لا صلة له بالدين، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد.

وتتضح الترجمة الصحيحة من التعريف الذي تورده المعاجم ودوائر المعارف الأجنبية للكلمة:

---

(١) الكنز، معجم فرنسي ـ عربي، جروان، المصدر السابق: ١٠٣٠.

(٢) المصدر السابق: ١٠٢٤.

تقول دائرة المعارف البريطانية مادة (Secularim): «هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها.

ذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ(Secularism) تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالانجازات الثقافية والبشرية وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة.

وظل الاتجاه إلى الـ(Secularism) يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية»[٣].

ويقول قاموس «العالم الجديد» لوبستر، شرحاً للمادة نفسها:

«١ ــ الروح الدنيوية، أو الإتجاهات الدنيوية، ونحو ذلك. وعلى الخصوص: نظام من المبادىء والتطبيقات (Practices) يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة.

٢ ــ الاعتقاد بأن الدين والشؤون الكنسية لا دخل لها في شؤون الدولة، وخاصة التربية العامة»[٤].

ويقول معجم أكسفورد شرحاً لكلمة (Secular):

«١ ــ دنيوي، أو مادي، ليس دينياً ولا روحياً: مثل التربية اللادينية، الفن أو الموسيقى اللادينية، السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة.

---

(٣) Ency. Britannica Vol. IX p. 19

(٤) Websters New World Dictio. 128 B

٢ ـ الرأي الذي يقول أنه لا ينبغي أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية»[٥].

ويقول «المعجم الدولي الثالث الجديد» مادة: (Secularism)

«إتجاه في الحياة أو في أي شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات إستبعاداً مقصوداً، فهي تعني مثلاً «السياسة اللادينية البحتة في الحكومة».

«وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين»[٦].

ويقول المستشرق «أربري» في كتابه «الدين في الشرق الأوسط» عن الكلمة نفسها:

«إن المادية العلمية والإنسانية والمذهب الطبيعي والوضعية كلها أشكال للّادينية، واللادينية صفة مميزة لأوروبا وأميركا، ومع أن مظاهرها موجودة في الشرق الأوسط فإنها لم تتخذ أي صيغة فلسفية أو أدبية محددة، والنموذج الرئيسي لها هو فصل الدين عن الدولة في الجمهورية التركية»[٧].

والتعبير الشائع في الكتب الإسلامية المعاصرة هو «فصل الدين عن الدولة»، وهو في الحقيقة لا يعطي المدلول الكامل للعلمانية الذي ينطبق على الأفراد وعلى السلوك الذي قد لا يكون له صلة بالدولة،

---

(٥) Oxford Advanced Learner's Dic. of current English 785

(٦) Webster's Third New International Dic.: 2053

(٧) Religion in the Middle East A. J. ARBERY Vol. 2: 606 — 607

ولو قيل أنها «فصل الدين عن الحياة» لكان أصوب، ولذلك فإن المدلول الصحيح للعلمانية هو «اقامة الحياة على غير الدين» سواء بالنسبة للأمة أو للفرد، ثم تختلف الدول أوالأفراد في موقفها من الدين بمفهومه الضيق المحدود: فبعضها تسمح به، كالمجتمعات الديمقراطية الليبرالية، وتسمي منهجها (العلمانية المعتدلة ـ Non Religious) أي أنها مجتمعات لا دينية ولكنها غير معادية للدين، وذلك مقابل ما يسمى (العلمانية المتطرفة ـ Anti Religious)، أي المضادة للدين، ويعنون بها المجتمعات الشيوعية وماشاكلها.

وبدهي أنه بالنسبة للإسلام لا فرق بين المسميين؛ فكل ما ليس دينياً من المبادىء والتطبيقات فهو في حقيقته مضاد للدين، فالإسلام واللادينية نقيضان لا يجتمعان ولا واسطة بينهما[8].

---

(٨) انظر تفصيل حكم الإسلام في العلمانية في الباب الخامس من هذه الرسالة ص ٦٦٣.

الباب الأول

دين أوروبا

أو النصرانية بين التحريف والابتداع

الفصل الأول

التحريف

أولاً : تحريف العقيدة

ثانيًا : تحريف الشريعة

الفصل الأول

التحريف

مقدمة

عرفت أوروبا الوثنية الدين النصراني منذ القرن الأول للميلاد، بوصفه عقيدة شرقية ساميّة، كتلك العقائد التي ينظر إليها العالم الروماني الأبيقوري على أنها تعاليم مثالية صارمة، ولم يأل أباطرة الرومان جهداً في القضاء على هذه النحلة التي تفشت في مستعمراتهم، واستخدموا لتحقيق ذلك صنوف الاضطهاد والتنكيل طيلة القرون الثلاثة الأولى، ولكن أسباباً تاريخية ــ لا مجال لبحثها الآن ــ أدّت إلى اعتناق الأمبراطور «قسطنطين» للدين الجديد ودعوته لعقد أول مجمع مسكوني مسيحي هو مجمع نيقية سنة ٣٢٥، الذي أُعلنت المسيحية على أثره عقيدة رسمية للأمبراطورية الرومانية.

وقد حظي الدين الجديد بإقبال فائق وجاذبية شديدة من قبل شعوب الأمبراطورية، مما حدا بالمؤرخين[١] إلى تعليل ذلك بأسباب شتى، نختار منها ما ذهب إليه باحث أميركي معاصر:

١ ــ **العنصر التوفيقي**: فإنك قد تجد في روايات الألغاز الاغريقية، وفي قصة إيزيس، وقصة مترا، وفي اليهودية، وفي العقائد

---

(١) انظر مثلاً: معالم تاريخ الانسانية، ويلز، ج ٣؛ وحياة الحقائق، لوبون ص ٦٨؛ بالإضافة إلى أفكار ورجال «المثبت أعلاه».

الأخرى آنذاك: نماذج لكل ما اعتقد فيه المسيحيون كطقوس الطهارة، والإله الذي يموت ثم يُبعث، والعذراء التي تحمل[٢]، ويوم الحساب وحفلات الربيع وحفلات الانقلاب الشتوي والشياطين والقديسين والملائكة.

٢ ـ إن المسيحية بما وعدت من خلاص في عالم آخر لتعويض ما في هذه الدنيا من فقر وظلم وآلام، أثبتت أنها عقيدة شديدة الجاذبية للعامة في الامبراطورية المتداعية، إذ يرون فيها طريقاً خلاباً للهروب من عالم لا يحبونه، وإذن فقولنا أن المسيحية ديانة الضعفاء والبسطاء والمظلومين قول صادق والأناجيل مصرحة بذلك.

٣ ـ إن القواعد الدينية للمسيحية بلغت درجة من التعقيد تكفي لأن تجتذب رجالاً من ذوي الميول الفلسفية، وإذن فإن من عوامل النصر النهائي للمسيحية قواعدها الدينية التي اتحدت في نهاية القرن الثاني إتحاداً قوياً بالتقاليد الفكرية الاغريقية.

٤ ـ رد الفعل الذي نشأ عن الاضطهاد المستمر في عصور المسيحيه الأولى والاضطهاد عندما يبلغ درجة معينة يقوى الفئة المضطهدة، ويدفع المضطهدين إلى وحدة أشد تماسكاً وأكثر نظاماً[٣].

٥ ـ يضاف إلى ذلك عامل سياسي مهم وهو حاجة الدولة الرومانية إلى عقيدة موحدة تخلصها من الصراعات العقائدية المزمنة.

وعلى أية حال، فقد دانت أوروبا بالمسيحية منذ سنة ٣٢٥ وما زال العالم الغربي إلى اليوم يعتقد أنه عالم مسيحي، أو على الأقل كان كذلك يوماً من الأيام... لكن السؤال المهم هنا هو: هل هذه

---

(٢) ورود حمل العذراء في الأساطير لا يدل على أنها خرافة محضة، بل ان الخيال البشري تخيل ذلك على أنه أعجوبة خارقة ثم حققها الله تعالى في مريم ـ عليها السلام ـ لتكون معجزة الهية.

(٣) انظر: أفكار ورجال: جرين برنتن، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٨.

الديانة المعتنقة هي الوحي الإلهي الذي أنزله الله تعالى على عبده المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام؟

وبتعبير آخر: هل دانت أوروبا بالدين الحق لله تعالى وعبدته حق عبادته وعرفته معرفة صحيحة في أي مرحلة من مراحل تاريخها؟

إن أي مؤرخ أو باحث يلقي نظرة سريعة فاحصة على الحقبة التي شهدت ميلاد الدين النصراني، سيرى أن منطقة حوض البحر الأبيض كانت، تموج بعقائد وأفكار متباينة نذكر منها:

١ ــ **الديانة اليهودية**: وهي ديانة مغلقة خاصة بأسباط بني إسرائيل، لكنها تتميز بأنها ديانة سماوية لها كتاب مقدس، وموطنها فلسطين، حيث ولد المسيح وأرسل.

٢ ــ **العقيدة المترائية**: وهي عقيدة وثنية قديمة قوامها الكاهن والمذبح، ترى أنه لا خلاص للإنسان إلاّ بافتداء نفسه عن طريق تقديم القرابين للآلهة بواسطة الكهان[٤].

٣ ــ **الأفلاطونية الحديثة**: وهي عقيدة فلسفية تتلخص في أن العالم في تكوينه وتدبيره صدر عن ثلاثة عناصر:

(أ) المنشىء الأزلي الأول.

(ب) العقل الذي تولد منه كما يتولد الابن من أبيه.

(ج) الروح الذي يتكون منه جميع الأرواح والذي يتصل بالمنشيء الأول عن طريق العقل[٥]. وكان موطنها الإسكندرية.

---

(٤) انظر: معالم تاريخ الإنسانية: ٣/٧٠٦.

(٥) انظر محاضرات في النصرانية: ٣٨ ــ ٣٩.

٤ ــ **الوثنية المصرية**: ومن معتقداتها أن الآلهة ثلاثة:

(أ) حورس، الذي كان ابناً لسيراييس.

(ب) سيراييس، الذي هو في الوقت نفسه حورس.

(ج) إيزيس، والدة حورس[٦].

٥ ــ **الوثنية الرومانية**: ديانة الامبراطورية الرسمية، ومن مبادئها:

(أ) التثليث: (جوبتير، مارس، كورنيوس).

(ب) عبادة الأمبراطور، إذ كان الأباطرة يدعون الربوبية، و«كان تأليه الحاكم تقليداً هلنستياً»[٧].

(ج) تقديس الصور والتماثيل وعبادتها[٨].

٦ ــ **أفكار فلسفية**: من أهمها الفلسفة الرواقية، التي تعني من الوجهة العملية: الانقطاع عن الدنيا وتعد إنكار الذات أسمى الغايات النبيلة، مناقضة بذلك الفلسفة الإباحية الأبيقورية التي كانت فاشية في المجتمع الروماني[٩].

ولو أننا حاولنا أن نستنبط من مجموع هذه العقائد عقيدةواحدة مشتركة لخرجنا بعقيدة تقوم على ست دعائم:

١ ــ الإيمان بالتوراة اليهودية.

٢ ــ اعتقاد الفداء والخلاص والوساطة بين الله والناس.

٣ ــ التثليث.

---

(٦) انظر معالم تاريخ الانسانية: ٧٠٨/٣ وحرية الفكر: سلامة موسى ٣٨.

(٧) المصدر السابق: ٧١٧ وتاريخ العالم: هاملتون: ٥٨٨/٣، والهلنستيه بايجاز «الاغريقية الحديثة».

(٨) انظر قصة الحضارة: ديورانت ١٠/الفصل السابع.

(٩) تاريخ العالم ٥٨٩/٣.

٤ ـ الحلول (تجسد الاله في شكل بشري).
٥ ـ تقديس الصور والتماثيل.
٦ ـ الهروب من الحياة «الرهبانية».

ومن أول نظرة نلقيها على هذه الدعائم الست نرى أنها هي بعينها دعائم الدين النصراني الكنسي ولب تعاليمه التي سيطرت على الفكر الأوروبي ردحاً طويلاً من الزمن، وقد يدهش المرء لهذه النتيجة ـ رغم تسليمه بصحتها ـ ويتساءل: أيمكن أن يتحول دين سماوي خالص إلى مزيج مركب من خرافات ووثنيات متضاربة؟ وإذا أمكن ذلك فمن الذي قام بعملية التحول هذه؟ وأعجب منه: كيف احتفظت المسيحية باسمها ونسبتها وهي على هذه الحال؟

إن الكثير من مؤرخي الفكر الغربي قد تخلصوا من الإجابة على مثل هذه التساؤلات بتقسيمهم الدين النصراني قسمين متباينين لا رابط بينهما سوى النسبة للمسيح:
١ ـ المسيحية الأصلية، أو «مسيحية يسوع».
٢ ـ المسيحية الرسمية، أو «مسيحية بولس».

ويعنون بهذه العقيدة التي نشرتها الكنيسة ابتداء من سنة (٣٢٥) وهي المزيج المشار إلى مركباته آنفاً.

يقول برنتن: «إن المسيحية الظافرة في مجلس نيقية ـ العقيدة الرسمية ـ في أعظم أمبراطورية في العالم مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين في الجليل، ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعاً لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولى فحسب، بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتاً»(١٠).

(١٠) افكار ورجال: ٢٠٧.

أما المؤرخ الإنجليزي ويلز، فيقول: «من الضروري أن نستلفت نظر القارىء إلى الفروق العميقة بين مسيحية نيقيا التامة التطور وبين تعاليم يسوع الناصري. . . فمن الواضح تماماً أن تعاليم يسوع الناصري تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذي ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين، وهي لم تكن كهنوتية ولم يكن لها معبد مقدس حبساً عليها ولا هيكل، ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس، وكان قربانها «قلباً كسيراً خاشعاً»، وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة. بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل ـ كنواة لها ـ كانت في صلبها ديانة كهنوتية من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف السنين، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة، والعمل الجوهري في العبادة فيها هو القربان الذي يقر به قديس متكرس للقداس، ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشمامسه والقساوسة والأساقفة، ولئن اتشحت المسيحية بأردية خارجية تشابه نحل سيرابيس أو آمون أو بعل مردك مشابهة غير عادية فلا بد لنا أن نذكر أنه حتى كهانتها نفسها كانت لها مظاهر جديدة بأعيانها».

«ولقد بلغ من جراة الكتاب المتشككين أن أنكروا امكان أن يسمى يسوع مسيحياً على الاطلاق»[١١].

وإذا كان هذا هو رأي العلماء الباحثين فإن من المفيد أن نعرف رأي رجال الكنيسة في هذا الأمر، وحسبنا أن نقرأ ما كتبه الدكتور «وليام تامبل» أسقف كنيسة كنتربري وحبر أحبار انجلترا، حيث يقول:

---

(١١) معالم تاريخ الإنسانية: ٧٢٠، ٦٩٣. وبعض الكتاب أنكر وجود المسيح كلية. انظر: محاضرات في النصرانية: ٤٢، ولكن هذا مما لا يلتفت إليه.

«إن من الخطأ الفاحش أن نظن أن الله وحده هو الذي يقدم الديانة أو القسط الأكبر منها»[١٢].

وليس هذا الكلام فلتة من الحبر الكبير، أو سهواً غير مقصود، وإنما هو تعبير صريح صادق عن عقيدة الكنيسة وواقع تاريخها.

وعلى ضوء هذه الآراء نستطيع أن نعرف ما إذا كانت أوروبا قد اعتنقت النصرانية الحقة الموحاة من الله، أو اعتنقت المركب الذي صنعه أجداد الدكتور تامبل من آباء الكنيسة الأولين، واستخرجوه من العقائد السائدة في عصرهم آنذاك.

إن من الحقائق المقررة أن الكنيسة قد ارتكبت سلسلة من الأخطاء الشنيعة، يكفي أحدها لنزع الثقة منها بصفة نهائية، وان احداً من أعداء المسيح عليه السلام لم يسيء إليه وإلى تعاليمه النبوية كما أساءت الكنيسة التي تتبجح بالانتساب إليه، وتزعم أنها الحارس الأمين على مبادئه والممثل الشرعي له، ولقد كان «ليكونت دي نوى» صادقاً عندما قال: «إن ما أضافه الإنسان إلى الديانة المسيحية، والتفسيرات التي قدمها، والتي ابتدأت منذ القرن الثالث بالاضافة إلى عدم الاكتراث بالحقائق العلمية، كل ذلك قدم للماديين والملحدين أقوى الدلائل المعاضدة في كفاحهم ضد الدين»[١٣].

هذا، وليس من أهدافنا في هذا البحث التهجم على الكنيسة وفضح تصرفاتها ولا كذلك تبرير التمرد الذي اعلنته أوروبا على خالقها في اثناء ثورتها على طغيان الكنيسة، لكن هدفنا هو الحقيقة التي هي ضالة المؤمن، لا سيما وأن القضية قضية إنسانية عامة، تعدت

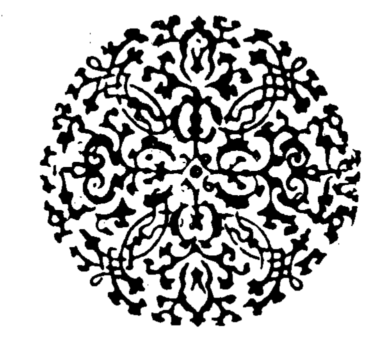
---

(١٢) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين: ١١.

(١٣) المصدر السابق: ١٥ ـ ١٦.

نطاق أوروبا إلى العالم كله، وصلينا ـ نحن المسلمين خاصة ـ نيران آثارها السيئة منذ الحروب الصليبية، بل منذ ظهور الإسلام إلى اليوم.

وعلى هذا الأساس سنستعرض موضوع تحريف المسيحية عقيدة وشريعة معتمدين أساساً على الباحثين النصارى أنفسهم وعلى المصادر الكنسية.



أولاً : تحْريفُ العَقِيْدَة

(أ) قضية الألوهية:

إن قضية الألوهية لتأتي في طليعة المعضلات الفلسفية العريضة التي شغلت أذهان الفلاسفة والمفكرين قروناً طويلة، لاسيما ما يتعلق بتصور الإله وصفاته، حيث تفاوتت التصورات المنحرفة، فأوغل بعضها في التجريد حتى وصل إلى درجة المعميات والألغاز المبهمة، وسفل بعضها في التجسيم حتى هبط إلى مستوى الجمادات والمخلوقات التافهة، وقد كانت البشرية في غنى عن هذا التخبط والضلال لولا أنها ضيقت على نفسها وحاولت بلوغ الحقيقة من غير طريقها، ولم تكن بحاجة إلى الخوض في هذه القضية بتاتاً لو أنها استلهمت الفطرة الكامنة في أعماقها واستقت معرفتها بالله من طريق الوحي الإلهي نفسه، واستبدلت بتخرصات الفلاسفة وتحريفات الكهان تعاليم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

ولو جاز أن نتلمس عذراً لأحد من التائهين في هذه القضية، لالتمسناه للأمم التي انقطع عنها الوحي فترات طويلة، أو للذين لم تقع أعينهم على شيء من آثار الأنبياء، أما إذا كان المتخبطون ممن يستطيعون أن ينعموا بنور الحقيقة لكنهم آثروا عليه الإدلاج في الظلمات، فما عذرهم حينئذ؟

لَكَم تكون الخسارة فادحة لو أن عالما من جهابذة الطب كتب أروع بحث علمي في فنه وأوصى خادمه بحفظه، لكن الخادم عبث به فقدم وأخر وشطب وأضاف حتى حوّله إلى خزعبلات سخيفة. فكيف إذا كان موضوع العبث هو الوحي الإلهي الذي لا تستقيم بغيره حياة ولا تصلح بسواه دنيا ولا آخرة؟

إن المسيح ــ عليه السلام ــ قد بعث في بيئة تعج بركام هائل من الخرافات والوثنيات ــ ذكرنا بعضها قريباً ــ وجاء كأي نبي مُرسَل لينقذ قومه من هذا الركام ويهديهم إلى التوحيد الذي دعا إليه سلَفه من الأنبياء، ولا شك أنه قام بمهمته خير قيام، وكان عليهم شهيداً ما دام فيهم فلما توفاه الله حدث من أتباعه ما لم يكن في الحسبان من تحريف ونكوص.

وعملية التحريف التي استغرقت زهاء عشرة قرون ــ بل نستطيع أن نقول أنها لم تتوقف حتى الآن ــ بدأت مبكرة حين كان الحواريون لا يزالون على قيد الحياة، كما أنها ابتدأت بموضوع ليس بالهين، وهو القول بأن للمسيح طبيعة آلهية، مع أن سيدنا عيسى عليه السلام ــ كما تعترف دائرة المعارف البريطانية ــ «لم تصدر عنه أي دعوى تفيد أنه من عنصر آلهي أو من عنصر أعلى من العنصر الإنساني المشترك»[1].

وتتفق المصادر التاريخية ــ فيما نعلم ــ على أن اليد الطولى في التحريف كانت لمبشر من أتباع الحواريين، تسميه المسيحية المحرفة «بولس الرسول»، وهو الذي أثار موضوع ألوهية المسيح لأول مرة، مدعياً أنه «ابن الله»[2] ــ تعالى عن ذلك ــ وكانت هذه الدعوى البذرة الأولى للتثليث.

---

(١) عن الجفوة المفتعلة: ١٥.

(٢) انظر رسالة بولس إلى أهل رومه صح ١: ٤ ــ ٥.

بولس:

الاسم الأصلي لبولس هو «شاؤل» وهو كما يبدو من سيرته شخصية تآمرية ذات عبقرية عقائدية، ويظهر أنه كان ينفذ تعاليم المحكمة اليهودية العليا «سانهدرين»، حيث كان أستاذه عمانوئيل أحد أعضائها[٣].

وقد اشتهر أول حياته باضطهاد المسيحيين[٤]. ثم تحول فجأة ليصبح الشخصية المسيحية الأولى والقطب الكَنَسي الأعظم، ومنذ ظهوره إلى الآن لم يحظ أحد في تاريخ الكنيسة بمثل ما حظي به من التقديس والإجلال، إلّا أن «أحرار المفكرين» الأوروبيين لم يخفوا عدواتهم له، حتى أن الكاتب الانجليزي «بنتام» ألَّف كتاباً أسماه «يسوع لا بولس».. ومثله «غوستاف لوبون» في «حياة الحقائق». أما المؤرخ «ويلز» ـ وهو من المعتدلين ـ فقد عقد فصلاً بعنوان «مبادىء أضيفت إلى تعاليم يسوع»، قال فيه:

«وظهر للوقت معلم آخر عظيم يعده كثير من الثقات العصريين المؤسس الحقيقي للمسيحية، وهو شاؤل الطرسوسي، أو بولس، والراجح أنه كان يهودي المولد وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك! ولامراء في أنه تعلَّم على أساتذة من اليهـود، بيد أنه كان متبحِّراً في لاهوتيات الاسكندرية الهلينية... وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهيلنستية، وبأساليب الرواقيين، كان صاحب نظرية دينية ومعلمًا يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصري بزمن طويل.. ومن الراجح جداً أنه تأثر بالمثرائية، إذ هو يستعمل عبارات عجيبة

---

(٣) انظر محاضرات في النصرانية: ٨٤، والسنهدرين محكمة يهودية خفية تخطط منذ القدم لمستقبل اليهود وتعمل للقضاء على عقائد واخلاق الاميين ونهب اموالهم، ومقرها الحالي أميركا وجهازها التنظيمي الأعلى يسمى «كيهيلا» أما منهجها العملي فيسير وفق تعاليم التلمود.

(٤) انظر أعمال الرسل صح ٨، ٩.

الشبه بالعبارات المثرائية، ويتضح لكل من يقرأ رسائله المتنوعة جنباً إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعاً بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعليم، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قرباناً لله كفارة عن الخطيئة. فما بَشّر به يسوع كان ميلاداً جديداً للروح الانسانية أما ما علّمه بولس فهو الديانة القديمة، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلباً لاسترضاء الاله».

«.. ولم ير بولس يسوع قط، ولا بد أنه استقى معرفته بيسوع وتعاليمه سماعاً من التلاميذ الأصليين، ومن الجلي أنه أدرك الشيء الكثير من روح يسوع ومبدأه الخاص بالميلاد الجديد، بيد أنه أدخل هذه الفكرة في صرح نظام لاهوتي، ذلك بأنه وجد الناصريين ولهم روح ورجاء وتركهم مسيحيين لديهم بداية عقيدة»[٦].

ولندع الآن كل التأثيرات والثقافات التي عرفها بولس، باستثناء واحدة منها هي «لاهوتيات الاسكندرية» التي كان متبحراً فيها، ومعلوم أن هذه اللاهوتيات هي المدرسة الفلسفية المسماة «الافلاطونية الحديثة» التي أشرنا سابقاً إلى عقيدتها الثالوثية، وعنها نقل بولس فكرة التثليث «يضاهئون قول الذين كفروا من قبل» والتعديل الذي أدخله على الافلاطونية شكلي فقط: فالمنشىء الأزلي الأول فيها يقابله عنده الله «الأب»، والعقل المتولد عن المنشىء الأول يقابله عنده يسوع «الابن»، والروح الكلي يقابله «روح القدس». ثم أنه سار شوطاً أبعد من ذلك، فاستعار من المثرائية فكرة الخلاص. وجعل القربان الضحية هو الأقنوم الثاني «الابن». ثم إن الكنيسة أكملت المسيرة فأضافت إلى فكرة الخلاص فكرة تقديس الخشبة التي صلب عليها

---

(٥) معالم تاريخ الإنسانية: ٣/٧٠٥ ـ ٧٠٦.

المخلص، وهكذا «تتابعت البِدَع واحدة في أثر الأخرى، وكان نتيجة ذلك أن دفنت التعاليم الأصلية بطريقة تكاد تكون غير محسوسة، تحت تلك الإضافات المألوفة»[٦].

بهذه الطريقة، وبغض النظر عن الأهداف والدوافع الخفية، هدم بولس عقيدة التوحيد وأوقع أتباع المسيح فيما كان قد حذرهم منه أبلغ تحذير. واكتسبت تعاليم بولس الصفة الشرعية المطلقة بقيام أحد أتباعه بكتابة الانجيل الرابع المنسوب إلى يوحنا الحواري، والذي قال عنه جيبون أنه:

«فسر نظرية الكون الافلاطونية تفسيراً مسيحياً وأظهر أن يسوع المسيح هو الكيان الذي تجسد فيه «الكلمة» أو العقل (Logos) الذي تحدث عنه أفلاطون والذي كان مع الله منذ البدء[٧].

على أنه من الإنصاف أن نذكر أن الثلاثة القرون الأولى التي تسميها الكنيسة «عصر الهرطقة» شهدت صراعاً محتدماً بين أتباع بولس وأثانسيوس، وبين منكرة التثليث وعلى رأسهم «آريوس»، ولم يكتب النصر النهائي للثالوثيين إلاّ في مجمع نيقية، مع أنهم كانوا أقلية فيه.

يقول برنتن:

«وقد امتدت هذه الهرطقات فشملت الجانب الأكبر من السلوك والعقائد، ونستطيع أن نأخذ الجدل النهائي الذي ثار حول العلاقة بين يسوع والاله الواحد ــ الاله الأب ــ مثلاً لعصر الهرطقة كله، وأخيراً قبلت المسيحية الرسمية في عام ٣٢٥ في مجلس نيقية بالقرب من القسطنطينية عقيدة التثليث أو ما نادى به أثانسيوس، والثالوث «الله

---

(٦) المصدر السابق ٣/٧٠٩.

(٧) اضمحلال الامبراطورية الرومانية ١/٦١١

الأب، ويسوع الابن، والروح القدس، طبقاً لهذه العقيدة: أشخاص حقيقيون عددهم ثلاثة لكنهم واحد أيضاً، وبقيت المسيحية وحدانية تثليثها يسمو على الرياضيات»[٨].

وهنا، عند هذه النقطة خاصة تصطدم آراء بولس وكنيسته بالفطرة والعقل اصطداماً مباشرا، فمهما حاول أي عقل بشري أن يتصوّر أن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة فإنه لا يستطيع إطلاقاً، مع أن الملايين من أتباع الكنيسة يقولون في كل صلاة: «باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد».

لقد ظل العقل البشري يلحّ على الكنيسة أن تعطيه إجابة مقنعة يتخلص بها من سؤال داخلي قاتل وهو: كيف أصدق أن ١+١+١=١؟ فكان رد الكنيسة المتكرر دائماً هو أن ذلك «سر» لا يستطيع العقل إدراكه».

هكذا كان رأي القديس أوغسطين (٤٣٠) وهو يواجه حملة آريوس على التثليث الكاثوليكي، وقال أن كل ما جاء في الأناجيل لا ينبغي للعقل أن يجادل فيه «لأن سلطانها أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشري»[٩].

وكذلك القديس توما الأكويني (+١٢٧٤)، فهو «يقرر أن الحقائق التي يقدمها الإيمان لا يقوى العقل على التدليل عليها، ففي استطاعة العقل أن يتصور ماهية الله (Essence)، ولكنه لا يستطيع أن يدرك تثليث الأقانيم، ومن دلل على عقيدة التثليث في الأقانيم حقّر من شأن الإيمان»[١٠].

---

(٨) أفكار ورجال.

(٩) قصة النزاع بين الدين والفلسفة، توفيق الطويل: ٨٣، وانظر سلسلة تراث الإنسانية /٦٤٨ ٦٦٢.

(١٠) المصدر السابق: ٨٧.

وهكذا كان رأي الكنيسة وهي تواجه انتقادات «أبيلارد» في القرن الثاني عشر الميلادي الذي أدان رأي أبيلارد وقرر إحراق كتابه وأن يضعه بيده في النار[11]. ولا يزال هذا هو رأي الكنيسة وإلا فماذا في إمكانها أن تقول غير ذلك؟

حتى الكنائس الشرقية تذهب إلى هذا الرأي، فالقس باسيلوس يقول: «ان هذا التعليم عن التثليث فوق إدراكنا، ولكن عدم إدراكه لا يبطله»..

وزميله توفيق جيد يقول: «إن تسمية الثالوث باسم الأب والابن والروح القدس تعتبر أعماقاً الهية وأسراراً سماوية لا يجوز لنا أن نتفلسف في تفكيكها أو تحليلها أو أن نلصق بها أفكارنا من عندياتنا»[12].

من هذه الإجابات يتضح أن الكنيسة لم تضع حلاً للمشكلة إلا المشكلة نفسها؛ فالعقل يسأل الكنيسة عن سر التثليث فتجيب بأن هذا «سر» وياليت أنه كان السر الوحيد، ولقائل أن يقول: ان الأديان كلها بما فيها الإسلام لا تخلو من مغيبات أو حقائق لا يستطيع العقل إدراكها. ولكن يدفع هذا القول أن هناك فرقاً بين ما يحكم العقل باستحالته كالتثليث، وبين ما لا يستطيع العقل إدراكه. والإسلام، وإن كان فيه الأخير، فإنه يخلو تماماً من الأول، فليس فيه ما يحكم العقل باستحالته أبداً[13].

إن الكنيسة، بتبنّيها لعقيدة التثليث، قد فتحت على نفسها ثغرة

---

(١١) المصدر السابق: ٨٩.

(١٢) الله واحد ام ثالوث: مجدي مرجان: ١١.

(١٣) مستفادة من محاضرة شفوية للشيخ الغزالي للسنة المنهجية ٩٦ ـ ١٣٩٧ هـ ثم وجدت مثلها في شرح الطحاوية: ٢٤٧.

واسعة يستطيع أعـداؤها أن ينفذوا من خلالها إلى هدم الدين البولسي الكنسي بسهولة، وكانت هذه العقيدة واضرابها المقومات الأساسية للفكر اللاديني الذي تستر بستار «النقد التاريخي للكتب المقدسة» ابتداء من القرن السابع عشر، ولا بأس هنا أن نورد قول أحد أقطاب هذا الفكر وهو الفيلسوف الفرنسي «رينان» الذي حرمته الكنيسة وحظرت كتبه:

«انه ينبغي لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقي، كما كان يفهمه هو، أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الكاذبة التي شوهت وجه التعليم المسيحي حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام، ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذي لم يفهم تعليم المسيح، بل حمله على محمل آخر ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهد القديم. وبولس، كما لا يخفى، كان رسولاً للأمم أو رسول الجدال والمنازعات الدينية، وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية كالختان وغيره، فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحي فأفسده، ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس، وأما تعليم المسيح الأصلي الحقيقي فخسر صفته الالهية الكمالية، بل أصبح إحدى حلقات سلسلة الوحي التي أولها منذ ابتداء العالم وآخرها في عصرنا الحالي والمستمسكة بها جميع الكنائس، وان أولئك الشُرَّاح والمفسرين يدعون يسوع الهاً دون أن يقيموا على ذلك الحجة، ويستندون في دعواهم على أقوال وردت في خمسة أسفار: موسى، والزبور، وأعمال الرسل ورسائلهم وتآليف آباء الكنيسة، مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله»[١٤].

وإذا كان التثليث يتصف بهذه الصورة العقيمة المستغلقة، وإذا كانت الكنيسة تعلم أنها لم تستطع، ولن تستطيع، حلّ هذه المعضلة

---

(١٤) عن محاضرات في النصرانية: ٢١٥.

ــ بل أنها غير مقتنعة في نفسها بما تقدم من حلول ــ فلِمَ هذا الاصرار على تلك العقيدة؟ أهو التقليد الأعمى أم شهوة التسلط على العقول والقلوب؟ إن أحد هذين، أو كليهما، لا مرية فيه. لكن الكنيسة تماري، زاعمة أنها تتبع روايات العهد الجديد وشروحها.

وهنا نجد مرة ثانية، أن الكنيسة تستدل على الدعوى بالدعوى نفسها، فإن منكري التثليث إنما ينكرونه لاعتقادهم أن الكنيسة هي التي أضافته إلى نصوص الأناجيل أو فهمته خطأ من ثناياها، وحينئذ تحتاج الكنيسة إلى إثبات صحة الأناجيل وصحة استدلالها منها، وأنى لها ذلك.

أما احتجاج منكري التثليث على الكنيسة بأنها أقحمت العبارات الدالة على التثليث في صلب الأناجيل فإن له ما يسوغه، وهذا أحد الأمثلة عليه:

في الفصل الخامس من رسالة يوحنا الأولى نجد هذه العبارات: «إن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة: الأب، والكلمة، والروح القدس. وهؤلاء الثلاثة هم واحد والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة: الروح، والماء، والدم. والثلاثة هم في الواحد». فالمحققون من علماء النصارى أمثال كريسباخ وشولز وآدم كلارك، وحتى المتعصبين مثل هورن، يرجحون أن أصل العبارة هكذا: «وأن الشهود الذين يشهدون ثلاثة وهم الروح والماء والدم»، غير أن معتقدي التثليث أضافوا إليها عبارة «هم في السماء ثلاثة... الخ»، حتى أصبحت العبارة بهذه الاضافة دليلًا من أدلة الكنيسة على التثليث. ومما يؤيد قول هؤلاء أن المصلح الكَنَسي «مارتن لوثر» لم يترجم هذه العبارة إلى الألمانية عندما ترجم العهد الجديد إليها[١٥].

---

(١٥) انظر اظهار الحق الشيخ رحمة الله: ٢٥٧ ــ ٢٦٠.

وأما اعتقادهم أن الكنيسة فهمت التثليث خطأ من نصوص الكتب المقدسة واستنبطته من تأويل بعض عبارات الأناجيل القائلة «أبي»: «ابن الله» وأشباهها، فليس بأقل قوة من سابقه، وقد نبه إلى ذلك جرين برنتن، فقال:

«يستطيع المرء إذا أخذ بالتفسير الطبيعي لمصادر العهد الجديد أن يزعم أن يسوع لم يدع لنفسه الألوهية قط، وأن مثل هذه العبارات (أي أبي وابن الله) إنما رويت محرفة أو استعملت مجازاً أو كانت هذا و ذاك»[١٦].

ومن اليسير علينا تأييد هذا الرأي بما ورد في الأناجيل والرسائل من إشراك سائر الناس مع المسيح في إطلاق هذه العبارات عليهم وعدم اختصاصه بهذه الصفات جاء ذلك في مواضع كثيرة، منها:

١ ـ «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله، وكل من يحب الوالد يحب المولود منه أيضاً، بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله»[١٧].

٢ ـ في إنجيل متى يقول المسيح: «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون»[١٨].

٣ ـ وفيه أيضاً يقول المسيح للتلاميذ: «صلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك...»[*].

٤ ـ يقول في إنجيل لوقا: «ومن اعترف بي قدام الناس يعترف به ابن الإنسان قدام ملائكة الله»[١٩].

---

(١٦) أفكار ورجال: ١٧٧.

(١٧) رسالة يوحنا الأولى صح ٥: ١ ـ ٣.

(١٨) صح ٥: ١٠.

(*) صح ٦: ١٠ ـ ١١.

(١٩) صح١٢: ٩.

٥ ــ وفي متى عنه: «أن ابن الانسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته».

هكذا نجد في العهد الجديد نصوصاً كثيرة تصف الناس جميعاً ــ المسيح وغيره ــ بأنهم أبناء الله، وهو معنى مجازي قطعاً، وتصف المسيح بأنه «ابن الإنسان» ويمكن درء التعارض بينها بشأن المسيح برد نصوص المجاز إلى الحقيقة لأنها هي الأصل، وبذلك لا يكون للمسيح عليه السلام أية ميزة، عدا كونه رسولاً، إلا أن القدرة الالهية خلقته من أم «بلا اب».

ولكن الكنيسة تماري في هذه الحقائق الساطعة مستدلة بالأناجيل، لاسيما إنجيل يوحنا مما يجعل الباحث ينقب عن حقيقة الأناجيل ذاتها ومدى حجيتها على هذه القضية وغيرها[٢٠].

(ب) تحريف الأناجيل:

ليس ثمة شك في أن الله تبارك وتعالى إنما أنزل على المسيح عليه السلام إنجيلاً واحداً مكملاً للتوراة المنزلة على موسى عليه السلام، وما من شك أيضاً في أن المسيح حين هتف ببني إسرائيل: «قد كمل

(٢٠) بمناسبة الحديث عن التثليث نورد قصة طريفة ذكرها الشيخ رحمه الله في اظهار الحق مفادها أن ثلاثة أشخاص تنصروا على يد قسيس، فزار صديق للقسيس القسيس وتلامذته وسأله: هل علمتهم العقائد الضرورية؟ قال نعم، واستدعى أحدهم وسأله أمام صديقه الزائر عن عقيدته فقال: انك علمتني أن الآلهة ثلاثة أحدهم الذي في السماء، والثاني الذي تولد من بطن مريم العذراء، والثالث الذي نزل في صورة الحمام على الاله الثاني بعد ما صار ابن ثلاثين سنة فغضب القسيس وطرده ثم استدعى الثاني منهم وسأله فأجاب: انك علمتني أن الالهة كانوا ثلاثة وصلب واحد منهم فالباقي الهان، فغضب كذلك وطرده، ثم استدعى الثالث ــ وكان أذكى الثلاثة ــ وسأله فقال: يا مولاي حفظت ما علمتني حفظاً جيداً وفهمت بفضل الرب المسيح ان الواحد ثلاثة والثلاثة واحد والالهة ثلاثة صلب واحد منهم فمات الكل لأنهم واحد، ولا اله الآن..

هذا ومعلوم ان موقف معظم المثقفين الغربيين هو موقف التلميذ الثالث بعينه.

الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل»[٢١]، إنما كان يعني ذلك الإنجيل المنزّل، لا شيئاً آخر سواه.

والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي تكفّل الله بحفظه بنفسه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (١٥ ــ ٩). أما الكتب السابقة فقد وكل حفظها إلى علماء دينها:

﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله﴾ (٦٥ ــ ٤٤). إذن فقد كان في عهدة الكنيسة أن تحفظ هذا الإنجيل بنصه السماوي وصبغته الالهية، فلا يمسه عبث عابث ولا تجترىء عليه يد محرف، لكن الكنيسة ــ كعادتها ــ فرّطت في واجبها، بل إنها هي التي فتحت للمغرضين باب التحريف والقول على الله بغير علم.

إن محرري دائرة المعارف البريطانية، وهم من ذوي الكفاءات العالية في معظم التخصصات ــ ومنها اللاهوت ــ لم يتطرفوا أو يبالغوا في القول بأنه «لم يبق من أعمال السيد المسيح شيء ولا كلمة واحدة مكتوبة»[٢٢]، بل إنما عبروا بذلك عما ينبغي أن يقرره الباحث العلمي المدقق.

ونحن المسلمين نؤمن بأن في خبايا الأناجيل شيئاً من أقوال المسيح وتعاليمه التي يحتمل أنها وحي من الله، لكن ذلك لم يثبت لدينا بسند تاريخي موثوق إلى المسيح، وإنما آمنا به لأننا لوعرضناه على الوحي الالهي المحفوظ «القرآن» والسنّة، لوجدنا الصلة بينهما واضحة أما مَنْ لا يؤمن بالقرآن ولا يعترف إلّا بحقائق البحث

(٢١) مرقص: ١: ١٦.
(٢٢) عن الجفوة المفتعلة: ١٣.

المجرد فليس غريبا أن ينكر الأناجيل برمتها ويقول مثل قولة دائرة المعارف البريطانية هذه.

ولندع رأي المعاصرين ولنعد إلى القرن الأول الميلادي حيث احتمال وجود الإنجيل أقوى وأرجح ـ فماذا نجد؟ يقول آدم كلارك أحد شارحي الأناجيل:

«محقَّق أن الأناجيل الكثيرة الكاذبة كانت رائجة في أول القرون المسيحية وكثرة هذه الأحوال الغير صحيحة (كذا) هيَّجت لوقا على تحرير الإنجيل، ويوجد ذكر أكثر من سبعين من هذه الأناجيل الكاذبة، والأجزاء الكثيرة من هذه الأناجيل باقية، وكان «فابري سيوس» جَمَع الأناجيل الكاذبة وطَبَعها في ثلاث مجلدات»[٢٣].

هكذا قفز العدد من واحد إلى سبعين، والمسيحية لا تزال في مهدها، مما دفع لوقا إلى كتابة إنجيله، فأي هذه الأناجيل يا ترى الإنجيل الحقيقي الموحى إلى المسيح ما دمنا مسلمين بأن الله لم ينزل إليه إلاّ إنجيلاً واحداً؟

إن لوقا نفسه ليفسح لنا الطريق إلى الحقيقة النيِّرة التي تهدم الأناجيل كلها ــ ومنها إنجيله ــ وها هي ذي مقدمة إنجيله تنطق بها.

يقول لوقا في المقدمة: «إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كلما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة؛ رأيت أنا أيضاً، إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق، أن أكتب إليك على التوالي أيها العزيز تاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علمت به»[٢٤].

---

(٢٣) اظهار الحق: ٢٩٢. وانظر محمد رسولاً نبياً/عبدالرازق نوفل: ١٨٨.

(٢٤) صح: ١.

وعلى هذا فلا السبعون الكاذبة ولا إنجيله الصادق وحي من الله ولا أحدها هو منسوب إلى المسيح، بل الكل سير وقصص يكتبها أتباع المسيح عن حياته ودعوته كما سمعوها من أسلافهم الذي رأوا المسيح وخدموه، ولو استعرنا عبارة الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون لقلنا عن الأناجيل:

«هي مجموعة من الأوهام والذكريات غير المحققة التي بسطها خيال مؤلفيها»[25]. إن أشبه الكتب الإسلامية بالأناجيل، من جهة موضوعها لا من جهة ثبوتها، هي كتب السيرة. . فهل يمكن بأي حال من الأحوال القول بأن سيرة ابن هشام مثلاً وحي منزل من الله؟ إن هذا لمحال شرعاً وعقلاً، فكيف وسيرة ابن هشام مقطوع بنسبتها إلى مؤلفها ومتصلة السند بصاحب السيرة صلى الله عليه وسلم ومحفوظة بأصلها العربي، لم تتعاورها الترجمات، كما هو الحال في الأناجيل، كما أنها لم تفرض بسلطة قانونية أو كهنوتية وإنما أقرها البحث والتدقيق، وكم من علماء مسلمين بلغوا ذروة العبادة والورع لا يعتد الباحثون المسلمون من رواياتهم بشيء لأن شروط التحقيق العلمي لم تتوفر فيهم، أما الكنيسة فلا يكاد راهب ينقطع في صومعة أو عابد يتظاهر بحب المسيح حتى تقول أنه «مملوء بالروح القدس»، وتمنحه لقب «رسول» أو «قديس»، وتعدّ كلامه وحياً ملهمًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولذلك فليس غريباً أن يكون لدى الكنيسة مئة وعشرون رسولاً[26] يؤخذ كلامهم ـ على علاته ـ قضايا مسلَّمة، وتقدس رسائلهم، كما تقدس الأناجيل.

تلك حصيلة المسيحية في قرونها الثلاثة الأولى: سبعون إنجيلاً

---

(٢٥) حياة الحقائق: ٦٢.

(٢٦) انظر أعمال الرسل من العهد الجديد صح: ١

يكذب بعضها بعضاً، ومئة وعشرون رسولاً، منهم من ألَّف أناجيل، ومنهم من كتب رسائل، ومنهم من كان يكرز (يعظ) من حفظ ومعلوماته. وطوائف وفرق تجل عن الحصر تختلف في قضايا أساسية بالغة الأهمية، وكان عام (٣٢٥) يمثل معلمًا من معالم التاريخ البارزة، ففيه عُقِد مجمع نيقية الذي ابتُدئت به صفحة جديدة في تاريخ الديانات العالمية. وأن هذا المجمع ليستحق أن يقف عنده المرء طويلاً.

إن أي مجمع أو مؤتمر يجب أن تتوفر فيه شروط خاصة ــ لا سيما إذا كان دينياً ــ ومن أوجب هذه الشروط:

١ ــ حرية البحث والمناظرة، سواء في جدول أعماله أو صيغة قراراته، فلا تكون هنالك سلطة قاهرة تفرض على المجتمعين موضوعاً أو قراراً بعينه مما كانت.

٢ ــ نزاهة القصد وروح التفاهم، بأن يكون الوصول للحق هدفاً مشتركاً بين المجتمعين بدون تعصب أو إصرار.

٣ ــ إتخاذ قرارات سائغة ومنطقية مع اعتراف مقرريها بأنها عرضة للخطأ والصواب وقابلة للنقاش، وإلَّا جاز اتهامهم بالاستبداد الفكري.

وهذه الشروط ــ مع الأسف ــ مفقودة كلياً في هذا المجمع «المقدس»:

فأولاً ــ لم يكن سبب انعقاده ذاتياً نابعاً من الأساقفة أنفسهم، بل إن الامبراطور الروماني «قسطنطين» هو الذي دعا إلى انعقاده، وهو رجل وثني ظل وثنياً إلى أن عُمِّد وهو على فراش الموت[٢٧].

وثانياً ــ حضر المجمع ألفان وثمانية وأربعون من البطاركة

---

(٢٧) انظر اضمحلال الامبراطورية الرومانية: جيبون ١/٥٦٤.

والأساقفة يمثلون مذاهب وشِيَعاً متناحرة، أبرزها فرقتان:

١ ـ **الموحدون**، كما يدعون، أتباع آريوس، وكان عددهم يقارب سبعمئة عضو.

٢ ـ **الثالوثيون**، أتباع بولس، وكان عددهم حوالي ثلاثمئة وثمانية عشر عضواً.

ومعلوم أن وثنية قسطنطين ثالوثية، وهذه في حد ذاتها تمثل قوة معنوية للثالوثيين، فكيف إذا أضيف إلى ذلك أنه جمع الثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً في مجلس خاص وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه وسيفه وسلمه إليهم، وقال: «قد سلطتكم اليوم على مملكتي..»

وثالثاً ـ لم تكتف قرارات الجمع بالتحيز لقسطنطين ودعاة التثليث، بل لعنت وحرمت من يخالف هذه القرارات، والحرمان عقوبة لها حجمها الكبير في المسيحية[٢٨].

وأبرز قرارات المجمع القرار الذي اتخذه بشأن الأناجيل، وهو أن الأناجيل المعتمدة الصحيحة هي الأناجيل الأربعة المنسوبة لـ «متى، لوقا، مرقص، يوحنا»، وأما ماعداها فمزيف مكذوب تحرم قراءته ويجب حرقه وإبادته. وهذا بلا شك قرار جائر بحق الدين والتاريخ، ويستطيع المرء أن يحمل المجمع، أو هذا القرار خاصة، مسؤولية ضياع النسخة الأصلية من الإنجيل المنزَّل، لا سيما وأن الناظر إلى هذه الأناجيل يجد بينها من التضاد الشكلي والموضوعي ما يؤكد أنها ليست وحياً، بل ليست سيرة صادقة للمسيح عليه السلام.

---

(٢٨) انظر ما نقله الشيخ أبوزهرة عن ابن البطريق: محاضرات في النصرانية: ١٤٤ وقد اكد جيبون تدخل قسطنطين المباشر في المؤتمر وفرضه لقراراته بالقوة: ١/٦٢٦/٦٢٧.

إن اختيار أربعة مؤلفات من بين سبعين مؤلفاً مع عدم إبداء أسباب تبرر ذلك، لهو إجراء قسري، يعبر عن روح الرعونة والصلف اللذين لم ينفكا عن الكنيسة في أية حقبة من تاريخها، ولذلك فليس عجيباً أن يعاملها العاقون من أبنائها بمثل ذلك التطرف والغلو. وليت الأمر اقتصر على هذا، لكن الكنيسة لم تحفظ الأناجيل الأربعة نفسها من التحريف بعد أن فرضتها على أتباعها، وكان للأباطرة دخل في هذا التحريف، ولا لوم عليهم فإنما قلدوا الكنيسة في ذلك. يقول «لاندر»، أحد مفسري الأناجيل:

«حكم على الأناجيل المقدسة لأجل جهالة مصنفيها بأنها ليست حسنة بأمر السلطان أناسطيوس في الأيام التي كان فيها «مسالة» حاكماً في القسطنطينية فصححت مرة أخرى»[٢٩]. وهذا القول اعتراف بالغ الخطورة، فهو يقرر ثلاث حقائق تاريخية:

١ ــ أن مؤلفي الأناجيل مجهولون، وظلوا كذلك حتى القرن الرابع الميلادي.

٢ ــ أن لأهواء الحكام وميولهم يداً فيما تعرضت له الأناجيل من تحريف باسم التصحيح.

٣ ــ أن التحوير والتعديل ظل يمارس في الأناجيل دون شعور بالحرج، مما يدل على أنه عادي مألوف. وقد أورد الشيخ «رحمة الله الهندي» خمسة وأربعين شاهداً على التحريف بالزيادة في الأناجيل، مدعمة بالوثائق والاعترافات، نختار واحداً منها للتمثيل فقط:

«الآية الثالثة والخمسون من الباب السابع واحدى عشرة آية من

---

(٢٩) اظهار الحق: ٢٩٦.

الباب الثامن من إنجيل يوحنا إلحاقية (مضافه) قال هورن في الحاقية هذه الآيات: أرازمس وكالوين وبيزا وكروتيس و . . . والآخرون من المصنفين الذين ذكرهم ونفينس وكوجز لا يسلمون صدق هذه الآيات». . ثم قال:

«كرايز ستم وتهيو فلكت ونونسي كتبوا شروحاً على هذا الإنجيل، فما شرحوا هذه الآيات، بل ما نقلوها في شروحهم. وكتب ترتولين وساي برن في باب الزنا والعفة وما تمسكا بهذه الآيات ولو كانت هذه الآيات في نسخهما لذكرا أو تمسكا بها يقيناً».

وقال وارد كاتلك: «بعض القدماء اعترض على أول الباب الثامن من إنجيل يوحنا وحكم نورتن بأن هذه الآيات إلحاقية يقيناً»(٣٠).

فهذه اثنتا عشرة فقرة، يكاد يكون هناك إجماع على إضافتها، وغيرها كثير، ولا غرابة في ذلك، فليس لدينا حد فاصل بين كلام الله وكلام البشر، بل ليس هناك ضابط يعرف به كلام المسيح من كلام غيره، فالشك وارد على كل فقرة في الأناجيل إلى درجة أن أعظم المتعصبين لها لا يستطيع إقناع الباحث العلمي بسوى ذلك.

---

(٣٠) اظهار الحق: ٢٦٤.

ثانيًا: تحْرِيفُ الشَّرِيعَة

فصل الدين عن الدولة:

يحسن بنا قبل الخوض في هذا الموضوع أن نوطىء له بمقدمتين:

الأولى: عن الدين في نظر الروم طبيعته والتزاماته.

والثانية: عن حالة الشريعة الإنجيلية ومدى تطبيقها في واقع الحياة قبل أن يعتنقها الروم رسمياً.

أولاً ـ الدين في نظر الرومان:

نستطيع أن نقول إن المجتمع الروماني (أي الجنس الأبيض المستعمر) لم يكن له دين موحد يتعبد به، ولا فلسفة واحدة يؤمن بها، بل كان غارقاً في دياجير جاهلية كالحة متعددة الألوان مختلفة الأنحاء؛ فالطبقة الحاكمة تشارك الشعب في أعياده الوثنية وتخدم تماثيل الآلهة الكثيرة، بيد أنها لا تدين في الواقع بغير الشهوة العارمة للتسلط والرغبة الجامحة في الاحتفاظ بكرسي المملكة، لا سيما وأن الامبراطور نفسه كان «الهاً» يعبده الشعب.

أما الطبقة المثقفة فأشتات متفرقة، منها أتباع المدرسة الرواقية الموغلة في التجريد والتصوف، ومنها مريدو المدرسة الأبيقودية المفرطة

في البهيمية والحسيات، ومدارس أخرى متأثرة بالفلسفات والوثنيات الاغريقية في تصوراتها وأفكارها.

أما طبقة العامة من الشعب فهي بفطرتها تميل إلى التدين لكن التناحر المزمن بين الآلهة والصراع المرير بين الفلاسفة، أفقداها الثقة في المعتقدات الدينية والفلسفية بجملتها، فآثرت الاستجابة لداعي الهوى والانصياع إلى الملذات الجسدية والإغراق في المتع الحسية.

وخلاصة القول أن الروم لم يعتنقوا ديناً اعتناقاً جدياً يجعلهم يستمدون تصوراتهم وعقائدهم ونظام حياتهم منه وحده، نعم كان لهم آلهة ولكنها آلهة تقليدية «لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية، لقد كانت أشباحاً سكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعي ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل في أمور الحياة الحقيقية»[1].

وعليه نستطيع أن نجزم بأن المجتمع الروماني كان مجتمعاً مادياً لا دينياً يعاني عزلة حادة بين معتقداته ـ أياً كانت ـ وبين واقع حياته العملي.

وقد عبر «سيسرو» عن الانفصال العميق بين الدين ونظام الحياة العام عند الرومان بقوله: «لما كان الممثلون ينشدون في دور التمثيل أبياتاً معناها أن الآلهة لا دخل لهم في أمور الدنيا يصغي إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة»[2].

ويقول الراهب «أوغسطين»: «إن الروم الوثنين كان يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزأون بهم في دور التمثيل»[3]. ليس هذا

(١) الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد: ٣٨.

(٢، ٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: الندوى: ١٦٣.

فحسب، بل أن أبيقور (ق ٤) قبل الميلاد ـ ليعلن على الملأ دعوة علمانية صريحة، فهو يقول:

«إن الآلهة لا يشغلون أنفسهم بأمور بني البشر، نعم إنهم موجودون لأنهم يظهرون من آن لآخر للأشخاص (!) بيد أن مسائل العالم الأرضي لا تعنيهم، وما من علامة تدل على أنهم يعنون بعقاب الآثم وإثابة الصالح، أيمكن اعتقاد تدخلهم هذا مع ما نراه في هذا العالم؟

«إن جوبيتير يرسل الآن بالصواعق على معبده، فهل سحق أبيقور الذي يجدف به»؟

«إن الآلهة يعيشون بعيداً عن العوالم ولا يهتمون إلَّا بشؤونهم فلا تعنيهم أمورنا. إنهم يعيشون حكماء سعداء ويعظوننا بهذا المثال الذي يجب أن نسير على منواله فلنعظهم كمُثُل عليا يقتدى بها، غير أنه يجب علينا ألَّا نشغل أنفسنا بما يريدونه منا، فإنهم لا يريدون منا شيئاً، هم لا يعيروننا بالاً فلنفعل نحوهم كما يفعلون نحونا»[٤].

هذا التصور للآلهة تشترك مع أبيقور فيه الغالبية العظمى من الرومان، ومن الطبيعي جداً أن ينشأ عن هذا التصور الخاطىء للاله تصوُّر خاطىء لمهمة الدين في الحياة وواجب المخلوق تجاه خالقه. ولما كان الصراع هو التصور المشترك لطبيعة الحياة عند الرومان، فقد كانوا يتصورون الآلهة وهي تتصارع في الفضاء كما يتصارع أبطالهم على الحلبة، وليس من شأن البطل أن يشرع للجمهور بل كل همه أن يخرج من الحلبة ظافراً منصوراً.

وبما أن آلهة الرومان بطبعها لم تكن لتشرع لهم شيئاً، فقد كان

---

(٤) المشكلة الاخلاقية والفلاسفة، كرسون: ٦٧.

من الضروري أن يقوم بشر متألهون بمهمة وضع نظم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة، ونتيجة لجهود هؤلاء برز إلى الوجود «القانون الروماني» الذي لا تزال اوروبا تعيش عليه أو على امتداده إلى اليوم، أما النظم الأخلاقية وقوانين الآداب العامة ــ إن وجدت ــ فقد كانت أبيقورية محضة.

وهكذا كان للرومان دين لكنه دين وجداني مجرد لا تأثير له في السلوك العملي ولا يفرض التزامات خلقية معينة، ولا ينظم من شؤون الحياة شيئاً، حتى إننا لنكاد نقول أن الامبراطورية الرومانية نسخة قديمة من الولايات المتحدة الأميركية اليوم.

كان الفرد الروماني ــ كالأميركي اليوم ــ يخرج من نحلة إلى أخرى، وينتقل من مبدأ إلى نقيضه دون أن يطرأ على حياته العملية وسلوكه الشخصي أي تغيير فالدين في نظره فكرة مجردة وعقيدة وجدانية فحسب.

ثانياً ــ حالة الشريعة الإنجيلية إلى سنة ٣٢٥م:

ليس الإنجيل أول كتاب سماوي أنزله الله ولا هو حتماً آخر كتاب، فهو واحد من مجموعة كتب ابتدأت قبل المسيح بقرون وانتهت بالكتاب الخاتم المنزَّل على الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم.

ومهمة الكتاب السماوي وغاية إنزاله بينها الله تعالى في القرآن الكريم أوضح بيان: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ (٢ ــ ٢١٣)، فالحكم بالكتاب في كل اختلاف وتطبيقه في كل منحى من مناحي الحياة واستمداد كل القيم والقوانين والأنظمة والتشريعات منه هو الغرض المقصود من إنزاله، والكتب السماوية هي ــ كما في الآية ــ كتاب واحد بالنظر إلى أن منزلها واحد

وموضوعها واحد، وهو تقرير حقيقة واحدة لا تختلف أبداً هي توحيد الله وعبادته وحده بالمعنى الواسع الشامل للعبادة، هكذا كانت التوراة ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ (٧ : ١٥٤)، فهي شريعة كاملة بالنسبة لعصرها قام عليها دول تملك خصائص الدولة في ذلك العصر وكان بعض ملوك هذه الدول من أمثال داود وسليمان عليهما السلام أنبياء يحكمون بما أنزل الله ويقيمون الحياة كلها على شرعه وأمره. وظلت التوراة ما شاء الله أن تظل منهاجاً وشريعة ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار﴾، (٥ : ٤٣) فما كان يجوز لمؤمن بها أن يستمد تصوراته وأفكاره ولا سلوكه وتشريعاته من سواها.

أما ما وقع في حياة بني إسرائيل مما يخالف هذا فهو انحراف لا يقره الله ولا تقبله شريعته. ثم جاء عيسى عليه السلام «رسولاً إلى بني إسرائيل»، وهو آخر رسلهم ليصلح ما فسد ويقيم ما اعوجّ من عقائد وأخلاق اليهود، وليردهم إلى الأصل الثابت: توحيد الله وعبادته وحده بتحكيم شرعه واتباع منهجه.

وبما أنه مبعوث إلى بني إسرائيل خاصة، فلم يكن ناسخاً لشريعة موسى وإنما كان متمًا لها، وكان الانجيل مصدقاً لما بين يديه وإن لم يكن مهيمناً عليه[٥].

وكان الجديد في شريعة الإنجيل التخفيف من بعض التشريعات التي لم تنزل شرعاً دائمًا وإنما جاءت عقوبة مؤقتة لليهود، مع اشتماله على مواعظ بليغة اقتضاها ما جبل عليه اليهود من غلظة في القلوب

---

(٥) يقول انجيل متى عن المسيح «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل» ٥ : ١٨.

وجفاف في الأرواح وإغراق مفرط في عبودية المادة وحرص مصرّ على التشبث بالحياة الدنيا.

إذن فقد كانت التوراة، مضموماً إليها تعديلات الإنجيل، شريعة يجب أن تطبق، وعقيدة يجب أن ينبثق منها كل منهج للحياة: ﴿وقفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ (٥: ٤٥ ــ ٤٦)، لكن الذي حدث هو أن هذه الشريعة لم يكتب لها التطبيق على المستوى العام لسببين متلازمين:

الأول ــ انه لم يقم لها دولة تتبناها وتقيمها في الأرض، إذ من المعلوم أن عيسى، عليه السلام، توفاه الله ورفعه إليه وهو لم يزل في مرحلة الدعوة التي تشبه حال الدين الإسلامي قبل الهجرة.

والثاني ــ انه، عليه السلام، قد بعث إلى قوم قساة القلوب غلاظ الأكباد، وفي الوقت نفسه كانت المنطقة المبعوث فيها جزءاً من مستعمرات امبراطورية وثنية عاتية، فكان ميلاد الدين الجديد في محيط معاد كل العداء له ولرسوله ونتج عن ذلك اضطهاد فظيع للمؤمنين به لم يدع لهم فرصة لتطبيقه إلا في النطاق الشخصي الضيق.

وكان أول من وضع العراقيل أمام دعوة المسيح وشريعته اليهود قتلة الأنبياء، وتكاد الأناجيل والرسائل تكون وصفاً للعنت الذي لقيه المسيح وأتباعه من الطوائف اليهودية، وقد جللوا عدواتهم بإغراء الحاكم الروماني بقتله وصلبه، ولكن الله تعالى رفعه إليه ونجّاه منهم ومنه.

وبعد وفاة المسيح، عليه السلام، اشتدت المحنة على أتباعه من اليهود والرومان سواء.

أما اليهود فكانوا كما تحدثت رسالة «أعمال الرسل» يقتلون المسيحيين ويرجمونهم ويغرون بهم الولاة... وكان من أبرز المضطهدين لهم شاؤل اليهودي، الذي تقول عنه الرسالة المذكورة:

«أما شاؤل فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجر رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن»[٦]، على أن أعظم محنة نزلت بالمسيحية عقيدة وشريعة ــ هي عملية «الغزو من الداخل» التي قام بها شاؤل: فقد تظاهر باعتناق المسيحية وجاء بتعاليم مناقضة سبق ذكر بعضها، وأخذ يؤلب على المسيحيين الحقيقيين، وبذلك أحدث فوضى عقائدية وبلبلة فكرية، فتضاعفت البلاء على المسيحيين، إذ أصيبوا في دينهم وأنفسهم دفعة واحدة.

وأما الرومان فقد أنزل أباطرتهم بأتباع المسيح أشد الأذى، واشتهر باضطهادهم (نيرون ــ ٦٤م) و(تراجان ــ ١٠٦) و(ريسيوس ــ ٢٥١) و(دقلديانوس ــ ٢٨٠)، وبلغ بهم الاضطهاد إلى درجة أن بعض الأباطرة كانوا يضعون المسيحيين في جلود الحيوان ويطرحونهم للكلاب فتنهشهم، أو يلبسونهم ثياباً مطلية بالقار ويوقدونها لتكون مشاعل بشرية يستضيئون بها في مراقصهم[٧]. وفي وسع المرء أن يدرك الحال التي تكون عليها شريعة يضطهد أتباعها ثلاثة قرون ويطاردون في معتقداتهم وأفكارهم هذه المطاردة، كيف يمكن أن تقوم عليها دولة تنافح عنها وتلتزم بتعاليمها وتثبت للعالم أنها شريعة كاملة.

---

(٦) صح ٨: ٤.

(٧) انظر محاضرات في النصرانية: ٣٢، وتاريخ العالم فصل: ٢١ واضمحلال الامبراطورية الرومانية: فصل ١٥.

وإذا اتضحت لنا هاتان الحقيقتان، نعود إلى فصل الدين عن الدولة الذي مارسته الامبراطورية الرومانية والكنيسة ابتداءً من سنة (٣٢٥).

إن الكنيسة لتهتز طرباً إذا ذكر لها عام (٣٢٥)، فهو يمثل في نظرها عام النصر الحاسم على أعداء المسيح وبداية العصر الجديد ـ عصر السيادة والحرية ـ بعد عصر الاضطهاد والهوان.

لقد حصلت الكنيسة على ما لم يكن ليحلم به آباؤها الأولون.. فبينما عاش المسيح والتلاميذ تحت تهديد الوالي الروماني ينظرون إلى الامبراطورية الفسيحة نظر من لا يطمع منها بشيء، نرى الكنيسة في القرن الرابع تظفر بالامبراطور نفسه صيداً ثميناً وتعمّده بالماء المقدس إيذاناً بدخوله دين المسيح.

إن هذا النصر كبير، بل كبير جداً في حس الكنيسة وأتباعها، لكن الكنيسة نسيت ـ وما أكثر ماتنسى ـ قولة المسيح الصادقة: «ماذا ينتفع الإنسان إذا ربح العالم كله وخسر نفسه»[٨]. فماذا ينفع الكنيسة إذا ربحت قسطنطين وامبراطوريته وخسرت دينها وتعاليمها؟

لو أن الكنيسة ربانية حقاً لكان أول عمل عملته بعد انقضاء عهد الاضطهاد المرير هو البحث عن ذاتها هي، ببعث الإنجيل الأصلي ونشره وتحكيمه في شؤون الحياة، وكان في إمكانها أن تقنع الامبراطور: فإما أن يقبل ذلك فيكون نصرانياً على الحقيقة، وإلا فلتكتف منه بصداقته ورعايته وتمارس تطبيق شريعتها على أتباعها الحقيقيين في ظل عطف الامبراطورية. ذلك ما كان مفروضاً أن تضطلع به الكنيسة وأن يرضاه الامبراطور ويتقبله. غير أن الذي

---

(٨) متى ١٦: ٢٧.

حصل فعلا هو أنه لا الكنيسة كانت مؤمنة جادة تطمع في هداية الناس ابتغاء مرضاة الله والدار والآخرة، ولا قسطنطين كان مؤمناً جاداً يريد أن يخلع عن عنقه ربقه الوثنية ليخلص دينه لله ويقف بين يديه وقوف العابد أمام المعبود.

إن الرابط الذي جمع الكنيسة بالامبراطور هو رباط المصلحة الدنيوية لكلا الطرفين لا غير، وإن كانت مصلحة الامبراطور أرجح وتنازله أرخص.

يقول «درابر»:

«إن هذا الامبراطور الذي كان عبداً للدنيا والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئاً رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين.. النصراني والوثني؛ أن يوحدهما ويؤلف بينهما، حتى أن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طُعِّمَت ولُقحت بالعقائد الوثنية القديمة، وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها»[9].

كما أدرك هذه الحقيقة المؤرخ الانجليزي «ويلز»، فقد شرح بدقة حال الامبراطورية معللاً اعتناق قسطنطين للمسيحية وإعلانها ديانة رسمية بأنه محاولة منه لإنقاذ امبراطوريته المتضعضعة من التفكك والانحلال[10]، وهو ما قال به جيبون من قبل[11].

هذا بالنسبة للامبراطور، أما الذين اعتنقوا المسيحية من المواطنين الرومان فلم يتغير تصورهم السابق عن الدين ومهمته في

---

(٩) عن ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ١٦٧.

(١٠) انظر معالم تاريخ الانسانية: ٣: ٧١٨ ـ ٧١٩.

(١١) انظر اضمحلال الامبراطورية الرومانية: الفصل العشرون.

الحياة، وكان التغيير الذي طرأ عليهم هو إحلال مسمى «الاب والابن وروح القدس» محل «جوبيتر، ومارس وكورنيوس» فما كانوا ينتظرون من آلهة بولس وكنيسته من تشريع وتوجيه إلا ما يُنتظر من آلهتهم الجامدة الشاحبة، ولم يكن مقام الأب الذي نادت به الكنيسة ليزيد عن مقام جوبيتر الذي صوره أبيقور.

وهكذا لم تستطع الكنيسة بتصورها الفاسد أن تقتلع جذور الوثنية المتغلغلة في أعماق النفس الرومانية، ولا أن تسمو بتلك النفوس من عالم الملذات الجسدية إلى عالم الفضيلة والطهر ــ باستثناء القلة التي ترهّبت ــ ولقد عبر أحد المؤرخين الغربيين عن ذلك بقوله: «إن المسيحية لم تكن عند أكثر الناس غير ستار رقيق يخفي تحته نظرة وثنية خالصة إلى الحياة»[١٢].

وإذ قد عجزت عن ذلك، فمن الطبيعي أن تعجز عن إقامة الحياة: بنظمها وقيمها وأخلاقها على أساس من الدين، وبقي الدين كما كان هواية شخصية محدودة التأثير لم يتغير فيه، إلّا أن المراسم الشكلية كانت تؤدى في معابد فأصبحت تؤدَّى في كنائس. ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إن الكنيسة تزحزحت عن مركز التأثير إلى مركز التأثر، فدخلت الخرافات والأساطير والتقاليد الوثنية في صلب تعاليمها وطقوسها، وامتزجت بروايات الأناجيل وآراء المجامع المقدسة، كما حصل امتزاج وتلاقح بين الشريعة والقانون الروماني فأصبحت المسيحية ديانة «تركيبية» كما وصفها لوبون[١٣]. وهذا الضلال والخطل الذي وقعت فيه الكنيسة لا يبرره ما ذهب إليه ليكونت دي نوي، حين قال: «قبل الدين الكاثوليكي الذي نشأ على شواطىء المتوسط ذات

(١٢) تاريخ العالم: ٤/ ٣٣٠.

(١٣) حياة الحقائق: ٦٨.

المخيلة الواسعة بعض العادات لأنه لم يجد إلى إزالتها سبيلاً. وانتهت ـ أي الكنيسة ـ مرغمة إلى قبول المساومة وقد طغت عليها أمواج الخرافات القديمة الجارفة»[١٤]، فالمؤمن الحق لا يقبل المساومة على دينه مهما قست الظروف والأحوال.

كما لا يبرره من باب أولي ما ذهب إليه فشر في قوله:

«إن حكمة الكنيسة المسيحية هدت آباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا له منعاً من قديم العادات والتقاليد والمعتقدات، بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط وتطويع ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها»[١٥].

قد يكون جرم الكنيسة أهون لو أنها عدت عملها هذا تصرفاً استثنائياً مؤقتاً تفرضه عليها الضرورة الطارئة، ثم لا تلبث الشريعة أن تبرز إلى حيز التنفيذ على كل نشاطات الحياة. غير أن الذي تمّ فعلاً هو أنها اتخذت ذلك قاعدة ومنهجاً وسارت فيه إلى أبعد شوط.

وكان أول من سن سنة التنازل عن الشريعة مقابل قبول العقيدة هو شاؤل «بولس» يقول برنتن:

«كانت العقبة الكبرى في وجه الأمميين الذين وجدوا أسلوب الحياة المسيحية جذاباً قانون اليهود» ـ أي شريعة التوراة ـ ثم يشرح برنتن كيف أن بولس زال هذه العقبة فأفتى بأن «الاغريق والمصريين والرومان الذين يقبلون المسيحية في حل من الختان وفي حل من التقيد بحرفية القانون»[١٦]. وبمرور الزمن أصبح هذا الانحراف منهجاً

(١٤) مصير الإنسان: ٢٥٢، ٢٥٥.

(١٥) تاريخ أوروبا العصور الوسطى: ١/ ٨٠.

(١٦) أفكار ورجال: ١٨١.

مقرراً اعتمدته الكنيسة بعد مجمع نيقية ففصلت بين العقيدة وبين الشريعة، بين الدين والدولة وقسمت الحياة البشرية دائرتين مغلقتين:

الأولى ـ «دينية» من اختصاص الله ويقتصر محتواها على نظام الاكليروس والرهبنة والمواعظ وتشريعات طفيفة لا تتعدى الأحوال الشخصية.

والأخرى ـ «دنيوية» من اختصاص قيصر وقانونه، ويحوي محيطها التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلاقات الدولية ونظم الحياة العامة.

هذه القسمة الضيزى لم تجد الكنيسة غضاضة فيها، ولم تتحرج من جعل قيصر شريكاً لله في ملكه، بل أعظم من شريك، فقسمت الكون شطرين: شطر لله وشطر لقيصر، فما كان لله فهو يصل إلى قيصر وما كان لقيصر فلا يصل إلى الله.

ويرى بعض المؤرخين أن السبب الذي أوقع الكنيسة في ذلك هو نظرتها القاصرة إلى الحياة الدنيا.. يقول صاحب «تاريخ أوروبا في العصور الوسطى»: «إن المسيحيين الأولين على وجه الإطلاق لم يعمدوا إلى شيء من الإصلاح في المجتمع الروماني الذي نبتوا فيه برغم ما هو معروف من تحريمهم لكثير من العادات والطقوس القديمة، ولم تكن لهم فلسفة في الدولة وأصول الحكم ولا الايمان بتجديد المجتمع من طريق الانشاء والتنظيم، ولم يخطر ببال أحد منهم أن في استطاعة جماعاتهم الصغيرة البعيدة عن السلطة والنفوذ أن تحدث بالسياسة الرومانية أو المجتمع الروماني شيئاً من التعديل، ذلك أنهم أيقنوا أن الدنيا متاع الغرور والشرور وتعلموا أن الانسان طريد جنة الخلد وحق عليه العذاب المقيم.

«وتعلموا كذلك أن هذه الدنيا الغرارة لن تلبث حتى تزول وإن رجعة المسيح إلى الأرض، وهي ما اعتقدها الناس وشيكة الوقوع، سوف تملأ الدنيا عدلاً بعد ما ملئت ظلمًا وجوراً وخبثاً ونقصاً يمحوه كله المسيح محواً، وإذا كان كذلك فما الذي يحمل المسيحي على إلغاء الرق أو الحرب أو المتاجرة في المحرمات أو الربا أو استعمال القوة الغاشمة التي ساعدت الدولة الرومانية على النهوض ما دام ذلك كله مقضياً عليه بالزوال، وما دامت المشكلة الكبرى تنحصر في الوسيلة الواقية من العذاب الذي كتبه الله على الناس جزاءً وفاقا لما ارتكبه آدم من الخطيئة في جنة الخلد، ولذا رضي المسيحيون بجميع ما وجدوا من نظم لا قبل لهم بتغييرها»(١٧).

وهذا التعليل مصيب، لكنه لا يمثل الحقيقة كاملة، فإن للكنيسة مستندات نقلية من نصوص الأناجيل لا بد من عرض نموذج لها ومناقشته، وأهمها نصان:

١ ـ **القول المنسوب للمسيح «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله»**:

هذا القول هو أقوى وأصرح حجج الكنيسة، ولقد ظل شعاراً ترفعه أوروبا كلما أملى عليها الهوى أن تخالف منهج الله وتتمرد على شرعه، وبفضل هذا الشعار أخذ الدين ينكمش وينحسر على مر القرون حتى لم يبق له في أحسن الأحوال إلا ساعة في الأسبوع خاوية من كل معنى. فما قيمة هذا الدليل بالنظرة العلمية المنصفة؟

لقد سبق لنا أن قلنا إن كل ما روي عن المسيح من أقوال ليست منسوبة إليه يقيناً، بل ولا ظناً راجحاً؛ فالكنيسة بدلت وحرفت وأضافت وحذفت حتى طمست تعاليمه واقواله ودفنتها إلى الأبد، وهذا القول مما يجوز أن يقال فيه ـ مبدئياً ـ إن المسيح لم يقله وإنه من

---

(١٧) ٢/ ١٠٩ ـ ١١٠.

إضافات الكنيسة، وما دام البحث العلمي يقرر أن الأناجيل كلها ظنية الثبوت ظنية الدلالة فكيف يسوغ للكنيسة أن تحتج بهذه الظنيات في مسألة بالغة الخطورة كهذه؟

ولندع القيمة العلمية التاريخية للنص وننظر نظرة موضوعية فاحصة في منطوق العبارة ومدلولها فماذا نجد؟

إن هذه العبارة ظاهرها الأمر الصريح بالشرك «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فهي تجعل قيصر شريكاً لله في التوجه إليه بالعمل، ومن ينفذها على ظاهرها يقع حتماً في شرك الطاعة والاتباع وهو شرك أعظم، لتنافيه مع توحيد الألوهية، وهذه الدلالة تكفي لنفي صدور العبارة من المسيح عليه السلام، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا لتحذير الجماعة البشرية من الشرك وتنفيرها منه جليله ودقيقه، فكيف يأمر نبي من أنبياء الله من أولي العزم بالشرك ويدعو إليه بهذه الصورة؟

وهذا في الحقيقة كافٍ لاسقاط حجية العبارة لكننا سنجامل الكنيسة ونجري مع احتمالها الضعيف جداً مفترضين جدلاً ان المسيح عليه السلام تفوه بما نسب إليه، فهل يعني ذلك أن نفهم من العبارة ما فهمته الكنيسة من ظاهرها ونتخذ من فهمنا هذا قاعدة هي أعظم القواعد الكنسية العملية على الاطلاق؟ لنتتبع معها سياق العبارة فقد يعين على فهمها ــ ان قبلت ــ على حقيقتها:

يقول متي في انجيله:

«ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة، فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودوسيين قائلين: يا معلم انك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، فقل لنا ماذا تظن: أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم وقال:

لماذا تجربونني يا مراؤون، أروني معاملة الجزية، فقدموا له ديناراً، فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة، قالوا له: لقيصر. فقال لهم أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله. فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا»(١٨).

كان المسيح عليه السلام وأتباعه قلة مضطهدة تتبنى دعوة جديدة ناشئة، فلم يكن في مقدورها ان تصطدم بالامبراطورية الطاغية، وتواجهها بعداوة سافرة، ولم تكن هذه المواجهة مطلوبة منها وهي لا تزال في طور الدعوة ـ يقابل ذلك في الاسلام فترة ما قبل فرض الجهاد ـ وهذا الطور يقتضي الالتزام بمبدأ «كفوا أيديكم» كيلا يستثار عدو باطش فيفتك بالدعوة في مهدها.

هذا المنهج في الدعوة لاحظه الفريسيون ـ أعدى أعداء المسيح ـ فسولت لهم انفسهم الحاقدة أن يدبروا مكيدة للمسيح ودعوته، بحيث تخرج الدعوة عن منهجها ومسارها المقرر وتناوىء الأوضاع القائمة مباشرة وبذلك يجدون طريقة للإيقاع بالمسيح لدى الحاكم الروماني فكان هذا السؤال الخبيث.

والواقع انه ليس في استطاعة المسيح ـ عليه السلام ـ والقلة المسلمة معه ولا من منهج دعوته ان يرفضوا دفع الجزية للجابي الروماني الذي يجمعها من كل رعايا الامبراطورية ويدفعها للطاغوت قيصر، ولكن هذا لا يعني أبداً ان المسيح عليه السلام يقر ذلك الواقع الظالم، ويعترف لقيصر بحق مساواة الله في خلقه ويجعله شريكاً له في ألوهيته كما فهمت الكنيسة.

فالمسيح عليه السلام ـ لو صحت العبارة ـ وافق على اجراء مؤقت تقتضيه ضرورة الواقع وطبيعة الدعوة المرحلية.

---

(١٨) ٢٢: ١٤ ـ ٢٣، وفي مرقص ١٢: ١٤ ـ ١٨.

وإذا كانت دعوة الأنبياء في جوهرها واحدة، فإن أول فرض الجهاد في الإسلام كان إذناً وليس أمراً ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير﴾ (٢٢ : ٣٩)، وذلك أن القلة المسلمة في مكة كانت تطمح في الثأر لنفسها من الاضطهاد المرير الذي تلقاه من جبابرة مشركي قريش: كأن تغتال بعض المضطهدين مثلاً، أو تسلبهم شيئاً من أموالهم وراحتهم، واستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك فكان الأمر من الله بكف اليد ولذلك أجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم: «إني لم أومر بهذا»[١٩]، وذلك كي تظل الدعوة سائرة في منهجها المرسوم لا تستفزها تحركات الأعداء للايقاع بها وابادتها في مهدها.

ولو قدر للمسيح عليه السلام أن تبلغ دعوته من القوة ما بلغت الدعوة الاسلامية عند الاذن بالجهاد لأذن لقومه بأن يرفضوا دفع الجزية لقيصر، بل لأمرهم بجهاد الرومان وإشهار عدواتهم.

وبذلك يتضح أنه حتى في حالة ثبوت العبارة فانها ذات مدلول جزئي مؤقت في مسألة فرعية، ولا يجوز أن يستنبط منه قاعدة أبدية عامة يفضي تطبيقها إلى اهمال شريعة الله، والتخلي عن اقامة دينه في واقع الحياة، واقرار أحكام الطاغوت.

٢ ــ «مملكتي ليست من هذا العالم»:

بقطع النظر عن صحة نسبة هذه العبارة إلى المسيح عليه السلام أو عدمها، نجد أن الكنيسة فهمتها فهمًا خاصاً، وجعلت هذا الفهم منهجاً وأصلاً من أصول عقيدتها تقاوم بها الفطرة البشرية والعقل السليم والتطور الايماني المستقيم.

---

(١٩) انظر تفسير ابن كثير: ٣/٢٢٥، ١/٥٢٥.

فهمت الكنيسة من قول المسيح «مملكتي ليست من هذا العالم» إن كان قالها ـ أن الدنيا والآخرة ضرتان متناحرتان وضدان لا يجتمعان: الدنيا مملكة الشيطان ومحط الشرور والاثام، وعمل الانسان فيها لتحسين أوضاعه المعاشية ومحاولة تحقيق القسط الملائم من السعادة والرفاهية والتمتع بطيبات وخيرات الكون: كلها أعمال دنسة يمليها الشيطان ليصرف الانسان عن مملكة المسيح الخالدة «الآخرة» والفقر وشظف العيش ـ حسب المفهوم الكنسي ـ هما مفتاح الملكوت الضامن، وتنسب الأناجيل إلى المسيح قوله «إن مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»[٢٠]. وبمقتضى ذلك لا يسأل الانسان الله شيئاً من متاع الدنيا أو خيراتها العاجلة، بل يقتصر على ما طلبه المسيح حسب رواية الأناجيل «خبزنا كفافنا»[٢١].

والانسان ـ حسب هذا المفهوم ـ يولد موصوماً بالخطيئة الموروثة ويدخل إلى الدنيا دخول المجرم إلى السجن، وكما أن أباه أكل من الشجرة فعوقب بالطرد من الجنة وقضي عليه بالحرمان والنكد، فكذلك اذا تمتع بطيبات الدنيا وملاذها فسيعاقب بحرمانه من نعيم الملكوت.

إذا كان هذا هو حال الدنيا وحال الانسان فيها ففيم العناء لاصلاح ما وجد بطبيعته فاسداً وما جدوى تقويم ما خلق من أصله معوجاً؟ ليتحكم الجبابرة في الناس وليستعبدوهم وليعبثوا في الكون كما يريدون فسوف يحاسبهم المسيح يوم الدينونة! وليجمع الناس المال ويتمتعوا بالحياة الدنيا ويتزوجوا وينجبوا فسوف يحرمهم ذلك من الدخول في ملكوت الله والفوز في الملأ الأعلى. أما المسيحي الكامل

---

(٢٠) متى: ١٩/٢٥.
(٢١) متى: ٦/١٢.

الايمان فما له ولهذه الأمور؟ أليس كل همه الخلاص من هذا المأزق، مأزق وجوده على هذه الأرض في مملكة الشيطان؟

هكذا استخلصت الكنيسة من تلك العبارة وأشباهها مفهوماً سلبياً ضيقاً للحياة الدنيا، وبالتالي لمهمة الدين فيها، يائسة من إمكان إقامتها على الحق والعدل الالهي، فحرفت المسيحية من عقيدة شاملة ذات منهج رباني كامل، نزلت لتغيير الواقع الجاهلي المنحرف الذي يعيشه الناس واقامة واقع جديد تحكمه الشريعة المنزلة إلى نظرة بوذية قاصرة للدنيا، مشفوعة بآمال وأحلام مـرتقبة في الآخرة، ورأت أن تنظيم شـؤون الدولة وتقويم النظم السياسية والاقتصادية وإصلاح الأوضاع الاجتماعية ليس من دينها في شيء لأن مملكة المسيح ليست من هذا العالم.

ولا يعني هذا أن الكنيسة لم تمارس سلطات سياسية أو نفوذاً اجتماعياً، فقد كان منها ما لم يكن من أعتى القياصرة[٢٢]. . . لكن هذه الممارسة تظل محدودة بنطاق المطامع الشخصية لرجال الدين، وكانت الرغبة في اشباع هذه المطامع وليست الرغبة في اقامة دين الله وشرعه هما الدافع من ورائها، فكان البابا يهمه بالدرجة الاولى أن يتولى تتويج الملوك ويحصل منهم على الضرائب والجنود ولا يسمح بأدنى تساهل في ذلك، أما حكمهم بغير ما انزل الله فلا شأن له به لأن ذلك من اختصاص قيصر ولأن مملكة المسيح ليست من هذا العالم. والواقع ان هذه العبارة ــ كسابقتها ــ لا تنهض دليلاً لما زعمته الكنيسة، بل ان لها ان صحت معنى آخر يوضحه السياق، وها هو سياقها كما ورد في انجيل يوحنا:

«دخل بيلاطس أيضاً إلى دار الولاية ودعا يسوع وقال له: أنت

(٢٢) انظر الباب الثاني: فصل طغيان الكنيسة لا سيما الطغيان السياسي، ص ١٣٣.

ملك اليهود؟ أجابه يسوع: أمن ذاتك تقول هذا أم اخرون قالوا لك عني؟ أجابه بيلاطس: العلي أنا يهودي؟ أمتك ورؤوساء الكهنة أسلموك لي ماذا فعلت. أجاب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم لليهود ولكن الآن ليست مملكتي من هنا»[٢٣].

إن القضية لتبدو واضحة العيان: لقد دبر اليهود مكيدة أخرى، حيث رأوا أنه يمكن إيغار صدر «بيلاطس» على المسيح بتلفيق تهمة ضده مفادها أنه يدعي أنه ملك على اليهود وزعيم سياسي يهدف إلى استقلال أمته عن الاستعمار الروماني والتبعية لقيصر، وهي تهمة كفيلة بتعرض المسيح ودعوته لأقسى العقوبات.

تظاهر اليهود بالنصح للحاكم الروماني والحدب على دولته فحملوا المسيح إليه موجهين إليه هذه التهمة. حينئذ وقع بيلاطس بين تيارين نفسيين: تيار النخوة الوطنية الرومانية، وتيار التعقل والروية الذي يبعثه في نفسه علمه بخبث طوية اليهود من جهة، وتيقنه من براءة المسيح من جهة أخرى لذلك تردد كثيراً في الأمر وهم أخيراً بأن يطلق المسيح فصرخ اليهود قائلين: «إن أطلقت هذا فلست محباً لقيصر. كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر»[٢٤]. ولما رأى اصرارهم على صلب المسيح دفعه اليهم قائلاً: إن لكم شريعة تحاكمون إليها ابناء شعبكم فخذوا ملككم واصلبوه وفق شريعتكم، فصرخوا قائلين اصلبه أنت أما نحن ف «ليس لنا ملك إلا قيصر»[٢٥] وأخيراً نجحت المكيدة، بل على الصحيح: هكذا ظن اليهود

---

(٢٣) ١٨: ٣٤ـ٣٧.
(٢٤) يوحنا: ١٢/١٩
(٢٥) يوحنا: ١٥/١٩

ذلك موجز القصة كما رواها انجيل يوحنا، وخلال التحقيق مع المسيح وردت هذه الكلمة عنه «مملكتي ليست من هذا العالم» ـ كما يقول الانجيل ـ وهو إن قالها فإنما كان يريد أن يقول لبيلاطس: لست ملكاً من النوع الذي تتصوره أنت واليهود على طراز قيصر وكسرى؛ فان الملك الذي تتخيلونه أنتم بمعنى العزة والمجد العريض والشرف الباذخ ليس حظي منه في هذه الدنيا وانما هو عند الله في دار كرامته الخالدة، ومادمت لست طامعاً في مناصبكم الدنيوية ومظاهركم الكاذبة فما الذي يحملكم على تجريمي وبأي حق تدينونني؟

لم يقل المسيح ولم يرد أن يقول: انني بعثت إلى الضعفاء، والعجزة لأعظهم في الكنائس ولأعمر بهم الأديرة، وتعاليمي ليست سوى طقوس روحانية لا علاقة لها بالحياة، كما فهمت الكنيسة: فقد أعلن دعوته صريحة على الملأ: «لا تظنوا اني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً»[٢٦].

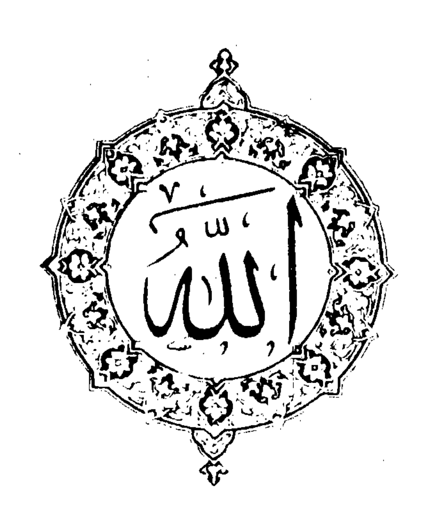
ولم يقل كما قال اليهود ليس لي ملك إلا قيصر. ولو قال ذلك أو شيئاً منه لربما سلم من الأذى وبرىء من التهمة، لكن حاشا أن يقول ذلك وهو رسول الله الذي أرسله لهدم كل سلطان لغير الله في الأرض ومهما ظل عاجزاً عن هدمه فلن يقر ويعترف به.

ومع ذلك فقد كان يعلم من الله أن نهايته قد أوشكت وانه لن يكون له سلطان في هذه الحياة الدنيا، ولذلك لم يأمر أحداً من أتباعه بالدفاع عنه، بل أمر رجلاً منهم سل سيفه أن يغمده. وقال ذلك لبيلاطس صريحاً: «لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكيلا أسلم إلى اليهود، ولكن الآن ليس مملكتي من هنا».

---

(٢٦) متى: ١٠: ٣٥.

وهكذا نرى كما قد رأينا أن الكنيسة تعمد إلى عبارات تنسبها الأناجيل إلى المسيح قيلت مجازاً أو وردت في ظروف مؤقتة وملابسات خاصة لتقرر منها قواعد أصولية تؤسس عليها دينها المحرف دون مراعاة لمنطق الاستدلال ومقتضى التحقيق العلمي.


الله

الفصل الثاني

البدع المستحدثة في الدين النصراني

توطئة

أدى التحريف المتعمد لنصوص الوحي المسيحي والتأويلات البعيدة لأعمال المسيح وأقواله، تلك التي فتحت الكنيسة لها الباب على مصراعيه، إلى استمراء وتسويغ التصرفات الخاطئة التي تلت ذلك فيما بعد. ولما كانت تحريفات الكنيسة تخبطات عشوائية لا ترتكز على قواعد محددة وليس لها ضوابط رادعة، فقد ظل المجال فسيحاً لإضافات أكثر وثغرات أعمق، وكان للمطامع الدنيوية والرغبات الشخصية الفضل الأكبر في دفع الموجة قدماً وتوجيهها كما يراد.

يضاف إلى ذلك الحماقات التي ترتكب بطريق السذاجة والبله من بعض المنسبين إلى الدين ولا تجد من ينكرها أو يحاصرها فتصبح مع مرور الزمن طقوساً وشعائر دينية.

كل ذلك تعرضت له النصرانية فاستحقت أن توصم بأنها ديانة تركيبية أو بوتقة انصهر فيها عقائد وخرافات وآراء متباينة، شكّلت ديناً غير متسق ولا متجانس.

ونظراً لصعوبة التمييز بين الصحيح من الزائف والأصلي من المبتدع في الدين النصراني، فقد تباينت وجهات نظر النقاد الغربيين وتباعدت شقة الخلاف بينهم، فغالى بعضهم إلى حد التصريح بأن

النصرانية ديانة وضعية أرقى تكويناً وأدق تنظيمًا من الديانات السابقة التي ابتكرها الانسان بزعمهم ـ منذ فجر التاريخ، وان طقوسها وشعائرها هي امتداد للطقوس الطوطمية والشعائر الوثنية التي كانت سائدة بين القبائل الهمجية القديمة.

وبالمقابل تعصب آخرون ـ لا سيما ذوي الميول الدينية ـ للرأي القائل بأن الدين النصراني ـ مكتملاً ـ دين سماوي على الحقيقة وأن كل ما في الأناجيل وحي صادق وأن أعمال الكنيسة مشروعة يقرها ويمليها المسيح فليس شيء منها يستحق أن يوصف بأنه بدعة محدثة أو إضافة خاطئة. وتظل الكلمة الفصل في الموضوع، كما هي دائمًا، في القرآن الكريم الذي نزل مهيمناً على ما قبله من الكتب ويظل الرأي الذي يصح أن يوصف بأنه موضوعي ونزيه ـ في هذه المسألة وأشباهها ـ من نصيب الباحث المسلم وحده.

لقد سبق أن تحدثنا عن تحريف المسيحية ـ عقيدة وشريعة ـ والتحريف في ذاته بدعة خطرة، لكن الأمر لم يقتصر على تحريف ما هو موجود بالفعل، بل انتقل إلى احداث ما لم يكن وابتداع تعاليم وضعية أُلصقت بالمسيحية وأُدخلت في صلبها وربما كانت بدعة رجال الدين ـ كما يسمون ـ أبعد البدع أثراً لأن البدع الأخرى لم تكن لتنمو لولا أن رجال الدين هم الذين ابتدعوها وأقروها وأضفوا الشرعية عليها. لذلك سنبدأ بالحديث عن هذه البدعة ثم نعقب ببعض البدع الأخرى لتكون نماذج وأمثلة شاهدة على ما نقول.

أولاً ـ رجال الدين «الاكليروس»

ترى النظرة الجاهلية للتاريخ المتأثرة بنظرية التطور ان حياة البشر الدينية والاجتماعية مرت بثلاث مراحل رئيسية:

١ ـ مرحلة السحر والخرافة.
٢ ـ مرحلة الدين.
٣ ـ مرحلة العلم.

وفي المرحلة الأولى كان الفكر البشري يعيش أدنى أطواره وأحطها، وكان الانسان آنذاك يرى أن حياته مرتبطة بأسباب خفية لا يستطيع إدراكها، فلجأ إلى السحر والشعوذة اللذين يستطيعان التأثير بطريقة غير محسوسة. وكلما ازداد وعي الانسان بحياته وتفرعت آماله ومطامعه ازداد تعلقه بالسحرة والكهان، لدفع الأرواح الشريرة التي تسبب له الضرر في نظره ولجلب المنافع المعيشية المتنوعة. وبمرور الزمن أصبح السحرة والكهان يتمتعون بأسمى المراكز الاجتماعية لدى الهمج، فآلت إليهم زعامات القبائل وفرضوا سلطاناً مادياً لأنفسهم في أموال ونساء أتباعهم.

وبعد اكتشاف الزراعة واستقرار الحياة الانسانية، بُنيت المعابد والهياكل وأصبح بعض الكهان ملوكاً يتوارثون الحكم، بينما ظل البعض الآخر يرأس المعابد والهياكل التي كانت تدر عليهم الشرف العريض والمال الوفير.

وبانتقال الانسان إلى المرحلة الثانية «مرحلة الدين» بقيت رواسب موروثة عن المرحلة الاولى من أبرزها طبقة رجال الدين الذين ليسوا سوى امتداد للسحرة والكهان في المرحلة السالفة وظلوا يقومون بالمهمة نفسها التي كان يتولاها اولئك من قبل، والفارق الوحيد هو أن هؤلاء يستمدون سلطتهم من الدين بينما يستمدها أولئك من السحر[١].

---

(١) انظر مثلاً: العقلية البدائية: ليفي بريل. والغصن الذهبي «فريزر» وتكملة الموضوع في مبحث علمانية الاجتماع عند الحديث عن المدرسة الوضعية ص ٣٧٣ من هذا الكتاب.

هذا هو التعليل الجاهلي لظهور رجال الدين، وهو تعليل قاصر، لأنه ينكر الوحي الإلهي ويغفل، عامداً، الفترات المضيئة التي تخللت التاريخ البشري منذ البدء، وهي الفترات التي شهدت مبعث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ﴿وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير﴾، ويقصر نظره على فترات الانحراف عن منهج الله، تلك التي طغت عليها الخرافات والشركيات وتحوّل فيها أتباع الأنبياء إلى سدنة أوثان ومشعوذين وكهان.

والتصور الاسلامي للتاريخ ينظر إلى الحياة البشرية على أنها خطان متوازيان: خط مشرق يمثل البشرية حين تهتدي إلى الله وتسلك طريق الأنبياء الذين يتعاقبون لردها إلى جادة الطريق، وخط آخر مظلم يمثل حزب الشيطان وفترات الضلال الذي طرأ على البشرية بعد أن كانت أمة واحدة على الايمان، والسمة العامة للتاريخ هي الصراع بين الهدى والضلال، بين الحق والباطل.

ونحن لا ننكر التشابه الظاهر بين رجل الاكليروس في المسيحية وبين السحرة والكهان في العصور السابقة، لكننا نرجع ذلك إلى كون الطائفتين انحرفتا عن أصل صحيح واحد ولا نمضي أبعد من ذلك، أما التعليل المباشر الذي يوضح الأصل الحقيقي لرجال الدين فهو أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى، عليه السلام، واحتفظ بها الأحبار من بعده، فكان الأمر يقتضي وجود عدد من ذوي الموهبة والعناية يتفرغون لحفظ الكتاب وشرح تعاليمه وتأويل مشكله وإيضاح أحكامه كي يسير عليها الفرد والمجتمع، وأمر الله تعالى هؤلاء العلماء أن يكونوا ربانيين بما كانوا يعلّمون الكتاب وبما كانوا يدرسون، ونهاهم عن كتمان شيء منه أو تحريفه أو شراء شيء من عرض الدنيا به، لكن الأمر آل إلى أن كثيراً من الأحبار أغرتهم المطامع الدنيوية الزائلة واشتروا بعهد

الله وايمانهم ثمناً قليلاً، ضيعوا الأمانة وفرّطوا في الحفظ وفرضوا لأنفسهم سلطة دنيوية يأكلون أموال الناس بالباطل ويتقبلون القرابين ويفرضون على الناس العشور باسم الهياكل والبيع، مستغلين منصبهم الديني أسوأ استغلال.

وبذلك استحقوا المقت من الله وكانوا مثلاً سيئاً وقدوة طالحة لمن جاء بعدهم. ثم بعث الله عيسى ابن مريم، عليه السلام، ومعه الانجيل فحذّر أتباعه أبلغ تحذير من اقتفاء أثر أحبار اليهود الذين كان المسيح يسميهم «بائعي العهد، أولاد الأفاعي، عباد الدنيا»، ودعا قومه إلى الاتصال المباشر بالله والتوبة إليه والخضوع له وحده دون سواه، وكان يوصي الحواريين والتلاميذ، قائلاً: «رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم فلا يكون هكذا فيكم»[٢].

لكن القسيسين والرهبان لم يكونوا أفضل حالاً من الأحبار، فقد سلكوا الطريق نفسها وانصاعوا إلى الدنيا مستعبدين أتباعهم المؤمنين، وساعد وجودهم ضمن الامبراطورية الرومانية على تثبيت مراكزهم وتدعيمها، وذلك بأنهم اقتبسوا من الأنظمة والهياكل السياسية للدولة فكرة إنشاء أنظمة وهياكل كهنوتية، وكما كانت هيئة الدولة تمثل هرماً قمته الامبراطور وقاعدته الجنود؛ كانت الهيئة الكنسية تمثل هرماً مقابلاً قمته الباب وقاعدته الرهبان. ونتيجة لمبدأ فصل الدين عن الدولة رعت الامبراطورية الهرم الكنسي ولم تر فيه ما يعارض وجودها فرسخ واستقر.

يقول المؤرخ الانجليزي ويلز في معرض الفرق بين مسيحية المسيح ومسيحية الكنيسة ــ كما سبق ــ «ان تعاليم يسوع الناصري

---

(٢) متى ٢٠: ٢٦.

تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذي ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين، وهي لم تكن كهنوتية، ولم يكن لها معبد مقدس حبساً عليها ولا هيكل، ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس، وكان قربانها «قلباً كسيراً خاشعاً» وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة.

«بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل «كنواة لها»، كانت في صلبها ديانة كهنوتية من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف السنين، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة والعمل الجوهري في العبادة فيها هو القربان الذي يقربه قسيس متكرس للقداس، ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشمامسه والقساوسة والأساقفة»[٣].

وكان من الأسس الباطلة التي بنى عليها رجال الدين مبررات وجودهم مبدأ «التوسط بين الله والخلق» الذي يقتضي ألّا يذهب الإنسان إلى رجل الدين ليعلمه كيف يعبد الله، بل ليعبد الله بواسطته، وليس للمذنب أن يتجه بتوبته إلى الله طالباً الصفح والمغفرة، بل عليه أن يتجه إلى رجل الدين معترفاً أمامه بذنبه ليقوم بالتوسط لدى الله فيغفر له. وحسب هذا المبدأ نصَّب رجال الدين أنفسهم أنداداً لله تعالى وأوقعوا أتباعهم في الشرك الأكبر ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ وفوق كونه مبدأ باطلاً شرعاً، ساقطاً عقلاً، فإنه ليس في الأناجيل ـ رغم تحريفها ـ ما يدل على أن المسيح أقره أو دعا إليه.

وقد ترتب على هذا المبدأ آثار سيئة للغاية، منها احتكار رجال الدين لحق قراءة وتفسير الإنجيل، ثم مهزلة صكوك الغفران،

(٣) معالم تاريخ الإنسانية ٣: ٧٢٠.

وكذلك الانشقاقات الدينية المتوالية التي دمرت الحياة بصفة عامة، وأخيراً كان هذا المبدأ إحدى الحجج التي سلها ملاحدة القرن السابع عشر فما بعد، في وجه الأديان عامة والمسيحية خاصة، وسيأتي تفصيل هذه الأمور في أبوابها ـ بإذن الله ـ(٤).

يقول العالم الفرنسي المهتدي «ناصر الدين دينيه»:

«الوسيلة هي إحدى كبريات المسائل التي فاق بها الإسلام جميع الأديان، إذ ليس بين الله وعبده وسيط وليس في الإسلام قساوسة ولا رهبان، إن هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الأديان وإنهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان إخلاصهم وحسن نياتهم، وقد أدرك المسيح نفسه ذلك، ألم يطرد بائعي «الهيكل»؟ غير أن أتباعه لم يفعلوا مثلما فعل، واليوم لو عاد عيسى فكم يطرد من أمثال بائعي الهيكل؟

«كذلك ما أكثر البلايا والمصائب، بل ما أكثر المذابح والمجازر التي يكون سببها هؤلاء الوسطاء، سواء كانت بين العائلات وبعضها أو بين الشعوب والشعوب، وهم في ذلك كله يصيحون: باسم مجد الله»(٥).

أما السلطة الكهنوتية، الطاغية، فإنها تستند إلى أسانيد واهية لا بد من مناقشتها:

لقد مر معنا وسيظل ـ حقيقة تاريخية واضحة هي أن الافتراء على الله من جهة وسوء الفهم والخطل في الاستنباط من جهة أخرى، أمران ملازمان للكنيسة ملازمة الظل لأصله، وقد أخذ الله تعالى على أهل الكتاب هذه الأخطاء المتكررة ﴿يقولون على الله غير الحق﴾ ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ وجرياً على ذلك تزعم الكنيسة أن المسيح قال لبطرس كبير الحواريين: «أنت

---

(٤) انظر فصل طغيان الكنيسة من الباب الثاني «الطغيان الديني» ص ١٢٨.

(٥) اشعة خاصة بنور الإسلام: ٢٣

بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات»[٦].

فهمت الكنيسة من هذا القول أن المسيح يعني أن السلطة الدينية المهيمنة باسمه سترتكز في الموضع الذي يموت فيه كبير الحواريين بطرس ومن هذا المركز تمد أجنحة نفوذها على العالم أجمع وتحكمه باسم المسيح، وبما أن المسيح بطرس ــ كما تقول الكنيسة ــ مات في رومة فإن رومة هي قاعدة المسيح لحكم العالم، وفيها مقر الكنيسة التي يرأسها ممثل المسيح ورسوله «البابا» المعصوم عن الخطأ، وكل ما تقرره الكنيسة هذه هو عين الصواب، إذ أن المسيح بواسطة الروح القدس هو الذي يملي عليها تصرفاتها، وما دام أنها تعمل باسم الله وتحل وتبرم حسب مشيئته ــ بل هو يحل ويبرم حسب مشيئتها تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ فطاعتها واجبة وقراراتها إلزامية لكل المؤمنين بالمسيح وليس على الأتباع إلَّا الطاعة العمياء والانقياد الذي لا يعرف جدلاً أو نقاشاً، والذنب الذي لا يغتفر هو أن تصادم أوامر الله، التي هي أوامر الكنيسة، بواسطة العقل البشري أياً كان صاحبه، والخارج على سلطة الكنيسة أو الناقد لقرارات مجامعها كافر «مهرطق» تحل عليه اللعنة والحرمان من دخول الملكوت مهما بلغت وجاهة رأيه بل مهما كانت سوابقه وخدماته للمسيحية وللكنيسة نفسها.

أما اذا كان المتمرد على الكنيسة وسلطتها حاكماً أو شعباً، فإن الجيوش المقدسة ستسحقه بأقدامها، إرضاء للمسيح.

---

(٦) متى ١٦: ١٩ ــ ٢٠.

ذلك هو زعم الكنيسة الذي تحول إلى واقع تاريخي عاد بأسوأ النتائج على أوروبا والعالم أجمع. ونحن لا نملك حياله إلّا موقفاً واحداً صريحاً هو موقف الانكار القاطع لنسبة هذا القول إلى رسول الله المسيح عليه السلام.

إن هذا القول يخدش التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء كافة ويمس العقيدة الايمانية الصحيحة في جوهرها، وهو من نوع دعوى الأناجيل الزاعمة ان المسيح قال «أنا ابن الله» سواء بسواء، بل ان إنجيل متى ليصرح بأن المسيح إنما قال ذلك لبطرس مكافأة له على قوله «أنت المسيح ابن الله الحي». ولقد قال الحق تبارك وتعالى ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ (آل عمران: ٧٩ ــ ٨٠)، فالأنبياء دعاة التوحيد ورسل الحق لا يتصور أن تصدر عنهم دعوى فيها شائبة من شرك، وحاشا أن يزعم أحد منهم لنفسه شيئاً من خصائص الألوهية فضلاً عن أن يهبه لغيره.

والمسيح، عليه السلام، بشر رسول لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فكيف يجوز أن ينسب إليه انه يمتلك مفاتيح الملكوت التي لا يملكها إلا الله وحده؟ وإذا كنا ننكر جازمين أن يملكها المسيح فلا معنى للجدال في كونه وهبها لبطرس أو لم يهبها، وكون الكنيسة ورثتها من بطرس أو لم ترثها، فالخطأ هنا أساسي لا يمكن إقراره، كما لا يمكننا أن نقر بأن المسيح إله.

ومع ذلك فليس في استطاعة الكنيسة أن تقنع أي باحث علمي بصحة مزاعمها بطريق الأدلة اليقينة، ولا يستطيع أي إنسان، ذي

عقل سليم، أن يساير منطقها الأعوج ويؤمن بمسلماتها العمياء.

وقد سخر الكاتب الأميركي «جرين برنتن» من استدلال الكنيسة بهذه الفقرات وأرجع السبب في وقوع الكنيسة في هذا الخطأ إلى التشابه الشكلي بين لفظتي «بطرس» و«صخرة»(٧).

وإذا كان مفسرو الأناجيل المتعصبون لدينهم يصرحون بأن آيات كثيرة في الأناجيل لا أصل لها ــ كما سبق في مبحث التثليث ــ فما بالك بالنقاد والمفكرين من غير رجال الكنيسة، فضلاً عن المسلم الذي ينفرد بمعلومات يقينية لا يتطرق الشك إليها.

ومن وجهة نظر التاريخ لا يمكن تبرير الشناعات التي ارتكبتها الكنيسة والحروب الطاحنة التي عرقلت مسيرة الحضارة وأزهقت أرواح الأبرياء، والاستبداد والطغيان اللذين مارسهما رجال الدين في كل شؤون الحياة والوقوف المستمر في صف الطغاة والظلمة ضد الشعوب البائسة، ومحاكم التفتيش، وإحراق العلماء، وبقية الجرائم الأخرى لا يمكن تبرر ذلك بأن المسيح أورث سلطانه وملكوته للسلطة الكهنوتية الغاشمة.

وبالإضافة إلى ذلك لوراجعنا إنجيل متى الذي أورد هذا الافتراء لوجدنا المسيح بعد ثلاث فقرات فقط من هذا القول يخاطب بطرس قائلاً: «اذهب عني يا شيطان، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس».. فكيف يتسق هذا الوصف وهذه التهمة مع الهبة السابقة والتكريم الذي لا حدّ له؟.

ثم لماذا تنظر الكنيسة إلى هذا القول وأضرابه وتغض الطرف

---

(٧) انظر أفكار ورجال هو: ١٩٣، وذلك ان اسم بطرس هو «Peter» ولفظ «Petr» يعني صخرة ومثله تماماً في تاريخ أوروبا العصور الوسطى: ١/١٠٧

عن مثل قول المسيح الصريح: «رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم فلا يكون هكذا فيكم»، وقوله: «أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم»[8].

* * *

ثانياً ــ الرهبانية

للوجود الإنساني في هذه الأرض غاية سامية أرادها الخالق سبحانه منذ أن اختار الانسان للقيام بالمهمة العظمى «الخلافة في الأرض» وأناط به مسؤولية عمرانها بالصلاح والخير، ولكيلا ينسى الانسان الغاية من وجوده ولتقوم عليه الحجة أمام خالقه جعل الله تعالى تلك الغاية جزءاً من تكوينه، مودعاً إياها في أعماق نفسه، «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» وبعث إليه الرسل تترى ليكونوا نماذج حية لتحقيق هذه الغاية الايجابية والدعوة إليها.

لكن الناس ــ بإغواء الشيطان لهم ــ يضلون الطريق فيغفلون عن غاية وجودهم منغمسين في حدود المطالب الحيوانية العاجلة، أو يتصورون هذه الغاية على غير حقيقتها فتضل أعمالهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ومن تصور هذه الغاية على غير حقيقتها الاعتقاد بتفاهة الحياةالدنيا إلى درجة إسقاط القيمة التي جعلها الله لها، والغلوّ في تهذيب النفس البشرية إلى حد التضييق والتعذيب، مع صرف النظر عن عمارة الكون التي هي جزء من الغاية العظمى.

---

(٨) لوقا ٦ ٢٨.

وما الرهبانية التي عرفها الناس منذ القدم إلّا تطبيق عملي للتصور السلبي الخاطىء الذي نشأ عن الجهل بطبيعة الإنسان ومهمته في الوجود.

ومع أن الرهبانية بدعة بشرية مشتركة بين أديان عديدة، نلاحظ أن للرهبانية النصرانية ظروفاً وأسباباً بارزة تضافرت على إيجادها وتنميتها، حتى أصبحت أبرز مظاهر الدين الكنسي، على مر العصور.

أسباب الرهبانية:

١ ـ **عقيدة الخطيئة الأصلية الموروثة**: إحدى التعاليم الكبرى في المسيحية المحرفة، وموجزها أن آدم عليه السلام أكل من الشجرة «شجرة المعرفة!» فعاقبه الله بالطرد من الجنة وأسكنه التراب، وظل الجنس البشري يرسف في أغلال تلك الخطيئة أحقاباً متطاولة حتى أنزل الله ابنه «تعالى عن ذلك علواً كبيراً» ليصلب فداء للنوع الإنساني وليبين للناس طريق الخلاص من هذه الخطيئة، فأصبح لزاماً على الإنسان أن يقتل نفسه لمنحها الخلاص، يقول إنجيل متى «من أراد أن يخلص نفسه يهلكها»[٩].

ويقول إنجيل لوقا: «من طلب أن يخلص نفسه يهلكها ومن أهلكها»[١٠].. ولما كانت المرأة ـ حسب رواية سفر التكوين ـ هي التي أغرت الرجل بالأكل من الشجرة، فإن النصرانية المحرفة ناصبت المرأة العداء باعتبارها أصل الشر ومنبع الخطيئة في العالم. لذلك فإن عملية الخلاص من الخطيئة لا تتم إلّا بإنكار الذات وقتل كل الميول الفطرية والرغبات الطبيعية، والاحتقار البالغ للجسد وشهواته، لا سيما الشهوة الجنسية.

---

(٩) ١٦: ٢٦.

(١٠) ١٧: ٢٤.

ومن ناحية أخرى تولد عن الشعور المستمر بالخطيئة أن قنط كثيرون من رحمة الله فلا يكاد أحدهم يقترف كبيرة حتى تظلم الدنيا في عينيه ويثأر من نفسه بإرغامها على الالتحاق بأحد الأديرة والمترهبين فيه.

٢ ــ رد الفعل المتطرف للمادية اليهودية الجشعة والأبيقورية الرومانية النهمة: فقد بعث الله عبده ورسوله المسيح بين ظهراني فئتين يربطهما رباط التهالك على الدنيا والتفاني في سبيل ملذاتها والعبودية الخانعة لشهواتها هما: قومه اليهود أجشع بني الانسان وأشدهم تعلقاً وتشبثاً بالحياة، ومستعمروهم الروم الغارقون إلى آذانهم في مستنقع الحياة البهيمية وأوكار الشهوات الدنسة، فكان المسيح عليه السلام ــ بأمر الله ــ يعظهم بأبلغ المواعظ ويذكّرهم بالآخرة أعظم تذكير ويضرب لهم الأمثال المتنوعة ويقص عليهم القصص المؤثر، كل ذلك لكي يرفعهم من عبودية الدنيا إلى عبادة الله ويفتح عيونهم على ما ينتظرهم في العالم الآخر من الأهوال فيحسبوا له الحساب. وآمن بالمسيح قوم تأثرت أنفسهم واتعظت قلوبهم بما سمعوا منه، لكنهم مع مرور الزمن ورد فعل منهم للضغط المادي عليهم، غلوا واشتطوا حتى خرجوا عن حدود ما يأمرهم به الوحي وتمليه الفطرة السوية، ونسبوا إلى المسيح أنه أمر الغني أن يتجرد من أمواله ويحمل الصليب ويتبعه، وقال: «مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»[١١]. وأنه أوصى تلاميذه قائلاً: «لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا»[١٢].

---

(١١) مرقص ١٠: ٢٢ ومتى ١٩: ٢٥.

(١٢) متى ١٠: ١٠ ــ ١١، ومثله لوقا ٩: ٤ ــ ١٠.

٣ ـ الأثر الذي خلفته الفلسفات والوثنيات التهربية القانطة:

كان العالم في العصر الواقع بين وفاة المسيح ومبعث محمد صلى الله عليه وسلم يعيش فترة من انقطاع الوحي، والمتعطش إلى دين حقيقي لم تستطع المسيحية المحرفة أن تسدها، فاستبدت الحيرة والضلال بكثير من ذوي التفكير العميق والإحساس المرهف فابتكروا، أو اعتنقوا، فلسفات تنم عن التذمر والتهرب من الحياة وتقوم على التأمل والاستغراق في عالم ما وراء الماده، وخير مثال لذلك الفلسفة الرواقية.

وكان إلى جانب ذلك وثنيات قاتلة تقهر الجسد على حساب الروح وتقدس اليأس والتقشف، كالبوذية والبرهمية. ولما كان بولس ـ محرف المسيحية الأكبر ـ مطلعاً على هذه الفلسفات والوثنيات، متأثراً بآرائها، فقد لقح بها ديانته الوضعية وأدخلها في صلب، مسيحيته ثم توارثها الأتباع من بعده، ومن اقتباسات بولس النظرة المتشائمة إلى الحياة الدنيا ومتاعها.

وقد أثّرت هذه الاعتقادات وما اقتبسته المسيحية المحرفة منها في رواج الرهبانية وشيوعها في القرون التي تلت المسيح؛ يقول صاحب «معالم تاريخ الانسانية»:

«كانت الأديرة موجودة في العالم قبل ظهور المسيحية، وفي الفترة التي ألمّ فيها الشقاء الاجتماعي باليهود، قبل زمان يسوع الناصري، كانت طائفة من النساك الأسينيين تعيش منعزلة في مجتمعات وهبت نفسها لحياة تقشفية من الوحدة والطهر وإنكار الذات. كذلك أنشأت البوذية لنفسها مجتمعات من رجال اعتزلوا غمرة الجهود العامة والتجارة في العالم ليعيشوا عيشة التقشف والتأمل»..

«ونشأت في زمن مبكر جداً من تاريخ المسيحية حركة مشابهة لهذه تتنكب ما يغمر حياة الناس اليومية من منافسة وحمية وشدائد، وفي

مسر على وجه الخصوص خرجت حشود كبيرة من الرجال والنساء إلى الصحراء، وهناك عاشوا عيشة عزلة تامة قوامها الصلوات والتأملات، وظلوا يعيشون في فقر مدقع في الكهوف أو تحت الصخور على الصدقات التي تقذفها إليهم الصدفة من أولئك الرجال الذين يتأثرون بقداستهم»[١٣].

٤ ـ **الأوضاع الإجتماعية القاسية**: كان المجتمع الروماني مجتمعاً طبقياً ظالماً تكدح فيه قطاعات ومجموعات كبيرة لصالح أفراد قلائل، وكان سكان المستعمرات خاصة يعانون البؤس وشظف العيش إلى جانب الظلم والطغيان، فقنط كثيرون من الحياة ورأوا أن خير وسيلة للتخلص من خدمة الأسياد والحصول على العيش ولو كفافاً، هي دخول الأديرة حيث يُنفق عليهم من تبرعات المحسنين وأوقاف الكنيسة، ويذكر صاحب كتاب «قصة الحضارة» أن «الآلاف من الشباب كانوا يدخلون الأديرة فراراً من الخدمة العسكرية التي فرضها الرومان»[١٤].

نظام الرهبانية:

يتضمن نظام الرهبانية شروطاً لا بد من تحقيقها في الراهب منها:

١ ـ **العزوبة**: أهم شروط الرهبانية، إذ لا معنى للرهبانية مع وجود زوجة، ومعلوم أن المسيح، عليه السلام، لم يتزوج. وينسب إنجيل متى إلى المسيح قوله «يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل»[١٥]. على أن التنفير

---

(١٣) ويلز ٣: ٧٣٠، ٧٣٢، وانظر حياة المسيح للعقاد، ص ٤٦.

(١٤) ج ١٤، ص ١٥.

(١٥) ١٩: ١٣

من المرأة وإن كانت زوجة، واحتقار وترذيل الصلة الجنسية وإن كانت حلالاً، من أساسيات المسيحية المحرفة، حتى بالنسبة لغير الرهبان. يقول «سان بونافنتور» أحد رجال الكنيسة:

«إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشرياً، بل ولا كائناً حياً وحشياً، وإنما الذي ترون هو الشيطان بذاته والذي تسمعون هو صفير الثعبان»[١٦].

وكان من المشاكل المستعصية على الكنيسة مشكلة زواج رجال الدين غير الرهبان أو تسريهم، و«كانت الكنيسة منذ زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجه وأبنائه في منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة»... «وانه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبته لأحد أبنائه، يضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله وبني الانسان، وأن مستواه الأخلاقي يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب وأن يضفي على مستواه هذه المكانة التي لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه»[١٧]... «بوجوب التبتل على رجال الدين وتطليق زوجات المتزوجين منهم وكان لهذا الأمر آثار امتدت إلى القرن السادس عشر وانتهت بانتصار الكنيسة»[١٨].

وإذا كان هذا هو الحال مع غير الرهبان، فلنتصور كيف تكون الحال معهم!.

٢ ــ التجرد الكامل عن الدنيا: ويعني ذلك العزلة النهائية عن المجتمع وقطع النظر عن كل أمل في الحياة، والرضا من الرزق

---

(١٦) أشعة خاصة بنور الإسلام: ٢٩.
(١٧) قصة الحضارة ١٤: ٣٨٢.
(١٨) تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ٢: ١٥٢

بالكفاف، وعدم الاهتمام بالمطالب الجسدية حتى الضروري منها كالملابس والنظافة. وإذا كانت المسيحية المحرفة تأمر الأفراد العاديين باحتقار الحياة وتعده من أولى الواجبات فبدهي أن تكون معاملة الراهب أقسى وأعتى.

يقول صاحب كتاب «المشكلة الأخلاقية والفلاسفة»:

«لنقرأ هذا السفر الطريف (محاكاة المسيح)، إنه سفر من أكبر أسفار التبتل المسيحي، ولنطلب بين صحائفه ومظاهر الحياة المسيحية بمعناها الصحيح، وأن ما نجده لمعبر عن الحال أبلغ عبارة: إحتقاد أساسي لكل علم، حتى ليشمل ذلك علم الإلهيات، احتقار أصيل لكل ما نسميه خيرات هذا العالم: الثراء والشرف الاجتماعي، حتى المركز الوسط، وإنه لحتم علينا أن نستشعر دائمًا التواضع والندم وأن نمارس، عملياً، على الدوام التضحية وكل مظهر تمليه الرحمة وأن نجمع حواسنا في صمت وذهول تام وتأمل ديني ينسى المرء فيه كيانه، يجب أن نقتل فينا كل ميل دنيوي، يجب أن يموت عالم الرغبة، يجب أن نبدأ من هذا العالم الزائل ماسوف يكون لنا الوجود الأبدي».

ثم يعلق على هذه التعاليم قائلاً:

«عظمة وعلاء ولكنه قضاء قاس على الانسانية، وإن التطبيق الكامل لمثل تلك المبادىء ليمكن أن يملأ الأرض بأديرة فيها الرجال من جهة والنساء من جهة أُخرى ينتظرون في طهارة وتأمل الزوال النهائي للنوع الانساني[19].

٣ ـ **العبادة المتواصلة**: يفرض نظام الحياة الرهبانية على الراهب أن يكون في حالة عبادة مستمرة يمليها عليه الأب، ولا يستطيع

---

(١٩) ص ١١٥، ولم يذكر المؤلف اسم كاتب السفر وقد علمت بعد البحث انه الراهب اوغسطين انظر سلسلة تراث الإنسانية: ٢/٦٤٩

التردد في الطاعة، بل عليه أن يجهد نفسه ويرهقها ويكلفها ما لا تطيقه من الصلوات والصيام والتراتيل والترانيم وسائر الطقوس، وإذا سئم من ذلك أو قصَّر في شيء منه فإن للنظام عقوباته الرادعة. . . ولنأخذ نموذجاً لذلك تعاليم القديس «كولمبان» الذي أسس الأديرة في جبال الفوج بفرنسا، من تعاليمه: «يجب أن تصوم كل يوم وتصلي كل يوم وتعمل كل يوم وتقرأ كل يوم، وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد».

«ويجب أن يأوي إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر في الطريق». . . «وكانت العقوبات صارمة أكثر ما تكون بالجلد: ستة سياط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمة أو نسي أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس، أو تبسَّم أثناء الصلاة، أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الرباني».

«وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسي أن يدعو الله قبل الطعام، وخمسون عقاب المتأخر عن الصلاة، ومائة لمن يشترك في نزاع، ومئتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة.

وأقام «كولمبان» نظام الحمد الذي لا ينقطع، فقد كانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلاً ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان «يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين»[٢٠].

٤ ــ التعذيب الجنوني: لم يقتصر الأمر على ما ذكر، بل ــ كما هي طبيعية البدع ــ تجاوز ذلك إلى تصرفات جنونية تشمئز لها الفطر السليمة، ابتدعها بعض الرهبان ليعبروا عن قوة إيمانهم وعمق إخلاصهم لمبدئهم، «وروى المؤرخون من ذلك عجائب فحدثوا عن

(٢٠) قصة الحضارة ١٤ : ٣٦٥

الراهب ماكاريوس أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرض جسمه العاري ذباب سام. وكان يحمل دائمًا نحو قنطار من حديد... وكان صاحبه الراهب يوسيبيس يحمل نحو قنطارين من حديد، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح... وقد عبد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائمًا على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة. وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائمًا، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام، وكان أكثرسم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأنقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس. يقول الراهب اتهينس: ان الراهب انتوني لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره وكان الراهب ابراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة، وقد قال الراهب الاسكندري بعد زمان متلهفاً: وا أسفاه، لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات»[٢١].

وهناك «راهب منعزل اخترع درجة جديدة من الورع يربط نفسه بسلسلة إلى صخرة في غار ضيق»[٢٢]. وأما القديس كولمبان فـ«كانت السناجب تجثم على كتفيه فتدخل في قلنسوته وتخرج منها»[٢٣] وهو ساكن.

نتائج الرهبانية:

من سنن الله في الكون أن كل مبدأ أو نظام لا يساير الفطرة البشرية فإن مآله إلى الخسران والفناء، ومصير أتباعه شقاء مطبق

---

(٢١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ١٦٨.

(٢٢) معالم تاريخ الانسانية: ٧٣٢.

(٢٣) قصة الحضارة: ١٤: ٣٦٥.

وضياع مرير، ولا يستطيع أحد أن يأتي بدين يوائم الفطرة إلاَّ خالقها، جل شأنه، ولذلك كان المبتدعون وواضعوا المذاهب البشرية أكثر من شيء إساءة إلى الجنس البشري.

وما من شك في أن الرهبانية ليست من فطرة الانسان ولا من غايات وجوده، بل هي على النقيض من ذلك ولهذا لم يأمر بها الله ولم يشرعها ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاَّ ابتغاء مرضاة الله فما رعوها حق رعيتها﴾ فهي بدعة حتى بالنسبة للذين تطوعوا بإلزام أنفسهم بها مدفوعين بالحرص على رضا الله فما بالك بها بعد أن انخرط في سلكها الفساق وطلاب الدنيا؟

إن المرء لا تقع عينه على مؤلف من مؤلفات تاريخ الغرب في عصوره الوسطى إلاّ ويرى فيه ما يشين ويلطخ الحياة الرهبانية من الفضائح الشنيعة والدعارة التي لا تضارعها دعارة مواخير الفساد.

يقول رئيس دير كلوني: «إن بعض رجال الدين في الأديرة وفي خارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء في ساحاته نفسها، بل في تلك البيوت التي أنشأها المؤمنون الخاشعون لكي تكون ملاذاً للعفة والطهارة في حرمها المسور، لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى»(٢٤).

لقد أدى التزمت والغلو في الدين ومغالبة الطبع السوي والفطرة السليمة إلى نتيجة عكسية تماماً وأصبحت الأديرة مباءات للفجور والفسق تضرب بها الأمثلة في ذلك، وقد وصل الحال بنصارى الشرق ـ وربما كانوا أكثر حياء وأشد تمسكاً ـ إلى حد أن المستهترين من

---

(٢٤) قصة الحضارة: ١٤٥ : ٣٧٢.

الخلفاء والشعراء المجان كانوا يرتادون الأديرة كما يرتاد رواد الدعارة اليوم بيوت العهر وألّفوا في ذلك كتباً منها كتاب «الديارات» المعروف لدى دارسي الأدب العربي[٢٥].

هذا بالنسبة للمترهبنين، أما الفرد المسيحي العادي فقد ضعفت ثقته بالدين وتزعزعت في نفسه القيم والأخلاق الدينية. كيف لا، وهو يرى خصيان الملكوت ومثال الطهر يغرقون في الفجور وينالون من المتع الجسدية ما لا يمكنه بلوغه. أما الغيورون منهم فقد اتخذوا ذلك ذريعة للانشقاق عن الكنيسة وتكوين فرق دينية جديدة لها أديرة خاصة تبدأ أول الأمر نظيفة، لكنها لا تلبث أن تعود فتسقط فيما سقط فيه أسلافها. كل ذلك كان في الفترة التي لا تزال قبضة الكنيسة فيها قوية ونفوذها صلباً لكن المرحلة التي شهدت ضعف سلطانها فيما بعد شهدت رد فعل طاغياً ضد أغلال الكنيسة وقيودها مما جعل بذور الفلسفات الاباحية والحركات غير الاخلاقية تنمو نمواً مطرداً، وصحح الرأي القائل بأن «المسيحية نفاق منظم كما اتهمتها أجيال عديدة من النقاد العقليين المرة تلو الأخرى» وأنها «لم تكن عند أكثر الناس غير ستار رقيق يخفي تحته نظرة وثنية خالصة إلى الحياة»[٢٦].

هذا وقد ظلت رواسب الرهبانية متغلغلة في أعماق النفسية الأوروبية حتى بعد أن فقد الدين مكانته في النفوس ـ لا سيما ما يتعلق بالمرأة والجنس وكان لذلك أثره في النظريات الهدامة الحديثة خاصة «الفرويدية» كما سيأتي في مبحث علمانية الاجتماع والأخلاق.

* * *

---

(٢٥) كتبه أبو الحسن الشابشتي، وطبع مؤخراً بتحقيق كوركيس عواد.

(٢٦) تاريخ العالم: ٤/ ٣٣٠.

ثالثاً ـ الأسرار المقدسة

فطر الله النفس الانسانية على الايمان بالغيب[٢٧]، وهو ما لا يستطيع الادراك الذاتي أن يكتشفه، ومن هنا نشأ فيها الشوق إلى المجهول والتوق لمعرفته، حتى ان كثيراً من الموضوعات والحقائق تكتسب الجاذبية والاعجاب ما دامت مجهولة فإذا انتقلت إلى حيز الوجود فقدت ذلك، ولا تستطيع النفس البشرية بمفردها أن تتلمس الخط الفاصل بين الغيب والشهادة بين المعلوم والمجهول. بل لا بد من الالتجاء إلى الوحي الإلهي لمعرفته وذلك هو الطريق السليم الوحيد، لكن البشر يضلون فيلتمسون ذلك من طرق أُخرى ويحاولون اشباع الرغبة الفطرية في الايمان بالغيب والتطلع إليه منقطعين عن الوحي، فيدفعهم الشيطان إلى التعلق بعملائه من الكهنة والسحرة والمشعوذين، وحينئذ يقعون في الشرك الذي جاء الأنبياء جميعاً لمحاربته بكل ضروبه.

وقد وقعت البشرية في هذه الغلطة منذ القدم وامتلأت الوثنيات القديمة بالأسرار والأساليب الخفية والرموز الغامضة، وغلط اتباع الانبياء غلطة أشنع باقتباسهم لأشياء من هذه الاسرار والرموز وادخالها في دينهم وذلك ما حصل بعينه في المسيحية المحرفة.

وللمسيحية أسرار كثيرة متعددة الأصول بعضها اغريقي وبعضها بوذي وبعضها منقول عن المثرائية ديانة بولس الأولى، من هذه الأسرار ما يتعلق بأمور العقيدة كسر الثالوث ـ وهو أكبر أسرار المسيحية وأخطرها ـ ومنها ما يتعلق بشؤون العبادة والطقوس كسر التعميد، وسر العشاء الرباني، وسر الاعتراف، وسر الزيت المقدس، وسر الصلاة الأخيرة للمحتضر وأمثالها.

---

(٢٧) انظر فصل «التوازن» من خصائص التصور الإسلامي: ١٦١.

ونستطيع أن نقول: أن الكنيسة تعمد إلى تبرير كل طقوس من طقوسها يأباه العقل وتنفر منه النفوس بأنه «سر إلهي» فكلمة «سر» كانت ثوباً فضفاضاً يستر كل نقائصها ومخازيها، وسلاحاً فورياً يقاوم كل اعتراض عليها.

وقد سبق الكلام عن سر التثليث أما أسرار الطقوس فلنكتف منها بمناقشة سر واحد هو «سر العشاء الرباني» ليكون نموذجاً لبقيتها.

العشاء الرباني:

العشاء الرباني هو أهم عمل في الطقوس المسيحية ويسمى أيضاً «القربان المقدس» وقد ورد أصل مشروعيته في إنجيل متى كما يلي: «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال: خذوا كلوا، هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا»(٢٨).

أما إنجيل يوحنا فلا يتعرض لعشاء بعينه لكنه يذكر في الاصحاح السادس أن اليهود طلبوا من المسيح آية لهم كالخبز الذي أنزله الله على أجدادهم فقال لهم المسيح:

«أنا هو خبز الحياة، من يُقبل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً». ولما رأى دهشة اليهود من ذلك أكّده بقوله: «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم، من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق من يشرب يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه»(٢٩).

---

(٢٨) ٢٦: ٢٧ ـ ٢٩

(٢٩) ٣٦: ٥٤ ـ ٥٧.

ويرى غوستاف لوبون ـ كغيره من النقاد العقليين ـ إن شعائر النصرانية ومنها العشاء المقدس بدعة منقولة عن الوثنية الميثرائية[٣٠] ويؤيد هذا الرأي أن بولس «شاؤول اليهودي» كان مثرائياً أو على الأقل متأثراً بالميثرائية التي كان من شعائرها التضحية بالعجل المقدس[٣١]، ولذلك نرى أن بولس يكثر في رسائله من الحديث عن جسد المسيح وحلوله في أتباعه، ويورد في الاصحاح الحادي عشر من رسالته الأولى إلى أهل كورنثيوس[٣٢] ما يشبه كلام متى السابق مع زيادة أن ذلك كان في الليلة التي أسلم فيها المسيح. على أن علم الاجتماع يرجع فكرة العشاء الرباني إلى أصل قديم هو النظام الذي يعرف في اصطلاحهم باسم الطموطمية «وهو نظام معقد غامض يحوي فيما يحوي قيام علاقة قرابة وصلة بين القبيلة والطموطم الذي يكون حيواناً أو نباتاً يحرم بموجبها صيده وتناوله إلاَّ في مناسبات شعائرية معينة لكي يكتسب الآكلون صفات مرغوبة يتوهمونها في الطموطم ويعتقدون أنه يجري دمه في عروقهم بتناوله في هذه المناسبات[٣٣].

وعلى أية حال، فقد كان المسيحيون الأوائل يقيمون وليمة تذكارية في عيد الفصح قوامها الخبز والخمر اللذان يرمزان إلى جسد ودم المسيح، وذلك إحياء لذكرى موته كما أوصى حسب رواية بولس «اصنعوا هذا لذكري».

وقد كان كافياً أن تقف البدعة عند هذا الحد لولا أن الكنيسة جرياً على عادتها في التحريف وسوء الفهم والخلط بين الحقيقة والمجاز أضافت إلى ذلك العقيدة المعروفة بعقيدة التحول أو الاستحالة، وهي

---

(٣٠) حياة الحقائق: ٦٥.

(٣١) انظر معالم تاريخ الانسانية: فصل «مبادىء اضيفت إلى تعاليم يسوع» ج ٣

(٣٢) ٢٤ ـ ٣٠.

(٣٣) انظر الغصن الذهبي: ١٢٣، ١٣٦.

وجوب الاعتقاد بأن متناولي العشاء يأكلون جسد المسيح بعينه على الحقيقة ويشربون دمه نفسه على الحقيقة أيضاً. أما كيف يتحول الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح فإن ذلك «سر» لا يجوز لأحد أن يسأل أو يشكك فيه وإلّا عوقب بالحرمان والطرد من الملكوت.

وظاهر أن عقيدة الاستحالة مما لا يتردد العقل في انكاره ونبذه، إذ لا يستطيع عقل سليم أن يتصور استحالة خبز وخمر إلى لحم ودم، في حين ان الآكلين يتذوقون طعم الخبز والخمر العادي، ثم ان جسد المسيح واحد وموائد العشاء تعد بالآلاف سنوياً وفي أماكن متفرقة، فكيف يتفرق جسده ودمه عليها جميعها؟.

وإذا كانت الكنيسة تزعم أن الغاية من ذلك هو أن يدخل المسيح في أجساد الآكلين فيتمتعوا الألوهية فهل تتحقق هذه الغاية بمجرد الاعتقاد بها، وما جدوى هذه الوسيلة بل هذه الغاية أصلاً؟.

إن الكنيسة استغلت بلاهة وسذاجة أتباعها ففرضت عليهم مثل هذه العقائد الغريبة المجوجة لكن الفطرة البشرية لا بد أن تستيقظ مهما طالت غفلتها، وذلك ما تم بالفعل فقد أدى إسراف الكنيسة في الاستخفاف بعقول البشر ومعاندة الفطر الانسانية إلى تلك الثورة العارمة ضد الكنيسة التي ابتدأت منذ اتصال أوروبة بنور الإسلام وانتهت بانهيار الكنيسة وفقدانها معظم نفوذها وهيمنتها في القرن الماضي.

وقد كانت مسألة الاستحالة من الثغرات التي فتحت على الكنيسة ولم تستطع لها سداً بما سببت من انشقاقات دينية ونقد مرير من المؤرخين والمفكرين، وكان من أوائل المنكرين لها «ويكلف»[٣٤]،

(٣٤) تاريخ أوروبا العصور الوسطى: ٢: ٣٦٢.

المصلح الكنسي؛ ثم تبنت ذلك حركة البروتستانت التي تزعمها «مارتن لوثر»، وظهر بعد ذلك النقاد العقليون فسخروا من هذا الطقس أعظم سخرية وكان من روادهم الفيلسوف الفرنسي فولتير»[٣٥].

ويقول أحد الباحثين المعاصرين عن العشاء الرباني: انه «مثال رائع لما يراه بعض المؤرخين إفساداً للحقائق، أو على الأقل إضافة جاءت في وقت متأخر»[٣٦].

* * *

رابعاً ـ عبادة الصور والتماثيل

شمل اقتباس النصرانية من الديانات والوثنيات المجاورة كل أمور العقيدة والشريعة والشعائر كما شمل الذوق والاحساس والمظاهر العامة. فلم يكن شيء من عقائدها وطقوسها إلا وعليه بصمات وثنية واضحة يتجلى ذلك في التماثيل والصور التي لا يخلو منها دير أو كنيسة رغم أن شريعة التوراة تحرم التصوير ونحت التماثيل وتعده من أعمال الوثنيين «سفر التثنية».

ونشأت عبادة الصور والتماثيل كأية بدعة أخرى ـ محدودة النطاق، ثم نمت تدريجياً وانتشرت في أرجاء واسعة لكنها لم تدخل في صلب الديانة المسيحية بصفة رسمية إلا في مجمع نيقية الثاني كما سيأتي:

يقول «ول ديورانت»:

«كانت الكنيسة أول أمرها تكره الصور والتماثيل وتعدها بقايا

---

(٣٥) انظر سلسلة تراث الإنسانية ٨ ـ ٨٥.

(٣٦) أفكار ورجال: ١٨٩

من الوثنية وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثني الذي يهدف إلى تمثيل الالهة ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية. ولما ان تضاعف عدد القديسين المعبودين نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم فظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور، ولم يعظم الناس الصور التي يزعمون أنها تمثل المسيح فحسب بل عظموا معها خشبة الصليب حتى لقد أصبح الصليب في نظر ذوي العقول الساذجه طلسمًا ذا قوة سحرية عجيبة.

«وأطلق الشعب العنان لفطرته فحول الآثار والصور التماثيل المقدسة إلى معبودات يسجد لها الناس ويقبلونها ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها ويتوجونها بالأزهار ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفي.

«وفي البلاد التي تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص كنت ترى الصور المقدسة في كل مكان في الكنائس والأديرة والمنازل والحوانيت وحتى أثاث المنازل والحلي والملابس نفسها لم تخل منها، وأخذت المدن التي تتهددها أخطار الوباء أو المجاعة أو الحرب تعتمد على قوة مالديها من الآثار الدينية، أو على مافيها من الأولياء والقديسين. للنجاة من هذه الكوارث[٣٧].

تلك هي الصورة مجملة في القرون المسيحية الأولى، ولكن المد الإسلامي العظيم في القرن الثامن الذي شمل معظم المعمورة أحدث بتعاليمه التوحيدية الخالصة أثراً قوياً في البيئات الوثنية المجاورة لا سيما دولة الروم النصرانية، وبفضل هذا التأثير أحس الغربيون بسخافة

---

(٣٧) قصة الحضارة ١٥٤/٢٤ وانظر قصة جزيرة صقلية في ص ١٠٩ من هذا الكتاب

معتقداتهم وضحالة تفكيرهم مبهورين بما لدى المسلمين من عقيدة ناصعة وحضارة شامخة.

لذلك فقد قامت في الغرب في فترات متقطعة من تاريخه حركات معادية لهذه البدعة من أشهرها محاولة الامبراطور «ليو الثالث» الذي أصدر مرسوماً يطلب فيه طمس الصور وإزالة التماثيل وأراد بذلك أن يزيل عن أمته ودينها هذه الوصمة الشنيعة التي تظهره بمظهر النقص أمام أعدائه المسلمين، لكن الكنيسة رفضت ذلك وضجت الأديرة والكنائس وثار الشعب واتفق الكل على خلعه والمناداة بامبراطور آخر.

غير أن الحركة لم تمت، بل ظل أوارها يستعر، فاجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا جريجوري الثاني وصبّ اللعنة على محطمي الصور والتماثيل[٣٨].

وفي عهد أحفاده عاد الصراع من جديد وظلت المسألة تتأرجح بين الحرمة والحل حتى دعت الامبراطورة «ايريني» التي كانت معاصرة لهارون الرشيد رجال الدين في العالم المسيحي إلى عقد مجمع عام لبحث المسألة واتخاذ قرار حاسم حيالها فاجتمع مجمع نيقية الثاني سنة ٧٨٧ وحضره ٣٥٠ أسقفا واتخذ القرار الآتي:

«إنا نحكم بأن توضع الصور ليس في الكنائس والأبنية المقدسة والملابس الكهنوتية فقط بل في البيوت وعلى الجدران في الطرقات لأننا إن أطلنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدته القديسة والرسل وسائر القديسين في صورهم شعرنا بالميل الشديد إلى التفكير فيهم والتكريم

---

(٣٨) قصة الحضارة ١٤

لهم فيجب أن تؤدى التحية والإكرام لهذه الصور، لا العبادة التي لا تليق إلا بالطبيعة الإلهية[٣٩].

وبذلك انتصرت وثنية الكنيسة على أفكار معارضيها ردحاً من الزمان، وحسبت أن العبادة تعني الركوع والسجود ولا شيء غير ذلك.

وبعد ذلك بقرابة ثلاثة قرون، اتصل الغرب الوثني بالشرق المسلم اتصالاً أقوى عن طريق الحروب الصليبية، فكان ذلك عاملاً فعالاً في بعث الحركة المناهضة لعبادة الصور والتماثيل ونادى كثير من المصلحين الكنيسيين بذلك وبظهور الحركة الإصلاحية تزعم البروتستانت الحرب على الصور والتماثيل وحرمتها كنائسهم، إلّا أن الغالبية الكاثوليكية لا تزال تقدسها وتلعن محطميها.

وربما دهش المرء إذا علم أن تقديس الصور عادة غربية شائعة في عصرنا الحاضر ليس في الأوساط الدينية فحسب، بل في الأوساط العامة وبعض المثقفين»[٤٠].

وبلغ الأمر بصورة المسيح وأمه حد الابتذال والامتهان، وكانت الطامة الكبرى في الأفلام السينمائية حيث وصل السخف والاستهتار بإحدى الشركات السويدية (وربما كانت يهودية) سنة ١٣٩٧ هـ إلى إنتاج فيلم عن «حياة المسيح الجنسية»، والغريب أن الدول الغربية اتخذت موقفاً سلبياً تجاه هذه الفعلة الشريرة، بينما بعثت بعض المنظمات الإسلامية نداءات لإيقاف الفيلم.

---

(٣٩) محاضرات في النصرانية: ١٦٤ مع العلم بان عدد الأساقفة فيه (٣٧٧) لا كما ذكر ديورانت (٣٥٠)

(٤٠) انظر وداعاً ايها السلاح: ارنست همنغواي: ٤٧.

ولم يقتصر الأمر على المسيح وأمه، بل ان الكنيسة تجرأت على الباري جل شأنه وصورته كما تصور المخلوقين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً» يقول الأستاذ ناصر الدين دينيه:

«الدين الاسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشرياً أو ما إلى ذلك من الأشكال أما في المسيحية فإن لفظ «الله» تحوطها تلك الصورة الأدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال فمن تجاعيد بالوجه غائرة إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير في النفس ذكرى الموت والفناء، ونسمع القوم يصيحون «ليحي الله» فلا نرى للغرابة محلاً ولا نعجب لصيحتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخاً هرماً قد بلغ أرذل العمر فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء وكيف لا يطلبون له الحياة؟ كذلك «ياهو» الذي يمثلون به طهارة التوحيد اليهودي فهم يجعلونه في مثل تلك المظاهر المتهالكة تراه في متحف الفاتيكان ونسخ الأناجيل القديمة المصورة»[٤١].

هذا وليس تصوير الأله انحرافاً في نظر الكنيسة فإن أحد علمائها يقرر «أنه لا يمكننا أن نفهم الله إلا عن طريق تصوره بالصورة البشرية»[٤٢].

ولنا بعد ذلك أن نتصور ما تحدثه هذه الوثنية الساذجة في نفس الانسان الغربي المتثقف ومدى ما تنفره من الدين وتجعله فريسة الأفكار الالحادية المتخفية بلباس «العلم والمعرفة».

بقي أن نعلم أنه لم تكن عبادة الصور والتماثيل هي الاقتباسة الوثنية الوحيدة بل كانت الأمم الأوروبية المتوحشة تدخل في النصرانية

(٤١) أشعة خاصة بنور الإسلام: ٢٥.
(٤٢) الله واحد أم ثالوث: ١٤.

إسمياً مع بقاء عقائدها وتقاليدها الوثنية بحالها وتتغاضى الكنيسة عن ذلك مقابل الخضوع لها ودفع الضرائب المستحقة فلم تكن تهدف إلى هداية الناس بل إلى بسط سلطانها ونفوذها لا سيما وانها ليست مهتدية في ذاتها.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك دخول الجزر البريطانية في المسيحية، فقد كان البريطانيون شديدي التمسك بوثنيتهم، ودار بينهم وبين الكنيسة صراع طويل، ولما رأى الباب جريجوري ذلك «اصطنع اللين مع من بقي في انجلترا من الوثنيين وأجاز تحويل الهياكل إلى كنائس بأن تحول عادة التضحية بالثيران في يسر ولطف إلى ذبحها لإنعاشهم لمديح الله، وبهذا كان كل ما طرأ على الانجليز من تغير، هو تحولهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله إلى حمد الله حين يأكلون لحم البقر»[٤٣].

* * *

خامساً ــ المعجزات والخرافات

تفتقر المسيحية المحرفة في كثير من تعاليمها إلى الاقناع العقلي والبرهان المنطقي لاثباتها نظراً لتنافيها مع الفطرة وبدائه التفكير لذلك اضطرت الكنيسة إلى تعويض نقص بضاعتها من الأدلة بادعاء الخوارق والمعجزات قاصدة التمويه على العقول الضعيفة واستغفال النفوس الساذجة، وكانت خوارق الكنيسة وشعوذتها تتراوح بين الرؤى النامية ذات التهويل البالغ وبن التهكن المتكلف بالمغيبات وحوادث المستقبل، وبين تحمل الأساليب واستجداء شتى الوسائل لشفاء الأمراض المستعصية يتبع ذلك أمور أخرى كتعليق التمائم

---

(٤٣) قصة الحضارة ١٤: ٣٦٨.

والرقى والتمتمات المجهولة واستعمال اشارة الصليب وتعليق صور القديسين، ومحاربة الشياطين وطرد الأورواح الشريرة وصد الكوارث والأوبئة واستنزال النصر في الحروب وغير ذلك.

وكان من السهل على العقلية الأوروبية الهمجية أن تتقبل هذه السخافات وتصدق الكنيسة في كل شيء بفضل الارث الوثني الذي ظل متغلغلاً في أعماقها.

وفي القرون الأولى للمسيحية كان معظم المعجزات يدور حول شخصية المسيح وأمه وشيء منها للرسل والتلاميذ، لكن الكنيسة لم تقتصر على المعجزات الربانية الحقة بل نسج خيالها خوارق أخرى هي أخلاط وأوهام يغلب عليها عنصر التهويل وتتسم بطابع الأساطير الوثنية القديمة التي تخيلها شعراء اليونان وغيرهم.

ولنأخذ على ذلك مثلاً «مولد عيسى» عليه السلام كما صوره يوحنا في الاصحاح الثاني عشر من الرؤ يا:

«ظهرت آية عظيمة في السماء امرأة متسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلده وظهرت آية اخرى في السماء هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى رؤوسه سبعة تيجان وذنبه يجر ثلث نجوم السماء فطرحها إلى الأرض والتنين وقف أمام المرأة العتيدة أن تلد. حتى يبتلع ولدها حتى ولدت. فولدت ابنا ذكراً ان يرعى جميع الأمم بعصا من حديد واختطف ولدها إلى الله وإلى عرشه والمرأة هربت إلى البرية حيث لها موضع معد من الله لكي يعولوها هناك الفا ومائتين وستين يوماً، وحدثت حرب في السماء ميخائيل وملائكته حاربوا التنين وحارب التنين وملائكته».

أما بطرس فتروي له رسالة «أعمال الرسل» هذه المعجزة:

«صعد بطرس على السطح ليصلي نحو الساعة السادسة فجاع كثيراً واشتهى أن يأكل وبينما هم يهيئون له وقعت عليه غيبة فرأى السماء مفتوحة واناء نازلاً عليه مثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة اطراف ومدلاة على الأرض وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء»(٤٤).

أما في العصور اللاحقة فقد اتسع نطاق المعجزات حتى أصبحت مكانة رجل الدين ــ وقداسته مرهونة بما يظهر على يديه من الخوارق وما يتعاطى من الشعوذات وكان باستطاعته أن يترقى في منصبه بالقيام بأي عمل تجهل العقول الساذجة علته الحقيقية مدعياً ان ذلك هبة من الروح القدس له، وإذا كان التاريخ يذكر فزع الامبراطور «شارلمان» وحاشيته من الساعة التي أهداها إليه الرشيد ظانين أن بها قوى خفية من الجن والشياطين فما بالك بعامة الشعب من الفلاحين والرعاة.

ونظراً لكثرة الشواهد التاريخية على ذلك فسنتجاوز القرون الوسطى إلى العصر الحديث حيث نلمح الكثير من الخرافات الكنسية لا تزال تمارس نشاطها على أتباع الكنيسة في العالم الغربي ذاته، يقول فريزر:

«معظم الفلاحين في فرنسا لا يزالون يعتقدون أن القسيس يملك على العناصر قوة خفية لا تقاوم وانه حين يتلو بعض الصلوات المعينة بالذات التي لا يعرفها سواه والتي لا يحق لغيره أن يرتلها فانه يستطيع في حالة الخطر الداهم أن يبطل لفترة معينة فعل القوانين الأبدية للعالم الفيزيقي أو حتى يقلبها تماماً»(٤٥).

---

(٤٤) صح: ١٠.

(٤٥) الغصن الذهبي: ٢٢٤ ــ ٢٢٥.

وفي مناطق أخرى يعتقد الناس «أن القسيس يملك القدرة على تشتيت العواصف وإن لم يكن لكل القساوسة مثل هذه الملكة ولذا فانه حين يتغير راعي الكنيسة في بعض تلك القرى يبدي أتباع الأبرشية كثيراً من التلهف لمعرفة ما إذا كان الراعي الجديد يتمتع بهذه «السلطة» كما يسمونها، وعلى ذلك فمجرد أن تظهر أدنى بادرة بهبوب إحدى العواصف الشديدة فإنهم يخضعونه للاختبار فيطلبون إليه القيام ببعض الشعائر والتراتيل ضد الغيوم المتكاثفة فإذا جاءت النتائج محققة لآمالهم ضمن الراعي الجديد لنفسه عطف أتباع الكنيسة واحترامهم»[٤٦] وإلا فالعكس بالعكس.

وهناك قداس خاص يستعمله القساوسة في الأعمال الانتقامية يتحدث عنه فريزر بقوله:

«لا يقام هذا القداس إلا في كنيسة متهدمة أو مهجورة حيث تنعق البوم وتمرح الخفافيش وقت الغسق وتأوي إليها جماعات الغجر في الليل، وحيث تقبع الضفادع البرية تحت مذبحها المدنس فهناك يأتي ذلك القسيس الشرير بالليل ومعه عشيقته الفاجرة الخليعة وحين ترسل الساعة أولى دقاتها معلنة الحادية عشرة يبدأ يُهَمْهِم في تلاوة القداس ابتداء من آخره إلى أوله بحيث يفرغ منه حين تبدأ دقات الساعة تعلن منتصف الليل وتقوم عشيقته بمساعدته في ذلك أما القربان الذي يباركه فلابد أن يكون أسود اللون كما أنه لا يتناول النبيذ ولكنه يشرب بدلاً منه بعض الماء من بئر سبق أن ألقيت فيها جثة طفل مات قبل تعميده ثم يرسم علامة الصليب ولكن على الأرض وبقدمه اليسرى ويقوم باداء كثير من الأعمال الأخرى التي لا يستطيع

---

(٤٦) الغصن الذهبي ٢٢٦

أي مسيحي أن يراها دون أن يصيبه العمى والصمم والبكم بقية حياته»[٤٧].

وفي سنة ١٨٩٣م حدثت في جزيرة صقلية واقعة تصور الموضوع أبلغ تصوير فقد كانت الجزيرة تمر بمحنة رهيبة بسبب الجفاف وكان الجدب قد استمر ستة أشهر متصلة وتناقصت كميات الطعام بسرعة وانتاب الناس ذعر شديد فجربوا كل الطرق المعترف بها للحصول على المطر، خرجت جموعهم من منازلهم وأحاطوا بالصور والتماثيل المقدسة يتوسلون إليها بترتيل الصلوات وإضاءة الشموع في الكنائس طيلة الليل والنهار وعلقوا على الأشجار سعف النخيل الذي سبق لهم أن باركوه في «أحد السعف»[٤٨] ونثروا في الحقول «الكناسة المقدسة» وهي التراب الذي كنسوه من الكنائس في ذلك اليوم فلم يجُد ذلك شيئاً، وحملوا الصلبان على أكتافهم وساروا حفاة الأقدام عراة الرؤوس وجلد بعضهم بعضاً بالسياط ولكن دون جدوى.

وأخيراً لجأوا إلى القديسين وتجمعوا حول القديس فرانسيس الذي اعتادوا حسب اعتقادهم أن ينالوا المطر ببركته فأقاموا له الصلوات والترانيم والزينات لكن جهودهم كلها ذهبت هباء فنبذوا معظم القديسين حتى انهم ألقوا بالقديس يوسف في احدى الحدائق ليجرب بنفسه الحال التي وصل إليها الناس وأقسموا أن يتركوه هناك في الشمس حتى يأتيهم بالمطر، وأداروا وجوه بعض القديسين إلى الحائط كما يفعل المدرس بالتلاميذ الأشقياء، وجردوا بعضهم من ملابسهم الفاخرة وقذفوهم بأقذع السباب والشتائم أما القديس ميخائيل رئيس الملائكة ـ حسب عقيدتهم ـ فقد نزعوا أجنحته الذهبية ومزقوها

---

(٤٧) الغصن الذهبي: ٢٢٧

(٤٨) يوم مقدس عندهم.

ووضعوا مكانها أجنحة ورقية وفي بعض المناطق قيد الناس قس بلدتهم وتركوه عارياً وأخذوا يهتفون إليه بغضب «المطر أو حبل المشنقة»[٤٩].

ومن الخرافات التي ما تزال عالقة بأذهان النصارى إلى اليوم خرافة «تجلي العذراء» التي يثيرونها حيناً بعد آخر[٥٠]، كما أن هناك عادات غربية شائعة اليوم أصلها خرافات كنسية فمثلاً التشاؤم من الرقم (١٣) أصله أن يهوذا الذي دل على المسيح هو التلميذ الثالث عشر للمسيح فكان ذلك مصدر شؤم للكنيسة وأتباعها حتى أنه عند ترقيم المنازل في المدن الغربية يرفض بعضهم وضع هذا الرقم على منزله ويضع مكانه «١٢ ب».

وهذا غير الخرافات الكنسية عن الكون والحياة التي سنعرض لها عند موضوع «علمانية العلم» وحينئذ سيتضح أثر هذه الخرافات بجملتها في إثارة الصراع الذي دار طويلاً بين الدين والعلم «أو العقل والوحي».

* * *

سادساً ـ صكوك الغفران

توجت الكنيسة تصرفاتها الشاذة وبدعها الضالة بمهزلة لم يعرف تاريخ الأديان لها مثيلاً، وحماقة يترفع عن ارتكابها من لديه مسكة من عقل أو ذرة من إيمان، تلك هي توزيع الجنة وعرضها للبيع في مزاد علني وكتابة وثائق للمشترين تتعهد الكنيسة فيها بأن تضمن للمشتري غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبراءته من كل جرم وخطيئة سابقة ولاحقة ونجاته من عذاب المطهر، فإذا ما تسلم المشتري صك غفرانه

---

(٤٩) الغصن الذهبي: ٢٨٠ ـ ٢٨٢.

(٥٠) انظر قذائف الحق للشيخ الغزالي: ٤٨ فما بعدها.

ودسه في محفظته فقد أبيح له كل محظور وحل له كل حرام: ماذا عليه لو زنا وسرق وقتل بل لو جدف وألحد وكفر ما دام الصك رهن يده؟ أليس المسيح هو الذي منحه إياه والمسيح هو الذي يدين ويحاسب؟ أتراه متناقضاً إلى هذا الحد: يمنح الناس المغفرة ثم يحاسبهم على الذنوب؟

وإذ قد اطمأن المشتري إلى هذه النتيجة فقد بقي لديه ما ينغص الفرحة ويكدر الغبطة ذلك أن والديه وأقرباءه المساكين قد ماتوا وليس معهم صكوك.

لكن الكنيسة (الأم الرؤوم لكل المسيحيين) شملت الكل برحمتها وأتمت الفرحة لزبونها فأباحت له أن يشتري لمن أحب «صك غفران» وما عليه بعد دفع الثمن إلا كتابة اسم المغفور له في الخانة المخصصة فيغادر المطهر فوراً ويستقر في ظلال النعيم مع المسيح والقديسين.

أما الشقي النكد عديم الحظ فهو ذلك القن الذي لم يستطع أن يحصل من سيده الاقطاعي «المغفور له» على ما يشتري به صكاً من قداسة الآباء أو المريض المقعد الذي لا يجد عملاً يخول له الحصول على المغفرة، أو الفقير المعدم الذي يعجز عن استدانة دينارين يشتري بهما جنات النعيم، هؤلاء يظلون محرومين من هذه الموهبة مهما بلغت تقواهم وعظم حبهم للمسيح وتعلقهم بالعذراء.

تلك هي المهزلة أو جانب منها فمن أين جاءت بها الكنيسة إذا كانت الأناجيل والرسائل خالية مما يدعمها أو يدل عليها؟

إن الأساس الذي يبدو أن هذه البدعة انبثقت عنه هو الفكرة الوثنية التي ادعاها رجال الدين «فكرة القداسة» وعن تقديس رجال الدين نشأت فكرة الاستشفاع بهم لدى الله لمغفرة الخطايا وظل الجهلة

والسذج يتوسلون إلى القساوسة راجين الشفاعة والتقرب إلى الله زلفى، فنتج عن ذلك أن تقرر المبدأ الذي أشرنا إليه سلفاً «مبدأ التوسط بين الله والخلق» حتى أصبح حقاً عادياً لأي رجل دين، بل أصبحت وظيفة رجل الدين أينما كان هي التوسط بين الله وخلقه فعن طريقه تؤدى الصلاة ويتناول العشاء الرباني وهو الذي يقوم بالتعميد وبمراسم وطقوس الزواج والموت ويتقبل الاعترافات من المذنبين.

وفي الوقت الذي كان رجل الدين فيه يتقبل الاعتراف لم يكن ليدعي حق المغفرة من نفسه لكن المسيح ــ بزعمه ـ يغفر لمن أقر بذنبه بين يدي أحد أتباع كنيسته التي أورثها سلطانه وفرض لها السيادة على العالمين.

وكان الفرد المسيحي يستطيع ضمان الملكوت مع المسيح باعتراف واحد في العمر هو اعترافه ساعة احتضاره، إذ يتم دهن جسده بالزيت المقدس، فيتطهر من كل الأرجاس والذنوب، وكان من العقوبات الصارمة التي تتخذها الكنيسة ضد مخالفيها من الشعوب أو الأفراد حرمانهم من الاعتراف الأخير والصلاة عليهم فلا يشك مسيحي أنهم ذهبوا إلى الجحيم بسبب ذلك.

واستمر الحال على ذلك فترات طويلة حتى كان مطلع القرن الثالث عشر الميلادي حيث كانت الكنيسة تجتاز مرحلة حاسمة في تاريخها وكانت بحاجة إلى مزيد من السلطة الدينية والنفوذ المالي، لمواجهة أعدائها فقررت عقد مجمع عام لبحث الوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك فعقد المجمع الثاني عشر المعروف باسم مجمع لاتيران سنة ١٢١٥ م ونجح هذا المجمع في اقرار مسألتين كان لهما أثر بالغ على المسيحية في القرون التالية هما:

١ ــ مسألة الاستحالة وقد مرت قريباً (العشاء الرباني).

٢ ـ مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمذنبين وذلك بإصدار القرار التالي:

«إن يسوع المسيح لما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلا منذ الأيام الأولى قد اعلم المجمع المقدس وامر بأن تحفظ للكنيسة في الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي والمثبتة بسلطان المجامع، ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها، غير أنه قد رغب في أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراز حسب العادة المحفوظة قديماً والمثبتة في الكنيسة لئلا يمس التهذيب الكنسي تراخ بفرط التساهل»[٥١].

هذا وقد فرض المجمع على كل المسيحيين أن يعترفوا أمام قسيس الابرشية مرة كل عام لكي يستطيعوا الحصول على الغفران[٥٢]، وتنفيذاً لذلك أخذ الناس يتوافدون على الأبرشيات طلباً للمغفرة ويقدمون للقساوسة الهدايا والصدقات فارتفع مركز الكنيسة معنوياً ومادياً.

وبعد فترة من الزمن أخذ هذا التوافد في الفتور وتقاعس كثيرون عن الاعتراف، وفي الوقت نفسه ازداد الحاح الكنيسة على تثبيت مركزها وتعبئة خزائنها فقررت اتخاذ وسيلة ناجحة لضمان استمرار ذلك فهداها تفكيرها إلى كتابة الغفرانات في صكوك تباع على الملأ وتنص على غفران أبدي بحيث تكون حافزاً قوياً على دفع المبلغ المالي الذي تقرره الكنيسة أو القيام بالخدمات التي ترغب تنفيذها، وهذا نص الصك:

---

(٥١) محاضرات في النصرانية: ١٩٤.

(٥٢) تاريخ العالم: ٥٠٢/٥.

«ربنا يسوع يرحمك يا . . . (يكتب اسم الذي سيغفر له) ويشملك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها، وأيضاً من جميع الافراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ومن كل علة وان كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسي الرسولي وامحو جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وارفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر وأردك حديثاً إلى الشركة في أسرار الكنيسة وأقرنك في شركة القديسين، أردك ثانيةً إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك حتى انه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتي ساعتك الأخيرة، باسم الأب والابن والروح القدس»(٥٣).

بقي أن نلفت النظر إلى حقيقة الوضع الذي كانت عليه الكنيسة والظروف التي ألجأتها لمثل هذه التصرفات، ففي هذه المرحلة من تاريخ الكنيسة كانت تواجه ألد وأخطر أعدائها «المسلمين» وكانت الحروب الصليبية قد استعر إوارها وبدأت تلوح علامات الهزيمة للصليبيين، وبلغ ضعف الحماس الديني في نفوس الأوروبيين مبلغاً كبيراً وفقد المقاتلون ثقتهم في الكنيسة نتيجة لخيبة أملهم في النصر الذي وعدتهم وعداً قاطعاً، ولم يروا للمسيح والملائكة والقديسين أثراً في معاركهم بل على العكس تخيلوا أنهم يقفون ضدهم تماماً، وبذلك اهتز موقف الكنيسة وأيقنت أن وعودها المعسولة بالنصر، وقراراتها الشفوية بالمغفرة للمشتركين في الحرب لم تعد تؤدي مفعولاً مؤثراً

(٥٣) المسيحية: ٢١٤. ومثله في محاضرات في النصرانية.

فقررت تجسيد هذه الأماني في وثيقة خطية محسوسة يحملها المقاتل ويندفع للاشتراك في الحملة الصليبية وهو على ثقة وعزم، وتنفيذاً لذلك برز إلى الوجود مهزلة جديدة هي «صكوك الغفران» وكانت كما يقول ول ديورانت توزع على المشتركين في الحروب الصليبية ضد المسلمين[٥٤].

وعليه فلم يكن ليحظى بالحصول على صك غفران الا أحد اثنين:

١ ـ رجل ذو مال يشتري الصك من الكنيسة حسب التسعيرة التي تحددها هي.

٢ ـ رجل يحمل سيفه ويبذل دمه في سبيل نصرة الكنيسة والدفاع عنها وحراسة مبادئها.

وغير هذين رجل ثالث يعتصر قلبه أسى لأنه لا يملك ثمن الصك أو لا يستطيع أن يشترك في الحرب إما لعجزه وإما لكونه غير مستعد للموت من أجل الكنيسة لكنه يظل أسير صراع نفسي مرير وشعور بالحرمان قاتل.

وهكذا، فالكل مضحون، والكل خاسرون، والكنيسة هي الرابح الوحيد وإن كانت عند الله شر مقاماً وأخسر صفقة.

* * *

---

(٥٤) قصة الحضارة: ١٥/٦٦.

نتائج هذه البدعة

إن بدعة كهذه لن تمر في التاريخ مرور الكرام، بل هي جديرة بأن تحدث أصداء واسعة الانتشار وتثير ردود فعل بعيدة الآثار، لا سيما وقد ظهرت في الفترة التي اتصلت فيها أوروبا بنور الاسلام وأخذت العقول النائمة تتلمس مكانها في الحياة وبدأت الفطر تستيقظ بعد طول رقاد.

كانت هذه البدعة أول أمرها من أسباب قوة الكنيسة ودعائم شموخها لكنها ارتدت عليها بعد ذلك شراً مستطيراً ووباءً قاتلاً.

فمن ناحية المكانة الدينية ارتفعت منزلة رجال الدين في نظر السذج والجهلة بعد أن منحهم المسيح هذه الموهبة العظيمة وخيل إليهم أنه ما دام أعطاهم حق المغفرة للناس فبديهي أنه غفر لهم، بل قدسهم ووهبهم من روحه كما يدعون، وبذلك تجب طاعتهم والتزلف إليهم وتملقهم على من أراد التقرب إلى المسيح والحصول على رضاه.

وإذ قد آمن الناس ـ ملوكاً وصعاليك ـ بحق الغفران، فقد سهل عليهم أن يؤمنوا بمقابله «حق الحرمان» ولم يزدادوا طمعاً في ذاك إلّا وازدادوا رهبة لهذا.

ومن الوجهة المادية أثرت الكنيسة من عملية بيع الصكوك ثراءً

فاحشاً حتى أصبحت بحق أغنى طبقات المجتمع الأوروبي آنذاك بما تكدس في خزائنها من أموال وتدفق عليها من عطايا وهبات.

ومن الوجهة السياسية قويت الكنيسة وتدعمت سلطتها بالجحافل البربرية التي تطوعت للقتال في سبيلها من أجل الحصول على الغفران، وبالمقابل انخفضت سلطة الملوك اللذين كانوا جنوداً للكنيسة بأنفسهم في الحروب الصليبية، إلّا من تردَّد منهم أو حاول التملص من قبضتها فعوقب بالحرمان كما حدث لفردريك الثاني[٥٥].

كل هذه الثمار جنتها الكنيسة من جراء هذه المهزلة البدعة وكان نتاجها الطغيان الأعمى والغطرسة الباغية، ولم لا تطغى وتستبد وقد عبدها الناس من دون الله وقدسوا تعاليمها دون تعاليم المسيح، ولم لا تغتر وتتجبر وهي تملك المجتمع من ناصيته وتتحكم في الضمائر وتسيطر على الأرواح كما تشاء، وترفع من أحبت إلى أعلى عليين وتقذف من أبغضت في دركات الجحيم، وتنصب هذا قديساً وذاك شيطاناً مريداً؟

تلك هي الصورة الايجابية التي خلفتها هذه المهزلة للكنيسة، وعليها اقتصرت نظرة آبائها فدفعهم الغرور إلى المضي قدماً وازدادوا نهمًا غير عابئين بالنتائج ولا حافلين بالعواقب.

لكن سنة الله لا تحابي أحداً ولا تجامله، فكل شيء جاوز حده انقلب إلى ضده والزبد يذهب جفاء، وهكذا كانت صكوك الغفران مسماراً في نعش الكنيسة وبداية لنهايتها وكانت خسارتها بها عظيمة عظم جنايتها.

فمن الوجهة الاقتصادية نرى الاقبال الهائل على شراء الصكوك

---

(٥٥) انظر حول سيرته كتاب الزنديق الأعظم، وفصل أعجوبة العام، ج ٣، ويلز. وسيأتي الحديث عنه، ص ١٣٧.

أعقبه انكماش وفتور كالذي يصيب أي بدعة أو ظاهرة جديدة بعد فترة من ظهورها فنضب الكثير من موارد الكنيسة في حين ازدادت طمعاً وشراهة واضطرت إلى عرض الصكوك بطريقة مبتذلة، فكان الآباء والقساوسة يتجولون في الاقطاعيات ويبيعونها بأسعار مخفضة ثم زهيدة، وكلما ازداد العرض قل الطلب وتولد لدى الناس شعور داخلي بأن شراءها إضاعة للمال فيما لا فائدة فيه، أو على الأقل فيما ليس مضمون العاقبة.

وفي الوقت نفسه داهمت المسرح المالي فئة جديدة من الناس أخذت تظهر بوضوح منافسة للطبقتين البارزتين آنذاك «النبلاء» و«رجال الدين» تلك هي الطبقة البورجوازية وحصلت تحولات أخرى كانت بمثابة المؤشر لنهاية النظام الاقطاعي بجملته.

ومن ناحية المكانة الدينية لرجال الدين فقد بدأت تلك الهالة القدسية المحيطة بهم تتبخر شيئاً فشيئاً بعد زمان من ظهور هذه المهزلة وابتدأ الناس يعتقدون أنهم كانوا مخطئين في ذلك الاندفاع الأعمى والتسليم الأبله وعمّق ذلك الاعتقاد تنافس القساوسة على بيع الصكوك مقروناً به سيرتهم السيئة وفجورهم الفاضح، وعجب الناس إذ رأوا كثيراً من الأشرار والطغاة والمجرمين يتبوأون مقاعدهم في الملكوت ببركة الصكوك التي منحها لهم رجال الدين فكان ذلك إيذاناً بالشك في قداسة رجال الدين أنفسهم ومدى صلاحهم واستحقاقهم للملكوت في ذواتهم.

ومن ناحية المركز السياسي والنفوذ الدنيوي: كان لصكوك الغفران وما أحاط بها من ظروف وملابسات أثره البالغ في العلاقة بين الكنيسة من جهة والملوك والأمراء والنبلاء من جهة أخرى، فقد رأوا أن قبضة الكنيسة تزداد استحكاماً مع الأيام وأنهم وشعوبهم ليسوا

إلا أدوات أو صنائع لرجال الدين يمنون عليهم بالعفو إن رضوا ويعاقبونهم بالحرمان إن سخطوا، كما أن الثراء الذي حصلت عليه الكنيسة جعلها تبدو منافساً قوياً لأصحاب الاقطاعيات وكبار الملاك فكان يسيطر على الجميع شعور موحد بالعداوة لها والحقد عليها. لذلك لم تكد بوادر الاستنكار ضد تصرفاتها لا سيما صكوك الغفران ـ تبرز للعيان حتى انتهزها الملوك والأمراء فرصة سانحة لحماية الحركات المعارضة وتأجيج سعيرها ولولا أن بعض المصلحين الكنسيين ولوثر خاصة ـ وجدوا الحماية والعطف من الأمراء والنبلاء لما نجوا من قبضة الكنيسة ونتائج قرارات حرمانها.

ومن ناحية أخرى رأي الأوروبيون، حكاماً ومحكومين، الحياة الكريمة التي يعيشها الشرق الاسلامي حيث لا كهنوت ولا طغيان ولا احتكار، فهزت هذه الرؤية أنفسهم وبهرت عيونهم لدرجة أن صكوك الغفران ووعود الكنيسة بالملكوت أصبحت بالنسبة لهم هراء لا طائل تحته وعبثاً يبعث على الاشمئزاز والاستخفاف.

تلك صورة مجملة لبعض النتائج التي ترتبت على بدعة صكوك الغفران وملابساتها بالنسبة للكنيسة خاصة، أما بالنسبة للوضع الاجتماعي والديني بصفة عامة، فقد كانت صكوك الغفران سبباً مباشراً في انبعاث الشرارة الأولى التي اندلعت نيرانها فيما بعد فالتهمت الأوضاع الاجتماعية وأودت بالتعاليم الكنسية والتقاليد الدينية كافة، ولا يشك أي منصف في أن للإسلام تأثيراً مباشراً على الثورة العارمة ضد الكنيسة وإن كان دعاتها ومؤيدوها يكنون له أشد العداوة والحقد، على أن ما يهمنا الآن هو أن مهزلة صكوك الغفران قد ساعدت بصفة مباشرة على هدم التعاليم الدينية من أساسها والاستهتار بكل المعتقدات والأصول الايمانية بجملتها وأسهمت في

انتشار فكرة إنكار الآخرة «والجنة والنار» التي لا يقوم دين بغيرها.

ولا زالت إلى الآن شاهداً قوياً ومستنداً قاطعاً لكل أعداء الدين في الغرب، حيث نشأ عن الكفر برجل الدين وتصرفاته كفر بالدين ذاته وما يتصل به من سلوك وخلق.

وكان الخيار الصعب الذي وضعه أعداء الدين ـ لا سيما اليهود ـ أمام الانسان الأوروبي هو إما أن يؤمن بصكوك الغفران فيحكم على نفسه تلقائياً بالجمود والغباء والرجعية المتناهية؛ وإما أن يكفر بها فيلزمه الكفر بالاطار الذي يحويها بكامله إطار الدين والغيبيات، لا سيما الآخرة.

لذلك نجد الفيلسوف اليهودي الوجودي «جان بول سارتر» يجسّد هذا الخيار في إحدى رواياته المشهورة «الشيطان والرحمن»[٥٦] هذا مع أن الكنيسة في عصرنا الحاضر لا تصدر صكوك غفران بل تستحي من ذكرها وتخجل كلما دار الحديث عنها.

(٥٦) ترجمها للعربية: سامي الجندي.

البَابُ الثّاني

أسْبَابُ العِلْمَانيّة

الفصل الأول: الطغيان الكنسي.

الفصل الثاني: الصراع بين الكنيسة والعلم.

الفصل الثالث: الثورة الفرنسية.

الفصل الرابع: نظرية التطور.

الفصل الأول
الطُغيَان الكَنسَي

أسباب طغيان رجال الكنيسة:

الطغيان في ذاته مرض خطير يدمر النفس الانسانية ويمسخ سماتها ويحيل الكائن البشري إلى روح شيطانية ماردة.

ومن خصائص هذا المرض أن أعراضه لا تصيب إلا ذا نفس هزيلة أتيح لها وسائل تفوق طاقتها ومساحة أكبر من حجمها، ولم يكن لديها وازع خلقي أو رادع إيماني يكبح جماحها وضبط سلوكها.

ولا يكون الطغيان ــ كذلك ــ إلا مظهراً للشعور بالنقص لدى النفس الطاغية، إذ تحاول بواسطته ستر نقيصة داخلية مؤرقة أو تسويغ مسلك معوج يعجز عن تبريره المنطق السليم والاقناع الهادىء.

فالطغيان يبدأ وسيلة خاطئة وينتهي مرضاً مدمراً لا شفاء له إلا الموت القاصم.

وحين يصدر الطغيان من حاكم وثني أو زعيم دنيوي فإنه يكون معقولاً إلى حد ما، وإن كانت فظاعته لا يسوغها عقل ولا ضمير، أما حين يصدر الطغيان عن رجال يراهم الناس «قديسين» ورسل سلام وطلاب آخرة، فذلك مما يشق على النفس احتماله ويبعد عن الذهن

قبوله، لا سيما إذا كانوا رجال دين يجعل المحبة شعاره والتسامح ميزته ويقول لأتباعه:

«من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الآخر أيضاً، ومن أراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً، ومن سخّرك ميلاً واحد فاذهب معه اثنين»[1].

إن هذه المفارقة العجيبة لَتستدعي مزيداً من الفحص والتأمل للبحث عن الأسباب الكامنة وراء ذلك الطغيان الأعمى، وذلك يستلزم ان ننظر إلى طبيعة وضع رجال الدين، وطبيعة ظروف دينهم وطبيعة البيئة التي مكنتهم من فرض أنفسهم عليها.

أما طبيعة رجال الدين فقد كانوا سابقين لعصرهم في ناحية مهمة هي الناحية التنظيمية، إذ كانوا مؤسسة تنظيمية مركبة تركيباً عضوياً دقيقاً من القاعدة العريضة الممتدة في كافة الاصقاع والأقاليم إلى قمة الهرم المتمركزة في روما، وهذه الميزة أكسبتهم نفوذاً مستمراً لا يقبل المنافسة وجذوراً عميقة يصعب اقتلاعها، ولذلك نلاحظ ان كثيراً من الأباطرة المتمردين على الكنيسة يفشلون دائمًا في مواجهتها ويرتدون صاغرين إلى الانضواء تحت ظلها، كما ان العالم الغربي المسيحي لم يستطع التخلص من قبضة الكنيسة إلا بعد الثورة الداخلية التي قادها المصلحون الكنسيون، والتي أدت إلى إضعاف الهيكل التنظيمي والسلطة المركزية وتشتيت ولاء الأفراد.

وكان من الممكن أن يتمتع رجال الدين بثمرات هذا التنظيم الفائق ويسخروها لخدمة المصلحة الدينية دون أن يكون ذلك داعياً للطغيان والاستبداد، ولكن الشرط الأساسي لذلك هو النية الحسنة والاخلاص المجرد وهو شرط فقدته الكنيسة منذ أن فقدت الايمان

---

(١) متى ٥: ٤٠ ـ ٤٢.

الصحيح والعقيدة الصادقة.

والنفس البشرية أينما كانت لا تخلو من حب الطغيان إذا تهيأت لها أسبابه. وليس كخشية الله تعالى واستشعار رقابته وضعف الانسان إزاء قدرته حاجز لها عنه. ولما كانت الكنيسة مفلسة من ذلك فقد آل الأمر إلى ان تبدأ هيئتها التنظيمية شركة دنيوية تطمح إلى النفوذ الاجتماعي والمغانم الزائلة ثم تمكنت بوسائل شتى من ان تصبح قوة استبدادية غاشمة.

وليس ثمة شك في ان مركزها الديني هو الذي هيأ لها النجاح المطرد، وهذا يقودنا إلى البحث في طبيعة دينها وظروفه التي أتاحت لها ذلك.

سبق أن أشرنا إلى الاضطهاد البالغ الذي تعرّض له أتباع السيد المسيح ـ عليه السلام ـ من بعده، ذلك الاضطهاد الذي أدى إلى تحول الدعوة المسيحية إلى دعوة سرية، فاختفى الكثير من دعاتها، وتستروا في أقاليم مختلفة وأخفوا معهم نسخ الأناجيل. بل دونوا الأناجيل آنذاك وكتبوها بلغاتهم الخاصة وظلوا يتناقلون نسخها سراً، إذ كانت تتعرض للحرق والمصادرة من قبل الروم وكان الداخل الجديد في دينهم يأخذ عنهم التعاليم مشافهة بعد ترجمتها إلى لغته الدارجة، ثم يبثها في بني قومه سراً، أيضاً فإذا أشكل عليهم أمر رجعوا إلى الداعية الذي يملك نسخة لأحد الأناجيل فيبين لهم رأي الانجيل أو رأيه الخاص في ذلك الامر. ولم يكن الدعاة يسمحون للأتباع بتمليك النسخ أو يطلعونهم عليها خشية على أنفسهم وعلى الكتب أيضاً، بالاضافة إلى كون عقلية الأتباع وظروف البيئة لم تكن تؤهلهم للأخذ المباشر أو الاستنباط والاجتهاد الذاتي، ويزداد الأمر صعوبة إذا كانوا يجهلون اللغة التي كتب بها الانجيل.

كل ذلك أدى إلى انحصار المصادر الدينية للمسيحية في أيدي

فئة قليلة من الناس واقتصار حق شرحها وتأويلها عليهم وحدهم، فلما انقضت عصور الاضطهاد واعتنقت الدولة الرومانية الدين الكنسي احتفظ رجال الكنيسة بحق قراءة وشرح الكتب المقدسة وأيدتهم الدولة في ذلك لتجمع رعاياها على عقيدة واحدة بإتاحة الفرصة للكنيسة للقضاء على الفرق المنشقة، وكما قلنا في سبب وجود رجال الدين ورث رجال الكنيسة عن أحبار اليهود صفاتهم الممقوتة من التعصب الأعمى واتباع الهوى واحتكار الرأي، فظلت مصادر الدين الكنسي حكراً عليهم لا تقع عليها يد لباحث أو ناقد من غير رجال الدين، وكان باستطاعة الكنيسة ان تفرض كل شيء باسم الانجيل وهي آمنة من أن أحداً لن يقوم حيالها بأدنى معارضة.

وهكذا ظلت مصادر الدين النصراني المحرف قابعة في خبايا الكنائس وزوايا الأديرة تؤخذ تعاليمها مشافهة من أولئك الذين يزعمون القداسة والعصمة، وما دامت مصادر الديانة غير مكشوفة فكيف يعرف الناس مقدار صدق رجال الدين فيما يقولون عن الله وكيف يمكنهم مناقشة الكنيسة فيما تمليه من عقائد وتشريع؟ لم يكن أمامهم إلا التسليم المطلق والطاعة العمياء.

وإذ قد اطمأنت الكنيسة إلى أن أحداً لن ينبس ببنت شفة فيما يمس قداستها وصواب آرائها، فقد اشتطت وغلت في فرض سلطانها وتعميق هيبتها ووجدت الباب مفتوحاً إلى طغيان لا يلين ولا يرحم.

يبقى أن نعرض لطبيعة البيئة التي شهدت هذا الطغيان، ومدى تأثيرها في بقائه واستحكامه، فنرى أنه كانت الغالبية العظمى من الروم وسكان مستعمراتهم من الأميين السذج الذين ألفوا العبودية والخضوع المستمر للقوى المسيطرة وكانوا من الضحالة الفكرية على درجة ليست قليلة. وكان سكان أوروبا قبائل همجية تعيش أسوأ مراحل التاريخ

الأوروبي كله، لا سيما العصور الأولى من القرون الوسطى، التي تسمى «العصور المظلمة»، واعتنق هؤلاء الديانة الرسمية للامبراطورية وأحلوا عبادة المسيح محل عبادة الامبراطور. لكنهم لم يتعرضوا ليقظة إيمان حقيقي، كتلك التي هزّ بها الاسلام نفوس معتنقيه ورفع مستواهم الروحي والعقلي إلى آفاق عظيمة، بل ظلوا على تلك الحال من الهمجية والانحطاط حتى مطلع العصر الحديث... لذا كان من الطبيعي للجماهير الغفيرة أن تنساق وراء عقولها السطحية وعواطفها الساذجة فتصدق كل ما تسمع وتؤمن بكل ما يقال؛ وكان رجل الدين هو كل شيء بالنسبة لها فلم يكن هنالك أي أثر لعالم أو مؤرخ أو باحث، بل كان الظلام المطبق يسيطر على الحياة من كافة نواحيها ورجل الدين هو الوحيد الذي يملك بصيصاً ضئيلاً يتمثل في معرفته للقراءة والكتابة وكونه الموجه الروحي للمجتمع... وبيئة هذه حالها، وأمة هذه صفاتها، جديرة بأن توفر للطاغية حماية كافية ومناخاً صالحاً لفرض طغيانه في المجال الذي يريد، وإشباع رغبته التسلطية كما يشاء.

هذه الأوضاع والعوامل مجتمعة وهي السلطة الكهنوتية المنظمة والمصادر غير المكشوفة والبيئة البدائية جعلت من الكنيسة مارداً جباراً وطاغوتاً جائراً يملك كل مقومات البقاء ولوازم الاستبداد ويريد ان يسيطر على كل شيء ويسير كل شيء وفق إرادته وهواه. ولم تدع الكنيسة جانباً من جوانب الحياة دون ان تمسكه بيد من حديد وتغله بقيودها العاتية فهيمنت على المجتمع من كل نواحيه الدينية والسياسية والاقتصادية والعلمية وفرضت على عقول الناس وأموالهم وتصرفاتهم وصاية لا نظير لها البتة. وان التاريخ ليفيض في الحديث عن طغيان الكنيسة ويقدم نماذج حية له في كل شأن من الشؤون. ولنستعرض شيئاً من ذلك في نواح مختلفة من الحياة:

أولاً ـ الطُغيَان الدِّينِي

منذ أن ظهر إلى الوجود ما يسمى المسيحية الرسمية في مجمع نيقية ٣٢٥م، والكنيسة تمارس الطغيان الديني والارهاب في أبشع صورة، ففرضت بطغيانها هذا عقيدة التثليث قهراً وحرمت ولعنت مخالفيها، بل سفكت دماء من ظفرت به من الموحدين وأذاقتهم صنوف التعذيب وألوان النكال ونصَّبت نفسها عن طريق المجامع المقدسة «الها» يحلّ ويحرّم، ينسخ ويضيف، وليس لأحد حق الاعتراض، أو على الأقل حق إبداء الرأي، كائناً من كان وإلا فالحرمان مصيره واللعنة عقوبته لأنه كافر «مهرطق».

كان الختان واجباً فأصبح حراماً، وكانت الميتة محرمة فأصبحت مباحة، وكانت التماثيل شركاً ووثنية فأصبحت تعبيراً عن التقوى، وكان زواج رجال الدين حلالاً فأصبح محظوراً، وكان أخذ الأموال من الأتباع منكراً فأصبحت الضرائب الكنسية فرضاً لازماً، وأمور كثيرة نقلتها المجامع من الحل إلى الحرمة أو العكس دون ان يكون لديها من الله سلطان أو ترى في ذلك حرجاً، وأضافت الكنيسة إلى لغز «الثالوث» المعمى عقائد وآراء أخرى تحكم البديهة باستحالتها ولكن لا مناص من الايمان بها والاقرار بشرعيتها على الصورة التي توافق هوى الكنيسة كقضية الاستحالة في العشاء الرباني وعقيدة الخطيئة الموروثة وعقيدة الصلب والعذراء والطقوس السبعة، كل هذه فرضتها على الأتباع بحجة واحدة هي انها أسرار عليا لا يجوز الخوض فيها أو الشك في صحتها، وكان العامل المساعد على إنجاح محاولاتها الذي تتمثل فيه صورة الطغيان الديني جلية واضحة ما ذكرناه من احتكارها للمصادر الدينية ذلك الذي جعلها حاجباً، لا يستطيع أحد دخول الملكوت إلا بواسطته ولا يمكنه الاتصال بالله إلا من طريقه وهي حق

لا مرية فيه ما دامت الكنيسة هي التي قررته إذ هي معصومة عن الخطأ منزهة عن الزلل. يتحدث «ويلز» عن رجال الكنيسة قائلاً:

«ولم تعد لهم رغبة في رؤية مملكة الرب موطدة في قلوب الناس فقد نسوا ذلك الأمر وأصبحوا يرغبون في رؤية قوة الكنيسة التي هي قوتهم هم متسلطة على شؤون البشر وكانوا في سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أي شيء حتى البغض والخوف والشهوات المستقرة في قلوب البشر، ونظراً لأن كثيراً منهم كانوا على الأرجح يرون الريبة في سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة لم يسمحوا بأية مناقشة فيه، كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون في مخالفة لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم بل لأنهم كانوا غير واثقين فيها، وقد تجلى في الكنيسة في القرن الثالث عشر ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التي تنخر بناء مدعياتها بأكمله وقد تجعله اثراً بعد عين، فلم تكن تستشعر أي اطمئنان وكانت تتصيد الهراطقة في كل مكان كما تبحث العجائز الخائفات عن اللصوص تحت الأسرة وفي الدواليب قبل الرجوع إلى فراشهن»[٢].

وعززت الكنيسة سلطتها الدينية الطاغية بادعاء حقوق لا يملكها إلا الله، مثل حق الغفران وحق الحرمان وحق التحلّة، ولم تتردد في استعمال هذه الحقوق واستغلالها، فحق الغفران أدى إلى المهزلة التاريخية، «صكوك الغفران» السالفة الذكر، وحق الحرمان عقوبة معنوية بالغة كانت شبحاً مخيفاً للأفراد والشعوب في آن واحد، فأما الذين تعرضوا له من الأفراد فلا حصر لهم، منهم الملوك أمثال «فردريك» وهنري الرابع الالماني وهنري الثاني الانجليزي، ورجال

(٢) معالم تاريخ الإنسانية: ٩٠٢/٣.

الدين المخالفين من آريوس حتى لوثر، والعلماء والباحثون المخالفون لآراء الكنيسة من «برونو» إلى «أرنست رينان» وأضرابه.

وأما الحرمان الجماعي فقد تعرض له البريطانيون عندما حصل خلاف بين الملك يوحنا ملك الانجليز وبين البابا، فحرمه البابا وحرم أمته فعطلت الكنائس من الصلاة ومنعت عقود الزواج، وحملت الجثث إلى القبور بلا صلاة وعاش الناس حالة من الهيجان والاضطراب حتى عاد يوحنا صاغراً يقر بخطيئته ويطلب الغفران من البابا ولما رأى البابا ذله وصدق توبته رفع الحرم عنه وعن الأمة(٣).

أما حق التحلّة فهو حق خاص يبيح للكنيسة ان تخرج عن تعاليم الدين وتتخلى عن الالتزام بها متى اقتضت المصلحة ـ مصلحتها هي ـ ذلك(٤).

على ان الكنيسة لم تقتصر على هذا بل طبقت عملياً ما يثبت اصرارها على الطغيان وحشدت الجيوش الجرارة لمحاربة من سولت له نفسه مخالفة آرائها أو اعتنق ما يخالف عقيدتها ولا نعني بذلك المسلمين أو اليهود بل الطوائف النصرانية التي اختلفت مع الكنيسة في قضية من قضايا العقيدة أو الشريعة.

ومن أوضح الشواهد على ذلك في العصور الوسطى ما تعرض له «الكاثاريون» و«الوالدونيون» الذين لم يتخلوا عن الدين بل كانوا يطالبون بحياة مسيحية حقيقية تستمد مقوماتها من الكتاب المقدس نفسه وأنكروا على الكنيسة ثراءها ودنيويتها ومع ذلك فقد أعلنت الكنيسة الحرب عليهم، وحرض البابا «انوسنت» كما يقول ويلز:

---

(٣) انظر حرية الفكر سلامة موسى: ٥٦.

(٤) معالم تاريخ الإنسانية: ٣/٨٩٦.

«على حرب صليبية ضد هاته الشيع وأذن لكل نذل زنيم أو متشرد أثيم ان ينضم إلى الجيش وان يعمل السيف والنار واغتصاب الحرائر ويرتكب كل ما يمكن ان يتصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات» ويعلق المؤرخ الانجليزي على ذلك بقوله:

«القصص التي تروى عن هذه الحروب الصليبية تحكي لنا من أضرب القساوة والنكال البشع ما يتضاءل إزاء بشاعته قصة استشهاد المسيحيين على أيدي الوثنيين. وهي فوق هذا تسبب لنا رعباً مضاعفاً لما هو عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها، كان هذا التعصب الأسود القاسي روحاً خبيثاً... يتعارض تماماً مع روح يسوع الناصري. فما سمعنا انه لطم الوجوه أو خلع المعاصم لتلاميذه المخالفين له، ولكن البابوات كانوا طوال قرون سلطانهم في حنق مقيم ضد من تحدثه نفسه بأهون تأمل في كفاية الكنيسة الذهنية»[٥]

ولم يقف الأمر عند هذا الحد لاسيما بعد أن اتضح للكنيسة الأثر الاسلامي الظاهر في الآراء المخالفة لها فأنشأت ذلك الغول البشع والشبح المرعب الذي أطلق عليه اسم «محاكم التفتيش». ولا يفوتنا أن نقول أن الضحية الأولى لمحاكم التفتيش كانت المسلمين الأندلسيين الذين أُبيدوا إبادة تامة بأقسى وأشنع ما يتخيله الانسان من الهمجية والوحشية، ثم ظلت تمارس أعمالها على مخالفي الكنيسة وإن لم يكونوا مسلمين أو متأثرين بالحضارة الاسلامية.. وانتقلت من اسبانيا إلى بقية أقاليم الكنيسة، وكانت المحكمة الأم لها هي «المحكمة المقدسة» في روما، ولا يكاد المؤرخون الغربيون يتعرضون للحديث عنها إلا ويصيبهم الاضطراب وتتفجر كلماتهم رعباً فما بالك بالضحايا الذين أزهقت أرواحهم والسجناء الذين أذاقتهم ألوان المر والنكال.

---

(٥) معالم تاريخ الإنسانية ٣: ٩٠٥.

«كان الانسان في تلك العصور يكبس منزله وهو هادىء وادع فيحمل في جوف الليل ويعتقل الأشهر بل السنين وهو لا يدري ماهية التهمة التي سيتهم بها، لأن خصماً له من الجيران قد أبلغ المحكمة بأنه سمعه يقول كيت وكيت عن الرؤيا أو عن الثالوث أو عن المعجزات، ثم إذا أصر المتهم على انكار ما نُسِب إليه من التهمة جاز للمحكمة تعذيبه بأن تقطعه أشلاء شلوا بعد شلو أمام عينيه وأن تقرض لحمه بالمقراض، وأخيراً تحرقه»[٦].

وكانت المحكمة عبارة عن سجون مظلمة تحت الأرض بها غرف خاصة للتعذيب والات لتكسير العظام وسحق الجسم البشري وكان الزبانية يبدأون بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجياً حتى يهشم الجسم كله ويخرج من الجانب الآخر كتلة كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم، وكان لدى المحكمة آلات تعذيبية أخرى منها آلة على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة، يلقون الضحية في التابوت ثم يطبقونه عليه فيتمزق جسمه إرباً إرباً، وآلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشد فتقصه قطعة قطعة، وتغرز في أثداء النساء حتى تتقطع كذلك.

وصور أخرى تتقزز منها النفوس وتشمئز لذكرها[٧].

وبفضل هذا الارهاب البالغ والطغيان العاتي، عاش الناس تلك الأحقاب ترتعد قلوبهم وترتجف أوصالهم عند ذكر الكنيسة، ووقف كبار الفلاسفة والنقاد مبهوتين مطرقين، لا يجرؤ أحدهم على التصريح بأنه لا يؤمن بالمسيحية مهما كانت آراؤه مخالفة لتعاليمها، ولم يداخل العلماء الأفذاذ آنذاك مثل «نيوتن وبيكون وديكارت وكانت» أن

---

(٦) حرية الفكر: ٦٢.

(٧) انظر التعصب والتسامح محمد الغزالي ٣١١ ـ ٣١٨، واسبانيا أرضها وشعبها (الفصل الثامن) دوروني لودر.

يعترضوا على عقائد الكنيسة الفجة، لاسيما التثليث والخطيئة والاستحالة، أو على الأقل يجاهروا بمخالفتها، بل يخيل إلى الباحث أنهم كانوا يعيشون فترة من فقدان الوعي تجاه هذه العقائد رغم نبوغهم في مجالات أخرى، وإن كان للموضوع جانب آخر سنتناوله فيما بعد، إن شاء الله.

يقول برنتن: «لم يكن بوسع الكثيرين من أفراد المجتمع الغربي أن يعترفوا صراحة وجماعة بالالحاد أو اللاأدرية أو بمذهب الاتصال بالله أو بأية عقيدة أخرى غير المسيحية إلا خلال القرون القلائل الأخيرة، وقد كان الكفار الذين يجاهرون بكفرهم قلة نادرة في الألف سنة التي استغرقتها القرون الوسطى. ولما كان الناس جميعاً مسيحيين فلم يكن هناك مفر من أن تكون المسيحية هي كل شيء لكل الناس، فلقد كان القديس فرانسيس وأرازمس ولويولا وميكافيلي وباسكال ووزلي ونابليون وغلادستون وجون روكفلر جميعا مسيحيين»[8].

ثانياً ـ الطغيان السياسي

طبيعي جداً ان يكون لرجال الدين سلطة سياسية في الأمة التي تدين بدينهم، بل ان الافتراض الذي لا يصح سواه هو أن تكون أزمة الأمور كلها ـ والسياسة خاصة ـ في يد فئة مؤمنة متدينة تطبق شريعة الله وتقيمها في واقع الحياة. لكن الذي لا يصح على الاطلاق هو أن يتحول رجال الدين إلى طواغيت ومحترفين سياسيين، مع نبذ شريعة الله وإسقاطها من الحساب ليحل محلها شهوة عارمة للتسلط ورغبة شرهة في الاستبداد. ومفاد ذلك أنه لا حرج على الكنيسة في تقويم انحرافات الملوك وممارسة الضغوط عليهم إذا سولت لهم أنفسهم خرق

---

(٨) أفكار ورجال: ٢٠٧.

التعاليم الدينية وتجاوز الأوامر الالهية لتردهم إلى حظيرة الدين وتعبدهم لله وحده، فهذا عين مهمتها في الحياة ولا ينبغي لها بحال أن تتخلى عنها، أما ان تسهم الكنيسة في طمس الدين وتعطيل الشريعة ثم تفرض نفسها وصية على الملوك والأمراء وترغمهم على الخضوع المذل لها وتجعل معيار صلاحهم منوطاً بمقدار ما يقدمونه لها من مراسم الطاعة وواجبات الخدمة، لا بمقدار ما يحفظون حدود الله ويستقيمون على منهجه فذلك هو الأمر الشائن والعيب الفاضح، ومع هذا فهو الذي حصل بالفعل للكنيسة المسيحية طيلة عصور ازدهارها.

لقد ظلت النفسية الأوروبية تعاني تمزقاً رهيباً ما تزال آثاره ممتدة إلى اليوم بسبب الصراع المزمن الذي دار بين الكنيسة وبين الملوك والمنافسة الشديدة بين الطرفين للقبض على مقاليد المجتمع وكسب ولاء الأفراد.

ولم تكن الحرب بين أتباع البابوات وأنصار الأباطرة أو «الجولف والجبليين» ـ كما يعرفهم التاريخ الأوروبي ـ إلا حرباً بين حزبين متناحرين لا يكاد أحدهما يتميز عن الآخر إلا في الشعارات التي يخفي تحتها مطامعه الدنيوية البحتة.

كان ملوك أوروبا يضيقون ذرعاً بتدخل الكنيسة المتعنت في كل شؤونهم، ذلك التدخل الذي لا يجدون له مبرراً على الاطلاق، وفي نظرهم لم يكن لرجال الدين عليهم ميزة إلاّ «القداسة»، ومع ذلك فهم أيضاً مقدسون، إن لم يكن بأنفسهم فبنسبهم. يقول فيشر: «كانت الأسر الحاكمة في أوروبا تستمد بقاءها من صلتها النسبية بأحد القديسين فيرثون منه قداسته ولا يبالي الشعب بعد ذلك بتصرفاتهم لأنهم مقدسون»[٩].

(٩) تاريخ أوروبا العصور الوسطى ١ / ٧١.

وقد جرؤ ادوارد الأول ملك انجلترا، وفيليب الجميل ملك فرنسا، على القول بأنه: «ليس من الضروري أن يخضع الملك للبابا لكي يحظى بالجنة في الآخرة. وان كلا منهما قد نوى أن يكون سيدا في مملكته وان شعبه يؤيده في هذه النية تمام التأييد»(١٠). إذن فقد كان غاية مايطمح إليه أولئك أن تكف الكنيسة عن فرض وصايتها السياسية والدينية عليهم دون أن يفكروا في تقويض بنيانها أو الخروج على تعاليمها.

لكنهم كانوا في واد والكنيسة في واد فقد كانت ترى أن خضوع الملوك لها ليس تطوعاً منهم بل واجباً يقتضيه مركزها الديني وسلطانها الروحي جاء في البيان الذي أعلنه البابا «نقولا الأول» قوله:

«إن ابن الله أنشأ الكنيسة: بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وان أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس في تسلسل مستمر متصل... (ولذلك) فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب ان تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين، حكاماً كانوا أو محكومين»(١١).

أما البابا الطاغية «جريجوري السابع»، فقد أعلن أن الكنيسة، بوصفها نظاماً الهياً، خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية؛ ومن حق البابا وواجبه، بصفته خليفة الله في أرضه، أن يخلع الملوك غير الصالحين وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم، حسب مقتضيات الأحوال».

وسخر من الملوك والشعوب بقوله: «من ذا الذي يجهل أن

---

(١٠) تاريخ أوروبا العصور الوسطى، فشر: ١/٢٦٠.
(١١) قصة الحضارة: ١٤/٣٥٢

الملوك والأمراء يرجعون بأصولهم إلى الذين لا يعرفون الله ثم يتعالون ويصطنعون العنف والغدر ويرتكبون جميع أنواع الجرائم ويطالبون بحقهم في حكم من لا يقلون عنهم ـ أي الشعب ـ جشعاً وعماية وعجرفة لا تطاق»(١٢).

وليس ثمة شك في أن النصر ظل حليف الكنيسة طيلة القرون الوسطى بسبب سلطتها الروحية البالغة وهيكلها التنظيمي الدقيق واستبدادها المطلق. ولذلك فقد كان البابوات هم الذين يتولون تتويج الملوك والأباطرة، كما كان في امكانهم خلع الملوك وعزلهم بإرادتهم المحضة، ولم يكن باستطاعة أحد الانفلات من ذلك، ومن رفض الرضوخ فان حكمه غير شرعي ومن حق البابوية أن تعلن الحرب الصليبية عليه وتحرمه وتحرم أمته. ولا يعوزنا الاستشهاد على ذلك من التاريخ الأوروبي فالأمثلة فيه كثيرة. ولعل خير مثال لذلك حادثة الامبراطور الألماني «هنري الرابع» المشهورة مع البابا جريجوري السابع وذلك أن خلافاً نشب بينهما حول مسألة «التعيينات» أو ما يسمى «التقليد العلماني» فحاول الامبراطور أن يخلع البابا ورد البابا بخلع الامبراطور وحرمه وأحل أتباعه والأمراء من ولائهم له وألبهم عليه. فعقد الأمراء مجمعاً قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الامبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد، فوجد الامبراطور نفسه كالأجرب بين رعيته، ولم يكن في وسعه أن ينتظر وصول البابا فضرب بكبريائه عرض الحائط، واستجمع شجاعته وسافر مجتازاً جبال الألب والشتاء على أشده، يبتغي المثول بين يدي البابا بمرتفعات كانوسا في تسكانيا وظل واقفاً في الثلج في فناء القلعة ثلاثة أيام وهو في لباس الرهبان متدثراً بالخيش حافي القدمين عاري

---

(١٢) المرجع السابق: ١٤/٣٩٤ وفشر: ٢/١٤٧.

الرأس يحمل عكازه مظهراً كل علامات الندم وإمارات التوبة حتى تمكن من الظفر بالمغفرة والحصول على رضا البابا العظيم(١٣).

وفي بريطانيا حدثت قصة أخرى مماثلة فقد حصل نزاع بين الملك هنري الثاني وبين «تومس بكت» رئيس أساقفة كنتربري، بسبب دستور رسمه الملك يقضي على كثير من الحصانات التي يتمتع بها رجال الدين، ثم ان رئيس الأساقفة اغتيل فروعت المسيحية وثار ثأرها على هنري ودمغته بطابع الحرمان العام. فاعتزل الملك في حجرته ثلاثة أيام لا يذوق فيها الطعام، ثم أصدر أمره بالقبض على القتلة وأعلن للبابا براءته من الجريمة ووعد بأن يكفر عن ذنبه بالطريقة التي يرتضيها، وألغى الدستور ورد إلى الكنيسة كل حقوقها وأملاكها، وبالرغم من ذلك لم يحصل على المغفرة حتى جاء إلى كنتربري حاجاً نادماً ومشى الثلاثة أميال الأخيرة من الطريق على الحجارة الصوان، حافي القدمين ينزف الدم منهما، ثم استلقى على الأرض أمام قبر عدوه الميت وطلب من الرهبان أن يضربوه بالسياط وتقبل ضرباتهم وتحمل كل الاهانات في سبيل استرضاء البابا وأتباعه(١٤).

وأعظم زعيم تحدى سلطات الكنيسة واستطاع مقاومتها مدة غير يسيرة، هو الامبراطور «فردريك الثاني» وتعود صلابته إلى المؤثرات الاسلامية في ثقافته وشخصيته، فقد كان مجيداً للعربية مغرماً بالحضارة الاسلامية، حتى ان الكنيسة اتهمته باعتناق الاسلام وسمته «الزنديق الأعظم» أما المفكرون المعاصرون فيسميه بعضهم «أعجوبة العالم» وبعضهم «أول المحدثين».

وقد اشتد النزاع بينه وبين البابا «جريجوري التاسع» بسبب

---

(١٣) انظر فيشر: ٢/١٩٤، وويلز: ٣/٩١٠ وقصة الحضارة ١٥/١٩٧.

(١٤) انظر قصة الحضارة ١٥/١٩٤ وما بعدها.

رفضه القيام بحملة صليبية على الشرق ـ وكانت الكنيسة تعد الملوك جنوداً طائعين لها ـ فحرمه البابا وشهر به في رسالة علنية عدد فيها هرطقاته وذنوبه، فكان على الامبراطور أن يدفع التهمة عن نفسه برسالة وصفها ويلز بأنها «وثيقة ذات أهمية قصوى في التاريخ، لأنها أول بيان واضح صريح عن النزاع بين مدعيات البابا في أن يكون الحاكم المطلق على عالم المسيحية بأسره، وبين مدعيات الحكام العلمانيين وقد كان هذا النزاع يسري على الدوام كالنار تحت الرماد ولكنه كان يضطرم هنا على صورة ما ويتأجج هناك على صورة أخرى ولكن فردريك وضع الأمر في عبارات واضحة عامة يستطيع الناس أن يتخذوها أساساً لاتحادهم بعضهم مع بعض»(١٥) للوقوف في وجه الكنيسة.

على أن فردريك كان ظاهرة فذة لم تلبث أن تختفي تحت قهر قرارات الحرمان والسطوة الكنسية الباغية، ولم يعرف التاريخ الأوروبي من يماثله إلا بعد أجيال عديدة.

ثالثاً ـ الطّغيان المالي

يستطيع المرء إن يقول دون أي مبالغة أن الأناجيل المسيحية لم تنه عن شيء نهيها عن اقتناء الثروة والمال، ولم تنفر من شيء تنفيرها من الحياة الدنيا وزخرفها، حتى أن المتأمل في الأناجيل ـ رغم تحريفها ـ لا بد أن يؤخذ بروعة الأمثلة التي ضربها المسيح عليه السلام للحياة الدنيا ومتاعها الزائل، كما أنه سيرى من سيرة المسيح

(١٥) معالم تاريخ الإنسانية: ٥/٢٢٤.
وانظر كتاب الزنديق الأعظم: جوزيف جاي ديس، ترجمة احمد نجيب هاشم

العملية ما يؤيد مواعظه البليغة، فقد كان هو وحواريوه ورعين زاهدين ينظرون بعين المقت والازدراء إلى الكنوز المكدسة التي يحوزها بنو جنسهم «اليهود».

وجاءت القرون التالية فشهدت مفارقة عجيبة بين مفهوم الكنيسة عن الدنيا وبين واقع الكنيسة العملي. فقد تشددت الكنيسة جداً حتى حرّمت ما أحل الله من الطيبات واقتبست النظرة البوذية التشاؤمية للحياة الدنيا ــ كما مر سلفاً ــ وفي الوقت نفسه كانت سيرتها الذاتية صفحة مخزية من التهالك على الدنيا وامتصاص دماء الاتباع بما لا يضارعها فيه أثرياء اليهود وكبار الملاك الاقطاعيين الذين تسميهم الكنيسة «دنيويين». في حين أن المسيح يقول «مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»[١٦]. ويقول لتلاميذه «لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا»[١٧]، وفي الوقت الذي تفرض فيه الكنيسة على أتباع دينها التقشف والزهد، نجد حال الكنيسة نفسها مغايراً لروح وصايا المسيح ولمقتضى ما تدعو الناس إليه.

يقول «كرسون»: «كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والرحمة، كل ذلك خيراً للمؤمنين وللقسيسين وللقديسين وللخطب والمواعظ، أما أساقفة البلاد والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان لهم شيء آخر: البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء والشهرة في مجالس الخاصة والعجلات والخدم والأرباح الجسيمة والموارد والمناصب»[١٨].

---

(١٦) مرقص ١٠ ٢٢

(١٧) متى ١٠ ١٠ ــ ١١

(١٨) المشكلة الأخلاقيه ١٦٧

ونستطيع أن نلخص مظاهر الطغيان الكنسي في هذا المجال بما يلي:

١ ــ الأملاك الاقطاعية:

يقول «ديورانت»: «أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي وأكبر السادة الاقطاعيين في أوروبا، فقد كان دير «فلدا» مثلاً، يمتلك (١٥٠٠٠) قصر صغير، وكان دير «سانت جول» يملك ألفين من رقيق الأرض، وكان «الكوين فيتور» (أحد رجال الدين) سيداً لعشرين ألفاً من أرقاء الأرض، وكان الملك هو الذي يعين رؤساء الأساقفة والأديرة... وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الاقطاعيين ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الاقطاعية... وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً من النظام الاقطاعي.

«وكانت أملاكها الزمنية، أي المادية، وحقوقها والتزاماتها الاقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحي متمسك بدينه، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ومصدراً للجدل والعنف بين الأباطرة والبابوات»[١٩].

٢ ــ الأوقاف:

كانت الكنيسة تملك المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية باعتبارها أوقافاً للكنيسة بدعوى أنها تصرف عائداتها على سكان الأديرة وبناء الكنائس وتجهيز الحروب الصليبية، إلا أنها أسرفت في تملك الأوقاف حتى وصلت نسبة أراضي الكنيسة في بعض الدول إلى درجة لا تكاد تصدق، وقد قال المصلح الكنسي «ويكلف»، وهو من أوائل المصلحين: «ان الكنيسة تملك ⅓ أراضي انجلترا وتأخذ

(١٩) قصة الحضارة: ١٤/٤٢٥.

الضرائب الباهظة من الباقي، وطالب بإلغاء هذه الأوقاف واتهم رجال الدين بأنهم «أتباع قياصرة لا أتباع الله»[20].

٣ ـ العشور:

فرضت الكنيسة على كل أتباعها ضريبة «العشور» وبفضلها كانت الكنيسة تضمن حصولها على عشر ماتغله الأراضي الزراعية والاقطاعيات، وعشر ما يحصل عليه المهنيون وأرباب الحرف غير الفلاحين.

يقول ويلز: «كانت الكنيسة تجبي الضرائب ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها، وهي لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملاً من أعمال الإحسان والبر بل طالبت به كحق»[21].

ولم يكن في وسع أحد أن يرفض شيئاً من ذلك، فالشعب خاضع تلقائياً لسطوتها، أما الملوك فقد كانوا يخشون بأسها من جهة كما كانت بها مصالح مشتركة من جهة أخرى، إذ كانت هي أيضاً تمدهم بأسباب البقاء.. يقول تولستوي:

«لقد استولى حب السلطة على قلوب رجال الكنيسة كما هو مستولٍ على نفوس رجال الحكومات، وصار رجال الدين يسعون لتوطيد سلطة الكنائس من جهة ويساعدون الحكومات على توطيد سلطتها من جهة أخرى»[22]. إذن فمصلحة السلطتين تقتضي بقاء الأوضاع على صورتها الواقعة.

---

(٢٠) انظر تاريخ أوروبا: فيشر: ٢/٣٦٢ ـ ٣٦٤.
(٢١) معالم تاريخ الإنسانية: ٣/٨٩٥.
(٢٢) أحاديث في السياسة والاجتماع للحصري: ٣٠١.

٤ ـ ضريبة السنة الأولى:

لم تشبع الأوقاف والعشور نهم الكنيسة الجائع وجشعها البالغ، بل فرضت الرسوم والضرائب الأخرى، لا سيما في الحالات الاستثنائية: كالحروب الصليبية والمواسم المقدسة؛ وظلت ترهق بها كاهل رعاياها، فلما تولى البابا حنا الثاني والعشرون جاء ببدعة جديدة هي «ضريبة السنة لأولى»، وهي مجموعة الدخل السنوي الأول لوظيفة من الوظائف الدينية أو الاقطاعية، تُدفع للكنيسة بصفة إجبارية، وبذلك ضمنت الكنيسة مورداً مالياً جديداً[٢٣].

٥ ـ الهبات والعطايا:

كانت الكنيسة تحظى بالكثير من الهبات يقدمها الأثرياء الاقطاعيون للتملق والرياء أو يهبها البعض بدافع الاحسان والصدقة، وصحيح أن الكنيسة لم تطالبهم بذلك، لكنهم لولا معرفتهم بحرصها على الدنيا وإمكان استمالتها بطريق البذل والعطاء لما فعلوا ذلك، كما أنهم كانوا يخشون غائلة غضب الكنيسة بحرمانهم من المغفرة عند الاحتضار على الأقل. وقد قويت هذه الدوافع بعد مهزلة صكوك الغفران إذ انهالت التبرعات على الكنيسة وتضخمت ثروات رجال الدين كما أسلفنا.

هذا ولا ننسى المواسم المقدسة والمهرجانات الكنسية التي كانت تدر الأموال الطائلة على رجال الكنيسة، فمثلاً «في سنة ١٣٠٠م عقد مهرجان لليوبيل واجتمع له جمهور حاشد من الحجاج في روما بلغ من انثيال المال إلى خزائن البابوية أن ظل موظفان يجمعان بالمجاريف الهبات التي وضعت عند قبر القديس بطرس»[٢٤].

---

(٢٣) انظر تاريخ أوروبا فيشر ٢: ٣٨٠.

(٢٤) معالم تاريخ الإنسانية: ٩١٣/٣.

٦ ــ العمل المجاني «السخرة»:

سبق القول بأن الكنيسة تملك الاقطاعيات برقيقها وأن بعض رجال الدين كان يملك الآلاف من الأرقاء، غير أن ذلك لم يقنع الكنيسة بل أرغمت أتباعها على العمل المجاني في حقولها وفي مشروعاتها، لا سيما بناء الكنائس والأضرحة، وكان على الناس أن يرضخوا لأوامرها ويعملوا بالمجان لمصلحتها مدة محددة هي في الغالب يوماً واحداً في الأسبوع ولا ينالون مقابل ذلك جزاءً ولا شكورا.

وهكذا كانت الجماهير ترزح تحت أثقال الكنيسة وأعبائها المالية المرهقة، وكان الملوك والأباطرة ورجال الدين الصغار يحسون بذلك أيضاً ويتحينون الفرصة لإعلان احتجاجهم. ومن الذين تضجروا من ذلك ودفعتهم جرأتهم إلى الاحتجاج العلني الملك لويس التاسع ملك فرنسا، الذي كتب إلى البابا رسالة احتجاجية خطيرة «بالنسبة لعصرها» قال فيها:

«إن الذي يشتد في ادرار الأضراع لا بد أن يصيب الدم من حلماتها».

أما رجال الدين فقد كان أحد الموضوعات التي نظر فيها المجلس الديني العام المنعقد في ليون سنة ١٢٤٦ شكوى مقدمة من بعضهم يستغيثون فيها من مطالب البابا والكنيسة الأم[٢٥].

ولكن هذه الاحتجاجات والاستغاثات ظلت صرخة في واد ولم تزحزح الكنيسة عن موقفها، وظلت الأمور على هذه الوتيرة حتى تضافرت عوامل أخرى سيأتي الحديث عنها فيما بعد بإذن الله.

---

(٢٥) انظر آخر الجزء الأول من تاريخ أوروبا من ص ٢٥٩.


محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

الفصل الثاني

الصراع بين الكنيسة والعلم

الصراع بين الدين والعلم مشكلة من أعمق وأعقد المشكلات في التاريخ الفكري الاوروبي إن لم تكن أعمقها قاطبة، فمنذ عصر النهضة إلى عصرنا الحاضر والصراع على أشده بين مؤيدي العلم وأنصار الدين، ورغم كل الظواهر البارزة في الحياة الغربية التي تؤكد أن المعركة قد انتهت وأن العلم انتصر بصفة نهائية على خصمه اللدود، فإن هناك ما يدل دلالة قوية على أن الدين، أو على الأصح بعض قضاياه الاعتقادية والسلوكية، لم تكن في عصر من العصور أقوى حجة منها في هذا العصر، لا سيما بعد أن تنكرت الثقافة الغربية لأفكار القرن التاسع عشر التي تتسم بخاصيتي «الاطلاق والعقلانية» واعتنقت نظريات القرن العشرين التي تتميز بالنسبية واللامعقول.

ولذلك فقد خيل للكثيرين أن المعركة لم ولن تنتهي وأنها باقية ما بقيت المعرفة الانسانية، وساعد على ترسيخ هذه الفكرة تقبل النفسية الاوروبية للازدواجية في كل شيء وهو التقبل الذي تولد من خضوعها المستمر لسلطتين متباينتين وايمانها الطويل بفكرتين متناقضتين.

وقليل منهم من فطن إلى السر الكامن وراء استمرارية المعركة دون نتيجة نهائية حاسمة. والواقع ان السبب الحقيقي في ذلك يمكن

ادراكه بسهولة لو أن الانسان الغربي ـ من أي الفريقين ـ تخلى عن غروره وتبجحه ونظر إلى المشكلة نظرة تقييمية مجردة، وذلك أن أي خصمين يملك كل منهما نصف الحقيقة لا يمكن أن ينتصر أحدهما على الآخر انتصاراً نهائياً.

وبتطبيق هذه البدهية على الصراع بين العلم والدين الأوروبيين نجد أن المواقع التي احتلها العلم من مناطق نفوذ الدين هي في الحقيقة المواقع التي انتصر فيها العقل واليقين على الخرافة والوهم، كما أن المواقع التي صمد فيها الدين أمام الهجوم العلمي الكاسح هي المواقع التي انتصرت فيها الحقيقة الموحاة على التخرصات والأهواء.

وحينئذ نستطيع أن نقول مطمئنين: إن الحق في كل من الطرفين هو الذي انتصر، أو سينتصر، على الباطل في كليهما، وأنه لو كان الدين الاوروبي حقاً خالصاً والعلم الأوروبي يقيناً مجرداً لما حدثت معركة على الإطلاق.

وبما أن الدين بصبغته الالهية النقية لم يدخل المعركة، فإن الأوفق أن نسمي ما حدث في الغرب صراعاً بين الكنيسة والعلم، وليس بين الدين والعلم.

ومن المؤسف حقاً أن جناية رجال الدين الاوروبيين على الحقيقة كانت أشنع وأنكى من جناية أنصار العلم عليها، وإن كان كل منهما مسؤولاً عن النتائج المؤسفة لذلك الصراع، ذلك أن الكنيسة ارتكبت خطأين فادحين في آن واحد:

أحدهما: تحريف حقائق الوحي الالهي وخلطها بكلام البشر.

والآخر: فرض الوصاية الطاغية على ما ليس داخلاً في دائرة اختصاصها.

والخطأ الأول مسؤول عن تسرب الخرافات الوثنية والمعلومات البشرية إلى كثير من تعاليم المسيحية، إذ جعلتها الكنيسة عقائد الهية تدخل في صلب الدين وصميمه، وعدت الكفر بها كفرا بالوحي والدين.

والخطأ الثاني نشأ عن ضيق صدر الكنيسة بما يخالف تعاليمها الممزوجة وإصرارها الأعمى على التشبث بها، فكان الامتداد الطبيعي للطغيان الديني طغياناً فكرياً عاماً، وحاسبت الناس، لا على معتقدات قلوبهم فحسب، بل على نتائج قرائحهم وبنات أفكارهم، وتوهمت أن في قدرتها أن تملك ما لا تستطيع أية قوة طاغية أن تحتكره، وهو الحقيقة العلمية فيما يتعلق بالتجربة المحسوسة أو النظر العقلي السليم. وبذلك أقحمت نفسها في متاهات كانت غنية كل الغنى عن عبورها وأثارت على نفسها حرباً ضروساً لا هوادة فيها ولا تمييز.

وأول عمل مارسته الكنيسة في هذا المجال هو احتكارها للعلم وهيمنتها على الفكر البشري بأجمعه. يقول برنتن:

«إن أكثر أصحاب الوظائف العلمية حتى في أوج العصور الوسطى كانوا ينتمون إلى نوع من أنواع المنظمات الدينية، وكانوا جزءاً من الكنيسة، حيث أن الكنيسة بدرجة لا نكاد نفهمها اليوم تتدخل في كل لون من ألوان النشاط البشري وتوجهها وبخاصة النشاط العقلي»... «وإذن فقد كان الرجال الذين يتلقون تعليمهم في الكنيسة يكادون يحتكرون الحياة العقلية، فكانت الكنيسة منصة المحاضرة والصحافة والنشر والمكتبة والمدرسة والكلية»[1]، وكان أصحاب الميول الفلسفية في الدول الرومية، سواء من رجال الكنيسة أو من المسيحيين العاديين، متأثرين بتراثهم من الفكر الإغريقي في

---

(١) أفكار ورجال: ٢٣١.

ميادين العلم والفلسفة، لا سيما آراء أرسطو وبطليموس، وقد بذلوا جهودهم في التوفيق بين معتقداتهم الدينية وآرائهم الفلسفية. ونشأ عن ذلك فلسفة مركبة تسمى «الفلسفة المسيحية»، وهي خليط من نظريات الإغريق وظواهر التوراة والأناجيل وأقوال القديسين القدامى. ولما كان العلم والفلسفة في ذلك العصر شيئاً واحداً، فقد أدمج الفلاسفة المسيحيون في صرح فلسفتهم كل ما وصل إليه العلم البشري في عصرهم من النظريات الكونية والجغرافية والتاريخية، ورأت الكنيسة في هذه الفلسفة التوفيقية خير معين على الدفاع عن تعليمها ضد المارقين والناقدين[٢]، فتبنتها رسمياً وأقرتها مجامعها المقدسة حتى أضحت جزءاً من العقيدة المسيحية ذاتها وامتدت يد التحريف فأدخلت بعض هذه المعلومات في صلب الكتب الدينية المقدسة.

ولم يبدأ عصر النهضة الاوروبية في الظهور حتى كانت آراء أرسطو في الفلسفة والطب ونظرية العناصر الأربعة ونظرية بطليموس في أن الأرض مركز الكون. وما أضاف إلى ذلك القديس أوغسطين وكليمان الإسكندري وتوما الاكويني، أصولاً من أصول الدين المسيحي وعقائد مقدسة لا يصح أن يتطرق إليها الشك.

وكانت الفلسفة المسيحية هذه تشتمل على معلومات تفصيلية عن الكون تقول: «ان الله خلق العالم ابتداءً سنة ٤٠٠٤ ق. م.»، وتوّج ذلك بخلق الإنسان في جنة عدن على مسيرة يومين من البصرة بالضبط، والعجيب أنها ظلت مصرة على هذا الرأي حتى مطلع القرن التاسع عشر، فقد طبع كتاب الأسقف «آشر» الذي يحمل هذه النظرية سنة ١٧٧٩م[٣].

---

(٢) انظر استمداد المسيحية من الفلسفة من كتاب المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص ١٠١ فما بعد.

(٣) انظر معالم تاريخ الإنسانية: ج ١ ص ١٦

أما تاريخ الطوفان فتختلف فيه تقاويم التوراة، لكنه على اقصى آرائها وقع بعد خلق آدم بـ(٢٢٦٢) سنة[٤]. ومعنى ذلك أنه كان سنة ١٧٤٢ق. م.، ومن الطريف أن مجلساً كنسياً كان قد أعلن في بداية القرن العاشر للميلاد أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل لأن الله قد جعل المدة بين إنزال ابنه ونهاية العالم ألف سنة فقط[٥].

أما معلوماتها الطبية، فقد كانت أفضل وأنجح الوسائل العلاجية في نظرها اقامة الطقوس لطرد الشياطين التي تجلب المرض ورسم إشارة لصليب ووضع صور العذراء والقديسين تحت رأس المريض ليشفى.

وعرفت أوروبا الطريق إلى النهضة بفضل مراكز الحضارة الاسلامية في الأندلس وصقلية وجنوب ايطالية التي كانت تشع نور العلم والمعرفة على القارة المستغرقة في دياجير الخرافة والجهل، فاستيقظ العقل الاوروبي من سباته وأخذ يقتبس عن المسلمين طرائق البحث ومناهج التفكير التي تجعله يكد ويعمل في مجال اختصاصه دون وصاية ضاغطة.

وثارت ثائرة رجال الكنيسة على الذين يتلقون علوم الكفار (المسلمين)، ويعرضون عن التعاليم المقدسة فأعلنت حالة الطوارىء ضدهم وشكلت محاكم التفتيش في كل مكان تتصيدهم وتذيقهم صنوف النكال. وأصدرت منشورات بابوية جديدة تؤكد العقائد السابقة وتلعن وتحرم مخالفيها، وبذلك قامت المعركة على قدم وساق وأخذت تزداد سعاراً بمرور الأيام.

وكان من سوء طالع الكنيسة أن النظريات الكونية سبقت

(٤) انظر اظهار الحق: ٢١٨.

(٥) انظر قصة الحضارة ١٤: ٣٧٩.

النظريات الإنسانية في الظهور وهي نظريات أثبتت الأيام صحتها ــ إجمالاً ــ بخلاف الأخرى، وبذلك قدر للكنيسة أن تصطدم بالصحيح قبل الزائف، فلما خسرت معركتها معه سهلت هزيمتها أمام الآخر.

هذا وسنستعرض بايجاز هذا الصراع مراعين التسلسل التاريخي:

أولاً ــ مطلع العصر الحديث والقرن السابع عشر:

إن النظرية التي هزت الكنيسة لأول مرة هي نظرية كوبرنيق (١٥٤٣) الفلكية، فقبل هذه النظرية كانت الكنيسة المصدر الوحيد للمعرفة وكانت فلسفتها تعتنق نظرية بطليموس التي تجعل الأرض مركز الكون وتقول أن الأجرام السماوية كافة تدور حولها[٦].

فلما ظهر كوبرنيق بنظريته القائلة بعكس ذلك كان جديراً بأن يقع في قبضة محكمة التفتيش. ولم ينج من ذلك لأنه كان قسيساً، بل لأن المنية أدركته بعد طبع كتابه بقليل. فلم تعط المحكمة فرصة لعقوبته، إلاّ أن الكنيسة حرمت كتابه «حركات الأجرام السماوية» ومنعت تداوله وقالت أن ما فيه هو وساوس شيطانية مغايرة لروح الانجيل.

وظنت أن أمر هذه النظرية قد انتهى، ولكن رجلاً آخر هو «جردانو برونو» بعث النظرية بعد وفاة صاحبها فقبضت عليه محكمة التفتيش وزجت به في السجن ست سنوات فلما أصر على رأيه أحرقته سنة ١٦٠٠م وذرت رماده في الهواء وجعلته عبرة لمن اعتبر.

وبعد موته ببضع سنوات كان «جاليلو» قد توصل إلى صنع

(٦) حول هذه النظرية: انظر كتب غيرت وجه العالم. داونز الفصل الخاص بكتاب كوبرنيق.

المرقب «التلسكوب» فأيّد تجريبياً ما نادى به أسلافه نظرياً فكان ذلك مبرراً للقبض عليه ومحاكمته و «قضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات»[٧]، ولما خشي على حياته أن تنتهي بالطريق التي انتهى بها برونو أعلن ارتداده عن رأيه وهو راكع على قدميه أمام رئيس المحكمة قائلاً:

«أنا جاليلو وقد بلغت السبعين من عمري سجين راكع أمام فخامتك، والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي، أرفض وألعن وأحتقر القول الالحادي الخاطيء بدوران الأرض»، وتعهد مع هذا بتبليغ المحكمة عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل[٨].

هؤلاء هم زعماء النظرية وهذا هو موقف الكنيسة منهم، وليس غريباً أن تضطهدهم وتحارب أفكارهم، فإن أفكارها لا تعيش إلّا في الظلام، وهي لم تستعبد الناس بالحق، بل بالخرافة.. ولكن الغريب هو أدلتها الدينية التي ساقتها لتكذيب النظرية ــ وما كان ليضير الدين في شيء أن تصدق أو تكذب.

قالت الكنيسة: إن الأرض يجب أن تكون مركز الكون الثابت لأن الأقنوم الثاني ــ المسيح ــ تجسد فيها، وعليها تمت عملية الخلاص والفداء، وفوقها يتناول العشاء الرباني، كما أن التوراة تقول: **«الأرض قائمة إلى الأبد والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق»**[٩].

---

(٧) معالم تاريخ الإنسانية: ١٠٠٨/١.

(٨) قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل /٢٠٥ وانظر كذلك تكوين العقل الحديث ٣٤٨/٣.

(٩) المصدر السابق: ٢٠٣ وفي أصل العهد القديم «الأرض قائمة مدى الدهر»، انظر الفصل الأول ٥ ــ ٦، سفر الجامعة.

أما كروية الأرض وسكنى جانبها الآخر فنفتها الكنيسة بحجه أن «من خطل الرأي أن يعتقد الانسان بوجود أناس تعلو مواطىء أقدامهم على رؤوسهم وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة إلى أسفل، وقالت أنه لو صح هذا الزعم لوجب أن يمضي المسيح إلى سكان الوجه الآخر من الأرض ويموت مصلوباً هناك مِن أجل خلاصهم»[١٠].

ومع ذلك، فلم يكد القرن السابع عشر يستهل حتى كان لنظرية كوبرنيق وما أضاف إليها برونو وجاليلو آثار واسعة، ظلت راسخة في الفلسفة الأوروبية عامة، فقد أفقدت الكثيرين ثقتهم في الكنيسة وأدت إلى التشكيك في سلامة معلوماتها، وهو أثر له أهميته القصوى، كما أنها أعطت الأولوية للتجربة والبحث العقلي في الوصول إلى الحقائق. وإضافة إلى ذلك قدمت إيحاءات فلسفية جديدة، فقد هزت فكرة الثبات المطلق التي كانت مسيطرة على العقلية الأوروبية وحطت كذلك من قيمة الانسان ومكانته في الوجود ـ أو هكذا تخيل الناس آنذاك ـ.

وفي القرن السابع عشر تبلور النزاع واتخذ شكلاً جديداً: فقد أصبح النزاع بين مرقب جاليلو وحجج الكنيسة الواهية نزاعاً بين النص الذي تعتمد عليه أدلتها وبين العقل والنظر الذي استند إليه أصحاب النظريات الجديدة.

وثار العلماء ودعاة التجديد مطالبين بتقديس العقل واستقلاله بالمعرفة بعيداً عن الوحي، ولم يجرؤ دعاة المذهب العقلي أول الأمر على

---

(١٠) المصدر السابق: ١٦٧.

إنكار الوحي بالكلية، بل جعلوا لكل من الطرفين دائرة خاصة يعمل فيها مستقلاً عن الآخر.

وكان مذهب «ديكارت» أبرز المذاهب الفلسفية في هذا العصر، وقد دعا إلى تطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة واستثنى من ذلك ــ لسبب ما ــ الدين والعقائد الكنسية والنصوص المقدسة وكان يرى «أن ميدان العلم الطبيعة، وموضوعه استغلال القوى الطبيعية وأدواته الرياضة والتجربة ويختص الدين بمصائر النفس في العالم الآخر ويعتمد على الاعتقاد والتسليم فلا مضايقة بين العلم والـدين ولا سلطان لأحدهما على الآخر»[١١].

وهذه الازدواجية الديكارتية وجدت لها نظيراً في منهج بيكون التجريبي الذي قال عنه أندرسن: «إن أعظم مآثر بيكون الفصل بين العلم البشري والوحي الإلهي». فعند بيكون يمكن أن تكون أي قضية خاطئة تماماً في نظر العقل ولكنها صحيحة تماماً لأنها نظر الدين[١٢].

والواقع أن المذهب الازدواجي ليس إلاَّ مرحلة طبيعية في سلم التدرج من الإيمان المطلق بالوحي إلى الإنكار المطلق له.

ومع ذلك فقد وُجد فلاسفة آخرون معاصرون لهؤلاء لم ترق لهم هذه الفلسفة، بل أغرتهم تفاهة آراء الكنيسة وحقدهم عليها أن يهاجموا التعاليم الدينية هجوماً مباشراً.

وكان «سبينوزا» ــ بحكم يهوديته ــ أعنف هؤلاء، فقد طبق المنهج العقلي على الكتاب المقدس نفسه ووضع الأسس التي قامت عليها «مدرسة النقد التاريخي» التي ترى أنه يجب أن تدرس الكتب

---

(١١) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة: اميل بوترو /١٩.

(١٢) انظر عن بيكون سلسلة تراث الإنسانية، ج٢.

الدينية على النمط نفسه الذي تدرس به الأسانيد التاريخية أي على أساس أنها تراث بشري وليست وحياً إلهياً، وبالفعل حقق «سبينوزا» نتائج ايجابية:

فمثلاً استنتج أن أسفار التوراة لم يكتبها موسى، مستدلاً بما جاء في سفر التثنية من ذكر موت موسى ورثائه، وقول كاتب السفر: «لم يأت نبي مثله من بعده». وأيضاً استطاع أن يثبت أن التوراة قد عينت أماكن بأسماء لم «توضع لها إلَّا بعد موسى بقرون عديدة»(١٣) كما استطاع «باسكال» أن يوجه نقده إلى عقيدة الخطيئة قائلاً: «لا شيء يزحم العقل الانساني بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية وانه ليبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يعاقب إنسان من أجل خطيئة اقترفها أحد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة»(١٤).

أما «جون لوك» فقد خطا خطوة أبعد من ديكارت بأن طالب بإخضاع الوحي للعقل عند التعارض قائلاً: «من استبعد العقل ليفسح للوحي مجالاً فقد أطفأ نور كليهما وكان مثله كمثل من يقنع إنساناً بأن يفقأ عينيه ويستعيض عنهما بنور خافت يتلقاه بواسطة المرقب من نجم سحيق»(١٥)... كما دعا إلى تطبيق مبدأ جديد على الحياة الأوروبية آنذاك، وهو مبدأ التسامح الديني وإعطاء الحق لكل إنسان في أن يعتنق ما يشاء ويكفر بما يشاء من الأديان والمذاهب.

على أن نقد هؤلاء الرواد لم يصل إلى إنكار الوحي والرسالات السماوية بصراحة كما أنه ظل خائفاً أمام بطش محاكم التفتيش أو على

---

(١٣) انظر «المشكلة الاخلاقية والفلاسفة» ١٢٢ ورسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا، ترجمة: حسن حنفي.

(١٤) المصدر السابق: ١٣٣.

(١٥) قصة النزاع ... /١٤.

الأقل أمام ضغط المجتمع الذي كان يدين بالمسيحية ويراها جزءاً من كيانه وتراثاً عزيزاً عليه.

وقد تعرضت كتب ديكارت وسبينوزا ولوك وأضرابها للحرق والمصادرة كما تعرضوا شخصياً للايذاء والمضايقة من قبل الكنيسة. إلاَّ أن تفجر البركان العلمي في كل مكان والخلافات الداخلية بين الطوائف المسيحية شغلتها عن اعطائهم ما يستحقون من الاهتمام.

كما أن النظريات الجديدة عن الكون في هذا القرن قد غمرت الأفكار الفلسفية واستأثرت بالاهتمام البالغ من قبل الأوساط الدينية والعلمية على السواء، وأعظم هذه النظريات «نظرية الجاذبية» لاسحق نيوتن.

ولد إسحق نيوتن في السنة التي توفي فيها جاليلو (١٦٤٢)، ويعدّ عمله تتميمًا لما بدأه جاليلو، فقد مهد اكتشاف جاليلو لقانون البندول سنة ١٦٠٤م الطريق أمام النظرية القائلة «أنه من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون حاجة إلى تدخل قوى خارجية عنها»[١٦]، وبذلك كان هذا الاكتشاف الضئيل بمثابة النواة للمذهب «الطبيعي» والنظرية الميكانيكية اللذين كان لهما صدى واسع فيما بعد.

وقد حاربت الكنيسة هذه النظرية وشنعت على معتنقيها قائلة: إن الأشياء لا تعمل بذاتها ولكن عناية الله هي التي تسيرها، ولم تكن الكنيسة من سعة الأفق على جانب يسمح لها بتفهم عدم المنافاة بين نسبة الأفعال إلى الله تعالى باعتباره الفاعل الحقيقي وبين نسبتها إلى الأسباب باعتبارها وسائط مباشرة، بل كان حنقها على كل جديد

---

(١٦) العلوم والدين: ١٩

صارفاً لها عن ذلك، كما ان أصحاب النظرية اندفعوا وراء رد الفعل الأهوج فأنكروا عمل العناية الإلهية وربط الأسباب بالمسببات معتقدين أن كل ماعرفت علته المباشرة فلا داعي لافتراض تدخل الله فيه ــ حسب تعبيرهم ــ.

فلما جاء نيوتن بنظرية الجاذبية مؤيدة بقانون رياضي مطرد انبهرت عقول الفئات المثقفة واتخذها أعداء الدين سلاحاً قوياً حتى لقد سميت «الثورة النيوتونية» وأحس هؤلاء بنشوة انتصار عظيمة، فقد أمكن تفسير الكون كله بهذا القانون الخارق، كما تأكدت صحة نظريات كوبرنيق وبرونو وجاليلو. وفي الوقت نفسه اهتز موقف الكنيسة وتداعت حججها الواهية أكثر من ذي قبل، ولجأت إلى التعسف والعنف وهاجم رجالها نيوتن الذي كان مؤمناً بوجود الله، بحجة أنها تفضي إلى إنكار وجود الله، بنفي العناية الإلهية من الكون. وقد ثبت أنهم كانوا على حق في توقعهم هذا، لكنهم كانوا مخطئين في موقفهم من النظرية، فقد ساعد هذا الموقف الخاطىء على الوصول إلى تلك النتيجة الباطلة.

ولا شك أن نظرية نيوتن من أعظم النظريات العلمية أثراً في الحياة الأوروبية فهي التي وضعت أساس الفكر المادي الغربي وإليها يعزى الفضل الأكبر في نجاح كل من المذهب العقلي والمذهب الطبيعي. كما أن مذهب الايمان بإله مع انكار الوحي، والالحاد ذاته مدينان لهذه النظرية من قريب أو بعيد، على أن هذه الآثار لم تظهر إلَّا فيما بعد.

أما في القرن السابع عشر فإن النتائج الايجابية التي أمكن للعلماء أن يكونوا منها النظرية العلمية المعادية لتعاليم الكنيسة والتي اشتقت من نظريتي كوبرنيق ونيوتن ــ هي كما لخصها «برتراندرسل» ثلاث نتائج:

«١ ـ أن تقرير الحقائق يجب أن يبنى على الملاحظة لا على الرواية غير المؤيدة (أي النصوص)؛

٢ ـ أن العالم غير الحيواني نظام متفاعل في نفسه مستبق لنفسه وتنطبق كل التغيرات فيه مع قوانين الطبيعة؛

٣ ـ أن الأرض ليست مركز الكون وأن الإنسان ربما لا يكون الهدف من وجودها، إذا كان لوجودها أي هدف، وفوق ذلك ان فكرة الهدف فكرة لا فائدة منها من الناحية العلمية»[١٧].

وإذا كان القرن السابع عشر هو قرن الانتفاضة العارمة على الكنيسة ومبادئها فإنه كذلك القرن الذهبي لمحاكم التفتيش فقد قاسى العلماء أنواع الاضطهاد، واستخدمت ضدهم أساليب القمع الوحشية وظهرت الفهارس أو «القوائم البابوية» التي تحتوي على أسماء الكتب المحرمة وكان وجود شيء من هذه الكتب في حوزة إنسان ذريعة لسوقه إلى محكمة التفتيش وتعريضه لأليم عقابها.

وقاومت الكنيسة كل محاولة للتجديد وإن كانت نافعة خيّرة فقد كفرت رئيس بلدية في ألمانيا لأنه اخترع غاز الاستصباح بحجة ان الله خلق الليل ليلاً والنهار نهاراً وهو بمخترعه يريد تغيير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهاراً»[١٨].

واضطرب حبل الكنيسة بظهور الروح الجديدة اضطراباً واضحاً وألقت بكل ثقلها في معركة كانت في غنى عن دخولها أمام الناس ـ لا سيما المثقفون ـ فقد اهتبلوا الفرصة وخيل إليهم أن الأقدار قد ألقت إليهم مفتاحاً سحرياً يخلصهم من سجن الكنيسة وأغلالها ذلك هو مفتاح «العلم والتجربة».

---

(١٧) اثر العلم في المجتمع: ٦.

(١٨) محاضرات الموسم الثقافي بالكويت ١/ ٢٧٥.

كان إيمان هؤلاء بالمسيحية متغلغلاً إلى درجة يصعب معها فراقه ولكن كفرهم برجال الدين ـ أولئك الطغاة المتغطرسين ـ كان كفراً صريحاً لا هوادة فيه.

ونستطيع أن نقول: ان ما قام به علماء وفلاسفة القرن السابع عشر من هجوم على الدين ليس في حقيقته سوى اندفاع أعمى ورد فعل غير موجه هدفه الانفكاك من ربقة الكنيسة والتحرر من عبوديتها فلم يكن همهم «إلى أين نتجه؟» بقدر ما كان «كيف نهرب؟».

ولكن التأثيرات والايحاءات الفلسفية لنظرية نيوتن أسهمت في إيجاد فكر لا ديني منظم ينتهج طرائق محددة، وإن كان قد ظل مشوباً بالتعصب والسلبية، مندفعاً في مهاجمة الكنيسة ومعتقداتها.

ولعل من الصواب أن نقول: أن نظرية نيوتن لم تمهد فكرياً للثورة الفرنسية فحسب، بل أنها قطعت نصف الطريق إلى داروين أيضاً.

والكلام عن آثار النيوتنية ينقلنا إلى القرن الثامن عشر الذي كان دخوله إيذاناً بأفول نجم الكنيسة وولادة آلهة جديدة لا كنائس لها.

ثانياً ـ القرن الثامن عشر:

يتميز القرن الثامن عشر بظهور روح الشك العام في كل شيء تقريباً، ومع ذلك فقد ظهرت فلسفات إيجابية متنوعة يدور محورها حول كلمتين هما في الواقع صنمان استحدثهما الهاربون من نير الكنيسة ليحلا محل الهها المخيف وهما «العقل والطبيعة». أما العقل فلم يعد مقيداً بأغلال الثنائية الديكارتية بل بدأ يبحث عن ذاته ويسلك طريقه

لكي يتصرف كما لو كان «الهاً» بالفعل، وتعالت أصوات الباحثين والفلاسفة منادية بأن العقل هو الحكم الوحيد والعقل هو كل شيء وما عداه فوهم وخرافة، الوحي يخالف العقل فهو أسطورة كاذبة، والمعجزات لا تتفق ومألوف العقل فهي خرافات بالية. والفداء والصلب والرهبانية.. الخ، كلها أباطيل مضللة وعقائد مرذولة لأنها لا تتسق مع العقل. والصنم الثاني كان «الطبيعة». يقول «سول»:

«صار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة»[١٩]. وكتب الفكر الغربي تسمي ذلك العصر عصر «تأليه الطبيعة» أو عبادة الطبيعة، وليست هذه العبارات مجازاً، بل هي مستعملة على الحقيقة تماماً، فكل صفات الله التي عرفها الناس عن المسيحية نقلها فلاسفة الطبيعة إلى إلههم الجديد، مع فارق كبير بين الالهين في نظرهم.

فإله الكنيسة بطاش حقود يعذب السلالة البشرية ويقتل ابنه لأن الانسان الأول أكل فاكهة من حديقته.

وهو إله متعنت يضع القيود الاعتباطية على حرية الانسان ويقيده بالالتزامات ويفرض عليه الرهبانية والخضوع المذل لممثليه على الأرض.

أما الطبيعة فإله «جذاب» رحب الصدر ليس له كنيسن ولا التزامات ولا يستدعي طقوساً ولا صلوات وكل ما يطالب به الانسان أن يكون انساناً طبيعياً يلبي مطالبه الطبيعية في وضوح وصراحة.

والإله الجديد ليس له رجال دين يستعبدون الناس لأنفسهم ولا كتاب مقدس متناقض ولا أسرار عليا مقدسة، بل له دعاة من أمثال

---

(١٩) جورج سول: المذاهب الاقتصادية الكبرى: ٥١.

«روسو، وفولتير وديدرو» وله كتب علمية هي «دائرة المعارف» أو «العقد الاجتماعي» أو «روح القوانين».

والقانون الطبيعي «الجاذبية» يجعل الكون مترابطاً متناسقاً لا اضطراب فيه ولا خلل وبالمقابل جعلت الطبيعية للانسان قانوناً طبيعياً يكفل له السعادة التامة ولكن النظم الانسانية والأديان طمست هذا القانون فشقي الانسان وتعذب.

تلك هي المبادىء الأولى للمذهب الطبيعي الذي تبلور ليصبح ديناً إنسانياً عند «كومت» في القرن التاسع عشر، وعنه انبثقت الماديات المتعددة التي تفسر الكون تفسيراً آلياً حسب القوانين التي سميت «قوانين الطبيعة».

أما هنا في القرن الثامن عشر فإن عبادة العقل والطبيعة هي ميزة العصر الذي يسمى «عصر التنوير».

ويصف «برنتن» شيئاً من مظاهر الصراع بين الدين والعلم في هذا العصر بقوله:

«كان العقل للرجل العادي في عصر التنوير هو كلمة السر الكبرى لعالمه الجديد، العقل هو الذي يسوق الناس إلى فهم الطبيعة» وهذه هي كلمة السر الثانية الكبرى «وبفهمه للطبيعة يصوغ سلوكه طبقاً لها وبذلك يتجنب المحاولات العابثة التي قام بها في ظل افكار المسيحية التقليدية الخاطئة وما يخالفها في الاخلاق والسياسة مما يناقض الطبيعة»[٢٠].

«والعقل يبين أن الرهبانية تعني إسرافاً عظيمًا في قدرة الانسان الانتاجية، وأوضح من ذلك أن العقل يبين أنه من غير الطبيعي

---

(٢٠) أفكار ورجال: ٤٧٤، ٤٧٦.

للكائنات البشرية صحيحة البدن أن تمتنع بتاتاً عن الاتصال الجنسي، وأن التبرير الديني لمثل هذا السلوك غير الطبيعي كان هراء كهراء فكرة الشياطين التي تستولي على المجنون».

«إن المسيحية التقليدية لم تعد قادرة على أن تمد المستنيرين بنظرية كونية فقد بدأ الناس يعرفون ما يكفي من الجيولوجيا لكي يبين أن تاريخ الخليقة الذي حدده الأسقف «آشر» بعام ٤٠٠٤ ق م وتاريخ قصة الطوفان بعيدا الاحتمال. ولكن لم تكن هناك حاجة إلى أن ينتظر الناس نمو المعرفة الجيولوجية، خذ مبدأ التثليث في المسيحية مثلاً: ان الرياضة كانت ضد هذا المبدأ فإن أي نظام رياضي محترم لا يسمح بأن يكون الثلاثة ثلاثة وواحداً في آن واحد، أما عن المعجزات فلماذا توقفت؟ إذا أمكن إحياء الميت في القرن الأول فلماذا لا يحيا في القرن الثامن عشر»[٢١].

وربما كان أعدى أعداء الكنيسة آنذاك هو «فولتير» ولنقتطف نماذج من نقده للدين ورجاله من كتابه «القاموس الفلسفي»:

«أول ما انتقد فولتير العقيدة المسيحية في التثليث وتجسيم الاله والصور المقدسة وأنحى باللائمة على بولس الذي طمس المسيحية وحرفها، ولذلك كان الإيمان بالمسيحية في نظره هو «الاعتقاد بأشياء مستحيلة أو بأشياء تستعصي على الفهم فالحية تتكلم والحمار يتحدث وحوائط أريحا تتساقط بعد سماعها صوت الأبواق، أن الايمان على هذا النحو هو على ما يقول أرازم هو الجنون».

«أما الخطيئة الأولى فيرفضها فولتير ويعتبرها إهانة لله واتهاماً له بالبربرية والتناقض وذلك للتجرؤ على القول بأنه خلق الأجيال

(٢١) المصدر السابق: ٤٧٦.

البشرية وعذبها لأن أباهم الأول قد أكل فاكهة من حديقته»[٢٢].

وينقد فولتير الطقوس السبعة نقداً مريراً ويسخر من الكتاب المقدس سخرية لاذعة تتجلى في قوله تعليقاً على معلومات التوراة الجغرافية:

«من الواضح أن الله لم يكن قوياً في الجغرافيا»[٢٣]، وقوله ان صيام المسيحية «دواء للفقراء لا يتعاطاه الأغنياء» ويرى «أن الطقوس والشعائر والعبادات والإحتفالات الدينية جرائم محلية يعاقب عليها كل من يزاولها لأنها ضارة بالمجتمع خاصة إذا تمت في صورة أضاح وقرابين» أما آراؤه السياسية فقد عبر عنها بقوله:

«إن التوحيد بين الدين والدولة لهو أبشع نظام لذلك يجب إلغاؤه واقامة نظام آخر يخضع فيه رجال الدين لنظم الدولة ويخضع فيها الراهب للقاضي» وقوله:

«إنه لا يمكن طاعة البشر باسم طاعة الله لا بد من طاعة البشر باسم قوانين الدولة». ولقد جزعت الكنيسة من هذه الانتقادات والآراء جزعاً شديداً ولعنت فولتير وأشياعه وكفرتهم وحرمت قراءة كتبهم وتعرض فولتير للمضايقة والاضطهاد من قبل رجال اللاهوت، حتى أنه قال مخاطباً إنسان ذلك العصر «أنت طائر في قفص محاكم التفتيش لقد قصت محاكم التفتيش جناحيك»[٢٤].

وفي انجلترا طور جيبون النقد التاريخي للمسيحية في كتابه «سقوط الامبراطورية الرومانية واضمحلالها» «أما هيوم فقد ابتدع

---

(٢٢) سلسلة تراث الإنسانية ج ٨ ص ٧٨، ٨٠.

(٢٣) قصة النزاع ٠٠/١٩٠.

(٢٤) مقتطفات من سلسلة قراءات إنسانية ج ٨ ص ٨٠ ــ ٨٧.

مذهب الشك المطلق الذي كان ثورة نفسية على الإيمان المطلق طوال القرون الماضية.

وجدير بالذكر أن شيوع المذهب العقلي الطبيعي في عصر التنوير قد نتج عنه بالاعتماد على نظرية نيوتن مذهبان جديدان على العالم المسيحي ينمان عن التخبط والضياع:

الأول: مذهب المؤلهة الربوبيين «دايزم» (Deism) «أو المؤمنين بإله مع إنكار الوحي» وهذا المذهب يمثل فكرة انتقالية لأن الوثبة من إله مسيحي إلى عدم وجود إله كانت مستحيلة كما يقول برنتن.

«هذا المذهب هو أقرب انعكاس ممكن واضح لعالم نيوتن الذي يخضع للنظام ويدور وفقاً للقانون والإله في هذا المذهب هو الشخص المسؤول عن التدبير والبناء وتحريك هذا العالم الآلي».

وكان من زعماء هذا المذهب «فولتير وبوب» ومعهم عدد آخر ممن كانوا يرون ضرورة الإيمان بالله ـ ولو أمام الجمهور ـ أما الوحي فأنكروه لأن إثباته يعني صحة تعاليم عدوهم الكنيسة، وليس معنى ذلك أن إيمانهم بالله يمكن أن يسمى إيماناً على الحقيقة فإن كل عمل هذا الإله في نظرهم هو أنه خلق الكون ثم تركه يدور وفق القوانين المودعة فيه والتي أوضحها نيوتن فهو يشبه صانع الساعة الذي يديرها ثم يدعها تتحرك من تلقاء نفسها. أما الإنسان فقد منحه العقل وتركه وشأنه فهو وإن كان جزءاً من آلة الكون العظمى إلاَّ انه عليه أن يستغل مواهبه ويستخدم عقله بما يتمشى مع قانون الطبيعة». ومن الواضح (في نظر أصحاب هذا المذهب) أنه ليست هناك فائدة من الصلاة للإله الذي يشبه صانع الساعة والذي لا يستطيع ـ وحتى إن أراد ـ أن يتدخل فيما صنعت يداه.

«ومن الواضح كذلك أن هذا الإله لم يظهر لموسى في صحراء

سيناء ولم يرسل ابنه الأوحد إلى الأرض ليخلص الناس المذنبين بل لا يمكن أن يكون له ابن»[٢٥].

الثاني: المذهب الالحادي المادي: إن تهافت مذهب المؤلهة وتفاهته هي التي أوحت إلى بعض معاصريهم بانكار هذا الإله البعيد البارد الذي لا أثر له ولا ضرورة لاختراعه كما تقول حكمة فولتير «إذا كان الله غير موجود فلا بد من اختراعه»!. فالطبيعة تغني عنه والاعتراف بوجوده هو نوع من الإقرار بصحة دعاوى الكنيسة، فالأولى أن نستبعد وجوده نهائياً، إرغاماً لأنف الكنيسة على الأقل.

وتطرف منهم طائفة «رأوا أن الله شر إيجابي وبخاصة إذا كان إله الكنيسة الكاثوليكية الرومانية».

يقول «كرسون»:

«ذهب بعضهم في الانكار إلى أبعد حد انهم يدعوننا حتى إلى حذف اسم الله نفسه وفي هذا يقول «دولباخ»:

«إن عقيدة الله المأثورة نسيج من المتناقضات، إن فكرة الله هي الضلالة المشتركة للنوع الإنساني»[٢٦].

تلك هي الخطوط العامة في القرن الثامن عشر للصراع بين الكنيسة والدين. على أنه ينبغي أن ننبه إلى أن هذا الصراع كان مقتصراً على الفلاسفة والطبقات المثقفة ولم يتجاوز ذلك إلى القاعدة الشعبية ويصبح قضية جماهيرية إلاّ بعد الثورة الفرنسية التي قامت في أواخر هذا القرن سنة ١٧٨٩ م، وبقيامها رسم معلم واضح من معالم التاريخ الأوروبي، وافتتح عصر جديد من الصراع بين الدين واللادين يستحق أن يفرد له فصل مستقل.

---

(٢٥) أفكار ورجال: ٤٧٧ ـ ٤٧٨.

(٢٦) المشكلة الاخلاقية والفلاسفة: ١٣٨.

الفصل الثالث

الثورة الفرنسية

إن النظام الاجتماعي الذي هيمن على الحياة الأوروبية طيلة القرون الوسطى هو نظام «الاقطاع»، وربما كان أبشع وأظلم النظم الاجتماعية في التاريخ.

ولا شك أن الظلم دائمًا سمة من سمات الحكم الجاهلي لأي مجتمع في كل زمان ومكان، ولكن صورته في المجتمع الأوروبي الاقطاعي كانت أتم وأظهر[1]، ففي الفترة التي كان فيها الشرق المسلم ينعم بالحياة في ظل أفضل وأعدل مجتمع عرفه التاريخ كان الغرب المسيحي يرزح تحت نير هذا النظام البغيض.

والفطرة البشرية ــ كما خلقها الله ــ تأبى الظلم وتنفر منه، مهما طال خضوعها له، ولذلك فإنها تنتهز أدنى فرصة سانحة للثورة عليه وتقويض دعائمه.

وترتبط أولى محاولات الإنسان الأوروبي الانفلات من المظالم الاقطاعية بالاحتكاك المباشر بالمسلمين عن طريق الفتوحات الاسلامية في أوروبا، وبلغ ذلك ذروته إبان الحروب الصليبية.

وليس غريباً أن يكون أرقاء فرنسا هم رواد الثورة على

---

(١) انظر فصل علمانية الاقتصاد من الباب الثالث موضوع «صورة مجملة لنظام الاقطاع» ص ٢٦١.

الاقطاعيين فإن موقعها الجغرافي المحاذي للجزء المسلم من أوروبا «الأندلس» ثم حملاتها الصليبية الكثيفة مضافاً إليهما بعدها النسبي عن مركز البابوية في روما كل هذه جعلتها أقرب إلى روح التحرر والانطلاق.

وهكذا قامت في فرنسا أول ثورة فلاحية «الجاكريه» في القرن الرابع عشر للميلاد. وهي وإن أخفقت، كالشأن في المحاولات الأولى، فقد هيأت للأذهان لامكان القيام بعمل ناجح مستقبلاً وأثرت في ظهور انتفاضات مماثلة في أنحاء القارة.

وكان من العوائق الكبرى التي خيبت جهود الثائرين أن الكنيسة «أكبر الملاك الاقطاعيين» وقفت ضدهم وأجهضت محاولاتهم.

فالكنيسة لم تكتف بصد الناس عن نور الاسلام، بل ناقضت تعاليم الانجيل الداعية إلى المحبة والتسامح ونافست الأمراء الاقطاعيين في إذلال الشعوب وقهرها.

ويأتي التبرير المسيحي لنظام الاسترقاق الاقطاعي على يد القديس توما الاكويني الذي فسره بأنه «نتيجة لخطيئة آدم»[٢] وكأن رجال الكنيسة والبارونات ليسوا من بني آدم. وهناك حقيقة ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا فيما يتعلق بالثورات الفلاحية، وهي أن هذه الثورات لم تكن تمرداً على الكنيسة لأنها كنيسة بل لأنها «مالك إقطاعي».

يقول ويلز «كانت ثورة الشعب على الكنيسة دينية... فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساوئها ونواحي الضعف فيها وكانت حركات تمردهم على الكنيسة حركات لا يقصد بها الفكاك من

---

(٢) قصة الحضارة: ٤٠٦/١٤.

الرقابة الدينية بل طلب رقابة دينية أتم وأوفى . . . وقد اعترضوا على البابا لا لأنه الرأس الديني للعالم المسيحي بل لأنه لم يكن كذلك أي لأنه كان أميراً ثرياً دنيوياً بينما كان يجب أن يكون قائدهم الروحي»[٣].

وحدث إلى جانب ذلك وبعده تحولات ظاهرة في الحياة الأوروبية:

فالملوك المركزيون استطاعوا أن يذوبوا البارونات في رعاياهم ويدمجوا اقطاعياتهم في الدولة وإن كان قد بقي لهم امتيازات ومخصصات كثيرة ــ وتمت هذه العملية بفضل حصول الحكومات على البارود عن طريق الشرق وهو سلاح لم تصمد له قلاع البارونات طويلاً.

وأدى هذا إلى مزيد من الاستغلال للأرقاء من قبل أسيادهم كي يعوض الأسياد عن الضرائب التي فرضتها الحكومة المركزية على إقطاعياتهم، ولم يَدُرْ ببال الملوك أن يفكروا في شأن الأرقاء، بل كان كل همهم أن تأتي الضريبة كاملة من أي طريق.

والتحول الآخر يتمثل في ظهور الحركات التي تزعمها (لوثر، كالفن، هس) وأمثالهم فقد حطمت هذه الحركات الوحدة الشكلية للعالم الغربي المسيحي وأضعفت السلطة الكنسية المركزية بكثرة ما أحدثته من مذاهب وفرق لا حصر لها.

وهذا التحول بالاضافة إلى سابقه أدى إلى تخلخل المجتمع الأوروبي وتغيير بعض ملامحه الثابتة فابتدأت المدن الأوروبية في النمو وظهرت الطبقة الوسطى «البورجوازية» فظهر منافس قوي للإقطاعيين

---

(٣) معالم تاريخ الإنسانية: ٣/٩٨٩.

يتمثل في طبقة تجار المدن البورجوازيين الذين كانوا بمثابة الطلائع للرأسماليين الكبار[٤].

وإلى جانب ذلك كانت اليقظة التي عرضناها في الفصل السابق وكان ظهور الورق والمطابع العامل الفعال في نشرها وتوسيع ميدانها.

كل هذه التحولات آذنت بهبوب رياح التغيير على القارة وأنذرت بافتتاح عصر جديد مغاير للماضي في قيمه وتصوراته وأوضاعه وكانت أحوال فرنسا الثقافية والاجتماعية تؤهلها لافتتاح ذلك العصر.

في السنوات السابقة للثورة بلغ الفساد السياسي والتدهور الاقتصادي في فرنسا غايته حتى أن «كالون» وزير الخزانة الملكية اعترف بذلك سنة ١٧٨٧م وأرادت الحكومة سد عجز الميزانية بإرهاق الشعب بضرائب جديدة فادحة فازدادت أحوال الطبقات المسحوقة سوءاً وعصفت بالبلاد موجة من الجوع ونقص المؤن.

وفي الوقت الذي عيل فيه صبر الشعب وأنهكته المجاعة والبؤس كان هناك طبقتان تترنحان في أعطاف النعيم وتنغمسان في مختلف الملاذ هما: طبقة رجال الدين وطبقة الأشراف، بالاضافة إلى الأسرة المالكة التي كانت عبئاً ثقيلاً على الجميع.

وكان إنقاذ الشعب يتطلب منه أن يقوم بعمل يودي بالظلم ويزيح كابوسه عن المهضومين. ووقف الشعب بكل فئاته «الفلاحين، المهنيين، القساوسة الصغار» جبهة واحدة وكانت الجبهة الأخرى ائتلافاً بين الطبقتين المحتكرتين «رجال الدين والأشراف».

---

(٤) انظر حول ذلك قصة الحضارة: ٢٨/٢٧٦.

وقضت سنة الله أن ينتصر الشعب على جلاديه وأن تحصد «المقصلة» معظم الرؤوس المترفة الطاغية.

وتمخضت الثورة عن نتائج بالغة الأهمية، فقد ولدت لأول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب «وليس باسم الله»، وعلى حرية التدين بدلاً من الكثلكة، وعلى الحرية الشخصية بدلاً من التقيد بالأخلاق الدينية، وعلى دستور وضعي بدلاً من قرارات الكنيسة.

وقامت الثورة بأعمال غريبة على عصرها فقد حلت الجمعيات الدينية وسرحت الرهبان والراهبات وصادرت أموال الكنيسة وألغت كل امتيازاتها، وحوربت العقائد الدينية هذه المرة علناً وبشدة وأصبح رجل الدين موظفاً مدنياً لدى الحكومة[٥].

هذه النتائج والتطورات تستحق أن يقف عندها الانسان باحثاً عن أسبابها ودوافعها، وبالنظرة الفاحصة نجد أن عوامل متعددة قد تضافرت على تحقيقها وأهمها ثلاثة:

أولاً ــ الفكر اللاديني (الذي طبع عصر التنوير)

ــ كما يسمى ــ بطابعه الخاص والذي كانت مدارسه رغم تباينها تسعى إلى غاية واحدة هي تقويض الدين واجتثاث مبادئه من النفوس، وقد سلكت كل مدرسة منحى خاصاً لتحقيق ذلك وأشهرها:

١ ــ مدرسة ذات طابع علمي عام وأبرز الأمثلة عليها الكتاب الموسوعيون الذين كتبوا دائرة المعارف بزعامة «ديدرو» وكانوا كما يقول ويلز: «يناصبون الأديان عداوة عمياء».

(٥) فيما يتعلق باسباب ونتائج الثورة انظر تاريخ أوروبا العصر الحديث فيشر الفصل الأول.

٢ ـ مدرسة ذات طابع اجتماعي وسياسي: ويرأس هذا الاتجاه روسو صاحب كتاب «العقد الاجتماعي» الذي أطلق عليه «إنجيل الثورة الفرنسية» و«مونتسكيو» صاحب «روح القوانين»، ومن كتابات هؤلاء استلهم زعماء الثورة مبادئهم واقتباساتهم.

والغرض من فكرة العقد الاجتماعي واضح للعيان فهي تهدف إلى استبدال «المصلحة الاجتماعية» أو «الرابطة النفعية للأفراد» بالأخلاق والنظم الدينية وتحل عبادة «المجتمع» ممثلاً في الوطن أو القوم محل عبادة الله، وذلك ما نادت به الثورة حرفياً.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الفكرة ليست من بنات أفكار روسو، فقد سبقه إليها الفلاسفة المثاليون في «المدن الفاضلة»، ففي «جمهورية أفلاطون» و«اليوتوبيا» لتوماس مور، و«مدينة الشمس» لكامبانيلا، نماذج واضحة للحياة اللادينية التي تقوم على أساس من التفاهم والوفاق المجرد بين الأفراد وهو ما عبر عنه روسو بالعقد الاجتماعي، إلا أنه أضاف إلى هذا النموذج ما اقتبسه من «هوبز» و«ميكافيلي» اللذين غلبا جانب الشر لدى الانسان على الخير لذلك كان روسو هداماً أكثر منه فيلسوفاً(*).

٣ ـ مدرسة ذات طابع فلسفي هدام: سبق الفلاسفة العقلانيون غيرهم في بحث علاقة الفرد بالدولة والمناداة بمجتمع ينفصل فيه الدين عن الدولة، وكانت فكرتهم اللادينية أوسع مما تصوره ميكافيلي، لأن الدين نفسه عندهم يجب أن يلغى ليحل محله «الدين الطبيعي أو القانون الطبيعي»، وربما كان الفيلسوف اليهودي «سبينوزا» رائد الفكرة العلمانية باعتبارها منهجاً للحياة، فهو يقول في كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسة»:

(*) سيأتي تفصيل هذه النظريات في فصل «علمانية الحكم والسياسة من الباب الثالث.
أنظر الصفحات: ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٤.

«ومن الخطورة على الدين وعلى الدولة على السواء إعطاء من يقومون بشؤون الدين الحق في إصدار القرارات أياً كانت أو التدخل في شؤون الدولة وعلى العكس يكون الاستقرار أعظم إذا اقتصروا على الاجابة على الأسئلة المقدمة إليهم والتزموا في أثناء ذلك بالتراث القديم الأكثر يقيناً والأوسع قبولاً بين الناس»[٦].

واكتملت لدى فولتير فكرة الدين الطبيعي التي ورثها عن سبينوزا ولايبنتز واشتق منها فكرة «القانون الطبيعي» حيث نجده يقول «إن دين أهل الفكر دين رائع خال من الخرافات والأساطير المتناقضة وخال من العقائد المهينة للعقل والطبيعة... لقد منع الدين الطبيعي آلاف المرات المواطنين من ارتكاب الجرائم... أما الدين المصطنع فإنه يشجع على جميع مظاهر القسوة... كما يشجع على المؤامرات والفتن وعلى أعمال القرصنة وقطع الطريق... ويسير كل فرد نحو الجريمة مسروراً تحت حماية قدّيسه».

ويقول: «هناك قانون طبيعي مستقل عن الاتفاقات الانسانية... يبدو لي أن معظم الناس قد أخذوا من الطبيعة حساً مشتركاً لسن القوانين»[٧].

وإذا كان روسو وفولتير لم يدركا الثورة الفرنسية، فإن الفيلسوف الألماني «كانت» ١٨٠٤م عاصرها واشتهر بتأييدها، وهو الذي طور فكرة العقد الاجتماعي في كتابه «الدين في حدود العقل وحده»[٨].

كما أن كاتباً ثائراً معاصراً لها، هو «وليم جدوين»، نشر سنة ١٧٩٣ كتاب «العدالة السياسية» الذي كان دعوة علمانية صريحة[٩].

---

(٦) ص: ٤٢٦.

(٧) مقتطفات من القاموس الفلسفي لفولتير: سلسلة تراث الإنسانية ج ٨.

(٨) انظر عنه سطور مع العظماء: ١٧٣، وسلسلة تراث الإنسانية: ٢٠٧/٨.

(٩) انظر أفكار ورجال: ٤٨٩.

وهكذا بتأثير هذا الفكر اللاديني جسمت الثورة الفرنسية الفكرة الفلسفية القديمة بإقامة مجتمع يرفض القيم والأخلاق الدينية ويجعل العلاقات النفعية المحضة هي الرباط المقدس الوحيد.

ثانياً ــ وقوف الكنيسة ضد مطالب الجماهير:

كان من الممكن ألا تعتنق الجماهير المسيحية أفكار الكتاب العلمانيين هؤلاء وتتخلى عن عقيدتها الراسخة لولا الموقف الشائن الذي وقفته الكنيسة من مطالبهم المشروعة.

ربما كان للكنيسة عذر أو بعض عذر في شكوكها الحائمة حول القائمين على الثورة لكن الأمر الآن قد أفلت من يدها، فإن هيجان الرعاع الهالكين جوعاً وظلمًا لا يسمح لهم بالتروي والأناة في مثل هذه المواقف الصاخبة، وأصبح لزاماً عليها أن تسدد ديون قرون طويلة من الاستغلال البشع والطغيان الجائر.

إن ذهن الفلاح الساذج قد لا يستطيع أن يستوعب شيئاً من أفكار روسو وانتقادات فولتير لكنه يستطيع بسهولة أن يرى مخازي الكرادلة والقساوسة وفضائحهم وثراءهم البازخ. لقد رأى بأم عينيه ما عبر عنه توماس جفرسن بقوله:

«إن القسيس في كل بلد وفي كل عصر من أعداء الحرية، وهو دائمًا حليف الحاكم المستبد يعينه على سيئاته في نظير حمايته لسيئاته هو الآخر»(١٠). وكان ذلك مدعاة لأن تصب الجماهير جام غضبها على الكنيسة وتصرخ خلف «ميرابو»: (اشنقوا آخر ملك بامعاء آخر قسيس).

---

(١٠) أفكار ورجال: ٥٠٢.

ثالثاً ــ القوى الشيطانية الخفية[11]:

كان من الممكن ــ كذلك ــ أن تثأر الجماهير من الكنيسة فتصادر أملاكها وتقضي على نفوذها وتظل مع ذلك مؤمنة بدينها وفية لتاريخها متمسكة بتقاليدها العريقه لولا أنه وجد عامل آخر قلب أهداف الثورة وحوَّل خط سيرها.

عندما اندفعت الجموع الغوغائية لهدم الباستيل ــ رمز العبودية والاستبداد ــ لم تكن ترفع سوى شعار واحد هو «الخبز» والخبز وحده.

غير أنها لم تبدأ في قطف أولى نتائج ثورتها حتى وجدت نفسها تهتف بشعار الحرية المساواة الإخاء، وهو شعار لقنت إياه تلقيناً، وبرز أيضاً شعار آخر لم يكن الرعاع ليصنعوه هو «لتسقط الرجعية» وهي كلمة ملتوية تعني الدين.

وعندما كانت المقصلة دائبة العمل كان الضحايا يقدمون على مذبحها بحجة واحدة هي أنهم من أعداء «الشعب» مع أنه كان بينهم من يعرف الشعب براءته، ودهش الشعب حين كان يرى من يقرأ بيان القتل اليوم باسم الشعب يقدم هو نفسه غداً إلى المقصلة باسم الشعب أيضاً. إذن ما وراء هذه التطورات المفاجئة والتدبيرات الغريبة؟

يدعي اليهود في تبجح وغرور أنهم صناع الثورة الفرنسية ومدبروها فتقول البروتوكولات: «تذكروا الثورة الفرنسية التي نسميها «الكبرى» إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا» وتقول:

(كذلك كنا قديماً أول من صاح في الناس «الحرية والمساواة

---

(١١) يراجع بتوسع: المفسدون في الأرض ص ١٤٦ فما بعدها.

والإخاء» كلمات ما انفكت ترددها منذ ذلك الحين ببعاوات جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر[١٢].

وصدق ذلك بعض الكتاب من أمثال وليم كار في «أحجار على رقعة الشطرنج» وسيبريدوفيتش في حكومة العالم الخفية[١٣].

والواقع انها دعوى مسرفة يعلم مقدار المبالغة فيها من له بصيرة بحركة سير التاريخ وسنة الله فيه.

كان اليهود يعانون من المسيحيين أشد احتقار وازدراء، وكانوا بحكم الذلة التي ضربها الله عليهم، أمة مرذولة مستهجنة أينما حلت وسارت، منطوية على نفسها في مجتمع منعزل «الجيتو»، ولم ينعموا بالحياة الكريمة إلاّ في ظل الحكم الإسلامي.

والمفارقة العجيبة أن هذا الشعب الحقير الممتهن يملك تراثاً عريقاً ينفث في نفسه الكبرياء الكاذبة، والاثرة البغيضة ويعده الوعود الخيالية، فالتلمود كتابهم الخطير يقول: «تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله، كما أن الابن جزء من والده» فهم شعب الله المختار أما غيرهم فيقول عنه التلمود «الخارج عن دين اليهود حيوان فسمه كلباً أو حماراً أو خنزيراً والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان»[١٤].

وهكذا نجد اليهود يرون أنهم شعب الله المختار ولهم وحدهم خلقت خيرات الكون وكنوزه وأن الله أوجب عليهم إبادة كل الأميين (غير اليهود) لأنهم كفار ووثنيون والقضاء عليهم لا يتم إلاّ بالقضاء على أديانهم وتدمير أخلاقهم.

---

(١٢) البروتوكولات: ١٠٣، ١١١.
(١٣) انظر احجار على رقعة الشطرنج: فصل الثورة الفرنسية. وحكومة العالم الخفية: ٧٩.
(١٤) الكنز المرصود في قواعد التلمود: ٦٠، ٦٨.

إلى جانب ذلك كانت العداوة التي أغرى الله بين اليهود والنصارى وهي عداوة تقليدية لا تنفك بحال، وكان اليهود في ظل فرنسا الكاثوليكية أقلية محتقرة لا تحسب في عداد المواطنين وليس لها «حق المواطنة» وكان اليهود موقنين من أن تحقيق أحلام التلمود بكسر أطواق الذل المضروبة عليهم والخروج من الجيتو للسيطرة على الأميين لن يتم ما دام في الكنيسة عرق ينبض فكانوا يتحينون الفرصة للاجهاز عليها ويتلهفون شوقاً إلى اليوم الذي يثأرون فيه منها ومن دينها وأخلاقها ويسيطرون على اتباعها.

فلما نزلت الضائقة الاقتصادية واندلعت الثورة على الكنيسة وجدها اليهود فرصة ذهبية لا ينبغي أن تفوت ـ وهي فرصة ساقتها المقادير إليهم وما صنعوها كما يزعمون إلا أنهم أجادوا استغلالها.

وحين يقول فشر «ان أرباب الأموال موّلوا الغوغاء» الذين قاموا بالثورة نستطيع أن نعرف أن أرباب الأموال هؤلاء ليسوا سوى المرابين اليهود لأن من عداهم كانوا هدفاً للثورة.

واستطاع اليهود أن يتغلغلوا في منظمات الثورة المختلفة كالجمعية التأسيسية ونادي اليعاقبة وبلدية باريس، وأن ينفثوا تلك الشعارات التي رددتها الجماهير ببلاهة لا سيما شعار الثورة البارز «الحرية والأخاء والمساواة» هذا الشعار الذي قامت عليه الثورة وحققته كان له عند اليهود تفسير آخر:

فهم يقصدون بالحرية تحطيم القيود الأخلاقية والتقاليد الموروثة التي تحول بينهم وبين إفساد الأمم وتدميرها. ويقصدون بالأخاء والمساواة كسر الحواجز النفسية والاجتماعية التي تحول بينهم وبين الإنسلال إلى أجهزة الدولة وتنظيماتها، وإذابة الفوارق الدينية بينهم وبين غيرهم كي تزول عنهم وصمة الاحتقار والمهانة.

وهكذا نجحوا في تحويل الثورة من ثورة على مظالم رجال الدين إلى ثورة على الدين نفسه وجعلوا لفظة الدين عند الشعوب الأوروبية مرادفة للظلم والرجعية والتخلف والاستبداد.

وأياً ما كان الأمر فإن الثورة الفرنسية كانت فاتحة عصر جديد في التاريخ الأوروبي، إذ توالت بعدها الثورات كالبراكين في أنحاء القارة وعرفت أوروبا ــ ربما لأول مرة ــ شيئاً اسمه حقوق الإنسان، ولا تزال تنسبه لهذه الثورة إلى اليوم، وكان نجاح أي ثورة يعني انهيار النظام الاقطاعي وانهيار نفوذ الكنيسة، ولذا فإن من الطبيعي لتغيّر عميق كهذا أن يصحبه فراغ هائل في المعتقدات والقيم. فإذا علمنا أن هناك من يستغل هذا الفراغ لتحطيم إنسانية الإنسان وتدمير قيمه، أدركنا المغزى الحقيقي للحرية التي نادت بها تلك الثورات.

إن كل الشعارات البراقة التي رفعت لتحل محل الايمان الديني لم تَفِ بهذا الغرض، كما فشلت جمع الدساتير والنظم في جلب الاستقرار للقارة، ولذلك شهدت أوروبا في الفترات التالية ما لا يحصى من الاتجاهات الفكرية والاجتماعية الحائرة كما شهدت حروباً طاحنة مدمرة جعلت خريطة أوروبا عرضة للتغير المستمر، وحلّت الفاجعة الكبرى بالدين والأخلاق والتقاليد التي أصبحت ينظر إليها وكأنها قطعة متحجرة من الماضي البغيض.

الفصل الرابع

نظرية التطور

قبل أن تبصر نظرية «داروين» النور، كان الايمان المسيحي والأخلاق المسيحية قد تعرضا لضربات قاسية وهزات عنيفة:

تهافت النظرية المسيحية عن الكون، انتقادات سبينوزا وفولتير الشديدة، الثورة الفرنسية وما أصاب الكنيسة على يديها من نكبات، النظرية الآلية «الميكانيكية» المنبثقة عن نظرية نيوتن، الدين الطبيعي الذي نادى به الفلاسفة العقليون، نظرية التطور الفكري كما تخيلها كومت، النجاح الذي صادفه المذهب اللاأدري ومذهب الربوبيين الجمعيات السرية الهدامة وأفكارها الموبوءة... وأحداث فكرية واجتماعية لا يظهر أحدها إلا وينهش من جسد الكنيسة نهشة أو يطوح من بنيانها بلبنة أو لبنات.

لكن ذلك كله لم يكن ليسمح لأي مفترض أو متكهن بأن يتنبأ بانهيار كامل للمسيحية قبل قرون عدة، على الأقل، فقد بقيت رغم الطعنات النافذة كياناً قائماً تدعمه عواطف الكثرة الكاثرة من الناس. وتسانده موروثات عميقة الجذور من القيم والمثل والتقاليد.

نعم، لقد تغيرت نظرة الناس إلى المسيحية لكنها ــ إلى ذلك الوقت ــ لم تتغير بالنسبة للتصور الديني في حد ذاته فقد بقي هذا

التصور سائغاً، بل متأصلاً، بدليل الجهد الذي بذله الفلاسفة لاصطناع دين طبيعي أو دين إنساني ــ كما يدعون ــ .

وتغيرت كذلك نظرة الانسان إلى الكون وحجمه فيه لكن نظرته لم تتغير أبداً بالنسبة لإنسانيته وتفرده بوصفه كائناً روحياً متفوقاً على كل الموجودات، إن لم يكن بجسمه فبعقله وروحه. وتغيرت نظرة الناس إلى حركة التاريخ وخط سير الحياة ولكن لم يكن في وسع أحد أن يعتقد ــ أو أن يجاهر ــ بأنه لا توجد قيم ثابتة ولا أخلاق ثابتة ولا تقاليد ثابتة.

ولقد صدق الناس الكثير مما قاله أعداء الدين، كفولتير وهيوم ودولباخ، لكنهم إلى الآن يعدون مثل هؤلاء الناس ملاحدة ومجدفين.

وفي سنة ١٨٥٩ نشر الباحث الانجليزي «تشارلز داروين» كتابه «أصل الأنواع»[١]، فأحدث ضجة لم يحُدثها أي مؤلف آخر في التاريخ الأوروبي قاطبة، وكان له من الآثار في المجالات الفكرية والعملية ما لم يكن في الحسبان.

والغرض الذي يدور حوله الكتاب هو افتراض تطور الحياة في الكائنات العضوية من السهولة وعدم التعقيد إلى الدقة والتعقيد، وتدرجها من الأحط إلى الأرقى، وأن الفروق الخلقية داخل النوع الواحد تنتج أنواعاً جديدة مع مرور الأحقاب الطويلة، ولذلك يفترض داروين أن أصل الكائنات العضوية ذات الملايين من الخلايا كائن حقير ذو خلية واحدة.

وحسب قانون «الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب» نمت الأنواع التي استطاعت التكيف مع البيئة الطبيعية ومصارعة الكوارث المفاجئة

---

(١) ترجمه إلى العربية: اسماعيل مظهر.

وتدرجت في سلم الرقي في حين هلكت الأنواع التي لم يحالفها الحظ في ذلك.

وعلة ذلك أن الطبيعة ـ حسب تعبير داروين ـ وهبت بعض الكائنات عوامل البقاء ومؤهلات حفظ النوع بإضافة أعضاء أو صفات جديدة تستطيع بوساطتها أن تتواءم مع الظروف الطارئة، وقد أدى ذلك إلى تحسن نوعي مستمر نتج عنه أنواع جديدة راقية كالقردة ونوع أرقى وهو الانسان، أما البعض الآخر فقد حرمته الطبيعة من ذلك فتعثر وسقط، والطبيعة إذ تَهِبَ هذا وتحرم ذاك لا تنتهج خطة مرسومة، بل تخبط خبط عشواء ـ على حد قوله ـ كما أن خط التطور ذاته متعرج ومضطرب لا يسير على قاعدة منطقية مطردة.

ذلك بإيجاز شديد هو لب النظرية التي طلع بها داروين في ذلك الكتاب وهي في جوهرها فرضية بيولوجية أبعد شيء عن أن تكون نظرية فلسفية عامة كما أنها بعيدة عن أن تكون حقيقة علمية ثابتة.

ولقد قال عنها اثنان من أساطين علم الأحياء في القرن الماضي، هما أوين في انجلترا و «أغاسيز» في أميركا:

«إن الأفكار الداروينية مجرد خرافة علمية وانها سوف تنسى بسرعة[٢]».

ولن نبحث الآن في السبب الذي لأجله خاب ما توقعه هذان العالمان لكننا نستدل على حقيقة ما كان متوقعاً لها ابان ظهورها من قبل أصحاب الفن المعترف بهم.

والواقع أن الجديد الذي جاء به داروين ليس فكرة التطور ذاتها، ولكنه القانون الذي تسير عليه عملية التطور، بغض النظر عن قيمته العلمية.

---

(٢) سلسلة تراث الإنسانية: ٩/١٢٥.

فقد عرفت الفكرة سلفاً من قبل علماء اكتشفوا من استقرائهم للسجل الجيولوجي للحياة أن الحياة لم توجد على الأرض دفعة واحدة، كما يتوهم الناس، بل وجدت تدريجياً في ترتيب تاريخي، ولاحظوا أن الأنواع المتأخرة في الظهور أكثر رقياً من الأنواع المتقدمة ومن هؤلاء «راي، وباركنسون، ولينو».

أما السبب في إهمال النتائج التي توصلوا إليها فهو ــ على ما يبدو ــ التفسير الذي قدموه للتطور فقد قال هؤلاء «إن التطور خطة مرسومة فيها رحمة للعالمين»[٣]، ولذلك وصفت نظريتهم بأنها «لاهوتية». وكان ذلك كافياً لإضفاء النسيان عليها حتى داخل معامل الأحياء.

ذلك أن الصراع بين العلم والدين آنذاك كان في حالة من الهيجان لا تسمح بانتشار نظرية تشم منها رائحة إله الكنيسة السفاح الحقود!!

وكان العلم النيوتيني قد ألقى في روع أعداء الكنيسة إمكان تفسير الظواهر الطبيعية «ميكانيكياً»، أي دون الحاجة إلى مدبر، ولذلك فلم تكن ظروف الصراع تستدعي إلّا إيجاد فكرة عن الحياة تقوم على قانون ميكانيكي كقانون نيوتن في الفلك.

وفعلاً حاول الكثيرون الحصول على شرف اكتشاف هذا القانون فبذل كل من «بوفون» و«لامارك» و«كوفييه» و«بترس كامبر» جهوداً مضنية في هذا الشأن. أما داروين فقد استطاع العثور على ذلك القانون المزعوم من طريق بعيد عن مجال الحياة والأحياء، إذ استوحاه من علم آخر هو «علم دراسة السكان» ومن نظرية «مالتوس» بالذات[٤].

---

(٣) سلسلة تراث الإنسانية: ٧٢/٩.

(٤) سيأتي الحديث عنها ضمن النظريات الاقتصادية في الفصل الثاني من الباب الثالث ص ٢٧٤.

استنتج داروين من إفناء الطبيعة للضعفاء لمصلحة بقاء الأقوياء، كما توهم مالتوس، قانونه في التطور المسمى «الانتقاء (أو الانتخاب) الطبيعي وبقاء الأنسب» وبوساطته وبالاستعانة بأبحاث «ليل» الجيولوجية تمكن من صياغة نظرية ميكانيكية للتطور، فعثر أعداء الدين على ضالتهم المنشودة.

وقبل أن نبحث عن الآثار التي خلفتها النظرية في مختلف الحقول والميادين يحسن بنا أن نقف لنرى مكانها من العلم والحقائق العلمية:

وأول ما ينبغي مراعاته بهذا الشأن هو التفرقة بين جوهر النظرية نفسها وبين الايحاءات الفلسفية والتفسيرات المنبثقة عنها والتطبيقات التعسفية لها وهي أمور ربما لم تخطر لداروين على بال، كما أنها ليست نظريات علمية، إذ كان الوضع الطبيعي للنظرية حتى في حالة ثبوتها كحقيقة علمية أن تظل محصورة داخل المعمل متجردة عن ذلك كله.

وأول من نقد هذه النظرية علمياً هم العلماء المعاصرون لداروين، وقد مر قول أغاسيز وأوين قريباً، وانتقدها كذلك العالم الفلكي الشهير «هرشل» ومعظم أساتذة الجامعات في القرن الماضي. ولنضرب عن هؤلاء صفحاً، فربما قيل أنهم هاجموها لأسباب دينية أو عاطفية ولننظر إلى ما نال هذه النظرية على يد أكثر الداروينيين حماسة وتعصبا:

لقد اضطر أصحاب «الداروينية الحديثة» إلى إجراء سلسلة من التعديلات على النظرية تستحق أن توصف ــ علمياً ــ بأنها نظريات جديدة.

فأرغموا على الاعتراف بأن قانون «الانتقاء الطبيعي» قاصر عن تفسير عملية التطور فأضافوا إليه واستبدلوا به ــ في الواقع ــ قانوناً

جديداً أسموه «قانون التحولات المفاجئة» أو «الطفرات»[٥] وهو قانون لا سند له إلّا المصادفة البحتة.

ثم أرغموا على القول بأنه ليس هنالك أصل واحد نشأت عنه الحياة كلها كما تخيل داروين بل ان هناك أصولاً عدة تفرع عن كل منها أنواع مستقلة.

ثم أرغموا ـ كذلك ـ على الاعتراف بتفرد الانسان «بيولوجياً» رغم التشابه الظاهري وهو المنزلق الذي سقط منه داروين ومعاصروه.

يقول جوليان هكسلي، بعد أن سرد الكثير من خصائص الانسان الفذة: «هكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان»[٦]. ومن الداروينيين المتعصبين ـ آرثركيت ـ الذي اضطر إلى كتابة النظرية من جديد[٧] رغم اعترافه بأنها لا زالت حتى الآن بدون براهين كما سيأتي.

ومن أشهر التطوريين المحدثين «ليكونت دي نوى» وهو في الحقيقة صاحب نظرية تطورية مستقلة، ومع ذلك فهو يقول:
«أما تطور الكائنات الحية بجملتها فإنه يناقض علم المادة الجامدة تناقضاً تاماً وهو يتنافى مع المبدأ الثاني من مبادىء علم القوة الحرارية وهو حجر الزاوية في علمنا المرتكز على قوانين المصادفة فلا سبب التطور ولا حقيقته يدخلان في نطاق علمنا الحاضر وليس من عالم يستطيع إنكار ذلك»[٨].

---

(٥) انظر: الطريق الطويل إلى الإنسان: ١٩٧ فصاعداً.
(٦) معركة التقاليد: ٥٣.
(٧) انظر العلم اسراره وخفاياه مقدمة ج ٣ وتاريخ العالم: ج ١ فصل نظرية التطور.
(٨) مصير الإنسان: ٣٢٣ والقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية: «من المستحيل على آلة مكتفية بنفسها غير مستعينة بأي عامل خارجي ان تنقل الحرارة من جسم إلى آخر أعلى منه في درجة الحرارة» الديناميكا الحرارية د. إبراهيم شريف ١٧٣.

ذلك هو موقف أنصار النظرية فماذا قال العلماء المحايدون في هذا القرن؟

يقول كريسي موريسون: «أن القائلين بنظرية التطور لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوارثة» «الجينات»، وقد وقفوا في مكانهم حيث يبدأ التطور حقا أعني عند الخلية»[٩]. أما أنتوني ستاندن في كتابه «العلم بقرة مقدسة» فيناقش مشكلة الحلقة المفقودة، وهي ثغرة من ثغرات كثيرة عجز الداروينيون عن سدها بقوله:

«إنه لأقرب من الحقيقة أن نقول أن جزءاً كبيراً من السلسلة مفقود وليس حلقة واحدة بل اننا لنشك في وجود السلسلة ذاتها»[١٠].

ويقول «ستيوارت تشيس»: «أيد علماء الأحياء جزئياً قصة آدم وحواء كما ترويها الأديان... وإذا كانت تواريخ سفر التكوين في التوراة خاطئة وحوى كثيراً من الحذف والتهذيب والبيان الشاعري فإن الفكرة صحيحة في مجملها»[١١].

ـ وليت شعري ماذا سيقول هذا الرجل لو قرأ القصة كما وردت في القرآن ـ وتقول مجلة «العلوم المصورة»:

«إن العلم يؤيد قصة آدم وحواء إلى حد ما، إننا نعترف بحقيقة فكرة الأسرة البشرية ذات الأصل الواحد»[١٢].

ويقول أوستن كلارك: «لا توجد علامة واحدة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيا من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيره، إن كل

(٩) العلم يدعو للايمان: ١٤٧ والكتاب كله رد على الدارويني الملحد جوليان هكسلي.
(١٠) مذهب النشوء والارتقاء: ٢٣.
(١١) الإنسان والعلاقات البشرية: ١٤٥.
(١٢) مذهب النشوء والاتقاء: ٢٣.

مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة متميزة، لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة وفي نفس الشكل الذي نراه عليه الآن»[١٣].

هذا من الوجهة العلمية، فما الحكم على النظرية من الوجهة المنطقية المجردة؟

إن نظرية التطور تقوم على أصلين كل منهما مستقل عن الآخر:

١ ــ ان المخلوقات الحية وجدت على الأرض في مراحل تاريخية متدرجة ولم توجد دفعة واحدة.

٢ ــ ان هذه المخلوقات متسلسلة وراثياً نتج بعضها عن بعض بطريق التعاقب خلال عملية التطور البطيئة الطويلة.

والذي عملته الداروينية: أنها دمجت بين الأصلين وجمعت شواهد ودلائل الأصل الأول لتؤيد بها الثاني. وهذا اللبس غير العلمي هو الذي أغرى بعض العلماء بقبول النظرية وأضفى عليها مسحة «العلمية» مع ان هذه المسحة يصح ان تضفى على الأصل الأول ولكن إضفاءها على الثاني خطأ محض، إذ من المعلوم بدهياً ان الترتيب التاريخي للوجود لا يستلزم التسلسل الوراثي. بل ان العقل ليؤكد ما هو أبعد من ذلك وهو أن الترتيب المنطقي لا يستلزم الترتيب التاريخي، فالترتيب المنطقي للكائنات الحية هو ــ تصاعدياً ــ النبات ثم الحيوان ثم الإنسان، وليس في هذا الترتيب ما يدل على أن الوجود التاريخي لهذه الأجناس وقع بهذا الترتيب، بل نحتاج في إثبات ذلك إلى دليل خارجي، وذلك يشبه تماماً الترتيب المنطقي للأعداد: (١ ٢ ٣ ٤)، وبدهي أنه ليس لها ترتيب تاريخي ولا يوجد بينها علاقة وراثية.

---

(١٣) نفس المصدر السابق: ١٣.

ولن نفيض في مناقشة النظرية أكثر من هذا، لكن ألا يحق لنا الآن أن نسأل: إذا كان هذا هو حكم العلم والعقل على النظرية، وإذا كانت تتعرض للطعون والاعتراضات من كل جهة فلم يتشبث بها بعض علماء الغرب ـ بغض النظر عن غيرهم ـ ويصرون عليها إصراراً أعمى؟

والجواب على ذلك أقرب مايكون إلينا: انه الفصام النكد والعداوة الشرسة التي قامت بين العلم والدين في ظروف غير طبيعية، ولقد كفانا السير آرثر كيث مؤونة الجواب بقوله:

(ان نظرية النشوء لا زالت حتى الآن بدون براهين ـ وستظل كذلك ـ والسبب الوحيد في اننا نؤمن بها هو ان البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا غير وارد على الاطلاق)[١٤].

وإضافة إلى ذلك يقول واطسن: «ان علماء الحيوان يؤمنون بالنشوء لا كنتيجة للملاحظة أو الاختبار أو الاستدلال المنطقي ولكن لأن فكرة الخلق المباشر بعيدة عن التصور»[١٥].

ويقول د.هـ سكوت«ان نظرية النشوء جاءت لتبقى ولا يمكن ان نتخلى عنها حتى ولو أصبحت عملاً من أعمال الاعتقاد»[١٦].

موقف واضح صريح، أدنى ما يستحق ان يوصف به هو ما قاله ليكونت دي نوى حين اعترض عليه بعض المتعالمين بسبب استعماله كلمة «الله» في أحد كتبه، قال:

«ان عدم التسامح المنتشر في القرون الوسطى لم يمت مع انه

(١٤، ١٥، ١٦) المصدر السابق: ٦ ـ ٧.

انتقل إلى المعسكر الثاني»[١٧]. وهذا حق فإن الموقف غير العلمي الذي يتخذه هؤلاء المسمون «علماء» هو بعينه موقف الكنيسة في عقيدتها القائلة بأن الله خلق آدم خلقاً مستقلاً سنة ٤٠٠٤ق. م وإذا كان هناك من فرق فهو ان الكنيسة لم تدع انها «علمية» كما يفعل هؤلاء المتعصبون. وان في هذه الاعترافات الصارخة لعبرة بالغة للببغاوات في الشرق لو كانوا يعتبرون!!

آثار الداروينية

أولاً ــ إنهيار العقيدة الدينية:

وجد الالحاد في العالم الغربي المسيحي قبل داروين فقد أباحت الثورة الفرنسية حرية الالحاد تحت شعار «حرية الاعتقاد» وقدمت الميكانيكية النيوتونية للملاحدة خدمة كبيرة، لكن الالحاد ظل حتى سنة ١٨٥٩ قضية فلسفية محدودة النطاق وظلت العقيدة المسيحية محتفظة بمركز قوي ليس في الطبقات الدنيا من الشعب فحسب بل حتى في الجامعات والأكاديميات العلمية التي كانت في الغالب هيئات دينية أو خاضعة لنفوذ رجال الكنيسة.

وبعد سنة ١٨٥٩ أصيب العالم بنقص حقيقي في الإيمان ــ على حد تعبير ويلز ــ بسبب ما أشاعه أعداء الدين من تفسيرات باطلة لنظرية التطور، والاستغلال البشع الذي قام به المغرضون، والحماس المنقطع النظير الذي استقبلت به النظرية، أما موقف الكنيسة فقد كان مهزوزاً منذ البداية لا سيما وان الزمن قد أثبت خطأ المواقف التي اتخذتها من النظريات الكونية السابقة ولذلك خشي الكثير من

---

(١٧) مصير الإنسان: ٢٧٧.

المتعاطفين معها ان يقعوا في الخطأ نفسه، ناهيك عن الأعداء الذين شهروا بالدين ورجاله أشنع تشهير.

ونشبت معركة من أعظم المعارك الفكرية في التاريخ واشتط أصحاب النظرية في موقفهم وتطرفوا إلى حد إنكار التصور الديني جملة وإعلان إلحادهم الصريح كما تطرفت الكنيسة وأشياعها فأعلنت كفر وهرطقة كل من لم يكن في جانبها.

وانتهت المعركة إلى نتيجة مفزعة: فقد تزلزلت العقائد الدينية جملة، وانتشر الإلحاد وشاع بطريقة غريبة شاذة.

والواقع ان طبيعة الفلسفة المسيحية تجعلها أكثر الأديان تعرضاً للانهيار في حالة ثبوت النظرية، صحيح ان الأديان كلها تؤمن بعقيدة الخلق المستقل لكن المسيحية تزيد على ذلك بأنها تجعل هذه العقيدة قطب الرحى للإيمان المسيحي برمته.

فالمسيحية البولسيه تعتقد ان الله خلق آدم وحواء ونهاهما عن الأكل من شجرة معرفة الخير والشر فأغرتهما الحية فأكلا من الشجرة فارتكبا بذلك خطيئة لا تغتفر وظل الجنس البشري يرسف في أغلال الخطيئة الموروثة حتى رحم الله العالم فأرسل ابن الوحيد ـ تعالى عن ذلك ـ الذي هو الأقنوم الثاني من الثالوث فقتل على الصليب ليخلص البشرية من الخطيئة.

وهذه العقيدة هي محور التعاليم الكنسية ولا يمكن بحال أن يعد المرء مؤمناً بالمسيحية ما لم يعتقدها، لذلك فبدهي أن تقض نظرية داروين مضاجع رجال الدين والغيورين من المسيحيين الذين رأوا ـ محقين ـ أن التصديق بأن الإنسان خلق بالطريقة التي فسرها داروين معناه بوضوح أنه لم يكن هناك آدم ولا حواء ولا عدن ولا

خطيئة «وإذا لم يكن ثمة خطيئة فإن الصرح التاريخي للمسيحية وقصة الخطيئة الأولى والكفارة التي أسس عليها التعليم الساري للعواطف المسيحية فإن كل ذلك ينهار كبيت من ورق اللعب»[١٨] وما دام ان الإنسان الغربي عموماً لا يعرف عن الدين إلا أنه المسيحية فإنه سيجد نفسه تلقائياً قد أصبح ملحداً.

يقول ويلز:

«الحق أنه لم يخل عصر من العصور من متشككة في المسيحية... على ان هؤلاء كانوا أناساً غير عاديين أما الآن (أي بعد نظرية داروين) فقد أصبحت كل المسيحية بوجه الإجمال متشككة إذ مست الخصومة كل إنسان قرأ كتاباً أو سمع محاورة بين أذكياء»[١٩] حول النظرية. والحق الذي لا مرية فيه ان هذه النظرية لو تركت وشأنها أو وجدت في غير الظروف والملابسات التي وجدت فيها لما كان لها هذا الشأن كله أو على الأقل لما استشرت إيحاءاتها وصبغت الحياة والفكر بهذه السرعة المخيفة، ولكن الذي أعطى الداروينية هذا الحجم الكبير هو تضافر عاملين خارجيين عنها هما:

١ ـ الظروف التاريخية السيئة: فقد ولدت النظرية في عصر كان فيه الصراع بين العلم والدين على أشده وكانت الثورة الصناعية قد أخذت تطمس ملامح المجتمع الأوروبي وتصبغه بصبغة جديدة متحللة من الدين والأخلاق، وكان الإنسان الأوروبي في كل مكان يتحفز للأخذ بثأره من رجال الكنيسة الذين أذاقوه ألوان الذل والاستعباد فكان ظهور النظرية فتحاً جديداً بالنسبة له، صحيح ان الجماهير وقفت أول الأمر بجانب الكنيسة ضد داروين «ولكن موقف

(١٨) معالم تاريخ الإنسانية: ج ٤، ص ١١١٣ وما بعدها.
(١٩) نفس المصدر السابق.

الجماهير بعد ذلك تغير فلئن كانت قد عز عليها أن يسلبها داروين إنسانيتها ويردها إلى أصل حيواني فقد أخذت تشمت في الكنيسة ورجالها الذين وجدت أن الفرصة سانحة للتخلص من نيرها المرهق وسلطانها البغيض»[٢٠].

هذا بالإضافة إلى طبيعة الإيمان المسيحي ذاته فهو إيمان عاطفي لا يقوم على الاقتناع العقلي بل على العكس تماماً فسواء لدى من أوتي حظاً من الثقافة والمعرفة أن اله الكنيسة قد قتل إبنه ليخلصه من الخطيئة أم لم يفعل ذلك فهو أصلاً غير مقتنع بأنه ولد مخطئاً وأن للرب إبناً، كما ان عقيدة التثليث والأساطير المسيحية الأخرى تسبب لعقله إزعاجاً مستمراً. لذلك فلا غضاضة في ان يضحي بهذه العقيدة الهشة في سبيل نجاته من قبضة الكنيسة الجائرة.

٢ ــ الإستغلال البشع للنظرية من قبل القوى الشيطانية الهدامة: غني عن البيان ان نقول ان اليهود يخططون للقضاء على البشرية و«استحمارها» من طريق القضاء على دينها وأخلاقها وتقاليدها فهي حقيقة آمن بها كثير من العقلاء في الغرب، وان الزمن ليكشف تدريجياً خيوط المؤامرة الشيطانية التي يدبرونها ضد الجنس البشري بجملته، وما من شك في ان نظرية داروين سلاح فتاك لم يكن هؤلاء ليحلموا به.

تقول البروتوكولات «لا تتصوروا ان تصريحاتنا كلمات جوفاء ولاحظوا هنا ان نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي سيكون واضحاً لنا على التأكيد[٢١].

---

(٢٠) معركة التقاليد: ١٢.

(٢١) الخطر اليهودي: ١٠٦ «البروتوكول الثاني».

ويستطيع المرء ان يتأكد من حقيقة هذه الدعوى إذا استعرض السرعة المذهلة التي طبقت بها الداروينية في مختلف مجالات الحياة وميادين العلوم والفكر والرؤوس اليهودية البارزة في هذا التطبيق ولعلنا الآن نتذكر السبب في خيبة النبوءة التي تنبأ بها أوين وأغاسيز لمستقبل الدارونية.

وليس التطبيق العاجل للنظرية والرواج المنقطع النظير هو السبب الذي يؤكد ذلك فهناك أسباب أخرى مؤيدة.

الإهمال الكامل للنظريات التطورية اللاهوتية حتى ان «والاس» قرين داروين وشريكه في اكتشاف النظرية لا يكاد يعرف عند غير المختصين وليس لذلك من علة، إلا انه قال بأن وراء عملية التطور قوة مدبرة[٢٢].

الطريقة الغريبة التي استقبلت وأشيعت بها النظرية والتي جعلت الناس يتلقفونها لا بوصفها نظرية علمية بل كما لو كانت ديناً جديداً بالفعل، وطرحت لا كمناقض للمسيحية فحسب بل كبديل لها.

التمجيد الأسطوري لصاحب النظرية فقد حاز داروين من الشهرة ما لم يظفر به أعظم خدام البشرية من أمثال «باستور وفلمنغ وأديسون» وجعله مؤرخو الفكر الغربيون أعظم محرر للفكر البشري بل ان بعضهم ليشبهه بالمسيح، وقال عنه آرنست هيكل: «انه أطلس يحمل عالم الفكر على منكبيه» ووصفه آخرون بأنه «قاهر الطبيعة»[٢٣].

الحملة الصحفية المكثفة للتشهير بأعداء النظرية، وتحيز الصحف شبه الكامل لداروين على الكنيسة إذ كانت الصحافة قد

---

(٢٢) انظر نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها: ٤٤.
(٢٣) المصدر السابق: ٤٢.

وقعت في قبضة المرابين اليهود بفضل المركز المالي الذي هيأته لهم الثورة الصناعية.

وهذه جميعاً دلائل واضحة على ان المعركة لم تكن طبيعية وان عنصراً غريباً كان ينصب شباكه في الظلام للإجهاز على القيم الدينية والأخلاقية وهو غاية ما تهدف اليه البروتوكولات.

ولقد كانت النتيجة المنطقية لانتصار الداروينية على المسيحية وهو الانتصار الذي سببه العاملان السابقان ــ أن عمت موجة الالحاد المجتمعات الغربية وانتقلت منها إلى بقاع العالم الأخرى، وسيطرت الأفكار المادية على عقول الطبقة المثقفة، وتخلت جموع غفيرة من الناس عن إيمانها بالله تخلياً كاملاً أو شبه كامل، وطغت على الحياة الأوروبية فوضى عقائدية غريبة.

والحق ان أوروبا بعد داروين ــ قد عبدت الشيطان بعد ان كانت تعبد المسيح. عبدته مرة عن طريق عبادة «الطبيعة» تلك الكلمة غير العلمية فقد قال داروين: «الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق» وقال «ان تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت»[٢٤].

صحيح ان الطبيعة عبدت قبل داروين ولكن داروين كان نبياً جديداً لها. إن صح التعبير ــ وعبدته مرة عن طريق عبادة الإنسان، وهي الفكرة التي دعا إليها الفيسلوف اليهودي[٢٥] «نيتشه» قائلاً: ان الاله قد مات وان الإنسان الأعلى «سوبرمان» ينبغي ان يحل محله، ومن هنا قرنته البروتوكولات بداروين وماركس، كما نادى بها في القرن

---

(٢٤) التطور والثبات: ٤٠.

(٢٥) انظر اللامنتمي: ١٤٧.

العشرين الداروويني الملحد جوليان هكسلي الذي ألف كتاب «الإنسان في العالم الحديث» زاعمًا ان الانسان اختلق فكرة الله إبان عصور عجزه وجهله، أما الآن فقد تعلم وسيطر على الطبيعة بنفسه ولم يعد بحاجة إليه فهو العابد والمعبود في آن واحد.

وعبدته مرة عن طريق عبادة المادة ولا غرابة في ان يكون نبي هذه العبادة يهودياً كذلك وهي ديانة ماركس التي يدين بها اليوم مئات الملايين من البشر.

وعبدته مرة عن طريق عبادة «الجنس» وكان اليهودي فرويد هو بطل هذه العبادة.

وعبدته في صور شتى تتفق جميعها في الاستمداد من داروين ونظريته.

وهكذا نجد ان نظرية التطور أسهمت إسهاماً عظيمًا في هدم العقيدة الدينية وتحطيمها وليس من المبالغة أن نقول ان دورها في ذلك لا يوازيه أي نظرية بشرية أخرى.

ثانياً ــ نفي فكرة الغاية والقصد:

من الحقائق التي تتطابق عليها الأديان وتتضافر على الإيمان بها العقول والفطر السليمة أن للوجود الإنساني على الأرض غاية مقصودة أرادها الخالق واقتضتها حكمته النافذة، ومهما اختلفت الآراء والمذاهب في ماهية هذه الغاية وتصورها، فإن حقيقتها العامة لا تقبل الجدل.

وهذه الحقيقة درجت الأجيال البشرية المتعاقبة على الإيمان بها ليس لأنها منبثقة عن فكرة الخلق المستقل ــ كما يتوهم دعاة التطور ــ

بل لأن الفكرتين كلتيهما عميقتان في التصور الإنساني مركوزتان في الفطرة البشرية.

لذلك نجد أن الرسالات السماوية لم تأتِ لإثبات هذه الغاية بل للتذكير بها وإيضاح حقيقتها. وكذلك نلاحظ أن المباحث الفلسفية كانت تركز جهدها على الخوض في العلل الغائية للأشياء لتبني عليها نظرياتها عن الكون والحياة ولا تبالي كثيراً بالعلل الصورية. فكان الفلاسفة يجهدون أنفسهم في البحث حول الغاية من خلق الإنسان ووظيفته في الوجود دون أن يهتموا كثيراً في كيفية الخلق وعللها المباشرة.

فلما ظهرت نظرية التطور العضوي ونادت بأن الانسان وليد سلسلة طويلة من التطورات المتعاقبة بدأت من جرثومة في مستنقع آسن وانتهت في خط سيرها المتخبط إلى صورته الراهنة لم يعد هناك ما يدعو إلى التفكير في الغاية من خلق الإنسان.

إن هذه النظرية تنسب عملية التطور إلى العوامل الطبيعية البحتة والطبيعة كما قال داروين «تخبط خبط عشواء» وإذن فإنه من العبث أن نبحث عن غاية مرسومة وهدف مقصود لعملية الخلق وللوجود الإنساني. فلو أن الطبيعة وهبت الضفدعة ـ مثلاً ـ القدرة على التطور ومنحتها ما منحته صدفة واعتباطاً للإنسان لكانت هي سيدة المخلوقات. وقد قال جوليان هكسلي «من المسلم به أن الانسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة أو الفأر»[٢٦].

وكان ظهور هذه النظرية في عصر ازدهار النظرية الميكانيكية أحد العوامل المشجعة على قبولها فكلا النظريتين ترجع الحوادث

(٢٦) عن معركة التقاليد: ٥٢.

الكونية كلها إلى قوانين الطبيعة العمياء فراراً من نسبتها إلى إله الكنيسة.

ويشيد الفيلسوف الملحد برتراندرسل بالأثر الداروينى في هذا المجال قائلاً:

«بالرغم من أنه لا يزال في إمكان الفيلسوف أو عالم اللاهوت أن يقول أن لكل شيء غرضاً ظهر أن الغرض ليس فكرة نافعة حين نبحث في القوانين العلمية، وقد قيل في الإنجيل أن القمر قد خلق لينير بالليل ولكن العلماء مهما كانوا متدينين لا يعتبرون ذلك إيضاحاً علمياً لأصل القمر ولقد كان عمل داروين فاصلاً بهذه المناسبة فالذي فعله جاليلو ونيوتن من أجل الفلك فعله داروين من أجل علم الحياة».

«إن الذي جعل من الممكن تفسير التكيف دون الكلام عن الغرض لم يكن حقيقة التطور بل كان الميكانيكية الداروينية كما تتضح من تنازع البقاء وبقاء الأصلح فالاختلاف الاعتباطي واختيار الطبيعة لا يستخدمان إلاّ العلل الصورية»(٢٧).

ونجم عن ذلك أن أهملت العلوم الغربية بجملتها فكرة «الغائية» بحجة أنها لا تهم الباحث العلمي ولا تقع في دائرة عمله وتحللت علوم الطب والفلك والجيولوجيا والأحياء وسائر العلوم من التأثيرات الدينية كما سيأتي في فصل علمانية العلم. وأدى الإيمان بهذه الفكرة إلى اعتناق فكرة هزيلة لا قيمة لها ولا وزن في حساب العلم تلك هي فكرة «المصادفة» فبعد أن أبطل «باستور» أسطورة «التولد الذاتي» إلى الأبد لم يجد دعاة الإلحاد والهاربون من الدين ما يسترون به عورتهم إلاّ هذه النظرية التافهة.

---

(٢٧) اثر العلم في المجتمع: ١٢، ١٣.

وانه لمن المدهش حقا أن يرى الإنسان الكثير ممن يسمون علماء يعتقدون أن الكون بدقته المذهلة وعظمته الهائلة وجد صدفة واعتباطاً «ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» (سورة ص : ٢٧).

هذا على المستوى النظري أما على مستوى الحياة الواقعية فقد كانت النتائج مروعة إذ تزعزعت قيمة الحياة لدى الناس لا سيما ذوي الإحساس المرهف واستبد بهم شعور يائس بالقنوط والضياع وظهرت في أوروبا أجيال حائرة مضطربة لا تطمح إلى غاية ولا تفكر في هدف وخيم الخواء الروحي على المثقفين بصفة خاصة وأصبح شغلهم الشاغل هو البحث عن الذات المفقودة واستكناه أسرار النفس. وذلك هو المناخ الخصب الذي استغله اليهود لبذر نظرياتهم الهدامة فجاء «فرويد» بالتحليل النفسي، و«برجسون» بالروحية و«سارتر» بالوجودية.

يقول الفيلسوف «جود» تحت عنوان تفاهة الحياة:

«إذا كان الماديون على حق فلا ينبغي أن نعتبر الحياة شيئاً مهماً في صميم الكون نتخذه أساساً لتفسير سائر الموجودات الأخرى، بل إنها لا تعدو أن تكون حصيلة ثانوية قذف بها سير التطور مصادفة واتفاقاً أو هي تحوير عرضي للمادة أصبحت بموجبه تملك الشعور بذاتها»(٢٨).

ولقد تجلى الشعور بتفاهة الحياة أكثر ما تجلى في الأدب الأوروبي حيث تلمح الإحساس بالضياع هو السمة العامة للمدارس الأدبية التي ظهرت عقب الحرب العالمية الأولى بصفة خاصة.

وهذا الشعود الناجم عن فقدان الإيمان هو العلة الحقيقية

(٢٨) منازع الفكر الحديث: ٤٠.

للتمزق الرهيب الذي تعانيه النفسية المعاصرة في الغرب رغم الرفاهية المادية المتناهية، ومن هنا استحق هذا العصر أن يطلق عليه «عصر القلق»!!

ولقد صدق أحد العلماء[٢٩] في قوله: «إن أشقى الناس جميعاً هو الذي يأتي إلى هذه الدنيا ثم يخرج منها وهو لا يدري لماذا جاء ولماذا خرج!.

ثالثاً ــ حيوانية الإنسان وماديته:

عندما طلع كوبرنيق بنظريته الفلكية القائلة بأن الأرض ليست مركز الكون أحس الضمير الاوروبي بأنه قد صدم في صميم كرامته ومركزه في الوجود، واعتقد البعض أن الإيمان بهذه النظرية إهانة مباشرة للإنسان «سيد المخلوقات» فلما جاء داروين بنظريته لم يزد الطين بلّة فحسب بل جاء بالطامة الكبرى فزعم أن الإنسان حيوان كسائر المخلوقات الحيوانية، فوجه بذلك إلى الكرامة الإنسانية أعنف لطمة في تاريخها، وقلب الشعور الإنساني رأساً على عقب وهز المشاعر والمعتقدات والقيم التي كانت منذ فجر التاريخ حتى عصره راسخة لا مراء فيها، وأصبح الحال كما قال جوليان هكسلي:

«بعد نظرية داروين لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً»[٣٠].

وداروين لم يكتف بأن جعل بين الإنسان وبين القردة نسباً بل زعم أن الجد الحقيقي للإنسان هو جرثومة صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين.

(٢٩) هو الشيخ عبدالمجيد الزنداني من محاضرة شفوية.

(٣٠) عن معركة التقاليد: ٥٢.

لقد كانت بالفعل صدمة هائلة وانتكاسة خطرة.

نعم، إن داروين لم يصدر أحكاماً مستقلة على الإنسان ـ وليس من حقه ذلك ـ ولكن الذين جاؤا من بعده أصدروا أحكاماً وأي أحكام!

ذلك أنهم تلقفوا النظرية أصلاً بدوافع مغرضة ووجهوها لتخدم أهدافاً خفية. ولهذا فليس غريباً أن يثوب «الدارونيون المحدثون» ـ راضين أم راغمين ـ إلى رشدهم ويعترفوا بحقيقة تفرد الإنسان عن كل المخلوقات بينما لا يزال أولئك المغرضون ينفثون أفكارهم الهدامة التي تنظر للإنسان على أنه حيوان وتحدد مطالبه بمطالب الحيوان وتدرسه كما تدرس الحيوان.

وليس الإيحاء بحيوانية الإنسان هو الأثر الدارويني الوحيد الذي حط من قدره وكرامته بل اقترن به إيحاء آخر لا يقل خطورة عن الأول وهو الإيحاء بـ «مادية الإنسان» أي خضوعه للقوانين المادية التي تفرض عليه ما تفرضه على المادة الجامدة.

فالإنسان في نظر الداروينية ـ لم يتطور مختاراً بل كان تطوره «مظهراً» ـ لخضوعه المطلق للبيئة الطبيعية أي لعوامل خارجية حتمية، صحيح أن هذا التطور لمصلحته لكنه لم يكن نابعاً من إرادته. ولم يكن متوقعاً من الداروينية أن تقول في تلك الظروف السيئة أن الله هو لذي اختار للإنسان، لأن ذلك يفقدها صفة (الميكانيكية) بل ويجرها إلى اعترافات أخرى كالإقرار بأن له روحاً وأن لوجوده غرضاً كما تقول الكنيسة، وإذن فلا مناص من القول بأن العوامل الطبيعية وحدها صانعة التطور وفارضته على الإنسان، والإنسان ما هو إلاّ مرآة تنعكس عليها تقلبات الطبيعة المفاجئة وتخبطاتها غير المنهجية.

وعليه نستطيع أن نقول: ان فكرة التطور في ذاتها أوحت بحيوانية الإنسان بينما أوحى تفسير العملية التي سار عليها التطور بماديته.

وظهر أثر هذين الإيحاءين جلياً في الدراسات الإجتماعية والنفسية التي تناولت موضوع الإنسان فرداً أو جزءاً من مجموع.

وهي دراسات تقوم على نظريات تلتقي بجملتها في نقطة واحدة «حيوانية الإنسان وماديته» ثم يسلك كل فرع منها طريقاً مستقلاً.

ومن أبرز الأمثلة على الأفكار الإجتماعية نظريتان «النظرية الشيوعية ونظرية العقل الجمعي» فاليهودي كارل ماركس ـ صاحب النظرية الأولى ـ استمد من حيوانية الإنسان ما ظهر جلياً في البيان الشيوعي إذ حدد المطالب الرئيسية له بـ«الغذاء والسكن والجنس».

واستمد من ماديته التي أوحت بها «جبرية التطور» التفسير المادي للتاريخ والجبرية الإقتصادية فهو يرى «أن القوى المادية أو القوى الإقتصادية هي التي تكيف الحياة البشرية وتعطيها طابعها وتنشىء أفكارها ومفاهيمها وعقائدها حسب درجتها من التطور، فإذا انتقلت البشرية من طور إلى طور بحكم قوة التطور الدائمة المفروضة على الإنسان من خارج نفسه والتي لا علاقة لها بإرادته الذاتية فإن صور الحياة تتغير ومشاعر الناس تتغير وأفكارهم ومفاهيمهم وعقائدهم تتغير ويتغير كل شيء في المجتمع من أخلاق وعادات وتقاليد تغيراً حتمياً»[٣١].

أما اليهودي «دوركايم» فقد جمع بين حيوانية الإنسان وماديته بنظريته في «العقل الجمعي» التي تقول أن الإنسان حيوان خاضع

(٣١) معركة التقاليد. ١٨.

«لجبرية اجتماعية» أو قهر اجتماعي يفرضه عليه العقل الجمعي للقطيع البشري ويستمد شواهده المؤيدة من عالم الحيوان ومجتمع الحيوان[٣٢].

أما المذاهب النفسية فمن واضح الأمثلة عليها «مدرسة التحليل النفسي»:

فاليهودي «فرويد» استمد من حيوانية الإنسان نظريته في تفسير السلوك الإنساني من الولادة حتى الوفاة تفسيراً حيوانياً بشعاً، فهو يرى أن الدافع الجنسي هو دافعه الوحيد، فالمولود يرضع ثدي أمه بدافع جنسي ويتبرز بدافع جنسي ويظل يتعامل مع الآخرين بناء على هذا الدافع وحده، والدين والأخلاق والمثل العليا كلها نابعة من هذا الدافع أيضاً، وهكذا فالإنسان عند فرويد ليس حيواناً فحسب، بل هو حيوان جنسي، وراء كل حركة منه شهوة جنسية ظاهرة أو خفية[٣٣]. واستمد من ماديته «جبرية نفسية» تجعل الإنسان خاضعاً لغريزته مسيراً بها بلا اختياره، فهو لا يملك إلاّ الانصياع لأوامرها وإلاّ وقع فريسة الكبت المدمر للأعصاب[٣٤].

واليهودي «دوركايم» وعلم النفس ــ بصفة عامة ــ يدرس الإنسان كما يدرس أي حيوان ثديي والنظريات النفسية التي استنتجها «بافلوف، وثورندايك، وواطس وهول» وأضرابهم إنما استنبطت من التجارب التي أجراها أولئك على الكلاب والقردة والفئران... الخ[٣٥]! وهكذا تركت نظرية داروين فيما يتعلق بحيوانية الإنسان

(٣٢) انظر قواعد المنهج في علم الاجتماع: ٤٢ و٢٢٢.

(٣٣) انظر الموجز في التحليل النفسي لفرويد: ٢٢ ــ ٢٤.

(٣٤) انظر الإنسان بين المادية والاسلام: ٥١.

(٣٥) انظر الإنسان والعلاقات البشرية: ٣٢٩.

وماديته بصمات واضحة في كل حقل من حقول الفكر وصادفت هوى في نفوس الباحثين الماديين في كل مجال.

رابعاً ــ فكرة التطور المطلق:

كانت الحياة الأوروبية طيلة القرون الوسطى مستغرقة في سكون مطبق وجمود عام أوحى إلى العقلية الاوروبية الخاملة ــ آنذاك ــ بفكرة الثبات المطلق في كل شيء وأسهمت الكنيسة ــ بطقوسها الجامدة ووقوفها ضد كل جديد ــ في ترسيخ هذه الفكرة وتعميقها[٣٦].

وأول هزة تعرضت لها هذه الفكرة كانت على يد «كوبرنيق» ــ من غير قصد ــ فدوران الأرض التي نادت به نظريته يناقض المسلمة البدهية في نظر عصره، وهي أنها ثابتة وما عليها ثابت كذلك، ثم إن التقدم في الكشف والبحث الذي ابتدأ منذ عصر النهضة والذي اقتبس حيويته ونشاطه من الشرق المتحضر كان عاملاً مؤثراً في إضعاف الإيمان بهذه الفكرة.

وظهرت فكرة التطور لدى بعض الباحثين مثل «أوجست كومت» صاحب نظرية التطور العقلي (من الخرافة إلى الدين إلى الوضعية) وظهرت كذلك لدى «هوبز» الذي يرى أن المجتمع الإنساني تطور من الوحشية الغابية إلى الحالة الإجتماعية، وكذلك «روسو» الذي قال بتطور المجتمع من الحالة الطبيعية إلى الحالة الفوضوية مما استوجب وجود «عقد اجتماعي» بين الأفراد.

لكن هذه النظريات لم تكن من القوة والتعميم بحيث تزلزل فكرة الثبات كلية وإن كان لها فضل في التمهيد لذلك.

---

(٣٦) انظر التطور والثبات فصل «عصر التطور».

وتمت هذه الزلزلة على يد «داروين» ونظريته في التطور العضوي وبعد داروين انتقلت اوروبا من الإيمان بالثبات المطلق إلى الإعتقاد في التطور المطلق.

لقد حدث في القرن التاسع عشر تحول شامل في الحياة الاوروبية كلها بسبب ما أحدثه الإنقلاب الصناعي من نقل الناس من البيئة الزراعية إلى البيئة الصناعية مما كان له أثره البالغ في أخلاق الناس وتقاليدهم وأوضاعهم عامة فكان ذلك تطوراً اجتماعياً واقتصادياً موازياً للتطور العلمي والثقافي.

في ظل هذه الظروف المتغيرة والمتطورة ولدت نظرية التطور في كتاب داروين «أصل الأنواع» الذي قال عنه وست:

«لقد كان تأثير هذا الكتاب عظيماً ولا شك، فعن طريق وضع مبدأ جديد للدراسة وهو مبدأ ديناميكي وليس مبدأ استقرارياً أو استاتيكياً إستطاع أن يحدث ثورة في كل فروع المعرفة من علم الفلك إلى التاريخ ومن علم الحفريات القديمة إلى علم النفس ومن علم الأجنة إلى علم الدين»[٣٧]. والواقع أن التطور الديني الذي أوحت به النظرية ليتجاوز الأثر العلمي إلى ميادين الحياة كافة «الإجتماعية والسياسية والإقتصادية... الخ ونزلت الضربة القاضية على رأس الدين والأخلاق». والحق أن داروين لم يقل صراحة: أنه لا شيء ثابت على الإطلاق وأن الحياة البشرية تمضي في حلقات متباينة تختلف كل لاحقة عن سابقتها اختلافاً كاملاً ولكن نظريته توحي بذلك وتومىء إليه، وذلك أن التطور كما شرحه داروين يشتمل على عنصرين بارزين «الحتمية والاضطراب» فكل مرحلة من مراحل التطور أعقبت سلفها بطريقة حتمية بمعنى أن العوامل الخارجية ـ كما أسلفنا ـ هي التي

(٣٧) سلسلة تراث الإنسانية ٩: ١٢٥.

تحدد نوعية هذه المرحلة أما خط سير التطور ذاته بمراحله جميعها فهو مضطرب لا يسعى إلى غاية مرسومة أو هدف بعيد لأن (الطبيعة) التي أوجدته غير عاقلة ولا واعية بل تخبط خبط عشواء!!

عن طريق هذين العنصرين أوحت النظرية بتطور حتمي مطلق لا غاية له ولا حدود. الحتمية تجعل الإيمان بثبات أي شيء وإن كان الدين أو القيم أو التقاليد جموداً ورجعية وكل محاولة للثبات على شيء من ذلك هي معركة خاسرة مع القدر الذي لا يقهر، واضطراب خط التطور يلغي كل المعايير الثابتة المتعارف عليها للحكم على الأشياء ويستبدل بها معياراً واحداً لا ميزة له في ذاته إلَّا عدم قبوله صفةالتطور وهو «الزمان» فكل عقيدة أو نظام أو خلق هو أفضل وأكمل من غيره ما دام تالياً له في الوجود الزمني.

يقول لوبون: ان الزمان «إله» لأنه «هو الذي يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال».

«إن الزمان هو صاحب السيادة الحقيقية فينا وما علينا إلَّا أن نتركه يعمل لنرى كل شيء يتحول ويتبدل»(٣٨).

وهكذا آمنت اوروبا بالتطور المطلق وحسبت كل تغير ــ وإن كان انتكاسة وانحطاطاً ــ تطوراً وتقدماً.

فالشيوعية أكبر المذاهب الأرضية وأوسعها انتشاراً تستمد تفسيرها المادي للتاريخ من هذه الفكرة «فكرة التطور الحتمي» فالمجتمع البشري مر ــ كما تخيل فلاسفتها ــ بخمس مراحل حتمية لكل مرحلة منها عقائدها وأخلاقها وتقاليدها النابعة من الظروف الإقتصادية والأوضاع المادية.

---

(٣٨) روح الجماعات: ١٠٣ ــ ١٠٤.

فمثلا في المجتمع الزراعي كان الانسان متديناً لأن الزراعة عملية غيبية لا يستطيع أن يتحكم فيها بجهده الذاتي، فلجأ إلى الاعتقاد في «قوى غيبية» لتسيير العملية وإنجاحها.

وكان المجتمع الزراعي مجتمعاً أسرياً ذا تقاليد لأن الرجل، وهو المنتج الرئيسي فيه وهو الذي يعول المرأة، ولذلك كان يرى أن له الحق في امتلاكها وحده ففرض عليها قيوداً أخلاقية نشأ عنها أخلاق وتقاليد زراعية.

ثم تطور المجتمع الانساني ــ حتمياً ــ وانتقل إلى الطور الصناعي فتبدلت الأحوال... عملية الإنتاج لم تعد «غيبية» فهي عملية منظورة يقوم بها الانسان وليس «الله»!! ولذلك فلا داعي للإيمان بالغيبيات، بل ان التطور ليفرض على المجتمع أن يكون بلا دين.

والمرأة قد استقلت إقتصادياً ومن ثم تحررت من سيطرة الرجل وقيوده، فأصبح من حقها ــ أو من واجبها ــ أن تنبذ تقاليد وأخلاق العصر الزراعي وتساير موكب التطور الذي يغري، بل يدفع إلى الإباحية الجنسية.

وباختصار ترى الشيوعية أن لكل عصر دينه وأخلاقه وتقاليده ولا ضير في ذلك لكن العيب الشائن هو أن يعيش المرء في عصر الصناعة والتطور متحجراً على دين وتقاليد العصر الزراعي الجامد ولم يقتصر الأمر على الشيوعية بل ان علوم النفس والاجتماع أو على الصحيح زعماء هذين من اليهود وأتباعهم ليؤمنون بالتطور في كل شيء حتى الدين نفسه، بل لعل الدين هو الهدف المقصود من العملية كلها!!

فعلم الاجتماع ــ بل يهوديه دوركايم ــ ينفي أن يكون الدين والزواج والأسرة فطرية في الانسان وإنما هي من عمل «العقل الجمعي» ذي السطوة القاهرة على الأفراد، وهذا العقل دائم التغير والتطور والتشكل «وهنا نلحظ عنصر الاضطراب» فإذا قال العقل الجمعي في طور من أطواره ليكن دين أو زواج أو أسرة فليكن ذلك أما إذا قال حسب هواه ليكن لا دين ولا زواج ولا أسرة فسرعان ما يخضع الأفراد لقهره فينسلخون من دينهم وأخلاقهم وتقاليدهم[٣٩]، ويتفق علم النفس مع علم الاجتماع في عدم فطرية الدين ولكنهما يختلفان في تفسير تطوره.

فعلم الاجتماع يرى أن أصل الدين شيء خارجي هو ــ الأرواح أو القوى الطبيعية أو المحرم (التابو) ــ وابتدأ الانسان تدينه بالسحر والشعوذة ثم تطور إلى عبادة آلهة متعددة ثم تطور إلى التوحيد الذي يمثل آخر حلقة في عصر الدين أعقبها مباشرة ــ بفعل التطور ــ عصر العلم الذي ينفي الدين بجملته.

أما علم النفس أو يهوديه «فرويد» فيرى حسب تفسيره الدنس للدين أن أصل الدين هو الشعور بالندم الذي استولى على أبناء الأسرة البشرية البدائية الأولى حين قتلوا أباهم، ولماذا قتلوه؟ لأنه كان يحول بينهم وبين اللقاء الجنسي مع الأم فابتدأ الدين في صورته الأولى عبادة للأب ثم تطور إلى عبادة «الطوطم» ثم تطور إلى عبادة القوى الخفية في صورة الدين السماوي وهو في الأطوار كلها ينبع من العقدة نفسها عقدة «أوديب» كما يصرح بذلك في كتابه الذات والغرائز[٤٠].

والأخلاق تطورت في المراحل نفسها باعتبارها جزءاً من الدين

---

(٣٩) انظر التطور والثبات: ٧٧ ــ ٨٠.

(٤٠) ص: ٧٧ ــ ٧٨.

أو مستمدة منه بل أن «برتراندرسل» ليرى أنها تطورت خلال ثلاث مراحل (أخلاق المحرم «التابو» ثم أخلاق الطاعة الإلهية ثم أخلاق المجتمع العلمي)[41].

ويقول «وليم جيمس» عن الأثر الداروني في الأخلاق:

«إن فلسفة النشوء والارتقاء قد ألغت المعايير الأخلاقية التي سبقتها كلها لأنها رأتها معايير ذاتية شخصية وقدمت لنا بدلها معياراً آخر نتعرف به الخير من الشر وبما أن المعايير السابقة معايير نسبية فهي مدعاة للقلق والاضطراب وأما هذا المعيار الذي ارتضوه وهو أن الحسن ما قدر له أن يبقى يظهر ويبقى فهو معيار موضوعي محدد»[42].

وإجمالاً فقد آمنت أوروبا شرقها وغربها بأن لا شيء ثابت على الاطلاق وهو الايمان الذي عبر عنه «رسل» بقوله:

«ليس ثمة كمال ثابت ولا حكمة لا تقدم بعدها... وأي اعتقاد نعتقده وإن كان مما نظنه بالغ الأهمية ليس بباقٍ مدى الدهر، ولو تخيلنا أنه يحتوي على الحق الأبدي فإن المستقبل كفيل بأن يضحك منا»[43].

ومن الحق أن نقول أن هناك علماء عارضوا فكرة التطور المطلق لكنهم قوبلوا بالنقد العاصف والاستنكار الشديد بحجة أنهم رجعيون متخلفون يعرقلون مسيرة التطور الحضاري، يقول كارل بوير:

إنني أشعر بشيء من الارهاب مما يميل إليه أصحاب مذهب التطور من الصاق تهمة الوقوف في وجه الاصلاح والتنوير بكل من

---

(٤١) المجتمع البشري: ١٩ فما بعدها.

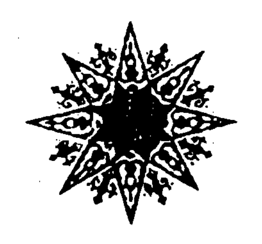
(٤٢) العقل والدين: ٦٨.

(٤٣) العقل والمادة: ٢٥٦.

لا يشاركهم موقفهم العاطفي إزاء التطور باعتباره تحدياً جريئاً ثورياً للفكر التقليدي»[٤٤].

وقال لوبون: «الملوكي بمقتضى كونه ملوكياً يعتقد أن الانسان ليس متولداً من القرد والجمهوري يعتقد الضد تماماً».

وهكذا رسخت فكرة التطور المطلق في كل فرع من فروع المعرفة النظرية وفي كل حقل من حقول التطبيق الواقعي وأصبحت السمة الظاهرة للحضارة المعاصرة.



---

(٤٤) نظرية داروين: (١٥٤).

البَابُ الثَالث

العِلمَانيّة في الحَيَاة الأوروبيّة

الفصل الأول: علمانية الحكم.
الفصل الثاني: علمانية الاقتصاد.
الفصل الثالث: علمانية العلم.
الفصل الرابع: علمانية الاجتماع والأخلاق.
الفصل الخامس: علمانية الأدب والفن.
الفصل السادس: ماذا بقي للدين؟

الفصل الأول

علمانية الحكم

سبق أن ذكرنا في الباب الأول أن الشريعة المسيحية لم تطبق في عالم الواقع وذكرنا هنالك بعض العوائق التاريخية التي عرقلت قيام مجتمع «إسلامي» تحكمه هذه الشريعة.

على أن إقصاء الشريعة المسيحية عن واقع الحياة لا يعني أنها كانت عديمة التأثير في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن السلوك الشخصي للحكام المسيحيين. وذلك بفضل المنهج الأخلاقي المثالي الذي كان الدعاة المسيحيون المخلصون يبثونه بحرارة وإصرار والنفوذ القوي الذي كان رجال الدين يتمتعون به في الأمم.

وكان للكنيسة آراؤها السياسية التي يمكن أن يستخلص من مجموعها «نظرية سياسية» تعبر عن وجهة نظرها الذاتية وإن كانت ــ طبعاً ــ لا تعبر عن أحكام الدين كما أنزل من عند الله.

والنظرية الكنسية في أكمل صورها أشبه شيء بالنظريات الخيالية التي تتحدث عن «مدن فاضلة» وهمية، هذا إذا نظرنا إلى «أوغسطين» على أنه «قديس مسيحي» وليس فيلسوفاً رومانياً، فهو الذي عبر عن هذه النظرية في كتابه «مدينة الله» وفكرة أوغسطين الأساسية صحيحة تماماً من جهة أنه ليس في الوجود إلا مملكتان أو مدينتان لا ثالث لهما: إحداهما مدينة الله والأخرى مدينة الشيطان.

ولكن الخطأ الذي يفسد هذه الفكرة ذاتها عنده يكمن في تحديده لخصائص كل مدينة، فهو يرى أن مدينة الله هي التي يحكمها آباء الكنيسة بخلاف مدينة الشيطان التي يسوسها رجال الدنيا! ثم ان الصورة التي تخيلها لمدينة الله موغلة في الخيال إلى درجة تجعل امكان تطبيق نظريته عملياً خارقة نادرة إن لم تكن مستحيلة[1].

أما النظرية الأكثر واقعية والتي سادت عملياً طيلة فترة نفوذ الكنيسة فالحكام في نظرها لا يشترط أن يكونوا رجال دين ولكن يجب أن يخضعوا في ذواتهم لسلطة رجال الدين!

فعلى الرغم من قصور النظرية الكنسية وعجزها عن تنظيم شؤون الحياة بسبب تحريفها وإهمالها لشريعة الله ونظرتها الخاطئة إلى الحياة الدنيا وإيمانها بقاعدة «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله» بالمدلول الخاص لهذه العبارة ــ على الرغم من ذلك فقد كان الملوك والأباطرة في القرون الوسطى يخضعون ــ في صورة ما ــ لرجال الدين ولا يعدون أنفسهم مسيحيين فحسب بل جنوداً للمسيحية ــ كما حدث في الحروب الصليبية ــ والخطأ الفادح جاء من قبل الكنيسة إذ وجهت واستغلت عواطفهم الدينية لخدمة مصالحها الذاتية وجهدت في إخضاعهم لا لشريعة الله بل لأهواء البابوات[2].

صحيح أن إيمانهم بالدين كان محصوراً في الحدود الضيقة التي رسمتها الكنيسة ومشوباً بالتصورات الوثنية لكنهم كانوا يرون أنفسهم ملزمين بالأخلاق الدينية في تعاملهم السياسي ــ ولو ظاهراً ــ لأن ذلك هو مقتضى كونهم مسيحيين.

---

(١) انظر معالم تاريخ الإنسانية: ٣/٧٢٤.

(٢) انظر «الطغيان السياسي» من فصل الطغيان «الكنسي» بالباب الثاني ص ١٣٣ السابقة.

وكانت ضرورات العمل السياسي ـ كما يدعون ـ تلجئهم إلى مخالفة الروح المسيحية فينكثون بالعهود ويزهقون أرواح الأبرياء ويستبيحون الكذب والمواربة في سبيل تحقيق مصالحهم السياسية، غير أنهم لم يتخذوا ذلك مسلكاً عاماً ولم يختلقوا له تبريراً عقلياً منافياً لتعاليم الدين.

ربما كان منهم من يتلهف للحصول على مبررٍ ما ليقيه على الأقل وطأة التناقضات النفسية وعقاب الضمير لكن العثور على ذلك ظل مستحيلاً أمداً غير يسير.

وصحيح أن الكنيسة أهملت تنظيم شؤون الدولة وأن القانون الروماني كان يطبق على مسمع منها ومرأى لكنها كانت متشددة فيما يتعلق بالسلوك الشخصي للحكام يشاركها في ذلك عواطف الشعب وضمير الأمة، وكان الأباطرة مضطرون للتمسك بالأخلاق المسيحية كي يكسبوا ود الكنيسة حيث أن إبقاء سلطانهم وشرعيته مرهونان برضاها عنهم، فهي التي تتولى تتويجهم وتقدس حكمهم وتباركه ثم ان من حقها ـ كما قال البابا جريجوري السابع ـ أن تخلع المسيئين منهم وتحل رعيتهم من طاعتهم.

لهذه الاعتبارات يصح القول بأن عملية الفصل بين السياسة وبين الدين والأخلاق بمفهومها المعاصر لم تكن معروفة لدى سياسيي القرون الوسطى، وإن كانت أوروبا ـ حقيقةً وواقعاً ـ لم تحكم بما أنزل الله قط في أية مرحلة من تاريخها.

وإذا تجاوزنا النظرية الكنسية إلى الفكر السياسي اللاديني فسنجد نظريات عديدة قبل أن نصل إلى النظريات المعاصرة.

وأشهر تلك النظريات ثلاث:

١ ـ النظرية الخيالية.

٢ ـ نظرية العقد الاجتماعي.

٣ ـ نظرية الحق الالهي.

أولاً ـ النظرية الخيالية:

عرفت هذه النظرية قديماً في الفكر الاغريقي حيث كان الفلاسفة يهربون من الواقع السيء إلى عالم الخيال الواسع ويبنون من الأوهام والأحلام الجانحة مجتمعات مثالية أو مدناً فاضلة تتمتع بالوئام التام والايثار المتناهي والمساواة الكاملة في جو ملائكي حالم!

ومن النماذج القديمة لها «جمهورية أفلاطون»[٣] لأفلاطون (٣٤٨ ق.م) ومن أبرز المحاولات التي قام بها مسيحيون لصياغة هذه النظرية «يوتوبيا» لتوماس مور (١٥٣٥) و«مدينة الشمس» لكامبانيلا (١٦٣٩).

والذي يهمنا من هذه النظرية هو أنها لا تجعل الدين هو المنهج الذي تقوم عليه الحياة والأساس الذي تنبثق منه كل التصورات والقيم بل ان الانسجام العقلي والمصلحة الدنيوية المجردة هما الدعامة التي بنت النظرية عليها مجتمعاتها اللادينية، وإن كان بعض متخيليها كتوماس مور تخيل وجود دين في مدينته إلا أنه دين شخصي بارد لا أثر له في الحياة[٤]. هذه الفكرة الخطرة ترسبت ـ لا شعورياً ـ في أذهان المثقفين الذين كانوا شغوفين بقراءة مثل هذه المؤلفات، وولدت فيهم إحساساً بأن الحياة تكون سعيدة فاضلة لو عزل الدين عن الواقع

---

(٣) انظر الكتاب الذي يحمل هذا الأسم. ترجمة: حنا خباز.

(٤) انظر سلسلة تراث الإنسانية «يوتوبيا»: ١/٣٨٤.

وبقي طقوساً جامدة لا علاقة لها بالحياة. بل أوحت إليهم بامكان قيام حياة بهيجة متكاملة بلا دين.

ولا شك أن مثل هذه الأفكار يسهل استيعابها وتقبلها في بيئة تخضع لطغيان الكنيسة الأعمى ومضايقاتها المرهقة.

ثانياً ـ نظرية العقد الاجتماعي:

كانت الفلسفة المدرسية ـ أشهر المذاهب الفلسفية في القرون الوسطى ـ تقدس فلسفة أرسطو (٣٢٢ ق.م) وأفلاطون والتراث الاغريقي جملة ـ رغم الوثنية المشبع بها هذا التراث ـ وكان مذهب أرسطو أن الانسان «حيوان اجتماعي»[٥]، أو كما تعبر المصادر العربية «مدني بطبعه»، أي ان الحالة الاجتماعية للانسان مقترنة بوجوده منذ القدم، وكانت هذه النظرية من المسلمات التي لا تحتاج إلى دليل.

ولكن أحد الباحثين الاجتماعيين الأوائل وهو «هوبز» خالف ـ وربما عن غير قصد ـ هذه الفكرة حيث اعتقد أن الانسان لم يكن في الأصل إلا ذئباً على أخيه الانسان ـ على حد تعبيره ـ وأن الحالة الفطرية أو «الطبيعية» كانت حرباً لا هوادة فيها بين أفراد النوع الانساني ولذلك احتاج الناس إلى عقد يتنازل بواسطته بعضهم لبعض عن شيء من الحقوق في سبيل أمن وسلامة الجميع. ولما كانت طبيعة الانسان كما يراها هوبز هي الشر دائماً استلزم الأمر وجود قوة نفوذها أعلى من العقد تكون مهمتها تنفيذ العقد إجبارياً على الأفراد هذه القوة هي الدولة أو الحكومة[٦].

---

(٥) تاريخ علم الاجتماع: جاستون بوتول: ٩.

(٦) انظر سلسلة تراث الإنسانية «اللوياثان»: ج ١ /٢٥٧.

وبغض النظر عن النتيجة الخاطئة التي وصل إليها هوبز وهي تبرير الطغيان بحجة تنفيذ العقد بالقوة فإن فكرة العقد ذاتها حظيت بعناية الباحثين من بعده[٧].

وتلا هوبز «جون لوك» (١٧٠٤) الذي اتفق معه في وجود عقد اجتماعي بين الدولة والأفراد إلا أنه خالفه في كون سلطة الحكومة المشرفة على تنفيذ العقد مطلقة فهو يرى أن السلطة مقيدة بقبول الأفراد لها ولذلك يمكن سحب السلطة منها بسحب الثقة فيها[٨].

وأخيراً اكتملت الفكرة على يد «جان جاك روسو» (١٧٧٨) مع فارق أساسي بينه وبين هوبز، ذلك أن روسو يرى أن الحالة الطبيعية للإنسان هي الفترة الذهبية من تاريخه ولكن الانسان بفعل الأطماع وبتأثير (الأديان!) تجرد من النقاء الطبيعي وانتقل إلى حالة من الفوضوية اقتضت وجود عقد اجتماعي لتنظيم حياة الناس ومحاولة العودة بهم إلى الحالة الطبيعية[٩].

والملاحظ على النظرية بشكل عام هو اغفالها لدور الدين سواء فيما هو كائن أو فيما ينبغي أن يكون إلى درجة أن روسو لا يكتفي باهمال الأثر الديني في توجيه المجتمع بل يعد الدين الالهي عاملاً من العوامل التي تعوق الرجوع إلى الحالة الطبيعية السوية.

وحين يطالب روسو بفصل السياسة عن الدين فانه يتهم الأديان بأنها هي التي سببت هذا الفصل حيث نجده يقول: «إن الشعوب القديمة كانت تعبد الملوك وكان لكل دولة ملكها وإلهها في الوقت نفسه، فكانت السياسة والدين شيئاً واحداً ولكن الأديان ومن بينها

---

(٧) انظر تاريخ النظرية السياسية: ١٠٣
(٨) انظر مدخل إلى علم السياسة: ٣٠.
(٩) انظر سلسلة تراث الإنسانية: ١/٥٧٧.

المسيحية فصلت بين العالم المادي والعالم الروحي فهي تتعلق بالعالم الروحي ولا تشرع للمجتمع السياسي فلماذا لا يكون لهذا المجتمع دين سياسي خاص»؟.

ونظراً لتهجم روسو على الدين ومطالبته بعزله عن واقع الحياة وصفه بعض الباحثين الغربيين بأن مؤلفاته كانت إعلاناً صارخاً لحرب ضد المجتمع وضد الله»[١٠].

ومن العوامل المشجعة التي دفعت هذه النظرية إلى الأمام قيام الثورة الفرنسية على وحي من مبادئها وآراء فلاسفتها ـ لا سيما روسو ـ إذ يعد كتابه الذي يحمل اسم النظرية إنجيل الثورة الفرنسية.

وأوحت نظرية العقد الاجتماعي إلى الناس بفكرة جديدة هي «الوطنية أو القومية» إذ أن العقد إنما يكون بين الانسان والمجتمع الذي يعيش فيه وتتفق مصالحه مع مصالح الفرد ورغباته، لا مع مجتمع آخر بعيد مهما كانت قوة الصلة الدينية به، فهي تهدف إلى نزع ولاء الفرد من الكنيسة واعطائه للدولة وإلى قطع الروابط الدينية ليحل محلها روابط وطنية كما أنها جعلت القيمة العليا للمصلحة المادية الدنيوية التي بسببها تم إبرام العقد وليست للملكوت الذي تبشر به المسيحية أو المثل أو الفضائل التي كان المجتمع يعدها أغلى ما يملك.

لذلك فليس بعيداً ما قاله ويلز من أن روسو كان يلتمس المعاذير لنقض العقد الاجتماعي وهدمه أكثر مما يؤكد ضرورته[١١].

---

(١٠) انظر المصدر السابق: ١/٥٨٦.

(١١) معالم تاريخ الإنسانية: ٤/١١٨.

ثالثاً ــ نظرية الحق الإلهي:

في المرحلة السابقة للإسلام كان الملوك يستعبدون الناس لأنفسهم زاعمين أن لهم سلالة عرقية خاصة أسمى من العنصر البشري المشترك، وغلا بعض الطواغيت فادعى أنه إله أو من نسل الآلهة كما فعل أباطرة الروم، ولم يكن ليدور في خلد أي منهم أن للأمة عليه واجبات وحقوقاً وأن الكرسي والمنصب تكليف لا تشريف، بل كانوا يرون أن ما تقدمه لهم الأمم من مراسم الخدمة والولاء والخضوع المذل والتضحية بالنفس والنفيس لأجلهم ليس إلاّ واجباً مقدساً يقومون به تجاه العرش المحروس!

جاء الإسلام فنسف هذه الفكرة من أساسها ورد العبودية كلها لله وحده وفرض على الحكام تبعات ومسؤوليات تناسب مركزهم في الأمة، فرأى الناس في معظم أنحاء المعمورة الولاة المسلمين يرعون مصالحهم وينهضون بأعباء المسؤولية كاملة في الوقت الذي لا يتميزون فيه عن الأمة بكبير فرق.

ولكن الأقطار التي لم يشملها نور الإسلام ــ لا سيما في أوروبا الهمجية ــ ظلت ترزح تحت نير الطغاة وظل الفرد الأوروبي عدة قرون يعبد الهين من البشر: الامبراطور والبابا. الأول يدعي أن له الحق في حكم الناس وفق مشيئته ويخضعهم لهواه. والثاني يبارك خطواته ويلزم الشعب باطاعته لأن ذلك يأمر به الله وتمليه السماء.

وظلت عروش أوروبا تتوارثها سلالات وعائلات معينة لا يجرؤ أحد أن ينافسهم ولا يستسيغ انسان أن يسأل لماذا يحكم هؤلاء وبماذا يحكمون؟ فالرعاع كلهم مقتنعون تماماً بأنهم يستمدون حكمهم من الله مباشرة!!.

وظهر فلاسفة وباحثون برروا هذا الاستبداد والعبودية وفلسفوها

في قوالب متعددة، فجاء هوبز ليتملق ملوك عصره مطالباً بأن لهم الحق في سلطة مطلقة يستطيعون بها تنفيد العقد الموهوم. وكذلك كان «جان بودان» (١٥٩٦) و«جروتس» (١٦٤٥) من المدافعين عن الحكم المطلق «ويعلل بودان ذلك بأن الحكم غير المطلق معرض للثورات والفتن وصراع الأحزاب وينكر نظرية العقد الاجتماعي لأنها تمنح الفرد الشعور بالمشاركة في تكوين الدولة.

أما جروتس فيدافع عن الاستبدادية بذريعة انها أفضل السبل لتطبيق القانون الطبيعي وأن الناس إذ قد ارتضوا هذا النوع من الحكم فليس من حقهم أبداً أن يتراجعوا عنه[١٢].

وفي القرن التاسع عشر تطورت هذه الفكرات إلى فكرة فلسفية معقدة على يد «هيجل» (١٩٠٠) ومدرسته التالية التي تمثل حلقة وصل بين العقائد المسيحية وبين النظريات الفلسفية المجردة، ولعل أعظم ما حققه أساتذتها هو تحويل الدين إلى فكر ومنطق.

فتحول «الله» إلى «مطلق» والوحي إلى «معرفة مطلقة» والمسيح إلى «توسط» والشريعة إلى «قانون مجرد» أي أن العقيدة هي الحياة نفسها والعقائد رموز تفكك إلى حقائق[١٣]. ويرى هيجل أن التاريخ هو عبارة عن (تطور منطقي قائم على أساس مفهوم التقدم نحو النظام والمعقولية والحرية). والدولة ليست مصطنعة عن طريق عقد اجتماعي أو غيره بل هي كائن طبيعي له وجوده المتميز إذ هي تجسيد للحرية التي يرنو إليها التطور التاريخي.

والتاريخ ــ في نظره ــ ظل يتطور وفق قانون «الجدلية» حتى بلغ

---

(١٢) الفكر السياسي قبل الأمير وبعده «ملحق بكتاب الأمير» ٢٥٤ ــ ٢٥٥
(١٣) سلسلة تراث الإنسانية ٨ ٣٨٥

القمة في الدولة البروسية ـ التي كانت معاصرة لهيجل ـ ففيها تجسد المطلق والحرية والألوهية[١٤]!!.

وعلى الرغم من النقد العاصف الذي تعرضت له النظرية من قبل أنصار النظريات الأخرى بسبب تقديسها الزائف للاستبداد ـ فقد كان لها أثر بالغ لا سيما في نفوس الألمان الذين ظلوا على استعداد للإنقياد لحكومة دكتاتورية يرون فيها تجسيداً لأعلى مثلهم القومية فكان بسمارك في القرن الماضي وهتلر في القرن العشرين.

واشتق منها (ماكس فيبر) نظريته في الـ «كاريسما» ومعناها ـ عنده ـ القوة الخاصة التي منحتها الطبيعة للقلة المختارة للدلالة على الزعماء الذين يقوم نفوذهم على اعتقاد عام عند الناس بأن روحهم من روح الله «مثل يوليوس قيصر ونابليون»[١٥].

وهذه النظرية ـ رغم أن عداوتها للدين ليست كسابقتها ـ ألحقت بالدين ضرراً بالغاً بتمسحها به وانتسابها اللفظي إليه وادعاء أن طواغيتها يستمدون سلطتهم من تفويض الله لهم، إذ نجم عن ذلك رد فعل عنيف ضد الدين من قبل من يسمون «دعاة الحرية» الذين وجدوا في هذه الدعوى فرصة لمهاجمة الأديان متذرعين بأنها تبارك الطغيان وتقدس الدكتاتورية.

والحق الذي لا مرية فيه أن الحكام الذين مارسوا الطغيان متسترين بهذه الدعوى هم أبعد ما يكون عن تنفيذ القانون الإلهي «أي الحكم بما أنزل الله» فوق أنهم لا يستطيعون اقامة الدليل على أن الله منحهم الحق في التسلط على الأمم وإذلال الشعوب باسمه.

---

(١٤) انظر الفكر السياسي: ٢٨١

(١٥) انظر الاجتماع لماكيفر وزميله: ٢٩٥.

وواقع التاريخ يؤكد أن العدل الرباني والطغيان البشري نقيضان لا يجتمعان وان الذين كانوا يحكمون بما أنزل الله فعلاً ويستندون في سلطتهم إلى الوحي الإلهي حقيقة هم أعظم حكام البشرية عدلاً وانصافاً وأشدهم رحمة وتواضعاً وانهم بفضل ذلك قد حققوا في دنيا الواقع ما كان الفلاسفة يحلمون به في الخيال وهاهي ذي سيرة الأنبياء الذين حكموا بني إسرائيل وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ومن حذا حذوهم تظهر فيها الصورة المشرقة والنموذج الرفيع للحكم الأمثل. وعكس ذلك تماماً كان الحكام الطغاة الذين يتبجحون بنظرية الحق الالهي فهم يمثلون أسوأ النماذج للجبروت والاستبداد.

وهكذا كلما كان الحاكم أقرب إلى الحكم بما أنزل الله كان حكمه أقرب إلى النزاهة والاستقامة وحالت خشية الله بينه وبين أي لون من ألوان الطغيان، وكلما ابتعد عن الحكم بما أنزل الله سقط في مهاوي الظلم وتلطخت صفحة حكمه بصنوف الاستبداد وأنواع الجور.

إذن فليست نظرية الحق الالهي على حق فيما تضفيه على حكامها من القداسة المصطنعة والعمل حسب تفويض الله وإرادته، وكذلك ليس خصومها على حق في دعوى أن الدين يحبذ الطغيان ويشجع على الاستبداد.

النَّظَرِيَّات الحَدِيثَة وَالمعَاصِرَة

انتقد المفكرون السياسيون في القرن الماضي والقرن العشرين النظريات السياسية السابقة وأبدوا اعتراضاتهم المتباينة عليها.

فهل انتقدوها لأنها تعطي «حق الحاكمية» لغير الله وتضرب صفحاً عن الدين وضرورة قيام الحياة كلها على تعاليمه وانبثاق معاييرها وتصوراتها كافة من مبادئه وأحكامه؟.

كلا، لم يحدث ذلك، بل ان احتمال حدوثه في هذه المرحلة التاريخية أبعد منه في المراحل السابقة. أما النظرية «الخيالية» فيرى هؤلاء ان من العبث أن يضاع الوقت في نقدها وحسبها أن تكون خيالية بينما هم يعدون أنفسهم «واقعيين».

وأما نظرية الكنيسة القائمة على أساس ««مملكة الله» أو «مملكة المسيح» كما كانت تسميها، فما أسهل أن تنتقد ويشدد عليها اللوم فهي نظرية «رجعية» لا لأنها مخالفة لحقيقة الدين بل لأنها ــ في نظرهم ــ تقوم على أساس تحكيم الدين.

والدين ــ أياً كانت صورته ــ هو العدو اللدود للباحثين «العلميين» هؤلاء. بعضهم يرى أن الدين عاطفة وجدانية أو رابطة

روحية تصل قلب الإنسان في فترات من حياته بالسماء ولا ينبغي بحال من الأحوال إقحامه فيما لا علاقة له به وهو واقع الحياة اليومية بالنسبة للفرد فضلاً عن الدولة والمجتمع عامة. وإلاّ فالدمار والاستبداد!.

ويستشهدون بالتاريخ ـ تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ـ التي كان رجالها أعتى الطغاة وأظلم الجبابرة.

وبعضهم يغلو ويشتط فيقول أن الدين من أساسه شر محض وداء عضال يجب أن يستأصل ويزال لأنه مخدر للشعوب وعائق عن التطور ووسيلة يتقنع بها المستبدون والمحتكرون لامتصاص ثروات الطبقات الكادحة المنكوبة.

ونظرية «الحق الإلهي» ينحى عليها باللائمة للعلة نفسها علة استمدادها من الدين وان كانت نسبتها إليه لا تعدو أن تكون من قبيل التزويق اللفظي.

ولنأخذ «هارولد لاسكي» وهو كاتب سياسي بارز مثالاً للكتاب المحدثين:

يلخص لاسكي هاتين النظريتين بايجاز ثم ينقدهما نقداً «علمياً» فيقول: «يمكننا أن نسمي نظرة الإنسان السائدة إبان تجربته البدائية بالنظرة اللاهوتية فالقانون ليس سوى مجموعة من القواعد الإلهية التي منحها الإله أو الآلهة لمن يعيشون في ظلها وبناء على ذلك فهي خليقة بأن تطاع لأن مصدرها الوحي المقدس والمثل الواضح على ذلك قوانين موسى وشريعة حمورابي...».

«وتصبح هذه النظرة عند هيجل نظرة كونية عندما ينظر إلى سير التاريخ على أنه فكرة تكشف عن حرية تتزايد على الدوام وتحقق وجودها خلال تطور الدولة».

«هذه النظريات كلها تتفق في خاصية واحدة هي أنها تجعل إبرام العقد خارج سيطرة الإنسان. . . !! فجوهر القانون دائمًا بعيد عن الإنسان وعليه أن يجده ويكمن الصلاح في اتباع الإنسان شريعة لا يد له في وضعها».

«ومن الواضح قصور مثل هذه النظريات فقد أثبتت البحوث التاريخية خطأ كل النظم التي تدعي أنها تعمل في ظل العقوبات اللاهوتية. فالإله الذي أوحى بها يتكلم لغة غامضة لا سحر فيها إلّا على من نصبوا أنفسهم أتباعاً له»[١٦]

ومع أن لمناقشة هذه الأفكار اجمالاً موضعاً آخر من البحث، فإن مثل هذا الكلام لا ينبغي أن نتجاوزه دون تمحيص لا سيما وأنه ليس فلتة من كاتب وإنما هو اتجاه سائد وظاهرة عامة في الفكر السياسي الغربي.

إن هذا الكلام وما شاكله من مواقف «غير علمية» يتخذها معظم الباحثين اللادينيين حيال أية قضية من قضايا الدين مما لا يليق بالباحث النزيه الذي يتحرى الدقة والموضوعية فيما يقول.

ويتجلى فيه بوضوح «جهالة مزدوجة» بحقائق التاريخ وحقائق العلم على حد سواء. أما الجهالة التاريخية فتبدو في «تعميم الأحكام» وهو خطأ ندر من ينجو منه من كتاب الجاهلية الغربية الصليبية إذ يعممون أحكامهم عن الدين والشرائع جاهلين ــ أو متجاهلين ــ ان الدين في صورته الإلهية الحقة «الإسلام» لا يصح مطلقاً أن يعبر عنه ضمن الأديان والنحل الأخرى و أن يوصم بما توصم به «المسيحية الرسمية» التي دانت بها أوروبا ولا بما توصف به شريعة التوراة المحرفة التي يسميها لاسكي «قوانين موسى».

---

(١٦) مدخل إلى علم السياسة. مقتطفات من ٢٦ ــ ٢٨.

إن التاريخ ـ على العكس مما توهم لاسكي ـ ليسجل للأمة الإسلامية إبان تطبيقها الكامل لشريعة الله أزهى عصر عرفته البشرية عدالة ورخاء، وانصع صفحة من صفحاته على الإطلاق، اللهم إلاَّ إذا كانت البحوث التاريخية التي يقصدها لاسكي هي بحوث المتعصبين الغربيين الحاقدين!.

وأما الجهالة العلمية فتبرز في دعوى أن القانون الأمثل هو الذي يضعه الإنسان لنفسه وليس الذي يضعه له «الإله»!.

وهي دعوى ناشئة لا عن الجهل بمقام الألوهية فحسب بل عن الجهل الفاضح بحقيقة الإنسان وقصور علمه وعجز إدراكه ومحدودية معرفته حيث أن في طبيعته وتكوينه من صفات النقص ونواحي الضعف ما يجعله أعجز وأجهل من أن يشرع لنفسه.

وهو مهما اكتشف من نواميس الكون وأسرار الوجود فلن يصبح «إلهاً» بحال من الأحوال كما يتوهم المغرمون بالعلم ـ وصفة «الحاكمية» التي تعني حق التشريع من أخص صفات الألوهية وأوجبها.

والإنسان في كل مرحلة من مراحل وجوده ـ خلق ليعبد الله لا ليعبد نفسه بدليل أنه يجد نفسه محكوماً بسنن ونواميس إلهية لا يستطيع ـ بالغاً ما بلغ ـ أن يتجاوز نطاقها.

أما الجانب الإرادي من حياته فإنما أعطاه الله حرية الاختيار فيه ليبتليه أيكفر أم يشكر، وفي ذلك تكريم له ورفع لقدره بين المخلوقات فإن اتبع فيه شريعة الله حصل له الانسجام مع نفسه ومع الكون كله، وإن اتبع هواه وتمرد على خالقه كان التصادم بينه وبين فطرته

والكون وعاش عيشة ضنكاً في الدنيا فضلاً عن مصيره المحتوم في الآخرة[١٧].

وما لنا نذهب بعيداً وها هو لاسكي نفسه يعيب النظريات السياسية قديمها وحديثها ــ كما سيأتي قريباً ــ وينقد «الديمقراطية» معبودة قومه نقداً لاذعاً ثم يقف عاجزاً عن الإتيان بنظرية سياسية عادلة لا تحابي فرداً على حساب آخر أو تظلم طبقة لمصلحة أُخرى[١٨].

وهذا الموقف العاجز يقفه كل الكتاب السياسيين المعاصرين والإنسان العصري يرى بأم عينه الأزمة الحادة في السياسة الدولية على الرغم من النظريات السياسية التي لا حصر لها.

* * *

أما نظرية العقد الإجتماعي فإن محور الدراسات الحديثة هو فكرتها القائلة بأن العلاقة بين الحاكم والمحكوم مصلحية نفعية متبادلة ولا سند للسلطة الحاكمة سوى ذلك ولكن العيب الذي أخذ عليها هو تصورها الخيالي للعقد. ذلك العقد الذي لا يستطيع أصحاب النظرية إثباته تاريخياً فهو عقد وهمي لجأ الكتاب السياسيون الأوائل إلى افتراضه إما هروباً من المواجهة الصريحة للسلطات الحاكمة آنذاك أو تزلفاً لها ــ على اختلاف بين أصحابها[١٩].

أما بعد أن تخلصت الشعوب من عبادة الملوك ورجال الدين

(١٧) تراجع مقدمة كتاب مبادىء الإسلام للمودودي وفصل لا اله إلا الله منهج حياة من معالم في الطريق.

(١٨) انظر كتاب مدخل إلى علم السياسة ومقالته في تاريخ العالم، ج ٤.

(١٩) انظر مدخل إلى علم السياسة: ٣٠ وتاريخ النظرية السياسية: ٨٤.

وبلغت درجة لا بأس بها من الوعي السياسي وفي الوقت نفسه تخلص الكتاب من «أحلام الرومانتيكية» واتجهوا إلى «الواقعية» فلم يعد هناك ما يدعو إلى افتراض نظريات لا أساس لها تاريخياً.

وانطلاقاً من ذلك وجد علم السياسة الحديث بغيته المنشودة في كاتب آخر يتجلى بنظرة «عصرية» إلى الأمور وإن كان وجوده التاريخي سابقاً لمشاهير النظريات الأخرى ذلك هو «نيقولا مكيافيللي» الذي يطلق عليه لقب «أول المحدثين» ويعد كتابه «الأمير» مصدر الإلهام في العصر الحديث بالنسبة للحكام وللمفكرين السياسيين على حد سواء[٢٠].

هذا وقد كان للنظريات اللادينية في القرن التاسع عشر ونظرية التطور بصفة خاصة الإسهام الأكبر في بحث المكيافيلية والباسها اللباس العلمي المبهرج بعد أن كانت من قبل مسبة لأصحابها ومدعاة للتنفير من معتنقيها.

لقد كانت «مملكة المسيح» التي يتحدث عنها بابوات الكنيسة الكاثوليكية تشتمل على تنظيمين:

١ ــ التنظيم الروحي ويمثله رجال الدين ومجال عمله الكنائس والأديرة ووظيفته الوعظ والتوجيه للخلاص من «الخطيئة».

٢ ــ التنظيم الزمني وتمثله الدولة ومؤسساتها المدنية والعسكرية وميدانه شؤون الحياة الدنيوية.

وكلا التنظيمين يمارس نشاطه في ظل روح أخلاقية مسيحية مع تفاوت بالإلتزام بهذه الروح.

(٢٠) انظر مقدمة كتاب الأمير لكريستيان غاوس.

فمن الوجهة العلمية كان الفصل بين الدين والسياسة موجوداً بالفعل أي أن نوعاً من العلمانية الموضوعية كان يسود الحياة الأوروبية طيلة القرون الوسطى وذلك أمر طبيعي ما دام الحكم بما أنزل الله غير نافذ في المجتمع.

ولكن أول من تبنى دعوة علمانية ذاتية ودعا بصراحة إلى استبعاد الدين وعزله عن جانب مهم من جوانب الحياة هو «مكيافيللي».

والمكيافيلية باعتبارها منهجاً عملياً للحكم تقوم كما رسمها واضعها في «الأمير» على ثلاثة أسس متلازمة مستمدة من تصور لا ديني صرف هي:

١ ـ الإعتقاد بأن الإنسان شرير بطبعه وان رغبته في الخير مصطنعة يفتعلها لتحقيق غرض نفعي بحت[٢١]، وما دامت تلك هي طبيعته المتأصلة فلا حرج عليه ولا لوم إذا انساق وراءها.

٢ ـ الفصل التام بين السياسة وبين الدين والأخلاق فقد رسم مكيافيللي للسياسة دائرة خاصة مستقلة بمعاييرها وأحكامها وسلوكها عن دائرة الدين والأخلاق و«فرق مكيافيللي» تمام التفريق بين دراسة السياسة ودراسة الشؤون الأخلاقية وأكد عدم وجود أي رابط بينهما»[٢٢].

صحيح أن مكيافيللي لم ينكر الدين والأخلاق في ذاتها كما هو الشأن في بعض النظريات المعاصرة لكنه يجعل الحاكم في حل من التمسك بالضوابط المستمدة منهما ويقصرها على أفراد الشعب.

---

(٢١) انظر الأمير: ١٤٤.

(٢٢) الأمير، المقدمة: ٣٥.

٣ ـ إن الغاية تبرر الوسيلة: وهذه هي القاعدة العملية التي وضعها مكيافيللي بديلاً عن القواعد الدينية والأخلاقية. ولذلك فإن لها عنده تفسيراً خاصاً.

كان الكتاب السياسيون منذ القدم، ومنهم فلاسفة الاغريق كأفلاطون وأرسطو وغيرهم يبحثون عن الغاية من الدولة والهدف من وجودها[٢٣]، فرأى بعضهم أن غايتها هي تحقيق المثل العليا السامية ولهذا جاء اشتراطهم كون الحاكم فيلسوفاً. بينما ذهب آخرون إلى أنها تنفيذ القانون الإلهي أو القانون «الطبيعي» كما يسمونه.

ولكن مكيافيللي ذا النزعة العملية ذهب إلى أن الدولة غاية بذاتها والقبض على زمام الحكم هدف برأسه ولا داعي للخوض فيما وراء ذلك.

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية لا مانع من سلوك أي سبيل يوصل إليها واستخدام أية وسيلة من شأنها تسهيل ذلك مهما وصفت تلك السبل والوسائل بأنها غير أخلاقية ومهما تنافت مع الدين ومنهجه في السلوك.

فالمعيار الذي تقاس به صلاحية الوسيلة أو عدمها ليس معياراً موضوعياً بل هو معيار ذاتي شخصي، وللسياسي وحده الحق في الحكم بصحة أي لون من ألوان السلوك أو خطئه وبطلانه.

تلك صورة موجزة للمكيافيللية كما ظهرت في عصر النهضة.

وبسبب نزعتها اللا أخلاقية الظاهرة عورضت بشدة في الأوساط الدينية والفكرية فحرمت الكنيسة قراءة «الأمير» ونقده المؤلفون

(٢٣) انظر تاريخ النظرية السياسية الفصل الثاني الفكر الاغريقي

بعنف. وظلت كلمة «مكيافيللي» أشنع وصف يمكن أن يطلق على إنسان متحلل من قيود الدين والخلق متجرد من الإنسانية والضمير.

وهكذا بقيت زهاء ثلاثة قرون وهي في موضع المقت والإزدراء بينها نمت النظريات التي عُورضت آنفاً.

ولما جاء القرن التاسع عشر قرن الإنتفاضة الشاملة على الدين والأخلاق فكرياً وواقعياً ظهرت نظرية التطور العضوي على يد داروين. وكان قانونها وقاعدتها أن الحياة صراع والبقاء للأنسب أي للأقوى بطبيعة الحال.

حينئذ آمن الناس على أساس «علمي»! بأن الوجود مرتبط بالقوة، وأن الصراع الحتمي على البقاء لا يسمح بالتفريق بين وسيلة وأُخرى فليست العبرة بنوعية الوسيلة لكنها بضمان النتيجة وتحقيق الغاية التي هي «البقاء» في ذاته.

المكيافيللية تقول إن الحق هو القوة!.
والداروينية تقول: إن الوجود هو القوة.
والداروينية نظرية علمية إذن فلتكن المكيافيللية كذلك.

وكانت الظروف تهيّء لمثل هذه المعادلة، فالكنيسة فقدت سلطانها الطاغي، والحياة السياسية والاجتماعية في القارة تموج بالصراعات والحروب الطاحنة والشحناء المدمرة. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى ارتبطت السياسة ـ في ذلك القرن ـ بالاقتصاد ارتباطاً قوياً فازدادت بعداً عن الدين والمؤثرات الدينية.

والواقع أن السياسة والاقتصاد وكل جوانب الحياة مترابطة ومتلازمة بحيث يصعب فصل كل منها عن الآخر. إلاّ أن الاقتصاد،

بصفة خاصة، أصبح المحور الرئيسي للسياسة الدولية بسبب الأوضاع التي كانت تعيشها القارة الاوروبية.

ففي هذه الفترة شهدت الحياة الأوروبية انهيار نظام اجتماعي وقيام نظام آخر محله. لقد انهار الاقطاع وولدت الرأسمالية.

كان النظام الاقطاعي الذي المحنا عنه سابقاً يمثل صورة بشعة لإهدار الكرامة الانسانية والحط من قيمة الانسان واستعباده بفظاعة لاناس من بني جنسه تجردوا من المعاني الانسانية النبيلة.

كان الانسان في ظل هذا النظام مستعبداً لسلطتين غاشمتين: سلطة السادة الاقطاعيين وسلطة رجال الدين، فالسيد يملك الاقطاعية بمن عليها من الفلاحين ويسن لها القوانين ويفرض عليها العقوبات كما يشاء أي أنه كان يجمع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية في آن واحد.

أما رجل الدين فيبارك الاستعباد بحجة أنه نتيجة للخطيئة الاولى ويشارك السيد في تسخير العبيد لمصلحته الشخصية إذ أن الكنيسة كما سبق أن أوضحنا جزء لا ينفك من النظام الاقطاعي وفي ظل هذا الواقع المزري انبعثت هنالك حركتان لها أهمية قصوى في التاريخ الاوروبي: الحركة العلمية، والحركة الاصلاحية الدينية، وغير خاف الأثر الاسلامي فيهما وظهرت «الطبقة البرجوازية» مستندة إلى أقوال «لوثر وكالفن» ومستفيدة من ثمار التقدم العلمي التجريبي وظل دور هذه الطبقة محدوداً حتى بدأ ما يسمى «الثورة الصناعية» حيث بدأ المصنع يستأثر بما كان للأرض من قيمة ونفوذ واشتد التنافس بين رجال الصناعة في المدن والملاك الزراعيين في اقطاعيات الأرياف. وكانت الصناعة آنذاك تحتاج إلى أيد عاملة متوفرة ورخيصة والعمال

بطبيعة الوضع يعيشون في الريف تحت سيطرة السادة الاقطاعيين فكان لا بد من كسر السور المفروض عليهم واتاحة الفرصة لهم للانفلات من قيود الاقطاعية، لا لمصلحة حريتهم ولكن لمصلحة السادة البرجوازيين.

حينئذ ظهر المذهب الطبيعي أو «الفيزيوقراطي» الذي كان ينادي بشعار «دعه يعمل، دعه يمر» أي دعه يعمل ما يشاء ويمر من حيث يشاء وكان ذلك فتحاً جديداً في الحياة الأوروبية.

فعلى الرغم من أن حرية الانسان في اختيار سبيل الرزق الحلال وحقه في الانتقال إلى حيث شاء من أرض الله كانت بالنسبة للانسان في الشرق الإسلامي أمراً بديهياً كالماء والهواء، فإن الحصول عليها في الغرب الاقطاعي يعد ظفراً بمكسب كبير للغاية.

وكان نجاح الثورة الفرنسية حافزاً قوياً لبقية الشعوب الاوروبية فاندلعت الثورات المتتابعة وارتفعت صرخات المفكرين ممن يسمون «دعاة الحرية» منددين بالمساوىء التي يعج بها المجتمع والقيود التي يرزح الفرد تحت نيرها.

وبسبب ما عانته الشعوب من ويلات الحروب الطاحنة بين الطوائف الدينية لا سيما بين الكاثوليك والبروتستانت وبسبب الطغيان الجائر الذي كان رجال الدين يفرضونه على الناس وبسبب الحقد الصليبي الذي حجب الاوروبيين عن الاهتداء بهدى الله والدخول في دينه الحق ـ بسبب ذلك كانت الحرية التي طولب بها «لا دينية» وكان الأساس الذي يراد بناء المجتمع الجديد عليه لا دينياً كذلك. واستلهم الباحثون من التراث الفلسفي الاغريقي ومن كتابات «سبينوزا وجون لوك» والموسوعيين الفرنسيين فكرة صياغة المجتمع وفق قوالب وتنظيمات علمانية.

وفي الظلام تارة وعلانية تارة كانت المنظمات التلمودية تضرم الأحقاد وتؤجج نار العداوة ضد الدين وتدفع الناس دفعاً إلى الإباحية والإلحاد.

والتقت مشاعر الناس وتعلقت عواطفهم بكلمة سحرية خلابة ترمز لمبدأ جديد جذاب اتفق في المناداة به «الطبيعيون» و«النفعيون» و«الجماعيون» و«الفرديون» ذلك هو مبدأ «الديموقراطية». ومن الذي لا تخلب الديمقراطية لبّه من الشعوب المضطهدة والعقول المغلولة؟!. الشعب هو سيد نفسه وهو مصدر السلطات ولا وصاية لأحد عليه...

وللمواطن ـ أياً كانت عقيدته أو جنسيته ـ حريات وحقوق لم يكن ليحلم بها من قبل: حرية العمل ـ حرية التنقل ـ حق ابداء الرأي ـ حرية السلوك ـ حرية العقيدة ـ حق التظاهر والاحتجاج...

وله كذلك ضمانات لم تكن ـ وهو في ظل الاقطاع ـ لتدور له في خلد: ضمان الاتهام ـ ضمان التحقيق ـ ضمانة المحاكمة ـ ضمانة التنفيذ[٢٤].

كل الناس بهرتهم هذه الشعارات وأسكرتهم هذه الأحلام فحاولوا بكل جهدهم نسيان ذلك الماضي الرهيب، ونبذه بكل قيمة ومثله وإن كان من بينها الدين والأخلاق... وتحرقوا مشتاقين إلى مستقبل باهر وضاء وطغى على الفكر والأدب اتجاه مغرق في التفاؤل واثق ثقة مطلقة في السعادة والتقدم اللذين لا حد لهما.

وكان هنالك ـ بطبيعة الحال ـ فئة واحة فقط تدرك النهاية الحقيقية والمغزى العميق للعملية، هذه الفئة هي طبقة «الرأسمالية»

(٢٤) حول مولد الديمقراطية ومبادئها يراجع جاهلية القرن العشرين فصل «في السياسة».

الذين يمثلون الخلاصة المتطورة للطبقة البرجوازية. وغني عن البيان القول بأن الرؤوس البارزة في هذه الطبقة هم «المرابون اليهود»[٢٥].

ولنستمع إلى القصة من رواية باحث سياسي غربي:

يقول «كارل بيكر» في كتاب «السبيل إلى عالم أفضل»:

«كان كل رجل أياً كانت المملكة التي يعيش فيها يدين بالولاء والطاعة للكنيسة ورجالها في الأمور الدينية كما كان يدفع للكنيسة مكوساً معينة فضلاً عن تقاضيه أمام محاكمها التي لها أيضاً اختصاص توقيع العقوبة عليه في جرائم معينة. ولكنه كان يدين في الوقت ذاته بالولاء والطاعة لحكومة بلاده المدنية في المسائل المدنية فكان يدفع لأمير المقاطعة أو للملك ضرائب أخرى معينة وكان يتقاضى أمام محاكم الأديرة أو الملك كما كانت هذه المحاكم توقع عليه العقوبة لارتكابه جرائم معينة وهكذا كان أمراً مقضياً أن ينشب النزاع بين هاتين السلطتين التي تطالب كل منهما الناس بواجب الولاء لها ولم يكن تاريخ غرب اوروبا طيلة العصور الوسطى وفي كل جزء من أجزائه إلا تاريخاً لهذا الكفاح المستمر بين الكنيسة والدولة».

«ولقد تم انتقال السلطان والقوة من الكنيسة إلى الدولة خلال المائة عام التي انقضت في حروب أهلية ودولية بسبب المنازعات الدينية وكانت هذه الحروب كفاحاً وحشياً دامياً لا يلين ولا يهدأ للظفر بالسلطان السياسي».

«وهكذا اختفى من أوروبا الغربية مجتمعها المسيحي الموحد... وأصبحت سيادة هذه الدول واستقلالها حقيقة واقعة... ولقد جاءت المبادىء النظرية بعد ذلك لتؤيد هذه الحقيقة. فقد عرف مكيافيللي في

---

(٢٥) انظر عيوب الديمقراطية كما ستأتي، ص ٢٣٩ فصاعدا.

كتابه المشهور «الأمير» الذي نشره قرابة عام ١٥١٣ الدولة بأنها قوة سياسية بحتة كما أعلن فيه أن مهمة الأمراء والحكام أو وظيفتهم الوحيدة هي اكتساب السلطة واستخدامها وهم في استخدامهم لهذه السلطة لهم أن يحكموا وحدهم على الأغراض والغايات والتي تتحقق عن طريقها وهم من أجل ذلك غير مقيدين بقواعد الدين والأخلاق.

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ألغت الثورة الديموقراطية الحكم المطلق الذي كان للملوك وأحلت محله سلطان الحكومة الذي تولته جمعيات نيابية ينتخبها الشعب... وجعلت هذه الثورة، الدول على اختلافها أكثر اهتماماً بالأمور الدنيوية وبالتالي أكثر استقلالاً من ذي قبل وهكذا حلت ارادة الشعب محل الحق الالهي.

«وكما كان الناس على استعداد لأن يقاتلوا ويموتوا في سبيل الدين والكنيسة أصبح الرجل على أهبة القتال والموت في سبيل دولته وشعبه»(٢٦).

ثم ننتقل مع «بيكر» إلى الكلام عن «الديموقراطية» حيث يقول:
«الديمقراطية العصرية من حيث الفكرة والواقع إن هي إلا نتيجة لمعارضة قامت في وجه ذلك النظام الذي سار عليه المجتمع والحكومة وكان سائداً في معظم الدول الاوروبية خلال القرنين (١٧ و١٨) وقت أن كان يحكم الدول ملوك ادعوا السلطة المطلقة استناداً إلى الحق الالهي وقد استندت سلطة هؤلاء الملوك إلى طبقة الأعيان وإلى سلطة الكنيسة الموطدة وكانت غالبية الناس وبخاصة الاجراء والفلاحين تسام الظلم وتستغل وكان نصيبهم من الحقوق ضئيلاً فلم

---

(٢٦) السبيل إلى عالم افضل، ص ٧٢.

يتمتعوا بالحرية السياسية أو حرية العبادة أو حرية الكلام أو الصحافة أو حرية العمل.

«ولم يكن للمواطنين أي ضمان ضد التعسف بهم أو القبض عليهم وحبسهم وتفتيش مساكنهم وكانت الثورة الانجليزية والثورتان الفرنسية والأميركية موجهة ضد هذا النوع من الدكتاتورية لإحلال الديمقراطية الحرة محلها.

وإن الفكرة الرئيسية التي تنطوي عليها الفلسفة الديمقراطية الحرة التي كانت تتمثل في أن الناس يستطيعون أن يحكموا أنفسهم بصورة أفضل مما لو حكمهم الملوك وطبقة الأشراف ورجال الدين وكان الكتاب يستعملون هاتين الكلمتين (Laissez Faire) تعبيراً عن هذه الفكرة أي دع الناس أحراراً في أعمالهم وكانوا يظنون أن واجب الحكومة ينحصر في حماية الأرواح والممتلكات والمحافظة على النظام وحماية البلاد ضد الاعتداء الخارجي.

«وكانت الفكرة العامة تنادي بأنه إذا سعى كل فرد وراء منافعه الذاتية فإن ضرباً من التوفيق بين مصالح الشعب المختلفة سرعان ما يزداد ظهوره أو يقل بصورة آلية وكان يعبر عن هذه الفكرة بإيجاز في العبارة الآتية «إن المنافع الخاصة تؤدي بدورها إلى تحقيق المنفعة العامة».

«وهذه النظرية البسيطة هي نظرية تعمل لمصلحة القوي ضد الضعيف وفي مجتمعات القرن الثامن عشر التي لم تكن حياتها قد تعقدت بعد كانت هذه النظرية تعمل لمصلحة أولئك الأفراد القلائل الذين أتاح لهم الحظ أن يقتنوا ثروة (!).

«ولكن بظهور الآلات ذات القوى المحركة أصبح واضحاً أن المنافسة الصناعية الحرة لم تؤد إلى النتيجة التي كان يتوقعها الاقتصاديون والفلاسفة السياسيون فقد كانت الأرباح تعود على

أصحاب الصناعة والآلات وحدهم ونهضت الآلات بأكبر عبء من العمل فامتلأت البلاد بالعمال العاطلين، ووجد أصحاب المصانع الأحرار أن ذلك فرصة لتخفيض الأجور واطالة ساعات العمل، ووجد العمال أن حريتهم في اختيار مهنهم كانت محدودة بمقياس الحاجة إلى ساعات طويلة في أي عمل يعرض لهم لقاء أجور تافهة لا تكاد تقيم أودهم، وكانت جموع النساء والأطفال الذين أنهكهم الجوع والضعف يشتغلون في العمل بمعدل ١٢ ساعة في اليوم داخل حوانيت قذرة وخطرة وغير صحية لقاء أجر لا تكاد تقيم أودهم»[٢٧].

هكذا جاءت الديمقراطية وهكذا تبددت الأحلام والأوهام التي نيطت بها، وأسفرت الثورة الصناعية التي واكبت الثورة الديمقراطية عن وجه كالح لا يقل شناعة وفظاعة عن صورة الأقطاع وانقلبت الحرية النسبية التي وصل إليها العمال والفلاحون قيوداً ثقيلة ترهق كواهلهم.

وتعالت الصيحات والصرخات من جديد تعلن رفضها للنظام الطبيعي الفردي وتطالب بأنظمة «جماعية ديمقراطية» وظهر بقوة صوت «الاشتراكيين الأوائل» ومال إليهم طوائف كثيرة من المثقفين والعمال والفلاحين وشكلوا جبهة مضادة للرأسماليين العتاة.

وفي معمعة الصراع بين أنصار الديمقراطية الرأسمالية الفردية ودعاة الديمقراطية الاشتراكيةالجماعية ولدت نظرية التطور التي غيرت مجرى الفكر الغربي بأجمعه.

فهذه النظرية باجهازها على «المسيحية الرسمية» أفسحت الطريق لإبعاد الدين عامة بصفة نهائية من التأثير في أي منحى من

---

(٢٧) المصدر السابق ١٧٣

مناحي الحياة بل مهدت لرفضه رفضاً باتاً حتى في صورته الوجدانية المجردة.

وبواسطة قانون الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء المفضي إلى بقاء الأنسب بعثت الداروينية النزعة المكيافيللية كما أسلفنا، فلقد كان صراع الدول القومية في العصر الحديث الذي يشبه في مظهره صراع أنواع الكائنات الحية مدعاة لتبرير الميكافيللية بل لتبنيها وتطبيقها. ويؤكد ذلك «كريستيان غـاوس» في مقدمته لكتاب الأمير إذ يقول عن الكتاب:

«اختاره موسوليني في أيام تلمذته موضوعاً لإطروحته التي قدمها للدكتوراه وكان هتلر يضع هذا الكتاب على مقربة من سريره فيقرأ منه في كل ليلة قبل أن ينام. ولا يدهشنا قول «ماكس ليرز» في مقدمته لكتاب «أحاديث» أن لينين وستالين أيضاً تتلمذوا على مكيافيللي»[٢٨].

وتتجلى الروح المكيافيللية بوضوح في قول انجلز:

«إن الأخلاق التي نؤمن بها هي كل عمل يؤدي إلى انتصار مبادئنا مهما كان هذا العمل منافياً للأخلاق المعمول بها».

وقول لينين: «يجب على المناضل الشيوعي الحق أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل. فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية»[٢٩].

أما الرأسمالية فـلا تخفي أبداً حقيقتهـا المكيافيلليـة بل إن

---

(٢٨) الأمير: ١٨ ـ ١٩، المقدمة.

(٢٩) عن اشتراكيتهم واسلامنا بشير العوف: ٣٦ و ٣٧.

مايلز كوبلاند صاحب «لعبة الأمم» ليقرر أنها منهج السياسة الأميركية[٣٠].

واضافة إلى ذلك قدمت فلسفة التطور لكل من المعسكرين المتصارعين سنداً لكفاحه ضد المعسكر الآخر ومبرراً لجدارته وحده بالبقاء دون غريمه.

فالرأسمالية ترى أنها الحقيقة بالخاود المؤهلة وحدها بمؤهلات الاستمرار والتقدم ذلك لأنها العنصر القوي في الحياة الحديثة فلها ــ حسب قانون الانتقاء الطبيعي وتنازع البقاء ــ الحق في القضاء على العناصر الضعيفة بتصفيتها جسدياً أو انهاكها اقتصادياً. وهكذا كانت الدول الرأسمالية دولا استعمارية بالدرجة الاولى[٣١]، مع ملاحظة أن صورة الاستعمار في العقود الأخيرة تغيرت عنها في القرن الماضي.

وغير خاف أثر فلسفة التطور في الماركسية فقد استغلت النظرية الداروينية وطبقتها بحيث تتفق مع صراع الطبقات واتجه نظر الماركسية إلى زاوية أخرى فهي لا توافق على أن البقاء للأقوى لكنها ترى معتمدة على فلسفتها الديالكتية «الجدلية» أن البقاء للأحدث وذلك ما تقول بها أيضاً فلسفة التطور[٣٢].

وعليه فإن الرأسمالية ــ في نظرها ــ أشبه بسلالة منقرضة لا مبرر لبقائها بعد ظهور عنصر أحدث منها وأرقى تطوراً وهو «الماركسية».

ونستطيع أن نستنتج من ذلك أن هناك جامعاً مشتركاً لأنظمة الحكم اللادينية المعاصرة بالاضافة إلى اتفاقها على طرح الدين ونبذ

---

(٣٠) انظر شرحه الديبلوماسيه والمكيافيللية / محمد صادق ٣٤١.

(٣١) انظر معالم تاريخ الإنسانية ٤

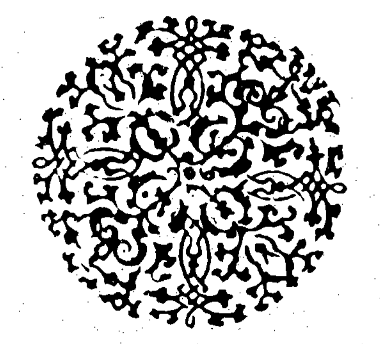
(٣٢) انظر كتب غيرت وجه العالم «أصل الأنواع»

الأخلاق من دائرة العمل السياسي بالكلية. وهذا الجامع يحتوي على ثلاثة أسس:

١ ــ المكيافيللية منهجاً عملياً.

٢ ــ فلسفة التطور مبرراً للبقاء والاستمرار.

٣ ــ الديمقراطية بصفتها نظاماً انسانياً وضعياً يتقنع به كلا المعسكرين.



نظرة إلى الواقع المعاصر

إن الواقع السياسي المعاصر الذي تنعكس عليه الصورة الحقيقية للجاهلية الاوروبية ليزخر بالدلائل القاطعة والبراهين القوية ويعج بالمتناقضات الصارخة والظواهر الغريبة التي تنذر ـ مجتمعة ـ بالمصير المشؤوم والنهاية المروعة لعالم لا يؤمن بالله ولا يحتكم إلى شريعته.

ونحن المسلمين لا نرى فيما يضطرم به مسرح الأحداث العالمية ـ من مفاسد جمة ومظالم شائنة وارهاب فظيع وعنف مدمر وكوارث جسيمة ـ إلا نتيجة طبيعية لعبادة غير الله المتمثلة في الحكم بغير ما أنزل الله.

فالنتيجة معروفة لنا سلفا وحكمنا عليها أساسي أعمق من مناقشة تفصيلاتها ومعالجة ظواهرها.

غير أنه قد يكون من الضروري ونحن نعرض الجاهلية المعاصرة كما هي ـ فكراً وواقعاً ـ أن نعرض معها الوجه الآخر لها كما يراه بعض مفكريها لكي تكتمل صورة العرض.

هنالك قضية آمن بها المفكرون السياسيون قديماً وحديثاً هي كما جاءت على لسان «كريستيان غاوس»: أن «الدولة ليست خارج نطاق عالمنا الانساني فالشكل المعين لهذه الدولة التي يعيش البشر في ظلها

ليس من صنع الله ولا من صنع الشيطان أو فرضهما، وهي إلى حد ما من الأشياء التي خلقها الانسان ولذا من الواجب أن تكون خاضعة كغيرها من الأمور التي خلقها لإعادة نظره ودراسته»[٣٣]. وتلك هي علة العلل في الجاهلية المعاصرة.

يلهث الانسان منقباً عن ذاته وقيمه وأنظمته وموازينه في حدوده الأرضية دون أن يرفع نظره مرة واحدة إلى السماء.

ومن هنا كان حتماً عليه أن يضل ويشقى ويصرخ ويستغيث.

ولقد تعالت صيحات الخطر من الغرب تنتقد وتستنكر وتنذر وتحذر، وسنعرض هنا بعض ما كشفه الكتاب الغربيون من مساوىء الأنظمة السياسية الأوروبية بشقيها الرأسمالي والشيوعي.

أولاً ــ الديمقراطية الليبرالية:

الناس في الغرب يقبلون الحوار والنقاش حول أي موضوع ما عدا موضوع «الديمقراطية» فالديمقراطية بمبادئها ــ كالحرية والمساواة ــ وحقوقها وضماناتها ــ كما أسلفنا ــ منطقة مقدسة لا ينبغي أن تكون موضع جدال وما لها لا تكون كذلك وهم لا يعملون لها بديلاً إلا الديكتاتورية ذلك الشبح الرهيب؟!

ومع ذلك فقد كثرت اعتراضات المفكرين على هذا المبدأ وانتقد من جوانب عديدة ويتلخص نقد «الكتاب الديمقراطيين» للديمقراطية في أمور:

١ ــ ميوعة الاصطلاح وصعوبة تحديده بدقة علمية يمكن بواسطتها التمييز بين الحقيقة وبين الادعاء المزيف.

---

(٣٣) الأمير: ٤٥ ــ المقدمة.

يقول صاحب كتاب «نظم الحكم الحديثة»:

«كل محاولة تستهدف تحديد الاستعمال الصحيح لإصطلاح الديمقراطية من شأنها أن تواجه مزيداً من التعقيدات، وليست البلاد التي تسمى بالديمقراطية تقليدياً... هي التي تظهر المتناقضات والعيوب فحسب بل ان البلاد الشيوعية في العالم والتي تعتنق مفهوماً سياسياً مخالفاً تماماً تدعي بذات التأكيد أنها «ديمقراطيات شعبية» وأن انتساب البلاد الأخرى إلى الديمقراطية إنما هو من قبيل الخداع»[٣٤].

ويقول آرنولد توينبي:

«أصبح استخدام اصطلاح الديمقراطية مجرد شعار من الدخان لإخفاء الصراع الحقيقي بين مبدأي الحرية والمساواة»[٣٥] ويقول رسل عنها:[٣٦]

«كانت تعني حكم الأغلبية مع نصيب قليل غير محدود المعالم من الحرية الشخصية ثم أصبحت تعني أهداف الحزب السياسي الذي يمثل مصالح الفقراء على أساس أن الفقراء في كل مكان هم الأغلبية، وفي المرحلة التالية أصبحت تمثل أهداف زعماء هذا الحزب، وها هي الآن في أوروبا الشرقية وجزء كبير من آسيا يصبح معناها الحكم المستبد لمن كانوا يوماً ما نصراء للفقراء والذين أصبحوا يقصرون نصرتهم هذه للفقراء على ايقاع الخراب بالأغنياء، إلا ان كان هؤلاء الأغنياء من «الديمقراطيين» بالمعنى الجديد».

صحيح أن لفظ «الديمقراطية» يعني عند اطلاقه «حكم الشعب»

---

(٣٤) ميشيل ستيوارت: ٢٩٨.

(٣٥) انظر لغة تراث الإنسانية: ج ٣، ص ٣٤٢.

(٣٦) العقل والمادة: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

لكن الآراء تتضارب كثيراً حول كيفية الحكم ونوعية الاقتراع» والتمثيل وشروط المقترعين وتحديد الفئات السياسية.

ترى الشيوعية أن الدول الرأسمالية ليست ديمقراطية بالمعنى الصحيح لأن الحكم فيها حقيقة بيد الطبقة الثرية وأن المصطلح الحقيقي لها هو «دكتاتورية رأس المال».

وفي الوقت نفسه تقول الرأسمالية أن الدول الشيوعية ليست ديمقراطية لأن بكل سلطانه ينحصر في قبضة قليلة واحدة من الشعب هي «الحزب الشيوعي» ولذلك لا تحسب الدول الشيوعية في عداد العالم الحر.

هذا بالاضافة إلى الانقسامات داخل الدول الديمقراطية الليبرالية.

٢ ـ **الأحزاب المتشاحنة التي لا تعبر عن ارادة الأمة**: إن الواقع المحسوس لينطق بصراحة بأن النظام الديمقراطي يقضي على وحدة الأمة، ويفتتها إلى تكتلات متناحرة وأحزاب متطاحنة لأسباب لم تكن لتستدعي التكتل والتحرب لولا أن النظام نفسه يشجع على ذلك ويهيئه. ومع خطورة هذا التمزق على الأمة فإنه ينبني عليه أثر خطر بالنسبة لتحقيق مصالح الشعب.

وذلك أن الدول الديمقراطية الغربية يوجد بها نوعان من الأنظمة:

ـ نظام الحزبين، ونظام الأحزاب المتنافسة. وندع الكلام حول عيوب النظامين كلاهما لـ«هارولد لاسكي» المشار إليه:

«في انجلترا مثلاً إذا اقتصر الأمر على حزبي المحافظين والعمال فسوف يضطر كثير من الموظفين لأن يختاروا بين بديلين ليس بينهم

وبين أحدهما تجاوب كامل خلاق. ولهذا السبب ينهض الادعاء بأن نظام الأحزاب المتعددة الذي يسمى عادة بنظام المجموعة يتلائم مع انقسام الرأي بصورة أكثر فاعلية.

ولكن بناء على خبرتنا بنظام المجموعة ـ كما في فرنسا وحكومة ويمار في المانيا ـ يبدو أنه مصحوب دائمًا بعيبين خطيرين: ويكمن أكثر هذين العيبين أهمية في أن هذا النظام عندما يعمل تكون الطريقة الوحيدة التي يتحكم بها في السلطة التشريعية هي تنظيم نوع من الائتلاف بين المجموعات... ويكون من نتيجة ذلك أن يستعاض عن تحمل المسؤولية بالمناورات وأن تصبح السياسة مجردة من التماسك وسعة الافق...

«والعيب الثاني الذي يظهر بدرجة ملحوظة في فرنسا هو أن نظام المجموعة يميل إلى تجميع السلطة حول الأشخاص أكثر من تجميعها حول المبادىء[٣٧]...».

٣ ـ إيجاد طبقة ثرية مسيطرة «دكتاتورية»: هذا العيب الخطر ملازم للأنظمة الديمقراطيةالغربية وهو أجلى عيوبها وأبرزها وبه تتذرع الشيوعية في هجومها على العالم «الليبرالي» كما تستغله الأحزاب اليسارية داخل هذه الدول نفسها.

من الحقائق المقررة عالمياً أن المصالح المادية هي الدافع الوحيد والمحرك الرئيسي للعمل السياسي وكل دول العالم الديمقراطي لا تخفي حقيقة أنها تعمل جاهدة لحماية امتيازاتها وضمان تفوقها الاقتصادي وتوفير «المجال الحيوي» لشعبها وهذا هو القناع الظاهري الذي تتستر

---

(٣٧) مدخل إلى علم السياسة ٨٥

به إمبراطوريات المال في هذه الدول والتي تتحكم في السياسة الخارجية والداخلية مباشرة أو بطريق الضغط على السلطة الحاكمة.

وفيما يحسب الشعب أنه سيد نفسه ومقرر مصيره تقوم الطبقة الرأسمالية المحتكرة بسن القوانين لحماية مصالحها والزج بسياسة الدولة فيما يخدم أغراضها النفعية الخاصة.

يقول لاسكي:

«إن الدولة (الديمقراطية) تبذل الكثير في سبيل تحقيق المساواة بين المواطنين فيما تمنحهم من ضمانات، كما تتجه أوامرها القانونية إلى حماية الملكية القائمة للامتيازات أكثر مما تعمل على توسيع نطاقها، فانقسام المجتمع إلى فقراء وأغنياء يجعل أوامر الدولة القانونية تعمل لصالح الأغنياء.. إذ أن نفوذهم يرغم نواب الدولة وذوي السلطة فيها على أن يكون لرغباتهم الاعتبار الأول».

«وتعبر الدولة عن رغبات أولئك الذين يسيطرون على النظام الاقتصادي فالنظام القانوني بمثابة قناع تختفي وراءه مصلحة إقتصادية مسيطرة لتضمن الاستفادة من النفوذ السياسي فالدولة أثناء ممارستها لسلطتها لا تعمد إلى تحقيق العدالة العامة أو المنفعة العامة وإنما تعمل على تحقيق المصلحة للطبقة المسيطرة في المجتمع بأوسع معاني هذه المصلحة».

«إن الحرية والمساواة اللتين حصلنا عليهما كانتا أولاً وقبل كل شيء حرية ومساواة لمالك الثروة»[٣٨]، والأمثلة الواقعية على ذلك

---

(٣٨) المصدر السابق: ٥٠، ١٩، ٦٤.

واضحة للعيان ولعل في الحروب التي خاضتها وتخوضها الولايات المتحدة أصرح دليل على خضوع السياسة الديمقراطية لضغط الطبقة المحتكرة.

فالحرب العالمية الأولى وكذلك الحرب الثانية ثم حرب فيتنام كلها دخلتها أميركا دون أن يكون لها مصلحة مباشرة أو يتعرض أمنها القومي للخطر وبغض النظر عن دوافعها ونتائجها كان الشعب الأميركي يرفض تدخل حكومته في هذه الحرب وكانت المظاهرات الصاخبة تنظم باستمرار إحتجاجاً على ضياع الأرواح والأموال فيما لا جدوى منه.

لكن الطبقة الرأسمالية التي تملك مصانع السلاح وشركاتها الكبرى التي تتولى تسويقه تكمن مصلحتها في إشعال الحروب واستمرارها. والذي حصل ويحصل دوماً هو تنفيذ رغبة هذه الفئة القليلة مقابل تعطيل رغبات الشعب بكامله. ولما حاول الرئيس «كندي» تقديم المصلحة القومية وعقد اتفاقية وفاق دولي تخلصت منه هذه الطبقة فأزهقت روحه بعملية اغتيال غريبة لا تزال أسرارها في طي الكتمان إلى الآن.

وليس هذا فحسب، بل ان إمبراطوريات المال لتملك المنظمات الارهابية والعصابات المسلحة إلى جانب عصابات الرقيق الأبيض والرشاوى بالاضافة إلى سيطرتها على وسائل الاعلام واستخدامها في الفضائح السياسية والمالية والأخلاقية وكلها شباك تنصبها للاقتناص بالقوة تارة وبالاغراء تارة أخرى[٣٩].

والحقيقة التي يجب ألا تغرب عن بالنا في هذا الصدد هي أن

(٣٩) انظر حول هذه الفقرة: حكومة العالم الخفية: ١٨٤/جاهلية القرن العشرين: ١٢٦.

الطبقة الرأسمالية المسيطرة ليست سوى مجموع المنظمات الربوية الاحتكارية اليهودية التي تخطط للسيطرة على العالم أجمع وفق أوامر التلمود والبروتوكولات.

٤ ــ تزييف وتطويع الرأي العام: هذا العيب متلازم والعيب الذي قبله فوجود طبقة ثرية مسيطرة يجعل وقوع وسائل الاعلام ــ المكون الرئيسي للرأي العام ــ في قبضتها أمراً طبيعياً. كما أن خضوع وسائل الاعلام لفئة معينة تتيح لها القدرة على تقوية مركزها ودعم نفوذها السياسي والمالي عن طرق تكوين الرأي العام أو تضليله، مما يضمن فوز المرشحين الموالين لها ونجاح مخططاتها. يقول «ميشيل ستيوارت» في معرض حديثه عن مشكلات الديمقراطية وعيوبها:

«هناك نفوذ الثروة على تكوين الرأي العام. فالديمقراطية تتطلب فرصاً متكافئة لجميع الذين يريدون الاقناع أو التعبير عن الرأي. ولقد حاولت الديمقراطية توفير ذلك بإزالة العقبات القانونية على حرية الكلام والكتابة.

«وثمة اتجاه معاصر يتمثل في ملكية فئة قليلة للصحافة كما وأن النفقات الباهظة لادارة صحيفة تجعل دخول ملاك جدد لميدان الصحافة أمراً عسيراً. ثم ان المصالح الصناعية والتجارية تؤثر على الاذاعة والتلفزيون ومن الجائز مع تقدم الدراسات الخاصة بعلم النفس والدعاية والاعلام أن تزيد مقدرة القلة التي تستطيع أن تنفق بسخاء للتحكم في وسائل الاعلام على تكييف عقول الباقين مما ينال من حق الشخص وقدرته على التفكير وهو الغرض الأساسي للديمقراطية. وهذه المشكلة هي أكثر المشاكل خطورة لأنها ليست من

مخلفات الماضي وإنما هي قوة «بلوتوقراطية» (سيطرة رأس المال) جديدة ظهرت حديثاً»[٤٠].

ويركز «لاسكي» اهتمامه على الصحافة ودورها في تزييف الرأي العام فيقول: «إن جمع الأخبار ونشرها عمل لا يراعى فيه العرض الموضوعي للوقائع. فالأخبار سرعان ما تصبح دعاية عندما تتمكن مادتها من التأثير في السياسة كما يميل مضمون الأخبار في المجتمع المتفاوت إلى فائدة من بيدهم مقاليد السلطة الاقتصادية.

«ومعظم الأفراد يعتمدون على الصحف في استقاء معلوماتهم وهذه الصحف تعتمد في بقائها على الاعلانات التي تستطيع أن تحصل عليها كما أن إصدار الصحف عموماً باهظ التكاليف بحيث لا يستطيع أن يؤسسها إلا الأغنياء فقط.

«ونظراً لأنها تعتمد على المعلن فيتحتم عليها غالباً أن تنشر تلك الأخبار، والتعليقات التي ترضي أولئك.

وبذلك تكون النتيجة تحيزاً صريحاً في نقل الأخبار للحوادث الصحيحة التي قد تقلق الطبقة الغنية أو تحرجها»[٤١].

٥ ــ الفتور في تجاوب المواطنين مع العملية الانتخابية: تدعي الديمقراطية أنها حكم الشعب وأن النواب وأعضاء الحكومة إنما يختارون وفقاً لإرادة الشعب وأنهم تبعاً لذلك يمثلون الشعب تمثيلاً صادقاً.

ولكن هذه الدعوى تناهضها أمور عدة منها:

١ ــ الدول التي تقصر حق الانتخاب على فئة معينة لأسباب عنصرية

---

(٤٠) نظم الحكم الحديثة ٣٣٣

(٤١) مدخل إلى علم السياسة ١٠٩ ــ ١١٠.

أو جنسية أو طائفية لا يمكن أن تعد نسبتها إلى الديمقراطية صادقة كما يرى «ستيوارت» ويمثل لذلك بسويسرا التي لم تعط للنساء حق الانتخاب وبالدول التي لا يحظى الملونون أو الطوائف الدينية فيها بذلك كبعض الولايات المتحدة وايرلندة.

٢ ــ بالنسبة للدول التي لا تضع مثل هذه الحواجز بل تحفز المواطنين بكل وسائل الاعلام على الادلاء بأصواتهم يلاحظ بوضوح عزوف نسبة ليست قليلة من الشعب عن الاشتراك في العملية الانتخابية. وتكون النتيجة أن الذي يفوز في الانتخابات ــ حزباً أو فرداً ــ يفوز لأنه حصل لا على أصوات أغلبية الشعب بل على أصوات أغلبية المشتركين فعلاً في الاقتراع.

فإذا أضفنا الرافضين للانتخابات إلى الذين دخلوها معارضين فسنجد غالباً أن الأغلبية الفائزة من الانتخابات ليست سوى أقلية بالنسبة لمجموع الشعب.

وبذلك لا يصح بحال القول بأن الحكومة تمثل الشعب تمثيلاً كاملاً أو صادقاً. وهذا العيب تعترف به الدول الديمقراطية نفسها وليس من دولة تستطيع نفيه وإنما تتباهى فيما بينها بانخفاض نسبة الرافضين وتحقيق أرقام قياسية في عدد المشتركين.

وعلى سبيل المثال يذكر مؤلفو كتاب «نظام الحكم والسياسة في الولايات المتحدة» أنه لم تزد نسبة الناخبين عن ٦٦٪ من عدد الأشخاص الذين بلغوا سن الانتخاب وفي بعض الأحيان أقل من ٥٥٪ وفي سنة ١٩٥٦ ٦٠,٥٪ فقط[٤٢].

(٤٢) هارولد زينك وزميلاه: ١١٩.

٦ ــ **القضاء على الميزات الفردية**: على الرغم من أن الديمقراطية ــ في جوهرها ــ نظام فردي كان وجوده أصلاً بمثابة رد فعل لاهدار الحقوق الفردية في ظل النظام الاقطاعي فإن الفرد الممتاز في الديمقراطية مهضوم الحق بالنسبة لمشاركته في صياغة القرارات التي تتخذها الحكومة.

هذا العيب لفت نظر بعض النقاد إلى آفة تعاني منها الديمقراطية ومنهم اليكسيس كاريل فالدكتور كاريل يعجب كيف رضيت البشرية أن ترزح تحت نير نظام يقضي على المميزات الفردية ولا يقيم للصفوة الممتازة أي وزن في التأثير على سير الأحداث عدا ما يتمتع به سائر الناس ويقول:

«هناك غلطة أخرى تعزى إلى اضطراب الآراء فيما يتعلق بالانسان والفرد تلك هي المساواة الديمقراطية. إن هذا المذهب يتهاوى الآن تحت ضربات تجارب الشعوب ومن ثم فإنه ليس من الضروري التمسك بزيفه، إلا أن نجاح الديمقراطية قد جعل عمرها يطول إلى أن يدعو للدهشة فكيف استطاعت الانسانية أن تقبل مثل هذا المذهب لمثل هذه السنوات الطويلة؟.

إن مذهب الديمقراطية لا يحفل بتكوين أجسامنا وشعورنا. انه لا يصلح للتطبيق على المادة الصلبة وهي الفرد. صحيح أن الناس متساوون ولكن الأفراد ليسوا متساوين فتساوي حقوقهم وهم من الأوهام ومن ثم يجب ألا يتساوى ضعيف العقل مع الرجل العبقري أمام القانون.. ومن خطل الرأي أن يعطو (أي الأغبياء) قوة الانتخاب نفسها التي تعطى للأفراد مكتملي النمو. كذلك فإن الجنسين لا يتساويان فإهمال انعدام المساواة أمر خطير جداً. لقد ساهم مبدأ الديمقراطية في انهيار الحضارة بمعارضة نمو الشخص الممتاز.. ولما كان من المستحيل الارتفاع بالطبقات الدنيا فقد كانت الوسيلة الوحيدة

لتحقيق المساواة الديمقراطية بين الناس هي الانخفاض بالجميع إلى المستوى الأدنى وهكذا اختفت الشخصية»[٤٣].

ويؤيد رأيه هذا ما يقع فعلاً في الدول الديمقراطية عند الاقتراع على قضية إقتصادية مثلاً، حيث يكون نصيب عالم الاقتصاد الضليع صوتاً واحداً فقط وهو ما يحصل عليه الفرد المتوسط أو الجاهل. وغالباً ما تكون النتيجة في غير صالح الأفراد الممتازين بسبب انسياق عامة الشعب وراء عواطفهم وخضوعهم للتضليل الدعائي.

٧ ــ **تعارض المصلحة الذاتية للفرد والجماعة**: هذا العيب يلقي ضوءاً على المحك الذي يظهر حقيقة أي نظام أرضي بشري فالديمقراطية تدعي أنها النظام الأمثل لتحقيق المصلحة الفردية والجماعية بإتاحتها الفرصة للحصول عليها بطريقة قانونية.

لكن المشكلة تكمن في تعارض مصلحة الفرد ذاته ــ وكذلك الجماعة ــ بين اتخاذ هذا القرار أو ضده إذ هو لا يستطيع التوفيق بين مطالبه الخاصة. كما أنه لا يستطيع التيقين من كونه نتيجة القرار ستحقق هذه المطالب أو تنفيها.

ولنأخذ مسألة رفع الأجور مثلاً لذلك:

تطالب نقابات العمال دائماً برفع الأجور ــ لكي تكسب أصواتهم ــ وهي إذ تطالب بذلك تعلم يقيناً أن رفعها يحقق للعمال مصلحة من جهة لكنه يفوتها من جهة أخرى لأنه يكون مصحوباً بارتفاع الأسعار.

ومن ناحية أخرى يقول «بيكر» في سياق نقده لأسلوب التمثيل:

«إن الناس جميعاً لهم مصالح كثيرة متعددة حيث لا يمكن لجانب

(٤٣) الإنسان ذلك المجهول: ٣٠٦ ــ ٣٠٧.

منها أن ينمو ويطرد إلا بسن تشريع يحقق هذا الغرض ولكن هذا التشريع يسن على حساب الأخرين فالزراع والعمال مثلاً هم المنتجون والمستهلكون في وقت معاً فهم كمنتجين يتطلعون إلى أسعار أعلى من تلك التي يبيعون بها منتجاتهم ولكنهم كمستهلكين يتطلعون إلى أسعار أقل من تلك التي يشترون بها حاجياتهم»[٤٤].

* * *

هذه بعض العيوب التي لاحظها الكتاب الديمقراطيون على الديمقراطية في المبدأ والتطبيق وقد حاول كاتبان فرنسيان صياغتها في عبارات موجزة فكان مما استنتجاه:

١ ـ «الصراعات الدائمة بين الأحزاب المنقسمة على بعضها.

٢ ـ «الحكومات التي لم يتجاوز متوسط بقائها في الحكم طيلة نصف قرن ثمانية أشهر.

٣ ـ المنافسات الحمقاء بين المواطنين.

٤ ـ عدم وجود سياسة متجانسة لمدى طويل.

٥ ـ البطء الشديد في تقدم مستوى حياة الجماهير: سياسة الاسكان، عدم كفاية التربية المدنية والاقتصادية والاجتماعية»[٤٥].

وملاحظة هذه المساوىء هي التي دفعت بالكاتب الانجليزي «أ. د. لندساس» إلى القول:

«إن هناك دائماً هوة رهيبة بين النظريات الرفيعة عن الديمقراطية

(٤٤) السبيل إلى عالم أفضل: ١٠٢.

(٤٥) بوسكيه، فاتييه: الإنسان في المجتمع المعاصر: ١٦٠ (الترقيم مضاف).

التي نقرأ عنها في كتب النظريات السياسية وبين وقائع السياسة الفعلية»[٤٦].

ومع أن كل هذه الانتقادات لم تنفذ إلى لب المشكلة وأساسها المتمثل في الحكم بغير ما أنزل الله وعبادة الأهواء والشهوات من دونه فإنها ترشد إلى فداحة الخطب وشناعة الغلطة التي وقع فيها المجتمع الغربي بتنكره للحق وتمرده على الله استكباراً وغروراً.

ونحن إن شاء الله سنناقش الموضوع من أساسه العميق في الباب الخامس.

* * *

ثانياً ــ النظام الشيوعي:

إذا كانت الرأسمالية ومعها الأفكار الديمقراطية قد ولدت لتكون رد فعل لمساوىء الاقطاع فإن أقرب تفسير للشيوعية هو أنها رد فعل لمساوىء الرأسمالية.

ومع أن الشيوعية تعتقد أنها اكتشفت القانون العلمي لحركة التاريخ والحياة وهو مبدأ الديالكتيك ــ الجدلية ــ وآمنت به إيماناً مطلقاً فإن تصورها للدولة لا يتفق مع هذا القانون، وأشبه شيء بدولة المستقبل كما حلم بها فلاسفة الشيوعية هي نظرية «يوتوبيا» الخيالية فالنظرية الشيوعية تؤمن بحتمية اضمحلال جهاز الدولة عندما تبلغ البشرية مرحلة أكثر تطبيقاً وتشبعاً بالأفكار الشيوعية. ومعنى ذلك أنه سيأتي اليوم الذي يتوقف فيه الصراع بين المتناقضات إلى الأبد وهو ما لا يقره قانون الجدلية!

---

(٤٦) الإنسان والعلاقات البشرية.

أما الدولة الشيوعية المعاصرة فهي ــ وإن كانت مؤقتة ــ مرحلةٌ ضرورية وتتمثل فيها النظرية الشيوعية الملائمة لطبيعتها المرحلية.

وترى الدولة الشيوعية أنها دولة ديمقراطية شعبية. حسب التعريف الخاص الذي يقدمه الشيوعيون للديمقراطية وهو أنها «شكل سياسي لمجتمع إشتراكي قائم على الملكية العامة لوسائل الانتاج مخطط ومتحرر من الاستغلال»[٤٧].

وتؤمن الشيوعية بمبدأ سيادة الطبقة العاملة أو ما تسميه «دكتاتورية البروليتاريا» مقابل دكتاتورية الرأسماليين في الديمقراطية الليبرالية.

وتتميز الدولة الشيوعية بالتزامها المطلق بالنظرية كعقيدة شمولية تشمل التصور العام للوجود وتقدم الحلول والتفسيرات لكل نشاطات الحياة ومجالاتها العامة وذلك يربطها جميعاً بالعامل الوحيد المؤثر في الحياة وهو العامل الاقتصادي وبصفة خاصة «ملكية وسائل الانتاج».

ومن هنا ينبغي النظر إلى الدولة الشيوعية على أنها وجه إقتصادي يشمل السلطة التشريعية والجهاز التنفيذي وتقع سلطته المطلقة في يد الحزب الشيوعي. «والحزب الشيوعي يعتبر نفسه تجسيداً لإرادة العمال والفلاحين وهو بهذه الصفة أصدق طريق للتعبير عن إرادة الشعب والجهاز الرسمي للدولة يشمل أجهزة معقدة لتنفيذ إرادة السيادة كما يعبر عنها الحزب الشيوعي».

ويعتقد الحزب أنه هو الشعب على الحقيقة «ولهذا فله السلطة الكاملة الشاملة في وضع السياسات الداخلية والخارجية وتقرير صحة

---

(٤٧) تاريخ البشرية ٦/٢، ٢: ٢٤٧ اليونسكو.

النظريات والتوجيه للاستراتيجية السياسية وقيادة كل جهاز في الدولة والاشراف عليه»(٤٨).

ويقول أحد الكتاب الشيوعيين «إن وضع قيادة البلاد في يد مثل هذه القوة المنظمة الهادفة ـ وهي الحزب الشيوعي ـ يطبع المجتمع كله بطابع موحد وهذا ينجح في مقاومة محاولات التدخل من الخارج ويحل مشكلات كبرى بروح المثل الشيوعي»(٤٩). تلك هي ملامح «الديمقراطية الشعبية» التي يهتف لها زعماء الشيوعية وكتابها ويبالغون في إطرائها وتمجيدها. . !

فما رصيد هذه الديمقراطية الفريدة من الحق والعدل؟ وما هي إيجابياتها ومنجزاتها؟ وما مقدار سلامتها من عيوب نظيرتها «ديمقراطية الرأسماليين». ؟

إن الواقع المشاهد الذي لا يحتاج إلى دليل خارجي هو أن أنظمة الحكم «الشيوعية الديمقراطية الشعبية!» هي أبشع أنواع الأنظمة الاستبدادية «الدكتاتوريات» في التاريخ. وأن الدول الشيوعية المعاصرة هي في الواقع أشبه شيء بمعتقلات فسيحة زبانيتها أعضاء الحزب الشيوعي ونزلاؤها الشعب بكامله. وما الستار الحديدي الذي ضربته هذه الدول لاخفاء تلك الحقيقة إلا واحداً من الأدلة الفاضحة عليها. وهذا ليس حكمًا نصدره من عند أنفسنا ولا هو برأي نقلناه عن كُتّاب مناهضين للشيوعية ولكنه شيء من وصف زعماء سياسيين وصل بعضهم إلى مرتبة «نائب رئيس» دولة شيوعية والآخرون كانوا في مرتبة «عضو» بالحزب الشيوعي للمستويين القطري والدولي.

كما أن الحقيقة أظهرها مفكرون بارزون في الغرب دفعتهم

---

(٤٨) المصدر السابق: ٢٣٧.

(٤٩) من تعقيب كتبه «بوفين» المصدر السابق: ٣٥٤.

مساوىء المجتمع الديمقراطي الرأسمالي إلى اعتناق الشيوعية والدفاع المتحمس عنها فلما انجلت لهم الحقيقة المرة ارتدوا عنها إلى غير بديل.

فمثلاً ميلوفان دجيلاس النائب السابق لرئيس يوغسلافيا يقسم المراحل التي مر بها الحكم الشيوعي إلى ثلاث:

١ ـ حكم ثوري فردي ديكتاتوري «لينين».

٢ ـ حكم عقائدي فردي إرهابي «ستالين».

٣ ـ حكم سياسي (غير عقائدي) جماعي بيروقراطي «خروتشوف فصاعداً».

ويقول عن الانتخابات الشيوعية: «إنها سباق يعدو فيه حصان واحد». ويقول عن الأحزاب الشيوعية «لقد أكدت هذه الطبقة الجديدة أنها أكثر تسلطاً في الحكم من أية طبقة أخرى ظهرت على مسرح التاريخ. كما أثبتت في الوقت نفسه أنها تحمل أعظم الأوهام وأنها تكرس أعتى أساليب الظلم في مجتمع طبقي جديد»[٥٠].

ويقارن بين القوانين المعلنة وغير المعلنة قائلاً:

«إن كافة المواطنين يدركون أن الحكومة هي في أيدي اللجان الحزبية وتحت رقابة البوليس السري. وبالرغم من أن دور الحزب الشيوعي في الشؤون الادارية غير معلن فإن سلطته مكرسة في كافة المؤسسات والمنظمات والقطاعات. كما أنه في الوقت نفسه ـ ليس هناك أي قانون يعطي البوليس السري الحق في رقابة المواطنين ومع ذلك فإنه يتمتع بمطلق الصلاحيات، ومع أنه ليس هناك أي نص قانوني يقضي بضرورة إشراف البوليس السري واللجان الحزبية على

---

(٥٠) الطبقة الجديدة (٧٤ ـ ٧٥، ١٣١، ٥٤) على التوالي.

السلك القضائي إلا أن هاتين القوتين الغاشمتين تقومان بالاشراف والهيمنة الفعلية على ذلك السلك»(٥١).

أما أرثر كوستلر ــ العضو السابق في الحزب الشيوعي والكاتب الروائي البارز ــ فيقول: «إن الكومنترن يتاجر في العناوين والشعارات كما يتاجر مروجو الخمور الممنوعة في أنواعها الزائفة المقلدة وكلما كان العميل أقرب إلى السذاجة سهل عليه أن يصبح ضحية لأنواع الخمور الفكرية التي تباع تحت عناوين «السلام» و«الديمقراطية» و«التقدم» وما شئت من هذه الأسماء»(٥٢).

ويتحدث أندريه جيد بعد رجوعه عن الشيوعية قائلاً:

«إن الناس في روسيا الآن يطلب منهم الموافقة والمصادقة على كل ما تفعله الحكومة أما أقل معارضة أو نقل فإنها تعرض صاحبها لأقسى العقوبات بالاضافة إلى إخماد هذه المعارضة وطمسها. إن أحسن الناس سجلاً في هذا السلم الاجتماعي الجديد من أسفله إلى أعلاه هم أكثرهم ذلة وعبودية. أما أولئك الذين تبرز منهم أية ناحية استقلالية فإنهم يحصدون أو ينفون. ولن نلبث حتى نرى أن هذا الجنس الباسل الذي استحق عن جدارة كل حبنا وإعجابنا لم يبق منه إلا النفعيون والجلادون والضحايا. لقد أصبح العامل الصغير صاحب الرأي الحر كالحيوان المطارد يلقى الجوع والتحطيم ثم الهلاك. إنني أسائل نفسي: هل هناك دولة أخرى في العالم ــ بما في ذلك المانيا في عهد هتلر ــ قد كان العقل فيها والروح أقل حرية وأكثر ذلة واستعباداً أو جبناً أو خوفاً منها في الاتحاد السوفيتي؟(٥٣).

---

(٥١) المصدر السابق: ١٠٠.

(٥٢) الصنم الذي هوى: ٩٠.

(٥٣) المصدر السابق: ٢٢٨.

ويصف لويس فيشر ـ الذي عانى التجربة نفسها مع الشيوعية ـ المسخ الفكري هناك بقوله: «ضاعت كل مقاييس الحكم الثابتة ولم يعد أحد يدري ماذا يعتنق وماذا يرفض. وقد لا يأتي المساء حتى يعلن عن ملائكة هذا الصباح أنهم شياطين، إن التشويش العقلي الذي ينتج عن هذا أفضى إلى النفاق وإلى التقبل الآلي والتلقائي لكل وحي جديد قد يأتي من سماء الكرملين فهنا على الأقل يجد الانسان الحد الأدنى من السلامة والأمن لنفسه»[٥٤].

وكان من المخدوعين بالديمقراطية الشيوعية «برتراند رسل» الذي اكتشف الحقيقة فكتب مناقضاً لهذه الدعوى:

«إن الطبقة العاملة في روسيا في سنة ١٩١٧» كانت أقلية ضئيلة بين السكان وكانت الأغلبية الساحقة من الفلاحين. فتقرر عندئذ أن يكون الحزب البلشفي هو ذلك الجزء من الطبقة العاملة الذي يتمتع بالوعي الطبقي وأن لجنة صغيرة من زعمائه هم الذين يعدون الجزء الواعي طبقياً بين الحزب البلشفي. وهكذا صارت دكتاتورية العمال دكتاتورية اللجنة الصغيرة ثم انتهى الأمر بأن أصبحت دكتاتورية رجل واحد هو ستالين وإذ زعم أنه الوحيد ذو الوعي الطبقي بين طبقة العمال أخذ يحكم بإعدام الملايين من الفلاحين جوعاً ويحكم على ملايين غيرهم بالسخرة في معسكرات الاعتقال...[٥٥].

ولعل خير ما نختم به موضوع الواقع المعاصر للأنظمة العالمية التي تحكم بغير ما أنزل الله هو العبارة اليائسة التي قالها لويس فيشر:

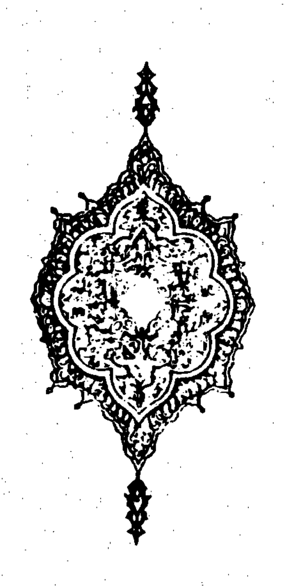
«بعض الناس يقض مضاجعهم ما يقترفه العالم الرأسمالي من

---

(٥٤) المصدر السابق: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٥٥) العقل والمادة: ٣٠٢.

جرائم وآثام فيظلون عمياً لا يرون جرائم البلشفية وإفلاسها وكثير منهم يستغلون نقائض العالم الغربي ليصرفوا الانتباه عن فظائع موسكو البشعة. أما أنا فأقول: لعن الله كليهما»![٥٦].



(٥٦) الصنم الذي هوى: ٢٧٤.

الفصل الثاني

علمانية الاقتصاد

«الاقتصاد» هو الإله الأكبر للجاهلية الأوروبية المعاصرة دون منازع! والجاهلية الأوروبية، مثلها مثل أي جاهلية في التاريخ لا تنتهج خطاً وسطاً متزناً، بل تتحكم فيها ردود الفعل وتتسم تصرفاتها بالغلو والتطرف والاندفاع فليس طريق الحياة الاوروبية إلا خطاً متذبذباً من أقصى اليمن إلى أقصى اليسار. ولا تستطيع الجاهلية الأوروبية أن تنظر إلى أي شيء إلا من خلال منظار له عدستان متقابلتان: إحداهما تكبر كل شيء عن حجمه الحقيقي، والأخرى تصغره عن حجمه الحقيقي وبين هاتين تضيع الرؤ ية الحقيقية.

وهذه الظاهرة تتجلى في كل ناحية من نواحي الحياة، وربما كانت في «الاقتصاد» أكثر تجلياً .. كانت أوروبا تحتقر الحياة الدنيا وتزدري ما أحل الله من الطيبات، وتقدس الفقر والتقشف وتبارك البؤس والشقاء، لأن ذلك وسيلة للخلاص من الخطيئة وهو الغرض الوحيد من الوجود الإنساني[1].

ثم انقلب الأمر رأساً على عقب وتحولت أوروبا إلى وحش ضار، وهجمت بكل قواها على المتاع الحسي وتطلعت بكل حواسها إلى الشهوات الزائلة، تريد أن تلتهم كل متعة وتنتهب كل لذة حتى

(١) يراجع موضوع «الرهبانية» من الباب الأول ص ٨٦.

غرقت في الدنيا ونسيت الآخرة بل نبذتها نبذاً كاملاً. ليس هذا فحسب بل ان أوروبا عبدت، حقيقة لا مجازاً الانتاج المادي والطواغيت الذين يتحكمون فيه «الطبقة الرأسمالية أو الحزب الشيوعي» فالصورة التي لم تتغير هي صورة العبودية المذلة، وإنما تغير الطاغوت المعبود فأصبح الرأسمالي أو عضو الحزب بعد أن كان النبيل أو رجل الدين!

هذه العبودية المطلقة وذلك الاتجاه الكلي إلى المادية ــ فكراً وسلوكاً ــ هما اللذان يحددان موقف المجتمع الغربي المعاصر من الدين، وبهما تظهر الجاهلية المعاصرة مجردة عن كل زيف خالية من أي طلاء.

وما علينا إلا أن نتأمل مجرى التاريخ الاقتصادي الأوروبي وننعم النظر في نظرياته الكبرى من العصر الاقطاعي حتى الآن، وحينئذ لن نفاجأ بهذه الحقائق الواضحة.

أولاً ــ نظرية الكنيسة ونظام الإقطاع:

على الرغم من أن الكنيسة لم تحاول تغيير بنية المجتمع المسيحي أو تنظيم بعض مجالات الحياة على الأقل فقد كان لها أثر فعال في اقتصاد القرون الوسطى من الوجهة النظرية.

أقرت الكنيسة النظام الاقطاعي السائد بل أصبحت مؤسسة من مؤسساته الثابتة، وأقرت الاضطهاد الفظيع الذي كان يتعرض له أرقاء الأرض رغم تنافيه مع تعاليم الانجيل، ولكنها في مواقف أخرى كانت أكثر تشدداً لا سيما في مسألة «الربا». والواقع أن «الربا» جريمة تشترك في تحريمها كل الرسالات السماوية، وتحاربها الكتب المقدسة جميعها، وهي ظاهرة لها مغزاها العميق.

ويتحدث «ول ديورانت» عن ذلك فيقول:

«كانت العقيدة المسيحية في الربا أكبر العقبات في نمو النظام المصرفي وتقدمه»، «وكان جيروم يرى أن الكسب كله حرام، كما أن أوغسطين يرى أن جميع الأعمال المالية إثم لأنها تصرف الناس عن السعي للراحة الحقة أعني «الله» وكان البابا «ليو الأول» قد رفض هذه العقائد المتطرفة ولكن الكنيسة ظلت لا تعطف على التجارة، وترتاب في جميع أنواع المضاربات والمكاسب، وتعارض جميع صنوف «الاحتكار» و«الجبأ» و«الربا» وكان هذا اللفظ الأخير يطلق في العصور الوسطى على فائدة المال أياً كان قدرها وفي ذلك يقول أمبروز:

«الربا هو كل مال يضاف إلى رأس المال» وقد أدخل جرايتان هذا التعريف الجامد في القانون الكهنوتي الذي تسير عليه الكنيسة».

ثم إن «مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) جدد هذا التحريم وقرر أن الذين يجهرون بالربا لا يقبلون في العشاء الرباني وإذا ماتوا وهم على إثمهم لا يدفنون دفن المسيحيين وليس لقسيس أن يقبل صدقاتهم».

أما البابا جريجوري التاسع فقد قال «إن الربا هو كل مايناله الإنسان من كسب نظير قرض، وظل هذا الرأي قانون الكنيسة الرومانية حتى عام ١٩١٧ م» «وقد ظلت قرونا طوالا تظن أن جميع المرابين يهود».

«وظل تشريع الحكومات زمناً طويلاً يؤيد موقف الكنيسة في هذه الناحية وكانت المحاكم الدينية نفسها تحرم الربا، ولكن تبين أن حاجات التجارة أقوى أثراً من خشية السجن أو الجحيم».

«ثم ألغت معظم الدول الأوروبية بعد عام ١٤٠٠ ماوضعته

من قوانين لتحريم الربا ولم يكن تحريم الكنيسة إلا كلاماً مهملاً يتفق الناس جميعاً على إغفاله»[٢].

ويرى «جورج سول» أن الكنيسة كانت تحرم الربا لسبب نفعي بالإضافة إلى الدافع الديني، فيقول «سول»:

«هذا التأكيد بفساد الربا وشروره ليس فكرة مجردة فحسب، ولكنه كما هو الشأن بالنسبة إلى معظم المذاهب الأخرى البارزة في ذلك الحين وفي عصرنا هذا كان يحقق غرضاً هاماً حينذاك لأولئك الذين عملوا على ترويج الفكرة».

«لقد شعرت الكنيسة وحلفاؤها الاقطاعيون في العصور الوسطى ــ وبحق ــ أن ثمة خطراً يهدد سلامتهم وسلطانهم نتيجة نمو الرأسمالية، وإن لم يطلق عليها أحد هذه التسمية، إن استنكار الربا كان من الأغراض الدالة على أن وسائل جديدة في الإنتاج والتبادل بدأت تعمل على تقويض دعائم النظام الاقطاعي»[٣].

وعلى أية حال فإن اقتصاد القرون الوسطى لم يكن يستطيع التملص من اتباع التعاليم الكنسية التي كانت جزءاً من النظام الأخلاقي المسيحي، كما أنه كان ــ في الوقت نفسه ــ خاضعاً ومقيداً بالأعراف الاقطاعية السائدة، ولذلك كان حتماً أن ينهار بانهيار الكنيسة والاقطاع.

ولا شك أن الكنيسة ارتكبت خطأ فادحاً بإقرارها للواقع السيء وعدم وضع سياسة اقتصادية عامة وعادلة تستمد أصولها من الدين، كما أن سلوكها الذاتي وطغيانها المالي الفظيع قد جعلاها قدوة للظالمين، ومحط أنظار المقت والحقد من المظلومين.

---

(٢) قصة الحضارة: ١٥ مقتطفات من ١٠٤ ــ ١٠٨.

(٣) المذاهب الاقتصادية الكبرى: ٢٢ ــ ٢٣.

وإذا حاولنا تحديد النظرية العامة للكنيسة إجمالاً ـ مع استثناء مسألة الربا وملحقاتها ـ فإن أقرب وصف يفي بالمراد هو أنها نظرية «طبيعية إقطاعية» ومن اليسير إدراك أن هذه النظرية لم يكن لها منهج مستقل بل كانت تستمد من الأسس الأخلاقية العامة.

صورة مجملة لنظام الاقطاع:

إن النظام الذي هيمن على الحياة الأوروبية طوال القرون الوسطى وعاصر شباب المسيحية، وشكل بالاندماج معها ملامح القارة الأوروبية آنذاك هو نظام «الاقطاع». ونظام الاقطاع الأوروبي يأتي في طليعة الأنظمة الجاهلية التي لا ينفك عنها الظلم ولا ينفصم عنها الطغيان، والانسان في ظله مسلوب الإرادة مهدر الكرامة ضائع الحقوق.

والواقع أن الدول التي تتكون منها القارة الأوروبية لم تكن في الحقيقة إلا مجموعة من الاقطاعيات تخضع لملك أو امبراطور مركزي، جل همه أن يحصل على الضرائب والجنود من «السيد» مالك الاقطاعية، أما داخل الاقطاعية فكانت تبرز الصورة البشعة للنظام الاقطاعي.

ومع ملاحظة أن هذا النظام تختلف صوره باختلاف العصور والأقاليم فإن ملامحه العامة وجوهره الموحد يمكن أن يحصرا في تقسيم المجتمع طبقتين: إحداهما في قمة الترف والأخرى في حضيض العوز، وكل طبقة تتألف من طائفتين، فالطبقة العليا هي طائفتا: السادة الملاك ورجال الكنيسة، والطبقة الدنيا هي طائفتا: العبيد ورقيق الأرض، ومن هذه الأخيرة صغار القساوسة والزهاد من رجال الكنيسة.

أما حقوق وواجبات كل فرد من هذه الطبقات فكما يلي:

١ ــ **السيد المالك**: هو المسيطر الفعلي وصاحب النفوذ القوي في هذا النظام وقد كان يملك حقوقاً لا حصر لها في حين ليس عليه أي واجبات:

«كان من حقه أن يضرب رقيق أرضه أو أن يقتله في بعض الأماكن أو الأحوال دون أن يخشى عقابا... وكانت له في أملاكه كل السلطات القضائية والعسكرية، وكان يستفيد فوق ما يجب من الغرامات التي تفرضها محاكم الضيعة... وكان في وسع السيد الاقطاعي أن يمتلك أكثر من ضيعة واحدة... وقد يكون له قصر حصين في كل واحدة منها، وكان قصره يهدف إلى حماية سكانه أكثر مما يهدف إلى راحتهم... يحيط به خندق عميق عريض وسور متصل عال وأبواب حديدية وفي وسطه برج حجري دائري يسكن فيه السيد وأسرته، وكانت جدرانه الحجرية المنيعة عماد قوة الملاك ضد مستأجريهم وضد الملك.

«وكان الرجل الذي يمنعه كبرياؤه من أن يكون رقيق أرض، ولكنه أضعف من أن يعد لنفسه وسائل الدفاع العسكرية يؤدي مراسم الولاء لشريف إقطاعي يركع أمامه وهو أعزل عاري الرأس ويضع يديه في يدي الشريف ويعلن أنه رجل ذلك الشريف، ثم يقسم على بعض المخلفات المقدسة... أن يظل وفياً للسيد إلى آخر أيام حياته، ثم يرفعه السيد ويقبله»[4].

وكون الإنسان مالكاً نبيلاً لا يعتمد على جهوده الذاتية ولا هو مما يمكن اكتسابه فالنبيل يولد نبيلاً ويظل كذلك إلى الموت، والعبد يولد عبداً ويعيش حياته كلها في أغلال العبودية، أي أن المجتمع الاقطاعي

---

(٤) قصة الحضارة ١٤: ٤١٨ ــ ٤٢٤.

يقوم توزيع أعضائه على العامل الوراثي وحده، إلا إذا طرأ تبدل فجائي كامل على الحياة فينقطع لكنه يعود إلى التحكم فور استقرار الأوضاع.

٢ ـ **رجل الدين**: كان رجل الدين بسلطته الروحية سيداً إقطاعياً إلى حد ما، وكان يملك الاقطاعيات ويتحلى بالألقاب الاقطاعية ويورث مرتبته لذريته، وقد سبق الحديث عن ذلك[٥].

٣ ـ **العبد**: «أباحت الكنيسة استرقاق المسلمين والاوروبيين الذين لم يعتنقوا الدين المسيحي، وكان آلاف من الأسرى الصقالبة أو المسلمين يوزعون عبيداً على الأديرة... وكان القانون الكنسي يقدر ثروه أراضي الكنيسة في بعض الأحيان بعدد من فيها من العبيد لا بقدر ما تساوي من المال، فقد كان العبد يعد سلعة من السلع كما يعده القانون الزمني سواء بسواء، وحرم على عبيد الكنائس أن يوصوا لأحد بأملاكهم... وحرم البابا جريجوري الأول على العبيد أن يكونوا قساوسة، أو أن يتزوجوا من المسيحيات الحرائر... وكان القديس توماس أكونياس يفسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم»[٦] وإذا كان هذا هو نظر الكنيسة التي تنادي بالمحبة والرحمة فما بالك بمعاملة السيد «رجل الدنيا»! لعبيد إقطاعيته...؟

٤ ـ **رقيق الأرض**: لم يكن رقيق الأرض عبداً بمعنى الكلمة لكن حاله لا يختلف عن العبد في شيء، والفارق بينهما أن العبد ـ في الأصل ـ إما أسير مغلوب وإما مخالف للسيد في الدين أو الجنس أو المذهب، بعكس الرقيق الذي هو أصيل في الاقطاعية وينتمي إلى الدين والجنس اللذين ينتمي إليهما سيده.

---

(٥) الباب الثاني: الطغيان الكنسي ـ ماليا ص ١٣٨.

(٦) قصة الحضارة ١٤: ٤٠٦.

«والأصل في رقيق الأرض أنه رجل يفلح مساحة من الأرض يمتلكها سيد أو بارون وكان في وسع المالك أن يطرده متى شاء وكان من حقه في فرنسا أن يبيع الرقيق مستقلاً عن الأرض... أما في انجلترا فقد حرم من مغادرة الأرض، وكان الذين يفرون من أرقاء الأرض يعاد القبض عليهم بنفس الصرامة التي يعاد بها القبض على العبيد» وهذا الصنف هو الصنف الغالب في الاقطاعيات بل هو في الحقيقة يمثل مجموع سكان أوروبا تقريباً باستثناء النبلاء ورجال الدين. والمدهش حقاً هو تلك القائمة الطويلة من الواجبات التي يؤديها الرقيق للمالك عدا خضوعه المطلق لسلطته وارتباطه المحكم بإقطاعيته:

١ ـ ثلاث ضرائب نقدية في العام.
٢ ـ جزء من محصوله وماشيته.
٣ ـ العمل سخرة كثيراً من أيام السنة.
٤ ـ أجر على استعمال أدوات المالك في طعامه وشرابه.
٥ ـ أجر للسماح بصيد السمك أو الحيوان البري.
٦ ـ رسم إذا رفع قضية أمام محاكم المالك.
٧ ـ ينضم إلى فيلق المالك إذا نشبت حرب.
٨ ـ يفتدي سيده إذا أسر.
٩ ـ يقدم الهدايا لابن المالك إذا رقي لمرتبة الفرسان.
١٠ ـ ضريبة على كل سلعة يبيعها في السوق.
١١ ـ لا يبيع سلعة إلا بعد بيع سلعة المالك نفسها باسبوعين.
١٢ ـ يشتري بعض بضائع سيده وجوباً.
١٣ ـ غرامة إذا أرسل ابنه ليتعلم أو وهبه للكنيسة.
١٤ ـ ضريبة مع اذن المالك إذا تزوج هو أو أحد أبنائه من خارج الضيعة.

١٥ ـ حق «الليلة الأولى» وهي أن يقضي السيد مع عروس رقيقه الليلة الأولى. وكان يسمح له أحياناً أن يفتديها بأجر، وقد بقي بصورته هذه في بافاريا إلى القرن الثامن عشر.

١٦ ـ وراثة تركته بعد موته.

١٧ ـ ضريبة سنوية للكنيسة وضريبة تركات للقائد الذي يدافع عن المقاطعة[٧].

هذا هو نظام الاقطاع الذي قامت على أنقاضه الحياة اللادينية المعاصرة. ومهما عدد الباحثون من سيئاته ومظالمه فإن أعظمها أثراً في الحياة والفكر أمران:

١ ـ ارتباط النظام الاقطاعي بالدين:

من الوجهة التاريخية كان النظام الاقطاعي في عنفوان شبابه في الفترة نفسها التي كانت المسيحية فيها في أوج عظمتها، ثم كان انهيار النظام موازياً لانهيار الكنيسة، واستنتجت الجاهلية الحديثة من ذلك معادلة خاطئة هي:

إن المجتمع الاقطاعي طبقي ظالم لأنه متدين وإذن فزوال الظلم من المجتمع يستلزم نبذ الدين كلية أو على الأقل عزله عن التأثير في مجريات الأحداث! وتلك كانت نظرية الكتاب «الطبيعيين» الذين وضعوا نواة الفكر الرأسمالي الحديث.

وتطرفت الشيوعية فنسبت للدين دوراً إيجابياً في إرساء قواعد الظلم الاقطاعي بل حملت الدين كامل مسؤولية تأخر الوعي الطبقي وعرقلة جهود الطبقة الكادحة فلم تكتف بالقول بأن الدين يقر الظلم

(٧) مقتطفات منقولة عن فصل «الاقطاع» قصة الحضارة: ١٤/٤٠٣ ـ ٤٧. وانظر كذلك «حرب الفلاحين في المانيا» فردريك انجلز: ٢٦ ـ ٤٤.

ويوادعه بل جعلت الدين «أفيون الشعوب» الذي يشل حركتها النضالية ويعوقها عن المطالبة بحقوقها!

٢ ـ طابع الثبات المطلق:

كان النظام الاقطاعي نظاماً ثابتاً إلى درجة الجمود: ثابت التوزيع الاجتماعي، ثابت الحقوق والواجبات، ثابت الأخلاق والتقاليد، ثابت الأفكار والمعارف، ثابت الأحوال المعيشية. وكان ذلك مدعاة لأن يصطدم هذا النظام بسنة الله في الكون وفي سير التاريخ، فقد تزعزع هذا الثبات بالنهضة العلمية وحركة الاصلاح الديني ثم نسف من أساسه بانفجار قنبلة التطور سنة ١٨٥٩ كما سبق. وقد شبه كتاب «تاريخ البشرية» انتقال أوروبا من الثبات إلى التطور بسفينة كانت راسية في ميناء وادع ثم أبحرت في خضم صاخب إلى غاية مجهولة بغير خريطة[٨].

وهذان الأثران سيظهران بجلاء من خلال عرضنا للنظريات الاقتصادية وإن كانا في الواقع قد شملا جوانب الحياة الأخرى ومنها ما سبق عنه الحديث ومنها ما سيأتي بإذن الله.

---

(٨) انظر الكتاب المذكور: ١/٢/٦، ص ٢٤ ـ ٢٥.

ثانياً ــ المذاهب الإقتصادية اللادينية:

١ ــ المذهب الطبيعي «الفيزيوقراطي»:

كانت المسألة الإقتصادية من أبرز المشكلات التي تصدى لها فلاسفة ومفكرو «عصر التنوير» ــ كما يسمى ــ في القرن الثامن عشر، وهو العصر الذي بدأت فيه العلوم والآداب تستقل عن المؤثرات الدينية بدرجة ملحوظة.

في ذلك العصر أخذت اوروبا الهاربة من نير الاقطاع وأغلال الكنيسة تبحث عن أنظمة ومناهج جديدة متحررة من التلازم التقليدي بين الشؤون الحيوية العامة وبين القواعد الأخلاقية الذي كان منهج القرون الوسطى.

وكانت الجفوة العميقة بين العلم والدين ــ التي مر الحديث عنها سلفاً ــ أبرز العوامل في انفصال النظريات الإقتصادية وغيرها عن المثل والقيم الدينية، وولادة الإله الذي عبده عصر التنوير بسذاجة متناهية: «الطبيعة».

كان لكل زاوية من زوايا الحياة مذهبها «الطبيعي» وكتابها «الطبيعيون»:

ففي السياسة عرفنا كيف قامت الديمقراطية على أسس «المذهب

الطبيعي» وفي العلم والفلسفة حلت كلمة «الطبيعة» محل لفظ الجلالة، وهو إجراء ليس المقصود به التغيير اللفظي فحسب! وفي الشؤون الإجتماعية ظهر كتاب يرون أن المجتمع «الطبيعي» هو المجتمع المثالي الذي يجب أن تعود إليه البشرية، وفي الأخلاق ظهرت فكرة الأخلاق «الطبيعية» بل لقد كتب فلاسفة كبار عن موضوع «الدين الطبيعي»! ولعل أوضح تطبيقات المذهب الطبيعي يظهر في الموضوع الذي نحن بصدده وهو «الإقتصاد».

يستعرض مؤلف كتاب «المذاهب الإقتصادية الكبرى» تاريخ هذا المذهب عموماً فيقول:

«اعتمد الناس خلال القرون التي خلت... على القدامى من امثال أرسطو وآباء الكنيسة يلتمسون عندهم المعرفة بشأن العالم الخارج عن دائرة مايعيشون فيه، وكفاهم أن يعودوا إلى أولئك الأئمة ليستخلصوا من كتاباتهم تفسيراً لأي ظاهرة. وحل المنطق الاستنباطي محل دقة الملاحظة وعمق النظرية والتجربة.

«غير أن نفراً من ذوي العقول أخذوا يكتسبون معرفة جديدة أكثر دقة وذلك عن طريق دراسة الطبيعة ذاتها في تواضع وبالأسلوب الموضوعي. فالإدراك بأن الأرض ليست مركز العالم بل تدور حول الشمس، والكشف الذي اهتدى إليه هارفي بشأن الدورة الدموية[٩] والنظريات التي طلع بها نيوتن عن الجاذبية والحركة، كل هذه أعقبتها عشرات من الملاحظات لها مغزاها وأهميتها وإن كانت أقل شأناً ودرجة.

«فإذا كانت المصادر القديمة قد أخطأت في نظراتها إلى العالم الطبيعي أما كانت كذلك مخطئة في نظراتها إلى السلوك البشري؟

«أصبح كل شيء موضع التساؤل والشك وعلى ذلك سمي العلم فلسفة، ولم يعد هناك تمييز بين الميادين التي عني كل منهما بفحصه، وأخذ الكتاب والمتفلسفون يعيدون البحث في النظم البشرية تماماً كما كانوا يفعلون بالنسبة إلى الأشياء غير البشرية، وهم في تصرفهم هذا كانوا يسلمون بأن الإنسان جزء من الطبيعة وليس كائناً منفصلاً عن بقية المخلوقات أوجدته العناية الإلهية وتولت رعايته.

«وأصبح البحث ينصب على تفسير النتائج والأسباب بالنسبة إلى السلوك انبشري سواء أكان مرغوباً فيها أم غير مرغوب عن طريق قوانين الطبيعية بدلاً من البحث عنها في إرادة الله، كما قالت الكتب المقدسة أو المذاهب الكنسية. ومعنى هذا ـ بتعبير آخر ـ أن علينا أن نسترشد في أعمالنا وتصرفاتنا بالعقل دون سلطة القدامى وآرائهم»[١٠].

إذن فقد كان عصر التنوير يرفض بصراحة الحكم بما أنزل الله، والرجوع إلى الله في تنظيم حياته العامة، أو على الأقل كان كما يقول بعض فلاسفته ـ يريد الرجوع تحت إسم مستعار هو الطبيعة، ومن طريق آخر غيرطريق الوحي والكنيسة، وهو «القانون الطبيعي».

أما أثر هذا المذهب على الإقتصاد خاصة فيوضحه «سول» بقوله:

«سيطرت فكرة الأخرة على المذاهب السائدة خلال العصور الوسطى، وإن لم تسيطر على العادات والتقاليد، فالمجال الدنيوي بما

---

(٩) هذا الكشف وكثير من الكشوف غيره كانت جديدة بالنسبة لأوروبا وحدها. يراجع على سبيل المثال «شمس الله تسطع على الغرب» زيغريد هونكه.

(١٠) جورج سول: ٤٩ ـ ٥٠.

فيه الحياة الإنسانية نفسها ليس سوى مكان يستعد فيه الناس للحياة بعد الموت بما تشتمل عليه من ثواب وعقاب، فكان على المرء أن يتحمل الألم وهو عالم أنه ليس إلاّ مقدمة لما يتوقع في حياة مستقبله. أما الدافع الفكري على تقويم العادات الإجتماعية أو زيادة الرفاهية الدنيوية فكان ضئيلاً أللهم إلاّ من حيث الفائدة الروحية التي يمكن اجتناؤها.

«والآن تحول الاهتمام فأصبح محصوراً في تحسين الحياة على الأرض وكشفت العلوم والمخترعات عن إمكانيات الأرض لذاتها، لقد كانت المكاسب المادية ظاهرة في كل شيء وكان لا حد لها من حيث وجود أساليب أفضل وأيسر لإنتاج الأشياء، وسرت روح المغامرة.

«وهنا برز السؤال التالي: أليس في وسع الفلسفة أن تعالج النظم البشرية بنفس الطريقة التي تدرس بها الأشياء المادية؟».

«وكان الجواب بالإمكان، ذلك أن المطلوب إنما هو تطبيق العقل على الأساليب التي يستخدمها الناس كيما يعيشون (كذا) معاً وراح الكثيرون يصوغون الخطط والمشروعات التي تكفل قيام الحياة المثالية أو اليوتوبيا.

«وصار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة، أما الذين ظلوا على استمساكهم بالدين ولو باللسان ــ وإن لم يكن في الواقع كما هو أغلبهم ــ فقد اعتقدوا أن الله يعبر عن إرادته عن طريق الطبيعة وقوانينها وليس بوسيلة مباشرة. وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شيء له وجود فحسب وإنما هو شيء ينبغي أن يطاع وصارت مخالفتها دليلاً على نقص في التقوى والأخلاق»[11].

---

(١١) المصدر السابق: ٥٠، ٥١.

وتعددت وجهات نظر الفلاسفة الطبيعيين بشأن تنظيم المجتمع لا سيما من ناحية توزيع الثروة بطريقة عادلة إلا أن الجامع المشترك بينهم في ذلك هو الفكرة التي سلفت في الفصل السابق وهي «حرية العمل» التي يعبر عنها شعارهم المعروف «دعه يعمل، دعه يمر» أو «دع الأمور وحدها تسير فالطبيعة كفيلة بالتوازن».

وكانت بقايا النظام الاقطاعي في الواقع، مع شبحه الماثل في نفوسهم سبب مناداتهم بهذه الشعارات واعتقادهم أنها أنجع الحلول لمشكلة الظلم الاجتماعي الناجمة عن سوء توزيع الثروة.

أما الأساس العلمي الذي توهموا أنهم أقاموا عليه صرح مذهبهم فهو نظرية «نيوتن» عن الأجرام السماوية وقوانين الحركة الطبيعية، فكما أن للنجوم والكواكب قانونها الطبيعي الذي يحدد لكل منها مساره الخاص دون أن يحدث بينها أي اصطدام على الإطلاق فكذلك ــ في نظرهم ــ لو ترك الناس إلى طبيعتهم ولم يفرض عليهم قوانين خارجية لانتظمت أحوالهم وسارت وفق القانون الطبيعي الذي يكفل تطبيقه الحياةالمثالية للمجتمع والأفراد دون تعارض واضطراب، وقد عرفنا في الفصل السابق كيف استغلت الطبقة المتوسطة المكونة من رجال المصارف وأصحاب المصانع المذهب الطبيعي لكي تظفر باليد العاملة التي كانت حكراً على ملاك الإقطاعيات، ولتضمن حماية الدولة لممتلكاتها، لأن ذلك هو «قانون الطبيعة».

وقد عبر «راندال» عن ذلك بقوله:

«هكذا كان هذا العلم» أي علم الاقتصاد السياسي «يبدو في الظاهر محاولة مجردة عن المصلحة، للوصول إلى فيزياء اجتماعية للثروة، لكنه كان في الحقيقة تبريراً منظمًا للمطالب التي تهدف إلى

زيادة حرية جمع المال تستعين بالعلوم الحديدة البشرية والطبيعية»[١٢]

٢ ـ المذهب الرأسمالي الكلاسيكي:

ليس هذا المذهب في الحقيقة إلاّ تطويراً للمذهب الطبيعي اقتضته الظروف الطارئة والتغيرات الإقتصادية والإجتماعية.

وكان الغرض المنطقي أن يكون هذا المذهب أكثر سماحة واعتدالاً في معاملة الطبقة الفقيرة وأن يشتمل على خطط ومناهج إصلاحية تكفل إلى جانب امتيازات الأثرياء حقوقاً منصفة للفقراء.

لكن الذي حصل فعلاً هو عكس ذلك تماماً، فقد دعا زعماء هذا المذهب بكل صراحة إلى الجشع والإستغلال، وبرروا الوسائل غير الإنسانية التي كانت الطبقة الغنية تمارسها على المعدمين، ولم يكن إلحاحهم الشديد على حرية الفرد وحقه في العمل لمصلحته الذاتية إلاّ تأكيداً لحرية المحتكرين من أرباب المصانع والتجار والصيارفة.

كان المذهب الطبيعي ينسب للأرض القيمة الإقتصادية الكبرى، فأعطى المذهب الكلاسيكي هذه القيمة للعمل، وليس مرد ذلك إلى الإنتقال من العصر الزراعي إلى العصر الصناعي فحسب، بل إنه ليعبر عن رغبات الطبقة الجديدة التي تريد أن تفرض نفوذها المالي على المجتمع وتستأثر بالعمال الذين كانت غالبيتهم تعمل في الزراعة.

وتحت ستار التظاهر بالبحث عن أفضل السبل لتحقيق رفاهية المجتمع وتقدمه، وبناء قواعده على أسس علمية، كان دعاة المذهب يحملون نزعة لا أخلاقية لم يكن في وسعهم التكتم عليها، فقد

(١٢) تكوين العقل الحديث ٢/٤٦٨

ظهرت في مؤلفاتهم الشهيرة التي يعدها العالم الرأسمالي اليوم أعز تراثه عليه ــ وإن كان قد حور وطور كثيراً من نظرياتها واستبعد الباقي.

وأشهر الرأسماليين الكلاسيكيين «آدم سميث» و«مالتس» و«ريكاردو» إذ على أكتافهم نهض المذهب الفردي الرأسمالي وترعرع. وهذه خلاصة لمذهب كل منهم وآثاره العملية:

(أ) آدم سميث (١٧٩٠):

أما آدم سميث فهو فيلسوف الإستعمار وكاهن الرأسمالية الأكبر، وكتابه «ثروة الأمم» أهم المؤلفات الإقتصادية وأبعدها أثراً. يقول «روبرت داونز» في مؤلفه «كتب غيرت وجه العالم»:

«النظرية الأساسية في كتاب «ثروة الأمم» نظرية ذات نزعة مكيافللية، وهي أن العامل الأول في نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية، وأن العمل على جمع الثروة ما هو إلّا مظهر من مظاهرها، وبذلك قرر أن الأنانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشري، وصارح الناس باعتقاده أنها ليست صفات ممقوتة يجب الابتعاد عنها، وإنما هي على العكس عوامل تحمل الخير إلى المجتمع برمته، وفي رأيه أنه إذا أريد توفير الرفاهية للأمة فلا بد من ترك كل فرد يستغل أقصى إمكانياته لتحسين مركزه بشكل ثابت منظم دون تقييد بأي قيد. فللحصول على غذائنا لا نعتمد على كرم الخمار أو الخباز أو الجزار، وإنما هم يقدمونه لنا بدافع من مصلحتهم الشخصية، وإنا عندما نخاطبهم لا نتجه إلى ما فيهم من دوافع إنسانية وإنما نتجه إلى مصلحتهم المادية ولا نكلمهم عن احتياجاتنا بل عما يعود عليهم من نفع وفائدة»[١٣].

---

(١٣) ص ٧٣

آثار مذهبه:

على الرغم من هذه الروح غير الأخلاقية حظي سمث وكتابه بشهرة واسعة لا يضاهيها أي من المعاصرين له، ومنحه المفكرون والكتاب لقب «أبو الإقتصاد العصري». وليس سبب ذلك إلّا الخدمة التي أسداها سمث لرجال الأعمال الرأسماليين، والوسائل التي نبههم لاستعمالها في الوقت الذي أسقط فيه حساب الجموع الغفيرة من الزراعيين والعمال الذين يكابدون البؤس والشقاء.

ولم يقتصر سمث على انجلترا ولا على اوروبا وحدها بل كان كتابه المذكور انجيلاً للمستعمرين الذين تدفقوا على قارات العالم الأخرى ينهبون خيراتها ويستعبدون شعوبها، حتى لقد عُدّ الفصل الذي يتحدث عن المستعمرات أشهر فصول الكتاب.

يقول «ماركس لرز»:

«كان أغلب الذين عنوا بقراءة ذلك الكتاب هم أولئك الذين أفادوا فائدة شخصية من الآراء التي وردت فيه، وهؤلاء هم التجار المحدثون وحلفاؤهم من الأعضاء في برلمانات العالم ولجانهم الثقافية التنفيذية في الجامعات، وعن طريق هؤلاء أثر الكتاب تأثيراً عظيمًا في جميع من يليهم من شعوب العالم رغم أنها لا تعلم شيئاً عن الكتاب ذاته، كما أنه عن طريقهم أيضاً أحدث آثاره الهائلة في التفكير الإقتصادي والسياسة العالمية»[١٤].

على أن سمث لم يسلم من المعارضين من ذوي الميول الدينية مثل «رسكن» الذي قال عنه:

---

(١٤) كتب عيرت وجه العالم ٨٧ ـ ٨٨

«إنه الاسكتلندي الغبي الهجين الذي يدعو الناس عامداً إلى ارتكاب التجديف في الدين بقوله «عليك أن تكره الـرب الملك، وتعصي وصاياه وتشتهي مال قريبك» كما لم يسلم ممن عارضه لأسباب إنسانية مثل كثير من أحرار المفكرين الذين «لم يغفروا لسمث قط أنه أداة في ذلك الاستغلال الدنيء الذي انتهجه رجال الأعمال وأصحاب المصانع إذ اتخذوا من مبدأ «حرية التجارة» وآرائه فيه منهجاً لهم في أعمالهم، فقد انتهز هؤلاء تلك الفرصة فشوهوا كل مبدأ دعا إليه لحماية العامل والزارع والمستهلك والمجتمع عامة، وفسروها على أنها إباحة مطلقة لمصلحتهم الشخصية، لا تتقيد بأي قيود أو تدخل من جانب الحكومة»[١٥].

(ب) مالتس (١٨٣٤):

لئن كان سمث أبا الرأسمالية فإن مالتس هو محاميها العظيم وإذا كان سمث قد اتخذ موقفاً سلبياً أو شبه سلبي من المعوزين والمهضومين فإن مالتس اتخذ حيالهم دوراً إيجابياً، لكنه ــ للأسف ــ ضدهم إلى أبعد الحدود.

ظهر في القرن الثامن عشر عدد من الكتاب المغرقين في التفاؤل من أمثال «كوندورسيه» و«جدوين» و«توماس بين» وشكلوا مدرسة اجتماعية طبيعية، تؤمن بأنه إذا تمتع كل فرد بما أسموه «حقوق الإنسان» وأزيلت الحواجز الإصطناعية التي تعوق ذلك فإن عصراً مزدهراً أو «يوتوبيا» حقيقية تنتظر البشرية، فالطبيعة حسب تعبيرهم ــ وفرت كل لوازم السعادة وهيأتها لبني البشر، وما عليهم إلَّا أن يحسنوا اقتسامها وتوزيعها.

---

(١٥) المصدر السابق: ٧٣، ٨٨.

لم ترق هذه النظرية لمالتس ذي النزعة التشاؤمية، وكانت معاصرته لهؤلاء الكتاب من أسباب تحمسه للرد عليهم، فنشر سنة ١٧٩٨ كتيباً بعنوان: «مقال في قواعد ازدياد السكان» أوضح فيه رأيه الصريح إزاء الموضوع.

يقول سول: «إن مذهب مالتس بسيط في جوهره، فالتكاثر إن لم يحده قيد فإنه يدعو إلى تزايد السكان وفقاً لمتوالية هندسية، في حين أن الزيادة في موارد الغذاء ليست بهذه السرعة أو انها ــ بعبارة أخرى ــ تسير حسب متوالية عددية»[١٦].

ولم يخف مالتس اعتراضه على حقوق الإنسان التي أعلنها «توماس بين» فقد رد عليه قائلاً: «إن رجلاً يولد في دنيا قد استولى عليها الناس من قبله، وتملكوا خيراتها ولم يجد العون الطبيعي من والديه، وما دام المجتمع في غنى عن خدماته، فهذا الرجل لا يستطيع أن يدعي لنفسه حقاً في كسرة خبز، ولا حق له في الوجود في هذا العالم، كما أنه انتقد البرنامج الذي وضعته الحكومة الانجليزية لإعانة الفقراء بقوله:

«إن قوانين الفقراء في انجلترا تؤدي إلى تفاقم حالة الفقراء عامة في ناحيتين:

الأولى: هي أنها تعمل على زيادة عددالسكان دون زيادة غلة الأرض لإعالتهم».

والثانية: ان كميات الحاجيات التي تستهلك في ملاجىء الفقراء

---

(١٦) المذاهب الاقتصادية الكبرى: ٧٣، والمتوالية الهندسية: ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢... والمتوالية العددية: ١، ٢، ٣، ٤... الخ،

وهم طبقة غير منتجة تقلل من الأنصبة التي كان يجب أن تعطى كاملة للطبقة العاملة»(١٧).

وهكذا حرم مالتس الإحسان تحريماً قاطعاً سواء أكان من الدولة أو من الأفراد، وذهب إلى «أن كل مشروع لتحسين حالة المجتمع سينتهي إلى كارثة» وقال إن على المجتمع أن يرفض تقديم الإحسان أو الإعانات إلى الأسر التي تعجز عن تدبير وسائل معيشتها»(١٨).

والمصيبة أن الذي يطرح هذه الأفكار ويطالب المجتمع بتطبيقها ليس رجلاً «علمانياً» ولكنه «رجل دين» بمرتبة «قسيس»، رجل دين يبرر سلوك طواغيت الرأسمالية ويحرم البر والإحسان إلى المنكوبين ويقول أن ذلك هو قانون الطبيعة الذي يعبر عن إرادة الله، إن في وسعنا أن نتصور الأثر البالغ والانعكاس الذي تتركه المفارقة العجيبة في ذهن الفرد العادي عن الدين ورجال الدين.

آثار مذهبه:

يقول داونز:

«قوبلت آراء مالتس بترحاب وتحمس إذ تلقفتها الطبقة المثرية وذوو السلطة في زمنه فرددوا وراءه القول بأن الفاقة الاجتماعية وغيرها من المساوىء الاجتماعية يصح إرجاعها الآن إلى أسباب الزواج المبكر وكثرة النسل، وليس لسوء توزيع الثروة في البلاد شأن في ذلك وبالتالي لا يقع عليهم أي لوم»(١٩).

(١٧) كتب غيرت وجه العالم: ٩٧، ٩٨.

(١٨) المصدر السابق: ٩٧ والمذاهب الاقتصادية الكبرى: ٧٤.

(١٩) كتب غيرت وجه العالم: ٩٨.

ويقول سول: «كان مذهب مالتس هذا يخدم مصالح أولئك الذين بالرغم من الأرباح الطائلة التي جنوها بفضل نمو الرأسمالية تعرضوا لهجوم عليهم بسبب سوء الحال التي كان عليها فريق كبير من العمال والأجراء.

«لقد قام مالتس بالدفاع اللازم حين أعلن أن شقاء الإنسان مرده إلى إغفال أحد القوانين الطبيعية (يعني قانون زيادة السكان) وإن تجاهل هذا القانون لن يؤدي إلى تحقيق أية منفعة اجتماعية في ظل أي نظام اقتصادي، وأن علاج الشقاء في يد هؤلاء التعساء أنفسهم وأن الالتزام الوكيد على الطبقات العليا من المجتمع ينحصر في تعريف الناس بالموقف الحقيقي.

«إن آراء مالتس هذه هي التي جعلت علم الاقتصاد يعرف باسم العلم القاتم النظرة»[٢٠]، والحق أن تقبل نظرية مالتس ومثلها نظرية سمث وأضرابها ليس إلّا جزءاً من ظاهرة فكرية اوروبية تستدعي الدهشة والعجب وتستوجب التعليل والتفسير: وهي ميل الفكر الاوروبي دائماً إلى اعتناق الأفكار الشاذة والنظريات اللاأخلاقية المتطرفة، على الرغم من وفرة الأفكار والنظريات الأقرب إلى الاعتدال والموضوعية.

وهذه الظاهرة رأيناها ــ في الفصل السابق ــ في «المكيافيللية» ثم هنا وسنراها في «الماركسية» ثم في «الفرويدية» وكذلك بعض الاتجاهات الأدبية.

وهذا ــ في نظرنا ــ يعود إلى مرض متأصل في النفسية الجاهلية

(٢٠) المذاهب الاقتصادية الكبرى: ٧٥.

أكثر من كونه نتيجة طبيعية للأوضاع الفكرية والإجتماعية غير الطبيعية.

وعلى أية حال فقد كان لمالتس آثاره في العلوم الاقتصادية والاجتماعية لا يزال بعضها مثار نزاع الباحثين، على أن أقوى أثر لمذهبه ــ جاء بطريقة عفوية ــ هو إيحاؤه بقانون الانتقاء الطبيعي الذي بنى عليه «داروين» مذهبه في تطور الكائنات الحية، وقد طغى هذا الأثر على غيره نظراً للإنقلاب الفكري الذي أحدثته نظرية التطور[٢١]. ومن ناحية أخرى يجزم «برتراند رسل» بأن «ماركس» سرق من مالتس نظريته في السكان[٢٢]،ويبدو أنه يعني بذلك الشعار الشيوعي المعروف «من لا يعمل لا يأكل» ــ في الوقت الذي تلعن الماركسية فيه مالتس عدو الطبقة الكادحة.

(ج) ريكاردو:

يعد دافيد ريكاردو القطب الثالث من أقطاب الفكر الإقتصادي الكلاسيكي، وكان يهودياً يملك شركة تحمل إسمه جعلته من كبار الأثرياء، ولما يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره[٢٣] وهنا ينبغي أن نقف قليلاً.

(إن الربا الذي هو عماد الرأسمالية ولب نظامها ليلازم اليهودي ملازمة الظل لأصله وقد تكون الكنيسة على حق حينما اعتقدت أن كل المرابين يهود ــ كما سلف قريباً ــ واليهود لا يأكلون الربا ويحتكرون ضروريات الناس بدافع شهوة الذهب ــ التي يشترك معهم فيها سائر

---

(٢١) انظر فصل «نظرية التطور» من الباب الثاني.

(٢٢) العقل والمادة: ٣٠١.

(٢٣) انظر موسوعة الهلال الاشتراكية: مادة ريكاردو.

البشر ـ فحسب، لكنهم يفعلون ذلك باعتباره واجباً دينياً يفرضه عليهم كتابهم المقدس «التلمود!» ضمن تعاليمه الصارمة تجاه الأميين.

من هذا المنطلق كانوا يتعاطون الربا الفاحش المشروط بأقسى الرهون كما في «تاجر البندقية» إلّا أن دورهم ظل محدوداً حتى قامت الثورتان العلمية والفرنسية مع حركة الإصلاح الديني، وابتدأ العصر الصناعي يمد ظله على القارة الاوروبية، عندئذٍ انتهز اليهود مرحلة التحول الإجتماعي والإقتصادي ليخرجوا من «الجيتو» ويحطموا الكنيسة والإقطاع:

الكنيسة لأنها عدوهم اللدود دينياً وكذلك اقتصادياً بسبب موقفها من الربا. والإقطاع لأن الملاك الإقطاعيين يستأثرون بحظ الأسد من الثروة لذلك كانوا محط حقد ومقت النفسية اليهودية الشرهة.

كما إن تحطيم المجتمع وتدمير بنيانه خطوة أولى نحو تحقيق هدفهم النهائي «استحمار البشرية». هذا التحول منحهم فرصة القيام بدور المنافس القوي للملاك الإقطاعيين، وذلك أن العهد الصناعي ابتدأ والمال محصور في يد طائفتين اثنتين هما:

الأولى: الملاك الإقطاعيون سواء أكانوا من رجال الكنيسة أم من غيرهم.

والأخرى: المرابون اليهود.

والصناعة تحتاج ـ بالدرجة الأولى ـ إلى الثروة لإدارة المشروعات الصناعية وتنميتها ثم يد عاملة لتنفيذها، فأما اليد العاملة فقد كان للمذهب الطبيعي ـ السابق الذكر ـ الفضل في توفيرها بتركيزه على حرية العمل بحسبانها حقاً من حقوق الإنسان «الطبيعية»

وأما المال فكان على رواد الصناعة أن يستقرضوه من إحدى الطائفتين وفعلاً مدّ هؤلاء أيديهم إليها يلتمسون ذلك.

وكانت النتيجة أن أحجم الملاك الإقطاعيون عن إقراض وتمويل المشروعات الصناعية بسبب ظاهر وهو أنهم بمد يد العون لها إنما يسهمون في هدم مركزهم المالي والإجتماعي بإيجاد منافس قوي لهم، إذ أن نمو المصنع سيكون على حساب الأرض، ومن ناحية أخرى كانت الصناعة لا تزال في مهدها وليس من المؤكد أن يتحقق ما يتوخى منها، وهم ليسوا مستعدين للمغامرة في أمر مشكوك في عواقبه.

أما الفئة الأخرى «اليهود» فقد اندفعت لتمويل الصناعة ولم تر في ذلك شيئاً من المخاوف. وليس ذلك تكرماً من عبيد الذهب ولا هو قصر نظر منهم، بل لأنهم كانوا واثقين من النتيجة، فهم ــ أولاً ــ يريدون أن ينفثوا حقدهم على المجتمع الإقطاعي الزراعي ــ الذي يذلهم ويحتقرهم ــ بتهيئة المناخ لطبقة جديدة تتولى قيادته، وتكون تحت رحمتهم وإشرافهم.

وهم ثانياً مطمئنون إلى نتيجة قروضهم فهي مكفولة بالرهون الثقيلة إلى جانب الأرباح الفاحشة.

هذا مع العلم أن بعض أرباب المصانع كانوا يهوداً بأنفسهم ومنهم ريكاردو. وهكذا سقطت الصناعة تلقائياً في قبضة الذهب اليهودي، وظل الزمن يزيدها استحكاماً حتى وصلت سيطرتهم الإقتصادية على العالم الصناعي إلى الحال التي لا يجهلها أحد اليوم)[٢٤]

---

(٢٤) ما بين القوسين مقتبس من محاضرة شفوية للاستاذ محمد قطب القاها ضمن برنامج السنة المنهجية لعام ١٣٩٦ ــ ٩٧ هـ مع اختصار وتصرف، وتجدر الاشارة إلى ان البروتوكولات اعترفت بذلك في مواضع كثيرة.

والآن لنعد إلى ريكاردو:

لقد خدم سمث اليهود بنزعه القيمة الإقتصادية الكبرى من «الأرض» إلى «العمل» لكن ذلك لم يقض على نفوذ الملاك الزراعيين، فكان الأمر يستدعي نظرية «علمية» تدفع العجلة إلى الأمام بسرعة أكبر، وكان الناس آنذاك مستعدين لتصديق كل ما هو «علمي» مبهورين به إلى أبعد حد.

وجاءت هذه النظرية على يد «اليهودي» ريكاردو:

يرى ريكاردو أن مسؤولية التفاوت الإجتماعي والأزمات الإقتصادية تنصب على ما أسماه «الريع» وليس على «الربح».

والريع هو المكسب الذي يحصل عليه مالك الأرض، أما الربح فهو مكسب الصناعي الرأسمالي، ويعلل ذلك معتمداً على نظرية سمث في إعطاء القيمة للعمل ـ بأن الريع ليس ثمناً للعمل ولكنه ناتج عن امتلاك مورد طبيعي للثروة.

وتمشياً مع «قانون الأجور الحديدي» الذي اقتبسه عن مالتس يرى ريكاردو أنه «حين يتقاضى الملاك أثماناً أعلى لوسائل العيش فهم لا يستغلون العامل ولكنهم يستغلون صاحب العمل الذي يضطر إلى أداء أجور عالية لعماله، بينما هو لا يستطيع أن يرفع من أثمان منتجاته، لأنها تتحدد في سوق قوامها التنافس».

ويذهب ريكاردو إلى أنه نتيجة لذلك فـ«إن الريع في جوهره عدوان على الربح وتميل الأرباح في الأجل الطويل إلى الهبوط حتى تصل درجة الصفر، بينما يستولي ملاك الأراضي على الفائض الإقتصادي».

وكانت أولى ثمرات نظريته أن أقنع الرأسماليون الحكومة

الإنجليزية بإلغاء القوانين التي سنتها للغلال وأفسحت المجال لاستيراد الغلال من الخارج فهبطت أرباح الملاك الزراعيين وكسدت سوقهم، وفي الوقت نفسه انخفضت تكاليف الصناعة كثيراً واتخذ الرأسماليون من انخفاض سعر الغلال ذريعة لتخفيض أجور العمال. وبذلك ضربوا عصفورين بحجر واحد، ووطدوا مركزهم على حساب المجتمع فنتج عن ذلك أزمات خانقة ذهب ضحيتها جموع غفيرة من العاطلين والمعدمين.

ومن ناحية أخرى تمادى ريكاردو فطالب بتأميم الأراضي أو فرض الضرائب الباهظة عليها، ومن هنا سقط في خطأ غير مقصود إذ أنه نبه الإشتراكيين الأوائل إلى هذه الفكرة مما جعل نتيجتها تكون على عكس رغبة الرأسماليين ورغبة ريكاردو[٢٥].

---

(٢٥) انظر موسوعة الهلال الاشتراكية مادة: ريكاردو

الأثر العام للمذهب الكلاسيكي

هرب الطبيعيون من إله الكنيسة والتجأوا إلى (الطبيعة) يلتمسون الحق والعدل في قوانينها الأبدية! وأخيراً اكتشفوا أنهم إنما كانوا يتعلقون بالوهم، إذ أن هذا الإله الأخرس الأعمى يستطيع كل أن يقول كل باسمه ما يشاء ولا حرج.

وبدأ الكلاسيكيون من حيث انتهى أولئك، وأخذوا ينقبون عن معايير ذاتية مصلحية قالوا أول الأمر أنها تساير قانون الطبيعة، ثم تنوسيت هذه العبارة وأصبحت المنفعة المادية ذاتها هي القانون والهدف، وإذا كان لا بد من وضع شعار للسياسة الاقتصادية لديهم فهو «تحقيق أكبر ربح بأية وسيلة» أي أنها كانت «مكيافيللية إقتصادية» بالفعل.

ومنذ ذلك الحين جرد الاقتصاد تجريداً كاملاً واعياً من أي مؤثر أو صبغة دينية بل أخلاقية. ورسمت له دائرة مستقلة تستقي أحكامها ومناهجها النظرية والعملية من مصادر ذاتية خاصة. واختفت من موازين الاقتصاد ومباحثه كل كلمة من كلمات الحق والعدل المجردين فضلاً عن الحلال والحرام، وأصبح الباحثون يختلفون حول القضية من قضايا الاقتصاد وتتضاد آراؤهم نفياً وإثباتاً في حدود الدائرة

الاقتصادية المحصورة، ولو فرض أن أحداً دعم رأيه بأن هذا التصرف أو ذاك يحرمه الدين فإن موجة من السخرية والاستهجان ستغمره وسيجد نفسه في موقف رجعي حرج للغاية. ذلك أن الجاهلية الغربية قد اقتنعت تماماً بأن الدين ـ إن كان ـ شيء شخصي لا علاقة له بشؤون الحياة إطلاقاً.

وهنا نلمس الحقيقة الواحدة المتكررة وهي أن الجاهلية الأوروبية ترفض رفضاً باتاً أن تتلقى عن الله أي شرع وتصر على عبادة طواغيتها المتألهين مهما اذاقوها من ألوان النكال.

وتلك هي بداية الانحراف وأساسه وما لم تقتنع أوروبا بتعديل موقفها هذا فإن التباحث معها في الفرعيات والجزئيات عبث لا طائل تحته.

وعلى أية حال فإن المذهب الكلاسيكي بتبنيه لشعار «تحقيق أكبر ربح بأية وسيلة» قد أنتج مشكلتين خطرتين للغاية:

١ ـ قيام إقتصاد عالمي يجعل الربا والاحتكار اللذين حرمتهما الشرائع قاطبة عموده الفقري وموضوعه الرئيسي، مما ينذر بكارثة محققة على البشرية وقد ظهرت فعلاً أعراض الكارثة وعواقبها الوخيمة جلية فيها بعد عندما قبض المرابون على ناصية الدول وسخروا سياساتها وخططها لخدمة مآربهم الخاصة.

٢ ـ وضع الشعوب التي طبق عليها المذهب على حافة هاوية من الجوع والبطالة والأزمات الخانقة في عصر لم يكن للفقراء فيه أي تنظيم أو مقدرة على الضغط للمطالبة بحقوقهم. وهذه في الواقع مشكلة نشأت نتيجة حتمية للمشكلة الأولى.

ولنضرب مثالاً لذلك بالدولتين الغنيتين في القرن الماضي

«إنجلترا وأميركا» ففي إنجلترا ـ أسبق الدول إلى الثورة الصناعية ـ وصل عامة الناس والعمال منهم خاصة إلى درجة من البؤس والفاقة والتسخير لا تكاد تصدق

كان النساء والأطفال يعملون في مناجم الفحم ويجرون العربات في دهاليز ضيقة تحت الأرض مدة ١٦ ساعة يومياً نظير أجور زهيدة، وكذلك كانت معامل النسيج والمصانع الأخرى تسخرهم بالعمل المرهق في أماكن غير صحية ولا تعطيهم إلا الكفاف من الرزق[٢٦].

وكل البحوث التي تناولت موضوع الثورة الصناعية كشفت هذه الحقيقة بل إن أثرها ليبدو في الأدب الانجليزي إذ نجد «ديكنز» كبير الروائيين الإنجليز يتعرض لحال الملاجىء والفقراء في رواية «أوليفر تويست»، ويجعل موضوع روايته الأخرى «أوقات عصيبة» هو مشكلة النزاع بين أصحاب المصانع والعمال والأضرار الاجتماعية الناجمة عن الثورة الصناعية[٢٧].

فإذا انتقلنا إلى أميركا رأينا أيضاً حالة مزرية تحدث عنها أحد من يسمون «المصلحين» قائلاً:

«إننا جميعاً في الشمال والجنوب نعمل في تجارة الرقيق الأبيض، وبقدر نجاح الشخص فيها يزداد احترامه، وهذه التجارة أشد قسوة من تجارة الرقيق الأسود لأنها تفرض المزيد من العمل على عبيدها، في الوقت الذي لا تحميهم فيه ولا تسوسهم برفق تفاخر بأنها تفرض المزيد.

«نعم إنه (العامل) بعد انتهاء عمل اليوم يصبح حراً إلا أنه

---

(٢٦) انظر تاريخ العالم ـ هاملتون، ج ٥، فصل: «قضية المرأة وتطورها عبر التاريخ».

(٢٧) انظر سلسلة تراث الإنسانية ٢/٥٨٧ والأولى ترجمها منير البعلبكي إلى العربية

يظل يرزح تحت عبء العناية بعائلته وبيته مما يجعل حريته سخرية جوفاء باطلة في حين يبقى رب العمل حراً بالفعل ويستطيع أن يتمتع بالأرباح التي جناها من عمل الآخرين دون اهتمام بمصلحتهم ورفاههم» «ولا عجب من أن يفضل الناس العبودية البيضاء، أي عبودية رأس المال ـ على عبودية الزنوج طالما أنها تدر ربحاً أكثر وتحررهم من جميع المسؤوليات والأعمال التي يقوم بها مالكو العبيد الزنوج. . .»(٢٨).

وهكذا دفعت الجاهلية الغربية الثمن غالياً وانتقلت إلى عبادة طاغوت جديد لا يقل بشاعة وإذلالاً عن طاغوت الاقطاع.

واقتضت سنة الله ألّا تدوم فرحة الرأسماليين طويلاً فقد كانت تصرفاتهم الجشعة واستغلالهم الشره تضرم الحقد في القلوب وتؤجج نار العداوة ضدهم وانبعثت الشرارة الأولى على يد المفكرين الجماعيين وبلغت ذروتها في الضغينة الماركسية.

٣ ـ المذهب الاقتصادي الشيوعي:

مقدمة عن مصادر الفكر الشيوعي:

في مقابل التطرف الذي اتخذه الطبيعيون والرأسماليون الكلاسيكيون نحو الفردية، تطرف طائفة أخرى فاتجهت إتجاهاً جماعياً لا يقيم للفرد وزناً إلا من جهة كونه مسماراً في الآلة الاجتماعية.

والتاريخ يروي أن الفكر الجماعي قديم في أصله وأن عصر التنوير ينحصر جهده في بعثه من جديد، كما أن الشيوعية قد طبقت عملياً قبل ماركس وأنجلز بقرون طويلة، فنحن نجد أن «جمهورية أفلاطون» تشكل نظرية عن أمة تسودها روح جماعية خالصة يذوب

---

(٢٨) من كلام جورج فيتزهيو: ١٨٨١ في تطور المجتمع الأميركي: ١١٢ فما بعدها.

فيها الفرد داخل كيان المجموع كما نرى في الحركة «المزدكية»[٢٩] نموذجاً لمجتمع شيوعي تطبيقي.

والحق أن الجاهلية ـ كعادتها الدائمة في التذبذب والتطرف ـ قد عانت ـ ولا تزال ـ مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع ولم تهتد إلى حل وسط لها وأنى لها ذلك، ففي أوروبا الحديثة كان الواقع الذي نجم عن تطبيق المذهب الفردي الحر دافعاً لبعض ذوي النوايا الحسنة إلى فكرة تنظيم المجتمع على أساس من عدالة التوزيع سميت لأول مرة «الإشتراكية».

وترجع نسبة هذه الفكـرة إلى عدد من البـاحثين وأبـرزهم «روبرت أوين» و«سان سيمون» و«فورييه» وهم طليعة المفكـرين الاشتراكيين في الغرب، والشيوعية تسمي اشتراكيتهم «الاشتراكية الطوبوية» لأنها تميل إلى الخيال أما اشتراكية ماركس فهي الاشتراكية «العلمية» الوحيدة في التاريخ!

ومع ذلك فالشيوعية الماركسية تدين لهم بالفضل وتقر بأثرهم عليها، يقول أنجلز: «إن الاشتراكية النظرية لن تنسى قط أنها قامت على أكتاف سان سيمون وفورييه وأوين، ثـلاثة رجـال رغم كل مفاهيمهم الخيالية وكل طوبياتهم يقفون بين أعظم المفكرين في كل العصور، والذي تنبأت عبقريتهم بـالكثير ممـا نثبت نحن صحته علمياً»[٣٠] وذلك هو المصدر الأول من مصادر الفكر الشيوعي.

والمصدر الثاني هو «الفلسفة المثالية الألمانية» التي أخذت عنها الشيوعية الكثير، لا سيما المبدأ الرئيسي «الجدلية» الذي ميز المادية الشيوعية عن الماديات الأخرى. يقول أنجلز:

---

(٢٩) المزدكية: فكرة شيوعية نشأت في بلاد فارس قبل الإسلام انظر «الملل والنحل». وغيره.

(٣٠) حرب الفلاحين في ألمانيا: ٢٢.

«إن الاشتراكية العلمية الألمانية ــ وهي الاشتراكيـة العلمية الوحيدة ــ التي وجدت على الاطلاق ــ ما كان يمكن أن توجد دون الفلسفة الألمانية التي سبقتها، وخاصة فلسفة هيجل»[٣١].

أما المصدر الثالث ــ وهو المصدر الذي حول الشيوعية من فكره فلسفية محضة إلى نظرية مصطبغة بالصبغة العلمية ــ فهو نـظرية داروين.

فعندما قال ماركس «أن الظواهر الاقتصادية يمكن ملاحظتها وتسجيلها بنفس الدقة التي تسجل بها العلوم الطبيعية» فإنما كان يشير إلى هذه الحقيقة.

وذلك ما أوضحه أنجلز بقوله «كما أن داروين اكتشف قانون التطور في تاريخ الانسان الطبيعي، فكذلك اكتشف ماركس قانون التطور في تاريخ البشرية».

ويعلق داونز على ذلك قائلاً:

«كانت الطريقة العلمية التي أشار إليها (ماركس) في أبحاثه عاملاً في تقبل الجمهور لآرائه، إذ كانت تسيطر على أذهان الناس نظرية التطور في القرن التاسع عشر بدرجة اعتقدوا معها إمكان تطبيقها على كل مظاهر الحياة، فلما ربط ماركس نظريته التاريخية في تنازع البقاء بين الطبقات وبين نظرية داروين في التطور ضمن لها الاحترام العلمي الذي أبعدها عن الطعن والتشكك»[٣٢].

---

(٣١) المصدر السابق: ٢١ ــ ٢٢.

(٣٢) هو والنصان قبله: كتب غيرت وجه العالم: ١٥٤ ــ ١٥٥ وانظر: الطبقة الجديدة: ٢٠ ــ ١٧٢ ومما يلاحظ انه رغم اقتباس فلاسفة الشيوعية المستفيض عن داروين فهم لا يشيرون إلى ذلك كثيراً بينما هم يشيدون بكتاب موريس مورجان «المجتمع القديم» ويعدونه حجة للنظرية مع ان هذا الكتاب لا يعدو ان يكون تطبيقاً للداروينية. ولعل سبب ذلك ليس الرغبة في تنويع المصادر بقدر ما هو الأنفة من مشاركة الرأسمالية في مصدر واحد.

وهكذا يظهر أن المذهب الشيوعي تصور شامل للوجود وحركة التاريخ ملفق من أشتات فكرية منوعة:

فالإطار الفلسفي مأخوذ عن الهيجلية بعد قلبها رأساً على عقب.

والمنهج التطبيقي منقول عن الداروينية مع إضافة إيحاءات فلسفية خاصة، ونظرية القيمة وفكرة التأميم منقولتان عن ريكاردو، كما أنها استوحت من سان سيمون ومالتس بعض النظريات المتعلقة بالملكية والعمل، أما الإلحاد فمأخوذ من فيورباخ ودولباخ والماديين الميكانيكيين عموماً.

والغريب حقاً هو أن الشيوعية تلعن هؤلاء جميعاً ـ كما قال رسل ـ وتتبرأ من أفكارهم الرجعية البورجوازية(٣٣).

والحق أن هناك مصدراً مهماً للشيوعية قل من يشير إليه وهو التراث اليهودي والنفسية اليهودية ذاتها، وهو مايتجلى في العبودية الخانعة للمال والتأليه الأحمق للمادة وكذلك في الحقد المضطرم على البشرية وكل قيمها وتراثها ومقدساتها(٣٤).

ومما يجدر التنبيه إليه أن الشيوعية ـ فكرة وحركة ـ لم تكن لتحظى بالقبول مع تطرفها إزاء الأديان والخلق ومصادمتها للفطرة لولا

---

(٣٣) انظر مثلاً نصوص من انجلز: ١٤٣.

(٣٤) انظر حول نفسية ماركس: الشيوعية والإنسانية للعقاد، فصل: المؤسس.

الجو الأوروبي المشحون بالضيق والتبرم من الكنيسة والطائفة الكهنوتية العليا، تلك التي أضافت إلى الطغيان والتحكم وقوفاً مستمراً مع الاستغلاليين والمحتكرين ضد البائسين. ومع الخرافات والأساطير ضد العلم والرقي المادي واستطاعت الشيوعية استغلال الغضبة الهائجة والنفاذ إلى عقول السذج فوجهت العداوة العارمة على الكنيسة إلى ثورة هوجاء على الدين ذاته.

* * *

إن دراسة الاقتصاد الشيوعي بمعزل عن الفلسفة الشيوعية في إطارها العام ليس إخلالاً بالموضوعية العلمية فحسب، بل هو ضرب من إضاعة الجهد فيما لا طائل تحته لا سيما إذا كان الهدف من الدراسة إيضاح نوع علاقة هذا الاقتصاد بالدين.

والواقع أن مؤلفات الإلحاد الشيوعي هي كتب إقتصادية شيوعية، كما أن الكتب الاقتصادية الشيوعية هي كتب إلحاد بالدرجة الأولى، بحيث لا يمكن الفصل بينهما. ولذلك كان لا بد من عرض المذهب الاقتصادي للشيوعية ممزوجاً بفلسفتها العامة.

وتبدأ نظرة الشيوعية إلى الدين في التميز عن سواها من أول نقطة على الطريق، من الإلحاد ذاته فالشيوعية تصر على أن لها إلحادها الخاص وهو في نظرها إلحاد «إيجابي» يقول «غارودي»:

«أما الإلحاد الماركسي» فهو في جوهره إنسي (أي إنساني النزعة) منطلقه ليس رفضاً بل هو تأكيد، تأكيد استقلال الانسان، أما نتيجته فهي رفض كل محاولة لحرمان الانسان من قدرته المبدعة والمبدعة لذاتها».

ثم يقول في تفصيل ذلك:

«إن ما يميز الإلحاد الماركسي البحت هو أنه على خلاف سابقيه، لم يكتف باعتبار الدين خديعة فحسب، اصطنعها المستبدون أو مجرد وهم ولده الجهل بل إن ماركس وأنجلز قد بحثا عن الحاجات الانسانية التي تلبيها الأديان بهذه الصورة المخادعة، فوصلا ـ كما يقول ماركس ـ إلى أن الأديان هي في وقت واحد: إنعكاس لشقاء فعلي واحتجاج على هذا الشقاء.

«هذه الحقيقة التاريخية (أن الدين إنعكاس لشقاء فعلي) هي التي يلخصها ماركس في تعبير مقتضب «ألدين أفيون الشعوب»[٣٥].

وجرياً مع المادية الجدلية وتطبيقاً للتفسير الاقتصادي للتاريخ حول علاقة الفكر بالوجود ترى الشيوعية أن الفكر البشري إنعكاس للواقع المادي، فالمادة هي الأساس الوحيد وعنها ينبثق الفكر وتنبثق المشاعر والأحاسيس، ومن هذه المشاعر الدين نفسه.

أي إن وجود الناس هو الذي يحدد مشاعرهم وليس العكس.

وعند تفسير الدين على هذا الأساس يقول أنجلز:

«من الأزمنة الموغلة في القدم ـ إذ وصل الفكر بالناس ـ وهم بعد في جهل تام ببنياتهم الجسدية الخاصة، وتحت تأثير أحلامهم ـ إلى القول بأن أفكارهم وأحاسيسهم ليست من فعل أجسادهم ذاتها، بل من فعل روح خاصة تسكن هذا الجسد وتفارقه لحظة الموت، منذ ذلك الحين اضطروا لأن يصطنعوا لأنفسهم أفكاراً عن علاقات هذه الروح مع العالم الخارجي.

«وعلى هذا النحو تماماً ـ عن طريق تشخيص القوى الطبيعية ـ ولدت الآلهة الأولى التي اتخذت خلال التطور اللاحق شكلاً غير

---

(٣٥) ماركسية القرن العشرين: مقتطفات: ١٤٤ ـ ١٤٦.

أرضي أكثر فأكثر، إلى أن حدث أخيراً عملية تجريد. . . فنشأ على نحو طبيعي خلال التطور العقلي، أن تولدت في عقل الناس من الآلهة المتعددين ذوي السلطة الضعيفة والمقيدة بعضهم حيال بعض، فكرة الاله الواحد المنفرد في الديانات التوحيدية»[٣٦].

ومع ذلك يستنتج أنجلز أن المطالب الجسدية هي منشأ الاعتقادات الفكرية وأن الدين ما هو إلا «الانعكاس الخيالي للأشياء البشرية في دماغ الانسان»[٣٧]. وما دام أن الوضع الاقتصادي هو الذي يفسر ويحدد المطالب الجسدية فإن النتيجة هي أن الدين ناشىء عن الأوضاع الاقتصادية ولا ينبغي أن يفسر إلا على ذلك:

«أما المجالات الايدولوجية التي تحوم أعلى في الفضاء كالدين والفلسفة إلخ فإنها مؤلفة من بقية ـ تعود إلى ما قبل التاريخ، وقد وجدها العهد التاريخي أمامه فالتقطها ـ لما قد نسميه اليوم غباء، إن هذه التصورات المختلفة الخاطئة عن الطبيعة وعن تكون الانسان ذاته، وعن الأرواح وعن القوى السحرية وهلم جراً ليس لها في الأغلب غير أساس اقتصادي سلبي، فالتطور الاقتصادي الضعيف لعهد ما قبل التاريخ تكون فيه. . . تصورات خاطئة عن الطبيعة»[٣٨].

إذن فالاقتصاد ـ أو البحث عن الطعام والشراب ـ هو منبع كل عقيدة وتصور وأساس كل مبدأ وقيمة، بل إن الشيوعية لتطبق ذلك على كل معنى وسلوك إنساني: على العلم والحرب. . . على

---

(٣٦) نصوص من انجلز: ٦١.

(٣٧) المصدر السابق: ١٣٣.

(٣٨) نفس المصدر السابق: ١٨٧.

المشاعر والفنون... على العلاقات الاجتماعية... على كل شيء. فالعلم ـ مثلاً ـ ليس أصله الرغبة الفطرية في اكتشاف الحقيقة ـ فليس في قاموس الشيوعية شيء اسمه الفطرة، ولكنه كما قال أنجلز:

«إذا كانت العلوم قد نهضت فجأة بعد ليل القرون الوسطى المظلم بقوة لا ريب فيها، ونمت بسرعة المعجزة، فإننا مدينون بهذه المعجزة الجديدة للإنتاج»[٣٩]. وعن الحروب تقول الشيوعية:

«إن ما يسمى بالحروب الدينية... كانت تتضمن مصالح طبقية مادية إيجابية، فقد كانت هذه الحروب حروباً طبقية تماماً... ورغم أن الصراعات الطبقية كانت عندئذٍ مغلفة بشعارات دينية، ورغم أن مصالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مختفية خلف ستار ديني فلم يبدل هذا شيئاً من الأمر، ويمكن تفسيره ببساطة من واقع ظروف تلك الأيام»[٤٠].

وتقول عن الأخلاق:

«إن الناس عن وعي أو لا وعي يستمدون مفاهيمهم الأخلاقية ـ في التحليل الأخير ـ من العلاقات العملية التي يقوم عليها وضعهم الطبقي، أي من العلاقات الاقتصادية التي ينتجون بها ويتبادلون فيها»[٤١].

وليس أغرب من هذه الأفكار إلا قول أنجلز «إن العمل هو الذي خلق الانسان» وليس الإله كما يقول الرجعيون من البورجوازيين والاقطاعيين! وحتى لا نحسن الظن فنحمل كلامه على المجاز فقد

---

(٣٩) المصدر السابق.

(٤٠) حرب الفلاحين في المانيا: ٤٦.

(٤١) نصوص من انجلز: ١٥٩.

شرح هذه العبارة شرحاً وافياً ـ نرى فيه إلى جانب الاستنباط العجيب الاستمداد الساذج من الداروينية ـ يقول:

«منذ مئات عدة من ألوف السنين... كان يعيش في مكان ما من الدائرة الاستوائية... عرق من القردة الشبيهة بالبشر بلغت تطوراً رفيعاً بوجه خاص، وقد أعطانا داروين وصفاً تقريباً لهذه القردة التي قد تكون أسلافنا.

«وقد أخذت هذه القردة ـ متأثرة بالدرجة الأولى دون شك بنمط ـ معيشتها الذي يتطلب أن تنجز الأيدي من أجل التسلق غير وظائف الأرجل ـ أخذت تفقد عادة الاستعانة بأيديها من أجل السير على الأرض واتخذت أكثر فأكثر مشية عمودية، وهكذا تم اجتياز الخطوة الحاسمة لانتقال القرد إلى إنسان»[٤٢].

وإذا كان الاقتصاد بهذه المثابة فلماذا اعتقد الناس أن شيئاً آخر غيره هو الذي يسيرّ التاريخ وينشىء الأفكار؟ وكيف غابت هذه الحقيقة عنهم حتى أظهرها فلاسفة الشيوعية؟ يجيب الشيوعيون عن ذلك بسهولة قائلين: لا غرابة في ذلك فإن الانسان أصله قرد وظل يجهل هذه الحقيقة ظاناً أن العناية الإلهية هي التي خلقته حتى عرف ذلك أخيراً. ويعبر أنجلز عن ذلك قائلاً: «ينسى الناس أن الظروف الاقتصادية لحياتهم هي منشأ الحقوق التي لديهم، مثلما أنهم نسوا أنهم قد نسلوا من عالم الحيوان»[٤٣].

وانطلاقاً من تأليه الاقتصاد على هذا النحو وانطلاقاً من اعتبار تاريخ الانسان هو تاريخ البحث عن الطعام، ومن الانتكاس بالانسان

---

(٤٢) المصدر السابق: ١٦٠.

(٤٣) نفس المصدر السابق: ١٦٢.

وجعل معدته هي العليا وروحه وعقله السفلى ـ جاء التفسير الاقتصادي للتاريخ، وهو تفسير يقوم على مبادىء نظرية أهمها:

١ ـ حتمية الصراع بين المتناقضات: وذلك يعني بالنسبة للمجتمع البشري الصراع بين الطبقات، وبين المصالح المادية المتعارضة، وهو صراع حام لا يهدأ على الاطلاق، وسببه الوحيد «البحث عن الطعام» وامتلاك وسائل الإنتاج» وقد آمن فلاسفة الشيوعية بحتمية الصراع هذه تطبيقاً للفلسفة الجدلية المثالية لهيجل على الواقع المادي.

وملخص هذه الفلسفة أن كل شيء يحمل معه نقيضه المضاد له، وبالصراع بين النقيضين يتولد جامع بينهما أقوى منهما، ثم لا يلبث هذا الجامع أن يدخل ـ بعد أن يصبح قوة ثالثة ـ في صراع مع نقيضه الذي يحمله معه، وهكذا دواليك.

٢ ـ في أثناء البحث عن الطعام: على مدار التاريخ، إنقسم تاريخ البشرية خمس مراحل كبرى اقتبستها الشيوعية من «موريس مورجان» وهي:

١ ـ الشيوعية الأولى «البدائية».
٢ ـ الرق (العبودية).
٣ ـ الاقطاع.
٤ ـ الرأسمالية.
٥ ـ الشيوعية الثانية والأخيرة(٤٤).

---

(٤٤) انظر: تطور المجتمع عبر التاريخ: سيغال.

٣ ـ الانتقال من مرحلة إلى أخرى سببه الدائم إكتشاف مادي نشأ عن تحول جديد في وسائل الإنتاج: فاكتشاف الزراعة ـ مثلاً ـ نقل البشرية من المرحلة الأولى إلى مرحلة الرق، واكتشاف المحراث نقل المجتمع البشري من الرق إلى الاقطاع، واكتشاف الآلة كان الناقل من الاقطاع إلى الرأسمالية.

٤ ـ الانتقال من مرحلة إلى مرحلة حتمي لا إرادة للإنسان فيه: إن المبادىء الثلاثة السابقة نظرية بحتة أما هذا المبدأ وما بعده فتطبيقية ومن هنا كان اهتمام الشيوعية بهما ودفاعها عنهما.

وهذا المبدأ «الحتمية» شرحه أنجلز في كتاب «لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية»(٤٥) وذكر كيف أن الشيوعية تعمدت معاكسة هيجل في دعوى أن أفكار الناس هي التي تنشىء واقعهم ـ أي أن الارادة البشرية هي التي تغير الواقع الحيوي ـ وأوضح أنجلز أن سبب القطيعة بينهم وبين هيجل والمثاليين هي ما أسماه «الثلاثة الاكتشافات عن الطبيعة»:

١ ـ إكتشاف الخلية كوحدة تتطور بدءاً منها العضوية النباتية والحيوانية كلها عن طريق التكاثر والتباين.

٢ ـ إكتشاف تحول الطاقة الذي بين لنا أن كل ما يسمى بالقوى الفاعلة بالدرجة الأولى في الطبيعة غير العضوية... إنما هي جميعاً تجليات مختلفة للحركة

---

(٤٥) لودفيغ فويرباخ: مادي الماني معارض لهيجل وماركس لكن الماركسية بنت فلسفتها على كتبه، انظر كتاب «مبادىء فلسفة المستقبل» ترجمة الياس مرقص.

الشـاملة المنتقلة من الواحـدة إلى الأخرى وفق بعض النسب الكمية.

٣ ـ البـرهنة الاجمـالية التي تحققت للمـرة الأولى على يـد داروين، والقائلة أن جميع العضويات الطبيعية المحيطة بنا الآن ومنهـا النـاس إنمـا هي نتـاج عمليـة تـطور طويلة...»[٤٦].

وواضح أن الجبرية الشيوعية منقولة بحذافيرها عن الداروينية كما أسلفنا فالإنسان ـ في الداروينية ـ خضع دون وعي منه ولا إرادة لعملية التطور البطيئة الطويلة التي قذفت به إلى وضعه الراهن دون أن يكون له يد في ذلك[٤٧].

٥ ـ الانتقال من مرحلة إلى مرحلة يصحبه تغير حتمي في الأفكار والمعتقدات والسلوك:

هذا المبدأ من أخطر المبادىء الفلسفية الشيوعية، وهو مبني أساساً على فكرة التطور المطلق التي أوحت بها الداروينية كما سبق، وتطبيقاً لهذا المبدأ ترى الشيوعية أن لكل طور تاريخي دينه وأخلاقه وتقاليده وعلاقاته المنبثقة من وضعه الاقتصادي، فإذا ما انتقل إلى طور آخر تغير كل ذلك تغيراً حتمياً تبعاً لتغير الطور الاقتصادي[٤٨].

يقول أنجلز:

«منذ اللحظة التي تطورت فيها الملكية الخاصة للأشياء المنقولة

(٤٦) نصوص من انجلز: ٨٢ ـ ٨٣.

(٤٧) راجع الباب الثاني: فصل «نظرية التطور: آثار الداروينية ص ١٩٧.

(٤٨) انظر فصل «علمانية الاجتماع والاخلاق» الاتي ص ٣٨٤ فصاعدا.

كان لا بد لجميع المجتمعات التي تسود فيها هذه الملكية الخاصة ان يكون فيها هذه الوصية الأخلاقية المشتركة: لا تسرق! فهل يعني أن تصبح هذه الوصية وصية أخلاقية سرمدية؟. كلا، أبداً! ففي مجتمع أزيلت منه دوافع السرقة حيث السرقات وبالتالي لا يمكن أن يرتكبها مع مرور الزمن غير مجانين، كم سيضحك الناس من الواعظ الأخلاقي الذي يود ان يعلن على رؤوس الاشهاد الحقيقة السرمدية: لا تسرق.

«ولهذا فإننا نرفض كل طمع بأن تفرض علينا أية عقائدية أخلاقية كقانون سرمدي نهائي لا يتزعزع بعد اليوم بذريعة أن لعالم الأخلاق هو أيضاً مبادئه الدائمة التي هي فوق التاريخ والفوارق القومية.

«فنحن نؤكد ــ بالعكس ــ أن كل نظرية في الأخلاق حتى اليوم إنما كانت في التحليل الأخير نتاج الوضع الاقتصادي للمجتمع في أيامها، كما أن المجتمع قد تطور حتى اليوم ضمن تعارضات طبقية فقد كانت الأخلاق على الدوام أخلاقاً طبقية: إما انها كانت تبرر سيطرة ومصالح الطبقة السائدة، وإما انها كانت منذ أن تصبح الطبقة المضطهدة على جانب من القوة ــ تمثل الثورة على هذه السيطرة ومصالح المستقبل للمضطهدين»[٤٩].

ويقول ماركس:

«ترتبط العلاقات الاجتماعية وتتعلق بالقوى الانتاجية ولدى تحقيقنا لقوى إنتاجية جديدة يغير الناس نوع الانتاج، وعند تغييرهم لنوع إنتاجهم وعند تغيير طريقة كسبهم لمعيشتهم فإنهم يغيرون كل

---

(٤٩) نصوص من انجلز: ١٦٠.

العلاقات الإجتماعية[٥٠] وبناء على ذلك يعتقد الشيوعيون ان هناك هناك أخلاقاً وتقاليد زراعية إقطاعية، وأخرى برجوازية وثالثة شيوعية، تختلف كل منها عن الأخرى وان الدين وليد البيئة الزراعية وجزء من غيبيتها، كما ان الالحاد هو سمة البيئة الصناعية وعقيدتها، ومثل الدين الأسرة والعرض بصفة خاصة، وليس شيء أكثر رجعية من إنسان يعيش في المجتمع الصناعي بدين وأخلاق المجتمع الزراعي، فمثل هذا الإنسان جدير بأن تلصق به الشيوعية أقذع النعوت وأمر الهجاء بل ستسحقه الحتمية القاهرة.

هذا على الصعيد الفلسفي، أما على الصعيد التطبيقي فإن الشيوعية تحصر الشرور كلها ـ منذ بدء الخليقة إلى الآن ـ في علة واحدة هي «الملكية الفردية» ولذلك فإنهم يؤمنون إيماناً أعمى بأن القضاء على الملكية الفردية وقبض الدولة على وسائل الإنتاج كفيل بتحقيق الجنة الأرضية وإزالة كل الشرور والمساوىء التي يعج بها التاريخ ولا تستثني الشيوعية من ذلك شيئاً حتى «المرأة» فإن الشيوعية الجنسية والإباحية المطلقة هدف صريح من أهداف الثورات الشيوعية في كل مكان، فالزواج ينتج الأسرة والأسرة في نظرهم أعدى أعداء المجتمع اللاطبقي، لأنها تحتم على المرء ان يتملك ويدخر، والملكية الفردية تقليد اقطاعي استغلالي ان لم يتم القضاء عليه انتكس المجتمع إلى طور تاريخي أدنى!

* * *

خاتمة حول وضع الدين في المجتمع الشيوعي:

أصبح جلياً بعد العرض الموجز للمذهب الشيوعي أن نعرف موقف الشيوعية من الدين بوضوح:

---

(٥٠) بؤس الفلسفة: ١١٢.

فهي مبدأ ينكر ــ دون تحفظ ــ أن يكون لهذا الكون اله، وعبارة «لا إله والحياة مادة» ليست شعاراً مجرداً بل مادة دستورية في قانون الاتحاد السوفييتي.

والدين في نظرها أوهام وخيالات انعكست عن الوضع الاقتصادي أو وضعها المحتكرون من الطبقات العليا ليخدروا الكادحين المنكوبين، فيستأثروا بكل شيء في الدنيا ويعدوهم بالعوض في الآخرة، ومن هنا وجبت عليهم محاربته والنضال في سبيل القضاء عليه لتحرير المجتمع من الاستغلال والتحكم الطبقي!

ثم هو فوق ذلك ليس أمراً فطرياً في الإنسان منذ وجد وإلى أن تنتهي الدنيا، بل هو أمر عرضي في التاريخ جاء لتلبية رغبة فئة من الناس في مرحلة من مراحل التطور التاريخي للبشرية، وهي مرحلة جاوزتها البشرية ابتداء من اكتشاف الآلة فمحاولة التمسك به بعد ذلك انتكاس وعبث يثير الازدراء والاشمئزاز.

أما الأسرة والزواج والأخلاق والفضيلة... فهي كلها «هراء برجوازي»! كما أن الحق والعدل الأبديين كلام فارغ، ولا وجود لشيء من ذلك إلا في مخيلة المثاليين وأوهامهم.

والدول الشيوعية تتبنى رسمياً محاربة الدين، وتدرس الالحاد والمادية كما يدرس المؤمنون دينهم، وتبذل كل وسائل التنفير الدعائي والاضطهاد المباشر لاستئصال جذور الدين من مجتمعاتها، واجتثاث ما بقي لديها من رواسب الخلق والفضيلة.

ويرى الشيوعيون أن الإنسان الذي يسهم في هدم الأوهام الإقطاعية ويبث الوعي الالحادي في صفوف الطبقة الكادحة هو إنسان مناضل شريف، يعمل لتطوير بلاده وتنوير شعبها، وعلى العكس من

ذلك أي داعية أخلاقي أومصلح إجتماعي فهو حجر عثرة في سبيل الرقي وأداة للامبريالية العالمية، وعميل للبرجوازيين والرجعيين، بل إن كل من يخالف سياسة الحزب الشيوعي ولو مخالفة سلبية بطريقة الصمت هو عدو للطبقة الكادحة وعميل للقوى الاستغلالية فإذا شم من صمته رائحة الإيمان بدين ما فقد عرض نفسه لعقوبة أدناها العمل سخرة في المعسكرات التأديبية مدة كافية لإذابة كل الأفكار الرجعية من دماغه.

والنظرية الشيوعية دين رسمي متعصب لا يقبل الجدل ولا يسمح بالمنافسة وكل شيء في الدولة الشيوعية لا بد أن ينبثق من العقيدة الماركسية ويتمشى معها: فالعلم يجب تسخيره لتثبيت الفكر المادي والمناداة بأزلية الكون ومادية الحياة. والأدب والفن لا بد أن يلتزما بما سمي «الواقعية الإشتراكية» ووسائل الاعلام شغلها الشاغل تمجيد النظرية واطراء النظام والاطناب في شرح إنجازات الثورة، والتشهير بمخالفيها.

وهكذا في كل شيء تريد الشيوعية أن تفرض نفسها عقيدة ونظام حياة ومصدر تشريع وأساس علم وفكر وفن وأدب، فهي فكرة جاهلية متكاملة تقابل تماماً الدين بمفهومه الحقيقي الشامل، وتريد أن تحل محل العقيدة الدينية في مجالات الحياة ونشاطاتها.

ثالثاً ــ الواقع المعاصر للجاهلية الحديثة:

كفرت أوروبا بالله وعبدت المادة، وألقت بالزهد المسيحي وآمنت الشره اليهودي، ورفضت أن تخضع نظمها الاقتصادية لله في أية صورة من الصور ورضيت بعبادة فلاسفة الاقتصاد والحكم بما تمليه أهواؤهم، فكان لزاماً عليها أن تدفع ضريبة ذلك من أمنها وطمأنينتها، وأن تنتكس إلى مستوى الحياة البهيمية وأن ــ يذيقها جلادوها أقسى أنواع النكال وأفظع صنوف التعذيب.

وما الأمراض الاجتماعية المزمنة والتهالك الأحمق على المادة والضياع المرعب والقلق الذي يخيم على الوجوه، إلا أعراض طبيعية لعبادة غير الله والحكم بغير ما أنزل الله، لا سيما عبادة المادة وطواغيتها حيث نسي الانسان روحه وأظلم قلبه وتبلد إحساسه لحساب المعدة والجسد وغرق في المتاع الحسي حتى غفل عن حكمة خلقه وسر وجوده ومصيره المحتوم في الدار الآخرة.

يقول الأستاذ «محمد أسد»:

«إن الأوروبي العادي سواء عليه أكان ديمقراطياً أم فاشياً رأسمالياً أم بلشفياً صانعاً أم مفكراً، يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى

جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر أو كما يقول التعبير الدارج «طليقة من ظلم الطبيعة» إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأماكن تـوليد الكهرباء، وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران، وإن النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة، وذلك بخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ومصممة على أن يفني بعضها بعضاً حينما تتصادم مصالحها المتقابلة.

«أما على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادي»[٥١].

١ ـ في الغرب الرأسمالي:

إن كثيراً من المفكرين في الغرب قد راعهم التناحر المادي وسيطرة الآلة على الانسان وكان ذلك «موضوع جزع شديد عند بعض الأكابر من رجال الفكر، فجورج برنانوس مثلاً يرى في طغيان ذلك العملاق الميكانيكي الرهيب «مؤامرة كونية كبـرى على كـل حياة داخلية» ثم هذا جول رومان يهوله التباين ـ الشاسع بين ارتفاع منحنى التكنيك وانخفاض منحنى المؤسسات الاجتماعية مع بقاء الطبيعة البشرية دون هذا وذاك ثابتة على خط بياني واحد، فيبقى واجماً مكفهر الوجه، منقبض النفس أمام معضلة المنحنيات الثلاثة. وآلبر كامو يتحيف به اليأس عندما يدرك ما استولى علينا من كابوس الخوف

(٥١) الإسلام على مفترق الطرق: ٤٧ ـ ٤٨.

والهلع مرده اننا «نعيش في عالم لا ينفع فيه الاقناع تجاه أناس وثقوا وثوقاً أعمى بآلاتهم وبآرائهم».

وعبر بعضهم على ذلك قائلاً:

«ألا ترون إلى النظام الصناعي الحاضر كيف جعل من سواد الكادحين سوائم تسير بفعل الغريزة العمياء بدلاً من أن تكون أناسي من آدم كرمها الله باستعمال الذكاء... ناس كالأنعام أصبحوا عبيداً للآلات»[52].

ويقول الفيلسوف «جود»:

«إذا لم نكن على يقين في شأن من الشؤون فإن مذهب الاستمتاع بالحاضر واليقين بزوال الحياة بعده مذهب تتمسك به الأجيال المعاصرة أي تمسك وهو يرسم لها طريقاً عملياً محدداً في العيش والحياة، ومهما يعني هذا الاتجاه للحكيم المجرب فإنه يستتبع بالنسبة لشباب هذا العصر الاستخفاف بالنواحي والقيود التي كانت محور الأخلاق ومدارها والخلاص منها في القرن التاسع عشر، وكذلك فقدت النواهي الأخلاقية التقليدية قوتها المألوفة بعد أن زال سندها من سلطان ما فوق الطبيعة، وقد كنا نسمع اننا ينبغي لنا عمل الخير لأن الخير يرضى عنه الله، والله تعالى يحب أن يرى عبده صالحاً على خط من القناعة والاعتدال في حياته. وما دامت ممارسة الفضيلة مقصوداً منها كسب رضى الله فإن المرء يحار هل الدافع اليها الظفر بنعيم الجنة أو إنه الرغبة في الخلاص من الجحيم المقيم، ولم يعد للطمع بثواب النعيم في الآخرة أو الوعيد بعقابها تلك القوة التي كانت لها قبلاً، فكثير من الناس يستخفون بذلك، وما داموا لا يطمعون

---

(٥٢) محاضرات الموسم الثقافي بالكويت: ٣/٣٢ ــ ٣٥

بنعيم الجنان وملذاتها فهم ينغمسون في نعيم هذه الدنيا وملذاتها»[٥٣].

أما الباحث «توني» فإنه يتحدث عن التفكك الذي طرأ على الحياة الغربية نتيجة الإيمان بالمادة وإقصاء الدين عن شؤون الحياة و«يبين بوضوح التمييز بين المجتمع الوظيفي الذي يعرف فيه كل فرد مكانه وقيمة عمله لصالح المجموعة وبين المجتمع المتفكك الذي لا يجد فيه سعادة لا في عمل مضمون ولا في قيمة شخصية ثابتة ويوضح أن النجاح في المجتمع المتفكك يقاس بالحصول على الثروة أكثر من المسؤولية الشخصية أو أي معيار آخر للقيمة الاجتماعية، ويقول:

كانت الثورة الصناعية ـ برغم انها كارثة في تأثيراتها كانت ـ القمة المنظورة فقط لأجيال في التغير الأخلاقي الخبيث. ويصف توني التغير الأخلاقي هذا على انه يحدث خاصة في علاقة الدين بالتنظيم الاجتماعي في القرن الثامن عشر، لقد تنازل كلا من الكنيسة والدولة عن ذلك الجزء في محيطها الذي كان يعمل على إبقاء مجموعة عامة في الأخلاق الاجتماعية، ويقول: كانت الكنيسة أكثر بعداً عن الحياة اليومية للبشر في الدولة، لقد تكاثر حب الإنسانية ولكن الدين الذي كان قوة إجتماعية عظمى، صار شيئاً خاصاً فردياً، كضيعة صاحب الأرض أو ملابس الشغل للعامل»[٥٤].

وكانت النتيجة التي لا مفر منها هي الشقاء والدمار للفرد والمجتمع، هي المعيشة الضنك التي يصلى سعيرها الغرب المادي.

---

(٥٣) منازع الفكر الحديث: ٢٨٢.

(٥٤) عن المشاكل الإنسانية للمدنية الصناعية: ١٨٦ ـ ١٨٧.

يقول اليكسيس دوتوكفيل عن المجتمع الأميركي وهو النموذج الرأسمالي البارز: «رغم ما شاهدت في أميركا من حرية وثقافة يتمتع بها الكثيرون في ظروف هي خير ما يمكن أن تقدمه لهم الدنيا، فقد كنت ألمح سحابة من الحزن مخيمة فوق جباههم، حتى ظننت أن التزمت والقلق يلازمانهم في أفراحهم وأتراحهم.

«إن ابن الولايات المتحدة يتعلق بمتاع هذه الدنيا وكأنه على ثقة من أنه لن يموت أبداً ــ فهو يتعجل اغتراف كل ما يقع في متناول يده حتى لتحسبنه خائفاً من أن لن يمتد به العمر حتى يتمتع بها كلها فهو يمسك كل شيء بقبضة متراخية ثم لا يلبث أن يتخلى عنه ليلاحق غيره من الغنائم الجديدة.

«. . . وثمة شيء قد تعجب منه للوهلة الأولى يبدو في هذا القلق الغريب المسيطر على عدد كبير من هؤلاء الذين يعيشون في سعادة وبحبوحة كبيرة من الثراء، إن هذا المشهد قديم قدم الدنيا والجديد فيه هو رؤية شعب بأسره يضرب لنا مثلاً على ذلك».

«إن تذوقهم للمسرات الجسدية يجب أن يعتبر المصدر الرئيسي للقلق الخفي وللتغلب البارزين في أفعال الأميركيين الذين يقدمون يومياً أمثلة جديدة عنه، فالذي يكرس نفسه لمطاردة الرفاه الدنيوي عساه يلحق به، يسرع دائماً، لضيق الوقت المحدد لبلوغه واكتناهه والتمتع به، إذ أن تذكره الدائم لقصر الحياة وزوالها شوكة ثابتة تخزه دوماً»[٥٥].

(٥٥) تطور المجتمع الأميركي: ٩٦.

وها هذا الدكتور «اليكسس كاريل» ينحى باللائمة على الذين يظنون أن الاقتصاد هو كل شيء في الحياة، وأن الرخاء والطمأنينة يمكن أن يحصل عليهما المجتمع والفرد بطريق الخطط الاقتصادية وتنمية الموارد والثروات، يقول:

من حسن الحظ أن حادثاً لم يخطر على بال المهندسين والاقتصاديين والسياسيين قد حدث، ذلك أن صرح المالية الأميركية قد انهار فجأة، وفي بادىء الأمر لم يصدق الجمهور وقوع الكارثة فعلاً، ولكن أصغى إلى شروح الاقتصاديين في استسلام مؤملاً في عودة الرخاء إلا أن الرخاء لم يعد، ولهذا بدا أكثر رؤساء القطيع ذكاء يرتابون ويتساءلون هل أسباب الأزمة الاقتصادية مالية فقط؟

«ألا يجب أن نتهم أيضاً فساد وغباء الساسة ورجال المال وجهل وأوهام الاقتصاديين؟ ألم تهبط الحياة العصرية بمستوى ذكاء الشعب كله وأخلاقه؟

«لماذا يجب أن ندفع ملايين الملايين من الدولارات كل عام لنطارد المجرمين؟

لماذا يستمر رجال العصابات في مهاجمة المصارف بنجاح وقتل البوليس واختطاف الناس وارتهانهم أو قتل الأطفال بالرغم من خمة التي تنفق في مقاومتهم؟

هذا العدد الكبير من المجانين وضعاف العقول

ألا تتوقف الأزمات العالمية على الفرد والعوامل الاجتماعية الأكثر أهمية من العوامل الاقتصادية؟(٥٦).

لقد فطن الدكتور كاريل إلى أن الأمر أعمق من أن يكون مشكلة إقتصادية ولكنه لم يستطع أن يقع على السر الحقيقي لأزمة الإنسان المعاصر وهو أنه يعبد غير الله ويحتكم إلى غير شرعه!

إن الإنسان في الغرب يفاخر بأنه يعيش فيما يسمى «العالم الحر» وذلك لأنه يرى نفسه أفضل حالاً من زميله الواقع في براثن الشيوعية لكنه ينسى أنه هو الآخر خاضع لتسخير واستغلال الطبقة الرأسمالية التي تستعبده دون وعي منه، فهو يتخبط في شباكها دوماً ومع ذلك يحسب أنه حر طليق. وهذه الحقيقة مضى في الفصل السابق ما يؤيدها وسنورد هنا ما يدعم ذلك مع ملاحظة التلازم الذي سبق أن أشرنا إليه بين السياسة والاقتصاد خاصة.

يقول ر. م. ماكيفر وزميله:

«ان المجتمع الحديث يتميز بالعديد من المنظمات والمؤسسات الكبيرة، والروابط الاقتصادية والسياسية المنشأة على نطاق واسع، التي تقوم جميعاً على تقسيم الوظائف والتخصص حتى يصبح الفرد وكأنه أحد أسنان عجلة في آلة إجتماعية ضخمة، وتنحصر مهمته في أداء عمله بشكل آلي داخل دائرة تخصصه فلا تتهيأ له إلا أقل الفرص لإظهار فرديته.

«كذلك ينزعج كثير من الناس لمدى ما تتعرض له مواقف الرجل المتحضر وآراؤه من تشكيل بفعل النمط العام للمجتمع الذي يعيش

---

(٥٦) الإنسان ذلك المجهول: ٣١٢ـ٣١٣.

فيه، وربما كان هناك ما يسوغ هذا الانزعاج عندما نرى في الولايات المتحدة الأميركية مظاهر تحديد مستويات الحياة الاجتماعية، بتأثير الاعلان والدعاية العريضة والغذاء الرتيب الذي تقدمه برامج محطات الإذاعة. وإنتاج السينما في هوليود، وقد أدت السيطرة على عقول الناس بهذه الكيفية إلى تضييق الحدود التي يعمل في نظامها كل من ـ المنتج والكاتب والعامل والممثل، كما حدَّت من آمال الجماهير وأذواقها بحيث لا تتعدى الحواجز التي أقيمت حولها»(٥٧).

ويتحدث الدكتور كاريل عن الاستعمار الذي يمارسه الرأسماليون بطريق الدعاية فيقول: «تتأثر حياتنا بالاعلانات التجارية إلى حد كبير، وهذا اللون من الدعاية يهدف إلى تحقيق مصلحة المعلنين أكثر من مصلحة المستهلكين، مثال ذلك لقد أوهمت الدعاية الجمهور أن الخبز الأبيض أفضل من الخبز الأسمر، وهكذا ينخل الدقيق مرة بعد أخرى ليجرد من عناصره الغذائية النافعة، ومعالجة الدقيق على هذا النحو يجعل في الإمكان الاحتفاظ به فترات أطول، كما يسهل صناعة الخبز، وبذلك يستطيع أصحاب المطاحن والمخابز ان يحصلوا على نقود أكثر بينما يطعم المستهلكون بخبز أردأ وهم يعتقدون أنه خبز ممتاز، ومن ثم فإن سكان البلاد التي يتخذون من الخبز غذاءاً أساسياً آخذون في الانحطاط والتدهور.

«إن مبالغ ضخمة تنفق في الدعاية ونتيجة لذلك أصبحت

---

(٥٧) المجتمع: ١١١ ـ ١١٢.

كميات كبيرة من المنتجات الغذائية والطبية لا فائدة منها على الأقل وغالباً ما تكون ضارة ـ أصبحت هذه المنتجات ضرورية لبني الإنسان المتحضرين، وعلى هذا المنوال فإن شراهة الأفراد الذين وهبوا ذكاء كافياً يمكنهم من خلق تهافت الجمهور على طلب السلع التي لديهم تلعب دوراً رئيسياً في الدنيا العصرية»(٥٨).

وفي العالم الغربي الرأسمالي كتاب تخصصوا في الكتابة عن المستقبل المشؤوم الذي ينتظر البشرية على يد الطبقة الطاغوتية المسيطرة من أصحاب رؤوس الأموال الضخمة والمستبدين، وتنبأوا بالقبضة الحديدية التي سيمسك بها هؤلاء القطيع البشري عن طريق استخدام التكنولوجيا وأحدث الدراسات النفسية ـ والاجتماعية، حيث يأتي اليوم الذي يرى الإنسان فيه أن أيامه السالفة في ظل نظام الإقطاع أفضل ألف مرة منها في هذا العصر الذي يتعرض فيه لمسخ حقيقي وتطويع رهيب.

ولسنا نعني بذلك أولئك الذين كتبوا عن «اليهود» فمؤلفاتهم رغم ما تحويه من حقائق صارخة لا تزال مثاراً لشك عند البعض لسبب ما، غير أن هناك كتاباً استخدموا لغة عامة منتهجين أسلوب العرض العلمي أو الأدبي لاثبات توقعاتهم المفزعة. من ذلك أن كاتباً غربياً مرموقاً هو «جورج أورويل» ألف كتاباً عنوانه «١٩٨٤» صور فيه الوضع البشري المنتظر في تلك السنة تصويراً مرعباً «يجعل قراءه يرتجفون» على حد تعبير رسل، ورغم المعارضة التي قوبلت بها نظريته فقد أيدها الواقع كما ناصرها كثير من المفكرين ومنهم رسل الذي علق عليه قائلاً:

«ظل العالم يسير شيئاً فشيئاً وخطوة خطوة نحو تحقيق كابوس

---

(٥٨) الإنسان ذلك المجهول: ٣٩.

أورويل ولكن التدرج على هذا الطريق قد جعل الناس لا يتبينون المدى الذي قطعوه في هذا الطريق المحتوم».

«إن الموقف الآن شبيه بذلك الموقف الذي نشأ من ازدياد قوة الملوك في القرن السادس عشر فقد كان طغيانهم المسرف هو السبب في كل الصراع الذي قامت به الحركات التقليدية وكسبته، ولكن ما إن تضاءلت قوة الملوك حتى نشأت محلها قوة لا تقل عنها خطورة»[٥٩].

وظهر في أميركا أستاذ جامعي استطاع بعد جهود مضنية وباستعماله الأساليب الاحصائية والشواهد الواقعية أن يقرب إلى الأذهان تشاؤمات «أورويل» وأثبت بقوة أن إمبراطوريات المال في الولايات المتحدة قد وصلت في سيطرتها على الإنسان إلى درجة ربما لم يحلم بها أورويل ولكن أساليبها الخفية وتخطيطها العميق وهيمنتها على وسائل الأعلام تلقي ظلالاً كثيفة على غولها البشع فلا يستطيع أن يلمح مخالبه ــ إلا القلة النادرة، يقول هذا الاستاذ وهو «فينس باكارد»:

«إننا نجد تناقضاً في مجتمع يحاول أن يضع أناساً على القمر في حين أن ملايين من سكانه في المدن لا يجرؤون على السير وحدهم ليلاً في الشوارع أو الحدائق المجاورة لبيوتهم»[٦٠]، ويستعرض في كتابه المسمى «المجتمع العاري» الوسائل الخفية التي تستخدمها إمبراطوريات الذهب لتنغيص حرية الإنسان والسيطرة على سلوكه وشعوره ويذكر منها:

١ ــ أجهزة استراق السمع الإليكترونية: وهي أجهزة منها ما يستخدم في التصنت على المكالمات الهاتفية ومنها أجهزة للتصوير والتسجيل

---

(٥٩) العقل والمادة: ٢٨٩، ٢٩٤.

(٦٠) المجتمع الأميركي عارياً: ٣٠ واسمه الأصلي «المجتمع العاري».

في غاية الصغر والدقة ومنها عيون وآذان وعقول إليكترونية ترصد أنفاس فريستها بدقة مذهلة.

٢ ـ أجهزة خاصة لكشف الكذب، تستعملها الشركات العملاقة في إجراء المقابلات الشخصية مع طالبي وظائفها.

٣ ـ التجسس الخفي بواسطة العيون البشرية أو العيون التلفزيونية.

٤ ـ الإحصائيات والاختبارات النفسية، التي يتهافت عليها الجمهور المخدوع بينما تجني الشركات الاحتكارية من ورائها فوائد ومعلومات مهمة، وتضع خطوطها المستقبلية على ضوئها.

٥ ـ البنوك وشركات التأمين ومؤسسات البريد التي تجبر الفرد على الادلاء بمعلومات وافرة عن حياته وثروته وعلاقاته لتستخدم في أغراض لا يعلمها.

٦ ـ شركات متنوعة متخصصة في استقاء المعلومات والتجسس على الأفراد والهيئات تضع حصيلتها في قوائم تباع أو تعار بمبالغ باهظة للشركات والمؤسسات التجارية(٦١).

وقد أدرك حقيقة هذا الكابوس كثير ممن يسمون «مصلحين اجتماعيين» في امريكا حتى آل الأمر بأحدهم وهو: هـ. ل. منكن المتوفى سنة ١٩٥٦ إلى أن يقول:

«يبدو أن بعض الناس لم يعودوا يجدون العيش في البلاد مستساغاً بل انهم يرونه مستحيلاً، وقد ملأ ضيقهم هذا الصحف الاسبوعية، والسفن المقلعة من نيويورك حاملة شحنة ثائرة منهم تقصد باريس ولندن وميونيخ وروما وغيرها من المدن التي تقع في طريقها،

---

(٦١) انظر الفصول الرئيسية للكتاب السابق ذكره، وانظر مثلاً: أميركا دولة تحكمها العصابات.

حيث يحط بعضهم في أي مكان ليهربوا من اللعنات الكبرى والآثام الفظيعة التي جعلت حياتهم لا تطاق في الوطن».

ثم يعلل «منكن» ذلك قائلاً:

«إن حكومة الولايات المتحدة بسلاحيها التشريعي والتنفيذي جاهلة غير كفء وفاسدة تثير الاشمئزاز في النفس».

«فوزارة العدل في الجمهورية مغفلة غاشة تعمل ضد كل ما هو معقول وعدل». «السياسة الخارجية للولايات المتحدة في أسلوبها العادي في التداول مع الأمم الاخرى سواء أكانت صديقة أو عدوة هي سياسة رياء ونفاق ومراوغة ماكرة مخجلة».

«إن الشعب الامريكي بقبولة كل هذه الشؤون يؤلف أعظم مجموعة من الرعاع الجبناء الحقيرين المستعبدين. . . وإن هذا الشعب ليزداد جنباً ونذالة وحقارة كل يوم».

«وإني لأجد في بلدي هنا أكثر مما أرى أو أسمع به في أي بلد آخر من جنون خاص وعام؟ أرى موكباً لا نهاية له من أعمال السلب والاحتيال الحكومية، واللصوصية التجارية وشنق الأعناق، والمجون اللاهوتي وقلة الذوق والاختلاس والزنا الشرعي، وأعمال الاحتيال المتنوعة والدناءة والبلاهة والسخرية والاسراف، إنه موكب ضخم غير معقول يجري بأعظم قوة يمكن إدراكها وتغذيها أعظم جراة وشذوذ بعيدين عن التصديق»[٦٢]، ذلك هو ما يقوله كتاب الرأسماليون في مصادر رأسمالية ١٠٠٪ وهي اعترافات يخالها المرء للوهلة الأولى من صنع الدعاية البلشفية.

وكل ما ذكره أولئك ليس إلا أعراضاً لابد أن يكابدها كل

(٦٢) تطور المجتمع الأميركي: ٢٦٠ ــ ٢٦٧.

مجتمع أعرض عن ذكر الله وتكالب على المادة، إنه الشقاء الذي لا يخفف حدته ترف مادي ولا نعيم دنيوي ولا تستطيع قشور الحضارة والرقي الصناعي أن تستره لأنه أعمق من أن ينال وأدق من أن يستأصل.

وغاية ما يستطيع «عقلاء الغرب» إدراكه وتنبيه أقوامهم له هو انهيار صرح حضارتهم وطغيان المادة على الروح لديهم، ثم يقفون عند ذلك أو يصفون العلاج الذي لا يزيد عن مسكنات ضعيفة التأثير هي غاية ما يمكن للعقل البشري المحدود أن يقدمه إذا انقطع عن الله ولم يرتض الاستضاءة بنوره.

ولو كتب للذين يطلقون بين الحين والحين صرخات الويل والثبور على الحضارة الغربية أن يدركوا سنة الله في خلقه وأن يضعوا أيديهم على مكمن الداء لتغيرت الصورة بكاملها، ولكن أنى لهم التناوش من مكان بعيد.

٢ ـ في الشرق الشيوعي:

كل ما يردده المستغيثون في الغرب ويستفظعونه من المظالم فإن المجتمعات الواقعة داخل الستار الحديدي تعج به بل بأضعافه، ففي هذه المجتمعات يتناسب الشقاء والتعاسة مع التطرف المغالي في محادة الله والحرب الصريحة على الايمان وعلى كل ما كرم الله به الانسان من خلق وسلوك.

إن الحط من كرامة الإنسان والنزول به ـ ليس إلى مرتبة الحيوان ـ بل إلى منزلة المادة الصماء هو جزء من جوهر النظام الجاهلي الشيوعي، وهدف مقصود من أهداف برامجه ومخططاته وما كان لها ـ وهي على ما هي عليه من الكفر والعتو ـ إلا أن تكون كذلك.

وبغض النظر عن المساوىء العامة للشيوعية والشرور التي لم تدع منحى من مناحي الحياة إلا تغلغلت في أعماقه، فإن الناحية الاقتصادية خاصة كان ينبغي لها أن تكون أليق وأنسب في الدول الشيوعية منها في الغرب. وذلك لأن المبرر التاريخي لوجود الشيوعية فكراً وتطبيقاً هو المظالم والشرور الرأسمالية، فإذا جاءت الشيوعية بما يجعل الناس يترحمون على أسياد الأقطاع وطواغيت رأس المال فذلك هو المحير حقاً.

كان المفروض في مذهب ينادي بمساواة خيالية بين الناس، ويندد بالطبقة والطبقات والامتيازات والاحتكارات أن يكون ـ على الأقل ـ أقرب النظم العالمية إلى المساواة وأقلها فوارق بين الطبقات، هذا إن لم يحقق أحلامه الموعودة بالفردوس الأرضي. ولكن واقع الدول الشيوعية يصادم هذا الفرض كل المصادمة، وها هو ميليوفان دجيلاس نائب الرئيس «تيتو» يقول في كتابه الذي أسماه (الطبقة الجديدة):

«إن الطبقة البيروقراطية الشيوعية الجديدة صاحبة الامتيازات الضخمة تستخدم جهاز الدولة كستار وأداة لتحقيق مآربها وأغراضها الخاصة، وإذا ما عدنا لدراسة الملكية فإننا سنجدها ليست أكثر من حقوق الربح وحرية السيطرة، وإذا ما اتجه المرء إلى تحديد ربح الطبقة من خلال هذه الحقوق، وفي إطار تلك الحرية فإن الدول الشيوعية تتجه في النهاية إلى خلق شكل جديد من أشكال الملكية، وخلق طبقة حاكمة مستثمرة جديدة».

«إن الطغيان الشيوعي والإرهاب في أساليب الحكم هما الضمانة لامتيازات طبقة جديدة تبرز على المسرح السياسي».

«لقد سبق أن أعلن ستالين عام ١٩٣٦ مع صدور الدستور الجديد للاتحاد السوفييتي أن الطبقة المستثمرة قد تم القضاء عليها

نهائياً، وفي الحقيقة لقد تم في المعسكر الشيوعي القضاء التام على قوى الرأسمالية الوطنية التي استؤصلت تماماً من الجذور، ولكن مع زوالها بدأت تبرز في صلب المجتمع الشيوعي طبقة جديدة لم يسبق للتاريخ أن رأى لها مثيلاً.

«ولقد أكدت هذه الطبقة أنها أكثر تسلطاً في الحكم من أية طبقة أخرى ظهرت على مسرح التاريخ كما أثبتت في الوقت نفسه بأنها تحمل أعظم الأوهام وأنها تكرس أعتى أساليب الظلم في مجتمع طبقي جديد.

«لقد تم تأميم المقدرات المادية إلا أنه لم يجر توزيعها على أبناء الشعب، بل أصبحت ملكاً مكتسباً للطبقة الحاكمة وللأعضاء القياديين للحزب والبيروقراطيين السياسيين». «لقد حاز الأعضاء الكبار من أفراد النخبة الممتازة على أفضل المساكن والبيوت كما شيدت لهم الأحياء الخاصة ومنازل الاصطياف وحصل أمناء سر الحزب ورؤساء البوليس السري ليس على السلطة العليا وحسب، إنما على أجمل المساكن وأفخم السيارات وسواها من مظاهر الأبهة والعظمة والامتيازات، أما بقية الأعضاء من دونهم مرتبة فقد حازوا على امتيازات متناسبة مع مراكزهم الحزبية».

«وليس هناك أية طبقة أخرى في التاريخ تشابه الطبقة الجديدة في وحدة تماسكها، ووحدة الفكر والعمل في دفاعها عن نفسها، وفي قدرتها على إحكام القبضة على كل ما هو واقع تحت سيطرتها من الملكية الجماعية حتى السلطة الاستبدادية المطلقة».

«هذه الطبقة الجديدة تتمتع بشراهة وجشع البرجوازية إلا أنها لا تحتوي أية فضيلة من فضائلها، ومن جهة أخرى فإن هذه الطبقة تشابه الطبقة الارستقراطية في بعض أمورها الخاصة، وبطابعها

الانفرادي والانعزالي ولكنها تظل بعيدة عنها في مجال رقتها ونبلها وفروسيتها»[٦٣].

أما الكاتب الفرنسي «أندريه جيد» الذي أصيب بخيبة أمل عظمى في الشيوعية بعد زيارته للاتحاد السوفييتي فيتحدث في كتابه «العودة من الاتحاد السوفييتي» عن هذا الواقع بأسلوبه الأدبي قائلاً:

«... ماذا أقول عن فندق «سينوب» الذي كنت أقطن فيه بجوار «سوكوم» لقد كان أرقى وأسمى من كل شيء آخر، بحيث لا يقارن إلا بأفخم فنادق أوروبا وأعظمها... وكان بجوار الفندق مزرعة نموذجية تمده بثمرها، وكانت المزرعة تشتمل على زرائب نموذجية للخيل والبقر والخنازير وبيوت للدجاج، وكلها مهيأة بالوسائل الحديثة، إلا أنك إذا عبرت النهر الذي يحد هذه المزرعة رأيت صفاً من الأعشاش الحقيرة يعيش في كل حجرة من حجره الصغيرة ـ ستة أقدام مربعة ـ أربعة أفراد ويدفع كل منهم روبلين إيجاراً شهرياً».

«إن اختفاء الرأسمالية لم يجلب الحرية للعامل السوفييتي، ومن الضروري للطبقة العاملة في كل مكان أن تعلم هذا، إن العمال طبعاً لم يعد يستغلهم حملة الأسهم الرأسماليون إلا أنهم مع ذلك يستغلون أبشع الاستغلال وبطرق خفية منحرفة ملتوية بحيث لم يعد العمال يعلمون على من يلقون اللوم.

«إن غالبيتهم العظمى يعيشون تحت مستوى الفقر، وإن أجورهم الهزيلة هذه هي التي تعين على ملء جيوب العمال المميزين الذين يمتازون بانعدام الشخصية وبالتزلف، والخضوع، إن الإنسان ليروعه ما يلحظه على ذوي الشأن من عدم مبالاة بمن هم أقل منهم شأناً، كما يروعه ما يظهره الأخيرون من تذلل وعبودية.

(٦٣) مقتطفات من الكتاب المذكور: ٥١، ٥٤، ٧٨، ٨١، ٨٣ و ٨٤.

«آمنًا بأنه لم تعد هناك طبقات أو امتيازات طبقية في الاتحاد السوفييتي إلا أن الفقراء لا زالوا هم الفقراء بل إن عددهم جد كبير. . . إنني أخشى أن يكون معنى هذا كله العودة إلى نوع من «برجوازية الطبقة العاملة» تشبه البرجوازية الحقيرة التي تركتها في بلدي، ولقد بدأت فعلاً أرى أعراضها ولا شك أن كل رواسب البرجوازية موجودة ــ رغم الثورة ــ لدى الكثيرين وإن كانت هاجعة راقدة.

«إن الإنسان لا يمكن إصلاحه من الظاهر، فإن تغيير القلب وإصلاحه أمر جوهري ولذلك يراودني القلق عندما أرى كل الغرائز البرجوازية تلقى الاطراء والتشجيع في الاتحاد السوفييتي»..

«رغم أن ديكتاتورية الطبقة العاملة التي طالما نادوا بها لم تتحقق بعد، إلا أنه توجد مع ذلك دكتاتورية من نوع آخر، دكتاتورية الحكومة الاستبدادية «البيروقراطية السوفييتية» إن العامل السوفييتي البائس مربوط بمصنعة والعامل الزراعي مربوط بمزرعته الجماعية كارتباط «أكسيون» بعجلته، إن العامل إذا فكر في ترك عمله الحالي لأي سبب شخصي كان يتصور أو يأمل أن يكون في غير هذا المكان أحسن حالاً أو أقل سوءاً، أو لمجرد أنه يرحب بالتغيير فإنه وهو المصنف المسجل المنظم يصبح على خطر من ألا يجد عملاً في أي مكان، بل إنه إن ترك مصنعه ولو ظل باقياً في نفس المدينة يحرم من مسكنه الذي كان من حقه طالما هو في العمل، والذي يصعب أن يجد غيره في أي مكان آخر رغم أنه مع ذلك كان يدفع إيجار هذا المسكن. . . أما إذا قامت السلطات نفسها بنقل العامل لسبب من الأسباب، فإنه لا يستطيع أن يرفض الانتقال، فلا هو حر في الذهاب إلى حيث يريد ولا في البقاء حيث تجمعت عواطفه الخاصة ومصالحه الشخصية»(٦٤).

---

(٦٤) والصنم الذي هوى: ٢٢٢ ــ ٢٢٦.

وإذا كان هناك الكثير من الشواهد القاطعة تثبت الواقع البشع الذي يعيشه الانسان في ظل الجاهلية الشيوعية، والمآسي الشنيعة التي يتعرض لها ليس في فكره وروحه فحسب بل وفي قوته اليومي أيضاً، فإن بعض المخدوعين بالشيوعية يروعهم التقدم الملموس في المستوى الصناعي، فيغشي أبصارهم عن الحقائق المرة المصاحبة لهذا التقدم، فينسون أولاً أن سعادة الإنسان وطمأنينته هي المقياس الحقيقي لنجاح أي عقيدة أو مذهب وليس الانتاج المادي بالغاً ما بلغ، وهذه الحقيقة يعترف بها أحد المرتدين عن الشيوعية وهو الكاتب القصصي «لويس فيشر» الذي يسخر من نفسه حينما كان يفضل الكيلووات على الانسان مخدوعاً بانجازات الثورة الشيوعية في بعض مجالات الانشاء والتعمير(٦٥)، والحقيقة الثانية هي أن التفوق الشيوعي في المجالات المدنية ضئيل إذا قورن بالمستويات التي وصل إليها الغرب، وإن المجال الذي برز فيه الشيوعيون هو ميدان الانتاج الحربي بصفة خاصة، وما ذلك إلا لإحكام القبضة الحديدية على الشعب وإرهابه بدرجة تجعله يطرد من ذهنه كل أمل في الخلاص وكل طمع في عون خارجي.

والحقيقة الثالثة: إن مكاسب هذا التقدم تؤول إلى الطبقة الحاكمة المستبدة وحدها، وأن الشعب هو الضحية والثمن فلولا معسكرات العمل الاجباري لما تحقق كل ذلك.

يقول «دجيلاس»:

إذا كان من الأمور الممكنة إحصاء الخسائر الناجمة عن نظام الملكية الجديد في المحاصيل الزراعية، وفي المواشي فإنه من الصعب جداً إحصاء الخسائر في اليد العاملة وفي ملايين الفلاحين الذين،

---

(٦٥) انظر المصدر السابق

زجوا في المعتقلات وأجبروا على العمل في معسكرات العمل الاجباري»[٦٦].

غير أن مؤلف كتاب «نظاما البشرية: الديمقراطية والشيوعية» يعطي أرقاماً قد تقرب هذه الحقيقة فيقول:

«في عام ١٩٢٨ كان في روسيا ٣٠ ألف عامل سخرة، وعندما قرر ستالين في مشروع الخمس سنوات أنه سينشىء صناعات جديدة في روسيا بدأت معسكرات السخرة تمتلىء بسرعة، وما أن حل عام ١٩٣٣ حتى كان فيها خمسة ملايين من عمال السخرة، وبمرور الزمن ارتفع هذا الرقم الى ما يتراوح بين عشرة ملايين وخمسة عشرة مليوناً.. ولم يكن يرسل إلى معسكرات السخرة في بداية الأمر غير الأعداء الحقيقيين للحكومة السوفييتية، ولكن لم تكد تمضي فترة طويلة حتى تم تحويل عدد كبير من الناس إلى عمال سخرة لمجرد الشعور بأنهم قد يصبحون في يوم من الأيام خطراً على الحكومة، وهذا فضلاً عن أن الحكومة احتاجت إلى عمال لتنفيذ مشروعات في مناطق نائية لا يمكن أن تجتذب عمالا يذهبون باختيارهم».

«وفي الصين أيضاً أنشئت معسكرات السخرة بسرعة عقب انتصار الشيوعية في الحرب الأهلية عام ١٩٤٩، وقد قدر عدد عمال السخرة في الصين الحمراء بأكثر من عشرين مليوناً[٦٧]، هذا بالاضافة إلى أن التقدم الصناعي ليس معياراً كافياً، وذلك لسبب كامن في طبيعة العمل الصناعي ذاته، وهو إمكان خضوعه للمراقبة من قبل البوليس السري الذي يعرف مهمة كل عامل ويستطيع بسهولة أن يكتشف تقصيره، إذ أن العمل موزع توزيعاً دقيقاً، أما العمل الزراعي الذي يصعب خضوعه لمثل هذه المراقبة الآلية ففيه تظهر

---

(٦٦) الطبقة الجديدة: ٨٠.

(٦٧) وليم ابنشتين: ١٦٨ ــ ١٦٩.

الحقيقة بجلاء: لقد كانت روسيا القيصرية أكثر دول العالم إنتاجاً للقمح، بل إن جزءاً منها مثل «أوكرانيا» يكفي لامداد أوروبا كلها بالغذاء، ولكن الواقع الحالي يشهد أن الاتحاد السوفييتي يستجدي القمح من أعداء العقيدة «الرأسماليين الأمريكان» ويدفع ثمناً له العملة الصعبة، وهذا هو المحك الحقيقي لمقدار نجاح النظام الشيوعي أو فشله في جانبه الاقتصادي الذي يعده أهم وأرقى جوانبه.

ويقدم لنا «لويس فيشر» بعض الحقائق عن المزارع الجماعية في روسيا فيقول:

«إن هذه المزارع الجماعية ليست إلا نوعاً جديداً بارعاً من العبودية الجماعية يناسب القرن العشرين ويجبر الفلاح على العمل تحت رقابة بعض شيوعيي القرية المختارين وخزاتهم، ويجعله عالة على الدولة ومحتاجاً إليها دائماً في بذوره وآلاته وحيواناته ومعظم دخله. وكان من الطبيعي أن يلقى هذا التأميم للزراعة مقاومة عنيفة بعيدة المدى، وقد شاهدنا كيف كان رد الحكومة على هذه المقاومة، لقد أرسلت بمئات الآلاف من «الكولاك» أو أغنياء الفلاحين إلى معسكرات العمل الجماعية، ولم يكف هذا النفي الجماعي لتحطيم القرية... واستعمل المسؤولون القوة لإجبار الفلاحين على الدخول في هذه المزارع الجماهية، وكثيراً ما كانت وحدات الجيش الأحمر تظهر في القرية وتنتقل من كوخ إلى كوخ، مصدرة أمرها إلى السكان بتشكيل مزرعة جماعية. وكان الفلاحون يهددون بالنفي إلى سيبريا والتركستان، كما حدث في الكولاك إذا تشبثوا بالزراعة الفردية. بهذه الوسائل وغيرها أمكن أن تحشر الغالبية العظمى من الفلاحين الروس في المزارع الجماعية، ولكنهم مع ذلك ظلوا يعارضون أو يهدمون المجهود التعاوني فقد كانوا يأملون حتى الآن أن تعتبر الحكومة هذه

المزارع الجماعية فكرة فاشلة، ثم تتنازل عنها، وقد أدت هذه الأمور في أوكرانيا إلى مجاعة ١٩٣١ـ١٩٣٢ التي مات فيها الملايين من الناس فكانت القرية تموت بجميع من فيها، لقد كان ثمن تسرع البلاشفة وتعصبهم غالياً[٦٨].

ويقول أندريه جيد:

«لقد حدث أن زرت إحدى المزارع الجماعية النموذجية وهي من أبدع مزارع الاتحاد السوفييتي وأغناها، ودخلت بيوتاً متعددة وليتني أستطيع أن أنقل إليكم ذلك الانطباع المطرد الكئيب الذي يحس به من يدخل هذه البيوت، من أثر انعدام الفردية انعداماً كاملاً، لقد كان في كل منها نفس قطع الأثاث القبيحة، ونفس الصورة للزعيم «ستالين» ولا شيء غير هذا، فلم يكن هناك أدنى أثر لأي تحف أو ممتلكات شخصية، ولو دخل أحد السكان بيتاً غير بيته ناسياً لما أحس بأي تغيير أو اختلاف»[٧].

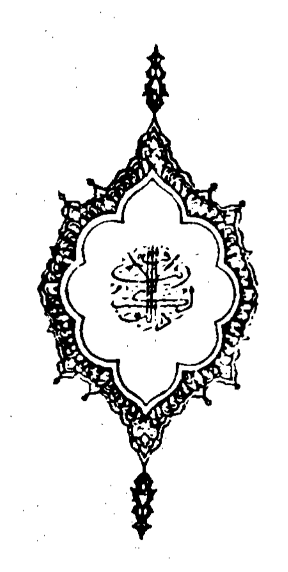
هذه هي الأمثلة الواضحة لتطبيق الشيوعية والمعيار السليم للحكم عليها، وتلك هي نتائجها الاقتصادية المزرية، فضلاً عن نتائجها السياسية الفظيعة، التي تتمثل في وقوع الكثرة الكاثرة من الشعب عبيداً في قبضة الحكومة الاستبدادية، مرهونين بقوتهم الضروري وأمنهم المحفوف بالمخاطر، كما سبق في فصل «علمانية السياسة».

ومع أن في وسعنا أن نفصل القول فيما سبق ـ إلا أننا سنكتفي بهذا الاجمال، إذ أن الواقع المعاصر ملء سمع وبصر كل إنسان أوتي حظاً من المعرفة والنظر، وليس إدراك هذه الحقائق مما يخفى على

---

(٦٨) الصنم الذي هوى: ٢٥٣.

الكثير، ولكن الذي يخفى فعلاً ويغيب عن أذهان الناس في الشرق والغرب سواء، هو سر هذه الأدواء الوبيلة الحقيقي ومصدر هذا الشقاء المستديم الذي يطبق فكيه على العالم الغربي الجاهلي ولا يستطيع منه خلاصا.



الفصل الثالث

علمانية العلم

سبق أن عرضنا في الباب الثاني فصلاً من الصراع بين الكنيسة وبين العلم ولمحنا الخطوط العريضة لتلك المعركة الضارية وبعض نتائجها السيئة ووصل بنا العرض التاريخي إلى القرن التاسع عشر حيث رأينا في فصل آخر كيف أجهزت الداروينية على الرمق الباقي في حطام مدعيات الكنيسة وتعاليمها.

ولعل من الأوفق ـ قبل أن نعرض لموقف العلم المعاصر تجاه الدين ـ أن نلقي نظرة سريعة على الموقف في القرن الماضي إذ هو بمثابة الأساس لما تلاه في هذا القرن. وقد حاول مؤلف كتاب «تكوين العقل الحديث» أن يُجمل الصورة العامة للنزاع بين العلم والدين آنذاك فكان هذا الموجز:

«إن نمو العلم الميكانيكي والنقد العلمي للتوراة وانفجار قنبلة التطور عام ١٨٥٩م أبرزت الخلاف بين التقاليد الدينية والعلم الحديث».

وفصّل ذلك في موضع تال قائلاً:

«أدى النقد التاريخي إلى اهمال الكثير من الاعتقادات، كما هدم العلم الميكانيكي بدوره مقداراً أكبر منها. ومنذ نقد هيوم للمعجزات في القرن الثامن عشر رفض المتدينون الأحرار الاعتقاد بأي خرق

للقانون الطبيعي ونظامه وفسروا أخبار المعجزات بأنها من نتاج أسباب طبيعية انسانية كالسذاجة والخيال والخرافة. ثم أن التفسيرات الجيولوجية والبيولوجية لماضي العالم قد أدت بالطبع إلى اهمال أي اعتقاد حرفي بالحوادث الواردة في الفصول الاولى من سفر التكوين.

«وأخيراً أهمل القرن التاسع عشر بشكل أكيد الاعتقاد بأن «الله» مبدأ علمي. فقد اختفى الخالق صانع الساعة الذي تصوره عصر التنوير مع تقدم التفسيرات العقلية والعلمية عن كيفية تشكل الكون. وإذا كان المتدينون من الناس ما زالوا يعتقدون بوجود خالق وراء هذه العمليات الطويلة فهم يفعلون ذلك على أسس دينية أكثر منها علمية»[1].

وكما ابتهج الماديون بالنصر الحاسم ـ ظاهراً ـ الذي ظفر به العلم على الكنيسة في معركة «أصل الانسان» والانسحاب النهائي لها من حلبة الصراع فقد كان الفلاسفة النظريون أيضاً لا يقلون عنهم رغم الخلاف في وجهات نظر الفريقين الذي بلغ مداه في الصراع بين الواقعية والمثالية. وإلى ذلك يشير «هنتر ميد» في كتابه عن الفلسفة:

«في الجزء الأكبر من القرون الوسطى مثلاً كانت العلاقة الرسمية بين الفلسفة والدين تتلخص في أن للفيلسوف الحرية في الوصول إلى أية نتائج قد يوحي بها تفكيره شريطة الا تكون هذه النتائج متعارضة مع نتائج الوحي واللاهوت المقدس».

«والواقع أن الفلسفة لم تتمكن من التحرر من هذه القيود إلاّ منذ أقل من قرنين من الزمان حتى في البلاد الديمقراطية الليبرالية ذاتها بل إن هذه الحرية قد اكتُسبت في مجالات معينة منذ وقت يذكره اناس

---

(١) راندال: ٢/٢٢٥، ٢٤٣.

ما زالوا أحياء ولما كان هذا الاستقلال قد اكتسب بعد كفاح مرير فمن المنطقي أن تنظر إليه جماعة المشتغلين بالفلسفة على أنه أهم الحريات المدنية وأن تعده جديراً بأنه يحفظ بأي ثمن»[٢].

نعم. ذلك هو الحال وتلك هي النتيجة.

انفلات من قيود الكنيسة وانعتاق من أغلالها وفرحة غامرة بالفكاك من قبضتها والتملص من وصايتها فماذا يتوقع من عبد أحس بنشوة الظفر لأنه أبق عن سيده؟ أو أسير شم نسيم الحرية بالفرار من معتقله؟

لقد اندفع تيار أهوج في كل القنوات الفكرية والعلمية في اوروبا تيار يريد أن يجرف كل شيء اسمه «دين» أو له علاقة بهذا الاسم ويطمس كل موحى من موحياته ويمحو كل أثر من آثاره. وكانت غاية من يسمون «أحرار الفكر!» هو الدفع بهذا التيار إلى الأمام ما أمكن وبسرعة أقصى. لا لأن ذلك ما يمليه «المنهج العلمي» «وحرية الفكر» ولا لأنه مقتضى النظر الموضوعي المتسم بالتعقل والتروي بل لأنه نتيجة رد الفعل المتهور ضد الكنيسة الذي لا تكاد حدته تخف حتى تلهبها آثار سياط الكنيسة في ظهورهم.

وكما عرف الناس ورأوا واقع ما قاله «كويت» من «أن كل خطوة إلى الأمام في البحث عن المعرفة قد حوربت باسم الدين»[٣] فقد بدا لهم مصداق ما قاله «الفرد هوايت هد»:

«ما من مسألة ناقض العلم فيها الدين إلا وكان الصواب بجانب العلم والخطأ حليف الدين»[٤].

---

(٢) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها: ٣٣.

(٣) تاريخ البشرية. اليونسكو: ١/٢/٦ ص.

(٤) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين: ١٢.

وما لهم لا يصدقون بذلك وقد رأوا بأم أعينهم سلسلة الهزائم المتلاحقة التي منيت بها الكنيسة أمام العلم يضاف إلى ذلك طغيانها البغيض الذي يقابل المنجزات العلمية والتيسيرات المذهلة التي حققها العلم في وسائل الحياة:

قالت الكنيسة: إن الأرض مسطحة وهي مركز الكون ـ لأجل عملية الخلاص ـ وقال كوبرنيق أنها كروية وتدور حول الشمس وثبت لهم أن الكنيسة كاذبة والعلم مصيب! وقالت الكنيسة أن الكون والانسان خلقا في ستة أيام عادية سنة ٤٠٠٤ ق. م. وقال «ليل وداروين» أن عمر الكون يقدر بمئات الملايين من السنين والانسان بالملايين وثبت أنهما على حق وأن الكنيسة مبطلة.

وقالت الكنيسة إن ١ + ١ + ١ = ١ وأثبتت بدهيات الرياضة أن مجموع ذلك = ٣. وقالت الكنيسة ـ تبعاً لأرسطو ـ أن الكون مكون من أربعة عناصر وقال العلم أن عناصره تزيد على التسعين[٥] وصدق العلم وكذبت الكنيسة..

وقالت الكنيسة أن التوراة والأناجيل والرسائل كتب موحاة من الله. وقال النقاد التاريخيون أنها من صنع مؤلفين غير موضوعيين. وظهر أنهم على صواب فيما قالوا... وقالت الكنيسة أن الخبز والخمر في العشاء الرباني يتحولان إلى دم وجسد المسيح حقيقة، وقال العقل والعلم والبديهة ذلك أبعد المحال.

وقالت الكنيسة إن الرهبانية وسيلة للطهر وفضيلة سامية وقالت علوم النفس والاجتماع أنها تصادم الطبيعة وتفضي بالجنس البشري إلى الهلاك المحقق.

---

(٥) وصلت الآن إلى حوالي ١٠٤ عناصر.

وقالت الكنيسة إن المرض من الشياطين يمكن مداواته بإقامة القداس والتمسح بالصلبان. وقال الطب أن سبب المرض كائنات بالغة الدقة يمكن افناؤها بالمستحضرات الكيماوية، وأخفقت الكنيسة في حين نجح العلم وأثبت جدواه...

وهكذا سلسلة طويلة محزنة في مقدور الرجل العادي أن يستعرضها ليخرج بنتيجة حاسمة هي أن العلم دائمًا على صواب وأن الدين على خطأ باستمرار. لا سيما وأن الكنيسة قد علمته أن ليس ثمة شيء يستحق أن يسمى ديناً إلا تعاليمها المقدسة وإزاء ذلك بدا من المنطقي جداً أن تتعالى أصوات الناقمين من العلماء وسواهم: ليتحرر العلم من قيود الدين ولتذهب تعاليم الدين إلى الجحيم.

العلم هو وحده الحق والحكم وهو مصدر النور كما أنه منبع الرفاهية أما الدين فجمود ورجعية وخرافات وأساطير.

وإذا عرضت مسألة فليخرس الدين ولينطق العلم!

ليبحث العلماء ويستخرجوا قوانين الطبيعة وأسرار الكون في الهواء الطلق بعيداً عن الدين!

الدين شيء والعلم شيء آخر لا علاقة بينهما إلا التضاد. وإذا كان لا بد من اخضاع أحدهما للآخر فليخضع الدين ولتطبق كل حقائق الدين كالوحي والمعجزات والروح والخلود داخل المعامل والمختبرات وإلا فلتسقط إلى الأبد!

والحذر الحذر أن يخطىء رجل العلم فيضمن أبحاثه وتجاربه شيئاً من مصطلحات رجل الدين أو يقحم شيئاً من تفسيرات الدين في صلب تفسيراته لمظاهر الطبيعة لأن ذلك إفساد للروح العلمية وأي إفساد!.

وإذا جاز لرجل العلم أن يعتقد شيئاً من الدين بدافع شخصي

فإن عليه ـ كما عبر بوترو ـ حين يدخل المعمل أن «يترك بالباب معتقداته الدينية ويستعيدها عند خروجه»(٦).

ومن خلال هذا نتبين أن موقف الكنيسة كان العامل الأكبر الذي أفضى إلى العداوة الشرسة للدين من قبل العلم والتحلل الكامل من كل قضاياه ومؤثراته.

على أن هناك عاملاً آخر يرفد هذا العامل ويؤازره وهو عامل داخلي نابع من طبيعة النفسية الجاهلية الاوروبية ذاتها. ومستقر في شعورها أو لا شعورها وبإمكانه أن يقوم بأثر واضح حتى وإن لم يوجد العامل الخارجي المتمثل في موقف الكنيسة.

ذلك أن الارث الديني والوثني في النفسية الاوروبية يصور العلاقة بين الاله والمخلوقين ـ فيما يتعلق بالعلم والمعرفة ـ على أنها صراع محتدم وتنافس ضار. الاله يفرض الجهل على الانسان ويتعمد تجهيله إلى الأبد بأية وسيلة خشية أن ينافسه على مقام الالوهية لو وقع في يده شيء من نور العلم والإنسان يسلك وسائل شتى ويستعين بوسائط عدة لكي يستغفل الاله ويختطف من وراء أسواره شيئاً من العلم يمكنه من التحرر والانطلاق.

أما الإرث الديني فتمثله «قصة آدم» عليه السلام كما رواها سفر التكوين من العهد العتيق: «وأخذ الرب الاله الانسان وجعله في جنة عدن ليفلحها ويغرسها وأمر الرب الاله الانسان قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها. فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً». «وكانت الحية أحيل جميع حيوان البرّية الذي صنعه الرب الاله فقالت للمرأة: أيقيناً قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منها

---

(٦) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة: اميل بوترو: ٣٢.

ولا تمساه كيلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا!! إنما الله عالم أنكما في يوم تأكلان منها تنفتح أعينكما وتصيران كآلهة عارفي الخير والشر. ورأت المرأة أن الشجرة طيبة للمأكل وشهية للعيون وأن الشجرة مُنية العقل فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت بعلها أيضاً معها، فأكل فانفتحت أعينهما! فعلما أنهما عريانان فخاطا من ورق التين وصنعا لهما مآزر». «وقال الرب الاله: هوذا آدم قد صار، كواحد منا، يعرف الخير والشر والآن لعله يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيا إلى الدهر فأخرجه الرب الاله من جنة عدن».

وأما الإرث الوثني فخير نموذج لـه الأسطورة الإغـريقيـة الشهيرة:

«زيوس هو رب الآلهة والناس جميعاً وكانت الصراعات بينه وبين الآلهة تنشب باستمرار وكان بينه وبين الاله «بروميتوس» عداوة أيضاً. فخلق بروميتوس الانسان من الطين وعندما انتهى من تشكيله نفخت فيه الروح الإلهة «أثينا» وحقد زيوس على الجنس البشري وقصد حرمانهم من كل خير في الدنيا وابتلاهم بحرمانهم من النار التي هي ضرورية جداً للانسان. ولكن بروميتوس سرق النار من السماء أو من مصنع هيفايستوس اله النار والحرف وبخاصة الحدادة كما علم البشر الفنون والحرف متحدياً الاله الأكبر فلما تعلم الانسان ذلك يئس زيوس من مقدرته على اهلاكه لكنه ظل على الدوام يتحين الفرصة للانتقام منه وتقليل فرص المعرفة أمامه كيلا يتجاوز حدوده فيصبح الهاً»(٧).

هذا ولا يحط من قيمة هذا العامل أن علماء الغرب قد نبذوا الايمان بالدين والأساطير إيماناً اعتقادياً وأصبحت قضايا تاريخية وأدبية «فإنه من المشهور في علم النفس أن الانسان قد يفقد جميع الاعتقادات

---

(٧) انظر مثلاً اساطير الاغريق، ج ٥، سلسلة تراث الإنسانية

الدينية التي تلقنها أثناء طفولته بينما تظل بعض الخرافات الخاصة في قوتها تتحدى كل تعليل عقلي في جميع أدوار ذلك الانسان»[٨].

هكذا رسخ في النفسية الاوروبية شعور متأصل بأن كل ظفر للانسان في مجال العلم والمعرفة إنما هو هزيمة لإرادة الاله وكل كشف يعرض له إنما هو سرقة واغتصاب من كنزه المحظور. ولذلك أصبح أعز أمانيها ليس أن تتحرر من قيود الاله فحسب بل أن «تقهره قهراً» حسب الاستعمال الشائع لدى «العلماء»! عند إحراز أي تقدم في أي ميدان. وحتى بعد أن تخلت اوروبا عن عبادة زيوس وجوبيتر ورفضت عبادة اله الكنيسة معتنقة عبادة «الطبيعة» ظلت هذه الأمنية «قهر الطبيعة» أعظم أحلامها.

يقول كتاب «تاريخ البشرية» الذي أصدرته اليونسكو:

«كانت الفكرة العامة في معظم المجتمعات في الماضي أن الطبيعة موجودة ببساطة تؤثر في حياة الانسان على نحو لا يتغير، وإزاء قوتها العارمة لم يحاول أن يطوعها كثيراً لاحتياجاته بل كان عليه أن يكيف نفسه وفق ما يلائمها ولكن انسان القرن العشرين قد أخذ بخناق الطبيعة مصممًا على أن يستخرج أسرارها وأن يستغل مواردها وأن يقهر آثارها الخطرة»[٩].

ويقول نخبة من العلماء السوفيات في كتاب أصدروه:

«الطبيعة كتوم لا تبوح بأسرارها. فهي تكتب قوانينها بنظام شفري غامض ثم تُحكم غلقها واخفاءها بعيداً في خزانات متينة.

---

(٨) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق: ٦١.
(٩) ٢/٦ : ١، ص ٢١.

وهي لا تكشف عن أسرارها إلا قسراً فلا تعطي الباحثين من هذه الأسرار في كثير من الأحيان إلا بدائل للحقيقة فقط»[١٠]

وهذا يذكرنا بقول «داروين» أيضاً أن الطبيعة كانت تكذب عليه مراراً خلال مشاهداته[١١].

وإذا كانت هذه هي نظرة العلماء إلى الطبيعة. أي الاله الجميل الذي فروا إلى أحضانه هرباً من سطوة اله الكنيسة. فما بالك بنظرتهم إلى الله تعالى. الذي لا يتبادر إلى أذهانهم عند اطلاقه ـ إلا أنه اله الكنيسة الطاغي الحقود الذي يتعمد تجهيل الجنس البشري وحرمه من المعرفة.؟ لقد ذهب بهم الغلو إلى حد أنهم يرفضون ذكر اسم الله على أي بحث علمي أو فيه حتى لو كان للتبرك فقط.

ولنفرض أن عالماً لا دينياً قاده عقله ونظره إلى استنتاج حقائق رائعة وأسرار مذهلة لم تملك فطرته حيالها إلا أن تستيقظ قائلة: إن الله هو الذي صنع هذا وغير سائغ أن ننسبه إلى أي مسمى أعمى غامض كالطبيعة والمصادفة... الخ فماذا يكون موقف «أحرار الفكر العلميين» منه.؟

يقول «ليكونت دي نوي»:

«لا يشعر اللاأدريون والملحدون بشيء من القلق لكون عالمنا المعضى (العضوي) الحي لا يمكن فهمه بدون افتراض الله «ويظهر إيمانهم ببعض العناصر الطبيعية التي لا يعرفون عنها إلا النزر اليسير بمظهر ايمان لا عقلي، وهم يشعرون بذلك. وقد ظل بعضهم عبيداً للفظية ساذجة وقد بدا لي البرهان على ذلك في رسالة تلقيتها بعد نشر أحد مؤلفاتي يوجه إليّ صاحبها أشد اللوم لأنني استعضت عن كلمة

---

(١٠) الفضاء الخارجي والإنسان: ٢٥.

(١١) فن البحث العلمي و.أ. ب. بفردج: ٤٩.

«مضاد للمصادفة» وهي مُرضية في نظره بكلمة «الله» التي يجب أن تنسخ من المعاجم ويمنع استعمالها». «ويدل الاعتراض الوارد في الرسالة المذكورة على أن عدم التسامح المنتشر في القرون الوسطى لم يمت مع أنه انتقل إلى المعسكر الثاني. ولحسن الطالع لا يتمتع مراسلي بالسلطة الكافية لفرض اعتقاداته الصبيانية على مواطنيه باسم العقل ويمكن التثبت أيضاً من أن بعض «أحرار الفكر» ينظرون إلى الحرية نظرة تشبه نظرة الديكتاتوريين»[١٢].

وحين رأى أنصار «المنهج العلمي» أن الذي يدعو الباحثين إلى الايمان بالله ونسبة الأفعال الكونية هو مايرونه في الكون من دقة وحكمة واتقان تدل بوضوح على أن له غاية محددة وهدفاً مقصوداً مما يدعم الايمان بالله ـ لما رأوا ذلك ـ بحثوا عن أجدى السبل للحيلولة دون الوصول إلى هذه النتيجة فلم يجدوا إلا القول المتعصب المتحكم بأن الوجود ليس له غاية أصلاً. وأن القول بذلك ينافي فن البحث العلمي. وقد عبر بعضهم عن ذلك قائلاً: «إن العلماء يجب أن يتساءلوا عن «الكيفية» لا عن السبب. إن السؤال عن السبب يعني أن هناك غرضاً عاقلاً وراء تصميم الأشياء وأن عوامل فوق طبيعية توجه الأفعال نحو غايات معينة. وهذه هي وجهة النظر «الغائية» وهي وجهة نظر يرفضها العلم الحالي الذي يجاهد في فهم طريقة عمل جميع الظواهر الطبيعية وقد أشار فون بروكه إلى ذلك ذات مرة قائلاً: «إن الغائية سيدة لا يقدر أي عالم بيولوجي أن يحيا بدونها ومع ذلك فهو يخجل أن يظهر بصحبتها أمام الناس»[١٣].

إلى هذا الحد بلغت مصادمة الفطرة وبلغ ارهاب أعداء الدين

---

(١٢) مصير الإنسان: ٢٧٥/٢٧٧.

(١٣) فن البحث العلمي: ١٠٧ ـ ١٠٨.

لمن يسايرها وهو ارهاب معنوي يقوم بالدور نفسه الذي كانت السلطة الكهنوتية تمارسه. كما أن لإحرار الفكر طغيانهم الفكري الذي يضارع طغيان الكنيسة. وكيف لا يكون كذلك وهو إنما نشا رد فعل له؟ فحين تفرض الكنيسة بالقوة أن يؤمن الانسان بالثالوث رغم أنفه، كذلك يوجب هؤلاء أن يكون الانسان ملحداً رغم أنفه والفرق بينهما هو مصدر الإرغام فقط.

يقول وليم جيمس:

«لا يزال بعض رجال المذهب الوضعي ينادي اليوم قائلاً: هناك إله واحد مقدس يقف في جلاله وعظمته بين أنقاض كل إله غيره وكل وثن وهو الحقيقة العلمية وليس له إلا أمر واحد وقول واحد وهو: أن ليس لكم أن تؤمنوا بإله»[١٤].

وعندما يحرج الباحث العلمي في مأزق لا يستطيع معه إلا أن يقول: «الله» كما في مسألة نشأة الحياة وأصل الكون وأمثالها فماذا يصنع؟ أيساير العقل والفطرة فيصرح بذلك ويعد نفسه مخلاً باسلوب البحث العلمي ومقصراً في متابعة المنهج العلمي السليم. أم يتوقف عن المسألة نهائياً؟

إن رواد الفكر الحر! قد سبقوا إلى حل المعضلة ووضعوا أمام الباحث خياراً بين أساليب أحلاها مر. معتقدين أنها تؤدي إلى المقصود دون اخلال بالمنهج العلمي منها:

١ ـ استعمال صيغة الفعل اللازم واسناده إلى ما حقه أن يكون مفعولاً في الأصل. ويظهر ذلك جلياً في اسلوب «جيمس جينز» عند حديثه عن نشأة الحياة الاولى فهو يقول: «الأرض مغطاة بالسحب بشكل يسمح بنفاذ ضوء الشمس ويجعل درجة الحرارة ثابتة رغم شدة البرد ليلاً...

---

(١٤) العقل والدين: ٩٨.

اتحد ثاني أكسيد الكربون الموجود في الهواء مع بخار الماء الذي انبعث من أحد الينابيع الحارة بواسطة الشمس...

نشأ من ذلك هلام يتكون من مواد كربوايدراتية، امتصت هذه المادةالنيتروجين من بعض مركبات النشادر...

نشأ أول كائن مفترض وهو «البيرثبيون» وصادف أن زحف فوقع على جزيء من الطعام فامتصه.

تحول هذا الكائن إلى «البروتوزون» وهو أدنى الحيوانات الموجودة[١٥]»وكقول «اوبارين»:

«نشأت الحياة على الأرض من تطور المادة غيرالعضوية نتيجة لسلسلة من التفاعلات الكيمائية»[١٦].

٢ ـ استعمال كلمة «الطبيعة» ذلك المعبود الذي أشرنا إلى ظروف تأليهه سابقاً. وذلك كالعبارة المشهورة عن داروين «الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق».

وكقول هيكل (صاحب نظرية الأثير):

«الطبيعة تحتوي في ذاتها على كل القوى المطلوبة لاحداث جميع صور الوجود فيها والأنواع ينشأ بعضها من بعض بالتحول طبقاً لقوانين وتبعاً لترتيب في الامكان منذ الآن تحديده... فلا شيء في الطبيعة لا يفسر بالطبيعة ولا شيء تقدم على الطبيعة ولا شيء يسمو عليها. فالطبيعة عند من يعرف قوانينها وبخاصة الانتخاب الطبيعي والتطور هي ذاتها التي خلقت نفسها»[١٧].

---

(١٥) تاريخ العالم ١/٩٤ ـ ٩٥.

(١٦) سلسلة تراث الإنسانية: ٢/١٧٤.

(١٧) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة: (اميل بوترو): ١٠٥ ـ ١٠٦.

وهذا الاسلوب أكثر الأساليب استعمالاً وهو الذي امتلأت به الكتب «العلمية» وتؤثره المناهج الدراسية على كافة المستويات.

٣ ـ استعمال صيغة الفعل المبني للمجهول للتخلص من نسبة الفعل إلى فاعل ما: وذلك كما في قول «جوليان هكسلي»:

«توجد مجموعات لا حصر لها من الظروف المختلفة والتي يمكن أن تتلاءم معها الحياة». وقوله: «الطريقة المتقنة التي خلق بها الانسان وتركيبه الطبيعي يمكن أن تدرك فقط بوضوح بالنسبة لبيئته»[١٨].

٤ ـ استعمالات أخرى هي أشبه ماتكون بصفات غير صحيحة لله تعالى مثل الاصطلاح الذي أطلقه «ادنكتون»: «مضاد للمصادفة»[١٩]! ومعلوم أن المضاد لها هو الحكمة والتدبير.

هـذا وليست معضلة أصل الحياة هي المشكلة الوحيدة التي تواجه «المفكرين الأحرار» ولكنها من أكثر المشاكل إثارة للتخبط والاضطراب بينهم. وهي تصلح نموذجاً للمنهج اللاديني الذي يأبى التسليم بأية قوة غير مادية لا تنتظم مع آليته الجامدة.

فقد كانت النظرية السائدة في القرن التاسع عشر هي نظرية «التولد الذاتي» التي اشتهر بها «اغاسيز» ومؤيدوه. وظل الماديون متشبثين بها بإصرار وعناد في مقابل القائلين بالخلق الالهي حتى انهارت وتقوضت دعائمها على يد «باستور» بعد سلسلة من المشادات والتجارب تؤلف قصة رائعة[٢٠].

حينئذ لم يجد الملاحدة مايسترون به عورتهم إلا نسيجاً مهلهلاً

---

(١٨) العلم اسراره وخفاياه: ٥٧٠ ـ ٥٧٨.

(١٩) مصير الإنسان: ٧١.

(٢٠) انظر فصل «باستور» مواقف حاسمة في تاريخ العلم: جيمس. ب. كونانت.

أسموه «نظرية المصادفة» وكان أشهر أبطال النظرية من انجلترا أمثال «جيمس جينز» و «برتـداند رسل» ـ ولا تزال حالياً ـ أوسع النظريات انتشاراً بين علماء الأحياء المعاصرين لا سيما في أميركا.

ولكن هذه النظرية أثارت من علامات الاستفهام ما جعلها عرضة للنقد والتشهير. وتوالت البحوث المضادة لها حتى استطاع العالم السويسري الشهير «شارل اوجين جي» أن يسدد اليها ضربة قاضية في منتصف هذا القرن. فقد أثبت بالأساليب الرياضية التي لا مراء فيها أن هذه النظرية غير علمية على الاطلاق وأن حجم الكون الذي يمكن أن تنشأ فيه أدنى درجة من الحياة بطريق المصادفة هو أكبر من حجم كوننا حسب تقدير «ألبرت آينشتاين» بأرقام لا يمكن التعبـير عنها بالألفاظ.

(كرة نصف قطرها = ١٠ أس ٨٢ سنة ضوئية)[٢١].

وبذلك وقع الماديون في مأزق جديد أشد حرجاً. وكان المفروض أن ينتقلوا إلى الاحتمال الحقيق وهو الخلق الإلهي. لكن الغرور والتعصب جعلهم ينتكسون مرة ثانية إلى القول بنظرية التولد الذاتي مع محاولات يائسة وتفسيرات جديدة للخروج من التناقض الذي يقعون فيه نتيجة إيمانهم اليوم بما ثبت بطلانه بالأمس.

ولنأخذ مثلاً لهذا التفكير المتنكس رجلين أحدهما من كبار علماء الحياة في الغرب. والآخر رئيس الأكاديمية العلمية السوفيتية.

أما الأول فهو «جورج والد» وقد أسهب في الحديث عن نظرية التولد الذاتي وفصل القول في قصة تهافتها وانهيارها لكنه عاد ليقول:

---

(٢١) أي ١٠ أمامها ٨٢ صفراً. انظر مصير الإنسان: ٦٥ ـ ٦٦ وانظر كذلك العلم يدعو للايمان: كريس موريسون والله يتجلى في عصر العلم، مجموعة من العلماء.

«ونحن ننقل إلى المبتدئين في علم الأحياء هذه القصة لتمثل إنتصار العقل على الإعتقاد. وهي تمثل في الحقيقة عكس ذلك تقريباً. فالنظرة الصائبة هي الإعتقاد في التولد الذاتي والبديل الآخر الوحيد لها هو الإعتقاد في الخلق الخارق للطبيعة الذي يعد حدثاً فريداً وأساسياً، ولا يوجد بديل ثالث لهما ولهذا السبب فقد اعتبر كثيرون من المشتغلين بالعلوم منذ قرن مضى عقيدة التولد الذاتي كضرورة فلسفية. وإن من أعراض عجزنا الفلسفي حالياً أن هذه الضرورة فقدت تقديرها.

«وبرغم أن أحدث المشتغلين بعلم الأحياء قد أثلج صدورهم إنهيار عقيدة التولد الذاتي فإنهم ليسوا على استعداد لتقبل العقيدة البديلة لها وهي الخلق الخاص، ومن ثم فقد فقدوا جميع الإحتمالات!.

«وإني لأعتقد أنه ليس ثمة إختيار أمام المشتغل بالعلوم سوى أن يتفهم أصل الحياة عن طريق فرض التولد الذاتي، ويبدو التعارض فيما أبديناه سابقاً فقط في الإعتقاد أن المعضيات الحية تبعث تلقائياً في الظروف الحالية ومن ثم فلا بد لنا من مواجهة مشكلة مختلفة نوعاً ما وهي كيف يمكن أن تبعث الكائنات تلقائياً في الظروف المختلفة في فترة غابرة وتعجز بعد ذلك عن إبداء هذه المقدرة»(٢٢).

ورأى والد «أنه لو استطاع العلم أن ينتج في المعمل مادة حية من أبسط المواد تركيباً وهي مادة (D. N. E.) فإن معضلة النشوء الذاتي ستحل وسترتقي الفرضية إلى درجة الحقيقة العلمية.

وأخيراً... وبعد أن أجهد نفسه في بحوث عقيمة حول ذلك اعترف بعجزه بمرارة ولكنه لم يثب إلى رشده بل أخذ يمنّي نفسه ويعلل

---

(٢٢) العلم اسراره وخفاياه: ٣٠٤.

المتطلعين إلى نتائج هذه التجارب بأن النشوء الذاتي ممكن علمياً ولكن للأجيال القادمة؟ وبشرط واحد فقط: هو أن تكون التجربة على غير هذا الكوكب! فهو يقول:

«إذا عجزنا عن تحقيق ما نتمناه فليس معناه أننا فقدنا كل شيء، فسلالتنا البشرية سوف تحاول مرة أُخرى في غير هذا المكان»[٢٣].

والنتيجة نفسها تكررت مع الشاهد الآخر «أوبارين» فقد كلفه «ستالين» أن يثبت علمياً بأن الحياة نشأت تلقائياً من المادة ليدعم بذلك العقيدة الرسمية للدولة. وفعلاً أمضى أوبارين وأعضاء أكاديميته (٢٠) عاماً في محاولات دائبة غير مجدية. إلاّ أنه في سنة ١٩٥٥ قال:

«إن النجاح الذي حققته علوم البيولوجيا السوفيتية حديثاً يؤيد «الوعد» بأن مسألة خلق كائنات حية بسيطة بطرق صناعية ليس ممكناً فحسب بل سيتحقق عما قريب».

وظل الناس يترقبون هذا الوعد ومات ستالين قبل أن تقر عينه بتحقيقه وفي سنة ١٩٥٩ في المؤتمر الدولي للبحار بنيويورك لم يفاجىء أوبارين العلماء بقوله:

«إن جميع المحاولات التي أجريت لتوليد الحياة من مواد غير عضوية سواء تحت ظروف طبيعية أوفي المعمل قد باءت بالفشل»[٢٤].

وبالرغم من هذه الخيبة فلم يرعو عن غيه ويؤمن بالخلق الإلهي، بل وعد وعداً آخر بأن في الإمكان توليد الحياة بشرط أن تكون المحاولة

---

(٢٣) المصدر السابق: ٣١٨.

(٢٤) سلسلة تراث الإنسانية: ٢/١٨٠.

على كوكب غير الأرض وذلك نظراً لأن ظروف الأرض الحالية لم تعد مهيأة لذلك»[٢٥].

ومعنى كلام هذين العالمين!: «إن على المرء أن يؤمن بنظرية التولد الذاتي رغم أنفه، فإذا ساوره الشك في صحتها ورغب التأكد من ذلك فما عليه إلّا أن يحزم أمتعته ويستعد للقيام برحلة فضاء في أعماق الكون حتى يصادف كوكباً تشابه ظروفه ظروف الأرض عند نشوء الحياة الأولى عليها. أو ينتظر حتى تأتي الأجيال القادمة وتقوم بهذه الرحلة. وحينئذ سيتأكد لديه تماماً أن نظرية الخلق الإلهي نظرية رجعية وأن نظرية التولد الذاتي نظرية علمية صحيحة١٠٠٪!!.

على أن هناك حقيقة كبرى غابت عن ذهن العالمين العبقريين وهي أنهما لو استطاعا ـ فرضاً ـ تحضير مادة حية في المعمل من المواد غير العضوية لما قالا أن شيئاً من المصادفة أو النشوء الذاتي أو الطبيعة هو الذي أنشأها بل سيقولان بتبجح أن ذلك نتيجة جهودنا وثمرة بحوثنا الدائبة.

ولعل مسألة أصل الحياة تلقي الضوء على الأسلوب الذي ينتهجه الماديون والمنهج الذي يطبقه الباحثون اللادينيون في ميدان التعليم والبحث وهو المنهج الذي يفرض على أتباعه الإنسلاخ والتجرد عن كل موحى من موحيات الدين مهما أيدها العلم وهتفت لها الفطرة ويلجئهم إلى الهروب من الإيمان بالله وإن أدى بهم ذلك إلى ارتكاب حماقات لا تليق بألقابهم العلمية العريضة.

وإذا كان علم القرن العشرين في أوروبا عامة يرفض التحالف مع الدين فإن للعلم داخل الستار الحديدي وضعاً أشد تطرفاً وأسوأ

---

(٢٥) انظر: الله جل جلاله ـ سعيد حوى: ٥٧.

استخداماً... ففي الوقت الذي يرفع فيه علماء الغرب الديمقراطي شعار «العلم للعلم» نجد العلماء السوفيت يرفعون شعار «العلم للعقيدة» وفي أوقات أكثر صراحة يقولون «العلم للحزب». وقد صرح أحد علماء روسيا قائلاً:

«العلم السوفيتي إنما هو علم حزبي، علم طبقي». وأخذ يندد بما عدا ذلك من الشعارات معلناً أن ما يقال عن دولية العلم وكليّته كلام فارغ تستخدمه الطبقة البرجوازية ومن يصوغون لها مذاهبها.

ويقول رئيس أكاديمية العلوم السوفيتية سنة ١٩٢٩:

«إن الفيزياء السوفيتية كالعلم السوفيتي دخلا في حياة الدولة منذ زمن بعيد ووجها كل قواهما إلى خدمة بلدنا هذا لاستيفاء كل الحاجات اللازمة لبناء مجتمع شيوعي.

«والفيزياء الشيوعية تبني عملها على ما اعتنق العالم من المادية المنطقية تلك التي رفع من أمرها تآليف لينين وستالين وهي تآليف أمدتها العبقرية فيها بروح منها»[٢٦].

والعجيب في أمر علماء الشيوعية ــ وكل أمرها عجب ــ أن نتائج بحوثهم معروفة لهم سلفاً. فمن المحال أن يخرج أي كشف من كشوفهم عن الدائرة التي رسمها لهم الحزب الشيوعي أو يصادم أي رأي من آراء ماركس وأنجلز العلمية بالرغم من أن أقصى ما وصل إليه عصرهما من علوم لا يساوي شيئاً إذا قورن بالمستوى الحالي في كل الميادين. ولا يستثنى من ذلك إلاّ التنقيحات والتعديلات التي أجريت رسمياً على يد لينين وستالين.

ولذلك فإن هذا الجمود الأعمى كان ولا يزال محط نقد وتشهير

---

(٢٦) هو وما قبله: مواقف حاسمة في تاريخ العلم: ٤٨٩ ــ ٤٩٠.

كثير من المفكرين الشيوعيين لا سيما من كانوا خارج الستار الحديدي.
وقد سمى «روجيه غارودي» هذا النوع من العبودية الفكرية مرة «المعتقدية» ومرة «الأفكار اللاهوتية» يقول غارودي:

«وهكذا قَبلنا في حماس ـ حتى دون أن تفرض علينا ـ بالمعتقدية الستالينية وكانت هذه الستالينية مركزة كلها في عشرين صفحة خاطفة يفترض أنها تضم خلاصة كتب الحكمة الفلسفية، وكما كانت هناك (كتب) تعلمك «اللاتينية بلا دموع» وأُخرى تعلمك «اليونانية وأنت تضحك» كانت هذه الصفحات تضع الفلسفة في متناول الجميع وفي ثلاثة دروس:

الدرس الأول: في الأمور العامة (الأنطولوجيا) مبادىء المادية الثلاثة.

الدرس الثاني: في المنطق: قوانين الجدلية الأربعة.

الدرس الثالث: في فلسفة التاريخ: المراحل الخمس لصراع الطبقات.

وطوال العهد الذي سيطر عليه هذا الأسلوب من التفكير لم يكن هناك من فلسفة ماركسية. بل هذر «مدرسوي»[٢٧] يزعم أن عنده الجواب على كل الأمور دون أن يعرف طبيعتها من علم الحياة إلى فلسفة الجمال مروراً بالزراعة والكيمياء»[٢٨].

وكان ستالين يفرض على العلماء نتائج معينة يجب عليهم الكدح الدائب لإثباتها علمياً كما سبق في مسألة أصل الحياة. كما أن موضوع قوانين الوراثة يعتبر مما يثير السخرية البالغة، فالعقيدة الماركسية تنكر بشدة أن يكون للعوامل الوراثية من الأثر ما يزعمه علماء الوراثة

---

(٢٧) الفلسفة المدرسية هي فلسفة القرون الوسطى الأوروبية.

(٢٨) ماركسية القرن العشرين: ٣٤، ٣٥.

البورجوازيين في الغرب. لأن ذلك يضعف قيمة العامل الاقتصادي البيئي الذي هو كل شيء في نظرها لذلك فإن ستالين حسب تعبير «رسل» قد تمادى حتى أصدر قراراً بأن قوانين الوراثة الطبيعية يجب أن تصير من الآن فصاعداً مغايرة لما كانت عليه وإن على الخلايا ناقلات الوراثة أن تنصاع للقرارات السوفيتية لا لذلك القس الرجعي «مندل»![29].

وقد أوضح ـ أرثر كُستلر ـ العضو السابق للحزب الشيوعي ـ المآسي التي يتعرض لها العلماء السوفيت الذين تقودهم تجاربهم إلى نتائج مغايرة لسياسة الحزب الرسمية مهما كان مجال عملهم علمياً بحتاً كالكيمياء والفيزياء. فما بالك بمن يوصله بحثه إلى شيء من الإيمان بالله أو الدين؟

إن مثل هذا الشقي سيتلقى جزاءاً رادعاً، ولا يشفع له ما أمضاه من سني عمره في خدمة الحزب الشيوعي[30].

ونستطيع أن نقول إن طبيعة المنهج اللاديني في العلم والبحث تفرضها في الغرب الرأسمالي دوافع نفسية وعوامل تاريخية موروثة بينما تفرضها في الشرق ـ بالإضافة إلى ذلك ـ القوة الإرهابية للبوليس السري.

---

(٢٩) العقل والمادة: ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ومندل هو مكتشف قانون الوراثة في القرن الماضي.

(٣٠) انظر الصنم الذي هوى: ٧٦، وكذلك مواقف حاسمة في تاريخ العلم: ٤٩٠ فصاعداً.

أثر الفصل
بين العلم والدين في المجتمع المعاصر

عندما انتصر العلم الحديث على خرافات الكنيسة وأساطير القرون الوسطى الأوروبية وهدم أساليب البحث وطرق الاستنباط المدرسية التقليدية كان ذلك بلا ريب نصراً كبيراً للإنسانية في كل مكان وفتحاً جديداً في عالم المعرفة والنور.

لكن هذا النصر والفتح اختفيا تحت ركام الإستغلال البشع لما أنجزه الإنسان من تقدم في المعرفة استخدم للقضاء على الدين ذاته ودك أسسه بإسم «العلم»:

لقد صورت المعركة التاريخية بين العلم وبين الخرافة على أنها معركة حقيقية بين الدين والعلم، ونتيجة لذلك افتعلت عداوة أبدية بين خصمين لم ينشب بينهما شجار على الإطلاق ولا يمكن أن يكون بينهما خصام في وضع سوي على الإطلاق.

وأياً ما كان الأمر فقد نجح المغرضون والهدامون ـ من الموتورين بطغيان الكنيسة وأعداء الجنس البشري المتربصين ـ في اختلاق هذا الخصام النكد وزحزحت حقائق وقيم الدين من ميدان العلم والبحث، وظل العلم يمارس عمله متخبطاً في دائرة مغلقة لا علاقة لها

بدين أو خلق ولا تهدف إلى غاية أسمى ومثل أعلى فماذا كانت النتيجة؟.

إن بعض المنتسبين للعلم يعتقدون عن طيب خاطر... أنهم قد أحسنوا صنعاً بعزل العلم عن الدين وإن إشفاقهم على الدين من مواجهة العلم هو الذي دفعهم إلى المناداة بالفصل التام بينهما، وهي دعوى تجد آذاناً مصغية لدى بعض المنتسبين إلى الدين كذلك.

ولكن الواقع المحسوس في أوروبا يكذب هذه الدعوى فوق أنها في الأصل تنمّ عن الجهل بالدين أكثر مما تدل على الحرص عليه. ولقد كان «بوترو» على حق حين قال ناقداً هذا الاتجاه في القرن الماضي:

«لم يعرف العلم ولا الدين أن يقصر كفايته وعمله على ماله من ميدان فسيح أما الحكمة الجارية «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله» فقد فسرت في ذلك الوقت لا على أن الملكات الدينية في الإنسان ليس لها شأن بملكاته العلمية فقط[1]، بل على أنه يوجد في الأشياء نفسها عالمان هما الفكرة والمادة، الميدان الروحي والميدان الزمني وليس لأحدهما أن يتدخل في شأن الآخر بأي وجه من الوجوه. ولكن هذا الفرض إذا كان توفيقاً مريحاً فليس هو الحقيقة الواقعة بل يكاد يكون عكس هذا (هو) الواقع»[2].

إن أصحاب هذا الاتجاه قد ارتكبوا غلطة كبرى ـ وهي من الغلطات الرئيسية للجاهلية المعاصرة ـ وذلك بتوهمهم أن النفس البشرية تقبل التجزئة ويمكن أن يكون لكل جزء منها دائرته الخاصة. لقد كان أول ثمار هذا الفصل أن فشى الإلحاد بشكل

(١) حتى على هذا التفسير تظل العبارة مرفوضة من وجهة النظر الإسلامية.
(٢) العلم والدين: ٣٨.

لم يعرف التاريخ له مثيلاً. وقوضت دعائم الدين واجتثت تصوراته وإيحاءاته الأخلاقية باسم العلم والمعرفة وطبقت أوروبا عملياً النصيحة التي أسداها هيكل وهي أن «التعليم أعظم عمل يقوم به المجتمع الذي يرغب في التخلّص من الأديان»[٣].

فكان أن جردت المناهج التعليمية وكذلك البحوث والدراسات العامة من كل معنى ديني وأصبحت علمانية بحتة. ووضع التناقض النفسي الشابَّ المثقف أمام خيار صعب بين الإيمان بالله مع وصمة الرجعية والجمود وبين الإلحاد المقرون بالتنور وحرية الفكر واختارت الأغلبية الساحقة الإلحاد فراراً من التهم الملصقة بالمؤمنين وتمشياً مع ما سمي «التطور والعصرية». يقول جود:

«لا أستطيع أن أعد أكثر من ستة من معارفي ممن أعدهم مؤمنين بالمسيح والمسيحية في حين أستطيع أن أعد بسهولة أكثر من مئة من معارفي الملحدين... أصبح من النادر أن تجد مثقفاً متديناً... أصبح الذين يذهبون إلى الكنيسة هم في الأغلب من الطاعنين في السن أو النساء غير المثقفات وهم مع ذلك لا يزيدون على العشر (أي من سكان بريطانيا)[٤].

وحول ما أسماه كاتبوه «نظرة الناس إلى المتهم في القرن العشرين» كتب مؤلفو «تاريخ البشرية» الذي أصدرته منظمة اليونسكو:

«مع أن يقينيات علم نيوتن في القرن التاسع عشر قد حلت محلها النسبية العلمية واللايقين، فقد زاد تغلغل العلم في المناطق التي كان يحتلها الدين حين اتجه أصحاب البيولوجيا والكيمياء إلى فهم

---

(٣) المصدر السابق: ١١٤.

(٤) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين: ١١.

طبيعة الحياة وحين وصل علماء الفلك إلى مكتشفات جديدة حول أصول العالم المحتمل ومستقبله. وحين تغلغل علماء النفس في أغوار الإنفعالات وشبه الشعور واكتشفوا منطقة التدين!، وحين أدى تزايد حجم المدن الصناعية باستمرار إلى وجود مجتمع غير ملائم دينياً مؤثر في عدد متزايد من سكان العالم.

وفي المناطق التي يسيطر عليها الشيوعيون نشرت المعارف العلمية عن العالم والمجتمع لتكون وسيلة لمحاربة العقائد الدينية وأصبح ينظر إلى المؤسسات الدينية على أنها ستار للاستغلال البورجوازي الذي لا مكان له في المجتمع الحديث»[٥].

والنتيجة التي حدثت في المجال العلمي التجريبي نفسها حدثت في مجال الفلسفة النظرية فقد وقع «ديكارت» في الغلطة نفسها باعتقاده أن الثنائية بين العلم والدين ــ كما حاول أن يحدد فلسفتها ــ ستحول دون انهيار المسيحية وتتيح لكل من الدين والعلم الحرية في مجاله الخاص، ولكن آل الأمر إلى أن تقول الفلسفة الحديثة:

«يتميز موقف الفيلسوف على خلاف موقف الديني. . . بأنه موقف تجرد ونظر خالص فهو يرى أن مسألة الله بأسرها من حيث وجوده ومن حيث طبيعته معاً هي مسألة مفتوحة تماماً. فالفلسفة لا تعرف «أموراً مقدسة» لا يمكن الإقتراب منها والمفكر الميتافيزيقي لا يشعر عند معالجته لمفهوم الكائن الاسمى بخشوع يزيد على ما يشعر به إزاء أية مسألة أُخرى من تلك المسائل القصوى التي يحار لها ذهن الإنسان.

وأن من أول ما يتعلمه دارس الفلسفة أن نفس وجود ميدان

---

(٥) ٦: ٢/١ ص ٢٩٠ ــ ٢٩١.

الفلسفة هذا بوصفه نشاطاً عقلياً له دلالته، يتوقف على حقنا في مناقشة أية فكرة أو أي تصور أو أي قيمة أو قانون أو نشاط أو نظام داخل في نطاق التجربة البشرية وكما يقال أحياناً على سبيل المزاح، فحتى الله نفسه «ينبغي أن يقدم أوراق اعتماده أمام مدخل مدرج الفلسفة»[٦].

وهناك مشكلة أخرى هي في الواقع إمتداد للمشكلة سالفة الذكر وهي «نفي الغائية التي تبناها العلميون» منهجياً كما سبق فقد مدوا نطاقها حتى ألف الناس أن يسمعوا منهم أن وجودهم على هذه الأرض لا غاية له ولا هدف بل قذف به سير التطور البطيء الطويل صدفة واتفاقاً، أو حسب رأي هيكل أن «الإنسان في ضوء الفلسفة العلمية لن يكون مركز الكون وغايته، بل حلقة في سلسلة الكائنات كما تتصل الديدان باللافقريات أو الأسماك بالديدان، وليس امتياز الإنسان إلّا حالة من التقدم الاستثنائي الذي امتازت به الفقريات على أنواع جنسها خلال التطور العام»[٧].

وقد عاد ذلك بأسوأ الأثر على الأخلاق والقيم الإنسانية التي ظل بنو الإنسان محتفظين بها منذ وجدوا على الأرض وخرجت في أوروبا أجيال آمنت بالعبثية والعدمية والفوضوية والوجودية وأضرابها من أشكال الفلسفات العابثة التائهة وعمت موجة غريبة طاغية من التبرم والضيق بالحياة ومحاولة الهروب من السير في جادتها وأصبح التخلص من التفكير في ذلك هو الغاية الكبرى لكثير من الناس لا سيما ذوو الإحساس المرهف.

---

(٦) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها: ٣٨، ولا يخفى ما في هذا المراء من التناقض، والسخف اللذين لا داعي لهما إلا الغرور الكاذب والجرأة الوقحة.

(٧) العلم والدين: ١٠٥.

وتنغصت حياة الناس بقلق وذعر لا يكادون يستبينون مصدريهما وأخذت تعصف بهم دوامة من الحيرة والضياع تزداد سعاراً كلما تذكروا أن وجودهم في هذه الدنيا لا يزيد هدفاً وحكمة عن وجود أدنى الديدان وأحط الحشرات.

ونتج عن ذلك ــ مما نتج ــ أن استهان الفرد بنفسه وفقدت حياته معناها وقيمتها فأصبح الانتحار بوسائله المتعددة أمراً مألوفاً. بل أصبحت المسابقات والمباريات الفردية والجماعية تعتمد بالدرجة الأولى على المخاطرة والزج بالنفس في الأهوال واستأثرت مناظر العنف باهتمام الناس سواء أكانت على الطبيعة أم في وسائل الإعلام.

وقد ضج كثير من الباحثين المشفقين لهذه المآسي المروعة وعلى رأسهم الدكتورأليكسس كاريل وتلميذه ليكونت دي نوى الذي ألف حول هذا الموضوع كتابه الشهير «مصير الإنسان» وهذه بعض أقواله في مقدمته:

«كان نمو الجبهة المادية من الحضارة ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر قد أثار اهتمام البشر وجعلهم ينتظرون بشيء من القلق ما يتمخض عنه الغد من معجزة فلم يبق لهم الوقت الكافي للإهتمام بالمشاكل الحقيقية أعني المشاكل الإنسانية، وقد تعاقبت الاكتشافات الرائعة المدهشة بدون انقطاع منذ سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٩١٥ فبهرت عقول الناس كما يبهر أول مشهد من السيرك عقول الأطفال وأنستهم المآكل والمشرب، وقد أصبح هذا المشهد الجسيم رمزاً للواقع وصرف النظر عن القيم الحقيقية وقد طمسها نور الكوكب الجديد... لقد شعر الكثيرون بالخطر المحدق وأنذروا به غير أن أحداً لم يصغ إليهم، لأن معبوداً جديداً غريباً كان قد ولد ولأن عبادة جديدة قد طغت على الشعب هي عبادة المستحدث».

«وكان من الطبيعي أن يتحول تدريجياً الإحترام الذي كان يستأثر به الكهنة دون سواهم، إلى أولئك الذين أفلحوا في تسخير قوى الطبيعة وكشف بعض أسرارها وهكذا انتشرت المادية وياللأسف ليس بين العلماء فحسب بل بين الشعب أيضاً».

«إن القلق العصري ناتج على الأخص عن أن الذكاء حرم الإنسان كل مبرر لوجوده بأن قوض باسم علم لا يزال في المهد أسس التعاليم التي ظلت حتى اليوم تعطي الحياة الفردية معنى الجهاد وتشير إلى هدف سام يجب بلوغه وهي الأديان».

«إن نكران حرية الإرادة ونكران التبعية الخلقية واعتبار الإنسان مجرد وحدة فيزيائية كيمياوية وجزءاً من مادة حية قل أن تتميز عن الحياة. كل هذا يؤدي حتماً، إلى موت الإنسان الخلقي وخنق كل روحانية وكل أمل فيه ويؤدي إلى ذلك الشعور الرهيب الموهن بالبطلان الكامل.

«والواقع أن ما يميز الإنسان كإنسان هو وجود الفكرة المجردة والخلقية الروحية فيه، وهو إن فخر فإنما يفخر بها، وحقيقة وجودها لا تقل عن حقيقة وجود الجسد وهي التي تعطي الجسد قيمة لا يحصل عليها بدونها»[٨].

ومن جهة أخرى كتب مؤلفو «تاريخ البشرية» المشار إليه سلفاً يقولون: «إن سيطرة الإنسان على الطبيعة قد كانت من أسباب زلزلة يقينه فيما يتعلق بغاية لحياة الإنسانية، ذلك أن الإنسان كان راضياً بما كتب له وبأن مصيره يحدد بقوانين أخلاقية عليا من عند الله فكان يشعر بأنه يخدم غرضاً سامياً إذا هو سار على هدى الأخلاق الكريمة. وهكذا

---

(٨) مقتطفات من ٩ ـ ١٧.

نرى أن ارتفاع مكان الانسان في مواجهة الطبيعة قد أعطاه إحساساً كبيراً بقوته الخاصة ولكنه لم يمنحه الضوابط الأخلاقية لحسن استخدام هذه القوة. ولما كان كل اكتشاف أو اختراع جديد يأتي معه بأخطاء كبيرة تحدق بالانسان فقد انتابت الانسان آمالاً كبرى وكأنما قد فتحت له فردوساً جديداً لم يكن يخطر له على بال. ولكن ظهرت بظهورها أخطار كثيرة ــ غير إمكانية استخدامها عمداً لأغراض التدمير والخراب.

«وقد أخذ الناس يتساءلون: ترى هل حياتهم لها غاية؟ أم أن البشرية إنما تسير إلى الأمام بلا تبصر. يدفعها إلى الحركة ذكاؤها القلق الذي لا يستقر على حال؟ وما هي واجبات الإنسان نحو إخوته من البشر؟ ما هي المبادىء الأخلاقية التي تستطيع أن تهدي الانسان إلى خير السبل لاستخدام مقدراته الجديدة كيف يستطيع مع استخدام هذه القدرات أن يختار السبيل المؤدي إلى خير البشر؟»[٩].

وكان من الآثار السيئة ــ كذلك ــ لفصل العلم عن الدين ذلك التخبط المزعج الذي وقع فيه من يسمون علماء، خصوصاً فيما يتعلق بالشؤون التي لا يستطيع الإدراك البشري منفرداً أن يسبر أغوارها.

فمثلاً تعددت النظريات حول نشأة الكون إلى درجة تجعل أي مطلع عليها يشك فيها كلها، ومع ذلك فوجهات النظر فيها أقل اختلافاً منها فيما يتعلق بالنفس البشرية وسلوك الانسان وانفعالاته وشعوره وحريته وإرادته ففي الغرب اليوم عشرات المدارس النفسية ومئات الاتجاهات الفلسفية، كل منها يفسر الانسان تفسيراً خاصاً، ويعالجه من وجهة نظر مغايرة، ويكفي شواهد على ذلك التحليلية والسلوكية والروحية والعبثية والوجودية والبراجماتية... و... الخ.

---

(٩) ٦/٢: ١ ص ٢٢.

وكذلك الشأن فيما يتعلق بالبحوث والدراسات الاجتماعية فهناك عشرات من المدارس الكبيرة ينضوي تحتها ما لا يحصى من الاتجاهات الأقل شأناً ومن أشهرها: المدرسة الاجتماعية المتطرفة «دوركايم» والمدرسة النفسية «جبرائيل تارد» والمدرسة العضوية «سبنسر» والمدرسة الآلية «باركلي، سيمون» والمدرسة الحيوانية «الداروينيون» والمدرسة الفوضوية «باكونين»... وكل مدرسة تلعن أختها»[١٠].

أما الاضطراب حول «الذات الإلهية» فأوسع من أن يحصر، فإضافة إلى الذين ينكرون وجود الله ـ تبارك وتعالى ـ نجد من يقترح أن يكون الأثير العام هو الإله الذي يمكن أن يوفق بين العلم وبين عقائد رجال الدين[١١]. ومن يرى أن الله تعالى هو «المركز الذي تنبع منه العوالم كما تنبع الصواريخ من باقة عظيمة مع مراعاة أن هذا المركز ليس شيئاً بل هو انبثاق مستمر أو نبع متواصل»[١٢]. كما بعثت الفلسفات الصوفية القديمة لا سيما وحدة الوجود. وسئل بعضهم فزعم أن الانسان هو الإله على الحقيقة![١٣] بينما أكتفى آخرون بترديد لفظ «الطبيعة» وغلا فريق منهم في الشك حتى زعم أن الكون كله وهم لا حقيقة له ولا وجود لشيء خارج الذهن وليس هناك حقيقة موضوعية على الاطلاق[١٤]. ووصل الجنون ببعضهم إلى حد أن ادعى أنه هو الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ[١٥] أما الحيارى التائهون فجموع لا تحصى.

---

(١٠) انظر على سبيل المثال: علم الاجتماع ومدارسه د. الخشاب.
(١١) هو آرنست هيكل. العلم والدين. وليم جيمس: ٨٩.
(١٢) برجسون. سلسلة تراث الإنسانية: ٢/٤٤٨.
(١٣) منهم نيتشه ثم جوليان هكسلي.
(١٤) من هؤلاء جيمس جينز انظر الله يتجلى في عصر العلم: الفصل الأول.
(١٥) منهم نجنسكي. انظر: اللامنتمي: كولن ولسن: ٤٩.

وكان من نتيجة النفور الشديد من الدين أن أقحم بعض المتنسبين إلى العلم أنفسهم فيما لا يقع في دائرة عملهم وأخذهم شعور من الغرور الكاذب جعلهم يجزمون بأمور لا يملكون عليها أي برهان ويتوقعون للعلم البشري أن يحيط بعالمي الغيب والشهادة.

يقول «رسل»:

«القول بأن الانسان حصيلة أسباب غير مقصودة أو أن أصله ونشأته وآماله ومخاوفه وميوله ومعتقداته هي حاصل التركيبات الذرية العرضية وأن لا النار ولا البطولة ولا حدة التفكير والشعور تستطيع أن تحفظ حياة الانسان بعد القبر وأن كل جهد الانسان على مر العصور وكل العبادة وكل الالهام وكل العبقرية والانسانية مصيرها إلى الزوال عند نهاية النظام الكوني وحطامه. كل هذه الأشياء وإن كانت نوعاً ما عرضة للنقاش فيها فإنها أكيدة بشكل حتى أن ما من أية فلسفة ترفضها يمكن أن تعيش»(١٦).

ويقول هكسلي:

«إني لا أفهم إذا صح وجود حياة أخرى تحياها النفوس كيف لا نستطيع أن نجد سبيلاً إلى استكشاف هذه الحياة الأخرى، فلا شيء مما يتصل بالانسان يمكن أن يتوارى عمداً عن الانسان»(١٧).

ويقول هيكل:

«لو أعطيت وقتاً ومواد كيماوية لصنعت إنساناً»(١٨).

وهناك كثير من أمثال هذا الغرور الأحمق الذي ولده الشعور بأن

---

(١٦) ليس بالعلم وحده: ١٣٣ ــ ١٣٤.

(١٧) عن الطاقة الروحية: برجنسون: ٢٢.

(١٨) عن العلم يدعو للايمان: ١٥٠.

الانسان خصم للخالق. وأن في إمكانه أن يسرق علم كل شيء كما سرق النار المقدسة من قبل وإلا فلو أن لهؤلاء المسمين علماء إيماناً بالله ــ على الحقيقة ــ لكانوا أكثر الناس خشوعاً واعترافاً بين يديه.
وقد بلغ من غرور علماء الغرب وفرط استكبارهم أنه حتى نقاد الحضارة الغربية والمتنبئين لها بالانهيار يطلبون الدواء الناجح والحلول السريعة من العلم نفسه ويهيبون بالعلماء إلى دراسة مستقبل الجنس البشري والعمل على إنقاذه. ويطالبون بعقد مؤتمرات دولية لبحث هذه الشؤون. وهكذا تتخبط أوروبا وتحار. ومنهج الله ميسر قريب!.

بقي أن نشير إلى نتيجة أخرى ــ من نتائج فصل العلم عن الدين ــ وهي في نظر عامة الغربيين أكثر النتائج سوءاً مع أنها في نظرنا عرض للمرض وليست هي المرض ذاته، وهي مشكلة سوء استخدام العلم المتمثل في الدمار الذي يهدد البشرية صباح مساء نتيجة الكشوف في ميدان الذرة والحرب عموماً. يقول أحد الباحثين في كتاب «العلم أسراره وخفاياه»:

«إن العلم يواجه ورطة شديدة فالعلم هو البحث عن الحقيقة، وأساس العلم العقيدة الراسخة بأن الحقيقة تستحق الاكتشاف وأن البحث عنها إنما ينبع من أشرف صفة من صفات الروح الانسانية، ومع ذلك فهذا البحث عن الحقيقة هو نفسه الذي جعل حضارتنا تقترب من حافة هاوية الدمار. وعندما نواجه الآن السخرية التي تحولت إلى مأساة. وهي أننا كلما نجحنا في توسيع آفاق معرفتنا كان ذلك نذيراً بقرب الخطر الذي يهدد بالقضاء المبرم على الحياة البشرية على هذا الكوكب. فهذا السعي وراء الحقيقة أمدنا في اخر الأمر بالأدوات التي تمكننا من هدم مجتمعنا بأيدينا وبالقضاء على كل الآمال المشرقة لجنسنا ماعسانا فاعلين في هذا الموقف؟. هل نكبح جماح

العلم أم نتمسك بطلب الحقيقة رغم ما في ذلك من تمزيق وتبديد لمجتمعنا»[١٩].

أما دي نوى «فقد كاد يضع يده على مكمن الداء» إذ قال:

«إن الذكاء بنفسه خطر إذا لم يخضع لإدراك حدسي أو عقلي للقيم الخلقية وهو لم يفضِ إلى المادية بل إلى أعمال فظيعة، وقد كتب هذا الكتاب قبل اختراع القنبلة الذرية التي تبين ما نقول بطريقة واضحة. وفهم الجمهور أن انتصاراً فائقاً للعلم تحدى الطمأنينة الانسانية بأسرها، وحينئذٍ فهمت الأمم الدعوة متحضرة أن الاتحاد الخلقي وحده يقدر أن يدفع عنها هذا التهديد وكان الوقت قصيراً فلم نجد سبيلاً إلى الحماية إلا بواسطة اتفاقات خطية ويعلم الكل أنه لا قيمة للاتفاقات ولا ثقة بها إلا بالنسبة إلى الانسان الذي يذيلها بتوقيعه، وإذا لم يكن هذا الانسان مستقيمًا مخلصاً وإذا لم يكن يمثل شعباً يحترم كلمته فلا تعني شيئاً على الاطلاق».

«ولأول مرة في تاريخ الانسان أصبح النزاع بين الذكاء الصرف والقيم الخلقية قضية حياة أو موت. وكل ما نأمله هو أن تستفيد الانسانية من هذه الأمثولة لكننا لسوء الحظ لسنا واثقين من ذلك»[٢٠].

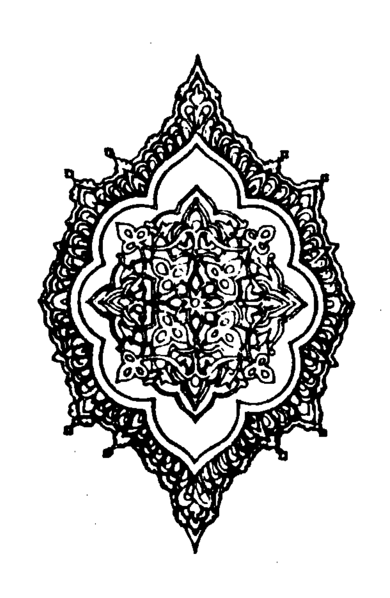
هذا قليل من كثير من النتائج السيئة التي جلبها الصراع المشؤوم بين دين أوروبا وعلمها ودفع إليها التعصب المقيت من قبل دعاة اللادينية في مجال مفروض فيه أن يكون أعظم طريق إلى الله وأقوى دافع إلى خشيته.

---

(١٩) ٣/٧٢٠ـ٧٢١.

(٢٠) مصير الإنسان: ٢٢٦ ــ ٢٢٧.

ولعل هذا العرض الموجز يعطينا الدليل القاطع على أن للفصل بين العلم والدين في أوروبا ظروفه وأسبابه الخاصة، ويقدم لنا شاهداً آخر ـ بالاضافة إلى شواهد كثيرة ـ على أن الجاهلية المعاصرة مهما تمسحت بالعلم والعقلانية ـ إنما تتحكم فيها ردود الفعل المتعارضة جيئة وذهاباً دون أن تَطعم ـ ولو مرة واحدة ـ لذة الهدوء والاستقرار.



الفصل الرابع

علمانية الاجتماع والأخلاق

مجتمع القرون الوسطى وأخلاقها

كانت أوروبا القرون الوسطى تعيش حالة من الهمجية والانحطاط لا يكاد يضارعها فيها أي جزء من العالم آنذاك، لا سيما القرون الثلاثة الأولى التي اصطلح مؤرخو الغرب على تسميتها «العصور المظلمة» وإن كان يطلق أحياناً على القرون الوسطى كلها العصور المظلمة تلك التي امتدت قرابة عشرة قرون[1].

كان التفسخ الاجتماعي والتدهور الأخلاقي يسيطران على حياة أوروبا القاتمة ابتداءً من غزو النورمانديين البرابرة لجنوب أوروبا وسقوط إيطاليا، خاصة، في أيديهم. لكن التاريخ مهما أسهب في وصف التدني الاجتماعي والأخلاقي لتلك الفترة لا يستطيع أن ينزع منها صفة «البشرية» فهي مهما بلغ انحطاطها لا تصل إلى القاع الحيواني الذي تنغمس فيه أوروبا المعاصرة، والصورة مختلفة بين مجتمعين أحدهما بشري متخلف والآخر حيواني هابط!

كان لمجتمع القرون الوسطى قيمه وتقاليده وأخلاقه البشرية، وهي قيم لمجردة وتقاليد وأخلاق قائمة بذاتها لا تتوقف على سند

(١) انظر الموسوعة الذهبية مادة «العصور المظلمة».

موضوعي أو عامل خارجي أياً كان، وبغض النظر عن مقدار مراعاتها وتطبيقها عملياً فإنها كانت حقائق مقررة لا مراء فيها وكان التمسك بها مدعاة للاعتزاز والخروج عليها مصدراً للاستنكار وجرحاً في الفضيلة والرجولة.

أما حراسة تلك القيم والأخلاق ومحاولة ترسيخها فكانت ملقاة على عاتق الكنيسة ومنوطة بجهود الآباء والرهبان الذين يقدمون النماذج العليا لها. غير أن الكنيسة بتحريفها لدين الله وابتداعها ما ليس منه أجرمت في حق نفسها وأتباعها. وأسهمت من غير قصد في هدم الأسس الأخلاقية التي قام عليها مجتمع القرون الوسطى وقام عليها سلطانها العظيم.

وقصة أخلاق الكنيسة تحكي تناقضاً صارخاً وتبايناً عجيباً:

فمن جهة «التصور» اشتطت الكنيسة وغلت في تصورها للفضيلة والخلق الرفيع ووضعت لها الشروط والمواصفات التي تنوء بالجهد البشري ولا يستطيع استكمالها ــ عدا الملائكة ــ إلا حفنة ضئيلة من البشر تتمتع بمزايا غير عادية ولا يصح أن تتخذ مقياساً لسائر بني الانسان.

ومن جهة «السلوك» تلطخت سيرة رجال الكنيسة وأعضاء الأديرة برذائل وأرجاس يترفع عنها الفرد العادي ويتستر عليها الفاجر البذيء ــ وقد سبق الحديث عن ذلك في الباب الأول ــ أي أنها في الوقت الذي تحلق فيه تعاليمها في السماء نجد أن واقعها يتخبط في الوحل!. فالعفة ــ مثلاً ــ خلق إنساني نبيل فطرت عليه البشرية ودعت إليه الأديان كافة، لكن الكنيسة بالغت في تصورها لهذا الخلق حتى حرمت ما أحل الله وأنكرت ما تلح عليه الفطرة وتدعو إليه الغاية من الوجود الانساني وذلك بابتداعها «الرهبانية» وتنفيرها الشديد من

المرأة لذاتها، فتعاليمها تقول عن النظر المجرد: «إذا نظرت عينك إلى معصية فاقلعها فإنه خير لك أن تفقد عضواً من أعضائك من أن يلقى جسدك كله في النار»[٢].

وانطلاقاً من ذلك حرمت الزواج على رجال الدين معتقدة أن رجل الدين لا يجوز له أن يهبط إلى مستوى أخلاق الشعب ويشاركهم في الاستمتاع الدنس!.

هذا من الوجهة النظرية. أما الواقع العلمي فشيء مختلف تماماً فقد كانت الأديرة مباءات للفجور ومواخير للدعارة وكان للبابوات والقساوسة من العشيقات والخطايا ما لا يكون لدى الملوك الدنيويين. وتولى منصب البابوية عدد من الأبناء غير الشرعيين لبعض الآباء والكرادلة[٣].

والمصيبة أن تلك الحقائق لم تكن خافية على الشعب بل كانت حديث الألسنة ومثار الجدل.

والجشع على المال والملذات خلق ذميم ـ ما في ذلك شك ـ ولكن الكنيسة غالت في ذمه وتحريمه والدعوة إلى الزهد والتقشف إلى درجة أنها حرمت المال الحلال وقدست الفقر وحظرت سبل الرفاهية وقالت أناجيلها «مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» وفي الوقت نفسه كان رجالها أجشع الناس وأغنى الملاك وأترف الأغنياء.

والتسامح خلق رفيع ومنقبة عظيمة ـ باتفاق العقول والفطر ـ غير أن الكنيسة بالغت في فرضه حتى أوجبت على أتباعها قبول الذل

---

(٢) هذا القول وأمثاله مما سيأتي تنسبها الأناجيل للمسيح عليه السلام. ولا نستطيع ان ننفي انه لم يقلها قطعاً. لكننا نقول انه على فرض صحتها فإن المقصود منها الترفع والتسامي وليس التكليف.

(٣) انظر مثلاً قصة الحضارة: ديورانت: ١٤/٣٧٥ ـ ٣٨٠.

وتحمل الظلم فقالت: «من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر أيضاً ومن سخرك ميلاً فامش معه ميلين، ومن نازعك رداءك فاعطه الآخر». وقالت «باركوا لاعنيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم».

كل هذا في العقيدة والتصور ولكن الواقع العملي يشهد أن الكنيسة ارتكبت من ألوان الظلم وفظائع الطغيان ما يتورع عنه جبابرة الفاتحين وعتاة المستبدين ولم تعرف رحمة ولا تسامحاً حتى مع مخالفيها من أتباعها أو أبناء دينها.

وهكذا الحال في سائر الصفات النبيلة والأخلاق المحمودة: تطرف وشطط في التصور وإسفاف وهبوط في السلوك، وكان لهذا التناقض الصارخ أثره البالغ على الناس في واقع حياة أتباعها أيام مجدها وسطوتها ثم في ثورة أعدائها بعد أن تصدعت أركانها وهوجمت من كل مكان.

كان أتباعها طيلة القرون الوسطى لا يستطيعون الارتفاع عملياً إلى المستوى المثالي النظري لأخلاقها ـ ولهم في ذلك العذر ـ فكانوا يتزوجون ويجمعون المال ويثأرون لأنفسهم من ظالميهم ويتصرفون في سلوكهم بعيداً عن قيودها التي لا تطاق. ولا يلزمون أنفسهم بتطبيق قواعد وأنماط سلوكية لم يسجل التاريخ أنها طبقت ـ بصورتها النظرية ـ على نطاق واسع في أية مرحلة من المراحل. لكنهم كانوا وهم يفعلون ذلك يجدون في أنفسهم تناقضاً وجدانياً ويشعرون أنهم ـ إذ لم يكونوا على الصورة المثلى ـ مقصرون ومخطئون يتعرضون للتأنيب المستمر من أعماق ضمائرهم وكان هذا الشعور ملازماً لهم نفسياً رغم أنهم مظهرياً يمارسون الحياة العادية بكاملها.

وتولد من ذلك إحساس دائم بالذنب لدى النفسية الأوروبية

كلما تاقت إلى مباح أو استمتعت بمتاع ـ وإن كان الحلال المحض! وهو إحساس توارثته الأجيال المتعاقبة حتى أصبح من الرسوخ بدرجة تجعل التخلص منه لا بد أن يأتي في صورة ثورة نفسية هائجة ورد فعل جانح وهو ما فعلته أوروبا الحديثة.

هذا من جهة، ومن حيث النظرة الشكلية العامة نجد أن مجتمع القرون الوسطى كان أسرياً في تكوينه زراعياً في حرفته، إقطاعياً في طبقاته ومراتبه ولكل ميزة من هذه المميزات انعكاسها الواضح على الأخلاق الاجتماعية:

فالنظام الأسري ساعد على ترسيخ فكرة المحافظة على العرض وقداسة العلاقة الزوجية حتى لقد كان القتل هو العقوبة المتوقعة للزوجة الخائنة ـ أو للمعتدي على العرض.

وطبيعته الزراعية أسهمت في المحافظة على الواجبات الفردية وعلى التقاليد المتوارثة منذ القدم والتي كانت مزيجاً من تعاليم دينية وأعراف اجتماعية تشكل بمجموعها قواعد أخلاقية ثابتة يلتزم بها المجتمع.

ولكن هذه الحال ـ في الوقت نفسه ـ بإهمال الكنيسة وأحياناً بإشرافها ساعدت على تشرب المجتمع لأفكار عتيقة وخرافات بالية من بقايا الأساطير القديمة أو من اختلاق القول الساذجة، روجها الجهل المطبق وهبوط المستوى العقلي للعامة والخاصة فتشابكت مع تلك القواعد الأخلاقية وامتزجت هذه بتلك مما أغرى الباحثين الاجتماعيين اللادينيين بالاعتقاد بأن تلك الأخلاق وليدة الخرافات نفسها أو قرينتها الدائمة.

ونظامه وطبقاته الاقطاعية أضفت عليه صفة الثبات المطلق الذي يميز عصر الاقطاع برمته، وذلك ما أوحى إلى الباحثين بعد انفجار قنبلة التطور في أوروبا بأن التقاليد والأخلاق ليست ذاتية ولا ثابتة بل تكتسب سماتها ومميزاتها من طبيعة الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي.

هذه بعض الملامح الاجمالية الموجزة لاجتماع وأخلاق القرون الوسطى وستزداد صورتها وضوحاً عند عرض الاتجاهات الاجتماعية اللادينية التي إنما نبتت أصلاً لتكون ردود فعل لذلك الواقع الاجتماعي نفسه.



النظريات والمدارس الاجتماعية اللادينية

مقدمة:

الفكر الاجتماعي اللاديني قديم الأصول فقد تحدث أرسطو عن الحياة الاجتماعية للإنسان وقال عبارته المشهورة «الإنسان حيوان إجتماعي» كما أن أفلاطون كانت له نظراته الاجتماعية التي دونها في «جمهوريته» وإن كانت من صنع الخيال.

ولما كان عصر النهضة الأوروبية وبعثت الآداب والفلسفات الاغريقية انبعث التفكير الاجتماعي اللاديني باتجاهيه: الخيالي الممثل في «الطوبيات» أو المدن الفاضلة، والواقعي الذي يحاول أن يستمد من الفلسفة والعقل ما يناهض به الكنيسة وتعاليمها.

وكانت ريادة هذا المجال من نصيب «مكيافيللي» و«هوبز» اللذين ألمحنا إليهما في الفصل الأول من هذا الباب «ويتلخص رأي هوبز ومكيافيللي في أنه عندما تنحرف المعتقدات عن المبادىء الأخلاقية والشرعية يستتبع ذلك في مجال الأفكار فترة فراغ نرى فيها أن فكرة العنف هي التي تسود لعدم وجود ضابط للشرعية، وفي رأي هذين الكاتبين أن الحياة في المجتمعات تقوم على استخدام القوة وتتلخص السيكولوجية الاجتماعية عندهما في العبارة الشهيرة، أن الانسان ذئب

بالنسبة للانسان «وفي قول مكيافيللي «إن ميل الانسان للشر يفوق ميله إلى الخير». «ويعلق بوتول» على ذلك قائلاً عن مكيافيللي «إن أهمية هذا المؤرخ الفلورنسي أنه جعل لفلسفة التاريخ ولعلم الاجتماع السياسي وجوداً مستقلاً»[1].

وكان من رواد الأفكار الجديدة أيضاً الفيلسوف اليهودي «سبينوزا» الذي اشتهر بعداوته للأديان وأخلاقياتها. وكان معاصراً لهوبز وفي رأيه أن الناس يعيشون في الأصل خاضعين لسيطرة شهواتهم وأن حقوق الناس في نزاع دائم مع قوتهم التي تتعادل فقط مع هذه الحقوق ويهاجم سبينوزا علم الأخلاق الذي كان يسود في العصور الوسطى والذي يمجد النسك ويدعو للندم والذي يغلب فيه الميل للشقاء فيقول: «أن اللذة خير في ذاتها والألم قبيح في ذاته... وأن الحكمة هي التأمل في الحياة لا في الموت».

على أن كاتباً آخر تطرف في عداوته للكنيسة وأخلاقها بدرجة عجيبة وهو «مانديفيل» في كتابه «أقصوصة النحل» الذي أثار فضيحة وكان له دوي عظيم «فقد ذهب إلى» أن النقائص هي بالتحديد التي يدمغها الأخلاقيون كالشراهة والتعجرف والفسق إلخ... وهي التي أتاحت انتشار الحضارة والفنون والتكنيك فهذه الاتجاهات التي اعتبرت مذمومة هي في الواقع أعظم العناصر الديناميكية التي لولاها لاضمحل الانسان إلى حالة قريبة من الحيوانية[2]».

وهذه البدايات والأفكار ظلت مبعثرة لم تنسق في علم واحد حتى ولد علم الاجتماع باعتباره علماً خاصاً يدرس العلاقات والظواهر الاجتماعية دراسة مفصلة ضمن قواعد ومعايير خاصة.

---

(١) تاريخ علم الاجتماع. جاستون بوتول: ٢٤، ٢٥.
(٢) المصدر السابق: ٣٠.

ولادة علم الاجتماع:

«يبدأ نسب العلم وأصله في فرنسا من مونتسكيو (١٦٨٩ — ١٧٥٥) فكتابه روح القوانين بحث في الفلسفة السياسية وكان يعني بكلمة قوانين «العلاقات الضرورية المستمدة من طبائع الأشياء وقد ميز بين طبيعة المجتمع ومبدأ المجتمع بقوله «طبيعة المجتمع هي بناؤه الخاص المميز ومبدأ المجتمع هو الرغبات والأهواء الانسانية التي تدفعه للعمل».

«ثم جاء سان سيمون الذي كان ابناً حقيقياً لعصر التنوير ولذا كان يؤمن إيماناً شديداً بالعلم والتقدم كما كان يرغب فوق كل شيء في انشاء علم وضعي للعلاقات الاجتماعية».

«وأشهر تلاميذه هو أوجست كونت ثم جاء دوركايم وتلاميذه وليفي بريل وقد كانوا جميعاً يتابعون نفس التقليد الذي وضعه سان سيمون».

«أما في بريطانيا فكان ديفيد هيوم وآدم سميث وهوبز وكان هؤلاء الفلاسفة ينظرون إلى المجتمع على أنه نسق طبيعي أي أنه ينشأ من الطبيعة البشرية ذاتها وليس من العقد الاجتماعي وبهذا المعنى كانوا يتكلمون عن الأخلاق الطبيعية والدين الطبيعي والفقه الطبيعي وغير ذلك»(٣).

هذا الاجمال الذي ذكره مؤلف «الأنتروبولوجيا الإنتاجية» يحتاج إلى تفصيل بذكر كل اتجاه واعطاء فكرة عن منهجه وآرائه:

---

(٣) الانتربولوجيا الاجتماعية: ادوارد ايفانز: ٣٤ فما بعدها «مقتطفات».

أولاً ـ نظرية العقد الاجتماعي:

كانت النظرية السائدة قبل «كونت» هي نظرية العقد الاجتماعي وصاحبها هو «جان جاك روسو» وقد سبق شيء من الحديث عنها في الفصل الأول من هذا الباب. والذي يهمنا منها الآن هو نظرتها إلى الأخلاق أي إلى أسلوب التعامل بين أفراد المجتمع. والواقع أن روسو كان جريئاً في تحديه للدين وخروجه على أخلاق وتقاليد عصره فقد نفى العنصر الايماني من الأخلاق وجعل مدارها الرئيسي المصلحة الدنيوية المجردة، أي تحقيق أفضل وسيلة للتعاون مع المجتمع في حدود الدنيا فقط ولغرض المنفعة الخاصة أو العامة إن أمكن، وبذلك نشأ للمرة الأولى في تاريخ المسيحية ـ أن نظر الباحثون للأخلاق على أنها مظاهر صورية للتعامل الخارجي لا حقائق وقيم تنبع من ضمير الانسان ويوحي بها وجدانه الايماني.

ولم يصرح روسو بمعتقده بطريق مباشر بل استخدم خياله لتصوير دعائم فلسفية وهمية يقيم نظريته عليها، وسنتابعه في افتراضاته حتى نصل معه إلى النتيجة المبتغاة: «الأصل في الانسان الفردية، وكان سعيداً أيام حياته تلك ومتبعاً للقانون الطبيعي ولكن الكوارث ودواعي الاجتماع جعلته يتعلم اللغة ويألف الاجتماع حتى أصبح الانسان الطيب بالطبع شريراً بالاجتماع».

«على أن الاجتماع قد أضحى ضرورة ومن العبث محاولة فضه والعودة إلى حال الطبيعة وكل ما نستطيع صنعه هو أن نصلح مفاسده بأن نقيم الحكومة الصالحة ونهيىء لها بالتربية المواطنين الصالحين»(٤).

أما كيفية تحقيق ذلك فيرى روسو «أن هذا الغرض ممكن

---

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم: ١٩٥.

التحقيق بأن تجمع الكثرة المفككة على أن تؤلف شيئاً واحداً وأن تحل القانون محل الادارة الفردية وما تولده من أهواء وتجرده من خصومات أي أن يعدل كل فرد عن أنانيته وينزل عن نفسه وعن حقوقه للمجتمع بأكمله وهذا هو البند الوحيد للعقد الاجتماعي ولا إجحاف فيه إذ بمقتضاه يصبح الكل متساوين في ظل القانون والقانون إرادة الكل تقر الكلي أي المنفعة العامة».

وبعد هذه الافتراضات يبدأ روسو في إملاء مقترحاته حول المجتمع المتعاقد:

«لهذا المجتمع دين مدني لا يدع للفرد ناحية من نواحي الحياة مستقلة عن الحياة المدنية ويتعين على الدولة أن تنكر ديناً كالمسيحية يفصل بين الروحي والسياسي وألا تطيق إلى جانبها سلطة كنسية إذ لا قيمة لما يفصم الوحدة الاجتماعية وإنما لزم الدين لأنه ما من دولة قامت إلا وكان الدين أساسها على أن يكون هذا الدين قاصراً على العقائد الضرورية للحياة تفرض كقوانين حتى لينفى أو يعدم كل من لا يؤمن بها لا باعتباره كافراً بل باعتباره غير صالح للحياة الاجتماعية»!.

«هذه العقائد هي عقائد القانون الطبيعي: وجود الله والعناية الالهية والثواب والعقاب في حياة آجلة وقداسة العقد الاجتماعي والقوانين، ولكل أن يضيف إليها ما يشاء من الآراء في ضميره». أما بالنسبة للأخلاق فعند روسو أن «كل ما يسمى الآن حقوقاً وأخلاقاً ويستمد له سنداً من العقل هو صناعي ناشىء عن الحياة الاجتماعية التي هي صناعية كذلك وليس في حال الطبيعة أخلاق وحقوق ما دام الانسان في تلك الحال مستغنياً عن الانسان مقطوع الصلة به»[٥].

---

(٥) المصدر السابق: ١٩٦ ـ ١٩٨.

من ذلك يتضح أن موقف روسو يقوم على أمرين:

١ ـ فراره الأعمى من الكنيسة المسيحية وعقائدها وأخلاقها لا سيما وأنه تعرض هو وأمثاله لاضطهادها.

٢ ـ الرومانسية التي يعد أعظم روادها والتي كانت رد فعل لتقديس العقل الذي كان طابع ما يسمى عصر التنوير والتي ظهر أثرها أكثر ما ظهر في مجال الفن والأدب.

هذا وقد سبقت الاشارة إلى قيام الثورة الفرنسية على أفكار روسو الاجتماعية حتى لقد وُصف كتابه العقد الاجتماعي بأنه إنجيل الثورة الفرنسية.

* * *

ثانياً ـ المدرسة الطبيعية:

إذا تابعنا الفكرة القائلة أن في تاريخ العلم الحديث ثلاث ثورات لكل منها أثره البالغ في عصره في أكثر من ميدان فإن الثورة «النيوتنية» أي نظرية الجاذبية هي الثورة الثانية من جهة الوجود التاريخي ومن جهة شمول تأثيرها(*).

لقد برهن نيوتن على أن الكون أو «الطبيعة» ليست منفلتة ولا مفككة كما كان يتوهم الأقدمون ولكنها متسقة بدقة عجيبة يربط بين أجزائها قانون رياضي مطرد ولا شيء من مظاهرها يشذ عليه. هذه الفكرة أوحت إلى العلماء والباحثين الذين كانت الكنيسة تحصي عليهم أنفاسهم وتضيق الخناق على معطياتهم بأن ينعتقوا من ربقتها ويكفروا بإلهها مؤمنين بإله جديد أسموه «الطبيعة» لكنهم إذ تخلصوا من العقيدة المسيحية المزعجة للعقل رأوا أن أصعب من ذلك التخلص من

(*) والأولى هي نظرية كوبرنيق والثالثة نظرية داروين.

الأخلاق المسيحية التي يراها كل إنسان عاقل ضرورية لبقاء مجتمعهم لذلك لم يتورعوا عن الإدعاء بأن للإله الجديد قانونه الأخلاقي وشريعته الاجتماعية التي تجعلنا في غنى تام عن أخلاق وشريعة الكنيسة ويشترك في هذا الادعاء الذين أنكروا وجود إله الكنيسة جملة والذين آمنوا به على أنه «صانع ساعة» على حد تعبيرهم مع إنكار الوحي والأديان وهؤلاء يطلق عليهم بمجموعهم إصطلاح «الطبيعيين».

ويرى أولئك أن العقل البشري قادر بالاعتماد على نفسه أن يكتشف القانون الطبيعي الاجتماعي مثلما استطاع نيوتن اكتشاف القانون الطبيعي لنظام الكون ومن ثم فليست الأخلاق مرتبطة بالدين بل لا داعي أصلاً للوحي والكتب السماوية والهيئات الكهنوتية فكل هذه ليست سوى عوائق تباعد بين الناس وبين القانون الطبيعي الذي له وحده أن يسود.

يقول راندال:

«إن أحد الأركان الأساسية الثلاثة لديانة العقل كان الاعتقاد ان نظام الطبيعة متضمن لقانون طبيعي في الأخلاق يجب معرفته واتباعه كأي من المبادىء العقلية التي تضمنتها آلة العالم النيوتينية. ومعنى ذلك أن مبادىء الثواب والخطأ والعدالة والظلم كانت بالنسبة إلى القرن الثامن عشر منسجمة في منهج العقل والعلم، وأن المسلم به كلياً ان لعلم الأخلاق استقلالاً عن أي أسس لاهوتية وإلهية يماثل استقلال أي نوع آخر من المعرفة البشرية. والحقيقة أن الله أمر بالمبادىء الأخلاقية مثلما أمر بقانون الجاذبية لكن مضمون أوامره كمضمون جميع قوانين الطبيعة الأخرى لا بد من كشفه بالطرق العقلية والتجريبية للعلم النيوتني»،

«وقد أحست بعض النفوس الجريئة مثلما أحس مونتسكيو بأنه لو لم يكن هناك إله على الاطلاق وتحررنا كما يجب من عبودية الدين فيجب ألا نتحرر من عبودية العدالة وذلك أن مناهج علم الانسان والسياسة والاقتصاد والمجتمع بصورة عامة يجب أن تشمل في نطاقها الأخلاق أيضاً»(٦).

أما التخلص من أخلاقيات الكنيسة فقد سلك الطبيعيون إليه طريقاً ملتوياً إذ قالوا: «إن الله لا يقتصر على وضع القانون الأخلاقي في الكون وإنما هو قد بث في كل نفس قبساً أو صدى لهذا القانون الأخلاقي نفسه. وهكذا فإن إصغاءنا لصوت ضميرنا أو الالتجاء إلى «النور الواضح للعقل الطبيعي» ــ وهي عبارة أثيرة لدى مفكري القرن الثامن عشر ــ يؤدي بنا إلى كشف نفس الأوامر التي وردت إلينا من الكتاب المقدس ومن كتابات آباء الكنيسة. وعلى ذلك فإن الوحي يدعم الضمير والضمير من جانبه يدعم سلطة الوحي ومن هنا فإننا نستطيع ان نستدل على واجبنا من مصادر أخرى غير سلطة الكتاب المقدس أو القانون الكنسي وحده»(٧).

واشتد الطبيعيون ــ ومن جرى مجراهم ــ في نقد الأخلاق المسيحية لا سيما بعد التشهير والتكفير اللذين تعرضوا لهما من جانب الكنيسة وحاولوا إثبات خطأ الأخلاق المسيحية وعدم فعاليتها معتمدين على أسس عقلية وأدلة تاريخية وواقعية نستطيع حصرها فيما يلي:

١ ــ أنها أخلاق إصطناعية غير طبيعية: ومن السهل ان يجد هؤلاء الأدلة الكافية لاثبات هذا الرأي. فقد ذكر «كرسون» وغيره من الباحثين الأخلاقيين أن السيرة السيئة لرجال الدين والسلوك الشائن

---

(٦) تكوين العقل الحديث: ١/٥٢٨.

(٧) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها: ٢٩٣.

الذي امتازوا به كان أعظم أثراً في الهدم الأخلاقي من كل النظريات العقلية المهاجمة لها وأصحاب هذا الرأي يقولون أن الأخلاق المسيحية كالعفة والإيثار والرحمة مبنية على التكلف والاصطناع ـ وهم هنا يلتقون مع روسو ـ وليس أدل على ذلك عندهم من أن رجال الدين أنفسهم أول من يخالفها ويصادم دعاواها. . . ولو كانت هذه الأخلاق «طبيعية» أي متمشية مع القانون الطبيعي لما كانت هذه المفارقة التي يشهد بها الواقع المحسوس. لذلك فإن الواجب على المجتمع الذي ينشد الخير والتكامل أن ينفي عنه هذا الزيف والنفاق الذي يسمى «الأخلاق المسيحية» ويستعيض عنها بالأخلاق الطبيعية التي يوحي بها الضمير الداخلي ويدعو إليها الانسجام الماثل في الطبيعة الخارجية.

٢ ـ أنها أخلاق تعسفية غير عقلية: يرى هؤلاء أن النظرة المسيحية هي «إن قوام الحياة الأخلاقية هي طاعة القانون لكن المشكلة في نظرهم هي أن هذا القانون «ليس قانوناً يكتشفه العقل البشري وليس بالتالي قانوناً يبدو لنا معقولاً وإنما هو قانون أتانا من الوحي الالهي الذي لا يكون أمامنا إلا أن نطيعه سواء أكان يبدو معقولاً أم غير معقول منطقياً أم تعسفياً عادلاً أم ظالماً. فمن الواجب إطاعته لمجرد كونه تعبيراً عن الإرادة الالهية لا لأننا نرى فيه وسيلة لتحقيق سعادتنا المباشرة، وبطبيعة الحال فنحن نفترض أنه لما كانت القوة التي تسهر على تنفيذ هذا القانون الإلهي هي ألوهية خيرة، فسوف يكون بذلك قانوناً خيراً يعبر عن حكمة عليا. ولكن لما كان خلاصنا يتوقف مباشرة على إطاعتنا لهذا القانون فمن الواضح أن المطلوب منا هو أداء واجبات يحددها بغض النظر عن رأينا البشري في هذه الأوامر. . . ولقد ظل أداء المسيحي لواجبه يعد حتى يومنا هذا مسألة طاعة لا مسألة تبصر وقد أحسن بعضهم التعبير عن هذه الفكرة إذ قال إن

سبب كون هذه الطاعة خيراً أو حتى سبب كونها لازمة هوامر لا شأن لنا به وكل ما يهمنا بحق هو أنها لازمة»[٨].

٣ ـ أنها أخلاق نفعية إنتهازية: يرى أولئك أيضاً أن الأخلاق المسيحية تقوم على مبدأ «الثواب والعقاب» في العالم الآخر. وتعد الجنة والنار «حافزين لهما أهمية قصوى في السلوك الأخلاقي للمسيحي، وهناك حجة مشهورة على وجود الله تقول «لو لم يكن الله موجوداً لكان من الضروري ابتداعه» ونستطيع أن نتصور أنصار هذا الرأي وقد أعادوا صياغة هذه الحجة بحيث تصبح «لو لم تكن الجنة والنار موجودتين لكان من الضروري ابتداعهما» وذلك لضمان إقبال الناس على اداء واجباتهم المسيحية».

ويتلخص رد أولئك على هذا الرأي بأنه يجعل «الأخلاق في أساسها مسألة إنتهازية ـ أو شطارة ـ وأن الأخلاقية ليست إلا سياسة حكيمة فلو أردنا اكتساب البركة الالهية أو البقاء بمنأى عن المتاعب في هذا العالم وفي العالم الآخر معاً فعلينا إطاعة أوامر الأخلاق ولا سيما الأخلاق المسحية. ومع ذلك فإن هذا الموقف لا يقتصر على المسيحية الشعبية بل إنه على العكس من ذلك قد انتشر على نطاق واسع منذ كانت للناس آلهة يطيعونها أو يسترضونها أو يبتهلون إليها فقد كانت الأذهان الساذجة تميل دائماً إلى أن تجعل من العبادة الدينية نظاماً للمقايضة يعد فيه العبد بعمل شيء للرب أي بطاعته والتضحية له أو مجرد الاعتراف به ويتوقع في مقابل ذلك نعماً معينة من الرب»[٩].

تلك بعض الأسس التي ارتكز عليها أولئك في هجومهم على الأخلاق المسيحية. وسنرى أن هذا الهجوم قد تبلور واتخذ صيغاً مغايرة أعمق نقداً وأقوى أثراً في النظريات التالية.

---

(٨) المصدر السابق: ٢٩٢.

(٩) المصدر السابق: ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

ثالثاً ــ المدرسة الوضعية العقلية:

(أ) أوجست كونت:

شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر اضطرابات إجتماعية وتقلبات فكرية منوعة، فقد سقطت أنظمة وأوضاع دامت قروناً متوالية. وانهارت قواعد ومبادىء كانت تسد حاجات المجتمع وتلبي رغباته في مجالات كثيرة ولم يعقب هدم الماضي الذي أوغل فيه عصر التنوير بناء جديد للحاضر والمستقبل. وظهر لكثير من المفكرين حقيقة أن الهدم قد يتم بوسائل وأفكار خاطئة تماماً إلى درجة انها لا تستطيع أن تبني شيئاً جديداً.

وكان الإنجاز الوحيد الذي استقطب الأذهان وبهر الأنظار هو التقدم العلمي في مجالات البحوث الطبيعية. إلا أنه مهما بلغ من العظمة لم يكن ليغطي القبائح والأمراض التي يعاني منها المجتمع الأوروبي المتناقض والتي سببها تدهور وانحطاط القيم الاجتماعية بعد أن عجز الفلاسفة عن الإتيان ببديل لقيم الكنيسة الآخذة في الاضمحلال.

وتساءل كثير من زعماء الفكر: أليس في إمكان العقل البشري بعد تحريره من نير الكنيسة البغيض أن يحقق النجاح الذي ظفر به في مجالات الطبيعة فيبتكر «ديناً وضعياً يوازي» «العلم الوضعي» الذي استطاع أن يحل محل علم الكنيسة الميتافيزيقي.؟

وكان أبرز من أجاب على هذا السؤال عملياً هو الفيلسوف الفرنسي «أوجست كونت» رائد المدرسة الوضعية في الفكر والحياة والذي يمثل التيار الأهوج الذي انبعث لمواجهة طغيان الكنيسة وحماقاتها.

ينطلق كونت في فلسفته الوضعية من زعمه أنه اكتشف القانون الأساسي للتقدم البشري وهو قانون تتابع المراحل الثلاث:

١ ــ مرحلة الخرافة.

٢ ــ مرحلة الدين.

٣ ــ مرحلة العلم «الوضعية»[١٠].

ويرى كونت إنه لكي نتجنب أخطاء المرحلة الثانية لنصل إلى «علمية» المرحلة الثالثة فإنه على الفكر أن يتجرد من الغيبيات والأوهام ويركز اهتمامه على فكرتي «الواقع والنافع» لا غير وهذا هو أساس الوضعية.

«أما الواقع» فشرط ضروري لقيام علماء الاجتماع مقام رجال الدين «علينا الآن أن نعدل عمل رجال الدين معتمدين على الوقائع وحدها وعلى العقل وحده».

والمنهج الذي يحقق ذلك في نظره هو «استخلاص العنصر الوضعي الإنساني الثابت من العناصر السلبية الهرمة التي تحتويها الأديان التقليدية والتي اتخذت من ذلك العنصر الوضعي مطية لها وبذلك يكتمل المذهب الوضعي ويتوجه على هذا النحو الدين الوضعي».

والدين الوضعي يقوم على الانتقال من الواقع إلى النافع:
يرى كونت أن تعاليم الأديان يمكن تلخيصها في معتقدين: الله والخلود. والدين الوضعي يعمد إلى اختيار المضمون الوضعي لهذين المعتقدين. فالمضمون الوضعي لفكرة الألوهية هو «فكرة موجود كلي عظيم أزلي تتصل به نفوس العباد فيضفي عليها القدرة على قمع

---

(١٠) انظر سلسلة تراث الإنسانية: ٢/٥ والعلم والدين: بوترو: ٤٢.

ميولهم الأنانية المتنافرة...». والمضمون الوضعي للخلود هو «فكرة مشاركة أهل الحق والعدل... في جانب من الحياة الأزلية للموجود الالهي» ومن هذين المضمونين يستخلص كونت فكرة واحدة شاملة هي «الإنسانية» فالانسانية هي الفكرة الوضعية» المتطورة لفكرتي الله والخلود اللتين كانت البشرية تدين بهما في المرحلة الثانية. ويعتقد كونت أن الانسانية إذا فهمت على هذا النحو فإنها تكون هي نفسها الإله الذي ينشده الناس أي الموجود الحق العظيم الأزلي الذي يتصلون به اتصالاً مباشراً ويستمدون منه الوجود والحركة والحياة».

وبذلك يصل بنا كونت إلى هدفه المراد وهو إلغاء العقائد الدينية الغيبية وما يتصل بها من أخلاق ونظم إجتماعية واعتبارها أفكاراً وأوهاماً غير «واقعية ولا نافعة» وإنما تعبر عن الصورة غير المكتملة للانسانية في مرحلة دنيا من مراحل تطورها.

أما الأسلوب العلمي الحديث فهو أن يعتنق الناس الدين الوضعي ويعبدوا الاله «غير المشخص»: الإنسانية وعليهم أن يستمدوا مثلهم وأخلاقهم وقوانين تنظيمهم الاجتماعي من ذخيرته وحدها «وعن هذه الذخيرة من القوى الخلقية المتجمعة على مر الأجيال في الموجود تفيض إلى القلوب الأفكار العظيمة والمشاعر النبيلة فالانسانية هي الموجود العظيم الذي يسمو بنا عن أنفسنا ويضيف إلى ما عندنا من تعاطف قدراً فائضاً من القوى التي يحتاج ذلك الميل إليها لإخضاع ميول الأثرة. وفي الإنسانية يتحاب الناس ويتآخون ثم في الإنسانية يستطيع الناس أن ينعموا حقاً بالخلود الذي يتطلعون إليه»[11].

تلك هي أسس الوضعية التي أراد كونت أن يتحدى بها تعاليم

(١١) العلم والدين: ٤٩ ـ ٥٠ «مقتطفات».

الدين في العقيدة والسلوك وقد كان يرى نفسه قادراً على وضع منهج للحياة بديل للمسيحية وهي حماقة مغرورة نتج عنها علم الاجتماع اللا ديني الذي ما يزال بعض المفكرين يتردد في تسميته علماً[١٢].

ويمكن القول بأن آراء كونت وفلسفته لم تكن لتشتهر وتصل من التطبيق إلى الحد الذي بلغته لولا تلميذه اليهودي دوركايم الذي طور المذهب ووضع له قواعد محددة واهتم بالمشاكل العملية مضيفاً إلى ذلك حقداً أعمى وعداوة للدين مريرة.

(ب) دوركايم:

كان من حظ المدرسة الوضعية (وبالنظرة البعيدة من حسن حظ المدامين التلموديين) وفي الوقت نفسه من سوء حظ الأخلاق الأوروبية أن انفجرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الثورة الفكرية الثالثة أو «نظرية التطور».

فالتفسير الآلي «الميكانيكي» لنشأة الحياة وتطورها عزز الآلية النيوتنية عن الكون غير العضوي وافسح المجال أمام الناقمين على الكنيسة لاستنتاج تفسيرات إجتماعية وسلوكية آلية كذلك.

وهكذا أصبح من الواضح أن أثر الداروينية في العلوم الإنسانية لا يقل عنه في علوم الطبيعة والحياة لا سيما الإيحاءان الخطران «حيوانية الإنسان مع نفي الغاية من وجوده، والتطور المطلق» فليس من مؤلف إجتماعي غربي لا يبرز فيه هذان الإيحاءان بجلاء.

والواقع أن علم الاجتماع كان يعاني صعوبات جمة ويستهدف لانتقادات غير يسيرة لم ينقذه منها إلا نظرية التطور التي أشيعت بطريقة مذهلة تثير علامات إستفهام كثيرة!

---

(١٢) أنظر: ستيوارت تشيس/ الإنسان والعلاقات البشرية: ١١ ــ ١٩.

ويتحدث دوركايم نفسه عن هذه الصعوبات متفائلاً لعلم الاجتماع بنجاح يضاهي نجاح النظريات الطبيعية:

«ليس هناك علم إلا وواجه مقاومة من قبل العواطف الإنسانية التي كانت تمس الظواهر الطبيعية وكانت هذه المقاومة لا تقل في عنفها عن المقاومة التي يلقاها علم الاجتماع في وقتنا الحاضر وذلك لأن الظواهر الطبيعية كانت هي الأخرى ذات طابع ديني أو خلقي أما وقد تحررت العلوم واحداً بعد آخر من سيطرة تلك الفكرة الشائعة، فإنه يحق لنا الاعتقاد انها سوف تختفي في نهاية الأمر من علم الاجتماع أيضاً، أي من آخر معاقلها وبذلك تدع السبيل حراً أمام العلماء»(١٣).

ويعلل دوركايم توقعاته بالمبررات التي يراها كافية لفصل علم الاجتماع عن الدين ومن ذلك اعتقاده «أن المجال الاجتماعي مجال من مجالات الطبيعة لا يفرقه عنها إلا انه أشد منها تعقيداً ومعلوم انه من المستحيل ان تختلف الطبيعة اختلافاً جذرياً عن أصلها من حالة إلى حالة فيما يتعلق بالأسس الكبرى»(١٤). أي اننا في المجال البشري نستطيع بمقدراتنا الذاتية أن نكتشف ما اكتشفه نيوتن في الطبيعة من قوانين ثابتة أو ما اكتشفه داروين من حركة آلية متغيرة.

ولا يفوت دوركايم أن يحدد طبيعة مذهبه كيلا يلتبس بالنظريات الأخرى فهو يقول: «ان الوصف الوحيد الذي نرتضيه لأنفسنا هو ان نوصف بأننا عقليون (لا ماديون ولا روحيون) وذلك لأن الهدف

---

(١٣) قواعد المنهج: ١٠١، وراجع الباب الثاني فصل اثار الداروينية.

(١٤) الإنسان والعلاقات البشرية: ٢٠، قارن بين كلام دور كايم هذا وبين ما جاء في الكتاب نفسه في الصفحة السابقة: ١٩ من ان احدى لجان الكونجرس الأميركي وجهت سنة ١٩٥٤م نقداً شديداً لتمويل البحث في العلوم الاجتماعية بحجة ان الطبيعة هي التي يمكن دراستها أمام الطبيعة البشرية فلا.

الرئيسي الذي نرمي إليه ما هو في الواقع إلا محاولة نريد بها مد نطاق المذهب العقلي حتى يشمل السلوك من الناحية التاريخية إلى بعض العلاقات السببية، وأنه من الممكن أيضاً تحويل هذه العلاقات بعملية عقلية إلى بعض القوانين التي يمكن تطبيقها عملياً في المستقبل، وليس مذهبنا الذي خلع عليه البعض إسم المذهب الوضعي سوى إحدى نتائج المذهب العقلي».

ولو حاولنا ان نختصر مذهب دوركايم لوجدنا ان محوره ثلاثة أسس:

١ ـ عقل جمعي عشوائي خارج عن شعور الأفراد.
٢ ـ هذا العقل يصدر أوامره على شكل «ظاهرة إجتماعية» تتقلب وتتغير بطريقة غير منطقية.
٣ ـ هذه الظاهرة تقهر الأفراد وتخضعهم لسطوتها شعروا أو لم يشعروا.

وتفصيل ذلك يبدأ من اعتبار الظواهر الاجتماعية أشياء موضوعية لها حقيقتها الخارجية: «ان طريقتنا طريقة موضوعية ذلك لأنها تقوم بأسرها على أساس الفكرة القائلة بأن الظواهر الاجتماعية أشياء ويجب ان تعالج على انها أشياء».

«إذا سلم الناس بأن هذا المركب الفريد في جنسه الذي يتكون منه كل مجتمع يؤدي إلى وجود بعض الظواهر الجديدة التي تختلف في طبيعتها عن الظواهر النفسية التي تمر بشعور الأفراد كل منهم على حدة فلا بد من التسليم أيضاً بأن هذا النوع الجديد من الظواهر لا يوجد في المجتمع ونعني بها أفراده وإنما يوجد في نفس المجتمع الذي أوجدها وبناء على ذلك فإن هذه الظواهر تكون خارجة عن شعور الأفراد حالة تفرقهم».

«ان الظاهرة الاجتماعية هي كل ضرب من السلوك ثابتاً كان أم غير ثابت يمكن ان يباشر نوعاً من القهر الخارجي على الأفراد أو هي كل سلوك يعم في المجتمع بأسره وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يشكل بها في الحالات الفردية».

وهذه الظواهر غير ثابتة وليس لها صور معينة تتشكل فيها:

«انه كلما أصبحت البيئة الاجتماعية أشد تعقداً وأسرع تطوراً أدت إلى تزعزع التقاليد والعقائد المتوارثة التي تتشكل بصور غير محددة شديدة المرونة».

كما ان العواطف المتعلقة بها ليس مصدرها «الله» أو «الدين» كما يتصور الناس، «لا تمتاز العواطف التي تتعلق بالظواهر الاجتماعية في شيء عن الظواهر الأخرى على مر العصور وهي وليدة التجارب الإنسانية ولكن أي تجارب؟!

انها تجارب غامضة مهوشة، وليست هذه العواطف فيما أعلم وليدة فكرة علوية مثالية وجدت من قبل ان يوجد هذا العالم الحسي ولكنها نتيجة لألوان شتى من الخواطر والانفعالات التي تراكمت على غير نسق وعلى غير هدى ودون أي تفسير منهجي سليم»[١٥].

ثم ان بيت القصيد في مذهب دوركايم هو تطبيق هذه الأسس الوهمية على الدين وما يتصل به من عقائد وأخلاق ويتلخص هذا التطبيق في ثلاث قضايا:

١ ــ ان الدين ليس الهيا لأن فكرة الالوهية ــ في نظره ــ ليست

(١٥) مقتطفات من قواعد المنهج على التوالي: ٢٧٩، ٣١، ٥١، ٢٠٣، ١٠٠.

إلا تعبيـــراً عن البيئة الاجتمــاعيــة في مــرحلة من مــراحـــل تطورها ويكون الاله فيها رمزاً للدرجة التي وصل إليهـا تطوره: «إذا أردنا فهم الفكرة التي يكونها المجتمع عن نفسه وعن العالم الذي يحيط به فلا بد لنا من دراسة طبيعة هذا المجتمع لا طبيعة أفراده فإن الرموز التي يتخذها المجتمع شعاراً له يستعين بها على التفكير في ذاته تختلف باختلاف الحالات التي يوجد فيها فإذا تصور المجتمع مثلاً انه ينحدر من سلالة حيوان أسطوري واتخذ هذا الحيوان شعـاراً له فمعنى ذلك أنه يتألف من إحدى تلك الجماعات الخاصة التي نطلق عليها اسم العشيرة.

أما إذا استعاض عن هــذا الحيـوان الأسطوري بجد إنساني أسطوري هو الآخر فمعنى ذلك أن طبيعة العشيرة قد تغيرت، وإذا تخيل المجتمع وجود آلهة أخرى أسمى مقاماً من آلهته المحلية والعائلية واعتقد انها تسيطر على تلك الآلهة الأخيرة فمعنى ذلك ان الطوائف المحلية التي يتكون منها هذا المجتمع قد أخذت تميل إلى التركيز وتتجه إلى تكوين وحدة إجتماعية وان درجة التركز التي يدل عليها وجود معبد يضم جميع الآلهة (Pantheon) تقابل درجة التركز التي وصل اليها المجتمع في ذلك الوقت نفسه.

«وإذا لم يرتض المجتمع بعض ألوان السلوك فإن السبب في ذلك يرجع إلى أنها تخدش بعض عواطفه الأســاسية وتقـوم هذه العواطف على أساس من طبيعة المجتمع كما ان عواطف الفرد ترجع إلى تركيبه الطبيعي وتكوينه العقلي».

«وان الواجب الذي ينبغي القيام به في هذا الصدد هو ان نبحث عن طريقة تداعي التصورات الاجتماعية وتنافرها واتحادها

واقترانها، وذلك بأن نقارن بين الديانات الأسطورية والقصص والتقاليد الشعبية»[١٦].

٢ ـ أن الدين ـ بناء على ما سبق ـ ظاهرة إجتماعية يفرضها العقل الجمعي» بقدرته القاهرة على الأفراد في بعض البيئات والمراحل دون ان يكون لهم حرية اختيار في ذلك وهذا يعني انه لو فرض عليهم ـ أحياناً ـ ألا يكون لهم دين مطلقاً لكانوا غير متدينين ولا يملكون إلا الإنصياع لذلك:

«إني حين أؤدي واجبي كأخ أو زوج أو مواطن أو حين أنجز العهود التي أبرمتها أقوم بأداء واجبات خارجية حددها العرف والقانون وعلى الرغم من ان هذه الواجبات لا تتعارض مع عواطفي الشخصية وعلى الرغم من انني أشعر بحقيقتها شعوراً داخلياً فإن هذه الحقيقة تظل خارجة عن شعوري بها، وذلك لأنني لست أنا الذي ألزمت نفسي بها ولكني تلقيتها عن طريق التربية. وكذلك الأمر فيما يمس العقائد والطقوس الدينية فإن المؤمن يجدها تامة التكوين منذ ولادته، وإنما كانت هذه العقائد أسبق في الوجود من الفرد الذي يدين بها للسبب الآتي: وهو أن لها وجوداً خارجياً بالنسبة إليه... ولا توجد هذه الضروب من السلوك والتفكير خارج شعور الأفراد فقط، بل انها تمتاز أيضاً بقوة آمرة قاهرة هي السبب في انها تستطيع ان تفرض نفسها على الفرد أراد ذلك أم لم يرد»[١٧].

٣ ـ ثم يصل دوركايم إلى نتيجة خطرة وهي ان الدين ليس فطرياً ومثله الأخلاق والأسرة وذلك رأي اقتبسه علماء الاجتماع التالون

---

(١٦) المصدر السابق: ٣٣، ٣٥.

(١٧) المصدر السابق ٥١

له وعمموه في أبحاثهم دون ان يدرك هؤلاء أو بعضهم الدافع التلمودي الهدام لدى دوركايم لأن يقول به

«ان الناس يفسرون عادة نشأة النظام الأسري بوجود العواطف التي يكنها الآباء للأبناء ويشعر بها الأبناء تجاه الآباء كما يفسرون نشأة الزواج بالمزايا التي يحققها كل من الزوجين وفروعهما. . . وليس الأمر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالظواهر الخلقية، فان الأخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه أساساً للأخلاق وكذا الأمر فيما يتعلق بالدين فإن الناس يرون انه وليد الخواطر التي تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات الفذة لدى الإنسان. الخ ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها»[18].

«ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان، وان هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين وصحبة الأبناء وغير ذلك من العواطف، وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو ولكن التاريخ[19] يوقفنا على ان هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان وعلى انها قد لا توجد جملة في بعض الظروف الاجتماعية الخاصة، ولذا فهذه العواطف المثالية نتيجة للحياة الاجتماعية وليس أساساً لها أضف إلى ذلك انه لم يقم برهان قط على أن الميل للاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشري منذ نشأته وانه من الطبيعي جداً ان ينظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التي تشربت بها نفوسنا على مر العصور»[20].

---

(١٨) المصدر السابق ٢٠٩ ـ ٢١٠

(١٩) اتصلح هذه الكلمة العامة دليلاً علمياً في مسألة خطرة كهذه أم انها شهوة الهدم اليهودي المتستر؟

(٢٠) قواعد المنهج في علم الاجتماع. ٢١٩

هذا هو دوركايم وتلك هي دعاواه التلمودية مغلفة بغلاف العلم والبحث، ومع الأسف فمذهبه أكبر المذاهب الاجتماعية الغربية ورغم «كلاسيكيته» لا يزال له أثر عظيم في الدراسات المعاصرة[٢١].

* * *

رابعاً ــ النظرة الشيوعية للمجتمع والأخلاق:

سبق في فصل الإقتصاد من هذا الباب أن تحدثنا عن المذهب الشيوعي وموقفه من الدين من خلال التفسير المادي للتاريخ، وقد ألمحنا هنالك إلى موقفه من الأخلاق أيضاً وذلك لأن الشيوعية ــ كما هو معلوم ــ تجعل الإقتصاد أساس كل شيء وغايته.

وقد يكون من الضروري هنا التحدث عن النظرة الشيوعية للمجتمع والأخلاق استقلالاً وإن كانت في واقع النظريـة واجهة اقتصادية فحسب:

إن الشيوعية في هدفها لا تختلف عن المدرسة السالفة الـذكـر فماركس ودوركايم اخوان في اليهودية ونظيران في التصور التلمودي الذي يطمح إلى نسف عقائد وأخلاق الأميين ولكن كلاً منهما يسلك طريقاً غير طريق صاحبه وكأني باليهود يخططون لكي يصلوا إلى هذا الغرض من كل منفذ وبأي سبيل فهم يرسمون للأميين طرائق شتى ويـدعون لهـا الخيـار في أن يسلكـوا أيـاً منهـا ولكنهـا كلهـا في الحقيقة ــ روافد تؤدي إلى الهدف نفسه. تدمير الدين والأخلاق.

فنظير العقل الجمعي العشوائي عند دوركايم يختلق ماركس الحتمية التاريخية العمياء. ذاك يفرض جبرية اجتماعية قاهرة وهذه

---

(٢١) انظر مثلاً: المجتمع: ماكيفر وزميله: ١٦ ــ ١٧.

تفرض جبرية اقتصادية قاهرة كذلك. ويتفق الإثنان في أن المجتمع «يتطور» وأن الأخلاق كذلك «تتطور» وأن لا شيء من القيم والمثل ثابت إطلاقاً. كما يتفقان في النظرة الحيوانية للإنسان فهو إما حيوان اجتماعي أو حيوان اقتصادي واتفاقهما هنا ليس غريباً بعد أن عرفنا أن الداروينية من أمضى الأسلحة التي استغلها اليهود بمكر ودهاء.

ومعلوم ما تقوله الشيوعية من أن «الدين أفيون الشعوب» وأنه «الانعكاس الخيالي للأشياء البشرية في دماغ الإنسان» وأنه نابع أصلاً من «أساس اقتصاد سلبي» وأن الإله ما هو إلا «تشخيص للقوى الطبيعية التي تؤثر على طعام الإنسان» إلى آخر هذه السلسلة من الهراء والزيف التي تقوم على الوهم الكاذب والخيال الخاطىء ولا تعبر عن حقيقة إلا عن العداوة الحاقدة للدين.

إذا عرفنا ذلك فما نظرة الشيوعية إلى المجتمع والأخلاق؟

«يلاحظ بوخارين في كتابه «نظرية المادية التاريخية» أنه ينبغي دون شك التحرز من جعل الشعور الجمعي حقيقة غيبية ولكن هذا التعبير يشير مع ذلك إلى ظاهرتين يمكن ملاحظتهما دائماً في كل مكان:

١ ــ أن هناك في كل عصر اتجاهاً سائداً في الأفكار والعواطف والحالات النفسية أي سيكلوجية سائدة تلون الحياة الإجتماعية بأكملها.

٢ ــ أن هذه السيكلوجية السائدة تتغير تبعاً لتغير طابع العصر ومعنى ذلك في لغتنا أنها تتغير تبعاً لظروف التطور الإجتماعي ويفسر المؤلف ذلك بأنه في الواقع توجد خصائص سيكلوجية عامة تتصف بها جميع طبقات المجتمع..

«وعلى هذا النحو نجد في النظام الإقطاعي سمات سيكلوجية مشتركة بين السيد النبيل وبين الفلاح مثل: التعلق بالأشياء القديمة والروتين والتقاليد والخضوع للسلطة والخوف من الله والركود الفكري والكراهية لكل جديد... الخ. وهذا يعود في الوقت نفسه إلى سمة الركود في المجتمع وإلى أن الفلاح كان تحت النظام الأبوي سيداً وأباً في أسرته كما أن السيد كان سيداً وأباً في ضيعته»[٢٢].

ذلك هو تطبيق قول ماركس «إن وجود الناس هو الذي يعين مشاعرهم» وليس العكس. فالمجتمع الإقطاعي ذو البيئة الزراعية مجتمع متدين له تقاليد وفيه أسرة والمحافظة على العرض فيه خلق أصيل فإذا تطور المجتمع وأصبح صناعياً واستقلت المرأة اقتصادياً فإن ذلك يستوجب تغيراً حتمياً يساير التغير الإقتصادي والبيئي الحتمي هو الآخر، ومعنى ذلك ألَّا يظل المجتمع الصناعي محتفظاً بشيء من الدين والأخلاق والتقاليد الزراعية الرجعية بل يجب أن يستحدث ديناً جديداً وإن كان «الإلحاد» وأخلاقاً جديدة وإن كانت «النفعية أو المكيافيللية» وتقاليد جديدة وإن كانت «الدياثة والإختلاط».

ولما كانت الأخلاق مستمدة من الواقع الإقتصادي أساساً أو البيئي على سبيل التعميم فإن الشيوعية ترى كما أن لكل مرحلة أخلاقها الخاصة فإن لكل بيئة بل لكل طائفة أخلاقها الخاصة أيضاً. وليس هناك من معنى مشترك بين بني الإنسان.

«بأية أخلاق يعظوننا اليوم؟ إنها أولاً الأخلاق الإقطاعية المسيحية الموروثة من إيمان القرون الماضية وهي بدورها تنقسم أساسياً إلى أخلاق كاثوليكية وأخلاق بروتستانتية. الأمر الذي لا يمنع انقسامها ثانية إلى أقسام فرعية تذهب من الأخلاق الكاثوليكية

---

(٢٢) مقدمة في علم الاجتماع: ارمان كوفيليه: ١١٧.

واليسوعية ومن الأخلاق البروتستانتية والأرثوذكسية حتى الأخلاق الإنفلاتية وإلى جانب هذا تقوم الأخلاق البرجوازية الحديثة ثم من جديد إلى جانب هذه أخلاق المستقبل أخلاق البروليتاريا».

وإجابة على تساؤل «ما الصحيح إذن من هذه الأخلاق ولا واحد منها بمعنى مطلق نهائي؟» تجيب الشيوعية: «لكن الأخلاق التي تحتوي على النصيب الأوفى من العناصر الواعدة بالبقاء هي بالتأكيد الأخلاق التي تمثل في الحاضر إنقلاب الحاضر، تمثل المستقبل. إنها إذن الأخلاق البروليتارية». ثم لكي تصل الشيوعية إلى هدفها المقصود لا مانع من أن تستدل على الدعوى بالدعوى نفسها:

«منذ نرى لكل من طبقات المجتمع الحديث الثلاث: الارستقراطية الإقطاعية، والبرجوازية والبروليتاريا أخلاقها الخاصة فليس يمكن إلاَّ أن نستنتج من هذا أن الناس عن وعي أو لا وعي يستمدون مفاهيمهم الأخلاقية في التحليل الأخير من العلاقات العملية التي يقوم عليها وضعهم الطبقي أي من العلاقات الإقتصادية التي ينتجون بها ويتبادلون فيها».

ثم تمثل الفلسفة الشيوعية لذلك: «منذ اللحظة التي تطورت فيها الملكية الخاصة للأشياء المنقولة كان لا بد لجميع المجتمعات التي تسود فيها هذه الملكية الخاصة أن يكون فيها هذه الوصية الأخلاقية المشتركة: لا تسرق، فهل يعني هذا أن تصبح هذه الوصية وصية أخلاقية سرمدية؟

كلا أبداً ففي مجتمع أزيلت فيه دوافع السرقة حيث السرقات بالتالي لا يمكن أن يرتكبها مع مرور الزمن غير مجانين، كم سيضحك الناس من الواعظ الأخلاقي أن يعلن على رؤوس الاشهاد الحقيقة السرمدية: لا تسرق!

ولهذا فإننا نرفض كل طمع بأن تفرض علينا أية عقائدية أخلاقية كقانون سرمدي نهائي لا يتزعزع بعد اليوم بذريعة أن لعالم الأخلاق هو أيضاً مبادئه الدائمة التي هي فوق التاريخ والفوارق القومية»[٢٣].

ومن هذا المنطلق تبنت الشيوعية المذهب المكيافيللي نظرياً وعملياً ـ كما مر في فصل السياسة ـ وقد أتى «أكنازيوسيلوني» بمثال على ذلك له مغزاه العميق: كان سيلوني باعتباره عضواً بارزاً في الحزب الشيوعي الإيطالي يشارك في جلسات الشيوعية الدولية وهو يحدثنا أنه في أحد الإجتماعات نشب خلاف حول تطبيق قرار أصدرته اللجنة المركزية، وقد أبدى بعض الأعضاء وجهة نظر مخالفة تجاه القرار ظهر أنها معقولة فما كان من المندوب الروسي إلّا أن قال: «على جميع الفروع أن تعلن أنها تخضع للقرار الذي صدر ثم تتصرف على عكس ذلك تماماً» فقام المندوب الإنكليزي مقاطعاً «ولكن هذا يعتبر كذباً». يقول سيلوني: «وقد قوبل ذلك الاعتراض النزيه بعاصفة من الضحك الصادق الصادر من القلب والذي لا أحسب مكاتب الشيوعية الدولية الكئيبة قد سمعت مثله من قبل وقد ذاعت هذه «النكتة» سريعاً في طول موسكو وعرضها إذ أن إجابة الإنكليزي التي لا تصدق لم تلبث أن نقلت بالهاتف إلى ستالين وكبار الموظفين في روسيا وكانت تثير في كل مكان عاصفة من الإنبساط والضحك»[٢٤].

هذا وسنرى إن شاء الله بعض الواقع الأخلاقي الشيوعي إن كان لدى الشيوعية شيء اسمه أخلاق.

* * *

---

(٢٣) نصوص من انجلز: ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢٤) الصنم الذي هوى: ١٢٦.

خامساً ـ النظرية العضوية والنفعيون:

من بين النظريات الإجتماعية الكبرى تبرز النظرية العضوية التي يعد «هربرت سبنسر» ألمع ممثليها[٢٥]. ومن بين النظريات الأخلاقية «النظرية النفعية» التي حمل لواءها «بنتام» و«آدم سمث» و«جون ستيوارت مل» ويمثلها في هذا القرن «برتراند رسل».

ويصح لنا أن ننظر إلى هاتين النظريتين ونعالجهما على أساس أنهما يمثلان اتجاهاً واحداً فبالإضافة إلى اتفاقهما في البيئة «انجلترا» فهما تتقاربان أو تتحدان في النظر إلى الدين والأخلاق وهي الزاوية التي نعالج موضوعنا من خلالها كما أنهما يستمدان مفهوماتهما عن الإنسان والمجتمع من نظرية التطور لا سيما النظرية الأولى التي يبدو هذا الاستمداد واضحاً في مسماها نفسه.

أما هربرت سبنسر فيرى أن «الأديان تخضع لقانون التطور كما تخضع جميع الظواهر الأخرى» ويأتي بتفسير خاص لنشأة الدين يتحدث عنه «بوترو» قائلاً:

«إن نقطة البداية في الأديان تبعاً للترتيب التاريخي هي الواقعة الأولية التي تتعدد فينتج عنها صور مختلفة لا نهاية لها ليست شيئاً آخر سوى ما يسميه سبنسر بالقرين (Double) فالإنسان يرى في صفحة الماء صورته أو قرينه وكذلك يرى نفسه في الرؤيا كما يرى فيها صورة غيره من الناس. وفي الإنسان نزعة طبيعية تميل به إلى الاعتقاد أن القرين لا يتلاشى، كل ما في الأمر أنه ينصرف ولعله يظهر مرة أخرى في حلم مستقبل حتى إذا حانت منية المرء سهل عليه الاعتقاد بأن هذه الأنا الغامضة لا تزال باقية وأنها تظل كثيراً وقليلاً شبيهة بنفسه فهي إذن

---

(٢٥) انظر علم الاجتماع ومدارسه: مصطفى الخشاب ج: ٣.

تشبه شبهاً بعيداً أو قريباً ذلك الكائن المرئي الذي كانت قرينه، ومن هنا نشأ الاعتقاد في الأرواح والكائنات الفائقة على الطبيعة وفي قوتها وتأثيرها في حياة الإنسان وهذا هو الأصل التاريخي للأديان في نظر هربرت سبنسر والذي يلتقي فيه مع الأبيقورية ثم تفرع عن هذا الاعتقاد المعتقدات والطقوس والنظم الكهنوتية.

«ولكل كائن واقعي قرينه الذي يمكن أن يعتبر روحاً وقد احتشدت الأرواح الدنيا على مر الزمن تحت سلطان الأرواح العليا التي سميت بالآلهة ثم انتهت هذه الآلهة ذاتها إلى الخضوع لإله واحد. وقد سعى الإنسان إلى تمثيل هذه القوى الفائقة على الطبيعة وإلى جعلها قريبة ومحبوبة منه فنشأت من هذه الرغبة الخرافات الدينية أو «الميثولوجيا» الرُّقَىٰ والعبادات والنظم التي نمت حسب قانون التطور ذاته إلى الحد الذي لم تعد تحتفظ فيه لنفسها أحياناً إلا بآثار ضعيفة جداً من أصلها.

«وإذ فقدت هذه النظم بعد التطور الشديد لاعتقادات الناس اعتمادها على هدفها الأول فقد ظلت قائمة كرابطة اجتماعية وهي صفة بالغة الأهمية خلعها التطور على هذه النظم وأصبحت الأديان من الآن فصاعداً تمثل استمرار الجماعات ولذلك كان للأفراد مصلحة عظمى في احترامها»(٢٦).

هكذا أجهد سبنسر خياله في اختلاق جذور بعيدة وأصول وهمية للدين كما فعل كونت ودوركايم وماركس ـ ليصل إلى النتيجة الأخيرة وهي أن الأديان رابطة اجتماعية مصلحية وعلى هذه النتيجة مدار المذهب الأخلاقي النفعي فالواقع أنه لم يزد على أنه أعطى هذا المذهب

---

(٢٦) العلم والدين: ٧٨ ـ ٧٩.

قوة جديدة. ولنأخذ «برتراند رسل» نموذجاً لهذا المذهب لأنه لا يعبر عن المدرسة النفعية التي ابتدأها بنتام فحسب بل يتحدث عن الواقع العملي لهذا المذهب الذي يسيطر على الحياة الغربية. يقول رسل: «فصل الأخلاق عن اللاهوت أصعب من الفصل المماثل الذي حدث في حالة العلم.. فالعديد من المفاهيم الأخلاقية التقليدية يصعب تفسيره بل وكثير منها يصعب تبريره إلاَّ على أساس من افتراض وجود إله أو روح عالمي «أو على الأقل هدف كوني ثابت». «وأنا لا أقول أن هذه التفسيرات والتبريرات مستحيلة دون أساس ديني ولكن أقول بأنها بدون مثل هذا الأساس تفقد قدرتها على الإقناع وقوة الإرغام السيكولوجي. وقد كانت إحدى الحجج التي يفضلها المتمسكون بالدين دائماً أنه بدون الدين يصير الناس أشراراً وقد أنكر مفكرو القرن التاسع عشر الأحرار في بريطانيا من بنتام إلى هنري سيد جويك هذه الحجة إنكاراً شديداً».

«إن موضوع إمكان استقلال الأخلاق على أية صورة اجتماعية مناسبة عن الدين يجب إعادة بحثه بأكمله»[٢٧]. وقد قام رسل فعلاً بذلك فوصل إلى نتيجة مفادها أن الدين ليس مصدر الأخلاق بل إن الأخلاق قد مرت بثلاث مراحل من التطور:

١ ــ أخلاق المحظور (تابو) ــ أي المحرم.
٢ ــ أخلاق الطاعة الإلهية.
٣ ــ الأخلاق الحديثة وهي أخلاق نفعية عقلية.

يقول رسل في تفصيل ذلك:

«توجد المعتقدات والمشاعر الأخلاقية في جميع المجتمعات الإنسانية المعروفة حتى أكثرها بدائية... وبعض هذه المعتقدات مما

(٢٧) المجتمع البشري: ١٩.

يمكن الدفاع عنه على أسس عقلية بيد أن الغالبية الساحقة من المعتقدات في المجتمعات البدائية خرافية بحتة».

«والمحظور (تابو) هو أحد المصادر الرئيسية للأخلاق البدائية فهناك بعض الأشياء خاصة تلك التي تخص رئيس القبيلة تحمل في طياتها المنع وإذا لمستها تموت. وأشياء أخرى بذاتها مكرسة للروح ويجب ألاّ يستعملها سوى ساحر القبيلة وبعض الأطعمة مشروعة وبعضها غير مشروع وبعض الأفراد يعتبرون قذرين حتى يتطهروا وينطبق ذلك خاصة على مثل أولئك الذين تلوثهم بعض الدماء فلا يقتصر الأمر على من ارتكبوا جريمة القتل بل انه ينطبق على النساء أثناء الولادة ودورات الطمث» (سفر اللاويين: ١٥، ١٩، ٢٩) وتظل صور الفضيلة التي أساسها «المحظور» باقية في المجتمعات المتمدينة مدى أكبر مما تدرك الناس فقد حرم فيثاغورث أكل البقول وكان أمبيدوكليس يعتقد أن مضغ أوراق الغار فيه خطيئة ويرتجف الهندوكيـون من مجرد فكرة أكل لحم البقر بينما يعتبر المسلمون واليهود المتمسكون بالدين الخنزير غير طاهر. وفي سنة ١٩١٦ أرسل أحد رجال الدين من سكوتلانده كتاباً إلى الصحف يعزو عدم نجاحنا في الحرب ضد الألمان إلى أن الحكومة شجعت زراعة البطاطس في أيام الآحاد. وجميع هذه الآراء لا يمكن تبريرها إلاّ على أساس المحظور.

«وانتشار القوانين التي تحرم صوراً مختلفة من الزواج بين أفراد العشيرة هو مثل من خير الأمثلة على المحظور فالقبيلة تقسم أحياناً إلى مجموعات وعلى الرجل أن يتخذ زوجته من مجموعـة أخرى غـير مجموعته. وتحرم الكنيسة الأرثوذكسية زواج آباء الطفل الواحد في العماد ولم يكن الرجل يستطيع إلى عهد قريب في انجلترا أن يتزوج أخت زوجته المتوفاة.

ومثل هذه الزيجات لا يمكن تبريرها على أساسٍ أن الزيجات المحرمة تتضمن أي ضرر ولا سبيل إلى الدفاع عنها ألاّ على أساس من المحظورات القديمة.

«بل وأكثر من ذلك أن صور الزواج من المحارم التي لم يزل معظمنا يعتبرها مما لا يتفق والشرع يستفظعها معظم الناس إلى حد لا يتناسب مع الضرر الذي ينجم عنها ويجب أن نعتبر ذلك أثراً من آثار المحظور الذي كان موجوداً قبل التبرير العقلي»(٢٨).

«وقارن مثلاً بين النفور المشمئز من زواج المحارم والتحريم المادىء لجرائم مثل التزوير التي لا يدخل فيها عنصر الخرافة لأن المتوحشين لا يستطيعون ارتكابها»(٢٩).

ثم ينتقل رسل إلى الحديث عن المرحلة الثانية:

«كلما بدأ الناس يتقدمون في المدينة قل قبولهم لمجرد المحظورات فأحلوا محلها الأوامر والنواهي الإلهية، فالأوامر العشرة تبدأ «ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلاً»:

ونجـد في التوراة من أولها إلى آخرها أن الرب هو الذي يتكلم..

«وهكذا تصبح الطاعة جوهر الأخلاق والطاعة الأساسية هي طاعة المشيئة الإلهية، بيد أن هناك صوراً أخرى عديدة من الطاعة تستمد شرعيتها من أن ألوان عدم المساواة الإجتماعية مصدرها مشيئة

---

(٢٨) يقول رسل ص: ٣٧ «لنفرض ان قنبلة ذرية قضت على سكان الكرة الأرضية ولم يبق سوى شقيق وشقيقته فهل يجب عليهما ان يدعا الجنس البشري ينقرض» ويا لها من دقة علمية وموضوعية في الاستدلال!!

(٢٩) المصدر السابق: ٢١ ــ ٢٢

الله ، فالرعايا تجب عليهم طاعة الملك والعبيد طاعة سادتهم والزوجات طاعة أزواجهن والأبناء طاعة آبائهم»[٣٠].

أما المرحلة الثالثة فيرى رسل أن لها أساساً قديماً أيضاً ولكن لم يعظم شأنها إلاّ في العصر الحديث: «ولقد كان هناك من أول الأمر أساس مختلف للمشاعر والقواعد الأخلاقية وهو مبدأ الأخذ والعطاء أو التراضي الإجتماعي. ولا يعتمد هذا كما هو الحال في النظم الأخلاقية الأخرى.. على الخرافة ولا على الدين. إنه ينبعث بصفة عامة عن الرغبة في حياة هادئة. فعندما أريد شيئاً من البطاطس مثلاً فإني قد أتسلل ليلاً وأستولي على بعض منه في حقل جاري، وجاري قد ينتقم بأن يسرق الفاكهة من شجر تفاحي.. وفي النهاية سنرى أن الأمر سيكون أقل إزعاجاً وأكثر راحة لو أن كلاً منا احترم مال الآخر».

«بالرغم من أن نظاماً مثل هذا قد تساعده المحظورات أو الشرائع الدينية إلاّ أنه يستطيع أن يظل قائماً حتى بعد انهيارها حيث أنه يتضمن على الأقل من ناحية النوايا مزايا للجميع ومع تقدم المدنية عظم الدور الذي يلعبه هذا النظام باطراد في التشريع والحكم والأخلاق الخاصة، ولكنه لم ينجح في الإيحاء بذلك الإحساس العميق من الاستفظاع أو التوقير المتصل بالدين أو المحظور»[٣١]، ولعل هذا الاستدراك من رسل (بالإضافة إلى التراضي الإجتماعي والحياة الهادئة التي تسود الغرب اليوم!!)، يكفي لبيان قيمة العنصر الإيماني في الأخلاق.

---

(٣٠) المصدر السابق: ٢٤ ـ ٢٦.

(٣١) المصدر السابق.

سادساً ــ الدراسات النفسية الحديثة:

يرى بعض الباحثين أن علم النفس المعاصر هو أحدث العلوم جميعاً لأنه آخر علم استقل عن الدين والفلسفة، ويعزون ولادة هذا العلم إلى ثلاثة عوامل برزت في منتصف القرن الماضي:

أولها: المنجزات الجديدة في الطبيعيات وعلم وظائف الأعضاء.

والثاني: شارلس داروين الذي قدم عرضاً لآرائه عن علم الحياة التطوري الحديث.. وألف كتاباً بعنوان: «التعبير عن الإنفعالات عند الإنسان والحيوانات»..

والثالث: أبحاث «التجريبيين الذي أسسوا لأول مرة» معامل الدراسات النفسية الحديثة»[٣٢].

وأشهر المدارس النفسية المعاصرة على المستويين النظري والتطبيقي ــ لا سيما من جهة صلتها بموضوع الأخلاق ــ مدرستان:

الأولى: المدرسة السلوكية: (Behaviourism)

يرى «هاري ويلز» أن قيام علم نفس مادي يناهض الأفكار الرجعية والمثالية كان يفتقر إلى حلقة مفقودة هي ما أسماه «الميكانيزم المادي الذي يمكنه أن يفسر لنا كيف نتج وينتج الوعي بالطبيعة وكيف يعكس الوعي الواقع».

ويقول: «لقد ظلت المادية تعاني ضعفاً ما منذ أن كانت تفتقد هذه الحلقة أي منذ كان الميكانزم العصبي مجهولاً واستغل المثاليون هذا الضعف واستفاد منه الرجعيون لنشر الجهل وتشويش الفكر وخلق أساطير عن الطبيعة البشرية»[٣٣].

---

(٣٢) انظر هاري ويلز: فرويد وبافلوف: ١/١٦، ١٧.

(٣٣) المصدر السابق: ٨١، ٨٣.

والباحث الذي استطاع أن يسد هذه الثغرة هو «بافلوف» بنظريته عن «الأفعال المنعكسة الشرطية» والمبدأ الأساسي الذي تقوم عليه المدرسة السلوكية هو «حيوانية الإنسان وماديته» وذلك نتيجة لإيمانها الأعمى بنظرية داروين وهو إيمان يبدو جلياً سواء في كتابات بافلوف أو في تجاربه العملية، فقد كانت إحدى المشاكل الكبرى التي يتوهم بافلوف أنه وضع لها العلاج الناجح هي مشكلة «نشأة الوعي وتطوره في النوع الإنساني منذ أن كان قرداً إلى أن أصبح إنساناً» ويقول أيضاً: «اكتسب عالم الحيوان في مسيرة تطوره حتى بلغ مرحلة الإنسان إضافة فريدة مكملة لميكانيزم النشاط العصبي»[٣٤] ويعني بذلك النظم الاشاري.

أما خلاصتها الفكرية فتتمثل في إنكار الروح وإنكار استقلالية العقل، والإيمان بالجسد وحده واعتبار السلوك البشري بأكمله «أفعالاً شرطية منعكسة» لا غير أي أن السلوكية تدعم النظرية الماركسية القائلة أن «واقع الناس هو الذي يعين مشاعرهم» وتسند نظرية أنجلز في أن العمل هو الذي خلق الإنسان أي طوّره عن القردة ومن هنا أطلق عليها الفيلسوف «جود» إسم «المادية الحديثة»[٣٥]. وعن ذلك يتحدث هاري ويلز قائلاً:

«ونظرية بافلوف عن نظام الكلام وهو نظام قاصر على الإنسان وحده هي النظرية التي تملأ الثغرة التي أشار إليها أنجلز في كتابه عن الإنتقال من مرحلة القردة إلى الإنسان».

«وهكذا نجد أن نظرية بافلوف عن العمليات العصبية الراقية إذ تملأ تلك الثغرة في المعرفة البشرية إنما تقدم إسهاماً جليلاً للمادية،

---

(٣٤) المصدر السابق: ٨١ ـ ٨٣.

(٣٥) انظر الفصل الذي كتبه عنها في «منازع الفكر الحديث».

فهي تزودنا بالحلقة الأخيرة في البرهان على صدق القضية المادية الأساسية القائلة بأن الوعي أو العقل البشري ثانوي بالنسبة للمادة ومشتق منها. . . ولهذا السبب نفسه تلقت المثالية ضربة ساحقة وإن لم تكن القاضية والأخيرة وهي المذهب القائل بأن المادة ثانوية للنشاط الحقلي ومشتقة منه»[٣٦].

«إن علم دراسة النشاط العصبي الراقي هو خطوة جديدة تؤكد وتعمق نظرية المعرفة المادية القائلة بأن الوعي والمعرفة انعكاس للواقع وأن الحق تطابق معه.وفي هذا يقول لينين «يعكس الوعي الوجود بوجه عام وهذا هو مجمل موقف كل المذاهب المادية.والاحساسات هي المواد الأولية التي يستخرج منها الفكر والعلم التجريبيان الحقائق والقوانين التي تعكس الطبيعة وحركة العالم الخارجي، وحجر الزاوية لأي نظرية مادية في المعرفة هو القول بأن الاحساسات صور للواقع إنها منبهات صادرة عن الموضوعات الخارجية ولهذا يقول لينين «إن كل مفكر مادي يرى أن الاحساس ليس سوى رابطة مباشرة تربط العقل بالعالم الخارجي إنه تحول لطاقة الإثارة الخارجية إلى حالة ذهنية ويتم تحول هذه الطاقة من خلال الجهاز العصبي وهو ما اكتشفه بافلوف وعبر عنه في صورة «الميكانزمات» المترابطة التي تربط بين النظامين الكلامي والحسي»[٣٧].

ذلك بإجمال هو مضمون النظرية السلوكية عن الإنسان وتفسيرها لتصرفاته وقد كان لها مع فكرها المادي نظرياً أسوأ الأثر في التطبيق الواقعي فقد استغلها الهدامون لنفي الفطرة وإنكار القيم الخلقية المجردة كما أن طواغيت السياسة عرفوا كيف يستخدمون

---

(٣٦) فرويد وبافلوف ١/٨٨ ـ ٩٣

(٣٧) نفس المصدر السابق

تجاربها على الشعوب بدلاً من الكلاب مثلما استخدموا قانون الانتخاب الطبيعي من قبل وقد فصل العلامة «مالك بن نبي» الحديث عن ذلك مؤيداً بالشواهد الواقعية»[٣٨].

والواقع أن بافلوف لم يكن الأول في القائلين بنظرية الفعل المنعكس الشرطي ولا هو أول السلوكيين فقد سبقه إلى النظرية استاذه «ستشينوف» الذي ألف كتاباً أسماه: «الأفعال المنعكسة للمخ» سنة ١٨٦٦، ولكن ظروف ماقبل الثورة الشيوعية كانت متحفظة تجاه الفكر الهدام ولذلك فإن لجنة الرقابة في بطرسبرج شمت من الكتاب رائحة التآمر والافساد وناشدت النائب العام «لاتخاذ اراء ضد كتاب الاستاذ أ. م. ستشينوف المادي المتطرف على أساس أنه يقوض دعائم الأخلاق في المجتمع لقد صاغ السيد ستيشنوف نظريته في ثوب رسالة علمية بيد أن أسلوبها أبعد مايكون عن الصيغة العلمية ذلك لأنه كتبها بأسلوب يسهل على القارىء العادي أن يفهمه. وتؤكد لنا هذه الحقيقة فضلاً عن رخص سعر الكتاب أن المؤلف يقصد عامداً أن تكون نظريته سهلة التناول لأكبر عدد من القراء ويلزم عن هذا أن كتاب السيد ستشينوف «الأفعال المنعكسة للمخ» مقصود به إفساد الأخلاق فهو خارج عن القانون إذ يمثل خطورة على ضعاف العقيدة من الناس ومن ثم تجب مصادرته وإعدامه»[٣٩].

ذلك ما تعرض له الأستاذ أما التلميذ بافلوف فقد كانت حكومة ستالين تقيم له المهرجانات وظل محط التكريم والتعزيز حتى وفاته سنة ١٩٣٦م ولا غرابة في ذلك»[٤٠].

---

(٣٨) انظر كتاب «الصراع الفكري في البلاد المستعمرة» كما ان العلامة وحيد الدين خان قد رد على النظرية في كتابه الإسلام يتحدى. فصل «الايمان بالآخرة».

(٣٩) انظر فرويد وبافلوف: ٤١، ٤٥.

(٤٠) انظر فرويد وبافلوف: ٤١/٤٥.

الثانية ــ مدرسة التحليل النفسي: (Psychoanalysis)

باڤلوف وفرويد متعاصران وبينهما أوجه شبه لا سيما في النتائج والمقاصد التي وصل كل منهما إليها. إلا أن الخلاف بينهما ــ في المنهج ــ عميق، ذلك أن باڤلوف انطلق من «الشعور» في حين أن فرويد انطلق من «اللاشعور» واعتمد باڤلوف على تجارب موضوعية بينما اعتمد فرويد على تصورات ذاتية وتحليلات خاصة.

ومؤلفات فرويد جميعها تعبر عن «يهوديته» أكثر مما تعبر عن منهجه العلمي إن كان له علم أو منهج! وهذه «اليهودية» تظهر جلية في التدنيس والتلويث المتعمدين للجنس البشري. وهي ظاهرة بارزة في التوراة المحرفة[٤١]، كما تتجلى في الإفساد المتعمد للأخلاق والتآمر الخبيث على القيم الإنسانية وهما مضمون وفحوى «التلمود»[٤٢].

ويكفي للدلالة على ذلك موقف فرويد من المسيح عليه السلام «أقدس شخصية لدى اوروبا النصرانية»، كان التلمود يصف المسيح عليه السلام بأقذع النعوت وأشنع الألقاب ولكن الكنيسة كانت تلاحقه في كل مكان بالحرق والمصادرة مما اضطر الحاخامات إلى ترك مكان العبارات التي تذكر المسيح عليه السلام خالية ووضع مربعات فارغة محلها أو الإيماء إليه من طرف خفي»[٤٣].

غير أن فرويد استطاع بذكائه الخبيث وتمسحه بالعلم أن يثأر

---

(٤١) دنست التوراة المحرفة الجنس البشري عامة ابتداء بالأنبياء ــ نوح يسكر، لوط يزني بابنته وهو سكران، داود يعشق زوجة قائده ويعرضه للقتل ليظفر بها الخ ما شوهت به سيرتهم الناصعة المعصومة، وانتهاء بالسلالات البشرية «كنعان وذريته ملعونون، الحيثيون، الاشوريون الخ، الشعوب السبعة الملعونة كل ذلك بهدف تدعيم الزعم الفاسد بان اليهود شعب الله المختار وتبرير وسائلهم الخبيثة لابتزاز أموال الاميين وافساد اخلاقهم.

(٤٢) انظر الكنز المرصود في قواعد التلمود.

(٤٣) انظر التلمود: ظفر الإسلام خان. فصل «المسيح في التلمود».

للتلمود فجاء بتلك العبارات بنصها وأقذع منها ونشرها علانية في محاضراته وكتبه وهو آمن من أن تمسه يد سوء(٤٤). وقس على ذلك موقفه من الدين والأخلاق.

وهذا يقودنا إلى معرفة مدى التفسخ الذي وصلت إليه البيئة الأوروبية والانهيار الديني والخلقي الذي اجتاحها فكانت بيئة ملائمة لتفريخ أفكار فرويد وتقبلها مما دفعها إلى تفسخ أعظم.

فالفكر المادي تغلغل في النفـوس والنزعـة الحيوانيـة المنفلتة أصبحت هي الصبغة العامة للحياة والثورة الصناعية وما صاحبها من تغيير في البنية الاجتماعية وتفكك في الحياة الأسرية، هيأت ــ جميعها ــ الجو للهدم الأخلاقي والعقائدي ثم كانت الحروب الاقليمية والعالمية (الأولى) فقوضت دعائم المجتمع الأوروبي وأفقدته الثقة في كل مبادئه ومعتقداته ونشرت الرعب والذعر في القلوب وحطمت كل الأعراف والقوانين والأخلاقيات.

وصحب ذلك إسفاف مريع وهبوط شائن في الأدب والفن يسرته وعممته دور السينما وكتب الجنس وقصصه ولوحاته.

يضاف إلى ذلك ما كان يعتلج دوماً في النفسية الأوروبية من حقد عارم على الكنيسة وتحفز دائب للانتقام منها وشعور لا ينفك بالنقص والذنب وهو ما أورثته الرهبانية لها. كل هذه الأمور هيأت الجو الملائم للهدامين التلموديين لاطفاء الجذوة الباقية ونهش المزعة الأخيرة من جسد الخلق والفضيلة.

وقد عرفنا دورهم في الثورة الفرنسية ثم في قيام الرأسمالية وتعرضنا لاستغلالهم للداروينية ثم عرضنا لماركس ودوركايم

---

(٤٤) انظر مثلاً: «خمس حالات من التحليل النفسي ج ٢».

وأفكارهما الهدامة والآن يصل بنا البحث والزمن التاريخي إلى ثالث الثلاثة «فرويد» وهو أكثرهم جرأة وأصرحهم إسفافا.

والحق أنه لم يفت بعض الباحثين الغربيين أن يدركوا الدوافع والمنطلقات الخفية للفكر الفرويدي بارجاعها إلى يهوديته وتطبيق نظريته على نفسه وقد قال بعضهم: «من المؤكد أن مفهوم الأنا العليا يجد مصدره في ديانة فرويد الأولى «اليهودية» إن هذه الأنا العليا هي القانون المتبطن بدءاً من الشخصية الرئيسية الإلهية باعتبارها أباً أو من شخصية موسى باعتبارها أباً ووسيطاً معاً»(٤٥).

ولكن هذا الادراك لا حول له ولا طول أمام الانتشار الفظيع للفرويدية الذي جاء كما لو كانت كشفاً علمياً مذهلاً. ويقع عبء ذلك على عاتق الصحافة الغربية التي تعمل دائماً تحت تأثير المذهب اليهودي وبوحي من المرابين اليهود.

تبدأ نظرية فرويد من زعمه بأنه اكتشف المدخل الوحيد والسليم لدراسة النفس البشرية والحكم على سلوكها وهو «عقدة أوديب» ويعتقد فرويد أنه اكتشاف عظيم حقاً:

«يحق لي أن أقول أنه لو لم يكن للتحليل النفسي إلا فخر اكتشاف عقدة أوديب المكبوتة لكان ذلك خليقاً بأن ينظمه في عداد أثمن ما كسب الجنس الانساني حديثاً»(٤٦).

فأي شيء يا ترى عقدة أوديب هذه الجديرة بهذا التهويل؟

يقول فرويد في بيانها «يبدأ الولد الصغير في سن مبكرة يشعر

---

(٤٥) بيير فوجيرولا: ٢٥٦ وفي الشرق طبق بعض المفكرين نظرية فرويد ووصلوا إلى النتيجة نفسها وابرزهم من المسلمين الاستاذ محمد قطب «الإنسان بين المادية والإسلام» ومن غيرهم صبري جرجيس «الفكر الفرويدي والتراث التلمودي».

(٤٦) الموجز في التحليل النفسي: ٦٦.

بالحب نحو أمه، وهو حب كان في الأصل متعلقاً بثدي الأم كما أنه أول حالة من حالات حب الموضوع[٤٧] تنشأ على صورة الاعتماد على الأم أما فيما يتعلق بالأب فإن الولد يقوم بتقمص شخصيته وتبقى هاتان العلاقتان جنباً إلى جنب لفترة من الوقت ثم تأخذ الرغبات الجنسية المتجهة نحو الأم تزداد في الشدة ويأخذ الأب يبدو كأنه يعوق تحقيق هذه الرغبات وعن ذلك تنشأ «عقدة أوديب» ثم يأخذ تقمص شخصية الأب بعد ذلك يتخذ صفة عدائية، ويتحول إلى رغبة في التخلص من الأب لكي يأخذ مكانه من الأم، وتصبح علاقته الوجدانية مع الأب منذ هذه اللحظة متناقضة.

«ويبدو كأنما هذا التناقض الوجداني ـ وهو أمر طبيعي في التقمص منذ البداية ـ قد أصبح الآن واضحاً، ويتكون من موقف التناقض الوجداني نحو الأب وعلاقة الحب الشديدة نحو الأم مضمون عقدة أوديب الايجابية البسيطة عند الولد.

«وبزوال عقدة أوديب يصبح من الواجب الإقلاع عن حب الأم، وقد يملأ مكانها بأحد أمرين: إما بتقمص شخصية الأم وإما بتقمص شخصية الأب بدرجة شديدة. وترجع عقدة أوديب الكاملة إلى الثنائية الجنسية الموجودة في الأصل عند الأطفال، ومعنى هذا أن الولد لا يقف فقط موقف التناقض الوجداني مع أبيه وموقف المحب مع أمه، وإنما هو يسلك أيضاً في نفس الوقت سلوك البنت ويبدي ميلاً أنثوياً عاطفياً نحو أبيه كما يبدي اتجاه العداء نحو أمه والغيرة منها»[٤٨].

وإذا سمع أحد هذا الكلام وتناوله على أساس أنه صادر من

(٤٧) الموضوع ـ عنده: الشيء الذي تتجه نحوه الطاقة الغريزية ويكون هدفاً للتفريغ والاشباع.

(٤٨) الذات والغرائز: ٦٤/٦٨.

إنسان جاد يعي ما يقول فإن من بين الأسئلة التي يثيرها يبرز سؤال عن إمكان وجود شعور جنسي لدى الأطفال؟ ولا يدع فرويد هذا السؤال بلا جواب، بل يفصل القول في ذلك معتمداً على «الخيال اليهودي» الدنس: «الحياة الجنسية لا تبدأ أولاً عند البلوغ وإنما تبتدي عقب الميلاد بمظاهر واضحة»، «فنشاهد في عهد الطفولة المبكر علامات للنشاط الجنسي لا يمكن أن ينكر عليها صفة الجنسية إلا الرأي المغرض القديم»!!

وهذه عند فرويد هي المرحلة الجنسية الأولى ويتبعها فترة «كمون» لا تبدو فيها آثار النشاط الجنسي، أما الثالثة فهي مرحلة البلوغ.

ويعلق فرويد على ذلك مستنتجاً «وهذا يؤدي بنا إلى حقيقة هامة وهي أن الحياة الجنسية ترد على دورتين، وهو ما لا نجده إلا عند الإنسان ولا شك أن له أثراً بالغ الأهمية في تكوينه». أما الدليل العلمي على ذلك فيعتقد فرويد أنه الفرض القائل بأن الإنسان انحدر عن حيوان ثديي كان يبلغ النضج الجسمي في سن الخامسة.

وهذا الدليل «العلمي»! لا يزودنا فرويد بأية معلومات عنه ولا يخبرنا عن مصدره التاريخي العلمي. ولعله اعتمد على موجة رواج فرضية داروين التي بدأ فرويد أبحاثه في عنفوان شبابها وكانت شهرتها الطاغية المدبَّرة تقطع أي تساؤل يثار حولها.

وعلى أية حال فإن فرويد يشرح ذلك كما لو كان حقيقة علمية ثابتة فعلاً فيقول: «أول عضو يظهر بوصفه منطقة شهوية تعرض مطالبتها اللبيدية[٤٩] على النفس هي الضم منذ الميلاد فإلحاح الطفل في

---

(٤٩) اللبيدو عنده: الطاقة النفسية المتعلقة بالغرائز الجنسية.

المص وتشبثه به في مرحلة مبكرة ينم بوضوح عن حاجةٍ إلى الإشباع... يمكن بل يجب أن توصف بأنها جنسية».

أما المرحلة الثانية فهي «المرحلة السادية الشرجية لأن الإشباع فيها يطلب في العدوان وفي وظيفة الاخراج».

و«المرحلة الثالثة نسميها «المرحلة القضيبية»... ومع المرحلة القضيبية وفي خلالها تبلغ الجنسية الطفلية الأولى ذروتها وتقترب من اضمحلالها ومن الآن فصاعداً تختلف مصائر الصبيان والبنات فيدخل الصبي الطور الاوديبي ويأخذ يعبث بقضيبه عبثاً تصحبه أخيلة أن يزاول نوعاً من النشاط الجنسي ذا صلة بأمه...»[٥٠].

وإلى الآن فإن غرض فرويد من هذه الفرضيات والأوهام القذرة ما يزال غير واضح تماماً لكنه يأخذ في إيضاحه بإضافة فرض آخر ناشىء من عقدة أوديب هو ما أسماه «الأنا المثالي»:

«فالأنا المثالي هو اذن وريث عقدة أوديب ولذلك فهو أيضاً نتيجة أقوى الدوافع وأهم التقلبات التي مرت بالليبيدو في الهو[٥١] وبتكون هذا الأنا المثالي يقوم الأنا بالتغلب على عقدة أوديب كما يقوم في نفس الوقت بوضع نفسه تحت سلطة الهو»[٥٢].

وإذ قد وصلت السلسلة الوهمية إلى هذا الحد يبدأ فرويد في الإفصاح عن مرماه البعيد:

«من السهل أن نبين أن الأنا المثالي إنما يكوّن من جميع الوجوه ما ينتظر من طبيعة الانسان السامية، ومن حيث أنه بديل لشوقه نحو

(٥٠) الموجه في التحليل النفسي ٢٢ ــ ٢٥ وانظر معالم التحليل النفسي ٦٢ ــ ٦٧.

(٥١) الهو: حسب نظريته ــ هو ذلك القسم من النفس الذي يحوي كل ما هو موروث وغريزي وثابت في الإنسان.

(٥٢) الذات والغرائز: ٧٥.

الأب فهو يحوي على الأصل الذي منه نشأت جميع الأديان وأن حكم النفس بأن الأنا قد فشل في تحقيق ما هو مثالي عنده إنما يحدث بالاحساس بعدم الجدارة وهو الاحساس الذي يثبت به المتدين شوقه. وعندما يكبر الطفل تنتقل سلطة الأب إلى المدرسين وإلى الأشخاص الآخرين ذوي النفوذ وتظل سلطة أوامرهم ونواهيهم باقية في الأنا المثالي وهي تستمر تزاول رقابتها على الأخلاق في صورة الضمير».

«إن الدين والأخلاق والشعور الاجتماعي ـ وهي العناصر الأساسية لما هو أسمى في الانسان ـ إنما كانت في الأصل شيئاً واحداً وقد اكتسبت هذه الأشياء تبعاً للفرض الذي وضعته في كتاب «الطوطم والمحرم» عن عقدة الأدب أثناء نشوء النوع الانساني فاكتسب الدين والوازع الخلقي عن العملية الحقيقية للتغلب على عقدة أوديب نفسها...»[٥٣].

وقبل أن نتعجل ونقول أن هذا الهراء المتعمد لا دليل عليه ولا غرض له إلا الإنتقام المتعمد من «الأميين» بتلويث دينهم وأخلاقهم فإن علينا أن نبحث عن الغرض الذي ذكره فرويد عن الإنسانية في مرحلتها الأولى فلعل فيه شيئاً من العلمية» أو قل: شيئاً من النظافة.

قرأ فرويد لداروين أنه «في عالم البقر تتجه الثيران الفتية للحصول على البقرة الأم فتجد أباها عائقاً في الطريق فتتجه كلها نحوه لتقتله فإذا أفرغت من ذلك عادت فاصطرعت فيما بينها حتى يتغلب أحدها ـ وهو أقواها ـ فيفوز وحده بالأم ويصبح هو السيد الجديد».

ونقل فرويد بخياله الجانح هذه القصة من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان ليبني عليها فرضه المزعوم فهو يذكر في كتابه «الطوطم والمحرم» أن الأبناء في مطلع البشرية اتجهوا نحو أمهم بدافع الجنس

---

(٥٣) الذات والغرائز: ٧٦ ـ ٧٧

وإذ رأوا أباهم يحول دون ذلك قتلوه وبعدها أحسوا بالندم على قتله وعمدوا إلى تقديس ذكراه فعبدوه وبذلك نشأت العبادة البشرية الأولى «عبادة الأب» ثم تحولت إلى عبادة الطوطم وهو الحيوان الذي اعتقد الأبناء أن له صلة بالأب وكان تحريم أكل الطوطم أحد المحرمين الكبيرين لدى البدائيين أما المحرم الثاني فهو الزواج من المحارم وأصله أن هؤلاء الأبناء رأوا أنهم سيتقاتلون من أجل الحصول على الأم فاتفقوا على تحريمها على الجميع ومن ذلك نشأ أول تحريم جنسي وظلت البشرية تحرم الزواج منها ثم انتقل إلى سائر المحارم»[٥٤].

يقول «فلوجل»:

«كان أكثر تطبيقات علم النفس على الأنتربولوجيا إثارة هو بلا شك موقف فرويد «الطوطم والمحرمات»... وقد حاول فرويد في تطبيقه لتلك الأفكار على الطموطمية أن يشرح أحد المحرمين الكبيرين للمجتمع الطوطمي وهما تحريم أكل الحيوان الطوطم وتحريم الزواج الداخلي فأرجعهما إلى جانبي مركب «أوديب»: الرغبة في قتل الأب والزواج من الأم، وبهذا الشكل يبدو عيد الطوطم... ومشتقاته... بما في ذلك تناول الخبز المقدس في الكنيسة المسيحية ضاربة الجذور في اتجاه الرجل البدائي المتناقض وجدانياً[٥٥] أي بين محبة الأب من ناحية والرغبة في قتله للحصول على الأم من ناحية.

وبهذا يتضح تهافت الأسس التي قامت عليها الفرويدية، أما أثرها الهدام فسيأتي بيانه قريباً.

---

(٥٤) انظر التطور والثبات في حياة البشر: محمد قطب: ٤٨ ــ ٤٩ ويرى فرويد بعد ذلك ان الإنسان قد تطور وفي اثناء تطوره مرض بالدين «اننا ان حاولنا ان نحدد للدين مكانه في تاريخ تطور الإنسانية لم يبد انه كسب خالد بقدر ما يبدو انه نظير للمرض النفسي الذي لا بد ان يجتازه الإنسان المتحضر وهو يتطور من سن الطفولة إلى سن النضج» محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي ١٥٩.

(٥٥) علم النفس في مئة عام: ٢٣٣.

واقع المجتمع اللاديني المعاصر

بمجموع الاتجاهات والمدارس الفكرية وبتضافر عوامل أخرى مساندة كفرت أوروبا بالدين والأخلاق ونبذ المجتمع كل مقوماته المستمدة من هذين الاتجاهين وأصبحت القيم العليا فيه هي القيم المادية النفعية تحدوها مكيافيللية صريحة، وأضحى التعامل الاجتماعي قائماً على الرابطة المصلحية وحدها ممثلة في «عقد إجتماعي» أو «أخلاق تجارية» وكما ترى فلسفة الذرائع «البراجماتيزم»[٥٧]: لم يعد للأخلاق قيمة ذاتية، وإنما يحكم على أي تصرف وتعامل من خلال ما ينجم عنه عملياً من المصلحة النفعية..

فماذا جنت المجتمعات الغربية من ذلك كله؟..

يقول مؤلفو «تاريخ البشرية»:

«كانت فكرة الانسان عن نفسه كما ظهرت في منتصف القرن

---

(٥٦) البروتوكول.

(٥٧) فلسفة يتزعمها وليم جيمس وجورج سانتيانا وهي المعروفة بالفلسفة العملية لأنها تنكر القيم المجردة والاحكام الموضوعية ولا تؤمن إلا بالنتيجة العملية لأي سلوك وتدين بها أميركا المعاصرة.

العشرين تعكس فهمه المتغير لعلاقته بالمجتمع وبالطبقة وبالله: ففي معظم أنحاء العالم، وخلال طبقات إجتماعية كثيرة وعلى نطاق واسع، رأى الناس أنهم قد سيطروا على قوى جديدة وفرص جديدة وأنهم بسبيل هذه السيطرة فاعتقدوا أنهم بصدد فجر جديد لا يمكنهم إلا اجتلاء ملامحه بسرعة، أما مستقبله واحتمالاته فتدعو إلى الابتهاج وإلى الذعر في وقت واحد.

فقد أحس الناس في طول العالم وعرضه أنهم في سفينة قد انقطعت أسبابها بالبر، وعليهم أن يقودوها بغير خريطة عبر بحار مجهولة. كان هذا عند البعض بمثابة مغامرة كبرى لا تخلو من نشوة، وكان عند البعض الآخر خطراً يهدد بالويل الكبير. لقد وجد الانسان الحديث نفسه في موقف مليء بالمتناقضات، وكلما ازداد سيطرة على بيئته زاد شعوراً بعجزه أمام القوى التي كان إطلاق بعضها من صنعه. وكلما زادت درايته بالعالم خارج نطاق بيئته المباشرة، قلّت قدرته على التصرف المباشر إزاء كثير مما يبدو أنه يؤثر على حياته اليومية. وكلما زادت المعرفة الجديدة من تقويضها لليقينيات السابقة وكلما غيرت القوى الاجتماعية في النظم القديمة تزايد شعور الانسان بالحاجة إلى مصدر من مصادر الأمن والطمأنينة يقوم عنده مقام المصادر التي فقدها»(٥٨).

إنه الإفلاس وإنها الحيرة والضياع..!!

يقول ر. بوسكيه وزميله عن مشكلة الإنسان المعاصر:

«أين أنا؟ في أي عصر؟ وفي أي وضع ما زلت مشتبكاً؟ أهناك

---

(٥٨) ٢/٢٦: ١ ص ٢٤ ــ ٢٥.

ما يربطني بالماضي والمستقبل وبالآخرين من أهل عصري؟ هل يمكن أن يجلب لي ذلك شيئاً ما؟ وبكلمة واحدة: أين مكاني؟».

«هكذا يبدو الإنسان في المجتمع المعاصر مسيراً بالبيئة التي يعيش فيها، لقد فقد أعظم نصيب من حريته الداخلية ومن إحساسه بمسؤولياته ولن تكون الإنسانية سيدة مصيرها قبل أن يظفر الانسان بحريته الباطنة وإحساسه بمسؤولياته، ولكن أهو مستطيع هذا؟ ذلك هو السؤال الذي يجب أن نضعه لأنفسنا».

«إن مجتمعنا منظم في مجال التقنية والاقتصاد تنظيمًا عظيمًا، ولكنه ليس كذلك في المجال البشري، فنحن نعيش على آراء وأخلاقيات وإجتماعيات وفلسفات وسيكولوجية القرن التاسع عشر وما زلنا كأجداد أجدادنا. . . ومن المحتمل أننا ما زلنا نعيش على تنظيم ينتمي إلى القرن التاسع عشر. . . لم يعد من الممكن أن نحيا في عصر الصواريخ وفق قواعد عصر الحصان. . . ويمكن تفسير التفاوت بين التقدم الاقتصادي والتقدم الاجتماعي بسوء التكيف وبسوء نظام مجتمعنا».

«إن التطور الاقتصادي ليترجم الاختراعات العلمية التقنية إلى ثروات جديدة ويبدو الانسان وكأنه يغزو، شيئاً فشيئاً، الكوكب الذي يعيش فوقه. . عرف الطبيعة، سيطر على الطاقة، إستغل موارد الأرض ظاهرها وباطنها؛ ومع هذا لا ينتفع المجتمع كله من هذه الحركة. . حتى داخل البلاد الصناعية نجد غالباً نفس الفوارق حسب الأقاليم والفئات الاجتماعية ويزيد من خطورة هذه الفوارق ازدياد الحاجات التي تثيرها أغنى الجماعات، وكذلك التقدم الفني والتنظيم التجاري، وتلك دائرة جهنمية تدل على نقص في التنظيم الاجتماعي وكفاح مرير

تحاول فيه كل مجموعة وكل فرد الدفاع عن مصالحه الخاصة قبل كل شيء[٥٩]».

ولنستمع إلى تجربة شاب أوروبي معاصر وهو يروي معاناته ومعاناة جيله كله:

«لقد تميزت العقود الأولى من القرن العشرين بالفراغ الروحي، لقد أصبحت جميع القيم الأخلاقية التي أِلفَتْها أوروبا عدة قرون غير ذات شكل مقرر محدود، وذلك بفعل الفظائع التي كانت قد حدثت ما بين عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨، ولم يكن يبدو أن مجموعة جديدة من القيم ستفرض نفسها، لقد كان في الجـو شعور من المشـاشة والخـطر وإحساس مسبق بالجيشان الاجتماعي والعقلي جعل المرء يشك فيما إذا كان من الممكن أن يكون هناك مرة أخرى إستقرار في أفكار الانسان ومساعيه. كان كل شيء يبدو كأنه يسيل في فيضان غير منتظم ولم تستطع الحيرة الروحية لدى الشباب أن تجد لنفسها موطىء قدم، وبسبب فقدان المقاييس الأخلاقية الموثوق بها لم يستطع أحد أن يقدم إلينا ـ نُحن الشباب ـ أجوبة مرضية عن كثير من الأسئلة التي كانت تحيّرنا كان العلم يقول: «المعرفة هي كل شيء»، ونسي أن المعرفة دونما هدف أخلاقي لا يمكن أن تؤدي إلاّ إلى الفوضى والغموض.

«إن المصلحين الاجتماعيين والثوريين والشيوعيين لم يكونـوا يفكرون إلاّ بمقتضى ظروف خارجية إجتماعية أو إقتصادية، ومن ناحية أخرى فإن رجال الدين التقليديين لم يعرفوا شيئاً أفضل من أن يعزوا إلى إلههم صفات مقتبسة من عاداتهم الخاصة في التفكير، تلك العادات التي كانت قد أصبحت باردة لا معنى لها منذ زمن طويل.

---

(٥٩) الإنسان في المجتمع المعاصر: مقتطفات: ١٦/٤٤/١٣٢/٢٢٠.

وعندما رأينا، نحن الشباب، أن هذه الصفات الالهية المزعومة كثيراً ما كانت تتناقض إلى أبعد الحدود مع ما كان يجري في العالم من حولنا، كنا نقول لأنفسنا «إن القوة الدافعة للقضاء والقدر تختلف بصورة جلية واضحة عن الصفات المعزوة إلى الله وإذن فإن الله موجود».

«ولم يخطر إلا لعدد قليل جداً منا أن السبب في كل هذه الفوضى والاختلاط قد يكون مرده إلى استبداد حماة الدين الذين يزعمون أنهم هم الصالحون والذين كانوا يزعمون أن من حقهم أن يصفوا الله والذين بإلباسهم إياه ثيابهم الخاصة قد فصلوه عن الانسان ومصيره.

هذا التحول الاخلاقي في الفرد كان يمكن أن يؤدي إلى الفوضى الأخلاقية والشك أو إلى إيجاد ملتمس شخصي خلاق لما يمكن أن يشكل الحياة الطيبة.

«وفي إبان العملية العامة لانحلال المقاييس الاخلاقية الثابتة بعد الحرب العظمى زال كثير من الحواجز بين الجنسين، إن ما حدث لم يكن في إعتقادي ثورة على المحافظة التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر بقدر ما كان ارتداداً سلبياً من واقع كانت بعض المقاييس الأخلاقية المعينة فيه أبدية غير قابلة للشك إلى حالة إجتماعية، كان كل شيء فيها مدعاة للشك، إنتقال رقاص الساعة من اعتقاد الأمس المريح باستمرار تقدم الانسان ورقيه إلى الصحو المرير الذي دعا إليه شبنجلر إلى النسبية الأخلاقية لنيتشه فإلى العدمية الروحية التي غذاها واحتضنها التحليليون النفسيون»(٦٠).

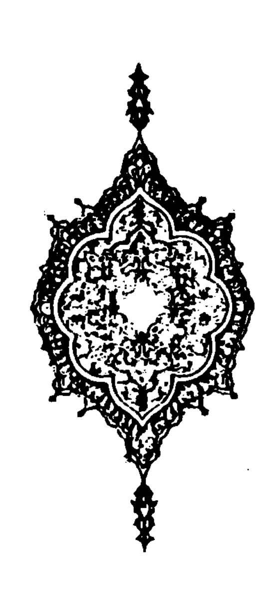
والحق أن واقع المجتمعات اللادينية في الأرض مما يكاد يعجز

---

(٦٠) محمد أسد، الطريق إلى الإسلام: ٨٥ ـ ٨٨.

الادراك عن تصور فظائعه وأهواله، وأن ما تعانيه من أزمات وتتلوى فيه من جحيم قد أعيى الفلاسفة وأقلق بال المصلحين وروّع قلوب المشفقين وأثار تشاؤمية الشعراء والروائيين حتى أن كثيراً من الناس هناك نفض يده من كل أمل في الخلاص من دائرة مستحكمة الحلقات واستسلم إلى حلم الموت اللذيذ يتعجله بيده أو يترقبه بفارغ الصبر!.

وليس في استطاعتنا أن نلم أطراف الحديث عن هذا المجتمع الساقط الهابط من كل زواياه، ولكننا سنكتفي بعرض صور من مأساته من خلال مناقشة قضية واحدة من قضايا الدين والخلق، وهي في الواقع القضية الخلقية الكبرى في التاريخ:



نموذج واحد للمأساة!

إن خير مثال يمكن أن يتخذه المرء مقياساً للمستوى الأخلاقي في أوروبا لهو قضية «العرض» ومكانة المرأة في المجتمع، فقد تفاوتت هذه القضية بين تزمت الرهبانية الكنسية وانحلال الإباحية الفرويدية، واتخذت مساراً تاريخياً جديراً بالملاحظة والتتبع.

كانت الكنيسة تردد ما قالته الأساطير الاغريقية من أن المرأة هي سبب الشر في الأرض وهو ما عمقته التوراة المحرفة بجعلها المرأة سبباً في إغواء الرجل والوقوع في الخطيئة(٦١). جرياً على ذلك قال أحد رجال الكنيسة لتلاميذه مرة:

«إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشرياً، بل ولا كائناً وحشياً، وإنما الذي ترون هو الشيطان بذاته والذي تسمعون هو صفير الثعبان»(٦٢).

---

(٦١) انظر «اساطير الاغريق من سلسلة تراث الإنسانية وسفر التكوين صح/٣.

(٦٢) أشعة خاصة بنور الإسلام: ٢٩.

«وقد تكون «راي ستراتشي»، إحدى المطالبات بحقوق المرأة فيما بين الحربين، صادقة حينما قالت عن الرهبانية: «يستفاد من النظرية التي أوصت بهذا التطاول على المرأة أن الشهوة الجنسية هي أشنع الخطايا جميعاً، وأنها كانت في الحقيقة الخطيئة التي سببت سقوط الانسان. وأن العفة الكاملة هي أعلى مَثَل في الحياة وأنه يجب أن يلعن النساء لأنهن سبب الغواية، وكان يقال إن الشيطان مولع بالظهور في شكل أنثى وإنه طالما زار النساك بهذه الصورة في كهوفهم الجبلية وصفوة القول أن مجرد التفكير في النساء كان خطراً وأن المرأة نفسها كانت نحساً من النحوس»(٦٣).

وقد انعكس هذا المفهوم على وضع المرأة في عصر الاقطاع عامة، إذ كانت، كما نقل راندال: «تربى المرأة الخادمة لتتعلم أصول حياة الزوجية فتعمل بشروط منهكة قاسية وتتغذى بلحم فج بسيط وترتدي ثياباً رثة وتظل تحت العبودية والرق، وإذا حملت يؤخذ الطفل من رحمها للعبودية.. تُباع المرأة الخادمة المستعبدة وتُشرى كالحيوان»(٦٤).

لكن على الرغم من هذا، فقد كان العرض له قيمته العظمى وكانت المحافظة عليه معيار الشرف والرجولة، أي أنه كان هناك إرتباط تاريخي بين إهدار قيمة المرأة معنوياً وإقتصادياً وبين المحافظة الشديدة على العرض وهي ثغرة لم تعدم من ينفذ منها فيما بعد.

وبقيام الثورة الفرنسية بدأت الشرارة الأولى في القضية التي أسميت «قضية المرأة». وتعتقد راي ستراتشي «أن الثورة في ظاهرها لم تفد النساء فائدة مباشرة «وترى أن فائدتها تعود إلى «أن النظرية

---

(٦٣) تاريخ العالم: ١/٢٩٧

(٦٤) تكوين العقل الحديث: ١/١٤٦

المعنوية للحرية البشرية كانت قد سادت وكان لا بد من أن تظهر دلائلها، إن عاجلاً وإن آجلاً[٦٥].

عندئذ ظفر الهدامون ببغيتهم المنشودة وسنحت لهم الفرصة التي طال ارتقابها، إلاّ أن الموضوع لم يبرز إلى حيز الواقع الملموس إلاّ بعد الانقلاب الصناعي الذي جرّ الويلات والمصائب على المجتمعات الغربية عموماً والطبقة الدنيا خاصة.. فقد استغل الرأسماليون الربويون عوز الناس والمجاعة التي اجتاحت الأسر الكادحة لتشغيل النساء في مصانعهم بأجور زهيدة، وكان النساء في مناجم الفحم يجررن العربات المحملة في دهاليز واطئة ويحملن أثقالاً عظمية من الفحم إلى السطح ويرقين سلالم شديدة الانحدار أو درجاً حلزونية»[٦٦].

وعلى الرغم من ذلك فلم يخل الأمر من فائدة نسبية للنساء الفقيرات، إذ أدى إلى تحسين نسبي في معيشتهن وإلى شيء من التعديل في القيمة الاجتماعية للمرأة. وقد ركز الهدامون وأبواقهم على هذه الفائدة النسبية وأسموا هذا التحول الاجتماعي «تحريراً للمرأة» وراج هذا الاصطلاح في الصحافة حتى أصبح رمزاً خداعاً للمخطط الذي كان الهدامون التلموديون يدبرونه في الخفاء. وأسهم الكتاب ـ على اختلاف مقاصدهم ـ في ترسيخ ذلك، حتى لقد قال هارولد لاسكي بعد الحرب الأولى: «لم تتحرر النساء من أغلالهن إلاّ بعد أن جعل الانقلاب الصناعي جهودهن الاقتصادية مظهراً مألوفاً من مظاهر المجتمع، فلم يكن بد من الاعتراف بهذه الجهود، وعندئذ فتحت لهن أبواب الأعمال التي ظن الناس أن دخولهن فيها ضرب من المحال

---

(٦٥) تاريخ العالم. ١/٤٠٠.

(٦٦) المصدر السابق. ١/٤٠١.

وزاد عـدد المختزلات وعاملات المصانع والحوانيت فأصبحت هذه الزيادة وحدها تحتم تحريرهن من القيود السياسية، وكان حقهن في حماية مصالحهن الاقتصادية يتضمن أن القضاء والجمعية التشريعية بل الشرطة لم يكن يستطاع إبقاؤها مغلقة دونهن وتجادل الناس خمسين عاماً في هذا الأمر فلم ينتبهوا إلى شيء ذي عناء حتى جاءت الحرب بضراوتها فأوضحت ما للمرأة من شأن خطير في الحياة الاقتصادية ولم يعد في وسع الرجل الذي أشاح عن كل نداء أن يعرض عما انطوى عليه هذا المشهد الذي زادته الحرب روعة وجلالاً[٦٧].

هكذا صور البعض ولكن الواقع كان شيئاً آخر يختلف تمام الاختلاف مما حدا بالكثيرين إلى رفع صيحات الخطر والتحذير حتى من النساء أنفسهن:

تقول الكاتبة الانجليزية «أني رود» عن ذلك:

«إذا اشتغلت بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاء من اشتغالهن في المعامل حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد.

أياليت بلادنـا كبلاد المسلمـين حيث فيها الحشمـة والعفاف والطهارة رداء الخادمة والرقيق اللذين يتنعمان بأرغد عيش ويعاملان معاملة أولاد رب البيت ولا يمس عرضهما بسوء. نعم إنه عار على بلاد الانكليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطتهن للرجال، فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل ما يوافق فطرتها الطبيعية كما قضت بذلك الديانـة السماويـة وترك أعمـال الرجـال للرجال سـلامة لشرفها»[٦٨]. وتقول الكاتبة اللادي كوك أيضاً:

---

(٦٧) المصدر السابق: ١/٤٠٩.

(٦٨) الإسلام روح المدنية: مصطفى الغلاييني: ٢١١.

«إن الاختلاط يألفه الرجال، ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها، وعلى قدر الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا؛ ولا يخفى ما في هذا من البلاء العظيم على المرأة. فيا أيها الآباء لا يغرنكم بعض دريهمات تكسبها بناتكم باشتغالهن في المعامل ونحوها ومصيرهن إلى ما ذكرنا فعلموهن الابتعاد عن الرجال، إذ دلنا الاحصاء على أن البلاء الناتج من الزنا يعظم ويتفاقم حيث يكثر الاختلاط بين الرجال والنساء. ألم تروا أن أكثر أولاد الزنا أمهاتهن من المشتغلات في المعامل ومن الخادمات في البيوت ومن أكثر السيدات المعرضات للأنظار. . ولولا الأطباء الذين يعطون الأدوية للاسقاط لرأينا أضعاف مما نرى الآن، ولقد أدت بنا الحال إلى حد من الدناءة لم يكن تصوره في الامكان حتى أصبح رجال مقاطعات من بلادنا لا يقبلون البنت ما لم تكن مجربة، أعني عندها أولاد من الزنا، فينتفع بشغلهم وهذا غاية الهبوط في المدنية. فكم قاست هذه المرأة من مرارة الحياة حتى قدرت على كفالتهم والذي اتخذته زوجاً لها لا ينظر لهؤلاء الأطفال ولا يتعهدهم بشيء يكون. ويلاه من هذه الحالة التعيسة. ترى من كان معيناً لها في الوحم ودواره والحمل وأثقاله والفصال ومرارته»[٦٩].

وكتب أحد علماء الأخلاق قائلاً:

«إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل ودور الصناعات مهما نشأ عنه من الثروة فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية، لأنه هاجم هيكل المنزل وقوض أركان العائلة وفرق الروابط الاجتماعية، فإنه بسلبه الزوجة من زوجها صار بنوع خاص لا نتيجة له إلّا تسفيه أخلاق المرأة لأن وظيفة المرأة الحقيقية هي القيام بالواجبات المنزلية كترتيبها أولادها وترتيبها مسكنها والاقتصاد في

(٦٩) المصدر السابق: ٢١٢

وسائل معيشتها مع القيام بالاحتياجات العائلية. ولكن المعامل سلختها من كل هذه الواجبات، بحيث أصبحت المنازل غير منازل وأضحت الأولاد تشب على غير التربية الحقيقية لكونها تلقى في زوايا الاهمال، وطفئت المحبة الزوجية وخرجت المرأة عن كونها الزوجة الظريفة والقرينة المحبة للرجل وصارت زميلته في العمل والمشاق»[٧٠].

لكن هذه التحذيرات البالغة لم تغير من الواقع شيئاً وإنما نبهت القوى الشريرة إلى إسكات مثل تلك الاعتراضات بإيجاد البديل غير الطبيعي. فقد شُيدت المحاضن ودور الرعاية لتربية أولاد الزنا وتنوعت الأدوية المانعة من الحمل بدلاً من المسقطة للجنين واستطاع الهدامون أن يجعلوا تعليم البنات حقيقة واقعة وهي خطوة من غير المستطاع الرجوع عنها، كما أن الأزمات الاقتصادية ـ التي كان لهم دور فيها ـ دفعت بالعجلة إلى الأمام وأصبحت القضية الشاغلة للنساء وللكتاب النسائيين هي المطالبة بمساواة الرجل في الأجور ومناهج التعليم والمقاعد النيابية. . الخ. وتنوسيت المشكلة الأساسية «مشكلة خروجها من البيت»، حتى لم تعد تجد من يتحدث عنها.

وقام كتاب وصحفيون يفلسفون الواقع ويطالبون بالمزيد. فقال برتراند رسل:

«إني لا أميز فرقاً البتة بين ما يسمونه الذكر وما يسمونه الأنثى، نعم يستحسن في المرأة التي سيعهد إليها بالعناية بالأطفال الصغار أن تتلقى قدراً معيناً من الإعداد المهني، لكن هذا لا يستلزم من الفروق إلّا شبه ما بين الزارع والطحان، وهذا ليس أساسياً بأية حال من الأحوال ولا يتطلب منا اعتباراً ونحن في مستوانا الحاضر»[٧١].

---

(٧٠) عن دائرة المعارف فريدي وجدي: ٨/٦٣٩.

(٧١) في التربية: ٤٦، ٢٥٦.

وتطورت المطالب حتى أصبح الكتاب النسائيون يطالبون بالمساواة بين الرجل والمرأة في الفساد ويصبون اللعنة على المجتمع الذي ينكر زنى الفتاة ويغض نظره عن الجريمة نفسها بالنسبة للفتى. يقول رسل أيضاً: «يجب أن يعالج الجنس من البداية كشيء طبيعي مبهج ومحتشم. وإذا أردنا أن نفعل خلاف ذلك فإننا نكون سممنا العلاقات فيما بين الرجل والمرأة وبين الآباء والأولاد».

«إن الفضيلة التي تستند إلى الجهل لا قيمة لها وأن الفتيات لهن نفس الحق في المعرفة (الجنسية) كالفتيان»[٧٢].

وهناك شيء أساسي في تعليم حب الجنس، فلا ينبغي اعتبار الغيرة إلحاحاً مبرراً على الحقوق، بل هي مأساة لمن يشعر بها. وهي خطأ بحق من تستهدفه»[٧٣].

ويضرب أمثلة لذلك في كتاب آخر: «في ولاية نيويورك، حيث يعتبر الزنا جريمة عقوبتها السجن لم تقم حركة ذات أثر لتغيير القانون في هذا الشأن. ويقول كثير من الناس: «وماذا يهم القانون إذا كان لا يطبق» وأنا أعتقد أن هذه الحجة وهمية إلى حد كبير.. على الرغم من أن هذا القانون لا يطبق عادة فإنه يمكن أن يحركه زوج تحدوه روح إنتقامية»[٧٤]. ولكن الرجل الذي كان له أعظم الأثر في هدم الفضيلة وفتح أعمق أزمة في تاريخ الأخلاق ـ على حد تعبير فوجيرولا ـ[٧٥] هو فرويد ونظريته في التحليل النفسي يقول فلوجل: «الحق أن بعض المحللين النفسيين كانوا يؤمنون إلى أن الموانع التقليدية التي تفرضها

(٧٢) نفس المصدر السابق.

(٧٣) المصدر السابق: ١٥٤.

(٧٤) المجتمع البشري: ١٢٦.

(٧٥) الثورة الفرويدية: ١٩٨.

مستوياتنا الخلقية عبء تنوء به الطبيعة البشرية وكان من أثر ذلك كله أن المتحمسين من غير المختصين كانوا يدعون إلى التخلي الكامل عن التحكم وفرض النظام سواء في ميدان التعليم أو ميدان العلاقات الجنسية أو غير ذلك من الميادين إلى درجة جعلت الآباء يخشون من ممارسة أبسط أنواع الرقابة على أبنائهم مخافة إصابتهم بالكبت أو الأمراض العصبية».

ويقول: «إن التحليل النفسي بصرف النظر عن الإفراط في الحماس وسوء الفهم وسوء الاستخدام قد ساعد فعلاً على تقويض أركان الأخلاق التقليدية. فلقد كشف عن شيء من السذاجة والخرق في عمل سلطات الرقابة الخلقية في الانسان»[٧٦].

ويقول الفيلسوف «جود»:

«ولكن مذهب التحليل النفسي قد أثر في موقف الانسان من الاستغراق في الحاضر والاستمتاع به، وحري أن يقال أن هذا التأثير قد أتى بصورة مباشرة من أن يقال أنه أتى عن طريق ما بعثه من الشك في الأخلاق التقليدية وما تنطوي عليه من القيود والمحرمات؛ فهو، بالاضافة إلى نزعه الثقة من الاتجاهات القديمة التي تنحو إلى القصد والزهد في الحياة، قد أقام مذهباً إيجابياً يحمل الناس إلى ممارسة الحاضر والانغماس في تجاربه، فلم يقتصر على القول بأن من العبث أن نحرم أنفسنا طلباً للخلاص الموعود في الآخرة، بل جعل من واجبنا أن نتلمس اللذات ونغفل عن شؤون الروح. فالتحليل النفسي مسؤول عن هذه العقيدة الايجابية التي تتلخص في التعبير عن النفس. فكان من تعاليم فرويد أن كبح الدوافع الغريزية وكظم الرغبات الشعورية فيه إضرار بالشخصية يتناول أسسها العميقة..

---

(٧٦) الإنسان والاخلاق والمجتمع: ٤٢، ٤٣.

«بل ان النزعات الطهرية التي تنحو إلى الزهد والتقشف وترى في حرمان النفس وإنكارها أسمى الفضائل وتلتزم بالقيود والمحظورات هي نفسها وليدة للدوافع اللاشعورية، فقد أظهر فرويد أنها نوع من التبرير يتمسك به أولئك المحرومون من لذائذ الحياة أو الذين لا يسعهم الاستمتاع بها»(٧٧).

وأثر الفرويدية في انهيار الفضيلة والدعوة إلى الإباحية أوضح من أن يذكر. ولنكتف بمثال على ذلك وهو ما قاله أحد المؤلفين في كتاب اسمه «توجيه المراهق»:

«ساعد التعليم المختلط بين البنين والبنات ومعرفة الفتيات أن اشتراكهن في الألعاب الرياضية لا يعوق عملية الولادة فيما بعد، على انتشار العلاقات اليومية الطبيعية السوية بين الفتيان والفتيات، ذلك أنهم يشاهدون بعضهم بعضاً في حجر الدراسة ويشتركون معاً في بعض الألعاب والتمثيليات، بل ويدرسون موضوعات واحدة. وهذا كله يتيح للفتيان والفتيات أن يفهم بعضهم بعضاً. وبدلاً من أن ينظر الفتيان إلى الفتيات نظرة سطحية تقوم على الإغراء الجسدي والتفاهة العقلية والجمود الروحي، فإنهم ينظرون إليهن على أنهن زميلات وصديقات، بينما تستجيب الفتيات اللاتي حسنت تربيتهن لهذا ويستطعن أن يعرفن الفتيان معرفة تتسم بالأمانة.

«وتجد أن كل شيء يؤيد هذا التعارف الوثيق بين الفتيان والفتيات، فعالم اليوم يعمل فيه الرجال والنساء ويلعبون جنباً إلى جنب فكيف يتسنى لهم أن يفعلوا ذلك إذا قضى كل جنس زهرة شبابه في عزلة تامة عن الجنس الآخر يجتر خيالاته وأوهامه عن فروق بين الجنسين لا أساس لها من الصحة.

---

(٧٧) منازع الفكر الحديث: ٢٨٣.

«ولن يضيع عنصر الخيال الذي يسعى إلى توفيره الفتيان والفتيات في علاقاتهم نتيجة ما بينهم من تعارف وثيق، بل على العكس فإنه يحصنهم من الفتنة بحيث يكونون أقدر على التمييز في اختيار الشريك الذي يبحث عنه كل منهم.

وقد يكون هذا السلوك نوعاً من التكييف المنحط من وجهة النظر الأخلاقية الخالصة ولكن الشباب يستطيعون بل ويفهمون هذا النوع من أنواع السلوك الذي لا يتفق حقيقة مع مصالحهم[٧٨]».

وظل هذا السعار يزداد وظلت تلك الدعوات المحمومة تطغى على كل وسائل الثقافة والاعلام وتهيمن على أعراف وتقاليد المجتمع حتى وصل انهيار الأخلاق والاستهانة بالفضيلة إلى حد أن أصبح «الأميركيون يعتقدون أن بقاء البنت عذراء قد يسبب الاصابة بمرض السرطان. لذلك يتخلصون من العذرية بسرعة»، وأصبحت آخر صرعات الشذوذ الجنسي ممارسة الجنس مع أطفال دون سن الثالثة يتم اختطافهم من المكسيك ويباعون في الأسواق كالرقيق أو الدجاج[٧٩]. وأصبح طلبة المدارس الابتدائية يشاهدون عروضاً سينمائية جنسية ضمن الأنشطة الدراسية اليومية ويحملون المخدرات الشديدة التأثير في حقائبهم الدراسية وأضحت الخيانة الزوجية «الفاحشة» تقليداً شائعاً لا يستطيع أحد إنكاره. بينما يمارس البنات البغاء والعلاقات المحرمة تحت سمع وبصر الوالدين والمجتمع كأي وسيلة ترفيهية.

وها هو الواقع المحسوس في الغرب يشهد أن التدني الأخلاقي،

---

(٧٨) دجلاس توم: ١٨٨/ ١٩٠.

(٧٩) مجلة الدعوة المصرية: ٢٦/ ١٣٩٨ هـ.

لا سيما ما يتصل بالعرض، قد سفل إلى درجة من الدياثة والسخف لا نجد لها نظيراً، حتى في عالم الحيوان.

وقد يقول قائل: إن مسألة الأخلاق من أساسها غير معترف بها في الغرب فلا معنى للقول بأن المجتمع اللاديني يعيش بلا أخلاق. إذ لا ضير ـ في نظر ذلك المجتمع ـ أن يقال أنه لا أخلاق له ما دام لا يرى في الأخلاق إلاّ القيود التي فرضتها الكنيسة أو التقاليد البالية الموروثة من العصر الزراعي.

لكننا نقول: هل المسألة مسألة أخلاق تنتهك وتقاليد تخالف فحسب؟

إن الدكتور اليكسيس كاريل يرى أن من أسباب تدهور الحضارة المعاصرة أن الناس يصادمون ما أسماه القوانين الطبيعية التي تعني في القاموس الاسلامي «سنن الله في الكون» ويقول أنهم «لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم»[٨٠]. فكل مخالفة لفطرة الله التي فطر الناس عليها لا بد أن تتقاضى جزاءها من سعادة المجتمع وطمأنينته. وذلك منطوق قوله تعالى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ وليس في تاريخ البشرية أجمع نموذج للضلال والشقاء والمعيشة الضنك يوازي النموذج الذي تقدمه الحضارة الغربية المعاصرة.

لقد ضج عقلاء الغرب وجأروا بالشكوى وحق لهم ذلك وهم يرون انهيار حضارتهم ويشهدون مأساة مجتمعهم بأعينهم. ولم يفت بعضهم أن يدرك أن مخالفة الفطرة وتعطيل وظيفة الأمومة وخروج

---

(٨٠) الإنسان ذلك المجهول: ١٠.

المرأة تزاحم الرجل في معترك الحياة هي سبب فعال في هذا الانهيار السريع والشرور الاجتماعية المدمرة.

يقول «شبنجلر» في مؤلفه الشهير «تدهور الحضارة الغربية»:

«عندما يبدأ الفكر العادي لشعب رفيع الثقافة والعلم بأن يعتبر إنجاب الأطفال هو قضية لها وجوهها المؤيدة والمناهضة فعندئذٍ تكون نقط الانعطاف العظمى قد جاءت وحان أوانها... وعندما يتوجب علينا أن نقدم إطلاقاً الأسباب لقضية من قضايا الحياة عندئذٍ تصبح الحياة ذاتها مشكوكاً في أمرها ومدار تساؤل... وكما هي الحال في مدننا نحن معشر الغربيين أصبح اختيار الرجل للمرأة لا بوصفها أماً لأولاده كما هي الحال بين الفلاحين والبدائيين بل بوصفها «رفيقة حياة» معضلة للعقول ومشكلة. فالزواج عند «أبسن» يبدو على أنه الامتزاج الأرقى حيث يكون فيه كل من الفريقين حراً طليقاً... وهكذا بمقدور «شو» أن يقول: «أنه ما لم تفكر المرأة بأنوثتها وبواجبها إزاء زوجها وأطفالها والمجتمع والقانون وإزاء كل إنسان آخر ما عدا واجبها إزاء نفسها فإنها لا تستطيع أن تحرر أنوثتها».

«إن المرأة الفلاحة هي أم وان كامل رسالتها ــ هذه الرسالة التي تحن إليها منذ طفولتها ــ إنما تحتويها تلك الكلمة أم. ولكننا نرى اليوم امرأة «أبسن» المرأة الرفيقة الزميلة الخدن تخرج إلينا ونراها بطلة جميع آداب المدن العالمية العظمى إبتداءً من الدراما الشمالية حتى الرواية الباريسية، فهي بدلاً من أن يكون لها أطفال لها تصادمات وتناقضات نفسية وما الزواج غير فن من براعة هدفه تحقيق التفاهم المتبادل.

«وسيان أكانت القضية ــ قضية معارضة إنجاب الأطفال ــ هي قضية السيدة الأمريكية التي لن تقايض على حضور أي موسم حفلات بأي ثمن أو قضية السيدة الباريسية التي تخشى أن يهجرها عشيقها أو

قضية بطلة «أبسن» التي لا تنتمي إلى أحد ما عدا نفسها فالقضية واحدة وجميعهن ملك ذواتهن فقط، وكل واحدة منهن عاقر عقيم وعطفاً على ما أوردت نجد الواقعة ذاتها في الاسكندرية وفي المجتمع الروماني وبداهة في كل مجتمع متمدن آخر.

«... عند هذا المستوى تدخل المدنيات مرحلة من تدن وتناقض مرعبين في السكان وتستمر هذه المرحلة قروناً من الزمن وهنا يضمحل كامل هرم الانسان الحضاري ويتلاشى ويزول[٨١]».

هذا التوقع من شبنجلر ليس متشائماً كما قد يظن بل أصبح الواقع المعاصر يدعو إلى التصديق به إلى درجة اليقين وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ولنعد إلى الوراء قرابة خمسين عاماً حيث السعير لم يتضح أواره والبلاء لم تكتمل أطواره لنجد كاتباً أميركياً متفلسفاً ينادي بالويل والثبور ويرفع عقيرته أسى للمصير المرعب الذي ينتظر أمته. نجد «ول ديورانت» يقول سنة ١٩٢٩م:

«... وثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطرة لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأغراض وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الايمان الديني وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا ويبدو العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب، إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقت بال سقراط نعني: كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى، حيث نفقد الفلسفة(!) التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض

---

(٨١) ج: ١: ٢٨٢/٢٨٣.

وترتب سلم الرغبات، إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ونلقي بأنفسنا في هذا الانتحار الجماعي للحرب. وعندنا مئة ألف سياسي وليس عندنا «رجل حكيم» واحد. إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل ولكننا لا نعرف أين نذهب ولم نفكر في ذلك أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة أو أننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة ولن ننجو منها بغير الحكمة».

«واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا فقد كان القانون الأخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ولم يكن الوالد مسؤولاً عن ولده إلا بطريق الزواج أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفاً لم يكن آباؤنا يتوقعونه لأن جميع العلاقات بين الرجل والمرأة آخذة في التغيير نتيجة هذا العامل ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة».

«فحياة المدينة تفضي إلى كل مثبط عن الزواج، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها ولكن النمو الجنسي يتم مبكراً عما كان من قبل كما يتأخر النمو الاقتصادي فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عملياً ومعقولاً في ظل النظام الاقتصادي الزراعي فإنه الآن يبدو أمراً عسيراً وغير طبيعي في حضارة صناعية أجّلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين، ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعاً للسخرية ويختفي الحياء الذي كان يضفي على الجمال جمالاً ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم وتطالب النساء بحقها في مغامرات

غير محدودة على قدم المساواة من الرجال. ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفاً وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس. لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي ولم يعد العالم المدني يحكم به».

«ولسنا نرى مقدار الشر الاجتماعي الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسؤولاً عنه، ولا في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب لأن الطبيعة (!) لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة. ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الملال الذي يحسونه في حصار قلعة مستسلمة. ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظنون في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعدد قبله. وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الانسان. وهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر، غير أنه من المخجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية. وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوفة تلك التي تحاول كسب المال واستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين — وهم في حمى الفوضى الصناعية — من حمى الزواج ورعايته للصحة».

«ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة لأن كل رجل يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في ابتذال ظاهر ويجد الرجل بإرضاء غرائزه في هذه الفترة من التأجيل نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحصينات ومنظماً بأسمى دروب الادارة العلمية ويبدو أن

العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها[٨٢].

«وأكبر الظن أن هذا التجدد في الاقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم داروين على المعتقدات الدينية وحين اكتشف الشبان والفتيات وقد أكسبهم المال جرأة أن الدين يشهر بملاذهم التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين. وأدى التزمت في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل في الأدب وعلم النفس صوّر الجنس مرادفاً للحياة. وقد كان علماء اللاهوت قديماً يتجادلون في مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذنباً؟ أما الآن فلنا أن ندهش ونقول أليس من الاجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها. لقد فقد الناس الايمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة.

«وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل في هذا التغيير ذلك أن الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين في ظل الصناعة والتجارة وعودت الجنود الوحشية والإباحية، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقي وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية وحطمت الايمان بالعناية الالهية وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ظهر جيل مخدوع وألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقي وأصبحت الحكومات في واد والشعب في وادٍ آخر، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها واستهدفت الصناعات الربح

(٨٢) هكذا يظن ديورانت ولكن جد بعده أشياء وأشياء!!

بصرف النظر عن الصالح العام، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤولية وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية كاملة وإلى طفيليات فاسدة ورأى الشباب نفسه قد منح حريات جديدة، تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية في الماضي وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة.

«حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت إلى عالم لم يسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية فهي واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب وحفلات من الشمبانيا في نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية».

«وأخيراً تجد الرفيق الذي يطلب يدها للزواج ويعقد عليها لا في الكنيسة ـ لأنهما من أحرار الفكر الذين ألحدوا عن الدين ولم يعد للقانون الخلقي الذي ظل جاثماً على إيمانهما المهجور أثر في قلبهما. إنهما يتزوجان في قبو المكتب البلدي (الذي يفوح منه عبير السياسة) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة. إنهما لا يرتبطان بكلمة الشرف بل بعقد من المصلحة، لهما الحرية في أي وقت في التحلل منه فلا مراسيم مهيبة ولا خطبة عظيمة ولا موسيقى رائعة ولا عمق نشوة في الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن، ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكاً ويتوجهان إلى البيت في صخب.

«إنه ليس بيتاً! فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشىء وسط الحشائش النضرة والأشجار الظليلة... بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلاً في زنزانة سجن، ليس هذا المسكن شيئاً روحياً كالبيت الذي كان يتخذ مظهراً ويكسب روحاً قبل ذلك بعشرين عاماً بل مجرد شيء مادي فيه من الجفاف والبرودة ما تجده في مارستان فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد...

«وتصاب المرأة بخيبة أمل فهي لا تجد في هذا البيت شيئاً يجعل جدرانه تحتمل في الليل والنهار ولا تلبث إلا قليلاً حتى تهجره في كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر، ويخيب أمل الرجل... ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التي كان يعيش فيها وهو أعزب وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبهاً عادياً تلك العلاقات غير البريئة التي كان يعقدها مع المستهترات من النساء».

«ولما كان زواجهما ليس زواجاً بالمعنى الصحيح ـ لأنه صلة جنسية ـ لا رباط أبوة ـ فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه، ومقومات الحياة، يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر، وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية في التنويع، حين تؤدي الالفة إلى الاستخفاف، فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته».

ويتوقع ديورانت آنذاك هذه الكوارث:

«لا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصوداً وسيزداد الزواج الحر مباحاً كان أم غير مباح ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شراً من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحد سينهار «المستوى المزدوج» وستحث المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج، سينمو الطلاق وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحرمة ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة وعندما يتم تصنيع المرأة ويصبح ضبط الحمل سراً شائعاً في كل طبقة يضحى الحمل أمراً عارضاً في حياة المرأة أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية

الأطفال محل عناية البيت. . . وهذا كل شيء»[٨٣].

ولقد تحقق كل ما توقع وأعظم منه، ونجم عنه الشقاء المستديم للمرأة وللمجتمع كله، وأما المرأة فقد دفع بها الوضع الاجتماعي الذي لا يرحم إلى أن أصبحت تطرد من المنزل بعد سن الثامنة عشرة لكي تبدأ في الكدح لنيل لقمة العيش، وإذا ما رغبت ـ أو أجبرتها الظروف ـ في البقاء في المنزل مع أسرتها بعد هذه السن فإنها تدفع لوالديها إيجار غرفتها وثمن طعامها وغسيل ملابسها بل تدفع رسمًا معيناً مقابل اتصالاتها الهاتفية[٨٤]. وإذا حظيت الطريدة بأي عمل فإنها تستشعر دوماً تهديد البطالة والأزمات الاقتصادية وتظل خاضعة لاستغلال الرأسماليين أو عبودية الدولة ـ إن كانت شيوعية ـ ويؤدي إرهاقها المستمر وقلقها الدائم ـ إلى أن تفقد طبيعتها الأنثوية وتضحى عرضة للأمراض العصبية وفي بعض الأحيان لا تجد وسيلة للخلاص من هذا الكابوس الرهيب أفضل من الانتحار، وقد تضخمت المشكلة وتعقدت وسرت آثارها في كيان المجتمع كله حتى لم يعد من الممكن الرجوع إلى الحالة السوية إلا بتغيير جذري ينقضي بناء المجتمع من أساسه وهذا التغيير بعيد الاحتمال في المجتمع الغربي اللاهث نحو الهاوية بل إن الصيحات التي يطلقها الكثيرون ممن ذاقوا مرارة التجربة من النساء والرجال لا تجد لها صدى يذكر.

تقول «أجاثا كريستي» أشهر كاتبة إنجليزية للمؤلفات البوليسية:

«إن المرأة الحديثة مغفلة لأن مركزها في المجتمع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم فنحن النساء نتصرف تصرفاً أحمق لأننا بذلنا الجهد الكبير في

---

(٨٣) نقلت هذه المقتطفات من كتاب الإسلام ومشكلات الحضارة، ص ١٣٣ ـ ١٤٠.

(٨٤) انظر المرأة بين الفقه والقانون: مصطفى السباعي: ٣٠٠.

السنين الماضية للحصول على حق العمل والمساواة في العمل مع الرجال. والرجال ليسوا أغبياء فقد شجعونا على ذلك معلنين أنه لا مانع مطلقاً من أن تعمل الزوجة وتضاعف دخل الزوج ومن المحزن أن نجد بعد أن أثبتنا نحن النساء أننا الجنس اللطيف (أننا) نعود اليوم لنتساوى في الجهد والعرق الذي كان من نصيب الرجل وحده[٨٥]».

وفي استفتاء لمعهد غالوب في أميركا:

«إن المرأة متعبة الآن ويفضل ٦٥٪ من نساء أميركا العودة إلى منازلهن، كانت المرأة تتوهم أنها بلغت أمنية العمل أما اليوم وقد أدمت عثرات الطريق قدمها واستنزفت الجهود قواها فإنها تود الرجوع إلى عشها لاحتضان فراخها»[٢٨].

ولكن المرأة الغربية المنكوبة إذ تحاول الرجوع إلى البيت ووظيفة الأمومة لا تستطيع لأن المشكلة اتسع نطاقها إلى درجة تتعذر معها العودة الحقيقية ولو حصل شيء من ذلك فإن المجتمع الذي تعود الانحلال والاختلاط يستنكره ويأباه بل أصبح الزواج رغم هشاشته ــ مصدر إزعاج للقائمين على تلك المجتمعات فقد طلعت الصحافة الغربية يوماً بخبر يقول:

«إنزعجت السلطات التعليمية في سكوتلاندة بسبب موجة الزواج التي تعصف بالمدرسات فقد تبين أنه خلال عام ١٩٦٠ عينت ١٥٦٣ مدرسة في سكوتلاندة وفي نهاية العام الدراسي تركت ألف منهن الوظيفة للزواج. وقالت السلطات أن الزواج يهدد النظام المدرسي»[٨٧].

---

(٨٥) مجلة الاعتصام العدد ٣ السنة ٤١/١٣٩٨ هـ.

(٨٦) المرأة بين الفقه والقانون: ٢٥٩.

(٨٧) المصدر السابق: ٢٥٧ ــ ٢٦٨.

وحيال ذلك ماذا في وسع المرأة أن تفعل؟ بأي شيء تواجه المجتمع النكد الذي يلهب ظهرها بالسياط ويقطع عليها طريق العودة إلى فطرتها؟ ليس هناك إلا أحد سبيلين: إما الانتقام من هذا المجتمع الظالم بترويعه وتعكير صفوه كما جاء في التقرير الذي نشرته الصحف من أنه «بلغت عدد سرقات المتاجر الكبيرة في إنجلترا خلال عام ١٩٦٠ نحو ٣٢١٩٤ سرقة هذا عدا الحالات التي لم تبلغ لادارة البوليس والغريب أن ٦٠٪ من هذه السرقات ارتكبتها نساء جاوزن سن البلوغ و٣٠٪ إرتكبها ذكور أقل من السابعة عشرة وتقول الاحصائيات أن كل السارقات من النساء لم يكن في حاجة للمال»[88]. نعم إنها ليست الحاجة للمال ولكنها الرغبة في الانتقام وتفريغ السخط.

وإما الانتقام من نفسها بالانتحار كما فعلت الممثلة الشهيرة «مارلين مونرو» التي كتبت قبيل انتحارها نصيحة لبنات جنسها تقول فيها:

«إحذري المجد... إحذري من كل من يخدعك بالأضواء... إني أتعس امرأة على هذه الأرض... لم أستطع أن أكون أماً... إني امرأة أفضل البيت... الحياة العائلية الشريفة على كل شيء... إن سعادة المرأة الحقيقية في الحياة العائلية الشريفة الطاهرة بل إن هذه الحياة العائلية لهي رمز سعادة المرأة بل الانسانية «وتقول في النهاية» لقد ظلمني كل الناس... وأن العمل في السينما يجعل من المرأة سلعة رخيصة تافهة مهما نالت من المجد والشهرة الزائفة».

وليس غريباً أن تؤكد الاحصائيات العالمية أن نسبة محاولات الانتحار عند النساء أكثر منها عند الرجال يقول تقرير كتبه أحد

---

(٨٨) نفس المصدر السابق.

الأطباء الاجتماعيين في فينا: «وقد لوحظ أن النساء أكثر محاولة من الرجال ففي عام ١٩٤٨ كان عدد المحاولات في النساء ٣٨١ وهذا يوافق ٥٨,٦١ ٪ من المجموع وفي عام ١٩٥٦ م كان العدد ٥٩٠ أي بنسبة ٥٦,٧٣ ٪ وفي عام ١٩٥٩ كانت النسبة ٥٥,٩٢ ٪ كما لوحظ أن نسبة المحاولات في الفتيان والفتيات الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ عاماً و ٢٠ عاماً ترتفع باستمرار فعند الفتيان كانت النسبة في عام ٤٨ ـ ٦,٥ ٪ وفي عام ١٩٥٦ م ـ ٦,٥٣ ٪ وفي عام ١٩٥٩ م ٦,٨١ ٪. وأما عند الفتيات فالتصاعد مخيف ففي عام ١٩٤٨ حاولت ٥٠ فتاة الانتحار وهذا يشكل نسبة ٧,٦٩ ٪ من مجموع محاولات الانتحار في ذلك العام وفي عام ١٩٥٦ حاولت ٨٩ فتاة الانتحار وهذا يشكل نسبة ٨,٥٥ ٪ وفي عام ١٩٥٩ حاولت ١٥٠ فتاة الانتحار وهذا يعني نسبة ١٤,٢٠ ٪ وهذا يعني أن كل تسعة أيام توجد ست محاولات إنتحار أربع منها من جانب الفتيات واثنتان من جانب الفتيان[٨٩]».

وهذا غير المصائب التي يوقعها المجتمع بالمرأة والتي هي في الواقع معاول تهدم المجتمع بكامله إذ لا انفصام بين مشكلة المرأة في ذاتها ومشكلة المجتمع الذي تعيش فيه. من ذلك ما نشرته الصحف الأميركية في عام ١٩٧٧ م من أن فتاة أميركية في إحدى الولايات الوسطى بالقرب من مدينة غير مشهورة وجدت مقتولة وقد طرحت جثتها في الغابة وحمل البوليس الجثة إلى المستشفى ونشر إعلاناً يتضمن سن الفتاة وصفاتها الجسدية لكي يحضر قريبها لتسلم الجثة. فماذا كانت النتيجة.؟... تقول الصحف: أن المستشفى تلقى ١٢٠٠ مكالمة من أناس كل منهم يشك في أنها قريبته ويستوضح بعض صفات

---

(٨٩) المصدر السابق: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

لفتاة أخرى بينما حضر إلى المستشفى شخصياً قرابة ٥٠٠ شخص لمعاينة الجثة[٩٠].

وهذا يعني أن هؤلاء فقدوا فتيات يحملن نفس تلك الصفات وفي السن نفسه فكيف بمن يحملن صفات أخرى وفي مراحل من العمر أخرى؟ وإذا كان هذا على مستوى المدينة أو الولاية فكيف بالولايات كلها؟. والأغرب من ذلك كيف يقع هذا كله في أميركا بلد الإباحية المطلقة. ؟؟.

ومن ذلك أيضاً نسب الطلاق المرتفعة بإطراد حيث كانت نسبة الطلاق في أميركا سنة ١٨٩٠ = ٦٪ وأخذت تزداد حتى وصلت سنة ١٩٤٨ إلى ٤٠٪ ولم تنخفض عن ذلك إذ أن تلك النسبة هي نسبة الطلاق لسنة ١٩٧٨م[٩١].

أما المفاسد والشرور الاجتماعية الناتجة عن خروج المرأة عن فطرتها فأكثر من أن تحصر وسنحاول إيجازها فيما يلي:

١ ـ فساد التربية: فبعد أن أصبحت عودة المرأة لوظيفتها الأساسية مستحيلة ولم يعد عملها موضع نقاش كان لا بد من إيجاد محاضن ودور لتربية الأطفال وعنها يقول اليكس كاريل: «لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة (كذا) استبدالاً تاماً ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن أو مطامعهن الاجتماعية أو مباذلهن أو هوايتهن الأدبية أو الفنية أو اللعب بالبريدج أو ارتياد السينما... وهكذا يضيعن أوقاتهن في الكسل. إنهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعياتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة. إن الكلاب

(٩٠) مجلة الدعوة بالرياض صفر ١٣٩٧هـ.

(٩١) انظر السلام العالمي والإسلام سيد قطب: ٥٦ وجريدة المدينة عدد ٤٣٠٦/٩٨هـ.

الصغيرة التي تنشأ مع جراء من نفس عمرها في حظيرة واحدة لا تنمو نمواً مكتملاً كالكلاب الحرة التي تستطيع أن تمضي في أثر والديها والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهور من الأطفال الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أو أذكياء. لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقاً للقوالب الموجودة في محيطه. إذ أنه لا يتعلم إلا قليلاً من الأطفال الذين هم في مثل سنه وحينما يكون وحده فقط في المدرسة فإنه يظل غير مكتمل ولكي يبلغ الفرد قوته الكامنة فإنه يحتاج إلى عزلة نفسية واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة»[٩٢].

٢ ـ جنوح الأحداث: وهو نتيجة طبيعية لفساد التربية وفقدان الأسرة ولنأخذ مثلاً لذلك الاحصائيات التي أوردها رئيس شرف الرابطة الدولية لقضاة الأحداث:

«بلغ عدد الأحداث المحكومين في فرنسا سنة ١٩٣٩م: ١٢١٦٥ وبلغ سنة ١٩٦٨: ٤٤٠١٦ حسب جدول إحصائي»...

«وقد صار هذا التزايد في عدد الأحداث المنحرفين منذراً بأوخم العواقب إذ بلغت أرقامه ضعفيها تقريباً في مدى ثماني سنوات. سنة ١٩٦٠ ـ ٢٦٨٩٤».

«ونسجل للمناسبة أن الارتفاع التي كانت سنة ١٩٥٩ = ١٥,٢ بالألف لفئة الصبيان المنحرفين ١٦ ـ ١٧ سنة بلغت ٢٥,٧٨ بالألف سنة ١٩٦٥م.

وفي الولايات المتحدة نجد أن نسبة ازدياد حالات الانحراف بين الأحداث الذين تقل أعمارهم عن ١٨ سنة قد بلغت ١٧٪ بينما لم يزد عدد السكان في الأحداث الذين تقل أعمارهم عن ١٨ سنة إلا ٣٪».

(٩٢) الإنسان ذلك المجهول: ٣٠٥.

وبلغت نسبة ارتفاع عدد الفتيات المنحرفات سنة ١٩٦١م ١٨,٦٪ عن سنة ١٩٦٠م بينما لم يبلغ هذا الارتفاع أكثر من ١٤,٢٪ عند الفتيان للسنة نفسها.

«ولا بد لمن يريد أن يكوّن فكرة دقيقة عن مشكلة الإنحراف في واقعها الراهن أن يضيف إلى المنحرفين المعروفين رسمياً عدداً آخر من المنحرفين لم تكتشفه السلطات بعد ولا بد كذلك أن نضيف عدداً آخر... لم يتخذ بحقهم أكثر من إجراء إخضاعهم لدورات تثقيفية وإصلاحية...» وعلينا أن نضيف عدد آخر من الأحداث المشردين باعتبار أن القانون الفرنسي لا يعتبر تشرد الأحداث جرماً يعاقب عليه القانون».

وليس الجديد هو هذه الإحصائيات فما أكثرها ولكن الجديد هو أن جان شازال حاول تعليل أسباب الإنحراف فذكر من جملتها أن «الأطفال الذين يحرمون من عناية الأم وعطفها والذين لا يمكنهم أن يشعروا بحرارة المشاركة العميقة مع الأم يعبرون عن اختباراتهم العاطفية على شكل ردات فعل من النوع العدائي والمعارض وتعطش مفرط إلى المتعة وحاجة طاغية إلى التسلط وهكذا تكون على طريق الجنوح[٩٣]، أي أن رئيس شرف الرابطة الدولية لقضاة الأحداث أدرك الحقيقة ولكن بعد فوات الأوان.

والحق أن المجتمع الذي تقوم قيمه وأسسه الأخلاقية على اللادينية أياً كانت الفلسفة التي يؤمن بها ـ هو بيئة مناسبة للإجرام والجنوح إذ ليس لديه ما يعوض التربية الأسرية المفقودة ولذلك وصلت الحال في بعض الدول إلى درجة لا تكاد تصدق ولنكتف بالتقرير الذي أصدره النائب الإتحادي العام في الولايات المتحدة عن الجرائم

---

(٩٣) الطفولة الجانحة: ٨ ـ ١٣، ٥٣.

الأميركية المسلحة رسمياً «تقع جريمة قتل كل ٤٣ دقيقة، وتقع جريمة إغتصاب إمرأة كل ١٩ دقيقة. وجريمة سطو على السيارات كل ٤٨ ثانية وجريمة إختطاف كل ٢٠ ثانية». وجاء في مجلة الجيش الأميركي عدد فبراير ١٩٧٦م أنه وقعت ضمن نطاق الجيش الأميركي (٥٥٢١٠) جريمة إغتصاب في عام ١٩٧٤م أي بزيادة قدرها ٩٪ عن عام ١٩٧٣م[٩٤].

هذا مع العلم أن النسب آخذة في الارتفاع باطراد.

٣ ـ **فساد الفطرة**: يقول مؤلف كتاب «الثورة الفرويدية»: «إن مثال الولايات المتحدة أو ما نعرفه على الأقل من الحياة الجنسية في هذه البلاد يوضح لنا أن تحرر المرأة المتزايد من خلال التطرف في المعاصرة يمكن أن يعطل المحتوى الجنسي للعلاقة ما بين الرجل والمرأة تعطيلاً خطراً ففي المرحلة الأولى فإن العراقيل التي تحول دون طغيان الشهوانية تزول. وفي المرحلة الثانية فإن ما يصيب المرأة من ذكورة جزئية يؤدي إلى بعض فقدان الرجولة في الرجل»[٩٥].

أي أننا بغض النظر عن الإباحية الحيوانية في ميدان العلاقة الجنسية الطبيعية بين الرجال والنساء نجد إحصاءات محيرة عن الشذوذ الجنسي لدى الجنسين تبلغ نسبها حسب تقرير كنزي ٢٠٪ فإذا فرضنا أن تلك النسبة لم تزدد خلال العشرين سنة الأخيرة ــ وهو افتراض خاطىء وعلمنا أن سكان أميركا ٢٤٠ مليوناً فمعنى ذلك أن ٤٨ مليوناً من الأميركيين شاذون جنسياً!!

وأغرب من ذلك أن ٢٠ مليوناً منهم يمارسون الشذوذ بصفة تنظيمية علنية فقد نشرت الصحف «أن وفداً يبلغ تعداده عشرين

---

(٩٤) مجلة المجتمع ــ العدد ٣٥٠.

(٩٥) فوجيرولا: ص ٢٠٠.

شخصاً يمثلون منظمات اللواطة والسحاق في الولايات المتحدة الأميركية قاموا بمقابلة السيدة مارغريت مساعدة الرئيس كارتر للعلاقات العامة للمطالبة بحق حرية العمل في المؤسسات العسكرية وللسماح بمزيد من اللواطة في مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة الإستخبارات ووزارة الخارجية ومنح صفة معفى من الضرائب لمنظماتهم. وقال رئيس الوفد: إن هذه هي المرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة التي رأينا فيها أن الرئيس كارتر مناسب للإعتراف بحقوق ومتطلبات عشرين مليون أميركي من الجنسين يمارسون عملية اللواط والسحاق والشذوذ الجنسي بأنواعه»[٩٦].

وأسوأ من هذا أن تطالب البرلمانات في دول الشمال «سكندنافية» باعتبار عقد الرجل على الرجل عقداً قانونياً مشروعاً يقام في الكنيسة بل لقد تم عقد فعلي في إحدى الكنائس بولاية كاليفورنيا[٩٧].

أما صلة ذلك بخروج المرأة من البيت وتفكك الأسرة فقد اعترف بها أيضاً «جان شازال» وإن كان جرى في تعبيره عنها على المصطلحات الفرويدية يقول في كتابه المشار إليه: «إذا تعقد الطفل بمشاعر أوديبية من تأثير التفكك العائلي أو الأخطاء السيكولوجية العميقة فقادته هذه المشاعر إلى التعلق بأمه والاحساس تجاه والده بالعدائية تختلط بها الحاجة إلى التمثل به فإنه يستطيع أن يعبر عن طريق الجنوح عن اضطراب واقعه الإنفعالي العاطفي وحين يتعلق بأمه يصير خجولاً وسلبياً وقد يتطور بسرعة خلال مراهقته نحو الاستمناء والصداقات الخاصة واللواط، يخشى المرأة حين لا تمثل بالنسبة إليه

---

(٩٦) المجتمع العدد ٣٥٠ نقلاً عن الدستور الأردنية.
(٩٧) انظر مجلة الدعوة المصرية العدد ١٣٩٨/٢٦.

صورة الأمومة ويكون ذوقه أنثوياً ومشبعاً بالتصنع أحياناً وقد تلاحقه صورة الأب وقد يرغب عندئذ في مرافقة رجال ناضجين وقد يجذبه لسوء الحظ بعض المصابين بالشذوذ الجنسي والولد الذي يتعلق بأمه يشمل بعدوانية كل الذين يظهر له أن وجودهم يسلبه عطف الأمومة»(٩٨).

٤ ـ **الأمراض العقلية والعصبية**: جاء في تقرير لمنظمة الصحة العالمية أعدته لاجتماعها السنوي في جنيف لسنة ١٩٧٨:

«يعاني حوالي ٤٠ مليون شخص من أمراض عقلية أكيدة في العالم وهناك أكثر من ٨٠ مليوناً ممن يعانون تخلفاً خطيراً من جراء الإفراط في تعاطي الأدوية والمخدرات والمشروبات بالإضافة إلى مائتي مليون شخص يعانون من إضطرابات علقلية أقل خطراً ولكنها تعرضهم للتخلف العقلي أيضاً»(٩٩).

أما الولايات المتحدة بصفة خاصة فتقول الإحصائيات:

«إن المرض العقلي يشكل أخطر تهديد لصحة أبناء شعبها إذ يشير تقدير المعهد القومي للصحة العقلية الصادر في يوليو ١٩٥٤ إن عدد المرضى الذين ترعاهم مستشفيات الأمراض العقلية يناظر مرضى المستشفيات الأخرى مجتمعة على اختلاف أنواعها ولا يندرج بطبيعة الحال في هذا الإحصاء عشرات الآلاف من الحالات المرضية التي لم تقصد المستشفيات وإنما تولى علاجها إذا قدر لها أن تحظى بالعلاج أطباء الأمراض العقلية»(١٠٠).

---

(٩٨) الطفولة الجانحة: ٥٣.

(٩٩) جريدة الندوة العدد ٥٨٤٨ لعام ١٣٩٨.

(١٠٠) بافلوف وفرويد: ١٦.

وقد فطن بعض الباحثين إلى أن السبب في تدهور أخلاق وصحة الجيل الحاضر لا سيما الصحة العقلية ليس هو تعاطي المخدرات والمسكرات فهذه أعراض للمشكلة الحقيقية وهي فقدان رعاية الأم وما تمنحه من التوازن النفسي، فقد نشرت الدكتورة «ايدا ايلين» بحثاً «بينت فيه أن سبب الأزمات العائلية وسر كثرة الجرائم في المجتمع هوان الزوجة تركت بيتها لتضاعف دخل الأسرة فزاد الدخل وانخفض مستوى الأخلاق... وتنادي الخبيرة الأميركية بضرورة عودة الأمهات فوراً إلى البيت حتى تعود للأخلاق حرمتها وللأبناء والأولاد الرعاية التي حرمتهم منها رغبة الأم في أن ترفع مستواهم الإقتصادي وقالت الدكتورة ايلين: إن التجارب أثبتت أن عودة المرأة إلى الحريم هو الطريق الوحيد لإنقاذ الجيل من التدهور الذي يسير فيه»[١٠١].

نبذة عن المجتمع الشيوعي

كان ما سبق لمحة عن البهيمية الهابطة والمعيشة الضنك والحياة النكدة التي يصلى سعيرها المجتمع الغربي المعاصر وهي سحابة مظلمة تغطي سماء أوروبا كلها وترسل صواعقها وشواظها على كل ركن من أركانها ولكن «الرفاق» في موسكو يزعمون أن ذلك الوجه الكالح خاص بالمجتمعات البورجوازية وإن شرور الغرب الإجتماعية مردها إلى طبيعته الطبقية ونظامه الرأسمالي. لذلك فهم يزعمون أن المجتمع العمالي «البروليتاري» مجتمع سليم متكافىء ذو أخلاق من النوع الذي تحدث عنه أنجلز سلفاً.

ولعل فيما أوردنا سابقاً عن الوضع السياسي والاقتصادي داخل الستار الحديدي غني في الرد على هذه المزاعم فمجتمع ركيزته الحقد

(١٠١) المرأة بين الفقه والقانون: ٢٥٣.

وقوامه التجسس وطابعه الذعر والإرهاب لا يمكن بحال أن يكون مجتمعاً إنسانياً سليماً. وأنّ يكون كذلك وهو يهدر قيمة الإنسان وكرامته في مقابل زيادة الإنتاج ويجعل الغرض الأساسي لوجوده، هو الكدح في معسكرات العمل أو المزارع الجماعية.

إن الحزب الشيوعي الذي يتحكم في أقوات الناس ويعلق سيفه الرهيب فوق رؤوسهم، يملك فرصة أكبر للتحكم في أخلاقهم وعاداتهم ويعتمد أن يصوغ البشر في قوالب معينة حصيلتها النهائية إفساد الإنسانية وتحطيمها. فالفرد في ظل الأنظمة الحمراء مجبر على أن يحشر هو وكامل أفراد أسرته في غرفة واحدة هي غرفة جلوسهم ونومهم ومطبخهم ثم هي غرفة في مجمع إسكاني ضخم غير متجانس، فالشقة التي تتكون من ست غرف يكون معدل سكانها ثلاثين نسمة ينتمون لست أسر، منها أسرة من البلد نفسه ومنها أسرة تعرض ربها للنقل التأديبي من إحدى الجمهوريات النائية، وثالثة تسكنها ــ مثلاً ــ أسرة قادمة من إحدى الدول «الديمقراطية الشعبية التابعة لموسكو» وهكذا... ويشترك سكان الشقة في دورة مياه واحدة بالإضافة إلى أن دورات المياه العامة قد تكون بنيت بلا أبواب منذ إنشائها. وإذ كانت الغرفة لا تحتوي إلّا على سرير واحد فردي فإن الأبوين ينامان عليه في حين ينام الأبناء ذكوراً وأناثاً حتى من البالغين على المنضدة متلاصقين وهي المنضدة التي يستعملونها للمطبخ بالنهار[١٠٢]. وهذا بالطبع غير المساكن العمالية الملحقة بالمصانع والتي حشر فيها العمال والعاملات الذين يصلون إلى عدة آلاف في المصانع الكبرى.

ويبلغ تعمد الإفساد في الدول الشيوعية حداً يجعل السياح العاديين الذين يتاح لهم التجول في البلاد الشيوعية يرونه بوضوح.

---

(١٠٢) انظر الديمقراطية والشيوعية: وليم اينشتاين: ٢٦٣ ــ ٢٦٤.

يقول سائح سويسري: «لقد انحطت القيم الأخلاقية في أكثر بلاد العالم بعد الحرب العالمية الثانية ولكن الفرق بين ما هي عليه الحالة في البلاد الشيوعية وما هي عليه في البلاد الأخرى هو أن الحكومات الشيوعية هي التي تسعى إلى إفساد الأخلاق وتحث عليه كما أن أوضاع الناس وفقرهم ونظام حياتهم الذي فرضته عليهم الشيوعية كل أولئك تدعو إلى إفساد الأخلاق وتشجعه. فماذا ينتظر المجتمع من أناس تحشر الأسرة كلها الأب والأم والفتيات والفتيان الكبار والصغار في غرفة واحدة هي غرفة نومهم وجلوسهم ومطبخهم.

إن هذا النوع من الحياة والفقر وانعدام الوازع النفسي والديني كلها أمور تحض على فساد الأخلاق حتى ولو لم تتيسر الأسباب. فكيف والحكومة هي التي تيسر كل شيء لفساد المجتمع، ففي أكثر البلاد الشيوعية وفي أمهات المدن بصورة خاصة أوجد الشيوعيون أماكن خاصة للفساد ولست أقصد بذلك بيوت الدعارة بل أقصد بذلك تلك الحدائق الواسعة ذات الخمائل الوارفة التي يتوارى بها الفجار عن أعين الناس أو يرتكبون الفاحشة على أعين الناس بلا حرج ولا مبالاة... أو هي شوارع تترك بلا نور ليلاً لتسهيل الدعارة. وقد صرح الماريشال تيتو في إحدى خطبه موجهاً كلامه للشعب قائلاً: لقد تركنا لكم الخمر والنساء فخذوهما واتركوا لنا السياسة»!

والمرأة التي هي ميزان الأخلاق أرخص سلعة في البلاد وهي ترمي بنفسها على الرجل ولا سيما على الغريب وكل ما تطلبه هو أن يتزوجها ولو مؤقتاً لكي يتسنى لها الفرار من البلاد والخلاص من جحيم الشيوعية. وبالتالي فإني رأيت الناس يعيشون في البلاد الشيوعية كما تعيش البهائم. وإني لأخشى إذا طال ـ لا قدر الله ـ عمر الشيوعية أن يظهر إلى عالم الوجود أناس يختلفون عن البشر

ويرجعون بالمدنية التي وصلنا إليها بآلاف السنين إلى حياة الغاب».

«... لذا فإني أرى بأن العالم سيظل قروناً بعد القضاء على الشيوعية حتى يستعيد كرامته وإنسانيته إذ لا بد من تربية جديدة صالحة حتى يكون إنساناً صالحاً»(١٠٣).

أما فيما يتعلق بالزواج فإن الزواج المعترف به من الوجهة النظرية في الغرب الرأسمالي باعتباره العلاقة المشروعة بين الجنسين لا يحظى بذلك هناك فالشيوعية تعد الزواج وما ينشأ عنه من الأسرة وتربية الأطفال أثراً من آثار البورجوازية وبقية من تقاليد العصر الإقطاعي لا تليق بالمجتمع العمالي الحديث. فالبيان الشيوعي يقول:

«إن الأسرة البورجوازية سوف تختفي بشكل طبيعي باختفاء رأس المال.. .أما التهريج البورجوازي عن الأسرة وأهميتها في التربية وعن أهمية العلاقة بين الرلد وأبويه فهو مما يثير الاشمئزاز. إن تقدم الصناعة الحديثة سوف يقطع كل الصلات العائلية بين أفراد الطبقة العاملة»(١٠٤).

ويتحدث أرثر كستلر العضو السابق للحزب الشيوعي عن المعادلة الشيوعية الصعبة فيقول: «أما بخصوص الدافع الجنسي فقد كان مقرراً ومعترفاً به إلَّا أنَّا كنا في حيرة بشأنه... كان نظام الأسرة كله عندنا أثراً من آثار النظام البورجوازي ينبغي نبذه لأنه لا ينمي إلَّا الفردية والنفاق والإتجاه إلى اعتزال الصراع الطبقي بينما الزواج البورجوازي لم يكن في نظرنا إلَّا شكلاً من أشكال البغاء يحظى برضاء المجتمع وموافقته إلَّا أن السفاح والإتصال الجنسي العابر كان يعتبر أيضاً شيئاً سيئاً غير مقبول... من هذا نرى أن الفضيلة البورجوازية

---

(١٠٣) انظر دوماز: عائد من الجحيم. مقتطفات: ٥٦ ـ ٦٥.

(١٠٤) عن الصنم الذي هوى: ٢٤.

شيئاً سيئاً كما أن السفاح... كان سيئاً كذلك... أما الموقف الصائب الذي ينبغي أن نتخذه نحو هذا الدافع الجنسي فهو الفضيلة العمالية التي تتلخص في أن الإنسان ينبغي له أن يتزوج ويخلص لزوجته وينجب أبناء عماليين. فإذا تساءلت: أليست هذه الفضيلة البورجوازية التي إستنكرناها من قبل؟ قيل لك إن هذا التساؤل أيها الرفيق يدل على أنك لا زلت تفكر بالطريقة الآلية لا بالطريقة الجدلية... إن نظام الزواج الذي يعتبر في المجتمع الرأسمالي مظهراً من مظاهر الفساد والتحلل يتحول «منطقياً» إلى عكس ذلك في المجتمع العمالي السليم. فهل فهمت أيها الرفيق أم تحب أن أعيد عليك جوابي بطريقة «محكمة» أكثر من هذه؟[١٠٥].

وما تحدثنا عنه من التفكك الأسري والتفسخ الاجتماعي في الغرب موجود بعينه في الدول الشيوعية مع إضافة شيء آخر أكثر خطورة وهو الشعور الدائم بالهلع والرقابة البوليسية والشك والحذر من كل إنسان حتى أفراد الأسرة والواحد لا يمكن أن يقوم بينهم تواد وتفاهم كاملان كما يكون بين خلق الله الآخرين. وخير شاهد على ذلك قصة الطفل «البطل» الذي وشى بوالده إلى الحكومة فحكمت عليه بعشرة أعوام من السجن والعمل سخرة[١٠٦].

والمرأة ــ خاصة ــ تعاني شقاء لا حدود له فهي لا تملك أن تبث شكواها فضلاً عن المطالبة بشيء من حقوقها حتى زميلاتها في المصنع أو المزرعة لا تستطيع أن تفاتحهن بكل ما يعتلج في صدرها لأن احتمال تسرب ذلك إلى الإدارة ماثل للعيان وعقوبته لا يطاق تصورها. وهي «عاملة» بحكم طبيعة النظام وصرامته ولذلك فهي محرومة من إرضاء

---

(١٠٥) المصدر السابق: ٥٦ ــ ٥٧.

(١٠٦) انظر الديمقراطية والشيوعية: وليم اينشتاين: ١٦٢.

غرائز الأمومة وعواطفها الأنثوية مقهورة مكبوتة. أما الأطفال فالمحاضن التي تقيمها لهم الدولة أكثر منها في الغرب كما أنها أردأ منها في أساليب التربية ووسائل المعيشة وهذا يضاعف البلاء الإجتماعي ويزيد المجتمع انحداراً إلى الهاوية.

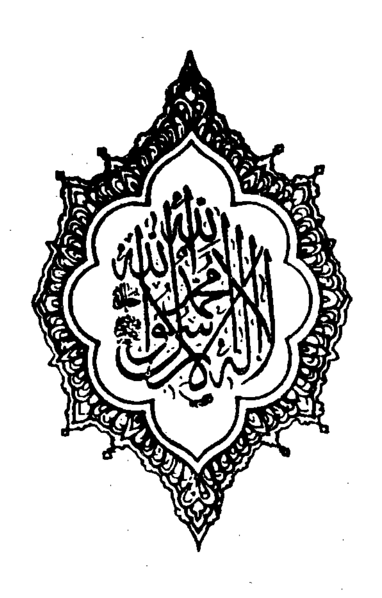
وذلك الوضع لا تدعو إليه الظروف الإجتماعية فحسب بل هو جزء من الفلسفة الشيوعية فقد ذكر أنجلز أن من التدابير التي يجب على البروليتاريا أن تتخذها «تربية جميع الأولاد منذ أن يصبحوا قادرين على الإستغناء عن عناية الأمهات في مؤسسات عامة تابعة للدولة وعلى حساب الأمة... والحق المتساوي في الإرث للأولاد الشرعيين وغير الشرعيين»[١٠٧].

وصفوة القول أن المجتمع الشيوعي هو أحط المجتمعات البشرية المعاصرة سواء من الناحية الأخلاقية أو من ناحية الطمأنينة النفسية والسعادة الإجتماعية فهو مجتمع منحل مذعور يخيم عليه كابوس شقاء مطبق إلى حد أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر في أمل حقيقي للخلاص.

وهذا التفسخ الفظيع والشقاء المريع الذي تعاني منه أوروبا اللادينية بشقيها الرأسمالي والشيوعي هو النتيجة الطبيعية والعقوبة العاجلة لكفرها بالله وتنكرها لدينه والإحتكام إلى أهواء البشر وتخرصات المضللين، وإنه لمن سنن الله في خلقه أنه إن لم تعد إلى الله وتتمسك بهداه فإن المستقبل سيكون أمر وأنكى.

---

(١٠٧) نصوص من انجلز: ٤٨.


لا إله إلا الله محمد رسول الله

الفَصْل الخامِسُ

عِلْمَانِيَّة الأدَبِ وَالفَنّ

توطئة:

الأدب ـ ومثله الفن ـ مجال رحب وميدان فسيح تنوء به الدراسات المتخصصة المستفيضة فضلاً عن البحوث المنهجية الدراسية والأدب الأوروبي خاصة له قصته الطويلة وتاريخه السحيق فوق أن معظم قضاياه كانت وستظل مثار نزاع ومدار جدل شديد بين الباحثين والنقاد، وتلعب الإتجاهات السياسية والخلافات القومية والمذهبية دورها في ذلك.

وإذا وافقنا الرأي القائل بأن الأدب هو «صورة الحياة وانعكاسها الواضح» فما بالك بصورة حياة كحياة أوروبا حائرة مضطربة متهافتة متناقضة؟!.

وهذه الأمور وغيرها ـ مما لا يخفى على المطلعين ـ تجعل البحث في هذا المجال محفوفاً بالمتاعب وتستنفذ جهد الباحث دون أن يستطيع أن يخرج بخلاصة متناسقة تعبر على الأقل عن مدى جهده إن لم تعط الصورة المطلوبة للموضوع.

ومن الجلي أننا لا نبحث في الأدب من حيث هو أدب وإنما ننظر إليه من خلال المنظار العام للموضوع أي من جهة علاقته بالدين، كما

أننا مقيدون بالحجم الذي لا ينبغي أن يتجاوزه هذا الجانب من جوانب الحياة البشرية.

ومراعاة ذلك تستدعي عرض الموضوع وصياغته ضمن منهج خاص يتميز بأمور:

١ ـ التركيز على ماله صلة قوية بموضوع بحثنا وعرضه بما يتناسب مع مقتضى الحال حجمًا وأسلوباً.

٢ ـ البعد ـ ما أمكن ـ عن الخلافات حول المذاهب الأدبية وتصنيف المدارس والانتماءات، وتقويم المواد والشخصيات.

٣ ـ البعد عن الغموض الذي يكتنف الدراسات العصرية والذي سيظهر طرف منه ـ رغم إرادتنا ـ عند الحديث عن مدارس الضياع.

هذا وسنراعي ـ كالعادة ـ التسلسل التاريخي في عرض المعالم الكبرى لعملية التحول إلى العلمانية التي بلغت ذروتها في الأدب والفن المعاصرين.

أولاً ـ عصر النهضة الأوروبية

«الكلاسيكية الجديدية»:

يقترن مسمى «عصر النهضة» الأوروبية بالحركة التي نشأت في إيطالية ـ المركز الحضاري الإسلامي الثاني في أوروبا ـ واستهدفت بعث الآداب الأغريقية القديمة التي أطلق عليها اسم «الآداب الإنسانية»[1] تمييزاً لها عن كتابات رجال الكنيسة اللاهوتية!

---

(١) من العجيب ان تستورد الجامعات في العالم الإسلامي هذه التسمية دون وعي مع العلم بأن الإسلام ليس فيه ذلك التناقض بين ما هو الهي وما هو إنساني في هذا المجال.

لقد فوجئت أوروبا الغارقة في سبات القرون المظلمة بنور الحضارة الإسلامية فانبهرت به وأحست بواقعها المرير تحت ضغط الكنيسة التي جثمت على فكرها وشعورها وسلوكها وأفقدتها الإحساس بإنسانيتها.

وهذه اليقظة المفاجئة أوقعت النفسية الأوروبية في مأزق حرج إذ تصادم في داخلها دافع ومانع قويان: الأول: دافع الاستمتاع بنور الإسلام والدخول في فردوس حضارته حيث التوازن الفريد بين الدنيا والآخرة، وبين الروح والجسد، ففي ظله تنطلق إنسانيتهم لتعبر عن ذاتها بعيداً عن أغلال الرهبانية وشطط الكنيسة.

والآخر مانع التعصب المقيت والعداوة الحاقدة للإسلام وحضارته تلك التي عمقتها الحروب الصليبية وبلغت أقصى مداها في المد الإسلامي الذي قام به المجاهدون الأتراك.

وكان المانع أقوى من الدافع فخرجت أوروبا من ذلك التناقض النفسي بالبحث عن وسيلة تتيح لها الخلاص من براثن السلطة الكهنوتية الطاغية دون أن تتخلى عن تعصبها وعداوتها للإسلام وأهله ولم تكن تلك الوسيلة سوى عملية «اجترار الماضي» ببعث تراثها الوثني الإغريقي والالتصاق به لا سيما جوانبه الشهوانية البهيمية!

وهذا الاتجاه ــ بطبيعة الحال ــ أزعج الكنيسة وإن كان أفضل لديها بكثير من احتمال إقبال أتباعها على الإسلام. وحاولت جهدها أن تسير الموجة لصالحها وتسيطر على الوضع بحيث تبقى عقائدها وتصوراتها تصبغ الأدب وتوجهه وتظل بصماتها بارزة في فنه المنحوت والمرسوم.

ولكن عوامل التحرر والانطلاق كانت أقوى من حواجزها واستطاع عصر النهضة أن يخطو خطوات كبيرة وجريئة للوصول إلى

علمانية كاملة للأدب والفن عليهـا قام الأدب العلمـاني الحديث وارتكز.

ونستطيع أن نستعرض بعض ملامح الأدب والفن في ذلك العصر معتمدين على بحوث وتحليلات بعض المفكرين الأوروبيين فنجد أن أبرها ما يلي:

١ ــ **بعث التراث الوثني الإغريقي**: هذه هي الخطوة الاولى نحو الانفلات من سلطة الكنيسة والانقضاض على فكر وتقـاليد القرون الوسطى، فعن طريق احياء الآداب الإغريقية استطاع أدباء وفنانو النهضة النفاذ إلى عالم آخر خارج من مألوف عصرهم ولا أثر فيه لشيء من اللاهوتيات. لقد نفذوا أول الأمر من كوة صغيرة لكنها ظلت تتسع حتى انتقض بناء الكنيسة والتقاليد من أساسه، وطلعوا على الفكر الاوروبي بمفهومات جديدة ومعايير مغايرة سبقوا بها النهضة الفكرية العقلانية، وذلك ما يعده الفكر الحديث أعظم مآثر النهضة.

يقول «برنتن»:

«إنه طالما كانت العصور الوسطى في الواقع عصوراً دينية وطالما أن عصرالنهضة يعني على الأقل محاولة العودة إلى الوثنية اللادينية إن لم نقل الزندقة فإن فن العصور الوسطى يرتبط بالكنيسة أما فن عصر النهضة فيتمتع بحرية بـوهيمية. وهـذه هي حقيقة الأمـر، وكان النحاتون والرسامون في ذروة عصر النهضة يقلدون العري الكلاسيكي كما يقلدون كل شيء كلاسيكي آخر، فالفنان بدأ يقود شيئاً يشبه نوع الحياة، وحشياً فاحشاً مجازفاً ولكنه عظيم الأهمية ومن المفروض أنه لا يزال يقوده».

«لقد كان فنانو عصر النهضة الذين كرسوا جل حياتهم الفنية لغرض جعل المعتقدات المسيحية واضحة تبدو في **أجل مظاهـرها**

للعيان، يستمرون في القيام بالأعمال التي ورثوها عن الرواد السابقين للعصور الوسطى، هذا وقد تحول الفن في العصور الحديثة إلى فن علماني تقريباً حتى أن الفن الديني كاد يختفي أو بالأحرى أصبح في الدرجة الثانية استنتاجياً وتقليدياً».

«إن الكتاب الخياليين هم الفنانون القريبون من قلب الوضع الانساني نحو الحياة. إن بترارك ورابله وشكسبير وسرفانتس والرسامين والنحاتين والموسيقيين الذين لا نزال نعلم أسماءهم هم نوع من الرجال الذين ينشدون طريقاً وسطاً بين المسيحية التقليدية كما خلفتها العصور الوسطى وبين العلمانية الحديثة التي يبدو أنها تقلع جذور السحر والسر من الكون!!.. كان هؤلاء الفنانون في تمرد مدرك كثيراً ضد التقليد المسيحي خلال العصور الوسطى، لقد أنكروا مستنداً وبات عليهم ـ وهذا أكثر أهمية ـ أن يبحثوا بل يقيموا مستنداً آخر، فقبول هؤلاء العلماء المجرد لأي شيء كتبه قدماء اليونانيين والرومانيين لم يكتف به رجال الفكر، وككل شخص ألّم بكل ماله علاقة بالعقل عاد هؤلاء الفنانون إلى اليونانيين والرومانيين، وكانوا بذلك كالمهندسين المعماريين حيث أعادوا تجديد موادهم»[٢].

٢ ـ الاهتمام بالحياة الدنيا والوجود الانساني فيها: وذلك الاهتمام نشأ رد فعل لتركيز الكنيسة على عالم الآخرة وحصر كل النشاط الفكري والفني لاتباعها في مجال الحديث عن الثالوث والقديسين والملائكة والمعجزات وكبت المشاعر والأحاسيس الانسانية أياً كانت ما لم تكن في حدود دائرتها اللاهوتية، ومن هنا أطلق على الحركة بكاملها وصف «الانسانية».

وقد قام «دانتي» ت ١٣٢١م في هذا المجال بمثل ما قام به

---

(٢) منشأ الفكر الحديث: ٢٧، ٢٨، ٣٣.

«مكيافيللي» في مجال السياسة فقد خرج على الكنيسة خروجاً صريحاً وناقض تقاليدها ومقاييسها، وابتداءً منه أخذ الأدب الاوروبي يحل الانسان شيئاً فشيئاً محل «الاله» فالاهتمام بالانسان الذي نبه إليه دانتي ومعاصروه كان المنطلق لمحاولة تأليه الانسان وتصويره على أنه اله حقيقي وهي المحاولة التي بدأت في القرن التاسع عشر واكتملت على يد «سارتر» وأشياعه في هذا القرن مروراً بتأليه الطبيعة الذي دعا إليه عصر التنوير، يقول «داونز»:

«يقف (دانتي) كما وقف صديقه ومعاصره المصور الرسام «جيوتو» على رأس حقبة جديدة في تطور الفكر البشري ولما كان كلاهما فناناً عظيماً فإنهما عبرا أصدق تعبير عن ذلك الشيء الجديد الذي ربما كان يجيش في صدور الكثير من معاصريهم ولكنهم لم يستطيعوا الإفصاح عنه كما أفصحا.

وهذا الشيء الجديد هو «الانسانية» هو الاهتمام بشؤون الانسان في الحياة الدنيا. ونستطيع أن نتفهم خطورة هذا الجديد الذي يزاحم القديم إذا قارناه بالعقائد المسيطرة على أذهان الناس في ذلك العصر عن الحياة والكون... ومؤداها أن الحياة الدنيا ليست إلا تمهيداً لاستقبال الحياة الأخرى، وقد هيمن هذا الاعتقاد على الناس في القرون الوسطى جيلاً بعد جيل تحت سطوة الكنيسة وسيطرتها العاتية على جميع نواحي النشاط الانساني وجميع المؤسسات الاجتماعية بينما كان علم العلماء كله يدور حول المبادىء الدينية والعقائد الكنسية».

«ثم جاء عقب ذلك عصر الاستنارة وهو أول تبدل جديد طرأ على الناس في نظرتهم للحياة فاتجهوا إلى أحضان الطبيعة يسوحون منها أسرار الكون ووضعوا ثقتهم المطلقة في مقدرة العقل الانساني، وقد نادى بهذا نفر من عباقرة ذلك العصر،... كان مجالهم الفكري

في ناحية الاهتمام بشؤون الانسان في هذه الدنيا وترك الاهتمام بشؤون الآخرة».

«وأما (جيوتو) فكان فنان هذه النهضة كما كان دانتي شاعرها فقد أخذ جيوتو يرسم على جدران كنائس مدينة (أسيزى) صوراً وأقاصيص لحياة القديس فرانسيس عرض بها رسوماً من الناس والطبيعة والطير والحيوان والزهور من واقع الحقيقة والمشاهدة وهو حدث جديد في الفن وخروج التقليد القديم في تصوير العذراء والطفل وتصوير القديسين».

«إن ملحمة الكوميديا[٣] كانت حدثاً جديداً في الأدب، حدثاً ضخماً لم يسبق له مثيل، فليس اذن من العجب أن يدعوها الناس بلقب «الالهية» لأنهم شعروا عند ظهورها أن أدباً أوروبياً جديداً قد انبثق فجره».

«إن الناس كانوا يعتقدون ما علمتهم اياه الكنيسة من أن كل انسان يكفر بالمسيحية جزاؤه جهنم، وأما من يؤمن بها فمآله إلى الجنة وجاء دانتي فخرج على تلك العقيدة القديمة وأقام موازين جديدة للعقاب والثواب على أساس من الأخلاق... وعندما ننظر اليوم إلى الوراء نجد شاعراً يوزع بالقسطاس العقاب والثواب «بدلاً من أن يوزعها البابا» فإننا لا نرى في عمله شيئاً خارقاً غير أنه بالقياس إلى عصره كان لا شك انقلاباً خطيراً».

«وقد صدق الشاعر بوب» عندما عبر عن فلسفة القرن التالي (١٨) بقوله: «إن خير دراسة يقوم بها البشر هي دراستهم للانسان» وقد كان شكسبير قبله خير من قام بهذه الدراسة. والحق أن شكسبير

(٣) اثبت كثير من الباحثين أن هذه الملحمة مقتبسة عن رسالة الغفران للمعري انظر مثلاً مقال الدكتورة عائشة عبد الرحمن بسلسلة تراث الإنسانية: ج ٢: ٤٢٤.

يمثل أرقى ما بلغت إليه حركة النهضة الاوروبية بأجمعها، وهي في لبابها تتلخص في اكتشاف الجنس البشري لقيمته وأهميته التي كانت قد ضاعت على مر العصور»[٤].

وجدير بالذكر أن دانتي في ملحمته قد أدخل البابوات كلهم قاع جهنم إلا باباً واحداً أدخله الجنة ودلالة ذلك لا تخفي[٥].

٣ ــ العودة إلى الإباحية الرومانية: رد فعل للرهبانية والتزمت المغالي اللذين كانا يسيطران على الحياة الاجتماعية الاوروبية في ظل الكنيسة قام رواد النهضة بتجديد شباب الكلاسيكية وبعث المذهب الأبيقوري في التمتع بضروب الملذات والانغماس في الشهوات الجسدية، ومن هنا أهمل أولئك أو كادوا جانب الآلهة وأساطيرها وصراعها من التراث الكلاسيكي الإغريقي والروماني وانصب اهتمامهم على الجانب الإباحي فليس مرد ذلك إلى قوة إيمانهم بالعقيدة المسيحية بقدر ما كان الرغبة في اشباع نزواتهم المكبوتة وميولهم العاطفية قبل أي شيء آخر.

وهكذا كان عصر النهضة يتسم بطابع كلاسيكي خاص يقدس الجسد ويعبد اللذة في وقت لا تزال الرهبانية فيه هي المثل الأعلى، ووجه زعماء ذلك العصر أنظار الناس إلى مثالب الرهبانية بحجة منافاتها «للانسانية» وهو الوصف الذي كانوا يتسترون به.

يقول مؤلف «تكوين العقل الحديث»:

«الحقيقة أن هذا الاهتمام بالانسانية عاش بصورة قوية وواضحاً منذ العصور التي سبقت غزوة المسيحية للبرابرة، فالحياة التي صورها

---

(٤) كتب غيرت وجه العالم: مقتطفات: من ٣٦٢ ــ ٣٦٨.

(٥) انظر تاريخ أوروبا العصور الوسطى: فيشر: ٢/ ٢٧٧.

هوميروس في الملاحم الوثنية تعكس لنا الوجود الانساني... وجل ما استطاع التقليد المسيحي هو أن يشوه سمعتها... وقد انتشر خلال القسم المتأخر من القرون الوسطى تيار من الأغاني المبتذلة تمجد التمتع الصريح بالحياة وملذاتها، وكانت هذه الأغاني كثيرة التحرر مفرطة في وصف النواحي الحيوانية».

«على النحو التالي:

نحن في تجوالنا مغتبطون مشرقون...
نأكل حتى الشبع نشرب حتى الثمالة...
نمرح إلى الأبد ننهل من الجحيم...
تلتصق صدور بعضنا ببعضنا...».

وحالما نشأ أدب علماني عامي فقد صدر نفس التمتع الوثني بخيرات الحياة الرفيع منها والوضيع فالشعراء المغنون «التروبادور» حولوا الفروسية المسيحية إلى تمجيد للحب الانساني... ومن الجدير بالملاحظة أن أكثر هذه القصائد صراحة وواقعية نشأت من الثقافة البرجوازية في المدن، فالأقاصيص الفرنسية البذيئة وصفت بصورة حاذقة التمتع بضروب الحياة كما كان يحصل في الواقع وتميزت بشغف خاص بسرد قصص الماكرين الأوغاد ومثالب الكهنة كما نجد ذلك في قصائد شوسر ومعرض صور الأوغاد التي رسمها بوكاشيو».

«والحقيقة أنه ابتداءً من القرن الثاني عشر فما بعده زاد احتدام هذا الموقف وهذه الاهتمامات... ويتحدث الفن عن نفس القصة التي يتحدث عنها الأدب فالعذراوات والقديسون والأقدمون... يتحولون إلى رسوم واقعية... وتنقلب صور العذراء التقليدية البيزنطية إلى فتيات قرويات ايطاليات.

ولكن أهم ما أخذ العلماء الانسانيون عن الإغريق كان

التمتع السعيد الطبيعي السليم بخيرات الحياة في حضارة رفيعة... ووجدوا هنا أن اللذات غير الضارة والميول الطبيعية تعتبر الوسائل التي بواسطتها ينظم العقل حياة صالحة، وأنها ليست من الشيطان فلا داعي إذن إلى اعتبارها ذنباً إما أن يقهر بعون الهي أو ينهل منه في خجل وشعور بالعار...».

«أدى كل هذا بالطبع إلى ثورة على الأخلاق المسيحية فبدلاً من المحبة حل الفرح باستعمال الانسان للقوى التي وهبه الله اياها وحلت الحرية والمسؤولية بتوجيه العقل محل الخضوع لإرادة الله، وأخذ البحث الفكري الجريء يحتل بالتدريج مكان الايمان».

«وانفجرت العاصفة بكامل عنفها على رأس الراهب، ذلك أن فشل الراهب في تحقيق الطهارة التي بشر بها جعلت أدب القرون الوسطى منذ ولادته يعطي لزلات الراهب صورة أكثر بشاعة، وصورته بأنه أكثر حيوانية من سواه. وجاء أحذق الايطاليين وأجرؤهم اطلاقاً لورنزفالا... فأنكر في كتابه «حياة الرهبانية» كل قيمة للتقشف والقداسة وذهب أبعد من ذلك في رسالته عن اللذة التي يتفق فيها مع المذهب الأبيقوري فأعلن أن المرأة المتزوجة بل المستهترة أيضاً هي أفضل من الراهبة، لأنها تسعد الرجل أما الراهبة فهي تعيش في تبتل لا فائدة منه، وينعت موت الانسان في سبيل بلاده أو من أجل أي مثل أعلى بأنه لا يقره العقل».

«هذا التحول المفاجىء يوحي في بعض الأحيان بالرجوع إلى ما يشبه الوثنية الخالصة، ويمثل الفن الايطالي أحسن تمثيل المزج الكامل بين المسيحية والوثنية فلو ألقينا نظرة على بعض الرسوم الشهيرة هل نستطيع التفريق بين الله والملاك والعذراء والصبي وكيوبيد والقديس...».

«ثار الايطاليون على الأخلاق المسيحية واستبدلوا بها مجرد التمتع بالملايين من أشكال الجمال. . .لكن الشعوب الشمالية وجدت في الحياة أكثر من الجمال وقد مثل هذه الروح فيما كتب رابليه الكبير. . . وتتجسم روح ثورة النهضة في مقطع يطلب منارابليه فيه أن نهرب من «أولئك الرعاع ذوي العقول الزائفة الماكرين والقديسين المزورين الوقوري الهيئة المرائين مدعي الإيمان، الاخوان الخشنين الرهبان الذين يلبسون النعال. . . اهرب من هؤلاء الرجال عليك بكراهيتهم واحتقارهم قدر ما أكرههم أنا وإنني لأقسم لك أنك إن فعلت فستجد نفسك أفضل حالاً[٦].

هكذا كان عصر النهضة ثورة على المسيحية التقليدية واعلاناً للعودة إلى الوثنية وهذه وإن كانت في الواقع عملية سلبية إلا أنها خطوة لا بد منها لكل حركة جديدة فمن الطبيعي أن تنصب أنظار رواد النهضة إلى هدم كيان الواقع الذي خضعت له أوروبا ألف عام قبل أن يفكروا في ماهية الواقع الجديد.

ثانياً ـ العصر الحديث:

(أ) الرومانسية:

لسنا في حاجة إلى إعادة القول بأن حياة أوروبا هي عبارة عن خط بياني متذبذب تحكمه ردود الفعل المتناقضة، فقد أصبح ذلك حقيقة مقررة بعد أن رأينا شواهده في كل مجال، وهنا في مجال الأدب نلمس تلك الحقيقة بوضوح:

فالغبطة الكلاسيكية لم تدم طويلاً إذ سرعان ما جرت عليها سنة أوروبا في الارتداد، وإذا كان أعظم ايجابياتها هو الاهتمام

---

(٦) «مقتطفات من راندال»: ٢/١٨٥ ـ ١٩٨.

بالانسانية وإيقاظ العقل الاوروبي المطمور ليأخذ مركز التوجيه في الحياة فإنه حتى هاتان لم تستقرا دون تطوير أو تغيير.

وكان التطوير من نصيب الأولى أما الأخرى فكان نصيبها التغيير بل الثورة، ومن هذين انبثق المذهب الجديد الذي عرف بـ «الرومانسية» والذي يقترن تاريخياً بمسمى «عصر التنوير».

أولاً ـ تطور النزعة الانسانية:

لعل أصدق تعبير عن هذا التطور هو ما قاله مؤلفو كتاب «ثلاثة قرون من الأدب»:

«إن القرن الثامن عشر لم يخصص للدين وإنما خصص للعلم والسياسة فلم يعد زعماؤه قسساً مسيحيين... بل فلاسفة طبيعيين... لقد كان التغير عميقاً ومن نواح عدة كان القديم والجديد على طرفي نقيض. فالتطلع إلى ما وراء أشياء هذا العالم قد تراجع أمام التطلع إلى أشياء هذا العالم، لقد أصبح القديس الدائر حول محور الله عالماً انسانياً محوره الانسان والحياة التي كانت تسير بهدى الكتاب المقدس، ولم يعد العالم مكاناً حيث العناية الالهية دائمة الحضور والفعل تضبط وتدير كل ما يحدث حتى التافه منه(!)، فلعين العقل صار العالم الآن جزءاً من آلة الكون التي وقد أخذت تدور مرة استمرت في الدوران لنفسها وبنفسها (!) حتى الله ذاته لم يعد شخصياً، أباً يُحب ويُرهب، بل أصبح قوة عاقلة سحيقة البعد لا شخصية، «علة أولى» أدارت الآلة وتركتها تعمل بنظام كامل وفق نواميس رياضية وفيزيائية، ويسوع ابن الله أصبح يسوع ابن الانسان (؟!).

«لم يعد موضوع البحث للجنس البشري هو الله، بل الانسان».

«وتحسين حال الانسان يمكن توقعها لا عن طريق الدين بقدر ما يمكن توقعها عن طريق العلم والتربية والسياسة التي بها يستطاع اصلاح المجتمع»[٧].

وهكذا أصبحت ثورة عصر النهضة المبهمة تملك منهجاً عقلياً ومساراً محدداً وبذلك تواجهنا صورة وثنية جديدة أكثر وضوحاً.

وهذا هو المميز الأول للرومانسية وعنه نشأ «تأكيدها على سيادة القلب وحياة النفس الداخلية» بمعنى حصر كل الاهتمامات في حدود الكائن البشري بل في أعماق النفس الفردية. وينتقد الرومانسيون الأدب الكلاسيكي بأنه «كان الهدف منه تصوير البشر لا كما هم فعلياً ولكن كما هم مثالياً»[٨] مما جعل الأدب تقليداً وليس تعبيراً، ولذلك فقد أهمل الرومانسيون الملاحم وحوروا المسرحيات، ونحوا بالأدب منحى شخصياً داخلياً، فالكتابة الفنية تأتي في صورة اعترافات أو سيرة ذاتية والشعر يصبح غنائياً عاطفياً يعبر عن المعاني الوجدانية للبشر كالعشق والفرح والألم ويبتغي ــ بالدرجة الاولى ــ اثارة السامع وامتاعه.

وكان من أبرز العوامل الإجتماعية المهيئة لذلك طابع «الفروسية» التي كانت في ريعان شبابها إذ احتضنت الرومانسية حتى اندمجت في كيانها وأصبح الرومانسيون اللسان المعبر عن الحياة الفروسية بخصائصها وفضائلها[٩].

وقد أفصح بعض زعماء المذهب عن علاقة «رد الفعل» القائمة

---

(٧) أشرف على الكتاب: فورستر وفوك: ١/٤٤ ــ ٤٥.

(٨) المصدر السابق: ١/١٤٤.

(٩) حول تأثر الفروسية بالشعر العربي انظر مثلاً: عالم العصور الوسطى ج ج كولتون: ٩٦ ــ ٩٧، ترجمة جوزيف نسيم. (دار المعارف).

بين الإتجاه الرومانسي والمسيحية، فالمسيحية كما عرفوها تكبت الإنسان و«تصيبه بالميلانخوليا» ومن ثم فهي مسؤولة عما أصاب الإنسانية من الإنطواء والكآبة «وقد عزا الناقد الرومانسي الألماني شليجل الكآبة إلى الدين المسيحي الذي جعل الإنسان منفياً يشتاق إلى وطنه البعيد»[10].

وانطلاقاً من ذلك وتمشياً مع التركيز على التعبير عن الذات جهد أولئك في أن يحولوا الشوق الصوفي المسيحي الذي كان يتجه إلى الله أو «يسوع» إلى حب عذري أو إباحي يعبر عنه في أسلوب غنائي ويتجه إلى الجمال الخارجي للمحبوب الذي كان في الغالب امرأة وأحياناً «الطبيعة».

ثانياً ــ الثورة على العقلانية التي سادت القرنين (١٧ و١٨):

سبق أن عرفنا كيف فاجأ عصر التنوير أوروبا المسيحية بتلك الكلمتين المقدستين لديه «الطبيعة والعقل» وجعل الأولى رمزاً خفياً للوثنية يحل محل اسم «الله» في المسيحية والثانية وسيلة إلى فهم الإله الجديد بدلاً من وسيلة المسيحية «الوحي».

ولقد وثق الهاربون من طغيان الكنيسة العلمي في مقدرة العقل وثوقاً أعمى، وكان لكشف كوبرنيكس وقانوانين جاليلو ونيوتن ومبادىء بيكون وديكارت العقلية أعظم الأثر في تمجيد العقل بل عبادته، ولما كان جل همهم إغاظة الكنيسة والإنتقام من عبوديتها فقد اشتطوا وغلوا في ذلك إلى أبعد الحدود.

لكنهم ما كادوا يلتقطون أنفاسهم وتستقر أعصابهم من مطاردة الكنيسة حتى بدأ بعضهم يبحث عما إذا كان إله «العقل» جديراً بما أُعطي من قيمة وتقديس أم لا؟

---

(١٠) ثلاثة قرون من الأدب: ١/ ١٣٤.

وكانت النتيجة مُرَّة، وهي أن العقل عاجز حقاً عن تفسير الطبيعة وإذ كان كذلك فهو أعجز عن تفسير النفس الإنسانية وفهمها.

وتساءل أولئك أليس من طريق للثورة على الكنيسة والوصول إلى فهم الطبيعة والإنسانية إلاَّ طريق العقل وحده؟

واستطاعوا أن يكتشفوا طريقاً آخر أرحب من العقلانية بمنطقها الجامد وقوالبها المحددة، وأقوى من العقل اختراقاً للأسرار وتبديداً للغموض، ألا وهي «الشعور العاطفي» ذلك الشعور الذي يمتطي آفاق الخيال الواسعة فيسبر أغوار الذات الإنسانية العميقة ويستجلي جمال الطبيعة، وهكذا أخذ الرومانسيون يرتفعون رويداً رويداً عن الأرض ويحلقون في الفضاء السحيق ولكن إلى غير الله ومن غير طريق المسيحية.

كانوا يتحدثون عن الحب ويبحثون عن الجمال ويفلسفونهما في أساليب ضبابية كثيفة، كما كانوا يتحدثون عن الشياطين والملائكة والسحر والعوالم المجهولة في محاولات دائبة ويائسة لاستكناه أسرار الكون وتحقيق السعادة الداخلية.

وأصبحوا ينقبون عن الحقائق الأبدية لا في الكتاب المقدس ولا في المؤلفات العقلية ولكن في صفحة الطبيعة الخلابة ومناظرها الحالمة، وكل هذا أفضى بهم بالطبع ـ إلى مثالية مغرقة جوفاء أعظم في بعض جوانبها من تلك التي انتقدوها على الكلاسيكيين.

ونتيجة أخرى مهمة هي أن الرومانسية باعتقادها أن غاية النشوة وقمة السعادة تكمن في أن يطلق الإنسان عنان نفسه لتذوب في حب الطبيعة وتفنى فيها كما يفنى الصوفي في معبوده ولذا أحلت «الطبيعة» محل «الله» والشعور محل العقل ـ بهذا الإعتقاد ـ تكشفت عن صورة

وثنية جديدة: «وكل الكلام الجميل المعسول الذي قيل لتبرير هذه الوثنية: أن الطبيعة «محراب» الله وأن الجمال «صورة الله» إننا نعبد الله في خلقه... إلى آخر هذه الجمل «الرومانتيكية» البراقة.. كل هذاالكلام لا يستطيع أن يخفي تلك الروح الوثنية الغارقة في الوثنية التي تعبد المحسوس في حقيقة الأمر لأنها تعجز عن إدراك «الله» بالروح.. والروح غنية عن المحسوسات»[11].

ولقد عبر روسو ـ رائد الرومانسية ـ عن ذلك أوضح تعبير في «راهب سافوي» الذي هو صورة لذاته، إنه راهب بالفعل ولكنه يختلف جذرياً عن رهبان الكنيسة فهو راهب في صومعة الطبيعة يسبح بحمدها ويقدس لها.

وفي كتابات روسو (الإعترافات مثلًا) وقصائد بوب (مقال عن الإنسان) وجوته (فاوست) وكذلك كيتس ولامارتين واضرابهم نماذج واضحة للمذهب الرومانسي في أوج مجده.

ولما كان أعظم أثر للرومانسية ينحصر في رد الفعل الذي نجم عنها بولادة الأدب الواقعي اللاديني الحديث فلن نفيض في الحديث عنها أكثر من هذا.

(ب) الواقعية:

كانت الرومانسية بخيالها الجانح صورة صادقة لعصرها «عصر الهروب» الهروب من طغيان الكنيسة، الهروب من نير الإقطاع البغيض، الهروب من تقاليد الماضي المرير[12] وجاءت الثورتان الفرنسية والصناعية وجاءت الحروب الدينية والقومية وتغيرت ملامح الحياة تغيراً بارزاً فكان لا بد لصورة الحياة «الأدب» أن تتغير كذلك.

---

(11) جاهلية القرن العشرين: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(12) وهي من هذه الناحية «واقعية»! انظر ثلاثة قرون من الأدب: ٢٥٨/٢ وجاهلية القرن العشرين: ٢٢١.

كانت أوروبا الكلاسيكية والرومانسية قد عادت كما أسلفنا إلى الوثنية وعبدت الإنسان أو الطبيعة بطريقتها الخاصة، أما الآن فالصورة تتخذ مظهراً آخر فلم ينحصر الإهتمام بالإنسان دون الآله فحسب، بل اقتصر -من الانسان- على وضعه الدنيوي ومكانته الإجتماعية، على واقعه المعيشي وجزء معين من نزواته ورغباته والظروف المحيطة به التي يتأثر بها سلباً وإيجاباً.

هذا التحول من الإنسانية بمفهومها الكلي عند الكلاسيكيين ومن الطبيعة والمثالية الفردية عند الرومانسيين إلى الإنسان العادي المشخص سيتخذ سريعاً صورة وثنية جديدة تعبد «الإنسان» وتحله محل «الإله».

وكعادة أوروبا - لا تعرف الطريق السوي ولا الموقف الوسط - سقطت سقوطاً مفاجئاً من الفضاء السحيق إلى الوحل الهابط.

كانت الرومانسية تحاول تصوير أعلى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من القوة والمثالية في مواجهة تحدي الإله أو الطبيعة أو حتى نزواته وأهوائه فجاءت الواقعية لتصوره في أدنى ما يمكن أن يصل إليه من الهبوط في لحظات الضعف القاتلة.

كان يصارع الأقدار ويحاول إخضاع الطبيعة فإذا بـه ينهزم بضعف أمام نزوة عابرة ولذة ساقطة.

لقد أخذ الواقعيون على الرومانسيين مآخذ - ليست بعيدة عن الحقيقة - فهم ينكرون عليهم إهمالهم لشؤون الجماهير وإغفالهم لحقوق الإنسان المهدرة وسكوتهم على المظالم التي يعج به المجتمع في حين كانوا محلقين بأحلامهم بحثاً عن الجمال والروعة والمثالية جاعلين هدفهم الأسمى «الفناء في الطبيعة».

بل قالوا - والتاريخ يسعفهم بشيء من الأدلة - إن الرومانسيين كانوا من الطبقات الأرستقراطية أو من المقربين إليها، وكانوا شعراء

البلاطات وندماء الأباطرة، فهم وأدبهم جزء من ذلك الواقع الظالم الذي يجب رفضه إلى الأبد.

وأخذ عليها أنها في كل أعمالها الفنية كانت تقتصر على تصوير الإنسان المثالي واللحظة المثالية والمنظر المثالي، متناسية أن البشر المثاليين هم قلة نادرة في الناس، ومتخلية تماماً عن الإنسان السوي والحياة العادية بكل مشاكلها ومظاهرها.. الخ ما أخذوا وما نقدوا.. فبالإعتماد على مثل هذه المبررات رفض أولئك الرومانسية وعابوا فنانيها، لكنهم لم يرفضوها ـ بالطبع ـ لأنها حركة وثنية متسترة بل إن المتأمل لا يجد في تلك المبررات العديدة ما يشير إلى ذلك.

ولذلك فبديهي أن ينتقل الفن من انحراف إلى انحراف، من وثنية إلى أخرى ـ شاء ذلك الواقعيون أم أبوا ـ ولعل في تتبعنا لخطوات الواقعية الأولى وملامحها ما يلقي الضوء على ما نقول.

الأهداف الأولى للحركة الواقعية:

شغل الواقعيون الأوائل أنفسهم من خلال رواياتهم التي انتزعت مكان الصدارة من الشعر الرومانسي بنقد ومناقشة أحوال الفرد والمجتمع، وهذا ليس انحرافاً ـ بالطبع ـ بل هو أمر مطلوب، ولكن الإنحراف جاء من جهة الموقف الذي اتخذه أولئك من الدين والأخلاق والتقاليد أثناء تصويرهم للمشاكل الإنسانية الواقعية ـ هذا إذا سلمنا أن هدفهم هو تصوير المشكلة وعرضها وليس شيئاً في أنفسهم يريدون تقديمه من خلال ذلك التصوير[١٣]، وهذا الموقف الذي يضعنا على أول الطريق إلى الوثنية المعاصرة ـ تركز في قضيتين متقاربتين:

---

(١٣) لا شك أن في الأدب الأوروبي الواقعي كتابات إنسانية هادفة في بعض روايات ديكنز وتولستوي وهيجو.

الأولى ـ الثورة على التقاليد الإقطاعية والمسيحية: وذلك قد لا يعدو في الحقيقة أن يكون جزءاً من الثورة على طغيان الكنيسة وظلم الإقطاع يتخذ مظهراً مغايراً، وإذا كان بلزاك (١٨٥١) هو أحد الرواد للواقعية فلنقتطف شاهداً على ما نقول من إحدى رواياته وهو محاورة بين قسيس عجوز وامرأة لم توفق في حياتهاالزوجية:

«قال العجوز: على أي حال يا سيدتي الماركيزة هل فكرت قليلاً في كتل الآلام البشرية؟ هل رفعت عينيك نحو السماء؟

قالت: لا يا سيدي، إذ تثقل القوانين الإجتماعية بشدة على قلبي وتمزقه لي تمزيقاً حتى لا أستطيع الإرتفاع بنفسي إلى السماوات، ولعل القوانين ليست في قسوة آداب المجتمع، أوه! المجتمع!

ـ علينا يا سيدتي أن نطيع هذه وتلك فالقانون هو الكلمة والآداب هي أفعال المجتمع.

«عادت تقول الماركيزة مبدية حركة اشمئزاز «طاعة المجتمع»؟

هيه! يا سيدي إن شرورنا جميعها تنشأ عنه، لم يضع الله أي قانون للشقاء ولكن عندما تجمع الناس بعضهم مع بعض أفسدوا عمله[١٤] ونحن «نحن النساء» لقد عاملتنا المدنية بأسوأ مما عاملتنا الطبيعة به، فالطبيعة تفرض علينا الآلام البدنية التي لم تخففوها في حين أضافت المدنية المشاعر التي تخونونها باستمرار، إذ تخنق الطبيعة الكائنات الضعيفة على حين تحكمون عليها أنتم بأن تعيش كي تقوموا بتسليمها إلى شقاء دائم، ويؤدي الزواج ـ وهو نظام يرتكن إليه المجتمع ـ إلى اشعارنا نحن وحدنا بأثقاله، فللرجل الحرية وللمرأة الواجبات، علينا أن نهبكم حياتنا بأكملها وليس عليكم من حياتكم

(١٤) من هذه العبارة يبدو تأثر بلزاك بنظرية روسو عن العقد الاجتماعي.

نحونا إلّا لحظات نادرة، ثم إن الرجل يختار هناك حيث نرضخ نحن عن عمى، أوه! ياسيدي لعلي أستطيع أن أقول لك كل شيء... فالزواج على نحو ما يطبق اليوم يبدو لي دعارة مشروعة منه تنبع كل آلامنا..»
وبعد أخذ ورد تعود الماركيزة فتقول للقسيس:

«... إنكم تفضحون المخلوقات المسكينة التي تبيع نفسها في مقابل بعض الدراهم لرجل عابر، فالجوع والحاجة تحللان هذه العشرة العابرة، هذا في حين يغفر المجتمع ويشجع الزيجات المباشرة برغم بشاعتها بين فتاة ساذجة ورجل لم تره أكثر من ثلاثة أشهر، فتباع طول حياتها، لا شك أن الثمن مرتفع إذا كنتم عندما تسمحون لها بالمكافأة على آلامها تقومون بتشريفها ولكن لا... إذ أن المجتمع يفتري على أفضل الفاضلات من بيننا! ذلك مصيرنا في وضوح من كلا وجهيه: الدعارة العامة والخزي والفضيحة، أو الدعارة الخفية والشقاء»[١٥].

والآن نستطيع أن نحكم بما إذا كانت واقعية بلزاك تهدف إلى تصوير مأساة بعض النساء أم تهدف إلى تصوير إفلاس رجل الدين وتهافت وفظاعة التقاليد، وليس غريباً بعد ذلك أن تصر معظم الروايات الواقعية على تصوير المجتمع في صورة العدو اللدود الذي يكبل الفرد ويحد حريته وتطلعاته.

الثانية ـ الهجوم المباشر على حقائق الدين: منذ بدء حركة النهضة نجد روح الكراهية للدين من قبل الأدباء والفنانين واضحة في انتاجهم الشعري والفني، إلّا أن هذه الروح كانت تعبر عن نفسها من خلال الهجوم على رجال الدين وفي القليل تجرأت على الهجوم المباشر على حقائقه، من ذلك ما رأينا في كوميديا دانتي وما سبق من قول

---

(١٥) امرأة في الثلاثين: ١٤٥، ١٥٤ ترجمة عبد الفتاح الديبي.

رابليه، وكذلك هناك مسرحيتا موليير «المتزمت» و«طرطوف» والأخيرة تصور نفاق رجل الدين وجشعه[١٦]، ومثلها قصة «صاحب الطاحون» لشوسر، يقول مؤلف «قصة الفكر الغربي»:

«يرد كثيراً في الأدب الشعبي الوسيط ذكر القسيس الجشع والقسيس الفاسق والقسيس المغرور الذي تشغله أمور الدنيا، وكذلك لا يعطينا شوسر صورة طيبة عن رجال الدين.. ومع ذلك فلم يكن في كل هذا إلاَّ قليل من المرارة وإنما كان يرمي إلى إنزال القسيس إلى المستوى البشري العام ولم يقصد إلى تحدي بناء المسيحية الفلسفي والديني أي نظرتها الشاملة إلى الكون كما قصد إلى تحديها في أيام فولتير وتوم بين...»[١٧].

ثم تطور الأمر أكثر من ذلك في كتابات عصر التنوير إلاَّ أن رجل الدين ــ بمفاسده ــ لا يزال هو المنفذ إلى مهاجمة الدين ويظهر ذلك جلياً في قصة «الراهبة» لديدرو زعيم الموسوعيين الفرنسيين التي مثلت في الستينات بباريس تحت إسم «المتدينة» بناء على اعتراض الكنيسة[١٨].

وجاءت الواقعية فاتخذت دور الهجوم المباشر على حقائق الدين مقرونة بالتشهير برجاله أو منفردة عنها، وبدأ ذلك مبكراً وصريحاً وها هو ذا «جوستاف فلوبير» يعطي الشاهد على ذلك في روايته «مدام بوفاري» التي حوكم بسببها آنذاك:

ففي أحد فصولها تسأل ربة النزل القسيس عما إذا كان يريد

---

(١٦) ترجمها للعربية: يوسف محمد رضا، وفي سلسلة تراث الإنسانية: ١/٢٣٣ «وقد أثارت ضيق رجال الدين حتى نادى احدهم بحرق موليير حياً».

(١٧) جرين برنتن: ٢٩٦ ــ ٢٩٧.

(١٨) حدثني بذلك شاب مغربي مسلم يدرس في فرنسا.

جرعة من النبيذ فيعتذر وينصرف «وما أن اطمأن الصيدلي إلى أنه لم يعد يسمع وقع قدمي القس.. حتى أبدى رأيه في مسلكه فوصفه بأنه ناب، فقد بدا رفضه أبغض ألوان الرياء إذ أن القساوسة يحتسون الخمر في الخفاء، ويحاولون أن يستعيدوا الأيام التي كانت الكنيسة تتقاضى فيها الضرائب من رعاياها.

«صاحبة النزل: إنه رغم قولك يستطيع أن يطوي أربعة من أمثالك على ركبتيه، لقد ساعد رجالنا على تخزين العشب الجاف..

الصيدلي: مرحى، أرسلو بناتكم إذن ليعترفن أمام رجال من هذا الصنف (!) لوكنت في مركز الحكم لأمرت بأن يفصد القساوسة في كل شهر.. في سبيل مصلحة البوليس والأخلاق.

– كف عن هذا يا مسيو هوميه فأنت كافر لا دين لك.

– بل لي دين، ديني الخاص، وإن لدي من التقوى ما يفوق ما لدى هؤلاء.. رغم نفاقهم ودجلهم إنني على العكس أعبد الله، أؤمن بالكائن الأعلى أؤمن بوجود خالق كيفما يكن كنهه.. ولكني في غير حاجة لأن أذهب إلى الكنيسة.. لأسمّن من مالي رجالاً لا يصلحون لشيء.. إن المرء ليستطيع أن يهتدي إلى الله في غابة أو في حقل أو حتى بمجرد تأمل قبة الأثير. إن إلهي هو إله سقراط وفرنكلين وفولتير وبيرانجيه، إنني من أنصار الإيمان الذي دعا إليه قس «سافوا» (روسو) ومن المؤمنين بمبادىء ثورة ١٧٨٩ الخالدة، ولا أستطيع أن أعبد إلهاً مزعوماً يسير في حديقته وعصاه في يده ويودع أصدقاءه أجواف الحيتان، ويموت صارخاً ثم يبعث بعد ثلاثة أيام، هذه جميعاً في حد ذاتها سخافات تناقض تماماً كل قوانين الطبيعة، وفي هذا ما يوضح لناضمناً كيف أن القسس ظلوا دائماً متشبثين بجهل صلد

لا يلين يحاولون أن يدفنوا البشر معهم في جوفه»[١٩].

على مثل هذا نمت الحركة الواقعية وترعرعت مصورة ومواكبة الحياة الاوروبية التي أخذت تتحلل من عقائد المسيحية الكنسيـة وأخلاقها شيئاً فشيئاً.

ثالثاً ـ الأدب المعاصر
«من الواقعية إلى اللامعقول»:

إن أي باحث في الأدب المعاصر لا بد أن يرى بوضوح مؤثرات جديدة وقوية أت به إلى الحال الراهنة وميزته عن المدارس والاتجاهات السابقة.

وليس ضرورياً ـ بالطبع ـ أن تكون هذه المؤثرات أدبية محضة، فما دام الأدب هو صورة الحياة فإن كل التحولات التي طرأت على الحياة الاوروبية سوف يصحبها تحول مماثل في الفن والأدب، ويرى أحد النقاد الغربيين أن هناك أربعة من المفكرين يعود إليهم الفضل في الإتجاهات الفنية والنقدية الحديثة هم «داروين وماركس وفـريزر وفرويد»[٢٠].

والحق أن لداروين وفرويد خاصة أعظم الأثر في ذلك:

أما الداروينية فإن الفلسفة الحيوانية التي بنيت عليها ولدت في النفسية الاوروبية شعورين عميقين لا يمكن للأدب الاوروبي مهما تعددت مدارسه ومناهجه إلاَّ أن يكون تعبيراً عن أحدهما:

١ ـ حيوانية الإنسان التي تلغي المشاعر الروحية تماماً وتجعل الكائن

---

(١٩) ٨٧ـ٨٨.

(٢٠) ستانلي هايمان: النقد الأدبي: ١٥٨.

البشري كتلة من اللحم والعظم كأي حيوان آخر ولا هم له إلاَّ إرواء غرائزه البهيمية والحصول على أكبر قسط من المتاع الجسدي المحض.

٢ ـ والشعور بتفاهة الحياة وحقارتها ونفي أية غاية سامية لوجودها وهو الشعور الذي عبرت عنه مدارس الضياع المختلفة تحت أسماء وشعارات شتى.

وأما الفرويدية فقد عمقت الإتجاه الحيواني موصلة إياه إلى الحضيض وصاغته في فلسفة نظرية منمقة تجعل الوصال الجنسي هو الغاية والوسيلة وهو محور الحياة ومحور البحث ومناط التفكير وعلة العلل.

وعمقت كذلك الشعور بالضياع والحيرة فقد تركزت فلسفتها الجنسية حول الجوانب المجهولة ـ إن لم نقل المختلقة ـ كالعقل الباطن واللاوعي واللاشعور والأنا المثالية... الخ وكأنها بذلك قدمت العوض المعاكس للإيمان والإحساس الروحي.

وهناك غير ما سبق عوامل ومؤثرات كثيرة:

فهناك الحربان العالميتان وهما الكارثة التي حطمت القيم والأعراف والقوانين، وأذهلت بفظائعها المروعة عقول البشر، ولا يزال التهديد الذري واحتمال نشوب حرب ثالثة يسيطر على مخيّلة الناس ويؤرق شعورهم.

وهناك التفسخ الإجتماعي حيث الأسرة محطمة والمشاعر النبيلة مفقودة والتنافس الضاري على أشده مما جعل الإنسان يعيش في دوامة رهيبة من القلق لا يجد موطىء قدم تسكن نفسه إليه منذ ولادته حتى مماته.

وهناك ـ أيضاً ـ النظريات العلمية الجديدة لا سيما «النسبية» ودورها يتجلى في أنها أفقدت الناس قيمة الأحكام المطلقة والإيمان والثقة في أية أسس ثابتة وعامة، ثم أنها تستعمل في بحوثها عن الكون والإنسان أرقاماً مذهلة يعجز العقل عن تصورها وتتكلم بلغة محيرة مربكة تجعل المرء فريسة تناقض حاد بين إيمانه الوثيق بعلميتها وصدقها وبين عجزه عن إدراك مدلولاتها وتفسير معمياتها.

وهناك الوسائل الفنية الجديدة كالسينما والتلفزيون والصحافة المتطورة ودور النشر الكبيرة تلك التي جعلت تعميم المادة الأدبية وذيوعها أمراً ميسوراً للغاية وخلقت جواً من التنافس بين المؤلفين والمنتجين والرسامين.

بهذه المؤثرات جميعاً تأثر الأدب المعاصر وانفصل بالتالي عن الدّين انفصالاً حاسماً، ومهما قيل في تعداد مدارسه ومذاهبه، فإنه يتذبذب بين اتجاهين رئيسيين هما: الإباحية، والضياع.

ويطلق النقاد على الأدب المعاصر في الجملة مسمى «اللامعقول» وهو إطلاق له ما يبرره لا سيما في مدارس الضياع، ولا يرون أي تناقض بين ذلك وبين وصفه بأنه «أدب واقعي» فإن واقعية القرن العشرين تتجلى في «لا معقوليته»!

والواقع أن الإرتداد من الواقعية إلى اللامعقول يشبه الإنتقال من الكلاسيكية إلى الرومانسية مع اختلاف صوري فقط، على أن رباط الوثنية يظل هو الرباط المشترك بين الجميع.

أولاً ـ الإتجاه الإباحي:

في كل مراحل التاريخ الأدبي الأوروبي لم ينفك الفن عن الإباحية، إلا أن صورها كانت تختلف وتسير متطورة ولكن إلى أسفل، وما أصدق قول برنتن:

«إن الخشونة والفحش من الصفات الدائمة تقريباً في ثقافتنا الغربية»[٢١] فالأغاني البذيئة والمسرحيات الرقيعه في عصر النهضة تعقبها عبادة اللذة والجمال في الرومانسية ثم تصبح الدعوة صريحة إلى الفجور والفاحشة في الأدب الواقعي وتظل صورتها تكبر وتسفل حتى تصل إلى الأدب المكشوف.

وبذلك بعدت الشقة جداً بين رهبانية الكنيسة والفن وصار بينهما هوة لا قرار لها. وإذا عرفنا أنه ما تزال نسبة تمثال أفروديت «إلهة الحب!» عند الاغريق هي المقياس لأجساد ممثلات هوليود[٣٢] فلن يخفى علينا ارتكاس هذا الاتجاه إلى الوثنية.

ولنبدأ بالطريق من أوله ــ متجاوزين عصر النهضة ــ لنجد تلك المجموعة من الأدباء في العصر الحديث الذين كرسوا فنهم وحياتهم للإباحية.

فهناك «الفريددي موسيه» شاعر «الليالي» الذي كان أبيقورياً بأوسع معاني الكلمة» ومعاصروه أمثال «بروسبير» صاحب قصة «كولومبيا» وألكسندر دوماس «الكبير والصغير» والأخير مشهور بقصة «غادة الكاميليا» وفلوبير صاحب «مدام بوفاري» ومعهم الكاتبة العربيدة «جورج ساند» صاحبة «ليليا»، و«أنديانا» وينبغي ألا ننسى ستندال صاحب «الأسود والأحمر» وأوسكار وايلد[٢٣] وأمثالهم كثير.

وكل أدب هؤلاء محصور في تمجيد الرذيلة وتبرير أعمال العاهرات والإشفاق عليهن، ودخل هذا الاتجاه مرحلة أتم بالمدرسة

---

(٢١) قصة الفكر الغربي: ٢٩٧.

(٢٢) انظر المصدر السابق: ٨٥.

(٢٣) انظر سلسلة تراث الإنسانية تحت هذه الأسماء المذكورة لا سيما ج: ٢، ٧

«الطبيعية» التي يتزعمها الكاتب اليهودي «أميل زولا» صاحب «الأرض» و«البهيمة» وغيرها وهي مدرسة إباحية متخصصة.

وعن هذا الاتجاه يقول أحد عظماء الأدب الأوروبي «تولستوي» سنة ١٨٩٨:

«أصبح المقياس الوحيد للفن الجيد والفن الرديء هو اللذة الشخصية فالخير هو ما يبعث اللذة في نفوسهم وهذا هو الجميل، وبذا ارتدوا إلى تصور الاغريق البدائيين الذين أدانهم أفلاطون، وطبقاً لهذاالفهم في الحياة تكونت نظرية في الفن»[٢٤] ويقول:

«إننا نشبه الفن المعاصر ــ مع غرابة هذا التشبيه ــ بامرأة تبيع جسدها لارضاء الذين يبتغون اللذة بدلاً من أن تجعله مستودعاً للأمومة، فالفن المعاصر يشبه العاهر في أدق التفاصيل فهو مثلها ليس وقفاً على عصر معين، وهو مثلها مبهرج، وهو مثلها قابل للبيع دائماً، وهو مثلها كله إغراء وكله هدم»[٢٥].

ثم جاء فرويد وجاءت الحرب الأولى فاكتسب هذا الاتجاه قوة واستشرت رذائله في الأوساط العامة، انهال الإقبال على إنتاجه الرخيص ووجدها الهدامون والمتكسبون فرصة لنفث سمومهم واستغلال مشاعر الناس واللعب بعواطفهم وإثارة غرائزهم، ويبرز هنا اسم «ديفيد هربرت لورانس» (١٩٣٠)، الذي كتب عدة روايات منها: «أبناء وعشاق» و«عشيق ليدي تشارلي» والأخيرة «أثارت ضجة كبرى في انجلترا بسبب جرأتها المتناهية في تصوير العلاقات الجنسية ولم تنشر كاملة إلا مع بداية الستينات»[٢٦].

---

(٢٤) عن دراسات ادبية: يوسف الشاروني: ٨٤.

(٢٥) نفس المصدر السابق ٩٤.

(٢٦) سلسلة تراث الإنسانية: ٧/٢٦٣.

وبعده طلع ولسن بـ «مذكرات مقاطعة هيكث» سنة ١٩٤٦ التي صادرتها محكمة القضايا الخاصة بعد أن بيع منها خمسون ألف نسخة في نحو أربعة أشهر. وهي تصور بالتفصيل الدقيق كما قال هايمان: عشرين دوراً من أدوار العملية الجنسية يقوم بها أربع عاهرات... !![٢٧].

وهناك عدد لا يحصى ممن تفننوا في تصوير أعمال الدعارة والعهر مبررين ومسوغين وأوقفوا حياتهم الأدبية لذلك، حيث الجمهور يتلهف لقراءتها والمنتجون يتسابقون لاخراجها مشاهد حية، ولا غرابة في أن أكثر الروايات الأدبية العالمية انتشاراً هي أكثرها إسفافاً ورذيلة.

وهذا كله في نطاق الأدب الجاد أو الهادف! الذي يعد جزءاً من التراث الحضاري البشري والذي تكتبه شخصيات أدبية مرموقة وترصد له الجوائز والمسابقات الدولية والقومية ويكتب له النقاد والمعلمون.

أما ما يسمى «أدب الجنس» أو الأدب المكشوف الذي لا يصح أن يسمى أدباً بحال، فهو في كل العالم الغربي ملء السمع والبصر يملأ الحوانيت ويستنفذ الصحافة ويسيطر على دور العرض السينمائي ويستغرق أوقات الملايين من الناس، حتى الأطفال تكتب لهم مسلسلات جنسية وروايات جنسية ومسرحيات جنسية.

ثانياً ـ الإتجاه الضائع:

لم تستطع كل المذاهب الفكرية والفلسفات الاجتماعية أن

---

(٢٧) النقد الأدبي: ستانلي هايمان:٧٥.

تعطي الانسان المعاصر ـ أو القرد حسب تعبير كامو ـ أي نوع من أنواع الثقة والاطمئنان.

بل على العكس كان دورها الفعال ينحصر في اجتثاث موروثات الكنيسة الهشة التي كانت رغم هشاشتها تقدم شيئاً من الاستقرار والثقة في المصير.

وكانت العوامل النفسية والاجتماعية التي أشرنا إليها سلفاً تهدم كل أمل في الوصول إلى السعادة والايمان بالقيم المجردة أياً كانت.

وأمام العملاق الميكانيكي الرهيب وسيطرة الآلة الطاغية شعر الإنسان بأنه قد سحق وأن وجوده قد تضاءل إلى حد أدنى مما كان عليه وهو يواجه جبرية الكنيسة واضعاً مصيره بين يدي قدرها المحتوم.

وهنا تحققت نبوءة شبنجلر وتكهنات أورويل عن مستقبل الجنس ـ أو القطيع ـ البشري، وأصبحت مشكلة الإنسان العظمى في الحياة هي وجوده حياً، فالكلمة التي قالها أوغسطين «أصبحت أنا نفسي مشكلة بالنسبة لنفسي» لم تعد خاصة بالفلاسفة بل باتت ترددها شفاه الفرد العادي من أجيال الضياع!

ويتساءل الأديب المعاصر:

«هل لحياتنا معنى؟ ما هو؟ ما هو مكان الإنسان في العالم؟ هنا يظهر حالاً لماذا كانت الأغراض البلزاكية مطمئنة أنها تنتمي: إلى عالم يكون الإنسان فيه سيداً وهذه الأغراض كانت أموالاً وأملاكاً لا هم إلا امتلاكها والاحتفاظ بها... وكان ثمة هوية ثابتة بين هذه الأغراض ومالكها، صورة بسيطة هي في الوقت نفسه ميزة ووضعية

اجتماعية، كان الإنسان سبب كل شيء مفتاح الكون وسيده الطبيعي بالحق الإلهي، أما اليوم فلم يبق الكثير من كل هذا...».

ومع ذلك فهو يتبجح قائلاً:

«إننا لا نؤمن أبداً بالمعاني الجامدة الجاهزة التي يقدمها النظام الإلهي القديم للإنسان وعلى أثره نظام القرن التاسع عشر العقلاني ولكننا نضع كل أملنا في الانسان: إن الأشكال التي خلقها هي التي تستطيع إعطاء العالم معنى»[٢٨] وهذا هو دستور اللامعقول.

إن الأدب المعاصر يرفض الايمان بالمعاني المحددة والقيم الثابتة المجردة تبعاً لعدم إيمانه بهدف كوني ثابت، إنه لا يريد أن يؤمن بذلك الهدف سواء في صورة «القدر» بالشكل الذي تقرره لاهوتيات الكنيسة أو في صورة المثال كما تخيله أفلاطون وفلاسفة الاغريق، ففي نظر أدباء الضياع ينبغي ألا يكون هنالك إرادة تسير الحياة الانسانية على خطة مرسومة إلى هدف مقصود، كما أنه ليس هناك نموذج سام يفوق الإدراك تكون الحياة الحسية انعكاسه وصورته الموازية له.

والسبب الذي دفعهم لإنكار ذلك هو توهمهم أن الإيمان بشيء منه يتعارض مع ما زعموه «حرية الإنسان» من جهة، ومع ما يظهر في الكون من تناقض وتقلب تعجز عقولهم عن تفسيره من جهة أخرى.

ولم يظل هذا الاعتقاد فكرة مجردة بل بني عليه الدستور العلمي للفن الذي ينص على أن «الفن للفن» يقول بعضهم تحت عنوان: الالتزام الوحيد الممكن للكاتب هو الأدب:

«ليس من الصواب الزعم أننا نخدم في رواياتنا قضية سياسية مهما كانت قضية تبدو لنا عادلة وحتى لو كنا في حياتنا السياسية نحارب

---

(٢٨) معجم الأدب المعاصر ٦٢، ٦٣

في سبيل انتصارها، إن الحياة السياسية تضطرنا دون انقطاع إلى افتراض معاني (كذا) معروفة: معاني تاريخية، معاني أخلاقية، إن الفن أكثر تواضعاً أو أكثر طموحاً، ففي نظره ليس هناك من شيء معروف مسبقاً، وقبل العمل لا يوجد شيء: لا يقين ولا قضية ولا رسالة، فالظن أن عند الروائي شيئاً يريد أن يقوله وأنه يبحث بعد ذلك كيف يقوله يمثل أخطر عمل مناقض للحقيقة»[٢٩].

هذا الإحساس بالضياع وعدم الانتماء في عالم يعج بالمعضلات الحضارية والمآسي الإنسانية جعل الرواية المعاصرة تتخذ بطلها من نوع آخر ملائم لاتجاهها، ويستطيع المرء أن يعد نوعية البطل مؤشراً حقيقياً لتحديد الانتماء الفني وتطوره، فالأدب الكلاسيكي كان بطله هو ما يدل عليه المعنى الأصلي لكلمة بطل، ثم حولت الرومانسية بطلها إلى العاشق أو الصوفي، أما بطل الرواية الواقعية فهو غالباً الشهواني أو المادي، وفي أدب الضياع المعاصر نجد أن البطل هو الصعلوك أو المتشرد أو هو إجمالاً ذلك الإنسان الذي مصيره الخيبة والدمار.

أمثلة من أدب الضياع

١ ـ «القضية: كافكا»[٣٠]:

تصور أزمة إنسان عادي كان يعيش حياة طبيعية كسائر الناس يفاجأ برجال شرطة غريبين يلقون القبض عليه ويحاول عبثاً أن يعرف السبب. ويحدث أن تحال قضيته إلى محكمة غريبة في أشخاصها

(٢٩) المصدر السابق: ٦٣.

(٣٠) هوفرانتس كافكا، اديب الماني ١٨٨٣ ـ ١٩٢٤ اشتهر بهذه الرواية. انظر سلسلة تراث الإنسانية: ٥/٨٠٧.

وقانونها وبنائها ويظل يترافع مدافعاً عن نفسه دون أن يعرف ماهية القضية، ويظل رهن الاعتقال إلا أنه اعتقال غير مألوف فهو حرّ مأسور في آن واحد، يخضع للملاحقة والمتابعة في كل مكان، ويظل يشكو حاله لمعارفه وأصدقائه ويبحث عن محام قدير لكنه يكتشف ـ يا للمصيبة ـ بأن معارفه كلهم أعضاء مجهولون في المحكمة الغريبة! حتى رجل الدين الذي لقيه صدفة في إحدى الكنائس هو أيضاً عضو في المحكمة، وبعد فصول طويلة معقدة من المحاكمة ومع أنه لا يزال يجهل التهمة تنتهي حياة المتهم «ك»[31] بأن يقتاده مجهولان ويغتالانه في خارج البلدة، وكانت آخر كلمة قالها (مثل الكلب) يعني نفسه.

وتنتهي صفحات الرواية وفصول المحاكمة مبتورة والموضوع لا يزال معلقاً فهي في الحقيقة لم تتم ولا يريد كافكا أن تتم!

والقضية، في حقيقتها، هي قضية الوجود الانساني على هذه الأرض، قضية الحياة ذاتها كما تبدو للانسان اللامنتمي، فمن خلال رؤيته يبرز إلى الوجود دون سابق استشارة، ويظل رهن الحياة تتقاذفه أقدارها ويطويه الليل والنهار وهو قابع في متاهة يلهث ويتحسر حتى يداهمه الفناء المحتوم دون أن يعرف السر في وجوده والقضية التي لأجلها جاء ثم ذهب واضمحل!

٢ ـ الشيخ والبحر «همنغواي»:

هنا يأتي اللامنتمي بنموذج آخر لتصوير المأساة الانسانية وتجسيد المعضلة والمنعطف للحضارة البشرية حيث تكون الكارثة والخسارة الفادحة هي النتيجة والثمرة من عمر طويل وخبرة كافية وصراع مرير في الأعماق!

---

(٣١) من الواضح أنه رمز لاسم كافكا.

فالشيخ الصياد أفنى عمره في منازلة أقدار البحار، وقد توغل هذه المرة في أعماق المحيط لا تنقصه الخبرة ولا يعوزه السلاح، غير أنه يظل متشبثاً بإصرار مميت على أن تفوز شبكته بأكبر نصيب، وبعد معاناة قاسية ومغامرات مضنية يظفر بما يروي أحلامه، ويجنح بزورقه طالباً بر الأمان، لكنه يفاجأ بعقبات ومهاجمات شتى تجعل الاحتفاظ بالصيد أعظم مخاطرة من الحصول عليه، وينفذ زاده وتتحطم بقايا سلاحه وتخور قواه والتماسيح والقرشان العظيمة لا تكف غاراتها الشرسة على زورقه، وأخيراً وبعد جهد جهيد وجراح بالغة يصل إلى الشاطىء وليس لديه من الصيد الثمين إلا هيكله العظمي في حين قد فقد كل شيء!!

وكما صور همنغواي أزمة الحضارة البشرية وأزمته الشخصية فقد تقمص شخصية الشيخ الخاسر، وآثر أن يغادر الحياة بعد أن ظهرت له أعراض الكارثة، ولم يجد وسيلة إلا أن يبادرها بالانتحار![٣٢].

٣ ــ الساعة الخامسة والعشرون:

رواية طويلة ألفها الكاتب الروماني «كونستانتان جيورجيو» وهي من أعظم الأعمال الأدبية التي تناولت بالتحليل المستفيض والتصوير الدقيق مأساة الضياع المتمثل في انهيار الحضارة الغربية وسحق إنسانية الإنسان، يقول فيها:

«إنني أشعر أن حدثاً خطيراً قد وقع حولنا، انني أجهل أين انفجر ومتى بدأ وكم يدوم؟ لكنني أشعر بوجوده، لقد أخذنا في الدوامة ولسوف تمزق هذه الدوامة جلودنا وتحطم عظامنا الواحد تلو الآخر، انني أشعر بهذا الحدث الهائل شعوراً لا يضاهيه إلا إحساس

(٣٢) انتحر همنغواي سنة ١٩٦١ (انظر مجلة العربي عدد ٥٢) والقصة ترجمها: منير البعلبكي.

الجرذان المسبق الذي يدعوهم إلى هجر مركب على وشك الغراق، لن يكون لنا أي مأوى في أي مكان في العالم»[٣٣].

ويصور جورجيو سبب المأساة بأن التقدم الآلي المجرد من القيم وتفوق الآلة الطاغي على الإنسان وذبول إنسانيته أمامها ـ كل هذا سيفضي بالمجتمع البشري إلى نهاية مرعبة، إذ يظهر سلالات من نوع خاص لا هي بشرية ولا هي آلية، أسماها المؤلف «الرقيق التكني» وبحكم كثرة الرقيق التكني فإنه سوف يثور للسيطرة على العالم وسينتصر فعلاً ويعود البشر الحقيقيون أقلية ضئيلة على الأرض:

«المجتمع الحديث الذي يحوي على رجل واحد مقابل كل ثلاثين عبداً تكنياً، ينبغي أن ينظم وأن يعمل حسب النظم التكنية لأنه مجتمع خلق وبني على احتياجات ميكانيكية وليست إنسانية، وهنا تبدأ الفاجعة (!!) إن المخلوقات البشرية مرغمة على الحياة والتصرف وفق قوانين تكنية غريبة عن القوانين الانسانية»[٣٤].

وعندما يثور العبيد الآليون فماذا ستكون النتيجة؟

«إن هذه الثورة ستحدث على سطح الأرض كلها، ولن نستطيع الاختفاء لا في الغابات ولا في الجزر ولا في أي مكان، لن تستطيع أمة في العالم أن تحمينا (!!) سوف تتشكل جيوش العالم كله من مأجورين يناضلون ويكافحون من أجل تدعيم المجتمع الآلي الذي لن تعيش فيه الفردية، ولعل هذا العصر هو الفترة الأكثر ظلمة في تاريخ البشرية، إذ لم يحدث لحد الآن أن احتُقر الإنسان إلى هذا الحد. والحياة البشرية لم تعد لها قيمة إلا بوصفها مصدر حركة، والقياسات

---

(٣٣) عن تهافت العلمانية د. عماد الدين خليل: ١٧٥.

(٣٤) المصدر السابق: ١٨١.

أضحت علمية محضة، وهذا هو قانون بربريتنا الآلية المظلمة ولسوف نصبع بعد النصر الكلي عبيداً آليين»[٣٥].

ثم يتحدث المؤلف عن سلالة «المواطنين» في الشرق والغرب في أميركا وروسيا في ظل الشيوعية والديمقراطية على حد سواء فيقول:

«إن الانسان لم يستطع السيطرة على كل الحيوانات المفترسة، غير أن حيواناً جديداً ظهر على سطح الأرض في الآونة الأخيرة، وهذا الحيوان الجديد اسمه المواطنون، إنهم لا يعيشون في الغابات ولا في الأدغال ولكن في المكاتب، ومع ذلك فإنهم أشد قسوة ووحشية من الحيوانات المتوحشة في الأدغال لقد ولدوا من اتحاد الرجل مع الآلات. إنهم نوع من أبناء السفاح (!!) وهم أقوى الأصول والأجناس الموجودة الآن على سطح الأرض. إن وجههم يشبه وجه الرجل، بل إن المرء غالباً ما يخلط بينهم ولكن لا يلبث المرء حتى يدرك بعد حين أنهم لا يتصرفون كما يتصرف الرجال بل كما تتصرف الآلات. إن لهم مقاييس وأجهزة تشبه الساعات بدلاً من القلوب، وأدمغتهم نوع من الآلة، فهم بين الآلة والإنسان، ليسوا من هذه ولا ذاك. إن لهم رغبات الوحوش الضارية مع أنهم ليسوا وحوشاً ضارية بل إنهم مواطنون... إنها سلالة اكتسحت الأرض».

والنتيجة التي يستخلصها المؤلف من وجود هذه السلالة هي «أن كلمة مواطن لم تعد مرادفة لمعنى إنسان»[٣٦].

ويتعرض المؤلف في روايته الطويلة لضروب الإفلاس والضياع التي ستمنى بها البشرية في كل ناحية: في الاجتماع والسياسة، في

---

(٣٥) المصدر السابق: ١٨٢.

(٣٦) المصدر السابق: ١٨٦.

الإبداع والشعر في الإنسانية. في كل شيء»، ويقول «إن كل ما تستطيع الحضارة تقديمه للإنسان: الأصفاد»!![37].

وينبغي أن نشير هنا إلى عدة أعمال فنية في الاتجاه نفسه لا تقل عما ذكرنا: «قلعة اكسل» لأدموندولسن، «البحث عن الزمن الضائع» لبروست، والعالم الطريف آلدوس هكسلي و«كوكب القردة» لبيريل بيل و«رحلة في دنيا المستقبل» لويلز.

وعلى مستوى المسرحية نجد «البيت المحطم للقلب» وهي «إحدى مسرحيات شو ويعرض فيها إفلاس حضارتنا الحديثة كما تجلى عقب الحرب الكبرى»[38].

أما الشعر فيلمع اسم «اليوت» وقصيدته «اليباب» أو الأرض القفر (The Waste Land) وقد كان لهذه القصيدة أثر كبير في الشعر الحديث وهي تصور مشكلة الإنسان المعاصر الذي يبدو للشاعر تافهاً مشلول القوة محطم الإرادة يعيش في عالم يستحق الفناء».

نماذج من مدارس الضياع

١ ــ الوجودية:

ليست الوجودية ــ كما حددها سارتر في «الوجودية مذهب إنساني»[39] سوى صورة من صور الضياع، وحتى إن صدقنا زعمها أنها «ثورة الانسانية ضد كل ما هو لا إنساني» فهي ليست إلا ثورة سلبية يائسة، لم تستطع أن تشخص الداء فضلاً عن تقديم الدواء وكل ما تستطيع أن تقول بصدق إنها قدمته للانسانية هو عرض وإبراز

(٣٧) المصدر السابق: ١٩١.

(٣٨) المصدر السابق: ٦٥.

(٣٩) ترجمه إلى العربية: يوسف كمال الحاج.

بعض جوانب المأساة البشرية، تلك المأساة التي تعبر عنها جملة واحدة «البحث عن الإله» فهي ترفض الايمان بالله كما تصوره الأديان ولكنها لا تجد البديل، والانسان الذي تحاول تأليهه محصور مقهور أمام القدر الكوني وأمام سيطرة الآلة وأما وضعه التاريخي المحدد، وحول إيجاد مخرج من هذا التناقض تأتي الفلسفات الوجودية بشعارات شتى كالحرية عند سارتر والعبث عند البير كامو.

وما دامت الوجودية أولاً وأخيراً تعبيراً عن الضياع والافلاس فلنأخذ أحد أبطال البير كامو نموذجاً للإنسان الوجودي المتمثل في كامو نفسه:

«إنني لأفكر أحياناً بما سيقوله عنا مؤرخو المستقبل، فعبارة واحدة تكفي لوصف الانسان الحديث: كان يجامع ويقرأ الصحف، وبعد هذا التعريف لن يكون ثمة مجال لمزيد من البحث»[٤٠] «كان وجودي يتألف من الجسد بصورة خاصة وهذا يفسر توافقي الداخلي وتلك السهولة في تصرفاتي التي كان الناس يشعرون بها...».

«كن واثقاً من أنني أتصرف بسهولة في كل شيء ولكنني في الوقت نفسه لم أكن لأقنع بشيء، كانت كل غبطة تجعلني أشتهي أخرى، وقد تنقلت من بهجة إلى بهجة، وكنت في بعض المناسبات أرقص ليالي كاملة ويزيد جنوني أكثر فأكثر بالناس والحياة، وفي بعض الأحيان حين يتأخر الوقت على تلك الليالي وحين يملأني الرقص والنشوة الخفيفة وحماستي الوحشية وانطلاق الجميع بعنف بنشوة ذاهلة تعبى، كان يلوح لي في اللحظة التي أكون فيها منهوكاً وبسرعة البرق ـ أنني كنت أفهم سر المخلوقات والعالم، ولكن التعب كان يختفي في

---

(٤٠) السقطة: ٩ ـ ١٠.

اليوم التالي ويختفي معه السر وأعود إلى الاندفاع من جديد...»[41].

«والمرء حين يكون صاحياً مزوداً بالقليل من المعرفة الذاتية غير قادر على العثور على سبب واحد لإسباغ الخلود على هذا القرد الشهواني (يعني نفسه) عليه أن يبحث عن بديل لذلك الخلود، ولأنني كنت أحن إلى الحياة الأبدية، كنت أذهب إلى الفراش مع البغايا وأشرب الخمر ليالي بكاملها...»[42].

«آه، ياعزيزي، إن عبء الأيام مخيف بالنسبة لمن هو وحيد بدون إله، بدون سيد ولهذا يجب على المرء أن يختار سيداً، إلهاً بدون مميزاته المألوفة، ثم إن تلك الكلمة قد فقدت معناها ولم تعد تستحق أن يجازف المرء بصدم أحد بها»[43].

٢ ــ الرمزية:

مدرسة ظهرت أصلاً في القرن التاسع عشر رد فعل للنزعة الميكانيكية التي ادعت الإحاطة بفهم الكون وتفسيره عن طريق العقل والعلم وأنكرت كل ما يندرج تحت سلطة المنطق وإدراك الحواس، إذ اعتقد الرمزيون أن تلك النزعة قاصرة عن تفسير الواقع فضلاً عن العوالم المجهولة في الكون والنفس، وحملهم ذلك «إلى الشعور بأن وراء الامكان الايجابي سراً لم يكشف ومجهولاً لم يستكنه وإلى جانب هذه النزعة إلى المجهول أدلى علم السكيولوجيا بأن في الإنسان حالتين: واعية ويدركها العقل والايجاب وغير واعية قصر العقل عنها، وقد تكون هذه الزاوية في الإنسان هي الحقيقة وقد يكون الواقع

(٤١) المصدر السابق: ٢٦ ــ ٢٧.
(٤٢) المصدر السابق: ٨٥.
(٤٣) نفس المصدر السابق ١٠٨ ــ ١٠٩.

الموضوعي سراباً...»[٤٤] على هذا الأساس قام الأدب الرمزي محاولاً تطويع اللغة والأحداث للتعبير عن الحقائق المجهولة التي تلح الفطرة عليها بينما هي ــ في نظرهم ــ ستظل مجهولة إلى الأبد ولا وسيلة قط إلى تقريبها إلا هذا الأسلوب.

ومن أشهر زعمائها بودلير ورامبو.

٣ ــ السريالية:

مدرسة حديثة تهتم أكثر بالشعر والرسم تبتدىء من الخط الذي تبتدىء منه الوجودية ولكنها تفترق عنها في الايغال في اللامعقول والاعراض عن الخوض في حقائق التاريخ والمشادات الفكرية والبحث المنطقي فيما يفوق الادراك إلى الخوض في أعماق المجهول بلا موضوعية.

والأصل في هذه الحركة هو نظرية فرويد عن العقل الباطن، فالسريالية تريد «أن تجعل من العقل الباطن الحقيقة النفسية بالذات، وتحول الفن إلى كتابة آلية لإيضاحه».

«ولم يكن مطمعها الأول أن تؤسس نزعة إنسانية جديدة، أي أن تعطي العالم تلاحماً، إتجاهاً، لقد كانت على العكس تعارض كل تلاحم بحالة سخط لتغيير الحياة وبلوغ ما فوق الواقع الذي يلغي التناقضات التي مزقت الانسان: واعٍ ولا واعٍ، أنا وعالم، طبيعي وما فوق الطبيعي» (كذا).

أشهر شعرائها بريتون وأراغوان وقد حدد بريتون الطريق الوحيد للبحث عن المطلق بأنه «إملاء الفكرة في غياب كل رقابة يمارسها العقل»[٤٥].

---

(٤٤) الرمزية والأدب العربي؛ أنطون غطاس: ١٧.

(٤٥) انظر معجم الأدب المعاصر: ٣٠، ٧٦.

٤ ـ أدب التفسخ:

نوع من أدب الضياع يميل إلى التشاؤم والابتذال ويتميز بأن أبطاله هم نوع من «الكائنات التي فقدت الثقة بنفسها وبمستقبلها والتي لا تؤمن أبداً بإمكان قيامها اليوم بحياة إنسانية».

وقد جعل روائيوه عملهم في «الوسوسة الفيزيولوجية واستغلال بؤس البهيمة البشرية، كأنهم جعلوا شعارهم شعار أبطال ريمون: غير أن ليست الخليقة شيئاً إلا بالأحشاء التي تقودها، كأنه لا يوجد على الأرض شيء يرتاد أجمل من أمعاء إنسانية كلها حيوانية ومن بالوعات المدن الكبرى»!![٤٦].

٥ ـ أدب المستحيل:

إتجاه حديث ظهر بعد الحرب العالمية الثانية متأثراً بفظائعها ترتكز فلسفته على الإلحاد القانط واعتقاد أن الانسان «هو ميت مؤجل بحيث لا يهتم أحد بإنقاذه». يقول معجم الأدب المعاصر:

«والمستحيل وأساطيره لم تسيطر عبثاً منذ عشرين سنة (أي ١٩٤٥) على أدب قد نما تحت لواء ـ الدعوى ـ فإذا كان كتاب كامو هو الكتاب المفتاح لعام ١٩٤٧ فلأنه كان يحمل آنذاك... تلك الفكرة القائلة: أن كل مجتمع في هذه الأيام يحمل جحيمه في نفسه وأن كل مدينة يمكن أن تموت بالطاعون إن أجيال ما بعد الحرب لا تزال تبدو تحت ضرب عاقبة جرح السنوات الأربعين: ما فائدة الصراع والصلاة والتأمل والايمان؟! فالعالم الذي يتعذب فيه الناس ويموتون هو نفسه العالم الذي تتعذب فيه النمال وتموت: عالم طاغ وغير مفهوم...

«عشرون سنة ودخان هيروشيما يعلمنا أن العالم ليس جدياً

---

(٤٦) المصدر السابق: ٤٣.

ولا دائم البقاء ــ إن ملاحظة روجيه نيميه هذه قد أبداها جيل بكامله جيل أبناء المستحيل»[٤٧].

٦ ــ الأدب العدمي:

نوع آخر أكثر تشاؤماً وقنوطاً، إنتاجه هو عبارة عن ذلك «العمل المؤلم الذي يصرخ بصوت عال في كل صرخة من صرخاته المبتورة» «إن الانسان قد مات» «وحيث ما من شيء ولا شخص ولا لغة على الخصوص تستطيع إغاثة ذرة الوجود تلك التي انكمشت في استحالتها الأساسية، وتعلن أنها تنتمي إلى العدم وأنها ستعود إليه وإلى الأبد وأنها لا تتخيل نهاية أخرى سوى نهاية القذارة التي تنتظر صيد الماء؟»[٤٨].

٧ ــ أدب الهروب والحلم:

صورة أخرى من صور الضياع يقول عنها المصدر السابق:

«إنه أدب لا يرفض أخلاق وغيبية أبائنا فقط، ولكنه يرفض الحقيقة النفسية وواقعية ملاحظته، يرفض فهم الأجهزة الآلية للروح لأنه ليس هناك إيمان بعمل النفس ويراد التقاط الحياة في منبعها والجثوم مباشرة على الزخم الحيوي وإمساك جذور الوجود المعقدة، إنها صوفية بدون إله».

أشهر رواده بلانشو وباتاي والأخير «كان يحلم بشعر ينكر الطبيعة وبمطلق يستغني عن القيم[٤٩].

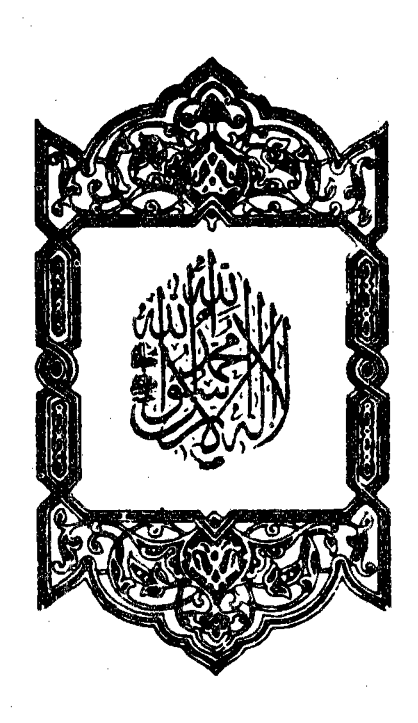
هذا وهناك مدارس واتجاهات أخرى كالتكعيبية والمستقبلية... إلخ لا تختلف في جوهرها عما سلف.

---

(٤٧) بيار بواديفر: انظر ٤٨ ــ ٥٠.

(٤٨) المصدر السابق: ٤٦.

(٤٩) ص: ٥١.


لا اله الا الله محمد رسول الله

الفصل السادس

ماذا بقي للدين؟

ماذا بقي للدين؟

هذا هو السؤال الذي يراودنا الآن بعد تلك الرحلة الطويلة!

لقد رأينا كيف استؤصلت جذور الدين من كل مجال من مجالات الحياة: في السياسة والاقتصاد وفي الاجتماع والأخلاق وفي العلم والفن... فماذا بقي للدين بعد ذلك؟ هل بقي له شيء يذكر سواء على الصعيد النظري أو في واقع الحياة؟[1].

أما على المستوى العلمي والفكري فإن أوروبا ـ شرقها وغربها ـ قد استبعدت بصفة مطلقة أن تكلف نفسها البحث في أية قضية من القضايا منطلقة من الدين أو متأثرة به، وأن تستفتي الدين في أي شأن من الشؤون.

فالعداوة التقليدية المريرة بين الكنيسة والعلم قضت على كل احتمال من ذلك، والمبدأ الأساسي الذي قامت عليه الحياة الأوروبية المعاصرة هو عبادة الهوى وتحكيمه من دون الله فالانسان المعاصر الذي شب عن الطوق واستغنى عن الإله لم يعد بحاجة إلى الرجوع إليه!!

---

(١) لا يعني هذا بطبيعة الحال أن أوروبا تخلت عن تعصبها للمسيحية ضد غيرها ـ والإسلام خاصة ـ ولكن التعصب ليس دليل التدين بل له تعليل آخر سيأتي في موضوع التخطيط الصليبي اليهودي ضمن اسباب العلمانية في العالم الإسلامي ص ٥٢٢.

ليكتب أي باحث ما شاء: نظرية، نقداً، خرافة، لغواً ساقطاً مجوناً وفحشاً... إلخ أي شيء، وليبد رأيه بكل حرية ما دام لا ينبع من المنطقة المحرمة: منطقة الدين منطقة الحلال والحرام.

ومن هنا جاءت كلمة «جورج سانتياتا» وهو يلخص المزاج الثقافي للعصر:

«إن حياتنا بكاملها وعقلنا قد تشبعا بالتسرب البطيء الصاعد لروح جديدة هي روح ديموقراطية دولية متحررة وغير مؤمنة بالله»[2].

وهكذا نجد الباحثين العلميين ـ حتى من كان منهم يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد ـ يكتبون في كل التخصصات من منطلق العداوة العمياء للدين:

«فالذي يتحدث في علم النفس يقول أن الدين كبت ينبغي أن يحطم لكي لا يؤذي الكيان النفسي للفرد!

والذي يتحدث في الاقتصاد يقول أن الاقتصاد الصناعي يحتاج إلى مجتمع متحرر من القيود الموروثة من المجتمع الزراعي ومن بينها كذلك احتجاز المرأة لمهمة إلا أمومة (إذ ينبغي ـ في المجتمع الصناعي ـ أن تخرج المرأة لتعمل!

والذي يتحدث في الاجتماع ينظر بعين السخرية إلى تلك السذاجة التي كانت تخيل للناس أن الدين فطري وأنه شيء منزل من السماء! ألا يعلم الناس أن البشر هم الذين ابتدعوا الدين أيام جهالتهم وسذاجتهم؟! انظروا إلى المجتمعات المتأخرة التي ما تزال تعيش في الأحراش في أفريقيا وأستراليا... وستجدون بذرة الدين

---

(٢) تكوين العقل الحديث: ٢/٣٣٤، وسانتيانا احد اقطاب الفلسفة العملية الاميركية (Pragmatism).

هناك في الجهل والسذاجة والخرافة والأسطورة. . . ثم انظروا إلى التقدم الحضاري في القرن العشرين! أما تستحون من أن يكون في ضمائركم ووجداناتكم بقية مما ورثتموه عن سكان الغابات والأحراش!.

والذي يتحدث عن العلوم. . . العلوم البحتة، لا ينسى الدين كذلك! أنه يذكر الناس بيوم كان الناس متدينين فكانوا لجهالتهم الشديدة ينسبون ما يحدث في الكون كله إلى الله! يا لجهالتهم لم يكونوا يعرفون القوانين الطبيعية التي تحكم الكون. . . أما «نحن» العلماء في القرن العشرين. . .

والذي يتحدث في الفن. . . يزري بتلك الأيام التي كان التحدث عن الجنس فيها يعتبر «عيباً» تأباه الأخلاق! تباً لكم أيها المتأخرون كم كنتم تحجبون من ألوان الجمال الممتع البهيج الأخاذ! انظروا إلينا نحن المتحررين! اليوم نحن نجعل الجنس فناً قائماً بذاته. . . لحظة الجنس «كون» كامل. . . تعالوا نتتبعه من جميع أقطاره. . . تعالوا نصفه داخل النفوس وفي واقع الحياة. . . تعالوا نكشف متعه ومباهجه. . . تعالوا نعرّ الناس ذكوراً وإناثاً ونطلقهم ينشطون نشاط الجنس. . . ونمسك الكاميرا للتسجيل»(٣).

والذي يتحدث في السياسة يرثي لحال الانسان أيام القرون الأولى حين كان يحتكم ويخضع لقوانين غيبية لا يد له في وضعها، وكان محروماً باسم الطاعة الالهية من كل حقوقه وحرياته!!. . . إلخ من يكتبون ويبحثون. . .

هذا على صعيد الفكر والبحث فماذا على صعيد الحياة العملية!

---

(٣) التطور والثبات: ١٤٩ ــ ١٥٠.

إن الشرق الشيوعي يعترف صراحة بأنه قد قضى أو في سبيل القضاء على كل شكل من أشكال العبادة والمظاهـر الدينيـة حتى الشخصي منها، ولذا فلا حاجة للحديث حوله أما الغرب الرأسمالي الذي يقول أن علمانيته من الطراز اللاديني(Non- Religious) وليست من الطراز المضاد للدين (Anti-Religious) فإن الأمر في ظاهره يبدو مختلفاً بعض الشيء:

إن دعاة اللادينية من المخادعين والمخدوعين هناك يقولون أنه لا ضرر على الدين من قيام الحياة على اللادين!! فالكنائس ستظل مفتوحة بل إن عددها ليزداد وهناك يوم الأحد حيث تقفل الدوائر الرسمية وغير الرسمية أبوابها في حين يكون وعاظ الكنائس ومنشدوها في ذروة نشاطهم، وهناك الحرية الشخصية التي لا تضع على حرية العقيدة أي قيد وتتيح لأي متحمس للدين أن ينضم إلى سلك الرهبانية أو يشترك في جمعية خيرية أو يسافر ضمن بعثة تبشيرية إلى الخارج، وله الحق أن يوصي عند احتضاره بكل تركته وقفاً على الكنيسة.

كما أن من حق الكنيسة أن تقيم طقوسها ومراسمها وحفلاتها بلا اعتراض من الدولة بل إن رجال الحكومة أحيـاناً يتشـرفون بحضورها.

أما الزواج فلا تزال غالبية الجماهير ترى ولو نظرياً أن إقامة طقسه في الكنيسة أفضل من العقود المدنية أو الزواج بلا عقد.

وكل هذه الأمور ــ في نظرهم ــ تجعل الدين يحتفظ بمكانته ــ ونفوذه ــ ضمن دائرته الخاصة بطبيعة الحال ــ وتتيح له أن يوجه أتباعه ــ في نطاق هذه الدائرة ــ كما يشاء. ومعنى ذلك أن المخاوف

التي يبديها بعض الناس على الدين من جراء تعميم الاجـراءات التطبيقية للادينية على مستويات الحياة عامة لا مبرر لها إطلاقاً!

ومن نافلة القول أن نقول إن الدين كما أنزله الله لا يصح بحال أن ينعزل في زاوية من زوايا الحياة أياً كانت، لكننا نقول بالنسبة لأوروبا أنه حتى هذه الزاوية التي يوهم دعاة اللادينية الناس بأنهم تركوها للدين لم تظل دينية خالصة بل طغت عليها موجة التحلل من الدين حتى أفقدتها معناها وتركتها مظاهر صورية جوفاء لا أثر لها في مشاعر الناس ولا في سلوكهم.

وليس ذلك بغريب فإن طبيعة التصور والتطبيق العلماني تقوم على أن «ما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم» كما أن طبيعة الحياة ـ بل سنة الله فيها ـ وطبيعة النفس البشرية لا تسمح أبداً بأن يعيش الدين واللادين وينموا باطراد في مجتمع واحد أو نفس واحدة.

ولذلك فإن المجتمع الغربي منذ مطلع القرن العشرين قد تخلى حقيقة عن الدين، فقد «كان مفهوم الدين نفسه قد حط من مقامه وأصبح لا يعني سوى واحد من أمرين: الطقوس المتحجرة التي كان يتبعها أولئك الذين كانوا متمسكين عن طريق العادة ـ والعادة فقط بتراثهم الديني، أو اللامبالاة الساخرة من قبل أولئك الذين كانوا «أحراراً» بدرجة أكبر والذين كانوا يعتبرون الدين خرافة عتيقة يمكن للمرء في بعض المناسبات أن يمتثل لها خارجياً ولكنه يخجل منها في سره كما يخجل من شيء لا يمكن أن يدافع عنه عقلياً»(٤).

وقد أراد أحد الصحفيين الأميركيين أن يعبر عن مدى طغيان المادية وانحسار الدين فقال:

---

(٤) الطريق إلى الإسلام: ٨٢.

«إن الانجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة»[٥] لكن الواقع أن الأمر أشد من ذلك، فإن الذين يذهبون يوم الأحد إلى الكنيسة هم قلة ضئيلة ثم أن هذه القلة لا تجد من الدين في الكنيسة ما يمس شغاف قلوبها بل ربما وجدت من مظاهر الفساد ودواعي اللذة ما لا تجده في الأماكن المعدة لذلك.

لننظر إلى اليوم ــ أو على الأصح الساعة التي يمن اللادينيون على الدين أنهم تركوها له ما مقدار أثرها وعطائها؟

يقول الأديب الأميركي الشهير «أمرسن» (١٨٨٢):

«إن يوم الدين قد فقد الآن عند القسيس سناء الطبيعة إنه يوم بغيض يسرنا انقضاؤه... إننا ننكمش عندما تبدأ الصلاة التي لا تسمو بنا وإنما تقضي علينا وتسيء إلينا وإنا حينئذ لنتوق أن نلتف في أرديتنا ونلتمس مكاناً معتزلاً لا نستمع فيه إلى أحد، أصغيت مرة إلى واعظ فأغراني بشدة إلى أن أقول أني لن أقصد الكنيسة مرة أخرى، فالناس كما ظننت يذهبون إلى ما ألفوا الذهاب إليه وإلا لما قصد أحد المعبد في المساء»[٦].

ويقول أن «الدعوات بل والعقائد الثابتة في كنائسنا أشبه شيء بالبرج الفلكي في دندرة أو الآثار الفلكية عند الهندوس تنعزل انعزالاً تاماً عن أي شيء مما يوجد اليوم في حياة الناس وأعمالهم.

«واحسرتاه على الرجل التعس الذي يدعى إلى اعتلاء المنصة (للوعظ) ولا يعطي خبز الحياة، إن كل ما يقع تهمة له. هل يطلب المعونة للإرساليات الأجنبية والداخلية؟ أم هل يحث الناس على طريقة

---

(٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ١٨٢.
(٦) مختارات من مقالات أمرسن: ٣٧.

ربانية للعيش؟ وهل يستطيع أن يطلب إلى زميل له أن يأتي إلى الاجتماعات الدينية يوم السبت في حين أنه وهم جميعاً يعرفون أن أقصى ما يتوقعونه هناك ضئيل؟ وهل يدعوهم دعوة خاصة للعشاء الرباني؟ إنه لا يجرؤ على ذلك وإذا كان القلب لا يدفىء هذه الشعائر فإن صوريتها الجوفاء الجافة الصارخة تصبح واضحة، فلا يستطيع أن يجابه رجلاً ذا فطنة ويدعوه بغير وجل وماذا عساه قائل في الشارع للقروي الجريء الذي يكفر بالله؟ إن القروي الكافر يرى الخوف في وجه القسيس وهيئته ومشيته».

«لا أحسب أحداً يستطيع أن يقصد إحدى كنائسنا وأفكاره معه دون أن يحس أن ما كان للكنيسة من سلطان على الناس قد ولى أو هو في سبيل الانتهاء، لقد فقدت الكنيسة سيطرتها على عواطف الأخيار ومخاوف الأشرار، وأصبحت نصف الدوائر الدينية تنشد لمجرد النشيد، وبدأت البوادر تدل على أن الأخلاق والدين تختفي من الاجتماعات الدينية، سمعت رجلاً متديناً يقيم لليوم الديني وزنه يقول في مرارة القلب: يبدو أنه من الاثم أن يقصد المرء الكنيسة يوم الأحد»[٧].

ولقد مضى على وفاة أمرسن قرابة قرن من الزمان، فماذا عساه أن يكتب لو عاش في هذا العقد حيث وصلت الكنائس إلى الحد الذي يتحدث عنه من رصده عن كثب فقال:

«وبعد أن انتهت «الخدمة» الدينية في الكنيسة، واشترك في التراتيل فتية وفتيات من الأعضاء، وأدى الآخرون الصلاة. دلفنا من باب جانبي إلى ساحة الرقص الملاصقة لقاعة الصلاة... يصل بينهما باب... وصعد «الأب» إلى مكتبه وأخذ كل فتى بيد فتاة وبينهم

(٧) المصدر السابق: ٨٠ و٨٢.

وبينهن أولئك الذين واللواتي كانوا وكن يقومون بالترتيل ويقمن «وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والأضواء الزرقاء وقليل من المصابيح البيضاء وحمى الرقص على أنغام «الجرامفون» وسالت الساحة بالأقدام والسيقان والتفت الأذرع بالخصور والتقت الشفاه والصدور... وكان الجو كله غراماً... حين هبط الأب من مكتبه وألقى نظرة فاحصة على المكان ومن في المكان وشجع الجالسين والجالسات ممن لم يشتركوا في الحلبة على أن ينهضوا فيشاركوا وكأنما لحظ أن المصابيح البيضاء تزيد نسبتها فتفسد ذلك الجو «الرومانسي» الحالم، فراح في رشاقة الأميركاني وخفته، يطفئها واحداً واحداً وهو يتحاشى أن يعطل حركة الرقص أو يصدم «زوجاً» من الراقصين في الساحة... ويبدأ المكان بالفعل أكثر «رومانسية» ثم تقدم إلى «الجرامفون» ليختار أسطوانة للرقص تناسب ذلك الجو وتشجع القاعدين والقاعدات على المشاركة فيه. واختار... إختار أغنية أميركية مشهورة إسمها (But Baby it is cold outside) (ولكن الجو ــ يا صغيرتي ــ بارد في الخارج).

وهي تتضمن حواراً بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهما وقد احتجزها الفتى في داره وهي تدعوه أن يدعها تمضي لتعود إلى دارها فقد تأخر الليل وأمها تنتظرها، وكلما تذرعت بحجة أجابها بتلك «اللازمة» (ولكن الجو يا صغيرتي بارد في الخارج).

«وانتظر الأب حتى رأى خطوات «بناته وبنيه» تنساب على موسيقى تلك الأغنية المثيرة وبدا راضياً مغتبطاً، وغادر ساحة الرقص إلى داره تاركاً لهم ولهن إتمام هذه السهرة اللذيذة البريئة... على أن يسلم مفتاح الكنيسة في داره آخر «زوج» ينصرف من الكنيسة فالانصراف يكون تباعاً حسب مزاج كل زوج!!!»[٨].

---

(٨) الإسلام ومشكلات الحضارة: سيد قطب: ٨٢ ــ ٨٣.

هكذا اضطرت الكنيسة إلى مسايرة الواقع بعد أن رأت الفتور المتزايد في إقبال الناس عليها فقد أصبحت الحفنة التي تقصدها هي مجموعة من العجائز الجاهلات والمتسولين وشواذ الناس.

وقد أقلقت هذه الحالة المتردية بعض المشفقين على الدين من الكتاب الاجتماعيين حتى قال اثنان منهم في كتاب أصدراه:

«قد يحسب البعض أنه ليس هناك من صلة مباشرة بين الحياة اليومية ومشاكل العيش من جهة وبين الدين من جهة ثانية، ولكن هذا الرأي كان يبدو غريباً لو عرض في القرون الوسطى مثلاً بل لعله كان يعد كفراً أو دعوة إلى الكفر في رأي الكنيسة آنذاك، لأن مجال الكنيسة كان يتناول كل ما قد يصدر عن الانسان من قول أو عمل، أما ابناء هذا العصر الذين بلغوا من حياتهم ما بلغوا بفضل فلسفات تحل العقل والمنطق فوق كل شيء فقد يصعب عليهم أن يفهموا فهمًا تاماً تلك الحقبة من الزمن التي كان يعيش فيها الانسان ضمن دائرة رسمتها له الكنيسة وقوانينها ونظمها».

«أُجري منذ زمن قريب استفتاء عن الدور الذي يلعبه الدين في حياتنا اليومية فكانت النتيجة أن الدين لا يلعب دوراً كبيراً على الأقل على المستوى الشعوري ــ في قرارات الآلاف من الأشخاص... وليس السبب أن هؤلاء غير متدينين فكثيرون منهم من رواد الكنائس بل السبب أنهم لا يرون صلة بين تصرفاتهم اليومية وبين تدينهم وأكثرهم يعترف بأن الدين لا ينفذ إلى أعماقهم، وطالما آلمت هذه الظاهرة الكثيرين خصوصاً رجال الكنيسة الذين يتنبهون إلى أنهم لم يبلغوا إلا القشور من الانسان وأنهم عجزوا عن إيصال الدين إلى صميم الانسان وأعماقه»[٩].

---

(٩) مارلى تشايلد وزميله: البداية أم النهاية: ٦، ١٢٧.

يقول الفيلسوف الانجليزي «جود»:

«سألت عشرين طالباً وتلميذة كلهم في أوائل العقد الثاني من أعمارهم: كم منهم مسيحي بأي معنى من معاني الكلمة، فلم يجب بـ «نعم» إلا ثلاثة فقط، وقال سبعة منهم: أنهم لم يفكروا في هذه المسألة أبداً، أما العشرة الباقية فقد صرحوا أنهم معادون للمسيحية»(١٠).

فإذا كان الدين قد فقد قيمته في قرارات النفوس ومشاعر الجمهور بهذه الصفة فهل يليق بأحد أن يسأل بعد عن دوره في واقع الحياة الغربية؟ وهل يمكن أن يكون ذلك إلا نتيجة العلمانية التي أطبقت على نواحي الحياة وتسربت في كيان الأفراد والجماعات؟

إن هذا المجتمع الذي يزعم أن علمانيته من النوع غير المضاد للدين هو نفسه الذي تجري فيه هذه الاستفتاءات وهو نفسه الذي قال أحد كتابه التربويين يصف العنت الذي لقيه من جراء حمله للكتاب المقدس لا تديناً بل هواية الاطلاع فقط.

«لقد قرأت الكتاب المقدس في العشرينات من عمري وليس ذلك أمراً عادياً إلا في تقليد الأسر المتدينة حيث تكون قراءة الكتاب المقدس طقساً من الطقوس (!) لقد كانت محنة أن أحمله معي في طريقي للعمل وفي عودتي على مدى أشهر، وقد تغلبت على المشكلة فلففته بالورق كما لو كان كتاباً من الكتب المدرسية، وبذلك أخفيته عن الأنظار كأنما هو شيء شائن (!) ومع ذلك فلم أكن لأفتحه في طريقي للعمل إلا أن من جلس بجواري استطاع أن يكتشفه فنظر إلي

---

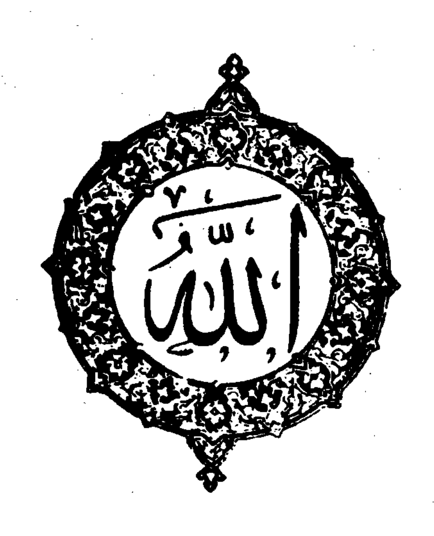
(١٠) عن ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ١٨٢.

شزراً كأنما كنت أمارس وضع أحمر الشفاه (!) وغالباً ما يظنك الناس قسيساً أو داعية دينياً متعصباً»[11].

فإذا كان هذا هو الحال والدين شيء شخصي محدود حسب المزاج فقط فهل بقي له بعد ذلك من شيء؟!.

---

(١١) رائد للثقافة العام: كورنيلوس هيرسبرغ: ١٥٤.


اللہ

الباب الرابع

العلمانية في الحياة الإسلامية

الفصل الأول

أسباب العلمانية في العالم الاسلامي

أولاً ـ إنحراف الأمة الإسلامية
ثانياً ـ التخطيط اليهودي الصليبي

الفصل الأول

أسباب العلمانية في العالم الإسلامي

أولاً — انحراف الأمة الإسلامية

الحديث عن تأخر الأمة الإسلامية وانحطاطها في القرون الأخيرة طويل ومتشعب ولكن السمة البارزة في ذلك التأخر تلك التي تجعله يتدنى عن مستوى فترات الإنحطاط السابقة هي الإنحراف عن فهم الإسلام نفسه وانحسار مفهوماته التصورية في معان ضيقة ومدلولات محدودة. وهذا الإنحراف هو نتيجة وسبب في آن واحد.

نتيجة للوهن الذي أصاب الأمة الإسلامية «حب الدنيا وكراهية الموت» والذل الذي ابتليت به عقوبة على ترك الجهاد بالمفهوم الواسع للكلمة. ومعلوم من فقه التربية الإيمانية أن الله يعاقب على الذنب بالذنب وهي أقسى صنوف العقوبات، وهكذا عوقبت الأمة الإسلامية على انحرافها العملي، والسلوكي بانحراف أشد منه في العقيدة والتصور.

وهو سبب لما تلاه من أحداث جسام ومخاطر جمة اجتاحت الرقعة الإسلامية من أقصاها إلى أدناها نذكر منها على سبيل التمثيل:

الركود العلمي العام الذي هيمن على الحياة الإسلامية في عصر كانت أوروبا فيه قد نفضت غبار الماضي وحثت الخطى على طريق

العلم والإكتشاف. والضعف المادي والمعنوي الذي جعل البلاد الإسلامية لقمة سائغة للكفار، وجعل أوروبا تلتهمها قطعة قطعة حتى كادت تسيطر على الحرمين الشريفين! ولقد كانت هزيمة العثمانيين في (سان جونار) وتقهقر المماليك السريع أمام نابليون مؤشراً واضحاً على هذين أي «الركود العلمي والضعف المادي والمعنوي» وبداية خطرة لنهاية الزعامة الإسلامية ليس على العالم بل على أرض الإسلام! وحين نقول أن هذا الإنحراف هو سبب التدهور والإنحطاط فإننا لا ننسى العوامل الخارجية المتمثلة في تفوق الكفار علمياً وعسكرياً والحقد الصليبي الأعمى الذي بث سراياه الفكرية المضللة جنباً إلى جنب مع السرايا الإستعمارية، لكن المنطق الإسلامي الثابت يؤكد أنه مهما بلغت القوة الخارجية ومهما كان التخطيط المضاد فإن المسلمين لن يؤتوا إلَّا من قبل أنفسهم، حسب القاعدة المطردة التي سنها الله تعالى ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ الأنفال ٨/٣٥. وأوضحها الرسول صلى الله عليه وسلم «ودعوت ربي ألَّا يهلك أمتي بسنة عامة وألَّا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم حتى يقاتل بعضهم بعضاً»[1].

ولذلك فمن الطبيعي أن يكون حديثنا عن أثر هذا الإنحراف في انتشار العلمانية في العالم الإسلامي أسبق وأولى من الحديث عن التخطيط اليهودي ـ النصراني الذي لا ننكر دوره في نشرها والذي لا يصح أن نغفل عنه أو نقلل قيمته.

وعلى سبيل الإجمال نستطيع أن نقول: كما أن العلمانية ظهرت في اوروبا نتيجة لتحرير الدين النصراني فقد ظهرت في العالم الإسلامي نتيجة انحراف المسلمين.

---

(١) مسلم مع النووي: ١٨/١٤ والترمذي: ٤٧٢/٤.

أما مظاهر هذا الإنحراف فيمكن إيجازها فيما يلي:

١ ـ الإنحراف في مفهوم الألوهية:

لن نتحدث الآن عن التضاد التام بين عقيدة «لا إله إلاّ الله» وبين العلمانية فلذلك الحديث موضع آخر لكننا سنتناول بإيجاز الحالة الواقعة تاريخياً في العصور الأخيرة الإسلامية:

إن بعض علماء السلف يقسمون توحيد الألوهية قسمين متلازمين:

(أ) توحيد الطاعة والأتباع (الحاكمية).

(ب) توحيد الإرادة والقصد (العبادة).

وجرياً على هذا التقسيم سنجد أن حالة الأمة الإسلامية كان كما يلي:

(أ) في الطاعة والأتباع (الحاكمية):

نسي المسلمون تلك القاعدة التوحيدية العظمى: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وغفلوا عن قوله تعالى ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ وبذلك صرفوا هذا النوع من العبادة أو جزءاً منه إلى الحكام والولاة وعلماء المذاهب المتعصبين ومشايخ الطرق الصوفية، بالإضافة إلى المشعوذين الذين تهيأ لهم الجو بما كان يسيطر على الأمة من جهل وسذاجة. وقد كانت الدول التي تتقاسم العالم الإسلامي ثلاث دول: الدولة المغولية في الهند، والدولة الصفوية في فارس، ثم الدولة العثمانية في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وبالنسبة للدولة الصفوية يمكن القول بأنها كانت منحرفة انحرافاً يجعل انتسابها للإسلام إسمياً فقط. فقد كانت شيعية رافضية وكان الحكم فيها يجري على آراء وأهواء علماء الشيعة المتعصبين، وكان

الشغل الشاغل لملوكها مهاجمة الدولة العثمانية لا لشيء إلّا لأنها سنيّة. وكان العوام يقدسون الملوك والعلماء جرياً على المذهب الرافضي الذي يجيز العصمة لغير الأنبياء(٢).

أما الدولة المغولية: فكانت باستثناء بعض الملوك مثل أورنك زيب جاهلة بحقيقة الإسلام. وكان فهمها له مختلطاً بكثير من الخرافات والتصورات الخاطئة، ولا غرابة في ذلك فإن المغول لم يعتنقوا الإسلام الصافي بل دخلوا فيه على الصورة التي وجدوا الأمة الإسلامية تعيشها في أواخر العصر العباسي الثاني حيث كانت الصراعات المذهبية والفكرية والطوائف الباطنية قد نخرت جسم الأمة مما هيأ لهم اكتساح العالم الإسلامي، وبعدها دخلوا في دين الأمة المغلوبة لا في صورته المثلى بل في صورته القائمة يومئذ.

هذا الجهل بالإضافة إلى كون المسلمين أقلية بين الهندوس جعل إلغاء الشريعة الإسلامية من قبل الإنجليز لا يقابل بكبير معارضة.

أما الدولة العثمانية: فعلى الرغم من كونها أصلح الدول الثلاث عقيدة وسلوكاً فإنها كانت بعيدة عن منهج الخلافة الراشدة بعداً يزداد أو يقل حسب نوعية خلفائها.

إن أي باحث نزيه لا يستطيع أن ينكر مآثر الدولة العثمانية ومزاياها التي تستحق الثناء والتقدير فهي التي جعلت المد الإسلامي في أوروبا الشرقية يبلغ مداه بعد أن فقد المسلمون بلادهم في أوروبا الغربية بسقوط الأندلس، وهي التي كسرت الكماشة الأوروبية التي كادت تطبق فكيها على العالم الإسلامي ولم تتمكن من ذلك إلّا بعد انهيار الدولة العثمانية.

---

(٢) انظر «الكافي» باب ان الأئمة معصومون من الخطأ بل انظر الحكومة الاسلامية للخميني ص ٥٢، ٩١ ط بيروت.

كما أن روح الحماس للدعوة الإسلامية ونشر الدين الإسلامي في أوروبا إحدى مآثرهم التي خلدها التاريخ[٣].

غير أن هذه المآثر لم تجنب الدولة العثمانية الإستمرار في خط الإنحراف الذي ورثته عن أسلافها ثم الزيادة فيه بحسن نية ودون وعي. ومن مظاهر ذلك فيما يتعلق بأصول الحكم ومنهجه أن الدولة العثمانية كانت تطبق عملياً المذهب الحنفي بتعصب وعارض علماؤها «شيوخ الإسلام» فتح باب الإجتهاد ذلك الذي أغلق منذ القرن الرابع لأسباب ليس هذا مجالها. وتتمثل هذه المعارضة في العداء الذي واجهت به الدولة الحركات والأفكار التجديدية التي كانت تنبذ الجمود وتدعو إلى الإنطلاق الفكري المستمد مباشرة من الكتاب والسنة كدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب ١٢٠٦ والإمام الشوكاني ١٢٥٠هـ والشيخ الألوسي ١٣٤٢هـ[٤] وغيرهم وكان من النتائج السيئة لذلك ما يلي:

١ ــ إستمرار الحكم على طريقة «الملك الجبرية» الوراثية الذي ابتدأ في عهد الأمويين وقد يقال إن هذا الأمر أقره العرف، وله إيجابياته لا سيما في أسرة مجاهدة كآل عثمان: ولكن كان في الإمكان على الأقل أن يكون مبدأ الشورى هو القاعدة الأساسية للحكم مع استمرار الخلافة وراثية إما أن تترك الأمور على تلك الحال فإن الطريق إلى الاستبداد والظلم مهيأة وهو ماحصل فعلاً من بعض السلاطين والولاة بصفة خاصة، ثم إن واقع الظروف العالمية كان يحتم ذلك، فقد كان معاصرو العثمانيين من أباطرة وملوك الغرب تضطرب عروشهم تحت مطارق الدعوات التحررية والمطالبة بالمشاركة في الحكم

---

(٣) انظر الفصل الخاص بالاتراك من كتاب: الدعوة إلى الإسلام، توماس ارنولد.
(٤) انظر مثلاً: الاتجاهات الفكرية والسياسية والاجتماعية..، على الحوافظة.

وحرية الشعب في إختيار الولاة. . . الخ فكان على الدولة العثمانية أن تتعظ بذلك وتقطع الطريق على دعاة التغريب بالعودة إلى الأصول الإسلامية الراشدة. نعم حاولت الدولة ذلك لكنها محاولة جاءت متأخرة بل كانت في الواقع بضغط من دعاة التغريب أنفسهم ولم تكن عملاً ذاتياً واعياً.

٢ ـ قصور الإستنباط الفقهي عن مجاراة الوقائع المحدثة: إن كون الشريعة الإسلامية منهجاً كاملاً شاملاً للحياة البشرية منذ نزولها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا يخرج شيء من أحداثها ووقائعها مهما استجد ومهما تغيرت الظروف والأحوال عن دائرتها الرحبة، لهو أمر بدهي في التصور الإسلامي، والشك فيه يعني بداهة اتهام الباري جل شأنه بالنقص والبداء ومن ثم فهو الكفر المحض.

وكون الحياة البشرية عرضة لتغيرات لا يدرك مداها أو وقائع حادثة لا يستطيع العقل البشري على الإطلاق أن يتصور أبعادها بحكم حجبه، عن علم الغيب، يجعل المجتهد في الشريعة مهما كانت سعة أفقه ودقة نظره يظل محصوراً بواقع بيئته وواقفاً عند النقطة التي وصلت إليها البشرية على خط سيرها الطويل.

هاتان الحقيقتان آمنت الأمة الإسلامية بأولاهما إيماناً جازماً وغابت الثانية عن أذهان البعض متأثرين بالواقع الذي ظل قروناً عديدة راكداً لا جديد فيه.

ومن هذا البعض كان خلفاء وعلماء الدولة العثمانية الذين عارضوا فتح باب الإجتهاد أو قيدوه في دائرة التراث المأثور عن فقهاء الحنفية السابقين. وفي الوقت الذي كان الفقه فيها جامداً كانت الحياة حسب سنة الله جارية متطورة. وبذلك حدث لأول مرة في تاريخ

المسلمين أن ضاقت دائرة الفقه الـواقعي بل والافتراضي[٥] عن الإحاطة بأحداث الحياة كلها، وكان الذي ضاق بطبيعة الحال هو فقه المتون والحواشي ولم تضق الشريعة نفسها وما كان لها أن تضيق.

يقول الشيخ محمد الغزالي:

«مع أن الزمن لا يقف، ومع أنه تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور ومع أن الجماعة الإنسانية تدخل في أطوار متباينة من ناحية العلاقات الدولية والأوضاع الإدارية والإقتصادية والسياسية، ومع ضرورة بقاء الدين مهيمناً على توجيه القافلة السائرة، مع هذا كله فإن التفكير الإسلامي الفقهي توقف في أغلب ميادين المعاملات إن لم يكن جمد فيها كلها، وأغلقت أبواب الإجتهاد بضعة قرون حتى انكسرت أخيراً تحت ضغط الحاجات الملحة وصحب إنكسارها فوضى منكرة في الفهم والتطبيق...»[٦].

والمؤسف إن الذي حصل أول الأمر هو أن باب الإجتهاد لم يفتح ولم يكسر بل استوردت القوانين الأجنبية الكافرة.

لكن الطريق الملتوية البطيئة التي سلكتها عملية الإستيراد والتي كان حسن النية أحد أسباب تقبلها لم تلفت الأنظار إلى خطورتها: فقد بدأت هذه الطريق باسم الإصلاح والتنظيم الذي تقتضيه الظروف الواقعية.

الجيش العثماني لم يعد يصلح أن يبقى مجموعات من المتطوعين يحملون السيوف ويمتطون الخيول فالظروف العسكرية الدولية تقتضي

(٥) يمتاز الفقه الحنفي بكثرة افتراض المسائل غير الواقعية وتقدير الاحكام لها لتكون جاهزة حال وقوعها.

(٦) الإسلام والطاقات المعطلة: ٩٨.

وجود جيش منظم مدرب يستخدم الوسائل الحديثة ويفرغ نفسه لمهمة الجهاد.

ووضع اللوائح النظامية لهذا الجيش لم يكن في مقدور مجلس العلماء لأنه كان بعيداً عن مثل هذه الشؤون التي يراها شكلية لا تستحق الإهتمام، كما أنه لم يكن في مقدور قادة الجيش نفسه لأن الجمود العلمي والذهني الذي ليس من الإسلام في شيء قد كاد يقضي على كل فرصة للتطور والإبداع. إذن ما الحل؟

لجأت الدولة العثمانية إلى ملوك أوروبا الذين كانوا لا يزالون في نظر العثمانيين حتى ذلك الحين خنازير حقيرة[(٧)] ـ يطلبون منهم إيفاد مدربين للجيش العثماني. وجاء المدربون من ألمانيا وفرنسا والسويد ولأول مرة في التاريخ الإسلامي يتولى تدريب وتنظيم الجيش الإسلامي خبراء كفرة.

وكانت هذه هي البداية ثم تلاها بعد ذلك ما تلاها.

عندما أريد إصلاح الجهاز الاداري استوردت أيضاً الطرائق الغربية في تقسيم الولايات وتنظيم وتحديد مسؤوليات الولاة والقضاة. وعندما أريد إصلاح الجهاز التعليمي بنيت المدارس ووضعت المناهج على نمط يحاكي النمط الأوروبي ويقتبس منه.

وعندما أريد إصلاح منهج الحكم أصر دعاة التغريب على أن تكون مجالس نيابية على الطريقة الغربية وأن يوضع دستور مكتوب ذو قواعد وبنود على النمط الأوروبي وكان لهم ما أرادوا.

وليس غرضنا الآن تفصيل هذه الأمور ولكن القصد هو إيضاح أن توحيد الطاعة والأتباع انتقص من حقه بطريقة غير واعية

(٧) انظر ما كتبه شبنجلر حول رحلة توماس مور إلى الباب العالي بشأن الحرب بين فرنسا وبريطانيا فقال له الصدر الأعظم: إن مولاي السلطان لا يهمه ان يقتتل كلبان بعيداً عن مملكته، فلا داعي لدخولك عليه.

ولا مقصودة. لقد نتج عن ضيق الدائرة الفقهية عن استيعاب الحياة أن ظلت القوانين المستوردة تحتل رويداً رويداً مواقع جديد من الحياة الإسلامية دون أن تلفت النظر إلى خطورتها إلى أن جاء الوقت الذي أصبح اقتباس هذه القوانين أمراً مقرراً ومنهجاً لا غبار عليه.

ومن الإنصاف والحق أن نقول أن تلك الاقتباسات كانت تأخذ صفة تنظيمية لا تشريعية وهكذا كان يسميها العثمانيون «تنظيمات» لكنها على أية حال مهدت الطريق إلى استيراد التشريعات لا سيما بعد تكوين «مجلس المبعوثان»(*).

وبذلك نصل إلى الغرض الأساسي وهو أن انحراف المسلمين ـ بجهلهم بحقيقة دينهم وسنة الله في الحياة وعجزهم عن مسايرة الأحداث ـ كانت المنفذ الرئيسي لتسرب العلمانية إلى الشرق المسلم.

(ب) الإنحراف في توحيد الإرادة والقصد (العبادة):

ظهرت الصوفية في العصر العباسي لأسباب تاريخية منها ضعف الخلافة المركزية أو انحرافها، وانغماس الناس في الترف وانصرافهم عن الاهتمام بالدار الآخرة.. غير أن الإنحراف قد أصاب الفرق الصوفية بدرجة تتناسب تناسباً عكسياً مع قربها من التمسك بالسنة والاقتداء بالسلف الصالح.

وكان من الأخطاء الأساسية في الفكر الصوفي النظرة العدائية إلى الحياة الدنيا تلك التي يبدو أنها متأثرة بالفكر البوذي والفلسفة الإشراقية. وحدث أن «أقبل العامة بقيادة المتصوفين ـ على الطقوس والأوراد وأقبل الحكام ومن في حواشيهم وركابهم على الشهوات والملذات! . وهذا الخلط الصوفي الأحمق، يعتبر أول صدع أصاب التفكير الإسلامي في صميمه بل أول تصدع أصاب كيان الأمة

(*) انظر ص ٥٥٧ من هذا الكتاب وتاريخ الدولة العلية العثمانية ومادة «تنظيمات» من دائرة المعارف الاسلامية «الاستشراقية».

الإسلامية ـ فيما بعد ـ بالإنهيار»[8] فقد نتج عن هذا الانفصام إنحسار مفهوم العبادة في دائرة الشعائر والأذكار، بل في الحقيقة كان الإلتزام بتلك النظرة يعني تعذر القيام ببعض أركان الإسلام لا سيما الزكاة.

والعبارة المنقولة عن بعض زعماء الصوفية عند سماع قوله تعالى ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ وهي «ونحن ما بالنا نفتر؟!» تنم في الواقع عن الجهل بحقيقة العبادة في الإسلام وغاية الوجود الإنساني على الأرض التي أوضحها القرآن الكريم تفصيلاً.

بعد أن كان المسلم ـ أياً كان عمله الدنيوي ـ يستشعر في قرارة نفسه أنه يعبد الله تعالى حتى وهو يكدح على عياله وحتى وهو يطلب العلم أو يعلمه وحتى وهو يجوب الأرض في طلب الرزق أو التعرف على المعمورة بلا انفصام أو ازدواجية ـ أصبح المريد وقد انحصر مفهوم العبادة لديه في الصلوات والأذكار يجد مساحة كبيرة من حياته فارغة فيلجأ إلى الشيخ لتعبئة هذا الفراغ، وعندها يقوم الشيخ بتشريع ما لم يأذن الله به فيكلف المريد بحفظ المتون الطويلة من الأوراد لترديدها وبآلاف التسبيحات، وأحياناً يكلفه بالسياحة في الأرض بلا زاد ليقوي يقينه ويصدق في توكله!! وبذلك أدى انحسار مفهوم العبادة إلى انحراف العبادة نفسها واستقائها من غير معين الكتاب والسنة.

ولندع الصوفية أنفسهم ولننظر إلى أثرهم المعنوي في الأمة: كان ضمير الفرد العادي من العامة يستشعر الحيرة والألم وهو يرى الناس فئتين:

---

(٨) الإسلام المفترى عليه، محمد الغزالي: ٦٨

فئة صالحة تعمل للآخرة وتتقرب إلى الله بأنواع الطاعات والقربات لكنها لا حظ لها من الدنيا، وأخرى فاسقة عاصية مقصرة في حق الله تعالى تتمتع بملاذ الحياة ونعيمها، ولا يكاد يرى لهاتين ثالثة. ويبدو الخيار أمامه صعباً أيكون مع الأولى فيقضي على نفسه بالحرمان والفاقة، أو ينضم إلى الثانية فيقع في المحارم؟.

ومعظم الأمة بطبيعة الحال لم ينقطعوا عن الدنيا لكنهم كانوا يعملون فيها والإحساس بالندم والذنب ينتابهم لأنهم يرون أنهم لا يعبدون الله حين يقومون بذلك وغاب عنهم أن ذلك جزء من الغاية العظمى التي خلقوا لأجلها!.

وكل هذه الإنحرافات وقعت قبل احتكاك الغرب اللاديني بالشرق بل قبل قيام الدولة العثمانية.

وعندما سيطر العثمانيون ازداد الأمر سوءاً وتطورت الإنحرافات حتى توهم الناس أن العبادة نفسها هي بالدرجة الأولى ما يأمر به المشايخ والأولياء من البدع، ووقعت الأمة في شرك حقيقي بما كان السذج والجهلة بل وبعض العلماء يمارسونه من بدع الأضرحة والمشاهد والمزارات وتقديس الموتى والإعتماد عليهم في جلب النفع ودفع الضرر، ووصل الأمر إلى حالة مزرية جداً حين كانت جيوش المستعمرين تقتحم المدن الإسلامية والمسلمون يستصرخون السيد أو الولي الذي كان قد مضى على وفاته مئات السنين![٩].

وامتد البلاء إلى الأربطة والثغور التي بنيت أساساً للجهاد

---

(٩) من ذلك البيت المشهور:

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر.

انظر ركائز الايمان، ٣٣٨، وقصة العنزالمقدسة!، الجبرتي: ٤٠١/١ ـ ٤٠٣.

ومقارعة الكفار إذ تحولت إلى زوايا وتكايا للصوفية وفي أحسن الأحوال أصبحت مدارس علمية صرفة لا أثر للتربية الجهادية فيها وحتى مناهجها التعليمية كانت متخلفة ومحدودة(١٠).

وبالإضافة إلى الصوفية ساعد الفقهاء المتأخرون وكتب الفقه المبوبة ـ من غير قصد ـ على مد هذا الإنحراف بتقسيمهم الأحكام الشرعية إلى عبادات ومعاملات واضعين في القسم الأول الأحكام التعبدية المحضة، وفي الآخر الأحكام التعبدية المتعلقة بالنشاط الإجتماعي والإقتصادي وما شاكلها، لم يقولوا ولم يعتقدوا أن القسم الثاني ليس عبادياً لكنهم وضعوا القسمة لاعتبارات فنية إصطلاحية لا تمس جوهر الموضوعات، ولا أدل على ذلك من أن الكتب الفقهية المؤلفة في القرنين الأول والثاني وكذلك كتب السنة بصفة عامة تخلوان من هذه القسمة غير أن هذا التقسيم أصبح ـ بعد ظهور وانتشار الصوفية وحدوث الإنفصام العملي في الحياة الإسلامية ـ أصبح من دعائم هذا الإنفصام، يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: «إن تقسيم النشاط الإنساني إلى عبادات و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة «الفقه» ومع أنه كان المقصود به في أول الأمر مجرد التقسيم «الفني» الذي هو طابع التأليف العلمي، إلّا أنه ـ مع الأسف ـ أنشأ فيما بعد آثاراً سيئة في التصور، تبعته ـ بعد فترة ـ آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها. إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله «فقه العبادات» بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله «فقه

---

(١٠) انتشرت الزوايا على السواحل الإسلامية للبحر الأبيض وخاصة في الشمال الأفريقي، وقد أعادت الحركة السنوسية إليها الصبغة الجهادية فترة من الزمان.

المعاملات»! وهي انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي»[11].

وانبثق من هذا الإنحراف وواكبه انحراف في مفهوم آخر هو ركن من أركان الإيمان وهو «القدر»:

٢ ـ الإنحراف في مفهوم الإيمان بالقدر:

لقد كتب أحد المستشرقين الألمان وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم الأخيرة يقول:

«طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار. وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان: ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دوراً كبيراً في الحروب إذ حققت نصراً متواصلاً لأنها دفعت في الجندي روح الفداء، وفي العصور الأخيرة كانت سبباً في الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي فقذف به إلى الإنحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية»[12].

إن هذا الرجل وهو كافر أدرك هذه الحقيقة: حقيقة الفرق بين الإيمان بالقدر كما فهمه السلف وبين الإيمان الذين ابتدعه الخلف متأثرين بالمتصوفة. فالذنب ليس ذنب العقيدة بل ذنب المعتقدين. وقد صاغ ذلك شاعر الإسلام محمد إقبال شعراً فقال:

من القرآن قد تركوا المساعي ... وبالقرآن قد ملكوا الثريا
إلى التقدير ردوا كل سعي ... وكان زماعهم قدراً خفيا
تبدلت الضمائر في اسار ... فما كرهوه صار لهم رضيا[13]

---

(١١) خصائص التصور الإسلامي: ١٣١.
(١٢) باول شمتز، الإسلام قوة الغد العالمية: ٧٨.
(١٣) ضرب الكليم: ٩.

نعم، لا شك أن ما أصاب المسلمين من ذل وهوان وهزائم معنوية وحسية كان بقدر الله الذي لا يقع في كونه إلا ما يريد ولا يخفى عليه شيء بل سيان في علمه ما كان وما سيكون، لكن المسلمين في العصور الأخيرة حرفوا هذا المفهوم فاتخذوا من الإيمان بالقدر مبرراً واهياً لعجزهم وانهيارهم متناسين إن أقدار الله إنما تجري عليهم وفق سننه الثابتة التي أوضحها لهم لكنهم غفلوا عنها وأهملوها، فالمسؤولية مسؤوليتهم وحدهم ولا يظلم ربك أحداً.

لقد انقلب التوكل الذي كان الباعث القوي لحركة الجهاد والانطلاق في الأرض بأسباب الحياة إلى تواكل رخيص مذموم سماه المتصوفة «يقيناً» وسماه الآخرون «قناعة» واحتسبه الكل عند الله!

يقول الإمام أبو حامد الغزالي (٥٠٥ هـ) ــ وهو يعد من معتدلي الصوفية ــ في بيان مقامات التوكل:

«الأول: مقام الخوّاص ونظرائه وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعاً وما فوقه، أو تيسير حشيش له أو قوت، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك.. المقام الثاني: أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأمصار وهذا أضعف من الأول، ولكنه أيضاً متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية، ولكنه بالقعود في الأمصار يتعرض لأسباب الرزق...»(١٤).

وإذا علمنا أن هذا الكلام يكتب والحملات الصليبية على أشدها أدركنا مدى الإنحراف...

---

(١٤) احياء علوم الدين ٤/٣٣٣، والخوّاص أحد مشهوري الزهاد المتصوفة.

لقد استسلم المسلمون لنوم طويل ـ محتجين بالقدر ـ فلم يوقظهم إلاّ هدير الحضارة الغربية وهي تدك معاقلهم وتقتحم حصونهم، وكانت المفاجأة المذهلة التي زعزعت إيمان الأمة بدينها، وهو الإيمان الذي كان خامداً بارداً لا حراك له، وفي لحظة الإنبهار والإنذهال هذه، قال المستشرقون والمبشرون وأذنابهم: أن الدين ـ وعقيدة القدر خاصة ـ هو سبب التأخر والجمود في العالم الإسلامي، وصدقهم المغفلون الذين كانوا لا يعرفون من شعائر الدين إلاّ ما رسمه لهم مشايخ الطرق من صلوات وأوراد، ولا من قواعده إلاّ أن من الإيمان أن يرضى المرء بما كتب له ـ على المفهوم الخاطىء لها ـ، وباسم الزهد في الدنيا، والإستسلام الخانع للذل والفقر ـ تحت ستار الإيمان بالقدر ـ وهما ما تطوعت به الطرق الصوفية وشجعته البيئة الجاهلة المنحطة ـ تقهقرت الحضارة الإسلامية وذبلت حتى لفظت أنفاسها على يد الغزو العسكري والحضاري القادم من الغرب.

ذلك أن المعادلة الخاطئة التي كانت تقول أن الصلاح قرين الفقر والفساد صنو الغنى، قد تطورت واتخذت بعد اليقظة المنبهرة شكلاً آخر فأصبحت تقول: أن الكفر والدنيا قرينان والدين والتأخر قرينان.

وكان هذا هوالظاهر من حال أوروبا والعالم الإسلامي في أوهام العامة: إن أوروبا كافرة وبيدها مقاليد الدنيا ونحن مسلمون ـ على المفهوم الخاطىء طبعاً للإسلام ـ وفي الوقت نفسه متأخرون!

وليس من شأننا الآن مناقشة هذه الأفكار وإنما هدفنا أن نعرضها بإيجاز بالغ لنصل إلى النتيجة النهائية، وهي أن هذا الإنحراف في التصورات الإسلامية كان المنفذ الذي تسربت منه العلمانية كإحدى مظاهر الغزو الفكري لتقول للناس أن الدين لا علاقه له بالحياة ولا

بالسلوك العملي وإنما هو رابطة قلبية بين العبد وربه يستحق بها النجاة والفوز في العالم الأخروى.

صحيح أن العلمانية فكرة أجنبية وفدت إلينا مع الإستعمار ودعمت بأذياله ومؤسساته الظاهرة والخفية ولكن شيئاً من ذلك ما كان ليحدث لولا أننا كنا مصابين بما أسماه مالك بن نبي «قابلية الإستعمار» أو كما سماه العلامة المودودي «قابلية الإستعباد»(١٥).

ولا أدل على ذلك من أن الأمة الإسلامية تعرضت للغزو الصليبي ثم لهجمة التتار الشرسة وخسرت المعركة سنين طويلة غير أنه لم يدر بخلدها أن تخنع للأمة الغالبة أو أن تقتبس شيئاً من مناهجها ونظمها وتقاليدها. ومع استيعابنا لهذه الحقيقة نورد نماذج من المسلمين المفتونين بالحضارة الغربية باعتبارهم دعامة من الدعامات الأساسية التي ارتكزت عليها العلمانية في العالم الإسلامي:

نماذج
لتقبل المسلمين الذاتي للأفكار العلمانية

لقد سبق الحديث عن الثورة الفرنسية وطبيعتها اللادينية والأثر التلمودي فيها، كما أننا تحدثنا عن المذهب الطبيعي «الفيزيوقراطي» في فصل السياسة والإقتصاد، وفي فصل الصراع بين الدين والعلم عرضنا أيضاً للفلاسفة الطبيعيين وآرائهم.

والآن لنقرأ هذه الإقتباسات من كلام شيخ مسلم درس في فرنسا لنرى كيف أنه يذكرنا بما سبق الحديث عنه هناك وكأنما هو يترجم مع الشرح عبارات روسو وفولتير التي أوردنا نماذج منها سلفاً.

---

(١٥) الأولى في كتابة شروط النهضة والثاني في كتابه: واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم

«ومن زاول علم أصول الفقه، وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد جزم بأن جميع الإسنباطات العقلية التي وصلت عقول أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها وجعلوها أساساً لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم، قلّ أن تخرج عن تلك الأصول التي بنيت عليها الفروع الفقهية التي عليها مدار المعاملات. فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يشبه ما يسمى عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية، وهو عبارة عن قواعد عقلية تحسيناً وتقبيحاً، يؤسسون عليها أحكام المدنية. وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية، وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولع بحمايته مما يفضلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة يسمونه محبة الوطن».

... «ولما كانت أعمال كل نوع من أنواع المخلوقات وكل عضو من أعضاء فرد ذلك النوع منقادة لنواميس طبيعية عمومية خصته به الحكمة الإلهية كان لا يمكن مخالفة هذه النواميس بدون اختلال للنظام العام والخاص، وهذه النواميس الطبيعية التي خصت بها العالم القدرة الإلهية عامة للإنسان وغيره... فينبغي للإنسان أن لا يتجارى على هذه الأسباب ويتعدى حدودها، حيث أن المسببات الناتجة عنها منتظمة محققة... فعلى الإنسان أن يطبق أعماله على هذه الأسباب التي تقدم ذكرها ويتمسك بها وإلّا عوقب عقاباً إلهياً لمخالفة خالق هذه الأسباب... وأغلب هذه النواميس الطبيعية لا يخرج عنها حكم الأحكام الشرعية، فهي فطرية خلقها الله سبحانه وتعالى مع الإنسان وجعلها ملازمة له في الوجود، فكأنها قالب له نسجت على منواله وطبعت على مثاله وكأنما هي سطرت في لوح فؤاده بإلهام إلهي بدون واسطة، جاءت بعدها شرائع الأنبياء بالواسطة وبالكتب التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فهي سابقة على تشريع الشرائع عند الأمم والملل، وعليها في أزمان الفترة تأسست قوانين الحكماء

الأول وقدماء الدول وحصل منها الإرشاد إلى طرق المعاش في الأزمنة الخالية كما ظهر منها التوصل إلى نوع من انتظام الجمعيات التأنسية عند قدماء مصر والعراق وفارس واليونان، وكان ذلك من لطف الله تعالى بالنوع البشري حيث هداهم لمعاشهم بظهور حكماء فيهم يقننون القوانين المدنية لا سيما الضرورية لحفظ المال والنفس والنسل . . .»[١٦].

ويقول في مؤلف آخر مثنياً على الدستور الفرنسي «الشرطة»:

«فيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل. . . ومعنى الشرطة في اللغة اللاتينية ورقه، ثم تسومح فيها فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة، فلنذكره لك وإن كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعرف كيف قد حكم عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد، وكيف انقادت الحكام والرعايا، لذلك عمرت بلادهم وكثرت مصارفهم وتراكم بناهم وارتاحت قلوبهم، فلا تسمع فيها من يشكو ظلمًا أبداً والعدل أساس العمران»[١٧].

ويقول شيخ آخر معاصر له بوجوب «تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الاعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي أن يهجر وتآليفهم في ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر».

وهو يعني بذلك اقتباس الطرائق الغربية في الحكم كالدستور المدون والمجالس النيابية. . . الخ إذ يقول عن الممالك الاوروبية:

---

(١٦) رفاعة الطهطاوي. المرشد الأمين: ٣٦ ــ ٣٨.

(١٧) تخليص الأبريز ١٤٠

«وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي وتسهيل طرق الثورة... وملاك ذلك كله الأمن والعدل اللذان صارا طبيعة في بلدانهم، وقد جرت عادة الله (كذا) في بلاده أن العدل وحسن التدبير والتراتيب المحفوظة من أسباب نمو الأموال والأنفس والثمرات». ويقول مؤيداً ومستشهداً:

«سمعت من بعض أعيان أوروبا ما معناه (أن التمدن الاورباوي تدفق سيله في الأرض فلا يعارضه شيء إلاّ استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار إلاّ إذا أخذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاتهم من الغرق»[18].

أما جمال الدين الأسد آبادي المشهور بالأفغاني فهو يقول بصراحة:

«إن الأمة هي مصدر القوة والحكم وإرادةالشعب هي القانون المتبع للشعب والقانون الذي يجب على كل حاكم أن يكون خادماً له وأميناً»[19].

ويقول أحد المتأثرين به وهو عبد الله النديم:

«ولئن قيل أن التجارب دلتنا على أن الشورى لا تنجح في الشرق أو أن الشرقيين غير عقلاء كما يزعم محبو الأثرة والانفراد بالتسلط، قلنا أن اتحاد الشرقي مع الغربي في الخلق يرد هذه الدعوى الباطلة، وإنما ثار الغربيون على العمل بالشورى وأخذوا يصححون

---

(١٨) خير الدين التونسي: اقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك: ٩٠، ٩٨، ١٦٦.
(١٩) الاتجاهات الفكرية والسياسية والاجتماعية: علي الحوافظة: ١٠٢.

الأغاليط ويراجعون الأخطاء ويتبادلون الجدل عن عزائم صادقة حتى تربت الملكات وتصورت المطالب أمامهم بصور الواقعيات»[٢٠].

ومن أوضح الأدلة على تأثر المسلمين بالغرب وتقبلهم للفكر الدخيل ما نراه في كلام جمال الدين المذكور وتلامذته من محاولة ـ لعلها الأولى في التاريخ الإسلامي ـ للتقريب بين الإسلام والمذاهب البشرية الوضعية، فهو يقول عن الإشتراكية:

«وهكذا دعوى الإشتراكية. . . وإن قل نصراؤها اليوم فلا بد أن تسود في العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح ويعرف الإنسان أنه وأخاه من طين واحد أو نسمة واحدة وإن التفاضل أنما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع». ويقول «أما الإشتراكية في الإسلام فهي ملتحمة مع الدين الإسلامي ملتصقة في خلق أهله، منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية، وأول من عمل بالإشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة، وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية كذلك من أكابر الصحابة أيضاً»[٢١]. أما تلميذه الشيخ محمد عبده فيستحسن الأنظمة الجمهورية النيابية معتقداً أنها هي الوسيلة الحديثة للشورى الإسلامية، يقول:

«والمبايعة لا تتوقف على صحتها على الشورى ولكن قد يحتاج فيها إلى الشورى لأجل جمع الكلمة على واحد ترضاه الأمة فإذا أمكن ذلك بغير تشاور بين أهل الحل والعقد كأن جعلوا ذلك بالإنتخاب المعروف الآن في الحكومة الجمهورية وما هو في معناها حصل المقصود»[٢٢].

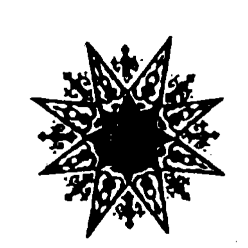
---

(٢٠) المصدر السابق: ١٠٤.

(٢١) المصدر السابق: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢٢) تفسير المنار: ٤/٢٠٣، وللشيخ دور آخر سيأتي الحديث عنه في فصل تال.

ونحن لا نورد هذه الأقوال إلّا لغرض واحد هو بيان انبهار الأمة الإسلامية بالغرب ونظمه واستعدادها الذاتي للتلقي عنه تلقّياً تدل هذه الشواهد وغيرها أنه لن يكون فيه تمييز ولا اختيار. وإذا كان هؤلاء وأمثالهم تطوعوا بتسويغ النظم اللادينية في أمتهم، وهيأوا النفسية الإسلامية لتقبلها مندفعين بدوافع نفسية ذاتية ـ وهو أمر قابل للجدال ـ فقد جاء بعدهم أناس مغرضون صرحاء اتخذتهم القوى المتآمرة على الإسلام أصابع لمخططاتها ومعاول لهدم الكيان المادي والمعنوي للأمة الإسلامية وهؤلاء نؤجل الحديث عنهم إلى فصوله المناسبة على أن الدلالة المشتركة بين أولئك وهؤلاء هي أن الأمة الإسلامية نفسها هي المسؤولة أولاً وآخراً عن الغزو الفكري والحرب النفسية الشرسة على الإسلام والتي كانت دعاوى العلمانية إحدى طلائعها.



ثانياً ـ التخطيط اليهودي الصليبي

ليس في تاريخ العداوات عداوة تماثل في شراستها وأبديتها ذلك النوع الذي تواجه به طوائف اليهود والنصارى الأمة الإسلامية.

إن هذه العداوات المتغلغلة العميقة ليس موضوعها خلافاً مذهبياً ولا نزاعاً سياسياً ولا مطامع اقتصادية أي أنها باختصار ليست مما يمكن تسويته واجتثاث آثاره.

ولا يفلح في تعليلها مايقوله المستشرقون ومنهم «جب» من أنه «حدث قبل في حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) أن بدأت تتشابك سيوف المسلمين والمسيحيين وظلت كذلك حتى اليوم، ولهذا ظل العالم المسيحي الاوروبي عدو الإسلام الألد[1]»، لأن هذه الحروب نتيجة وليست سبباً وإلّا فما الداعي لنشوب هذه الحروب أصلاً؟ وكم عرف التاريخ من حروب أعقبتها صداقات وعلاقات، إن القضية أبعد من ذلك وأعمق. إنها قضية حق وباطل، نور وظلام، يقين وخرافة ومن هنا كانت الشقة بعيدة وكان اللقاء مستحيلاً.

ومع إدراكنا لهذا فلا علينا أن نتحدث عن الدور الذي أدته الحروب الصليبية في هذا الشأن. المهم أن نبحثه باعتبارها مظهراً للعداوة

(١) وجهة الإسلام: ١٧ ـ ١٨.

لا علة فيها. إن العلاقة بين البلاد الإسلامية وبين أوروبا خاصة ـ بصفتها مهد العلمانية ـ لا يمكن أن تدرس بغير الحروب الصليبية.

فهذه الحروب أضفت على تلك العداوة الأبدية الراسخة مظهراً جديداً وأذكت فيها روحاً مغايرة، وبذلك اختلفت آثارها ونتائجها عن الحروب السابقة الأخرى التي لم تنطفىء قط.

ولـذلك الأمـر سبب نفسي يتعلق بوجـود أوروبا وتكـوينها السياسي والإجتماعي والحضاري بصفة عامة، وهـو أن الحروب الصليبية «حدثت في أثناء طفولة أوروبة في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية قد أخذت تعرض نفسها وكانت لا تزال في طور تشكلها. والشعوب كالأفراد، إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التي تحدث في أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطناً مدى الحياة التالية وتظل تلك المؤثرات محفورة حفراً عميقاً حتى أنه لا يمكن للتجارب العقلية في الدور المتأخر من الحياة والمتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلاّ بصعوبة، ثم يندر أن تزول آثارها تماماً.

«وهكذا كان شأن الحروب الصليبية فإنها أحدثت أثراً من أعمق الآثار وأبقاها في نفسية الشعب الأوروبي، وأن الحمية الجاهلية العامة التي أثارتها تلك الحروب في زمنها لا يمكن أن تقارن بشيء خبرته أوروبة من قبل، ولا اتفق لها من بعد، لقد اجتاحت القارة كلها موجة من النشوة، كانت ـ في مدة على الأقل ـ عنفواناً تخطى الحدود التي بين البلدان والتي بين الشعوب والتي بين الطبقات، ولقد اتفق في ذلك الحين، وللمرة الأولى في التاريخ أن أوروبة أدركت في نفسها وحدة، ولكنها وحدة في وجه العالم الإسلامي ويمكننا أن نقول من غير أن نوغل في المبالغة أن أوروبا ولدت من روح الحروب الصليبية. . . ولدت فكرة «المدنية الغربية» وأصبحت هدفاً واحداً تسعى إليه جميع

الشعوب الأوروبية على السواء، وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للإسلام وقفت عُرّاباً في هذه الولادة الجديدة»[٢].

هذا التحليل العميق الواعي يقضي على كل التساؤلات حول استمرارية العداوة بين أوروبا والمسلمين ويلغي زيف الشبهات التي تقول أن عداوة أوروبا تنطلق من دوافع غير دينية، أو أن الحروب الصليبية نفسها كانت حرباً اقتصادية!.

لقد تلا الحروب الصليبية تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس بصفة لا نظير لها في التاريخ ثم كان سقوط القسطنطينية في أيدي المسلمين حادثاً رهيباً أذهب عن أوروبا حلاوة انتصارها في الأندلس، وبعدها جاءت طلائع الحروب الصليبية متخفية برايات المكتشفين الجغرافيين، ثم جاءت الروح الصليبية كامنة في مدافع نابليون التي تضعنا على أول محاولة ضخمة من أوروبا الحديثة لاستئصال شأفة الإسلام وبذر جذور اللادينية في أبنائه، والحق أن الجنرال اللنبي لم يكن أكثر صراحة حين وقف على جبل الزيتونة في الحرب العالمية الأولى قائلاً: «الآن انتهت الحروب الصليبية» كما إن الواقع التاريخي يؤكد أن هذه الحرب لن تنتهي وأن الذي خدع بعض المستغفلين هو اختلاف فصولها ومظاهرها.

وها هو «جان بول رو» يقرر ذلك قائلاً:

«لقد اعتدنا أن نتحدث عن ثمان حملات صليبية الأولى بدأت منها ١٠٩٦م والأخيرة انتهت ١٢٧٠ غير أن هذا التقسيم لا يبدو متجاوباً كثيراً مع الواقع، ويمكننا أن نزيد هذا العدد إذا أخذنا بعين الإعتبار جميع الدفعات التي وجهت إلى الشرق...».

---

(٢) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد ٥٥ ـ ٥٦، والعراب تعبير كنسي يقصد به وكيل الطفل المعمد (الحاشية)

«... فقد قُذف بملايين الأوروبيين إلى شواطىء الشرق ومهمتهم تغيير المعتقدات الشرقية ومن أجل الوصول إلى ذلك كان عليهم أن يخربوا هذا الشرق»!

نعم إن الهدف هو «تغيير المعتقدات الشرقية» التي هي بطبيعة الحال الإسلام. فما دام هذا الهدف لم يتحقق فإن الحملات هي كلها صليبية والعداوات كلها صليبية.

يؤكد ذلك (رو) قائلاً «لم يكن القضاء على الدولة العثمانية إلاّ مظهراً من مظاهر الهجوم العام الذي يشنه الأوروبيون على الدول الإسلامية، ومن جزر الفلبين إلى قلب أفريقيا عمل الرجل الأبيض على بسط سيطرته على الرجل المسلم وفرض عليه مفاهيمه في الوجود وطرق معيشته وتفكيره ومخططاته وتكتيكه.

ويقول رو:

«ان الحرب بين الإسلام والمسيحية دامت ثلاثة عشر قرناً» وقسمها إلى أربع مراحل رئيسية جاعلاً المرحلة الرابعة منها هي «طرد الأتراك من ممتلكاتهم والقضاء على قوة الإسلام في آسيا الوسطى وفرض الاستعمار أو الحماية على القسم الأكبر من ديار الإسلام»[٣].

ولم لا يكون الأمر كذلك وأول عمل قام به الإنجليز في الهند هو إلغاء الشريعة الإسلامية، وأول عمل قام به نابليون في مصر هو تعطيل الشريعة وإحلال القانون الفرنسي محلها، وأول عمل قام به أذناب المخطط اليهودي الصليبي في تركيا هو إلغاء الشريعة الإسلامية ثم إعلان تركيا دولة لا دينية!!

---

(٣) الإسلام في الغرب: ٤١ ــ ٤٢ ــ ٤٣ ــ ٥٦ ــ ٦٩ ــ ٧٠

ومنذ ان أحكمت اليهودية العاليمة أنشوصتها على العالم الغربي وأوقعته أسيراً في شباكها الأخطبوطية اتخذت العداوة مساراً واحداً تحفزه الروح الصليبية وتوجهه الأفعى اليهودية، فقد تشابكت وتداخلت مصالح الطرفين وكان الغرب الصليبي مستعداً للتخلي عن كل حقد وعداوة إلا عداوته للإسلام، في حين كانت الخطط التلمودية تروم تسخير العالم الصليبي ــ بعد أن شلت قواه وركبت رأسه ــ للقضاء على عدوها الأكبر الإسلام.

ولتوضيح ذلك نكتفي بتقرير المستشار الأول للرئيس الأميركي جونسون سنة ١٩٦٤م ــ ومعلوم خضوع رؤساء أميركا للضغط اليهودي. وهو يعطينا بالإضافة إلى ما أشرنا إليه، لمحة عامة عن الخطة العلمانية في العالم الإسلامي وآثارها المجملة.

يقول التقرير:

«... يجب أن ندرك أن تلك الخلافات بين اسرائيل والعرب لا تقوم بين دول أو شعوب بل تقوم بين حضارات».

«لقد كان الحوار (الصراع) بين المسيحية والإسلام محتدماً على الدوام منذ القرون الوسطى بصورة أو بأخرى! ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب أي خضعت الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية، والتراث الإسلامي للتراث المسيحي! وتركت هذه السيطرة آثارها البعيدة في المجتمعات الإسلامية حتى بعد انتهاء أشكالها السياسية، بحيث جعلت المواطن العربي يواجه معضلات ومشكلات هائلة وخطيرة في السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم، لا يدري كيف يتفاعل معها في علاقاته الداخلية والخارجية على السواء».

«لقد تحرر حقاً من سيطرة الغرب السياسية لكنه لم يستطع

التحرر من سيطرة الغرب الحضارية! إن ثروته البترولية تصنع وتسوق بالعقول الغربية والأساليب الغربية والآلة الغربية، إن الجيوش العربية التي هي مصدر غروره القومي تستعمل السلاح الغربي، وترتدي البزة الغربية بل تسير على أنغام الموسيقى الغربية، حتى إن ثورته على الغرب مستمدة من المبادىء والقيم والمفاهيم التي تعلمها من الغرب، حتى ان معرفته بتاريخه وحضارته وتراثه تعزى إلى المثقفين الغربيين».

«إن غلبة الحضارة الغربية في الشرق وهي العدو القديم للحضارة الإسلامية قد أورثت العربي المسلم الشعور بالضعة والمهانة والصغار أمام طغيان تلك الحضارة التي يمقتها ويحترمها في نفس الوقت».

«لقد استطاعت بعض الدول الشرقية كتركيا وإيران تطوير علاقتها بالدول الغربية على أساس مصالحها القومية، لكن السياسة الغربية ما تزال تعيش على أحلام وأمجاد وأوهام الامبراطورية الإسلامية التي كانت تقسم العالم إلى قسمين متعارضين متناقضين يعادي أحدهما الآخر ويضمر له الشر هما «دار الإسلام» أي ـ الإمبراطورية الإسلامية، و«دار الحرب» أي أعداء تلك الإمبراطورية على أساس الحديث «الكفر ملة واحدة»[٤].

وتجدر الإشارة إلى أن خطة العمل الموحد المشترك بين الصليبية واليهودية أصبحت لزاماً وواجباً مشتركاً على كلا الطرفين بعد الموقف الصلب الذي واجه به السلطان عبد الحميد ـ رحمه الله ـ هرتزل، إذ تعين بعدها أن القضاء على الخلافة الإسلامية ضروري لمصلحة

(٤) عن معركة الإسلام، الصواف، ١٨٣ ـ ١٨٤، ومن الضروري لمعرفة بعض أساليب المخطط الخبيث الاطلاع على كتاب «لعبة الأمم» لكوبلاند.

الفريقين: النصارى الذين كانت دولهم الإستعمارية تتحين الفرصة للأخذ بثأر الحروب الصليبية، واليهود الذين أيقنوا أن فشلهم مع السلطان يستوجب التركيز على العالم الصليبي وتسخيره لمآربهم التلمودية. وبلغت الخطة ذروة التوحد بعد قرار المجمع المسكوني الذي ينص على تبرئة اليهود من دم المسيح عليه السلام والذي كان يهدف إلى محو كل أثر عدائي مسيحي لليهود وبالتالي إيجاد كتلة يهودية نصرانية واحدة لمجابهة الإسلام[٥]. وإذا كانت العداوة لم تتغير ولم تتبدل فإن الخطة تغيرت كثيراً!

الحروب الصليبية التي كان قوامها مجموعات من الأوباش والهمج كانت خطتها عسكرية بحتة وهدفها تدمير الكيان الإسلامي بالقوة.

والحروب الصليبية الاستعمارية كانت خطتها تقوم على هدف القضاء على الإسلام ولكن بواسطة احتلال أراضيه احتلالاً مباشراً والمستشرق «كيمون» الذي كان يفكر بعقلية الحروب الصليبية يضع للعالم الغربي خطة لتدمير الإسلام يقول فيها:

«أعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر»[٦].

والمبشر بالكراف يقول «متى توارى القرآن ومدنية مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه»[٧].

---

(٥) انظر فصل: متى تنتهي هذه الاحقاد: حصاد الغرور، محمد الغزالي.

(٦) جلال العالم: قادة الغرب يقولون: ٤٦.

(٧) الغارة على العالم الإسلامي: ٣٧.

ولعل هذا التفكير البربري يستمد دلالته من إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس ويطمع في أن يتكرر ذلك في المشرق

ولكن كان هناك تفكير ذكي إتعظ بالهزائم العسكرية المتلاحقة التي مني بها الغرب، ونقب عن السر العظيم لصلابة المسلمين وإنتفاضاتهم المفاجئة ووجد السر فعلاً إنه الإسلام نفسه ولا شيء سواه.

ووضع خطته الخبيثة بناء على هذه النتيجة، خطة لا تقوم على إبادة المسلمين ولا على احتلال أراضيهم وإنما تقوم على إبادة الإسلام نفسه واقتلاعه من نفوس أبنائه وضمائرهم، أو تقليص دائرته وعزله عن واقع الحياة.

وإذ تحول الصراع من حرب المسلمين إلى حرب العقيدة الإسلامية ذاتها تغيرت ملامح وجوانب المعركة لم يعد ميدانها الرئيسي الأرض ولكنه الأدمغة ولم تعد وسيلتها الوحيدة السيف بل الفكر ولم تعد جيوشها الأساطيل والفرق ولكنها المؤسسات والمناهج بالدرجة الأولى.

وأكبر احتياطات هذه الحرب هو التكتم الشديد عن ذكر الإسلام أو التصريح بعداوة المسلمين، ولتتخذ المعركة ما شاءت من أسماء وشعارات بعد ذلك. لتوصف بأنها معركة بين الشرق والغرب، أو بين اليمين واليسار أو بين المصالح القومية، ولتنعت بأي شيء عدا وصفها بأنها «دينية» لأن هذا الوصف جدير باستثارة الحمية الجهادية، واستثارتها تعني فشل الخطة برمتها وتكرار مأساة حطين من جديد.

وأول من لفت أنظار العالم الغربي الصليبي إلى هذه الخطة هو القديس لويس ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثانية الذي هزم وأسر في المنصورة ثم افتدى نفسه وعاد إلى بلاده ليوصي بني ملته

بنصيحته الغالية: «يقول مؤرخو الغرب وعلى رأسهم المؤرخ «جوانفيل» الذي رافق لويس التاسع: إن خلوته في معتقله بالمنصورة أتاحت له فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء العرب المسلمين».

فماذا ارتأى لويس بعد أن فكر وقدر؟

لقد كانت معالم سياسته الجديدة واتجاهاتها وأسسها على النحو التالي:

أولاً ــ تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية تستهدف ذات الغرض لا فرق بين الحملتين إلا من حيث نوع السلاح الذي يستخدم في المعركة...

ثانياً ــ تجنيد المبشرين الغربيين في معركة سلمية لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنوياً واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنوداً للغرب.

ثالثاً ــ العمل على استخدام مسيحيي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب.

رابعاً ــ العمل على إنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق العربي يتخذها الغرب نقطة ارتكاز له ومركزاً لقواته الحربية ولدعوته السياسية والدينية، ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه كلما أتيحت الفرصة لمهاجمته.

«وقد عين لويس التاسع لإنشاء هذه القاعدة الأراضي الممتدة على ساحل البحر الأبيض من غزة حتى الإسكندرية وتشمل فلسطين والأردن والبلاد المقدسة ثم لبنان...»[8].

---

(٨) عن معركة المصحف، محمد الغزالي: ٢٠٤، ٢٠٦ ــ ٢٠٧.

وقد قدر هذه النصيحة حفيده «نابليون» الذي أصدر عقب احتلاله لمصر بياناً افتتحه ببسم الله الرحمن الرحيم وقال فيه:

«إن الفرنسيين أنصار النبي قد قهروا البابا وفرسان مالطة فليصدقنا المصريون إذ قلنا اننا حقاً مسلمون».

«إذا لم توافقوا على آرائي فاسمحوا لي على الأقل أن أتوسل إليكم حامياً وصديقاً للإسلام ولا يهمني أن تعترفوا بي مسلماً حقيقياً أو تنكروا وجودي بتاتاً فشعوري نحو عبيد الله لن يتغير»[٩].

بل حاول تشييد جامع كبير بإسمه وكان يرتدي العمامة ويحضر احتفالات المولد... الخ.

أما أعماله الحقيقية التي قدم لأجلها من بلاده فما كانت لتخفي على بصير، والدرس نفسه وعته بريطانيا عندما وقف رئيس وزرائها جلادستون في مجلس العموم البريطاني يتحدث عن خطة الاستعمار البريطاني في العالم الإسلامي فقال:

ما دام هذا القرآن موجوداً بين أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبة السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان»[١٠].

من هذا المنطلق الماكر بدأت المخططات لإخراج الأمة الإسلامية من دينها وتعريتها من مقومات وجودها وحملها ــ كما يقول جب ــ على العلمانية وانتظمت جيوش الغزو في ثلاثة أجنحة كبرى هي:

١ ــ قوى الاحتلال المباشر.
٢ ــ المستشرقون.
٣ ــ المبشرون (كما يسمون)!

---

(٩) أحمد جل الوحيد، نابليون المسلم: ٢٠، ٢١.
(١٠) جلال العالم: قادة الغرب يقولون: ٣٨.

٤ ـ ويجب ان نضيف جناحاً رابعاً هو: **الطوائف اليهودية والنصرانية والباطنية في العالم الإسلامي.**

١ ـ قوى الاحتلال المباشر:

قدمت جيوش الاحتلال العسكري إلى العالم الإسلامي تقودها عقليات غير العقلية البربرية الصليبية فهي تتمتع بقسط كبير من الدهاء والخبث وهي تعرف سلفاً أن لها مهمة أعظم من مهمة أجدادها، وأن نجاح هذه المهمة يتوقف على الدقة في تنفيذ الخطة الجديدة.

وقد قطفت أولى ثمرات الخطة عندما استطاعت أن تحارب جيوش الدولة العثمانية بأناس مسلمين ساروا في ركاب اللنبي حتى فتح القدس.

وهي أول حرب صليبية في التاريخ يكون قوامها مغفلون منتسبون إلى الإسلام! وبمقتضى إتفاقية «سايكس ـ بيكو» توزعت عساكر الصليبيين الجدد العالم الإسلامي عدا أجزء قليلة وابتدأت دوائر الاستعمار تنفذ مخططها المرسوم. وتتلخص جهود هذ الجناح فيما يلي:

١ ـ القضاء على الحركات الإسلامية الجهادية كحركة المهدي في السودان(*) وعمر المختار في ليبية وعبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي في المغرب الأقصى واسماعيل الشهيد في الهند، أما في مصر فقد أعدم الإمام الشهيد حسن البنا بعد أن عجزت المخططات عن احتواء دعوته، ثم ضربت الحركة بطريق مباشرة وغير مباشرة.

٢ ـ إلغاء المحاكم الشرعية وإحلال القوانين الوضعية محلها:

(*) هذه الحركة منحرفة عن الاسلام، ولكن مقاومتها للانجليز باسم الاسلام هي جوهر الصراع وهذا هو ما نريده هنا فحسب

لا تكاد جيوش الاحتلال تضع أقدامها على أرض إسلامية حتى تبادر بهذا العمل لأنهم يدركون نتائجه البالغة.

وأول قطر بدأ فيه إلغاء الشريعة الإسلامية. كما يقول الأستاذ المودودي هو الهند، فحتى سنة ١٧٩١ كانت الشريعة هي القانون العام فيها ولكن الإنجليز تدرجوا في إلغائها حتى تم ذلك في أواسط القرن الماضي يلي ذلك الجزائر التي بدأ إلغاء الشريعة فيها عقب الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠ ثم مصر التي أدخل إسماعيل (عميل فرنسا) القانون الفرنسي فيها ولم تأت سنة ١٨٨٣ حتى كان نصيب الشريعة لا يتجاوز الأحوال الشخصية إلا قليلاً.

ثم تونس حيث أدخل الفرنسيون قانونهم سنة ١٩٠٦ ليتدخل حتى في الأحوال الشخصية وفي سنة ١٩١٣ وضعوا في المغرب قانوناً مدنياً مماثلاً لما في تونس(١).

أما بلاد العراق والشام فقد تأخرت في ذلك بسبب تبعيتها للقضاء العثماني الذي يعتمد على مجلة الأحكام العدلية ولم تلغ الشريعة إلا بعد إلغاء الخلافة وثبوت أقدام الإنجليز والفرنسيين فيها.

٣ ــ القضاء على التعليم الإسلامي والأوقاف الإسلامية: أدرك المستعمرون أن أعظم وسيلة لإبعاد المسلمين عن دينهم هو أن يكونوا جهلاء به، واتعظوا بمصير «كليبر»(١٢) على يد طالب الأزهر سليمان الحلبي، وبما ذاقوه من مقاومة في الهند والمغرب تزعمها علماء الشريعة وطلابهم. فوضعوا المخططات الماكرة لتقليص التعليم الديني تدريجياً وإحلال التعليم اللاديني محله، وأشهر هذه المخططات مخطط كرومر ودنلوب في مصر الذي انتهج سياسة بعيدة المدى دقيقة الخطى في

---

(١١) انظر دفاع عن الشريعة: علال الفاسي: الفصل الثاني عشر.

(١٢) الحاكم العسكري الفرنسي لمصر أيام احتلال نابليون وانظر تفصيل الحادثة في تاريخ الجبرتي.

القضاء على الأزهر ومعاهده وكتاتيب القرآن، ووضع نموذجاً خبيثاً للدس على الإسلام وتشويه تاريخه خلال المنهج التعليمي ولا أدل على نجاح هذه الخطة من بقاء آثارها إلى اليوم في مصر والدول العربية عامة»[١٣].

وفي العراق وضع المستر (كوك) خطة مماثلة حولت العلماء إلى موظفين بمديرية الأوقاف.وبحجة تنظيم الأوقاف إدارياً ومنهجياً قضى على التعليم الديني الذي كان يعيش على أموال الأوقاف بل أقفلت الجوامع التي كان القرآن يحفظ فيها[١٤].

وفي بلاد المغرب كان الفرنسيون يحولون الجوامع والزوايا إلى اصطبلات للخيول ومخازن للسلاح بعد طرد طلابها في الوقت الذي كان فيه التعليم اللاديني يدعم بكل وسيلة[١٥].

وبلغ هذا العمل قمته بالجامعات والكليات التي بنيت في إسلامبول والقاهرة وبيروت ولاهور وغيرها ـ تلك التي كانت ولا يزال ما بقي منها ـ لا دينية صرفة.

٤ ـ إستخدام الطوائف غير الإسلامية وإحياؤها: وهذه الخطوة من أخبث الخطوات وأعمقها دلالة، فحيثما حل المستعمرون يقومون بنبش العقائد الميتة أو تنظيم الطوائف غير الإسلامية ويمهدون لها السبل لتولي المناصب المهمة مستثيرين حقدهم على المسلمين بالزعم بأن الفتح الإسلامي كان استعماراً لهم وإن المسلمين متعصبون ضدهم الخ... ففي بلاد الشام تعهدت فرنسا بدعم النصارى وسلمتهم الوظائف العليا ونظمت فلولهم في جمعيات ومؤسسات

---

(١٣) انظر كتاب هل نحن مسلمون، محمد قطب: ١٣٦ فما بعدها.

(١٤) أنظر كتاب المخططات الاستعمارية: ١٤٨ فما بعدها.

(١٥) انظر الغزو الفكري، جلال كشك: ٤٨.

عسكرية ومدنية وعند إنشاء الجامعة السورية ـ مثلاً ـ عينت لها مديراً نصرانياً هو قسطنطين زريق.

أما الطوائف الباطنية فقد استطاعت بواسطة المستشرقين أن تبعث عقائدها وتنشر كتبها، وسمى الفرنسيون النصيرية «علويين» واصطنعوهم عملاء لهم وحرضوهم على الالتحاق بالجيش حتى احتلوا قيادته العليا، وأخيراً استطاعوا أن يتحكموا في الأكثرية المسلمة وأن ينظموا فرقاً عسكرية حديثة خاصة بهم...

وفي مصر أقيمت القضية نفسها «قضية التعصب» على قدم وساق وتحت ستار اللاتعصب واللاطائفية مكن للأقباط من بناء الكنائس والمدارس بكثرة وتولي المناصب الوزارية في الحكومة برعاية الانجليز. ومعروفة سيرة الخائن يعقوب القبطي الذي تعاون وقومه مع الفرنسيين حتى سموه «الجنرال يعقوب»![١٦].

وفي معظم دول أفريقية خرج الإستعمار مخلفاً وراءه حكومة نصرانية تحكم شعوباً تصل نسبة الإسلام في بعضها إلى ٩٩٪.

أما الهند فقد تحول المسلمون فيها بعد الاستعمار من قوة حاكمة إلى أقلية ضعيفة ينهشها الإنجليز والهندوس والسيخ والبوذيون من كل جانب.

وهذا غير الطوائف التي أحدثها الإستعمار لهدم العقيدة الإسلامية كالبابية والبهائية والقاديانية التي تتضح عمالتها له بمرور الأيام[١٧].

---

(١٦) انظر المصدر السابق: ١٠٣.

(١٧) انظر رسالة الماجستير التي قدمها الأخ أحمد سعد حمدان بعنوان: «عقيدة ختم النبوة والفرق المخالفة لها».

٥ ـ إصطناع العملاء من أبناء المسلمين: كان من النصائح التي قدمها القسيس زويمر للمبشرين قوله:

«تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها»[١٨].

وقد نفذت هذه النصيحة في البلاد الإسلامية جميعها واستطاع المستعمرون أن يكونوا من العناصر الضعيفة الإيمان قوى منظمة بعضها أحزاب سياسية وبعضها إتجاهات فكرية تربت على عين الاستعمار وسمعه وحشيت أذهانها بما أملاه أعداء الإسلام وظل الشعور بالنقص والتبعية للغرب هو إحساسها الدائم.

واختير من تلك القوى أفراد قدر المستعمر انهم أفضل المطايا له فصنع لهم بطولات ضخمة وأثار حولهم الغبار الكثيف حتى خيل للأمة أن على أيديهم مفتاح نهضتها وبناء مجدها فطأطأت لهم الرأس حتى إذا تمكنوا منها انزلوا بها من الذل والدمار وخراب العقيدة ما لم تذقه على يد أسيادهم.

وإن كتاب «الرجل الصنم»[١٩] الذي كتبه ضابط تركي سابق ليقدم لنا واحداً فقط من هؤلاء الأفراد المصطنعين نسج على منواله في عالمنا العربي كثير.

وليس أدل على ذلك من أن القوى التي حكمت العالم الإسلامي بعد رحيل الإستعمار لم تكن الحركات الجهادية التي جابهت المستعمرين بل كانت أحزاباً وقوى مشبوهة، تشهد أعمالها وآثارها بأنها جنت على الأمة ما لم يجنه الأعداء السافرون مما يعطي الدليل

---

(١٨) الغارة على العالم الإسلامي: ٨٠.

(١٩) كتاب يتناول حياة مصطفى كمال اتاتورك باسلوب علمي وتحليل دقيق، ترجمه إلى العربية: عبد الله عبد الرحمن

الواضح على أن تنفيذ المخطط اليهودي قد وكل إليهم مع اختلاف في الأدوار وتنوع في الإخراج.

٦ ـ تنفيذ توصيات المستشرقين والمبشرين والإشراف على إنجاح مهامهم وتذليل العقبات التي قد تعترض جهودهم.

هذا غير الهدف الظاهر للاستعمار وهو إذلال العالم الإسلامي وتسخير أبنائه وثرواته لأطماع المستعمرين!

٢ ـ المستشرقون:

المستشرقون أدمغة الحملات الصليبية الحديثة وشياطين الغزو الثقافي للعالم الاسلامي، ظهروا في حلبة الصراع في فترة كان المسلمون فيها يعانون من الافلاس الحضاري والخواء الروحي وفقدان الذات مما جعل الفرصة سانحة لأولئك الأحبار الرهبان وجنود الصليبيين الموتورين كي يثأروا لهزائمهم الماضية وينفثوا أحقادهم الدفينة.

واقتضت خطة وجودهم في عصر يعبد العلم ويضفي عليه قداسة الوحي في العصور السابقة أن يخلعوا عن كواهلهم مسوح الرهبان والأحبار وسلاح الميدان ويرتدوا لباس العلم ومسوح المعرفة، ثم جندوا آلاف المخطوطات ومئات المؤسسات الثقافية المختلفة لمعركة استئصال الاسلام وعكفوا في صوامع البحث يديرون الصراع المرير بخبث ودهاء.

وما كان ليغيب عن بالهم أن القضاء على الأشلاء الباقية من الكيان الاسلامي الضخم وسد كل الطرق التي قد تهيء لبعث الحياة فيها لا تتم إلا بسلب الأمة ذاكرتها متمثلة في تراثها العظيم وفي الوقت نفسه شن حرب نفسية شرسة لإبادة ما لا يزال عالقاً في أذهان

المسلمين من عقائد الاسلام ومفهوماته، وإن لم تكن الابادة التامة فلتكن الزعزعة والتفتيت.

وتتلخص جهودهم العملية في هذه الفقرات التي يقتضي المقام إيجازها:

١ ـ الطعن في حقيقة الاسلام وحقيقة القرآن والنبوة، فقالوا عن الاسلام أنه تطوير محرف لليهودية والنصرانية، أو هو جزء من مجموعة الأديان الشرقية تولد من إحتكاك الوثنية العربية بأديان فارس والهند. وإن القرآن من وضع محمد (صلى الله عليه وسلم) أو هو من إملاء راهب نسطوري تعلم محمد على يديه مدة طويلة في الشام!! أو هو نتف من نسخ التوراة والانجيل المهجورة وآراء المتحنثين من العرب كورقة بن نوفل مع إقتباسات من الحكمة الشعرية لبعض المتأملين الروحانيين كأمية بن الصلت... الخ ثم قالوا أن القرآن بعد وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) كان موزعاً بين بعض الصحابة في العظام والجلود وجزء منه محفوظ في الصدور حفظاً غير تام ولا متناسق وبعد سبعين سنة ـ أي بعد أن تبعثرت العظام والجلود ورمّت ومات الحفاظ ـ وجد المسلمون أن الضرورة تقتضي جمع القرآن فاجتمعوا (كما يجتمع رجال اللاهوت!) وأحضر كل منهم ما كان في حوزته منه واتفقوا على تنظيمه وتبويبه لكنهم تشاجروا في مواضع كثيرة وأخيراً فرضت السلطة الحاكمة نسخة معينة وأحرقت كل النسخ المخالفة بدون مبرر، ونتيجة لذلك جاءت النسخة المعتمدة غير متحدة الموضوع ولا متناسقة السياق ـ بالاضافة إلى كونها غير مرتبة فالسور التي وضعها ـ أو جمعها أو.. ـ محمد في أول إدعائه النبوة وضعت في آخرها بينها وضعت الأخيرة في أولها. الخ ثم يقولون أن اليسار الاسلامي ـ الشيعة والرافضة ـ ظل يحتفظ بنسخ أخرى تبلغ أضعاف النسخة المتداولة التي كان يعتقد أن قسمًا كبيراً منها قد فقد

بسبب شاة تسللت إلى موضعها فأكلت الجزء المتعلق بالخلافة والسياسة من بعد محمد!!

أما نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقد قالوا عن تلقي الوحي أنه نوبات من الصرع والهستيريا أو نوع من العبقرية الشعرية في أحسن تقدير، أو أن محمداً لم يكن إلا اللسان المعبر عن المذهب الذي كان يعتقده الراهب بحيرا «وكان يمليه عليه في الصحراء العربية ويكتبه ثم يدعي أنه وحي من الله».

وقالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه أنه كان مجهول النسب ولذلك دعي ابن عبدالله كعادة العرب فيمن يجهلون أباه! وأن إسمه الأصلي قثم فلما عبده العرب سموه محمداً للتقديس وأنه كان (حاشاه صلى الله عليه وسلم) رجلاً شهوانياً ويعاقر الخمرة.. بل تطرف بعض المستشرقين الشيوعيين فقالوا أنه شخصية خيالية!

أما الطعن في السنة فقالوا أن محمداً في حياته كان يعد كل ما يتكلم به قرآناً. وبعد موته ونشوب النزاع السياسي بين المسلمين إحتاجت الأطراف المتنازعة إلى تأييد آرائها وإذ لم تجد ما تؤيدها به من القرآن نسبت كل فرقة إلى محمد أقوالاً كثيرة لصالحها. ومن مجموع هذه الأقوال كتب علماء المسلمين بعد ثلاثة قرون ـ أي بعد أن يكون كل شيء قد ضاع واختلط ـ كتباً سميت كتب الحديث والسنة وألزموا المسلمين بالايمان بها كالقرآن، فاعتقدها المسلمون ـ باستثناء اليسار طبعاً ـ وسموا اتباعها أهل السنة تمييزاً لهم عن اليساريين!!

ثم يعمدون إلى النقد المفصل للسنة فيطعنون في كبار حفاظها كأبي هريرة والزهري ويقولـون أن بعض الشخصيات كعروة بن

الزبير ـ الذي يروي عن خالته عائشة أم المؤمنين شخصية خيالية!![٢٠].

٢ ـ القول بأن الإسلام استنفذ أغراضه: وهي دعوى تأتي في صور شتى، منها وصف الاسلام بأنه دعوة أخلاقية جاءت لانقاذ المجتمع العربي من عاداته السيئة كعبادة الحجارة ووأد البنات والسلب والنهب وشرب الخمر الخ.

وتارة يوصف بأنه حركة إجتماعية تهدف إلى تغيير البنية الاجتماعية القبلية والاستبدال بها تركيباً إجتماعياً قومياً متحضراً للعرب.

ومرة يقال ـ وهو خاص بالمستشرقين الشيوعيين ـ أن الاسلام ثورة غير ناضجة ضد الطبقة التي كانت تسود المجتمع المكي تولدت من الصراع بين الطبقة الكادحة مثل محمد وبلال وصهيب والطبقة الرأسمالية أمثال الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف.

وأقوال أخرى مؤداها إعتبار الاسلام ظاهرة معينة في فترة زمنية محدودة يجب أن يدرس وينظر إليها كما لو كان قطعة من الأحافير القديمة لا علاقة لها مطلقاً بالواقع المعاصر.

٣ ـ القول بأن الاسلام طقوس وشعائر روحية أو على أحسن الأحوال دين بالمفهوم الغربي الضيق، فلا دخل له بأمور الحكم والحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي.. الخ.

(٢٠) هذه الطعون وما سيليها مما لا يخفى على المطلعين لاستفاضتها، وعلى سبيل التمثيل يحسن الرجوع إلى دائرة المعارف الإسلامية مادة «اصول» ومادة «بحيرا» وإلى «حياة محمد» لكل من وليم موير وأميل درمنغم، ومحمد في مكة: مونتغمري واط والحضارة الإسلامية: آدم متز، الصوفية في الإسلام: نيكلسون، دراسات في حضارة الإسلام: جب، العقيدة والشريعة: جولد تسيهر.. وما شاكلها.

وقضية الخلافة بدعة لا أساس لها في الاسلام، ومحمد إنما جاء ليؤسس ديناً ولم يكن يهدف إلى تكوين دولة.. وعندما خرجت جيوش الاسلام الأولى لم يكن هدفها إلا السيطرة على المستعمرات الرومانية الخصبة وإكراه أهلها على الاسلام لكن العرب الفاتحين أعجبوا بالتنظيمات السياسية والادارية التي كانت لدى الروم فاقتبسوها منهم ثم أدخلوها في صلب عقيدتهم بغرض التلبيس على العوام وضمان استمرار نفوذهم. ومنذ ذلك الحين ظهرت البدعة القائلة أن الاسلام دين ودولة في آن واحد!!

٤ ــ القول بأن الفقه الاسلامي مأخوذ من القانون الروماني:

وهي دعوى مركبة على الدعوى السابقة هدفها إسقاط توحيد الألوهية من جهة وتهوين شأن الأخذ من القوانين الوضعية من جهة أخرى فما دام الفقه القديم مستقى من أصول أوروبية فما المانع اليوم من الاقتباس من القوانين الأوروبية كالقانون الفرنسي أو السويسري.. الخ.

٥ ــ الادعاء بأن الشريعة الاسلامية لا تتلاءم مع الحضارة:

وواضح أن هذا الادعاء يقوم على استغلال الشعور بالنقص والاحساس بالتخلف الذي وخز الأمة الاسلامية عند إحتكاكها بالحضارة الأوروبية، فقالوا أن الاسلام دين قبلي صحراوي وشعائره وتشريعاته لا تنسجم مع الحياة العصرية المتمدنة، وكيف يصح أن يعيش الانسان في عصر الصواريخ والطائرات على شريعة الصحراء والجمال، بل إن هذه الشريعة نفسها هي سبب التخلف وداء الشرق العضال، وأن السبيل إلى التطور والحضارة لهو نبذ محمد وكتابه.

٦ ــ الدعوة إلى نبذ اللغة العربية وهجر حروفها وأساليبها:

وهي دعوى موازية للدعوى السالفة وتحتج بالحجة نفسها ــ عدم

ملاءمتها للحضارة ــ وغرضها مسخ الأمة وقطع صلتها بدينها نهائياً، ومنها تفرع القول بأن النحو العربي غير علمي وإفتعال التضاد بين قواعد النحو واللغة وبين أساليب القرآن بقصد هدم الاثنين.

والزعم بأن الشعر الجاهلي وكثيراً من شعر صدر الاسلام منحول لأن اللغة والتفسير يستمدان الشواهد منه.

٧ ــ إثارة ما سمي «قضية تحرير المرأة»: وهي دعوى ركز عليها أولئك لعلمهم بنتائجها المتعددة التي منها الطعن في الشريعة ذاتها لأنها سبب احتقار المرأة بزعمهم، ونشر الاباحية والانحلال في المجتمع الاسلامي، والقضاء على الأسرة الذي يؤدي إلى تجهيل النشء بدينه ويتيح لهم الفرصة لتربية أبناء الاسلام كما يشاؤون، فقالوا أن الاسلام يحتقر المرأة لذاتها ولا يجعل لها قيمة معنوية سوى الاستمتاع المجرد، وأنه يبيح بيع وشراء وسبي النساء وأنه يوجب على المرأة أن تعيش وتموت جاهلة مهملة بما يفرض عليها من الحجاب، ويعد حقها في الترفيه والاستمتاع عاراً شنيعاً في حين يتاح للرجل كل وسائل اللذة بالتسري وغيره...

ومزاعم أخرى كثيرة كان الواقع السيء يمدهم بأدلتها ويسهل لهم إثارتها.

٨ ــ تهوين شأن الحضارة الاسلامية وتشويه تاريخها: يزعم المستشرقون أن أعظم مآثر المسلمين الحضارية هو نقل التراث اليوناني ــ نقله فقط وحفظه من الضياع ــ وأن روائعهم العمرانية مقتبسة من الفن البيزنطي.. الخ أما تشويه التاريخ الاسلامي فلم يدعوا وسيلة لذلك إلا سلكوها حتى سلبوه كل فضائله، وحصروه في الناحية السياسية ليصبح سلسلة من المشاحنات والمؤامرات والدسائس، ثم كرسوا الحديث عن الحكام في موضوعات الحريم والجواري والشعراء

وعمدوا إلى عظمائه في الحرب والسلم فوصفوهم بالجمود والتزمت ومعاداة التحضر، واتخذوا من الخزعبلات المدسوسة في التراث مصادر لتشويه سيرهم، ومن هنا بذلوا جهودهم لترجمة ونشر تلك الخزعبلات ومنح الدرجات العليا للباحثين فيها، وكانت ثمرة ذلك كله أن مفهوم الحضارة الاسلامية لا يتجاوز عند غالبية المثقفين معنى كلمة «فولكلور».

٩ ــ **بعث الحركات الهدامة والطوائف الضالة وتضخيم أدوارها:** هذا العمل جزء من تشويه تاريخ الاسلام إلا أنه استأثر بإهتمام بالغ منهم لأنه يحقق أغراضاً كثيرة في آن واحد، فقد حرصوا على تجديد الغزو الفكري البائد الذي نظمته الطوائف والفرق المنحرفة كالباطنية بفروعها المتعددة من اسماعيلية وقرامطة وبابكية، والعبيديين المسمين فاطميين، والزنج أصحاب الثورة المعروفة، والدروز، والمتصوفون وفرقهم، مع العناية الخاصة بالشخصيات الضالة كالحلاج وعبدالله بن سبأ وعبدالله بن ميمون القداح والحاكم العبيدي.. الخ هذا غير الفرق التي أحدثت للغرض نفسه كالقاديانية والبابية وفروعهما.

١٠ ــ **نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها:** تخصص عدد من المستشرقين في هذا المضمار، فعكفوا على دراسة اللغات البائدة، والتنقيب عن آثار الغابرين، ولفقوا من رفات هش ما أسموه التاريخ الحضاري للعرب ثم مدوا آثار تلك الحضارات إلى العصر الحاضر، فبدا الفتح الاسلامي وحضارته نشازاً في هذه السلسلة، أو في أحسن الأحوال عاملاً من بين عوامل عدة، ومن أمثلة ذلك بعث الفرعونية في مصر والفينيقية والأشورية في الهلال الخصيب والحميرية في اليمن، وإختلقوا القومية الطورانية لحساب الجمعيات السرية التركية ــ كما

سيأتي ــ ونجم عن ذلك نتائج خطيرة: منها تحسين سمعة الجاهلية وتمجيد طواغيتها الغابرين، وبث النعرات الانفصالية وقطع صلة الأمة بماضيها الحقيقي، أو على الأقل إشغالها عنه، وتهيئة النفوس لتقبل إمكان قيام الحياة المتحضرة بدون الاسلام كما عاشت تلك الحضارات قبله.

١١ ــ وضع منهج لاديني للبحث العلمي: لو لم يكن من ثمرة جهودهم إلا ذلك لكفى، فإن جامعات العالم الاسلامي المعاصرة تدرس التراث الاسلامي وفق ذلك المنهج الذي يتمسح بالموضوعية والحياد العلمي وهو أبعد ما يكون عنهما، ومن أوضح وأقرب الأمثلة على ذلك ما نلحظه في كتابات كثير من الباحثين المسلمين من إصرار على استعمال عبارة قال القرآن عند إيراد الآيات إحترازاً من قول «قال الله» وإطلاق لفظة «محمد» تماماً كما يستعملها المستشرقون بدون ذكر الرسالة أو الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم.

ومع كون هذا المنهج لا دينياً فهو في الوقت نفسه غير علمي لأنه غالباً يدور على هذه الأسس:

١ ــ «يعمل المستشرقون على إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم والتحكم فيما يرفضونه من النصوص وكثيراً ما يحرفون النص تحريفاً مقصوداً ويقعون في سوء الفهم ــ وعن عمد أحياناً ــ حين لا يجدون مجالاً للتحريف.

٢ ــ «يتحكم المستشرقون في المصادر التي يختارونها فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث النبوي، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصححون ما ينقله الدميري في كتاب (الحيوان) ويكذبون ما يرويه الامام مالك في

الموطأ»[٢١] ويهاجمون صحيح البخاري ويمجدون كتاب الأغاني وألف ليلة وليلة.

وعلى الرغم من ذلك سرت عدوى هذا المنهج في أبناء المسلمين إلى حد يثير الريبة والعجب. وقبل أن نختتم الكلام عن أساليب المستشرقين ينبغي أن نشير إلى أن أعمالهم تسير وفق خطة مدروسة ولذلك فهي تتغير تبعاً لمقتضيات التغير، بعد تقييم نتائج المرحلة السابقة، ولذا فلا غرابة أن تختفي من كتبهم الأساليب الاستفزازية والطعن المكشوف إذ يبدو أن خطة «إحتواء الفكر الاسلامي» هي المعمول بها حالياً.

وأياً ما كانت النتائج فإن ما اضطلع به هؤلاء من مهمة تدمير المقومات الاسلامية وتمهيد الأرضية الفكرية التي تقوم عليها الحياة اللادينية في الشرق قد آتى أكله في أكثر من ميدان.

٣ ــ المبشرون:

كما أن للمستشرقين والمبشرين أهدافاً مشتركة فإن لهم وسائل متداخلة ويمكن القول بأن ميدان المستشرقين الأساسي هو الثقافة والفكر، بينما يركز المبشرون جهودهم في النواحي الاجتماعية والتربوية.

وليس غريباً أن يجهل المسلمون الدوافع الحقيقية للتبشير فقد كان يجهلها بعض اتباع الارساليات التبشيرية أنفسهم، إذ لم يكن الجميع يدركون أبعاد الخطة الجديدة ومراميها بل كانت العقلية الصليبية التي استثيروا بها من بلادهم لا توحي لهم بكل ذلك.

---

(٢١) أساليب الغزو الفكري: علي جريشة: ٢٤ ــ ٢٥.

وهذا ما اضطر القس زويمر ــ رئيس مؤتمر القدس التبشيري ــ إلى إيضاح ذلك فقال:

«أيها الأخوان الأبطال والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الاسلام، فأحاطتهم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدس، لقد أديتم الرسالة التي نيطت بكم أحسن الأداء، ووفقتم لها أسمى التوفيق وإن كان يخيل إلي أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه، لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه» «إني أقركم على أن الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا كما قلتم «أحد ثلاثة: إما صغير لم يكن له من أهله من يعرِّفه ما هو الاسلام أو رجل مستخف بالأديان لا يبغى غير الحصول على قوته وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش، وآخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية. ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية فإن في هذا هداية لهم وتكريماً! وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الاسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الاسلامية، وهذا ما قمتم به في خلال الأعوام السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً كل التهنئة».

«لقد قبضنا أيها الأخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الاسلامية ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأميركية».

«والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء أنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الاسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد».

«إنكم أعددتم نشئاً (في بلاد المسلمين) لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم من الاسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي جاء النشء الاسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات. فإذا تعلم فللشهوات وإذا جمع المال فللشهوات وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء».

«إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه وانتهيتم إلى خير النتائج وباركتكم المسيحية، ورضى عنكم الاستعمار، فاستمروا في إداء رسالتكم فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضوع بركات الرب»[٢٢].

أما الوسائل المستخدمة لذلك فهي كثيرة نذكر منها:

١ ــ إدخال من إستطاعوا من المسلمين في الديانة النصرانية وهذا وإن لم يكن الغاية الأساسية ــ كما قال زويمر ــ فهو يؤدي إلى زعزعة إيمان الآخرين وتثبيط هممهم، والواقع أن الكنائس النصرانية تغتبط بذلك جداً لأنه أخذ بالثأر من الاسلام الذي إجتاح ديارهما قديماً، كما أنه نوع من التعويض الأيس للخسارة الفادحة التي أنزلتها أوروبا الحديثة بالمسيحية.

٢ ــ فتح المحاضن والمدارس والكليات والجامعات في أنحاء العالم الاسلامي: ولو أننا أخذنا مثالاً على ذلك أفريقية وحدها فسوف

---

(٢٢) عن جلور البلاء: ٢٧٥.

نجد أرقاماً مذهلة للمراكز التعليمية فيها: فهناك معاهد تعليمية يبلغ عددها ١٦,٦٧١ معهداً أما الكليات والجامعات فتبلغ ٥٠٠ كلية وجامعة، ويبلغ عدد المدارس اللاهوتية لتخريج القسس والرهبان والمبشرين ٤٨٩ مدرسة، أما رياض الأطفال فيتجاوز عددها ١١١٣ روضة.

ويبلغ عدد أبناء المسلمين الذين يشرف على تعليمهم وتربيتهم وتوجيههم أكثر من خمسة ملايين(٢٣)!

٣ ـ تحطيم عقيدة الولاء والبراء: تلك التي تمثل حاجزاً نفسياً منيعاً في نفوس المسلمين تجاه الكفار، وذلك بإخفاء الدوافع التبشيرية تحت ستار المساعدات الانسانية، فقدموا المعونات الطبية والغذائية، وأدخلوا بعض وسائل المدنية مستغلين واقع المسلمين الذي هو أحوج ما يكون إلى مثل هذه المعونات والوسائل. وقد ركز المبشرون اهتمامهم في السنوات الأخيرة على أندونيسيا وبنغلادش كما ابتدأوا في اليمن بنشاط مستغلين الفقر الذي يعم هذه الدول.

٤ ـ الاهتمام بإفساد الريف الاسلامي: إن جهود المستشرقين مهما عظمت تظل محصورة في نطاق الثقافة والمثقفين، ولذلك إهتم المبشرون بالريف الذي يتميز بمحافظته على التقاليد الاسلامية، مما يجعله أقل تقبلاً للافساد، إلا أن تفشي الجهل والمرض وغلبة العوز على أبنائه يتيح لهم مناخاً مناسباً، فأنشأوا المراكز الاجتماعية والصحية والمهنية وأسسوا المدارس والمحاضن المختلفة ونظموا برامج توطين البدو ومحو الأمية بين الكبار بهدف النفاذ إلى عقول أكبر قدر ممكن من طبقات وقطاعات الشعب.

---

(٢٣) ابن محاضن الجيل المسلم: يوسف العظم: ٣٤ ـ ٣٥ ويحسن الرجوع الى رسالة الماجستير المقدمة من الزميل: خضر مصطفى عن التبشير في نيجريا جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

٥ ـ **التركيز على إفساد المرأة المسلمة**: رأى المبشرون أن حجاب المرأة المسلمة يقف سداً منيعاً دون إفسادها وبالتالي إفساد الأجيال المؤمنة، فبذلوا كل جهودهم لإخراجها من حرزها الذي لم يستطيعوا اقتحامه عليها، ولا شيء يعدل التعليم في ذلك، ولهذا قالت إحدى المبشرات:

«في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشاوات وبكوات، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي، وليس ثمة طريق إلى حصن الاسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة»[٢٤].

كما سخروا أجهزة الأعلام المختلفة وأنشأوا مراكز الفساد تحت ستار الترفيه أو الفنون للغرض نفسه.

٦ ـ **السيطرة على وسائل التربية والاعلام والتوجيه**، واستخدامها لنشر سمومهم وتوهين العقيدة الاسلامية في النفوس، وعرض الشبهات حول كمال وصلاحية الشريعة أو على الأقل الانحراف بهذه الوسائل عن مقاصدها الصحيحة إلى العبث واللهو، مع صرف العناية إلى الأطفال والنفاذ إلى عقولهم من خلال تلك الوسائل.

٧ ـ **تشجيع تحديد النسل**: تلك البدعة التي لم يعرفها المسلمون قبل قدوم هؤلاء، وهي جزء من مخطط الغرب الرامي إلى ضمان سيطرته على الأجناس غير البيضاء والمسلمين بصفة خاصة، لأنهم ـ مع كونهم عدوه الألد ـ أكثر أمم الأرض تناسلاً والايحاء المستمر لهم بأن سبب الضائقات الاقتصادية ينحصر في زيادة نسبة

---

(٢٤) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام: الصواف: ٢٢٠.

المواليد، هذا في الوقت الذي يشجع فيه المبشرون الطوائف غير الاسلامية كالأقباط والموارنة عَلى الاكثار من النسل.

٨ ــ إستهلاك جهود العلماء والدعاة في مقاومة أفكار التبشير مما يضيق عليهم الفرصة للعمل والبناء، ويعطل جهودهم المثمرة.

٩ ــ مراقبة العالم الاسلامي والتجسس عليه وجس نبض الأمة ورصد الحركات الاسلامية، وقد ثبتت صلة الارساليات التبشيرية بدوائر الاستخبارات الدولية وهذا هو المفروض والمتوقع ما دامت الغاية واحدة.

٤ ــ نصارى العرب:

ليس غريباً أن يكون أول من دعا إلى العلمانية بشعارها الصريح أو تحت أسماء أخرى كالقومية والوطنية هم نصارى الشرق، فإن الحياة المطمئنة التي كفلها لهم المجتمع الاسلامي ــ بل المحاباة الزائدة في الكثير من الأحيان ــ لم تكن لتطفىء نار الحقد المتأججة في صدورهم، وإذ كانوا يدركون أن هيمنة الشريعة الاسلامية هي العائق الأكبر لشفاء غيظهم ونفث أحقادهم فقد استماتوا في سبيل إنهاء هذه الهيمنة وإحلال الأنظمة اللادينية محلها. وانطلاقاً من ذلك وجد المخطط اليهودي الصليبي فيهم بغيته المنشودة لهدم الخلافة الاسلامية وبالتالي القضاء على الحكم الاسلامي بعزل الشريعة عن ميدان الحياة وتوجيه المجتمع (راجع البند الثالث من مخطط لويس التاسع).

ولم يكن يخفى على هؤلاء ما ألحقته العلمانية بدينهم في أوروبا، بل إن ذلك هو الدافع للمناداة بها في الشرق لكي تقضي على الاسلام أيضاً.

صحيح أن انتشار العلمانية سوف يؤثر على النصرانية أيضاً مهما بذلت الاحتياطات، ولكن ما دامت تقضي على الاسلام فلا بأس، على حد قول الشاعر:

اقتلوني ومـالكـاً واقتلوا مـالكـاً معي

وجهود نصارى الشرق في هذا المضمار كثيرة لا يتسع المجال لتفصيلها، ولكن يمكن تقسيمها قسمين:

١ ــ الأعمال السياسية:

وقد كانوا على صلة وثيقة بالجمعيات الهدامة في الغرب وشبكات الجاسوسية العالمية، ولذلك كونوا الجمعيات السرية التي تناهض الخلافة الاسلامية وتدعو إلى حكومة لادينية وطنية أو قومية، من هذه الجمعيات: جمعية بيروت (فارس نمر) وجامعة الوطن العربي (نجيب عازوري) والجمعية القحطانية، وجمعية العربية الفتاة، ثم الحزب القومي السوري (أنطوان سعادة) وأخيراً حزب البعث (ميشيل عفلق)...[٢٥].

٢ ــ الأعمال الفكرية:

كان هؤلاء أول من نشر الثقافة والفكر الغربيين مستخدمين الوسائل الحديثة لا سيما الصحافة، فأصدروا صحفاً كثيرة منها: الجنان والمقتطف والهلال، وكان محرروها أمثال نصيف اليازجي ويعقوب صروف وجرجي زيدان يمثلون طلائع اللادينية في الشرق الاسلامي.

واتجه قسم منهم إلى التراث والتأليف الموسوعي إتجاهاً يشابه طريقة المستشرقين فألفوا المعاجم اللغوية والقواميس للترجمة وبعض

(٢٥) تراجع الرسالة المقدمة من الزميل صالح العبود بعنوان القومية العربية في ضوء الإسلام. بجامعة أم القرى بمك المركمة.

الموسوعات والبحوث، ومن هؤلاء أحمد فارس الشدياق[٢٦] وبطرس البستاني ولويس شيخو.

وبعضهم انكب على الفلسفات العربية فنشر مؤلفاتها ومجد زعماءها ودعا العرب إلى اعتناقها وإقامة حياتهم على أسسها، من هؤلاء شبلي شميل الداروني المتطرف وسلامة موسى.

كما ظهر منهم شعراء أذكوا بشعرهم الحماسي القومي ضد الاسلام مثل إبراهيم اليازجي وبشارة الخوري والشاعر القروي وشعراء المهجر.

ويعترف البرت حوراني بأنه «قد نادى بفكرة مجتمع قومي علماني فريق من الكتاب المسيحيين[٢٧] السوريين، وينقل عن أحدهم (شبلي شميل) قوله:

«ليس الحكم الديني والحكم الاستبدادي فاسدين فحسب بل هما غير طبيعيين وغير صحيحين، فالحكم الديني يرفع بعض الناس فوق سواهم ويستخدم السلطة لمنع نمو العقل البشري نمواً صحيحاً. . . وهما يشجعان العقل على البقاء في حالة الجمود وبذلك يعرقلان التقدم التدريجي الذي هو ناموس الكون، لكن بالامكان تصور نظام للشرائع والحكم يقوم على نواميس الكون ويسمح بالتالي لتطور النمو الكوني أن يستمر وللانسان أن يعيش وفقاً لطبيعته» إلى أن يقول «والأمم تقوى بمقدار ما يضعف الدين، فهذه أوروبا لم تصبح قوية ومتمدنة فعلاً إلا عندما حطم الاصلاح والثورة الفرنسية سلطة

(٢٦) يقال انه أسلم اخر عمره والله أعلم.

(٢٧) عن القومية العربية في ضوء الإسلام: ٨٠.

الاكليروس على المجتمع وهذا يصح أيضاً على المجتمعات الاسلامية»[٢٨].

ويتحدث عن فرح أنطون بأنه «كان هدفه السياسي شبيهاً بهدف الشميل وسواه من كتاب عصره اللبنانيين ذلك أنه توخى وضع أسس دولة علمانية يشترك فيها المسلمون والمسيحيون على قدم المساواة التامة» وينقل عنه قوله «أن العالم قد تغير فالدول الحديثة لم تعد قائمة على الدين بل على أمرين: الوحدة الوطنية وتقنيات العلم الحديث».

وقوله «أما في العصر الحديث فالوحدة تتم بخلق الولاء القومي والفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية»[٢٩].

وصدر مثل هذه الدعاوي عن معظم الكتاب والصحفيين النصارى وبإمكان المرء أن يلمس شيئاً من ذلك في أي كتاب لسلامة موسى أو مقال لأمير بقطر مثلاً.

أما الجمعيات والأحزاب السياسية فغير خافٍ ما تقوم عليه أسسها وشعاراتها من تنكر للإسلام ودعوة صريحة إلى اللادينية.

وقد اتخذت الأنظمة المعادية للإسلام من الأقليات النصرانية ذريعة لرفع الشعار العلماني «الدين لله والوطن للجميع»[٣٠] ومنع تطبيق الشريعة الاسلامية.

* * *

هذه هي المعالم الرئيسية للمخطط اليهودي الصليبي، وهو بلا شك مخطط ذكي خبيث يملك من وسائل التأثير وفرص العمل ما يفوق

---

(٢٨) المصدر السابق: ٨٣ ـ ٨٤.

(٢٩) المصدر السابق: ٨٦.

(٣٠) انظر المسيحية والقومية العربية، عبادى العبد العبادى: ١٢.

به الحملات الصليبية السالفة، فهو فكر تدعمه القوة وحضارة يمدها العلم ونضال يحكمه النظام.

غير أن ذلك كله لا يعني أن نلقي عليه تبعاتنا وننسب إليه انهيارنا كأنما هو قوة أسطورية اجتاحتنا بغتة دون أن نستطيع لدفعها يداً.

إننا ــ كما سبق ــ لم نؤت إلا من قبل أنفسنا وما عوقبنا إلا بما كسبت أيدينا، نحن الذين أعطينا الكفار الفرصة ليخططوا ضدنا وأسهمنا بعللنا وأدوائنا في إنجاح مخططاتهم. إن الله تعالى يقول ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ فلولا إفلاسنا من الصبر والتقوى، بل ومن الايمان والتصور السليم ما كان لهذه المخططات من أثر، وإن كان فهو كالجرح الذي سرعان ما يندمل أو الاغفاءة تعقبها الوثبة.

وحين نقول إننا كنا مسلمين حقيقيين حتى جاء الكفار فأفسدوا علينا ديننا ودنيانا فإننا لا نكون مخطئين في تصورنا فحسب، بل نكون قد قطعنا على أنفسنا الطريق الصحيح للعودة. ذلك الطريق الذي يبدأ أساساً من معرفتنا بأننا كنا منحرفين، وفهمنا لأسباب ومظاهر الانحراف والاستقامة.

وسوف نرى مصداق ذلك في الفصل التالي حيث نعرض مظاهر العلمانية في العالم الاسلامي، وسيتضح من خلال العرض أن تلك المظاهر ما كانت لتوجد لولا العوامل الذاتية الكامنة في أنفسنا ومجتمعاتنا.

الفصل الثاني

مظاهر العلمانية في الحياة الإسلامية

أولاً ـ في الحكم والتشريع:

روى الامام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لينقضن الاسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة يتشبث الناس بالتي تليها وأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة»[1].

ولقد بدأ الانحراف في تصرفات الحكام المسلمين قديماً غير أن النقض الواعي لهذه العروة لم يظهر إلا في العصر الحديث حين بلغ المسلمون قرارة الضعف وغاية التدهور، كان الاسلام طيلة القرون السابقة أعمق في النفوس من أن يستبدل به أي منهج آخر، وكانت الجاهلية أحقر من أن تطاوله أو تطمع في أبنائه.

غير أن الحال في العصر الحديث قد انعكس تماماً فلم يبق من الاسلام ـ واقعياً ـ إلا تلك التصورات الخاطئة التي سلف الحديث عنها وفي الوقت نفسه كانت الجاهلية الأوروبية المنتفشة تتولى قيادة الفكر البشري وتوجيه الحضارة الانسانية، ونتيجة لهذا الوضع المزدوج تسربت العلمانية إلى العالم الاسلامي وانتقضت تلك العروة الكبرى.

فمن الوجهة السياسية لم يكن في العالم الاسلامي شيء يمكن أن

---

(١) المسند: ٥/٢٥١. وسنده صحيح.

يسمى الوعي السياسي بل كان الأمر متروكاً لأهواء الحكام حتى أن الوصف الذي يطلقه بعض الباحثين الغربيين على حال المسلمين في القرن الماضي ــ رغم ما فيه من مبالغة ــ ليس بعيداً عن الصحة، ومن ذلك قول أحدهم:

«قد كتبت شريعة موجزة في جبهة كل شرقي، شريعة ليس لها مثيل في الوصايا الأوروبية العشر، وهي: عليك أيها الرجل الشرقي أن تجل الرجل الذي يقيمه الله عليك ملكاً وتقدسه وتعبده، فإذا أحبك أحبه وإذا استلب أموالك ومتاعك واضطهدك شر اضطهاد فأحبه على ذلك أيضاً، وإياك أن تحول عن هذا له، لأنه سيدك وأنت عبده ومولاك المتصرف بك تصرف صاحب الأمانة في أمانته»[٢].

ومن الوجهة التشريعية كان القضاء ــ غير المنظم ــ في العالم الاسلامي يعتمد على الشروح والحواشي والمختصرات المتأخرة التي كانت أقرب إلى الطلاسم والمعميات إلى حد جعل الذين يفقهونها ــ لا سيما مع الركود العلمي العام ــ قلة ضئيلة، ثم أنها في الحقيقة لم تكن المصدر الوحيد للتشريع فبجانبها كانت أهواء ذوي السلطة وأعراف المجتمع وتقاليد القبيلة... إلخ.

وإذ كان سبب هذا الواقع المؤلم هو ــ كما سبق ــ الانحراف في تصور الاسلام وفهمه وبالتالي في تطبيقه وتحكيمه، فقد كان الحل الوحيد الصحيح للمشكلة هو العودة إلى الاسلام إيماناً جازماً وعقيدة خالصة وتطبيقاً كاملاً.

لكن هذه العودة لم تقع بل كان انحراف أخطر وأعظم أنتجه الشق الثاني من الأزمة وهو تفوق الجاهلية وسيطرتها العامة.

---

(٢) ستودارد، حاضر العالم الإسلامي: ٤/٤١.

هذا التفوق وتلك السيطرة كانا دون شك مذهلين في كل ميدان. ولكن المسلمين ـ المتخلفين فهما وواقعاً ـ رأوهما أعظم بكثير جداً من حقيقتهما إلى حد أن الصدمة النفسية التي حاقت بالأمة الاسلامية احتاجت إلى عشرات السنين لتخفيف آثارها وإلى الكثير من المحاولات والتجارب المتدرجة.

وفي النماذج التي سيقت سلفاً عن إمكان تقبل المسلمين الذاتي للعلمانية ما يوضح هذه الحقيقة.

ومن أهم القضايا التي يجدر الانتباه إليها أن الانحراف غير المقصود ابتدأ من منطلق التخلص من جمود الفقه الاسلامي أمام التغيرات الحيوية الجديدة، ومن توهم المسلمين بأن سبب تخلفهم هو عجزهم التنظيمي والاداري وأن محاكاة أساليب الحياة الغربية جديرة بالقضاء على ذلك التخلف، وعلى هذا الأساس قامت الحركة المسماة «حركة الاصلاح» في جناحي العالم الاسلامي تركية ومصر.

في تركية:

في سنة ١٢٥٥هـ ١٨٣٩م أصدر السلطان عبد المجيد مرسومه الشهير: «لا يخفي على عموم الناس أن دولتنا العلية منذ مبدأ ظهورها وهي جارية (على) رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها، ولذا كانت قوة ومكانة سلطنتنا السنية ورفاهية وعمارية أهاليها وصلت حد الغاية، وقد انعكس الأمر منذ ١٥٠ سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناءً على طرو الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة، فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر... واعتماداً على المعونة الإلهية... قد رؤي من الآن فصاعداً أهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها إدارة ممالك دولتنا العلية المحروسة، والمواد الأساسية لهذه القوانين هي عبارة

عن الأمن على الأرواح وحفظ العرض والناموس والمال وتعيين الخراج وهيئة طلب العساكر للخدمة ومدة استخدامهم. . .»[٣].

والحق أن الاصلاح كان ضرورياً جداً، وليس لأحد أن يعترض على الفكرة في ذاتها، ولكن ما صاحبها من سوء الفهم وغبش التصور بالإضافة إلى مرونة الاصطلاح وسعة مدلولاته، كل ذلك أدى آخر الأمر إلى سحق الشريعة الاسلامية بكاملها تحت شعار الاصلاح نفسه ــ وهو ما فعله أتاتورك ــ.

وفي استطاعتنا أن نلحظ ذلك من أول الطريق بمطالعة تقرير اللجنة المشكلة لدراسة الحالة التشريعية في البلاد والتي انبثق عنها إخراج مجلة الأحكام العدلية:

«لا يخفى على حضرة الصدر العالي أن الجهة التي تتعلق بأمر الدنيا من علم الفقه كما أنها تنقسم إلى مناكحات ومعاملات وعقوبة، كذلك القوانين السياسية للأمم المتمدنة تنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة (!) ويسمى قسم المعاملات منها القانون المدني (!) لكنه لما زاد اتساع المعاملات التجارية في هذه الأعصار مست الحاجة إلى استثناء كثير من المعاملات كالسفتجة التي يسمونها حوالة وكأحكام الافلاس وغيرهما من القانون الأصلي ووضع لهذه المستثنيات قانون مخصوص يسمى قانون التجارة. . .»[٤].

هكذا كانت الثلمة الأولى في الشريعة متمثلة في قانون التجاره، والمصيبة الكبرى هي الأساس الفكري الذي بني عليه القانون وهو

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية: ٢٥٤.
(٤) المصدر السابق: ٢٩٨ ــ ٢٩٩.

اعتباره جزءاً من القانون المدني الذي هو بعينه ما يسمى في الاصطلاح الفقهي المعاملات[٥]!!.

ثم تلك الفكرة الدخيلة: مقارنة الاسلام بالأنظمة الكافرة واعتبار أممها «متمدنة»!

هذه السذاجة والغفلة عند منفذي الاصلاح الأوائل أصبحت عند الشباب التركي الدارس في أوروبا فكرة واعية ومبدأ مرسوماً. ومن ثم استبد أولئك المثقفون ثقافة غربية بمسمى الاصلاح وحددوا مواصفاته الخاصة التي ترمي في النهاية إلى نبذ الاسلام والتمسك بركاب أوروبا الكافرة.

سرت في قلوب أولئك روح التفرنج وتطور الأمر إلى أن «نشأت حركة ثورية تطالب بالاصلاح الداخلي الذي تمثل عندها في وضع حد لسلطة عبد الحميد المطلقة، وكان قادة هذه الحركة من مختلف الاتجاهات والميول والارتباطات لا يجمعهم إلا هذا الهدف... وهو قيام حكومة دستورية، ثم لا يتفقون على شيء بعد ذلك المطلب.

نظرياتهم السياسية متعددة بقدر ما أتيح لكل منهم أن يقرأ في اللغة الأجنبية التي يتقنها! صباح الدين وقع بيده كتاب أدموند ديمولان عن سر تقدم الانكليز السكسونيين[٦] ومن ثم اعتنق فكرة اللامركزية...

وأحمد رضا كان من سوء حظه أنه تعرف على «أوغست كومت» فاعتنق الوضعية إلى حد الاصرار على تأريخ منشوراته بالتاريخ الخاص للوضعيين وحذف التاريخ الهجري ليقود بهذه المنشورات دولة الخلافة!.

---

(٥) راجع ما ذكرناه في الفصل الأول عن هذه القسمة ص ٥١٢.

(٦) ترجمه للعربية: أحمد فتحي زغلول.

وأحمد رضا أمه نمساوية وأبوه كان يعرف باسم «إنكليزي علي بك» نظراً لميوله للإنكليز وحبه لهم(٧).

ونامق كمال كان وطنياً متأثراً بالنزعة القومية التي عاصرها أثناء إقامته في العواصم الأوروبية المختلفة(٨).

ووقع الصدام المحتوم بين هذه الحركة وبين السلطان عبد الحميد ــ رحمه الله ــ الذي كان يروم الاصلاح الحقيقي ممثلاً في دعوته إلى الجامعة الاسلامية وإعلان الجهاد.

وفي سنة ١٨٩٧ إستطاع بحنكته ودهائه أن يشل هذه الحركة ويستميل كثيراً من عناصرها، ولكن الجو الذي خلقته هذه الحركة والأفكار التي نشرتها ضد الاسلام كانت دافعاً مشجعاً لنشوء حركات سرية تآمرية تتمسح بشعارات وأهداف هذه الحركة وتخفي في أعماقها ما لم يكن في الحسبان.

نستطيع القول أن الحركة السالفة الذكر والتي تزعمها مدحت باشا وأعوانه تصور الجانب الذاتي من المأساة، وها قد تهيأ الجو لأعداء الأمة المتربصين كي يقضوا على الاسلام عقيدة وشريعة معتمدين على ذلك الجانب!

ذلك أنه في تلك السنة نفسها ١٨٩٧ إجتمع المؤتمر الصهيوني الأول وقرر أن تقوم دولة إسرائيل في فلسطين التابعة لحكم عبد الحميد.

وبسبب أن السلطان رفض بإصرار المساومة على فلسطين ولكون

---

(٧) القومية والغزو الفكري، جلال كشك: ٢٦٢ ــ ٢٦٣.

(٨) انظر الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الندوي: ٥٤، وفيما يتعلق بحركة الاصلاح التركي والأثر الأوروبي فيها يحسن الإطلاع على كتاب (أربرى): الدين في الشرق الأوسط، فصل: Religion and anti religion ــ الجزء الثاني: ٦٠٥ ــ ٦١٦.

الحقد اليهودي على الاسلام لم يخمد طوال العصور، ونظراً لنجاح التجربة اليهودية في أوروبا فقد اقتضى الأمر تدمير الخلافة العثمانية بثورة شبيهة بالثورة الفرنسية في أهدافها وشعاراتها لتكون فاتحة ظهور دول علمانية في العالم الاسلامي على النمط الأوروبي ومن ثم تفتح الطريق أمام الهدف الأعظم والحلم القديم «قيام حكومة يهودية عالمية دستورها التلمود وملكها من نسل داوود»![9].

ولا غرابة إطلاقاً في أن تكون اليد الطولى في هذا التدمير لأولئك اليهود الذين وسعتهم سماحة الاسلام حين ضيقت عليهم أسبانيا النصرانية[10].

ولا غرابة كذلك في أن يجد التلموديون عناصر إسلامية من المغفلين أو ضعاف الايمان يبذلون تضحيات عظيمة ويشكلون التغطية الضرورية اللازمة للمؤامرة.

من هذين العنصرين (اليهود الدونمة والمأجورين أو المغفلين من أدعياء الاسلام) تكونت الحركة العلمانية المسماة بحركة «الاتحاد والترقي» التي كانت تسير وفق طقوس الماسونية العالمية.

ولندع رأي شيخ الاسلام فيهم[11] ولننظر ما قاله «سيتون واطسن»:

«إن الأدمغة الحقيقية في الحركة كانت يهودية أو يهودية ـ مسلمة. وقد جاءت مساعدتها المالية من الدونمة الأغنياء ومن يهود

---

(٩) ليس في هذا أي مبالغة فقد توقع سرجي نيلوس ناشر البروتوكولات الروسي القضاء على حكم القياصرة في روسيا وعلى الدولة العثمانية تنفيذاً لمخططات اليهود وحدث ذلك بعد موته بسنين.

(١٠) أخرج فرديناند وايزابيلا اليهود من الاندلس بعد سقوطها في أيديهما فالتجأوا إلى الدولة العثمانية.

(١١) هو مصطفى صبري ـ انظر الاتجاهات الوطنية ٢/٧٨ وما بعدها مع الهوامش.

سلانيك ومن الرأسماليين العالميين أو شبه العالميين في فينا وبودابست وبرلين وربما في باريس ولندن أيضاً».

«إن الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير إسلامية فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركي صاف... ولم يكن أحد من الناس يجرؤ أن يتنبأ أن هذه الفئة اليهودية المغمورة المعروفة بالدونمة ستلعب دوراً رئيسياً في ثورة كان لها نتائج خطيرة في سير التاريخ»[١٢].

وبعد صراع مرير مع الخليفة وقفت فيه كل القوى الدخيلة والعميلة ضده انتصرت هذه العصبة وأقصت عبد الحميد عن الخلافة بالقوة سنة ١٣٢٥هـ ١٩٠٩م وكان الذي أخذ بثأر هرتسل منه هو «قره صو» اليهودي! وبزواله زالت العقبة الأخيرة في طريق مخططها اللاديني!.

فصلت تلك العصبة الخلافة عن السياسة واختارت سلطاناً جديداً لم يكن يساوي في نظرهم إلا أحد البابوات المؤقتين، ورأوا أن المناخ لم يتهيأ بعد لإلغاء منصب الخلافة.

أما فكرة الجامعة الاسلامية فقد أبطلها أولئك ونادوا بفكرة القومية الطورانية معلنين أن حركتهم تهدف إلى تتريك الولايات العثمانية، وكانوا يقصدون ـ العرب ـ مما دفع العرب إلى التعلق ببريطانيا ووضع مستقبلهم في يد عميل المخابرات لورانس منادين هم أيضاً بالثورة العربية والقومية العربية.

ويذكر برنارد لويس أن المستشرقين ومنهم الكونت قسطنطين

---

(١٢) القومية والغزو الفكري: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

بوزريسكي الذي ادعى الاسلام وتسمى مصطفى جلال الدين هم الذين أسسوا فكرة الطورانية[١٣]. ثم أعلنت عصبتهم الدستور ذلك الصنم الذي جعلته دعايتهم العريضة أعظم الغايات وجاء الدستور معبراً عن أهدافهم اللادينية إذ رفع شعارات الماسونية، وشدد على الحرية الدينية ومساواة غير المسلمين بالمسلمين في كل شيء باسم الوحدة الوطنية، وعطل عمل المحاكم الشرعية باسم الاصلاح والتقنين، مما أتاح الفرصة لأعداء الاسلام كي يتمكنوا من العمل بكل حرية ونشاط.

وإذا اعتبرنا أفكار «ضياء كوك ألب» مؤشراً للانتماء الفكري لهذه الحركة فسنجدها دون أدنى شك حركة لا دينية سافرة، لكن الناس ظلوا مترددين بشأنها لأنها لم تظهر أهدافها الحقيقية فقد كان المخطط ينفذ بدقة ماهرة.

لقد كانت اللعبة العالمية تقتضي اصطناع «بطل» تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرارة! وتعلّق الأمة الاسلامية اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود، وفي أوج عظمته وانتفاخه ينقض على الرمق الباقي في جسم الأمة فينهشه ويجهز عليها إلى الأبد![١٤] وهذا أفضل قطعاً من كل الـ «مائة مشروع لتقسيم تركيا»[١٥] وهدم الإسلام.

وتمت صناعة البطل بنجاح باهر ووقف يتحدى الحلفاء وألقى باليونان في البحر[١٦] ولم ير الحلفاء بدأ من التفاوض معه! وكانت ثمرة

---

(١٣) الغرب والشرق الأوسط برنارد لويس: ١٢٧.

(١٤) أنظر فصل صناعة الزعيم من كتاب عندما يحكم الطغاة؛ د. جريشة. وفي ظلال القرآن: ٨٦/٨ الغربية: ١٦.
والدبلوماسية والمكيافيللية، محمد صادق: ١٤٩.

(١٥) عنوان كتاب ألفه: جوفار ولخصه الأمير شكيب أرسلان في حاضر العالم الإسلامي.

(١٦) الأبطال الحقيقيون لحرب الاستقلال ذكرهم مؤلف كتاب «الرجل الصنم» وعلى العموم فان شجاعة المجاهدين الاتراك هي التي مكنت أتاتورك من ركوب الموجة، انظر الفصل الرابع من الكتاب المذكور.

المفاوضات هي ـ الاتفاقية المعروفة باتفاقية «كيرزن» ذات الشروط الأربعة:

«١ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً من تركيا.

٢ ـ أن تقطع تركيا كل صلة مع الإسلام.

٣ ـ أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية في تركيا.

٤ ـ أن يستبدل الدستور العثماني القائم على الإسلام بدستور مدني بحت»[(١٧)].

ويصف المؤرخ «آرمسترونج» خطوات تنفيذ الاتفاقية قائلاً:

«إنطلق كمال أتاتورك يكمل عمل التحطيم الشامل الذي شرع فيه وقد قرر أنه يجب عليه أن يفصل تركيا عن ماضيها المتعفن الفاسد، يجب عليه أن يزيل جميع الأنقاض التي تحيط بها، هو حطم فعلاً النسيج السياسي القديم، ونقل السلطنة إلى ديمقراطية، وحول الامبراطورية إلى قطر فحسب، وجعل الدولة الدينية جمهورية عادية، إنه طرد السلطان (الخليفة) وقطع جميع الصلات عن الامبراطورية العثمانية، وقد بدأ الآن في تغيير عقلية الشعب بكاملها وتصوراته القديمة وعاداته ولباسه وأخلاقه وتقاليده وأساليب الحديث ومناهج الحياة المنزلية التي تربطه بالماضي»[(١٨)].

وامتدح توينبي عمله واعتبره أعظم من هتلر عبقرية في فن الهدم وقطع الصلة بالماضي، وقال: «إن الدولة القومية التركية التي أقامها مصطفى كمال على النسق الغربي تبدو ـ وقت كتابة هذه السطور ـ

---

(١٧) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام: ١٧٤ والتفصيلات في الكتاب السابق.

(١٨) الصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الاسلامية: ١٦.

عملاً ناجحاً لم يتحقق مثله حتى ذلك الوقت في أي بلد اسلامي آخر»[١٩].

وامتدحه ولفرد كانتول سمث ـ على طريقته الخاصة ـ قائلاً:

«... رأينا تركيا في سبيل رفعة شأنها وخلق مثل عليا جديدة لم تتردد في سحق السلطات الدينية وألغت تعاليمها وحررت الإسلام وكشفت النقاب عن الدين الحق القويم»[٢٠]!!.

نصب مصطفى كمال نفسه إلهاً من دون الله يشرع للأمة كما يشاء، فلفق قانوناً فريداً يتكون أكثره من القانون السويسري والقانون الايطالي وغيرهما وأكمل الباقي من عنده، ومع ذلك فهو يدعي أنه كله من عنده قائلاً:

«نحن لا نريد شرعاً فيه قال وقالوا ولكن شرعاً فيه قلنا ونقول»[٢١].

ويصف أحد الكتاب الغربيين جلسة في مجلس النواب فيقول أن مصطفى كمال وقف قائلاً:

«إن التشريع والقضاء في أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لأحوال الزمان لا للمبادىء والتقاليد».

ثم اقتفاه وزير العدل شارحاً ومفسراً:

«إن الشعب التركي جدير بأن يفكر بنفسه بدون أن يتقيد بما فكر غيره من قبله، وقد كان كل مادة من مواد كتبنا القضائية مبدوءة

---

(١٩) مختصر دراسة التاريخ: ١١٣/٣.

(٢٠) الإسلام والخلافة: علي الخربوطلي: ٢٨٥.

(٢١) حاضر العالم الإسلامي: ٣٤٣/٣.

بكلمة قال المقدسة، فأما الآن فلا يهمنا أصلاً ماذا قالوا في الماضي بل يهمنا أن نفكر نحن ونقول نحن»[٢٢].

ويعترض عليه مرة أحد القانونيين بقوله:

«إن هذا النظام الذي تريدون وضعه لا يوجد في أي كتاب للقانون». فيتلقى الجواب التالي:

ـ إن النظم ليست إلا أشياء وأموراً تكيفت ومرت من التجارب... علي أن أنفذ ما أريد وعليكم أن تدرجوا ما أعمل في الكتب»!![٢٣].

ونتيجة التطرف والغلو المفرط والأعمال التي لا مبرر لها إلا تنفيس الحقد الأوروبي على الاسلام ومركب النقص الذي كان يستشعره الكماليون ـ إتخذت تركيا المتعلمنة تدبيرات وإجراءات غريبة حقاً:

فقد ألغت بالعنف والارهاب الكتابة التركية بالأحرف العربية ثم تجرأت فحرمت الأذان بالعربية، وكتبت المصحف أو ترجمته بلغتها الهجين، وحددت عدد المساجد وأقفلت كثيراً منها أو حولته إلى ما لا يتفق وقداسته كما فعلت بجامع أيا صوفيا، وألغت وزارة الأوقاف. وفرضت بقوة السلاح المسخ الفكري وحتى المظهري على الأمة لا سيما معركة القبعة الأوروبية التي سالت لأجلها الدماء، وألغت الأعياد الاسلامية، وحطمت بصورة إستبدادية مظاهر الحشمة والحياء الاسلاميين، فأكرهت النساء على تقليد المرأة الغربية في كل شيء

---

(٢٢) المصدر السابق: ٣/٣٤٤، ٣٤٥.

(٢٣) الرجل الصنم: ٢٠٥.

وحاربت بشدة صارمة كل من اعترض طريقها من المتورعين وحتى المعتدلين شيئاً ما من الكماليين[٢٤].

ولذلك فإن حكومة تركيا العلمانية الكمالية ــ هي كما وصفها الأمير شكيب أرسلان ــ ليست حكومة دينية من طراز فرنسا وانجلترا فحسب، بل هي دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء، إذ أنه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الأناجيل وزي رجال الدين وطقوسهم الخاصة وتلغي الكنائس[٢٥].

والحقيقة المرة أن مصطفى كمال قد خلق نموذجاً صارخاً للحكام في العالم الاسلامي وكان لأسلوبه الاستبدادي الفذ أثره في سياسات من جاء بعده منهم، كما أنه أعطى الاستعمار الغربي مبرراً كافياً للقضاء على الاسلام فإن فرنسا مثلاً بررت تنصير بلاد المغرب العربي وفرنجتها بأنه لا يجب عليها أن تحافظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم!!

وليس أعجب من هذا الرجل وزمرته إلا من ينادون اليوم ــ من الزعماء ــ بإقامة حكومات علمانية في بلادهم ويقولون أن مصطفى كمال هو قائدهم الروحي.

في مصر:

يقول توينبي أن مصر بدأت تتجه نحو الاصطباغ بالصبغة الأوروبية منذ أيام محمد علي متفوقة على تركيا،[٢٦] كما يرى جب أنها

(٢٤) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، فصل «تركية والإسلام في الغرب» جان بول رو: ١٨١، ١٨٦، والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية: ٥٩ ــ ٦٣.

(٢٥) حاضر العالم الإسلامي: ٣/٣٣٦.

(٢٦) مختصر دراسة التاريخ: ٣/١١٣.

سبقت تركيا في ذلك[٢٧]. وكان الخديوي اسماعيل مفتوناً بالغرب، وقد مهدت سياسته الفاشلة لتدخل بريطانيا في شؤون مصر ثم احتلالها نهائيا.

ومع الاحتلال جاء كرومر بمخططه الخبيث وبدأت القوى العالمية تشرف على حركة إلغاء الإسلام أو عزله عن شؤون الحياة كلها.

والحق أنه لم يكن لكرومر ولا لغيره أن ينجح لولا الزعماء والعلماء الذين تطوعوا بخدمته، فالحزب الوطني ــ أول حزب سياسي في مصر ــ يعلن برنامجه الرسمي سنة ١٨٨٢ م ونجد فيه:

«الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب، وأغلبيته مسلمون لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين، وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه، لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات، ويعلم أن الجميع إخوان وأن حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية»[٢٨].

والثورة العرابية لو قدر لها أن تنجح فربما كانت سبقت مصطفى كمال بأشياء كثيرة فها هو أحد زعمائها يقول:

«كنا نرمي منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا، ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم ومع ذلك فسنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت»[٢٩] ولهذا فما الذي يمنع كرومر بعد ذلك أن يقول:

«إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ولكنه فاشل كنظام اجتماعي، فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي

---

(٢٧) وجهة الإسلام: ٤٢ ــ ٤٣.

(٢٨) الاتجاهات الوطنية: ١/١٥٤.

(٢٩) المصدر السابق: ١/١٥٩.

ولكنه مع ذلك أبدي لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني»[٣٠].

ثم أن كرومر قد حرص على أن يؤكد للمصريين «أن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوروبية لا يصلح لحكم مصر، كما أكد أن المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المتربين تربية أوروبية»[٣١] ومن هنا كانت رغبة المحتلين الشديدة في تعاون العلماء (المتنورين) معهم، وهي الرغبة التي تجلت في تشجيعهم للحركة «الاصلاحية» واحتضانها.

كان زعيم الاصلاح في مصر هو الشيخ محمد عبده الذي أثاره تقدم الغرب وتخلف المسلمين في كل ميدان فهبّ يدعو إلى الاصلاح متأثراً بفكر جمال الدين الأسد آبادي الشهير بالأفغاني، وكان أمل المخطط اليهودي الصليبي ـ كما أوضح كرومر وجب وغيرهما ـ أن تكون حركة الشيخ مماثلة تماماً لحركة «سير أحمد خان» مؤسس جامعة «علي قره» بالهند التي تسمت «المعتزلة الجدد» وكانوا مفتونين بحضارة الغرب منبهرين بها إلى أقصى حد.

ولكن ظروف مصر غير ظروف الهند، كما أن الشيخ وإن كان اعتزالياً متطرفاً[٣٢] لم يستطع أن يصدم المشاعر الاسلامية بأكثر مما فعل حيث قامت ضد بعض تصرفاته ضجة في كثير من أنحاء العالم

---

(٣٠) المصدر السابق: ١/٢٥٩، ٢٦٠.

(٣١) المصدر السابق: ١/٢٦١.

(٣٢) لعل هذا هو أقرب ما يصح أن يوصف به الشيخ من الانتماءات المذهبية وان كان في الواقع له اتجاه مستقل أحياناً، وتظهر اعتزاليته أو عقلانيته في تأويلاته المشهورة للملائكة والجن والطير الأبابيل وخلق آدم... الخ وربما كانت هذه التأويلات هي التي دفعت كرومر إلى قوله «اشك في ان صديقي عبده.. كان في الحقيقة لا ادريا» نقلها عنه جب، ص ٣٩٩، دراسات في حضارة الإسلام.

الاسلامي (الفتوى الترنسفالية، فتوى إباحة صناديق التوفير...).
وليس ثمة شك في أن «مصر الحديثة» التي يريدها كرومر هي دولة لا دينية لا صلة لها بالاسلام وحكومتها ستكون على الشرط الذي مر آنفاً، أما محمد عبده فلم تكن لديه كما يبدو صورة واضحة، وإنما كان يهدف إلى الاصلاح الذي ينشده في ظل الاحتلال الانجليزي. ولهذا فإن التعاون بين كرومر والشيخ يعني تقديم تنازلات من الأخير للأول، أما العدو المشترك لهما فهم العلماء «غير الأحرار» الذين كانوا ــ رغم ما فيهم ــ ينفرون من المحتل والعمل معه في أية صورة!

وابتدأ محمد عبده عمله الاصلاحي بمهاجمة الأزهر ونقد المحاكم ونقد الحياة الاجتماعية وكرومر من ورائه يقطف الثمار.

لقد كانت بريطانيا ــ كعادتها ــ عازمة على إلغاء الشريعة الاسلامية فور تمكنها في البلاد، غير أن كرومر رأى أن أفضل وسيلة لذلك هو تفريغ المحاكم الشرعية من محتواها بأن يتولاها علماء «ذوو طابع تحرري» تتم تربيتهم بإشرافه هو والشيخ في معهد خاص لقضاة الشرع، وقوّى عزمه على ذلك، المعلومات التي يذكر أنه حصل عليها عن الكلية التي أنشأتها في سراجيفو حكومة النمسا والمجر[٣٣] لتخريج قضاة الشرع المسلمين والتي يقول عنها أنها «كلية أثبتت نجاحها من كل الوجوه» ويتحدث عن ذلك في تقريره السنوي لحكومته عام ١٩٠٥:

«... وقد وضعت هذه المعلومات تحت تصرف لجنة ذات كفاية ممتازة يرأسها المفتي الأكبر السابق (محمد عبده) بقصد وضع خطة مشابهة تلائم ظروف مصر وحاجاتها، وقد أتمت اللجنة عملها في شهر يونيه السابق ووضعت النظم المقترحة تحت تصرف الحكومة... وهذه

(٣٣) انظر كيف اتفق المخطط الصليبي هنا وهناك، و«الكفر ملة واحدة».

النظم تزود الطالب ببرامج ثقافية ذات طابع تحرري لا تحصر الطالب في الدراسات الدينية الخاصة»[٣٤].

والعجيب حقاً أن محمد عبده لم يكن يرى حرجاً من اقتباس القوانين التشريعية الغربية، ما دام ذلك يحقق (الاصلاح في نظره) بل يقول العقاد ــ وهو من المعجبين به ـ إنه «علم أن المراجع العربية لهذه القوانين لا تعطيه الإحاطة الواجبة بتلك المبادىء في أصولها المأثورة عند فلاسفة التشريع الغربيين فشرع في تعلم اللغة الفرنسية»[٣٥]. كما أن إعجابه بالثقافة الغربية هو الذي جعله يبالغ في انتقاص الأزهر مطلقاً عليه لفظ «الإصطبل أو المارستان أو المخروب» ويحاول إصلاحه وإصلاح التعليم كله على الطريقة الغربية ويقول:

«إن كان لي حظ من العلم الصحيح... فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة»[٣٦].

لا شك أن الأزهر كان بحاجة إلى الاصلاح، ولكن الاصلاح الذي يريده الانجليز ــ ومعهم الشيخ ــ كان من نوع آخر، لا سيما وأن شبح سليمان الحلبي يهدد كرومر كل حين[٣٧].

وكان من أعظم خطط الانجليز للقضاء على الشريعة الاسلامية إنشاء «مجلس شورى القوانين» الذي كانوا يحكمون مصر من خلاله، والذي قدم الشيخ له خدمات جليلة مما دفع المستشار القضائي الانجليزي إلى رثائه في تقريره عن المحاكم لعام ١٩٠٥ قائلاً:

---

(٣٤) الفكر الاسلامي دراسة وتقويم، غازي التوبة: ٣٠.

(٣٥) «محمد عبده» سلسلة اعلام العرب: ١٠٩.

(٣٦) الفكر الإسلامي الحديث، غازي التوبة: ٢٧.

(٣٧) انظر ص ٥٣٣ من هذا الكتاب.

«ولا يسعني ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في شهر يوليه الفائت وأن أبدي أسفي الشديد على الخسارة التي أصابت هذه النظارة بفقده...».

إلى أن يقول:

«وفوق ذلك فقد قام لنا بخدمة جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيراً من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية، إذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ويناضل عنها ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك (!) وإنه ليصعب تعويض ما خسرناه بموته نظراً لسمو مداركه وسعة إطلاعه وميله لكل ضروب الاصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته إلى مدن أوروبا (!) ومعاهد العلم...»[٣٨].

وقد يكون أخطر آثار محمد عبده التي تعد ركيزة من ركائز العلمانية في العالم الاسلامي إضعاف مفهوم «البراء والولاء، ودار الحرب ودار الاسلام» إذ كان الشيخ أعظم من اجترأ عليه من المنتسبين للعلماء، لا بتعاونه مع الحكومة الانجليزية الكافرة فحسب، ولكن بدعوته الصريحة إلى موالاة الانجليز وغيرهم ــ بحجة أن التعاون مع الكفار ليس محرماً من كل وجه ــ ودعوته إلى التقريب بين الأديان.

حقيقة أن الرأي العام الاسلامي قد ثار على بعض فتاوى الشيخ التي أباح بها موالاة الكفار ولكن تأثيرها في الأمة لا شك فيه،

---

(٣٨) الفكر الإسلامي...: ٢٥.

لا سيما في تلك الفترة الحرجة التي تتميز بغبش الرؤية واختلاط المفهومات.

ويليها في الخطورة فتواه حول إباحة الربا بطريق صناديق التوفير معتمداً ـ كما يرى العقاد ـ على مفهوم الآية من أنه لا يحرم من الربا إلا الأضعاف المضاعفة!

وأخيراً فإن الشيخ ـ بقصد أو بدون قصد ـ قد أوجد القاعدة التي ارتكز عليها من يسمون دعاة الاصلاح[٣٩] للتعلق بأذيال الغرب واقصاء الاسلام عن توجيه الحياة، إذ ظلوا ينقضون عرى الاسلام عروة عروة حتى أن المعركة الآن أصبحت تدور ضد قانون الأحوال الشخصية وهو البقية الضئيلة من آثار الشريعة الاسلامية والميزة الاجتماعية التي تميز المسلم من غيره.

لم يكن محمد عبده علمانياً ولكن أفكاره تمثل بلا شك حلقة وصل بين العلمانية الأوروبية والعالم الاسلامي، ومن ثم فقد باركها المخطط اليهودي الصليبي واتخذها جسراً عبر عليه إلى علمانية التعليم والتوجيه في العالم الاسلامي وتنحية الدين عن الحياة الاجتماعية بالإضافة إلى إبطال العمل بالشريعة والتحاكم إلى القوانين الجاهلية المستوردة، واستيراد النظريات الاجتماعية الغربية، وهو ما تم جميعه تحت ستار «الاصلاح» أيضاً[٤٠]. أما الجماهير الاسلامية فقد اتخذت أفكار الشيخ الاصلاحية مبرراً نفسياً لتقبلها للتغيير العلماني المتدرج في الدول العربية.

---

(٣٩) من الانصاف ان نذكر ان الشيخ ندم على طريقته في الاصلاح مفضلاً عليها تطبيق التربية الفردية، انظر كتاب العقاد «الاسلام في القرن العشرين»: ١٤٧.

(٤٠) انظر حول آثار الفكر الاصلاحي: غازي التوبة: ٥٤ والاتجاهات الوطنية: ١/٣٥٥ وأساليب الغزو الفكري: ٢٠١ ـ ٢٠٥. وقول جب عنه (كان تلاميذه الحقيقيون من صفوف العلمانيين) دراسات في حضارة الإسلام: ٣٣٠.

وقد صور محمد المويلحي في عمله الرائع «حديث عيسى بن هشام» شيئاً من ذلك على لسان أبطال الرواية، إذ يسأل أحدهم متعجباً كيف ساغ للمصريين أن يأخذوا بقانون نابليون المخالف للشريعة؟ فيجيب الآخر بأن المفتي أقسم بالله أنه موافق للشريعة[٤١].

هذا وقد عاصر محمد عبده رجل آخر من دعاة الاصلاح أيضاً هو عبدالرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢) يحق لنا أن نقول أنه أول من نادى بفكرة العلمانية حسب مفهومها الأوروبي الصريح فهو يقول:

«يا قوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين أدعوكم إلى تناسي الاساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون، فهذه أمم أوستريا وأميركا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الاداري...

«دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط (!) دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء»[٤٢].

واقتفى هذين عدد من الكتاب والصحفيين المشبوهين ــ من أدعياء الاسلام وغيرهم، يطالبون بضرورة فصل الدين عن السياسية وإبعاده عن واقع الحياة وأن ذلك هو الحل الوحيد لمشاكل الشرق، وكان لسموم المستشرقين ودسائس المبشرين أعظم الأثر في ذلك.

وقد هوجمت الشريعة الاسلامية بكاملها وتوالت حملات

---

(٤١) انظر ج١ ص: ٧٢ ــ ٧٣.

(٤٢) طبائع الاستبداد: ١١٢ ــ ١١٣.

التشكيك معلنة عدم ملاءمتها لمقتضيات العصر وظروف التطور، ومن أبرز الموضوعات التي هوجمت:

١ ـ الجانب الاقتصادي: فقد حرص المغرضون على تضخيم فتوى محمد عبده ليبتروا هذا الجانب بكامله عن الشريعة، ومن استخدموا لذلك حفني ناصف الذي قال «إن الربا بفائدة ليس من أنواع الربا المحرم، وأن سبب تخلف مصر هو عدم فتح بنوك على الطريقة الغربية»[٤٣] ثم تلاه من تلاه حتى استصدرت فتوى من أحد شيوخ الأزهر البارزين بإباحته، ولا يزال هذا هو رأي من يسمون أصحاب الاتجاه العصري[٤٤].

وقد تم عملياً عزل الشريعة عن هذا المجال المهم منذ زمن بعيد إلا أن المغرضين ما يزالون حريصين على اختلاق ما يبرره.

٢ ـ الجانب الاجتماعي: إذ كانت أفكار محمد عبده أيضاً منطلقاً للهجوم على موقف الشريعة من المرأة، وسيأتي لهذا الموضوع فصل مستقل بإذن الله.

أما الموضوع الأساسي وهو الحكم بغير ما أنزل الله في السياسة والقضاء فقد كان له بعد محمد عبده تاريخ آخر.

لقد أتم المستعمرون ـ عملياً ـ إقصاء الشريعة بل إسدال الستار على هذا الموضوع من أساسه، وزرعوا الأحزاب السياسية المتباينة التي تتفق جميعها في عدم رفع شعار الاسلام أو الدعوة إلى تحكيمه.

وعقب إلغاء مصطفى كمال للخلافة سنة ١٣٤٣ هـ، وفيها كان

---

(٤٣) انظر حفني ناصف تأليف محمود غنيم سلسلة اعلام العرب: ١٦١.

(٤٤) انظر مجلة الدعوة المصرية عددي محرم وصفر سنة ١٣٩٩ هـ.

الرأي العام في العالم الاسلامي مأخوذاً بهول الصدمة طلع رجل أزهري بفكرة غريبة مريبة يقول المستشرق «شمتز»[٤٥] إنها كان لها الفضل في تخفيف وطأة ما فعله أتاتورك على مشاعر المسلمين، ذلك هو علي عبدالرازق صاحب كتاب «الاسلام وأصول الحكم»!

جمع عبدالرازق في كتابه بين أسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة ـ واقتطاع النصوص وتلفيق الواهيات، وبين طريقة الباطنية في التأويل البعيد، وسرد نبذاً من سير الطواغيت ونتفاً من أقوال متملقيهم، وعمد إلى مغالطات عجيبة ـ كل ذلك ليدلل على أن الاسلام كالمسيحية المحرفة علاقة روحية بين العبد والرب لا صلة لها بواقع الحياة.

ولم يفت «الشيخ» أن يدلنا على أحد مراجعه الرئيسية لنستكمل ما قد يكون فضيلته عجز عن بيانه فهو يقول في الكتاب نفسه:

«وإذا أردت مزيداً في البحث فارجع إلى «كتاب الخلافة» للعلامة (!) السير تومس آرنلد ففي الباب الثاني والثالث منه بيان ممتع ومقنع»[٤٦] ثم يقول:

«تكلم عيسى ابن مريم عليه السلام عن حكومة القياصرة وأمر بأن يعطى ما لقيصر لقيصر...» «وكان ما جرى في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام من ذكر الإمامة والخلافة والبيعة الخ لا يدل على شيء أكثر مما دل عليه المسيح حينما ذكر بعض الأحكام الشرعية عن حكومة قيصر»[٤٧].

---

(٤٥) الإسلام قوة الغد العالمية: ١٦٠ مع مراعاة أنه لم يذكر الكتاب صراحة بل قال «فتوى من الأزهر».

(٤٦) الإسلام وأصول الحكم: ٤١ المطبوع مع نقد وتعليق ممدوح حقي.

(٤٧) المصدر السابق: ٤٥.

ويقول:

«إن يكن الفقهاء أرادوا بالامامة والخلافة ذلك الذي يريده علماء السياسة بالحكومات كان صحيحاً ما يقولون من أن إقامة الشعائر الدينية (الشعائر فقط) وصلاح الرعية يتوقفان على الخلافة بمعنى الحكومة في أي صورة كانت الحكومة ومن أي نوع، مطلقة أو مقيدة فردية أو جمهورية استبدادية أو دستورية أو شورية، ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية، لا ينتج لهم الدليل أبعد من ذلك، أما إن أرادوا بالخلافة ذلك النوع الخاص من الحكم (يعني الحكم الاسلامي!) فدليلهم أقصر من دعواهم وحجتهم غير ناهضة»[48].

هذا ولسنا بصدد استعراض ذلك الكتاب المريب، ولكن تجدر الاشارة إلى أنه كان له آثار بعيدة فقد ترجم إلى اللغات الأجنبية وأصبح مرجعاً معتمداً للدراسات الاسلامية هناك، وقام بتقريظه والثناء عليه كل المهتمين بهذه الدراسات في الغرب، وظهرت آثاره في كتاباتهم[49] وهلل له سماسرة الاستعمار من الكتاب والصحفيين باعتبار مؤلفه عالماً متحرراً متنوراً، ووضعه البعض على رأس مرحلة فكرية عصرية... الخ.

ووجدت الأحزاب السياسية فيه ضالتها المنشودة. فلم تعد تتحرج من إعلان انتمائها للإتجاهات السياسية اللادينية شرقيها وغربيها، وبراءتها من الدين والمتدينين. أما الكتب التي ألفت في الرد عليه فقد حاصرتها الدوائر الإستعمارية وأهملتها وسائل الإعلام حتى لم يكد يظهر لها صدى عند غير القلة المخلصة.

وفي الفترة التي أعقبت إلغاء الخلافة كانت معظم أجزاء العالم الإسلامي خاضعة للإستعمار، وكانت مخططاته الماكرة تنفذ بدقة

(٤٨) المصدر السابق: ٨٣.

(٤٩) انظر مثلاً ما كتبه جب عن الخلافة في كتابه: دراسات في حضارة الإسلام.

وعناية وكانت حركات الجهاد الإسلامي في كل قطر تسعى للخلاص من براثنه هادفة إلى بعث إسلامي جديد، لكن الإستعمار والأحزاب السياسية غير الإسلامية كانت ترمي إلى عكس ماتهدف إليه تلك الحركات. وفيما كانت مصر مؤهلة لقيادة العالم الإسلامي من جديد وكان الإستعمار يلم شعثه لمغادرتها ثارت زوبعة حول صلة الإسلام بالحكم تزعمها كتاب نصارى أمثال سلامة موسى ولويس عوض وأناس يدعون الإسلام.

من بين هؤلاء خالد محمد خالد الذي كتب كتابه «من هنا نبدأ» هادفاً إلى ما قصده علي عبد الرزاق من قبل، ولكن بأسلوب أذكى وأحدث(*).

ومن قبله كان الشيخ عبد المتعال الصعيدي «يحاول هدم الحدود الإسلامية المستقرة في الكتاب والسنة زاعماً أن الأمر بها للندب لا للوجوب وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم إلى آخر هذا اللغو المتهافت»(٥٠).

ثم ظهرت أفكار كثيرة تبرر انتهاج الطوائف الغربية في الحكم والعمل بالقوانين الجاهلية، وأسهمت وسائل الإعلام ـ لا سيما الصحافة ـ في نشر وتعميم تلك الأفكار حتى استحكمت غربة الشريعة وخفت صوت المكافحين عنها، بل أصبح ـ في نظر الغالبية العظمى ـ رمزاً للرجعية والتأخر(٥١).

واكتفى البعض بالقول بأن الدين للواقع وأن التفكير السياسي

---

* انظر رد الشيخ الغزالي عليه في كتابه: من هنا نعلم.

(٥٠) من هنا نعلم: ١٣.

(٥١) انظر ما كتبه مصطفى امين في اخبار اليوم تاريخ ١٣٩٧/٨/٢٧ هـ.

الإسلامي في أزمة، وأنه لا بأس من اشتقاق القوانين والتشريعات من الفقه والقوانين الغربية سواء[٥٢]. هذا من الوجهة الفكرية أما من الناحية العملية فإن واقعنا المشاهد اليوم لهو خير دليل على ما بلغته العلمانية من التغلغل في الحياة الإسلامية، فعلى الرغم من فشل التجارب الديمقراطية وإخفاق المحاولات الإشتراكية فإن الرقعة الإسلامية العريضة ما تزال تتخبط وتضطرب بين شعارات وأنظمة ومناهج الغرب اللادينية، أما الشريعة الإسلامية فقد غابت لا من الواقع فحسب بل من الشعور والوجدان على النحو الذي صوره «جب» بدقة إذ يقول:

«إن التعليم عن طريق المدارس العصرية والصحافة قد ترك في المسلمين من غير وعي منهم أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام علمانيين إلى حد بعيد، وذلك هو اللب المثمر في كل ما تركته محاولات الغرب من أجل حمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار. فالواقع أن الإسلام كعقيدة لم يفقد إلاّ قليلاً من قوته وسلطانه، ولكن الإسلام كقوة مسيطرة على الحياة الإجتماعية فقد مكانته، فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه، وهي في كثير من الأحيان تتعارض مع تقاليده، وتعاليمه تعارضاً صريحاً ـ ولكنها تشق طريقها إلى المجتمع الإسلامي في قوة وعزم.

«فإلى عهد قريب لم يكن للمسلم اتجاه سياسي (يخالف الإسلام) ولا أدب إلاّ الأدب الديني ولا أعياد إلاّ الأعياد الدينية ولم يكن ينظر إلى العالم الخارجي إلاّ بمنظار الدين وكان الدين هو كل شيء بالقياس إليه.

«أما الآن فقد أخذ يمد بصره إلى ما وراء عالمه المحدود...

(٥٢) من هؤلاء فتحي عثمان وعبد الرزاق السنهوري والمدرسة العصرية.

وصار يقرأ مقالات في مواضيع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين بل أن وجهة نظر الدين فيها لا تناقش على الإطلاق، وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الإسلامية لم تعد هي الفيصل فيما يعرض له من المشاكل، ولكنه مرتبط في المجتمع الذي يحيا فيه بقوانين مدنية لا يعرف أصولها ومصادرها، ولكنه يعرف على كل حال أنها ليست مأخوذة من القرآن.

«وبذلك لم تعد التعاليم الدينية القديمة صالحة لإمداده في حاجاته الروحية فضلاً عن حاجاته الإجتماعية بينما أصبحت مصالحه الدينية وحاجاته الدنيوية هي أكثر ما يسترعي انتباهه، وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الإجتماعية، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى انحصرت في طقوس محدودة، وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعي وانتباه، وكان الذين أدركوا هذا التطور قلة ضئيلة من المثقفين، وكان الذين ساروا فيه عن وعي وتابعوا طريقهم فيه عن اقتناع قلة أقل، وقد مضى هذا التطور إلى مدى بعيد، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه، وقد يبدو الآن من المستحيل مع تزايد الحاجة إلى التعليم ومع تزايد الإقتباس من الغرب أن يُصدّ هذا التيار أو تعاد إلى الإسلام مكانته الأولى من السيطرة التامة التي لا تناقش على الحياة السياسية والإجتماعية».

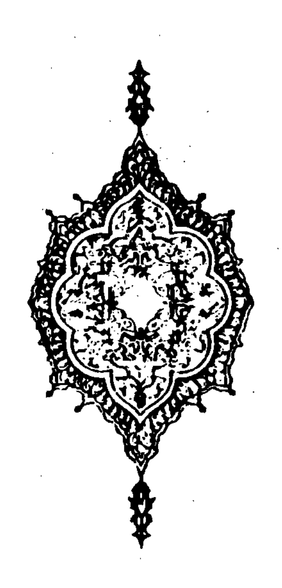
وينتهي «جب» إلى القول: أن العالم الاسلامي سيصبح خلال فترة قصيرة جداً علمانياً في كل مظاهر حياته»[٥٣].

---

(٥٣) عن مذكرة المذاهب الفكرية للسنة الرابعة بكلية الشريعة ـ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ـ علماً بأنني لم أعثر على النص في الترجمة المتداولة لكتاب وجهة الإسلام، لكن تأكد لدي بإيراد الدكتور محمد محمد حسين له مع اختلاف ضئيل انظر الاتجاهات الوطنية ٢/٢١٨ ـ ٢٢٠.

ويقول في موضع آخر ـ وكأنما هو يستدرك على ما أوردنا:

«... وكان طبيعياً أن يبقى الإسلام... وقد يكون الدين الرسمي للدولة، ولكنه سلب الحقوق التشريعية ونزل إلى مكانة الديانة المسيحية في الدول الأوروبية وقد اختلف تطبيق هذا المبدأ بطبيعة الحال وفق ظروف كل إقليم»(٥٤).



٥٤) وجهة الإسلام: ٥١، ويستحسن الاطلاع على ما كتبه جان مينو في «القوى الخفية»: ١٤٢.

ثانياً ـ في التربية والثقافة

قبل أن يصطدم الغرب المتحضر بالشرق المتخلف كانت التربية في الأخير متأخرة أسلوباً وموضوعاً، وكانت الثقافة جامدة ومحدودة.

كان نصيب الأمة الإسلامية من المعرفة ينحصر في بقايا التراث الفكري الذي دونه علماء الكلام والفقه واللغة في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية تلك البقايا التي تسمى «الكتب الصفراء» أو الثقافة التقليدية، وفي أحسن الأحوال «الثقافة الأصلية» ـ كما في بلاد المغرب ـ.

ولا شك أن هذه البقايا تشكل جانباً من جوانب الثقافة الإسلامية في مفهومها الواسع ـ بغض النظر عن مدى صدقها في تمثيل حقيقة التصور الإسلامي المفترضة في ذلك الجانب ـ ولكن من المؤكد أن ذلك لا يصح اعتباره الصورة الكاملة المثلى للثقافة الإسلامية، ومن ثم فإن الحكم على الإسلام من خلال النظرة لذلك الجانب وحده خاطىء يقيناً.

ولسنا الآن بصدد الحديث عن مفهوم العلم في التصور الإسلامي ولكن الذي يهمنا هو إيضاح أن المستوى العلمي للمسلمين في القرن الماضي لا يمثل هذا المفهوم أبداً بل إنه ـ في بعض الأحيان ـ ليتنافى معه تمام المنافاة.

ولنأخذ شاهداً قريباً لذلك من الأزهر الذي صُبت عليه اللعنات لجموده وتخلفه.

كان الأزهر منذ تأسيسه يدرس في حلقاته المكتظة الفلك والجبر والهندسة والطب كما يدرس الفقه والنحو والحديث سواء بسواء بلا حرج ولا غضاضة.

وظل كذلك إلى عصر ليس ببعيد، فها هو ذا الجبرتي يورد في تاريخه أسماء كثيرين ممن نبغوا في هذه العلوم بالنسبة لعصرهم ـ منهم والده ـ وإن كان مستواهم متخلفاً بالنسبة لما هو عليه حال معاصريهم في الغرب، ذلك أن هؤلاء يمثلون الدفعات الأخيرة لحضارة منهارة، في حين يمثل أولئك ـ الغربيون ـ طلائع متقدمة لحضارة فتية. ومع ذبول الحضارة الإسلامية التدريجي تقلص ميدان العلم ليقتصر على العلوم الضرورية التي لا يمكن للمجتمع الإسلامي أن يحيا بغيرها، وأهملت العلوم الأخرى لا تحريماً لها ولكن عجزاً وتهاوناً يمليها الواقع المنهار من كل ناحية.

وفي فترة الركود العلمي تلك ولدت أجيال بررت ذلك العجز والتهاون بصنوف المعاذير ثم استساغت الإنغلاق وفسرت الدين نفسه تفسيراً ضيقاً وحددت علومه تحديداً نابعاً من واقعها المظلم لا من حقيقة الدين وجوهره.

وفيما كانت الأوضاع تنحدر إلى الهاوية تلقت الأمة ضربة عنيفة من يد نابليون ـ طليعة الحضارة الغربية الكافرة ـ أيقظتها هذه الضربة من نومها ولكنها أفقدتها صوابها.

لقد فتح المسلمون أعينهم على وسائل جديدة، وإمكانيات حديثة تسندها علوم ناهضة، وتعززها بحوث دائبة، وكان من الممكن

ـ عقلاً ـ أن ينهضوا من كبوتهم مستفيدين مما رأوا، ولكنهم ـ واقعاً ـ لم يفعلوا ذلك لأنهم:

أولاً: لم يكونوا يملكون القدرة على التمييز وتقدير التجربة حق قدرها، و:

ثانياً: كان اقتران العلوم الجديدة بتلك الحملة الصليبية الوحشية ـ التي انتهكت حرمة الأزهر نفسه ـ دافعاً لمقت نلك العلوم ورفضها إطلاقاً.

وحدثت نفرة شديدة بين علم الأزهر الذي كان يعتقد أنه يمثل الثقافة الإسلامية أصدق تمثيل وبين علم الغرب الذي بدا لأعين الأزهريين علمًا غريباً خاصاً بالكفار.

من هذا الخطأ التاريخي تقريباً نشأت الازدواجية الخطرة في العالم الإسلامي: تعليم ديني ضيق محدود، وتعليم لا ديني يشمل نشاطات الفكر كلها.

«وقد حاول محمد علي في أول الأمر أن يدخل العلوم الحديثة ضمن مناهج الأزهر، إلّا أنه خشي معارضة الأزهريين، فقام على الفور بإنشاء نظامه التعليمي الحديث، وهكذا انقسم التعليم في مصر إلى نظام ديني ونظام مدني حديث»[(١)].

ولما كان اللقاء بين شيخ الأزهر و«جومار»[(٢)] مستحيلاً فقد كان لا بد من الصراع بين أتباع وثقافة كل منهما، ورأى أبناء جومار أن القضاء على الأزهر يكون ببقائه جامداً معزولاً عن الحياة ومتغيراتها،

---

(١) تاريخ ونظام التعليم في مصر: منير عطا الله وزملاؤه: ٧٩.

(٢) استاذ فرنسي عهد إليه محمد علي بالاشراف على الطلبة المبتعثين.

فاستصدروا من الخديوي اسماعيل سنة ١٨٧٢ «القانون الخاص بتنظيم الأزهر وإصلاحه!!» وتنص فقرة ب منه على.

«تحديد الدراسات التي تعطى بالأزهر بإحدى عشرة مادة هي: الفقه وأصول الدين والتوحيد والحديث والتفسير والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق»[٣].

ووافق ذلك هوى في نفوس علماء الأزهر، وبذلك قطع الطريق أمام وعي ذاتي لإصلاح الأزهر حقيقة.

أما المدارس الحديثة التي أنشأها محمد علي وأولاده فقد كانت مجالاتها أرحب وفرصها أوسع، وكانت البعثات إلى الخارج قائمة على قدم وساق.

والناحية الأشد خطورة هي الوسائل التي ينتهجها كلا النظامين التعليميين: النظام الديني «كما سمي» يقوم في الكتاتيب المتفرقة في القرى والأمصار للمرحلة الإبتدائية، والجامع الأزهر للمرحلة العليا.

والكتاتيب يدرِّس فيها «فقهاء»[٤] يجتمع حولهم الطلبة في مظاهر ريفية يحملون الألواح القديمة والمصاحف، والفقيه يتوسطهم بعمامته وفي يده عصا طويلة، ويقوم بتلقينهم بطريقة تغاير روح التربية الإسلامية المأثورة التي كانت في عصرها أرقى أساليب التربية العالمية.

وطلاب الجامع نفسه يتحلقون في أروقته مفترشين الحصر البالية يتصدرهم شيخ لا يكاد يختلف في مظهره عن فقيه الكتاب[٥].

(٣) تاريخ ونظام التعليم في مصر: ١٠٥.
(٤) الفقيه في عرف ذلك الزمن هو معلم الكتاب
(٥) انظر مثلاً: زعماء الاصلاح أحمد أمين: ٢٨٥.

وعندما يكمل الطالب دراسته تكون شهادته إجازة خطية يكتبها له الشيخ بيده ناعتاً تلميذه بالألقاب العلمية العريضة.

أما إيرادات هذا التعليم فتأتي من هبات وصدقات المحسنين وأوقاف المتبرعين وهدايا رجال الدولة، أي أنها فوق كونها غير منظمة يصحبها أيضاً المن والرياء.

وعلى عكس ذلك كانت المدارس الحديثة:

فلها أبنية فخمة ووسائل متقدمة وميزانيات ثابتة ومناهج حديثة ويديرها خبراء فرنسيون يشعر مظهرهم وتصرفاتهم بالحداثة والتحضر!!

ولندع النظام الأزهري على جموده الذي سيظل عليه حتى ينسف كلية ــ كما سنرى ــ ولنتابع سير التعليم اللاديني واتجاهاته الثقافية.

يتحدث «جب» عن شيء من ذلك قائلاً:

«وكانت المصادر الأولى التي أخذ الفكر الأوروبي يشع منها هي المدارس المهنية التي أنشأها محمد علي والبعثات العلمية التي أرسلها إلى أوروبا.».

ويذكر أن منها «مدرسة الألسن التي كان يشرف عليها العالم الفذ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ــ ١٨٧٣)» وهو تلميذ جومار البار.

ثم كانت «الموجة الثانية من موجات التغريب في عهد الخديوي اسماعيل، ويمكننا أن نختار محمد عثمان جلال (١٨٢٩ ــ ١٧٩٨) تلميذ رفاعة مثالاً للجناح المتقدم من هذه الحركة، فقد كانت أبرز آثاره الأدبية ترجمات لبعض المؤلفات الفرنسية ذات الشهرة، مثل بول وفرجيني، وخرافات لافونتين وبعض ملاهي موليير، والأمر الذي يجدر

التنويه به في عمله هذا ليس هو فكر الترجمة في ذاتها بل الروح التجديدية التي تكمن وراءها (!) فقد ترجم لافونتين إلى شعر سهل لا تصنع فيه ولا رهق، إلَّا أنه حين ترجم ملاهي موليير كتبها بلهجة العامة في مصر، ولم يكن الوقت قد حان بعد للإقدام على مثل هذا العمل الجرىء (!) غير أن ما تجلى في تلك الخطوة من انفكاك تام من أسر الماضي كان دليلاً على روح العصر، قال الخديوي اسماعيل «أن مصر أصبحت قطعة من أوروبا» ولذا كان لا بد للأدب المصري من أن يعبر عن استقلاله عن التقاليد الآسيوية والافريقية»[٦].

كانت حركة التغريب الأولى فرنسية الإتجاه، فلما احتل الإنجليز مصر أصبحت الحركة الإنجليزية واتخذت طابعاً جديداً أعمق وأوسع، فقد كان الإستعمار الإنجليزي يهدف إلى ما ذكره اللورد ميكالي عن الهند:

«يجب أن ننشىء جماعة تكون ترجماناً بيننا وبين ملايين من رعيتنا وستكون هذه الجماعة هندية في اللون والدم انجليزية في الذوق والرأي واللغة والتفكير»[٧].

فالإستعمار ـ كما قال أحد شعراء المسلمين في الهند ـ أذكى من فرعون الذي استخدم سياسة قتل الأولاد، ولم يفتح لهم مدارس وكليات تقتلهم من حيث لا يشعرون كما فعل المستعمرون[٨].

فقد افتتحوا مدارس غربية قلباً وقالباً في المراكز الثقافية الكبرى للعالم الإسلامي ورسموا المخططات لاستئصال التعليم الأصلي.

من هذه المدارس الكليات التبشيرية التي أنشئت في لاهور

---

(٦) دراسات في حضارة الإسلام: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٧) نحو التربية الإسلامية الحرة، الندوى: ٣٢.

(٨) انظر: روائع إقبال.

وبيروت واسلامبول والقاهرة وغيرها، عدا المدارس الأقل شأناً التي انتشرت في الهند وبلاد الشام ومصر وبصفة أظهر في بلاد المغرب.

ومما لا شك فيه أن هذه المدارس كان لها أعظم الأثر في توجيه النهضة الفكرية وجهة لا دينية وتوسيع الهوة بين التعليم الديني واللاديني كما شجع الإستعمار واحتضن الحركات الفكرية والأدبية التي قام بها النصارى ـ لا سيما الشاميون ـ حيث كانت جمعياتهم وصحفهم في الشام ومصر من أشد أجنحة التغريب تأثيراً.

أما احتواء التعليم الأصلي والسيطرة عليه فأقوى الشواهد عليه المخطط البطيء الماكر، الذي وضعه كرومر ووزيره القسيس دنلوب، في مصر، والذي استخدم أحدث ما وصلت إليه التربية وعلم النفس في عصره لإخراج جيل ممسوخ قابل للإستعباد.

«فتح دنلوب مدارس حكومية ابتدائية تدرس العلوم «المدنية» وتعلم اللغة الإنجليزية ـ لغة الإستعمار ـ وتخرج موظفين كتبة في الدواوين التي يحتلها ويديرها الإنجليز، يقبضون رواتب تعد بالجنيهات لا بالقروش.

«ولم يكن الأمر في حاجة إلى مزيد من الإغراء. فمن ذا الذي يبعث بابنه بعد اليوم إلى الأزهر إلاّ الفقراء العاجزون عن دفع المصروفات، وهو يرى له المستقبل المضمون في وظيفة الحكومة حيث «يرطن» بلغة السادة المستعمرين؟

«وانصرف الناس القادرون ـ من ذوات أنفسهم ـ عن الأزهر، واتجهوا إلى مدارس الحكومة بعد الثورة الأولى التي أثارها الحس الباطني المسلم على هذه المدارس «الكافرة» التي لا تعلم القرآن ولا تعلم الدين، وأصبح هؤلاء المتعلمون «طبقة» جديدة تستمد طبقيتها من

أنها من أبناء الأسر أولاً، ومن مركزها الإجتماعي في وظيفة الحكومة ثانياً، ومن التشجيع الظاهر والخفي الذي تلقاه من سلطات الإستعمار بعد هذا وذاك»[٩].

وبالإضافة إلى أسلوب التربية السيء المتعمد لم يشأ دنلوب أن تخلو المدارس تماماً من الدين ــ ولو فعل ذلك لكان أفضل ــ بل قرر مادة «دين» لكنه جعلها مادة ثانوية في قيمتها الدراسية ثم أن حصصها كانت «توضع في نهاية اليوم المدرسي وقد كلّ التلاميذ وملوا وحنوا إلى الإنفلات من سجن المدرسة البغيض إلى فسحة الشارع أو رحب البيت، وكانت هذه الحصص توكل إلى أسنّ مدرس في المدرسة، يسعل ويتفل، ويمثل أمام التلاميذ ضعف الحياة الفانية المنهارة... فيرتبط الدين في وجدانهم بالعجز والفناء والشيخوخة، كما يرتبط بالملل والضجر والنفور»[١٠].

وقرر كذلك ــ لغاية خبيثة ــ مادة «لغة عربية»، وفي الوقت الذي كان فيه مدرس اللغة الإنجليزية يتقاضى مرتباً شهرياً إثني عشر جنيهاً كاملة كان زميله مدرس اللغة العربية لا يقبض سوى أربعة جنيهات، مما جعل الفرق بينهما في المكانة الإجتماعية شاسعاً، وجعل اللغة العربية في ذاتها موضع الإحتقار والازدراء[١١].

وليس أنكى من ذلك إلّا المناهج التي كانت تدرس في مدارس الحكومة والتي كانت مملوءة بالطعن والسموم فيما يتعلق بالإسلام وتاريخه وحضارته، ومفعمة بالتقدير والإكبار الذي يصل درجة التقديس فيما يتعلق بأوروبا وتاريخها وحضارتها.

---

(٩) هل نحن مسلمون: ١٣٦ ــ ١٣٧.
(١٠) المصدر السابق: ١٣٩.
(١١) انظر بالتفصيل: هل نحن مسلمون: ١٤٢ ــ ١٤٣.

ومن بين طلاب هذه المدارس تنتقى نخبة معينة للابتعاث إلى أوروبا وهناك يتم المسخ الكامل لها، لكي تعود إلى بلادها فتقبض على مقاليد الفكر والثقافة وتوجهها حسب إرادة السادة المستعمرين.

والعمل نفسه ـ مع اختلاف في الوسائل ـ سلكته فرنسا في الشام وبلاد المغرب، وقد نشأ نتيجة لهذه التربية الإستعمارية جيل مقطوع الصلة بدينه، مفتون بالغرب وتياراته الثقافية المختلفة التي تتفق في شيء واحد هو تحللها من الإلتزام بالدين، يتحدث «ولفرد كانتول سمث» بإجمال عن التأثير الثقافي الغربي قائلاً:

«إن من أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود اليوم في العالم الإسلامي، ومن أكبر عواملها نفوذ الغرب، فقد بلغت هذه الحركة أوجها في أوروبا من أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى، وهكذا شأن نهضة أوروبا وتقدمها، وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب واطلعوا على روح أوروبا وقيمها وأعجبوا بها إلى (أبعد) حد، وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا في جامعات أوروبا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام، وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الإسلامي، وقد حازت قصب السبق في هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التي قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربي الحديث، وكان مما صدره الغرب إلى العالم الإسلامي تلك الأفكار المتعددة الجديدة التي تقع في الأهمية بمكان، والإتجاهات العقلية الدقيقة الفجة (كذا) والميول الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث، ويفوقها في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والإجتماعية الجديدة، ونفوذها الزائد، ومنها ما يسلط إجباراً وما يحاول تسليطه، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار رحب به البعض الآخر، إن بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً، وبعضهم قد رحب بهذا التيار

بدافع من أنفسهم، وأنتج ذلك أن كثيراً من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة، وخضعوا لها بالتدريج، وهكذا استمرت عملية التغريب بسرعة وقوة بالغتين»[١٢].

لم يمض على سيطرة الإستعمار فترة من الزمن حتى كان العالم الإسلامي خاضعاً لتأثير التربية والفكر خضوعاً يتفاوت حسب الأقاليم المختلفة.

ففي تركيا ــ التي لم تحتل احتلالاً مباشراً ــ بلغ التأثير ذروته في الردة العقائدية والفكرية العنيفة التي انتهجها أتاتورك لطمس الإسلام بيد من حديد. وفي الهند فقدت الثقافة الإسلامية ريادتها وتقوقعت في المؤسسات الأهلية الصغيرة، وضاع كثير من نشاطها في زحمة الصراع الداخلي والخارجي. أما في العالم العربي فلعل أصدق وصف لحاله هو ما قاله «توينبي» من أن الصراع الفكري فيه بين الأفكار الغربية والإسلام لم ينتج عملاً غريباً ناجحاً مثل ذلك الذي في تركية وإنما كان نتاجه هجيناً لا هو غربي ولا هو إسلامي»[١٣].

وقد قال أحد المستشرقين «إن في القاهرة مائتي مطبعة وسبع عشرة، تصدر ما معدله كتاب أو نشرة واحدة في اليوم» ثم يستدرك موضحاً أن «أكثرية ما يصدر هو ترجمات للقصص الغربية»[١٤] وهذا يعطينا الدليل على مدى ما وصلت إليه الهجنة، فإن أمة تتجه إلى القصص الغرامية في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى ترجمة العلوم التطبيقية والأخذ بأسباب النهضة لجديرة بهذا الوصف.

وقد أخرج هذا الهجين الممسوخ دعوات ونتائج سيئة نذكر منها على سبيل التمثيل ما يلي:

---

(١٢) عن التربية الإسلامية الحرة: ٣٦ ــ ٣٧.

(١٣) مختصر دراسة التاريخ: ١١٣/٣.

(١٤) دراسات في حضارة الإسلام: ٣١٨.

١ ـ الدعوة إلى الإرتماء في أحضان الغرب وأخذ حضارته دون وعي ولا تمييز: وقد تزعم هذا الإتجاه كثير من هجناء الفكر، منهم صاحب كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) الذي يقول:

«بل نحن قد خطونا أبعد حداً مما ذكرت فالتزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع التزمنا هذا كله أمام أوروبا، وهل كان إمضاء معاهدة الإستقلال ومعاهدة إلغاء الإمتيازات إلَّا إلتزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع؟ فلو هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيي النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولوجدنا أمامنا عقاباً لا تجتاز ولا تذلل عقاباً نقيمها نحن لأننا حراص على التقدم والرقي، وعقاباً تقيمها أوروبا لأننا عاهدنا على أن نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة»[١٥]

ويقول عن التعليم خاصة:

«من الناس من يريد التعليم مدنياً خالصاً، وأن لا يكون الدين جزءاً من أجزاء المنهج المقومة له، على أن يترك للأسر النهوض بالتعليم الديني وأن لا تقيم الدولة في سبيل هذا التعليم من المصاعب والعقاب ما يجعله عسيراً، ومنهم من يرى أن التعليم الديني واجب كتعليم اللغة وكتعليم التاريخ القومي، لأنه جزء مؤسس للشخصية الوطنية، فلا ينبغي إهماله ولا التقصير في ذاته، وواضح جداً أن هذا الرأي الأخير هو مذهب المصريين، وأن من غير المعقول أن يُطلب إلى المصريين، الآن، أن يقيموا التعليم في بلادهم على أساس مدني خالص وأن يترك الدين للأسر»[١٦].

---

(١٥) عن الاتجاهات الوطنية: ٢/٢٣٤ وللتوسع في الموضوع يراجع نقد مستقبل الثقافة في مصر: سيد قطب.

(١٦) الاتجاهات الوطنية: ٢/٢٣٥.

ومثل طه حسين سلامة موسى الذي يقول متحدثاً عن نفسه:

«إنه شرقي مثل سائر مواطنيه ولكنه ثار على الشرق عندما أيقن أن عاداته تعوق إرتقاءه، ودعا إلى أن يأخذ الشرقيون بعادات الغربيين كي يقووا مثلهم، ولكنه لم يجن من هذه الدعوة غير الكراهية والنفور، وأحس بالتناقض العميق بينه وبين المجتمع، وهو تناقض كاد يفصل بينه وبين مواطنيه، فإن أسلوب حياته وأهدافه الثقافية والسياسية والروحية تنأى عن عادات مجتمعه، إنه ليخالف سائر الكتاب إذ هو وإن كان يكتب بالعربية فإنه يفكر تفكيراً أوروبياً»(١٧).

ومن هؤلاء أحمد لطفي وصهره إسماعيل مظهر وقاسم أمين.

٢ ــ إحتقار الماضي الإسلامي وتربية الأجيال تربية لا دينية حديثة: ولنأخذ مثالاً على هذا ما قاله مؤلف كتاب «مصر ورسالتها»:

«عندما فتح العرب مصر عام ٦٤٠ كانت ولاية بيزنطية تحكم من القسطنطينية وعندما غزا الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨ وجدوها ولاية عثمانية تحكم من نفس القسطنطينية التي حملت إسماً جديداً هو استامبول أو الأستانة، ولم يكن حالها عام ١٧٩٨ بأحسن من حالها عام ٦٤٠، كان الناس في بؤس وذل وكان البلد في خراب».

«فكأن اثني عشر قرناً من تاريخ هذا البلد ضاعت سدى، كأن هذه السنوات الكثيرة قد انقضت ونحن نيام بعيدين (كذا) عن الوجود»!.

«شيء لم يحدث في تاريخ بلد مثل مصر أبداً، تصور اثني عشر قرناً ونصف تذهب سدى! قد يقال قد قامت خلالها دول وأمجاد...

---

(١٧) الأدب للشعب: ١٣١.

ولكنها تلاشت كأن لم تغن بالأمس وعاد المصري ــ وهو مدار هذا التاريخ ومقياسه ــ بالضبط كما كان في أواخر عصر الرومان. . .».

«ما الذي حدث؟».

«الذي حدث أننا تخلينا عن رسالتنا (!) واتجهنا بكليتنا نحو الشرق فاختل ميزان تاريخنا وكان ذلك الإنكسار العظيم»(١٨).

وبناء على هذه الأفكار طولب بتربية الأجيال الجديدة تربية لا صلة لها بذلك الماضي، وها هي ذي بعض نصوص من نشرة مؤتمر التربية العربي المسمى «الحلقة الدراسية العربية الأولى للتربية وعلم النفس»:

«يجب أن تعمل التربية العربية على خلق خصائص جديدة في الشخصية العربية الناشئة بحيث تستأصل منها رواسب العصر التركي والإستغلال الإستعماري وتصنع بدلاً منها خصائص مضادة تتحقق بها القومية العربية الشاملة في المستقبل القريب. فالمواطن العربي يجب أن يكون شخصاً تقدمياً يؤمن بفلسفة التغير والتطور يجب أن يعتبر نفسه مسؤولاً عن المستقبل لا عن الماضي، ومسؤولاً أمام الأجيال القادمة لا أمام رفات الموتى. . .»(١٩)!!.

وعن التربية التقليدية ــ كما أسماها ــ يتحدث المحاضر نفسه عن التربية الإسلامية باحتقار شديد ممثلاً لها بقوله:

«كان الطفل يشترى من أسواق النخاسة. . . ثم يدخل القلعة وتتبع معه طريقة التلقين الدقيق فيخرج منها بعد أعوام قليلة مسلماً

---

(١٨) حسين مؤنس: ٨١ ــ ٨٢.

(١٩) من كلمة «أبوالفتوح رضوان» في المؤتمر: ٧٧ من النشرة.

متعصباً لإسلامه، ومملوكاً يعتقد أنه ملك للأمير الذي اشتراه ورباه...».

إلى أن يقول «لهذا كانت طريقة التلقين سيئة السمعة كطريقة تربوية، لأنها تؤدي إلى تعصب حيواني عاطفي غير قائم على الفكر والإقتناع»[٢٠] وعلى لسان محاضر آخر يقول المؤتمر:

«في تجاربنا الخاصة إن أخطر ما تتعرض له سيكولوجية الأطفال في هذا الصدد هو التعصب الديني»[٢١] ويشرح مفهوم الدين كما يتصوره:

«الدين أداة الفكر يسند المجتمع عن طريق القدوة والتعليم والإرشاد والترغيب والترهيب... والتربية الدينية الخاطئة قد تعمل في تزييف الأهداف وفي جعلها أداة للشر الغريزي، وكثيراً ما يستغل الدين لأغراض السياسة الحزبية، وربما نتج عن هذا الإرتباط بين الدين والسياسة أخطر ما يهدد العلاقات والروابط القومية.

«ويرى الكثيرون أن الكتب السماوية ليس من أغراضها أن تكون موسوعات يبحث المؤمنون فيها عن مشاكل العصر كي يجدوا فيها حلاً لمشكلات العمال في القرن العشرين على سبيل المثال، بل هي أداة تلهم المؤمن لاستعمال الفكر في حل مشاكله الطارئة»[٢٢]!.

٣ ــ **تطوير الأزهر (تطويعه)**: كان الأزهر ــ رغم تخلفه ورغم تقصيره في إبراز الثقافة الإسلامية المتكاملة ــ قلعة إسلامية يحسب لها أعداء الإسلام كل حساب، وكان فيه رجال يلتهبون غيرة على الإسلام ويجابهون الطاغوت ــ داخلياً كان أم خارجياً ــ بكل جرأة.

---

(٢٠) النشرة السابقة: ٧٨.

(٢١) من كلام «التجاني الماحي» في المؤتمر. ١٨٠ من النشرة.

(٢٢) النشرة السابقة: ١٩٢ ــ ١٩٣.

فهو الذي قاوم الحملة الفرنسية وقتل أحد منسوبيه قائدها، وهو الذي تزعم الثورة الشعبية سنة ١٩١٩، وفوق هذا كان رابطة إسلامية عامة تهتز لما يحدث على الرقعة الإسلامية الكبيرة.

ولذلك ظل الأزهر سنين طويلة محط المقت ومصب اللعنات من قبل دعاة التغريب واللادينية، حتى جعلوه رأس المشاكل الثقافية في مصر والعقبة الكـؤود في سبيل النهضة!.

وأعظم من تجرأ على الأزهر في القرن الماضي ــ عن حسن نية وربما عن شعور بالنقص ــ هو خريجه الشهير الشيخ محمد عبده الذي سبق شيء من الحديث عنه. وربما كان هذا من أهم أسباب التقدير والتمجيد اللذين حظي بهما الشيخ من المستشرقين والمبشرين وأذنابهم بلا استثناء.

ثم جاء طه حسين ولطفي السيد وأضرابهما مبتدئين من حيث انتهى محمد عبده وجيله، وطالبوا بإلحاح أن تزال هذه الصخرة العتيقة التي تعترض الجسر الثقافي العريض الذي يمتد من أوروبا إلى مصر عابراً البحر الأبيض المتوسط، أي أن يستبعد آخر أثر شرقي من مصر التي اكتشفت ــ حسب رأيهم ــ أن هويتها غربية ١٠٠٪.

وكان على الأزهر إما أن يساير الموجة العاتية فيفقد رسالته وإما أن يحكم على نفسه بالفناء.

ورأى أذيال الغرب وكذلك «المتحررون»! من علماء الأزهر أن الوسيلة المثلى للخروج من الأزمة هي تطوير الأزهر، أي أن يفقد رسالته في سبيل الإحتفاظ بوجوده.

وصدرت القوانين من سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٦١ بشأن تطوير

الأزهر[٢٣] واستطاع دعاة اللادينية أن يدخلوا تاء التأنيث على الجامع الأزهر وبذلك تحول من وكر لثقافة العصور الوسطى إلى مركز ثقافي عصري مدني!!.

أما أثر هذا الإنتصار للثقافة المستوردة في معاهد الثقافة الإسلامية خارج مصر ــ التي كانت تعد الأزهر أباً روحياً أو على الأقل سنداً قوياً لها ــ فقد كان سريعاً وواضحاً إذ تم تطويع البقية الباقية منها إما بدوافع ذاتية وإما بقوانين إجبارية.

٤ ــ **الدعوة إلى العامية:** ليست اللغة العربية أداة الثقافة الإسلامية فحسب، بل هي مقوم من مقومات الشخصية الإسلامية للفرد والمجتمع، وليس غريباً أن يشن المستشرقون والمبشرون عليها هجمات شرسة تتعلق بألفاظها وتراكيبها ومقدرتها على مسايرة العصر، فقد كانوا يرومون هدم القرآن بهدم لغته ليصبح كالإنجيل اللاتيني لا يقرؤه إلَّا رجال الدين غير أن المؤسف حقاً هو أن يتصدى لمقاومة العربية أناس يحملون أسماء إسلامية كانت الفصحى سبب بروزهم الفكري، ويكتبون بها سمومهم الرامية إلى إلغائها، وأن يعد ذلك جزءاً من التفكير الإصلاحي وهدفاً من أهداف المصلحين!.

كان زعيم الإصلاح الشيخ محمد عبده محقاً في رفض الأسلوب الكتابي القائم على الصناعة اللفظية والدعوة إلى كتابة سلسلة حرة، ولكنه ــ دون أن يدري فتح الباب لهدم العربية ــ لأول مرة في تاريخها ــ وذلك أنه دعا إلى «تصحيح الخطأ المشهور من أخطاء النحو والصرف التي كانت تتخلل الكتابة في عصره»[٢٤].

---

(٢٣) انظر تاريخ ونظام التعليم في مصر: ١٥٦، ٢٢٣.

(٢٤) من كتاب «قاسم امين»: ماهر حسن فهمي: ٢٣.

وعلى هذا الأساس وضعت القاعدة الخاطئة «صحيح مشهور خير من فصيح مهجور» ثم توسع فيها حتى جاء اليوم الذي طولب فيه بهدم النحو العربي كله!.

وكان عبد الله النديم ـ تلميذ محمد عبده ـ ممن أسهم في هذا المجال لا بالدعوة إلى العامية بل باستخدامها في لغة الصحافة، ذلك أن مجلة «الأستاذ» التي كان يصدرها تحتوي في كل عدد من أعدادها مقالاً أو أكثر باللهجة الدارجة[٢٥].

ثم جاء الجيل المستعبد للغرب معلناً عداوته للثقافة الإسلامية واللغة العربية وأشهر زعمائه أحمد لطفي السيد، وزميله ورفيق عمره عبد العزيز فهمي، وزوج أخته اسماعيل مظهر ثم صديقه الحميم طه حسين.

ولعل تسليط شيء من الضوء على حياة لطفي السيد ـ أستاذ الجيل كما سموه ومحور هذه الدعوى ـ يعطينا لمحة عن دوافع الفكرة وأهدافها:

كان لطفي السيد من أخلص تلاميذ محمد عبده له واتيحت له الفرصة أكثر من شيخه إذ عاش بعده ما يزيد على اربعين سنة أي أنه عمر أكثر من تسعين عاماً.

وأهم مناصبه الثقافية توليه لإدارة الجامعة المصرية عند تأسيسها، ثم توليه لوزارة المعارف آخر عمره.

أما أعماله السياسية فقد كان أحد زعماء حزب الأمة باعتباره رئيس تحرير «الجريدة» صحيفة الحزب واشتهر بعداوته لفكرة الجامعة

---

(٢٥) انظر المجلد الأول منها ـ بمركز البحث العلمي في مكة الكرمة.

الإسلامية ورفعه شعار مصر للمصريين وشعار «سياسة المنافع لا سياسة العواطف»[٢٦].

ولا يستطيع الكاتبون عن حياته أن يخفوا أنه فاوض «كِتْشْنَر» ثم «جراهام» على أن تنفصل مصر عن تركية وتصبح دولة مستقلة يحكمها الخديوي تحت وصاية بريطانية[٢٧]. أما فكره فكان متأثراً جـداً بداروين ومل وروسو وأضرابهم من الغربيين[٢٨] وكان مع كل ناعق من دعاة التفرنج والعصرية فقد «حظيت دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة من تأييد لطفي السيد بما لم تحظ بها من كاتب أو صحفي آخر»[٢٩].

وعندما أصدرت الحكومة قراراً بنقل صديقه وشريك دعوته طه حسين من الجامعة ــ بسبب الضجة التي ثارت حوله ــ لم يسع لطفي السيد إلاّ أن يقدم إستقالته من منصب وزير المعارف إحتجاجاً على ذلك[٣٠].

ومع زعمه أن الفصحى معقدة وقديمة نراه يمضي ربع قرن من حياته في ترجمة كتب أرسطو[٣١].

وقد ذكر مؤرخ حياته حسين فوزي النجار بعض الحوادث التي تدل ــ كما يرى ــ على أنه كان لا يؤمن بالغيبيات والقوى الخفية[٣٢] وقد علل لطفي السيد لتأخر مصر وتقدم الغرب بأن مصر تستعمل

---

(٢٦) انظر كتاب «احمد لطفي السيد»: حسين فوزي النجار: ١٨٣ وفيها يتعلق بشعار مصر للمصريين انظر ما كتبه برنارد لويس في الغرب والشرق الأوسط: ١٢٢.

(٢٧) انظر أحمد لطفي السيد: ١٨٧ ــ ١٩٠.

(٢٨) انظر « « « ٩٤، ١٧٧.

(٢٩) انظر « « « : ٢١٤.

(٣٠) انظر « « « : ٢٧٨.

(٣١) انظر « « « : ٨٩ الحاشية.

(٣٢) المصدر السابق: ٩٢.

لغتين لغة للثقافة وأخرى للتخاطب، والحل الذي رآه وقدم له الإقتراحات الكثيرة هو النزول بالفصحى إلى مستوى العامية حتى يتم مع الزمن توحيد اللغتين في لغة واحدة ـ هي بالطبع ـ «العامية»[٣٣].

أما زميله الأول عبد العزيز فهمي فقد كان أكثر جرأة منه حين دعا إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية وهي الدعوة التي ولدت ـ لحسن الحظ ـ ميتة!.

وأما صديقه طه حسين فقد كانت لدعوته للعامية صدى واضحاً لكتابات المستشرقين. وكذلك آراؤه في الشعر الجاهلي، ورحم الله الرافعي فقد فضح هذه الدعوى وعرّى كاتبها[٣٤].

لقد كان كل دعاة العامية أناساً مشبوهين وصلتهم بالدوائر الإستعمارية واضحة وذلك ما يؤكد أنها كانت جزءاً من المخطط اليهودي الصليبي للقضاء على الإسلام، بل أنه من المؤكد أن الدعوة العامية إنما ظهرت أصلاً من أفكار المستعمرين وفي أحضان المبشرين يتضح ذلك من أسماء دعاتها الأوائل أمثال «بوريان وماسبيرو»[٣٥].

وجدير بالذكر أن الذي خلف عبد العزيز فهمي في المجمع اللغوي هو توفيق الحكيم الذي دعا إلى قاعدة «سكّن تسلم»[٣٦]! وليس مثل هذه الدعوى أسى إلاّ أن تفتح كليات اللغة العربية والآداب في البلاد العربية الباب لما أسموه «التراث أو الأدب الشعبي» وأن تحضر فيه رسائل جامعية عليا. على أن الفكرة لم تقتصر على مصر

---

(٣٣) انظر بعض مقترحاته للموضوع في فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي: ١٨٤.

(٣٤) انظر كتابه «تحت راية القرآن».

(٣٥) انظر حصوننا مهددة من داخلها، د. محمد محمد حسين: ٢٥١.

(٣٦) انظر زعماء وفنانون وأدباء، كامل الشناوي: ١٨١.

فقد كان لها أذيال في الشام منهم المتطرف كسعيد عقل ومنهم المتدرج كبعض المهجريين.

٥ ـ إقتباس الأنظمة والمناهج اللادينية من الغرب: لم يقتصر الأمر على مناهج كرومر ودنلوب، فقد كان أذيال الفكر الغربي لا يقلون عنهما رغبة في صبغ مصر والعالم الإسلامي بالصبغة اللادينية الغربية.

وقد كان من أهداف أعداء الإسلام ما أوصى به مؤتمر القاهرة التبشيري المنعقد سنة ١٩٠٦ من وجوب إنشاء جامعة علمانية على نمط الجامعة الفرنسية[٣٧] لمناهضة الأزهر والذي قالوا أنه «يتهدد كنيسة المسيح بالخطر»!.

وقد قام الأذيال بتنفيذ المهمة إذ أنه بعد إنتهاء المؤتمر بسنتين تقريباً أسس سعد زغلول وأحمد لطفي السيد وزملاؤهم الجامعة المصرية، وكان النص الأول من شروط إنشائها هو: ألَّا تختص بجنس أو دين بل تكون لجميع سكان مصر على إختلاف جنسياتهم وأديانهم فتكون واسطة للالفة بينهم»[٣٨].

وهذا الشرط الجائر ـ في جامعة تقوم في بلد مسلم وعلى نفقات شعب مسلم ـ انعكست آثاره على مناهج التعليم في الجامعة، فلم يكن من بينها شيء من علوم الإسلام إحتراماً لمشاعر القلة غير المسلمة، وهكذا كان التعليم الجامعي الحديث علمانياً من البداية، وكان نتاجه تلك الجموع المستعبدة للغرب فكراً وسلوكاً، النافرة من دين آبائها وأجدادها.

---

(٣٧) الغارة على العالم الإسلامي: ٧.

(٣٨) أحمد لطفي السيد: ٢٦٢.

ولم يكن الأمر مقصوراً على المناهج بل تعداها إلى أسلوب التربية وفلسفة السلوك فقد طبق الإختلاط بين الذكور والإناث في الجامعة المصرية التي كانت مركزاً لأنصار دعوة قاسم أمين المريبة، وتبعتها معظم جامعات العالم الإسلامي، كما أدخلت التقاليد الغربية المنافية للإسلام في صلب النظام الجامعي، إذ شيدت في إطاره معاهد عليا للرقص والتمثيل والنحت والموسيقى، كيف لا وقد قال قاسم أمين صديق لطفي السيد في كتابه «كلمات»:

«لعل أكبر الأسباب في إنحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة: التمثيل والتصوير والموسيقى»[٣٩].

والمؤسف ما أثبته العقاد من أن دراسة الفنون الجميلة من بنات أفكار محمد عبده[٤٠] وقد يكون أمر المناهج أهون خطراً لو أنها إذ أهملت العلوم الشرعية البحتة حورت المقررات الأخرى بما يوافق التصور الإسلامي، وحذفت منها الإيحاءات الفلسفية غير العلمية التي لا مبرر لها إلاّ ظروف الصراع بين الكنيسة والعلم في أوروبا، ــ كما أسلفنا في مواطنها ــ ولكن الواقع أن أنظمة التعليم في العالم الإسلامي تدرس تلك العلوم بصورتها الغربية المعادية للدين، دون التفريق بين دين ودين.

صحيح أن الإستعمار فرض تلك الأنظمة فرضاً، ولكنها لا تزال بعد رحيله كما كانت أو أشد، بل أنها لتطبق في بلاد لم تطأها لمستعمر قدم!

ولا يعوزنا أن نمثل لهذا فهو ملء السمع والبصر:

---

(٣٩) قاسم أمين: ٣٩.

(٤٠) انظر فصل الفنون الجميلة من كتاب: محمد عبده.

الداروينية ــ التي عرضنا سلفاً رأي الباحثين المحققين من الغربيين فيها ــ تدرسها ماهجنا على أنها حقيقة علمية في مواد كثيرة كالإحياء والتاريخ الطبيعي وعلم الأرض... سواء ذُكر داروين أو لم يذكر.

ونظرية فرويد المتهافتة نجدها مقررة في أقسام علم النفس في الجامعات قاطبة على أساس أنها نظرية علمية كذلك!.

وفي أقسام الإجتماعيات تدرس نظرية دوركايم، بل يدرس علم الإجتماع بكامله على المنهج الغربي، ونحن نعلم مما سبق أنه ــ كعلم النفس ــ بني أصلاً على أسس لا دينية.

وفي أقسام الكيمياء والفيزياء والفلك والطب... الخ تدرس مناهج محشوة بإيحاءات فلسفية أو وثنية في العبارات المسمومة مثل «المادة لا تفنى ولا تستحدث» ومثل «خلقت الطبيعة كذا».

وكذلك تعمد تفسير وقوع الزلازل وسقوط النجوم وتكوين الجنين وما أشبهها تفسيراً مادياً صرفاً.

ومن ذلك أيضاً الإتيان ببعض ما ثبت في القرآن والسنة تحت العبارة التقليدية «وكان الناس قبل ظهور العلم الحديث يعتقدون كذا» أو «كانت الكتب القديمة تقول كذا» ومثلها «كان الناس قديماً ينسبون ما يعجزون عن تفسيره إلى القوى الغيبية الخفية».

وإجمالاً نجد أن هذه المناهج يغلب عليها ــ إن لم تكن كلها ــ الطابع المادي.

أما المقررات الأدبية البحتة ــ وهي التي لم يكن متوقعاً أن تتأثر بأفكار الغرب ــ فقد يعجب المرء إذا علم أنها ربما فاقت المقررات العلمية في ذلك.

ويكفي في هذه العجالة أن نلم بمادتي التاريخ والمطالعة في معظم المناهج المعاصرة:

أما التاريخ فقد صيغ منهجه في قالب غربي فهو مقسم أقساماً ثلاثة كبرى:

١ ـ **التاريخ القديم**: وهو يشمل الحضارات الجاهلية التي لا توصف بذلك إطلاقاً.

٢ ـ **تاريخ العصور الوسطى**: ويشمل فترة ما قبل ظهور الإسلام بقليل ثم يندرج فيه تبعاً للمنهج الغربي التاريخ الإسلامي كله تقريباً.

٣ ـ **التاريخ الحديث**: وهو يبتدىء ـ غالباً ـ من قدوم حملة نابليون لاحتلال مصر التي تسمى «فجر النهضة الحديثة»! وينتهي بالتاريخ المعاصر.

ولا يخفى ما في هذه القسمة ـ في حد ذاتها ـ من إيحاءات ودلالات!.

هذا في المنهج أما المضمون: فقد حشيت مقررات التاريخ بدسائس المستشرقين وسموم المبشرين، وكتبت بأساليب شديدة التأثر بالأساليب الغربية التي تفسر التاريخ تفسيراً مادياً، أو على ضوء رؤى فلسفية خاصة، مع إسقاط أو التقليل من قيمة العامل الإيماني الذي هو أسس العوامل في التاريخ الإسلامي.

فنحن نقرأ في هذه المقررات مثلاً: أن غزوة بدر كان هدفها تعويض ممتلكات المسلمين بمكة، وأن فتح مصر ـ خاصة ـ كان سببه ما عرفه عمرو بن العاص عنها في الجاهلية من خصوبة الأرض ووفرة خيرات... وأن فتح الأندلس هدفه مد الأمبراطورية الإسلامية إلى

أوروبا . . . وأن العالم العربي خضع للإستعمار التركي عدة قرون . . . وإن حركة الشيخ محمد عبد الوهاب أول ثورة عربية ضد الإحتلال التركي . . . الخ .

وعموماً كتب التاريخ الإسلامي على شكل سلسلة عنيفة من الصراعات والدسائس السياسية، وكتبت الحضارة الإسلامية على شكل ألوان فولكلورية .

أما المزايا العظيمة للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ــ تلك التي لم تجتمعا قط في تاريخ وحضارة أمة على وجه البسيطة ــ فهي مغفلة أو مشوهة .

أما مادة «المطالعة» فكأنما هي ملخص موجز للغزو الثقافي الغربي إذ تحوي موضوعات منوعة يجمعها الإعجاب بالغرب وتمجيد حضارته ورجالها، والخلو من التصورات الإسلامية والقيم الإيمانية إلا قليلاً .

فإذا تصفحت أحد هذه المقررات لا سيما «المطالعة الثانوية» فلن تعدم أن تجد فيه مثل هذه الموضوعات :

«ماجلان قاهر البحار، كيف اكتشفت أميركا، إبراهيم لنكولن محرر العبيد، تحرير المرأة، ظهور القومية العربية، نابليون فاتح أوروبا، عمر بن أبي ربيعة، هدفك في الحياة، الوطنية الصادقة . . . » .

٦ ــ **إستيراد المذاهب اللادينية في الفكر والأدب**: كانت فلسفة كومت الوضعية في فرنسا ونظرية داروين في إنجلترا من أعظم النظريات التي تأثر بهما الفكر الغربي ــ كما سبق ــ وقد عاصرت اليقظة المنبهرة في العالم الإسلامي هاتين النظريتين وهما في أوج عظمتهما فتأثرت بهما أبلغ التأثر، ومن ثم سارت النهضة الفكرية والأدبية

الحديثة مساراً غريباً حتى آل الأمر إلى الواقع الفكري والأدبي المعاصر، على أن الأدب خاصة تأثر ـ بالرومانسية التي اكتهلت في تلك الفترة، وفي هذا القرن استوردت الواقعية واللامعقول بمدارسه المتعددة.

أما الفكر فقد تأثر الشيخ محمد عبده بفلسفة كومت العقلية، حتى لنستطيع أن نقول أن اتجاهه الاعتزالي يعزى إليها لا إلى المعتزلة المسلمين، ومعلوم تأثر كل زعماء الفكر في مطلع هذا القرن بالشيخ من قريب أو بعيد.

وكان من الآثار الخطرة ما حاول الشيخ ومدرسته القيام به من التوفيق بين الإيمان والنزعة العقلية، وبغض النظر عن مدى نتائجها ومقدار توفيقهم فيها نجد أنها بدت أقل خطراً في ذلك الوقت من النزعات المتأثرة بفلسفة التطور لإقتران الأخيرة بالمروق الصريح من الدين والدعوة إلى الإلحاد(٤١).

فقد ظهر ثلاثة من الكتاب أسهموا بصفة بارزة في نقل الداروينية إلى الشرق بطريق الترجمة المباشرة وبالدراسة المستفيضة في الصحف هم: شبلي شميل وسلامة موسى وإسماعيل مظهر(٤٢)، والأولان نصرانيان أشهرا إلحادهما وكفرهما بكل دين(٤٣) أما الأخير فمسلم الأصل إلا انه كتب ما لا يتردد أحد في نسبة قائله إلى الكفر، وكان لكتبهم وأبحاثهم الأثر الكبير في جيلهم ومن تلاه حتى انك لن

---

(٤١) كتب الشيخ الجسر الرسالة الحميدية، التي تعد خارقة بالنسبة لعصره بين فيها ان الداروينية في حال ثبوت فكرتها عن التطور لا تدعو مطلقاً إلى الالحاد، انظر الفصل المخصص لذلك من كتاب قصة الايمان لنديم الجسر.

(٤٢) ألف شبلي شميل: فلسفة النشوء والارتقاء، وسلامه موسى: نظرية التطور وأصل الإنسان وإسماعيل مظهر: ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء.

(٤٣) ولعلهما انما يتظاهران بذلك لغرض خبيث فقد كان سلامه موسى عضواً في جمعية الشبان المسيحيين.

نجد من المعاصرين من كتب في موضوع أصل الإنسان إلا هو سائر على الطريق نفسه.

ولما كان انتشار الالحاد في العصر الحديث ـ أو على الأقل الشك واللاأدرية ـ يشكل ظاهرة بين المفكرين والمثقفين فلنكتف به مثالاً على استيراد المذاهب الفكرية الحديثة.

«كان من ضمن القائمين بهذه الحركة «اسماعيل أحمد أدهم» الذي جاء إلى مصر (من تركية بعد إعلان العلمانية) وحاول نشر الأفكار الالحادية بين أهلها. وقد ألف رسالة صغيرة عنوانها: «لماذا أنا ملحد؟» وطبعها في مطبعة التعاون بالإسكندرية ومما جاء فيها «أسست جماعة نشر الالحاد بتركيا، وكانت لنا مطبوعات صغيرة أذكر منها: ماهية الدين، قصة تطور الدين ونشأته، العقائد، قصة تطور فكرة الله، فكرة الخلود» «وبعد هذا فكرنا في الاتصال بجمعية نشر الالحاد الأميركية، وكان نتيجة ذلك تحويل إسم جماعتنا إلى «المجمع الشرقي لنشر الالحاد» وكان صديقي البحاثة إسماعيل مظهر في ذلك الوقت ـ ١٩٢٨ ـ يصدر مجلة العصور في مصر وكانت تمثل حركة معتدلة في نشر حرية الفكر والتفكير والدعوة للإلحاد»(٤٤).

وكتب اسماعيل مظهر في عدد مارس ١٩٢٨ من مجلته مقالاً جاء فيه:

«أما تفكير الإنسان الجدي فأصبح في تحديد علاقته لا بواجب الوجود ولكن بالكون، فبعد أن أسقط العلم الإنسان عن عرش الملائكة العلوي وأنزله إلى أفق الحيوان، أخذت الإنسان فكرة جديدة ليست بأقل إشكالاً من الفكرة التي ملكت زمامه من ناحية الأديان.

---

(٤٤) ذيل الملل والنحل، محمد سيد كيلاني: ٩١ (مطبوع مع الملل والنحل).

«بعد أن أظهر النشوئيون أصل الإنسان الحيواني وأثبتوه علمياً(!) وبعد ان أثبت الجيلوجيون قدم الأرض والفلكيون قدم النظام الشمسي وأظهر هؤلاء بأبحاثهم سلسلة التدرج الطويل التي مضى عليها الكون لينتهي بظهور الحياة فوق الأرض أخذ العقل الإنساني سمته نحو التفكير كما هي عادته فيما يختص وراء هذه السلسلة الطويلة من قصد، وهل كانت متجهة بكل ما فيها من الصور لأن تنتهي بالإنسان على انه القصد الأخير منها؟

«أما الثابت حتى اليوم فليس مما يرضي التفاؤل في مصير الإنسان ولست أدري لماذا لا يشارك الإنسان الحيوانات في نهايتها المحزنة ما دام يشاركها في بداياتها الجميلة»[٤٥] وينتهي تأثره بداروين إلى قوله:

«إكتفت الأديان بالقول بأن الغاية من خلق الإنسان والجن هي أن يعبدوا الله، فكرة حسنة ولكنها غير صحيحة (!) إذ لو صح هذا إذن لاعتقد بجانبه بأن الله في حاجة لأن يعبده الإنس والجن (!) ولظهر النظام الكوني في مجموعه بمظهر شيء ما خلق إلا ليعضد الحياة الإنسانية التي يجب أن تسخر لعبادة الله، وهذا في معتقدي أبعد الأشياء عن أن يكون الغاية من وجود الإنسان»[٤٦].

والحق ان إسماعيل مظهر لم يكن إلا نموذجاً لكتاب كثيرين يتفاوتون في درجة التصريح بما يعتقدون لكنهم متساوون في المنطلق والغاية مثل منصور فهمي ولطفي السيد وأمين الخولي وطه حسين وأخيراً صادق العظم (صاحب كتاب نقد الفكر الديني) وآخرين ممن لا تأويل لما يكتبون إلا الخروج على الإسلام غير أن بعضهم تخفى تحت

---

(٤٥) المصدر السابق: ٩٨.

(٤٦) المصدر السابق: ١٠٠.

أقنعة البحث العلمي أو التمذهب الأدبي حتى لا يصدم مشاعر الجماهير فتنصرف عن إنتاجه.

وكما ظهر ذلك في الكتاب فقد ظهر في الشعراء ويبدو لي أن شعراء مصر أقل من شعراء العراق كالرصافي والزهاوي في ذلك، فالزهاوي مثلاً (١٩٣٦) يمتلىء ديوانه بالأفكار الالحادية التي لا تخرج في جملتها عن نظرية داروين أو نظرية هيكل الأثيرية التي هي في الواقع امتداد للداروينية، من ذلك قوله:

إني أفكر في الطبيعة فاحصاً ... فيعد تفكيري من الإلحاد
... ووجدت أن الكائنات سلالة ... لا فرق بين خفيها والبادي
أما الزمان فإن في دورانه ... ما يربط الآزال بالآباد[٤٧]

وقوله:

ما حياة قديمها غير باد ... لك إلا تطور في جماد
إنها تتبنى لها في نظام ... كل ما يقضي حاجتها من عتاد[٤٨]

(كذا)

ومن رباعياته:

ما نحن إلا أقرد ... من نسل قرد هالك
فخر لنا ارتقاؤنا ... في سلّم المدارك[٤٩]

بل نجده يهجو المخالفين لنظرية داروين من معاصريه:

إن الذين عن الأقراد قد بعدوا
لم يجحدوا أنهم منهن قد ولدوا

(٤٧) ديوان الزهاوي: ٥٢٥، ٥٩٩.

(٤٨) المصدر السابق: ٥٩٩،٥٢٥ والبيت مكسور في الأصل.

(٤٩) ديوان الزهاوي: ٥٢٥، ٥٩٩.

أمـا الألى لم يـزالـوا في مـداركـهـم
أدنى إلى أصلهم منهم فقد جحـدوا[٥٠]

وعن الأثير يقول:

ما لأجل الانسان يشتغل الكو ... ن وتاتي بعد الدهور الدهور
كـل شيء فـإنـه في تـلاش ... بتوالي الأزمان إلا الأثيـر[٥١]

ويقول:

إنمـا هـذه الحـيـاة شـرار ... من زفيـر الأثير ثـار شعـاعـا

وأشد منه قوله:

ولعـل الأثيـر في كـل أرض ... وسمـاء كـالله في التـأثيـر
ولعل الذاتين واحـدة في الأ ... صل والخلف جاء في التعبير[٥٢]

هذا وقد كان من نتيجة شيوع هذه الأفكار في الفكر والشعر والصحافة التمهيد لإنتشار الأفكار المادية لا سيما الشيوعية، وتغذيتها بروح الشك العام في كل شيء تقريباً، حتى أصبح الشباب المثقف في العالم الإسلامي فريسة الشكوك القاتلة والوساوس الشيطانية، وانتظم كثير منهم في صفوف المنظمات اليسارية وغيرها من الأحـزاب اللادينية، لا سيما بعد الحرب العالمية الثانية حيث أصبحت الإشتراكية «موضة العصر» كما يقولون!

ومثل المذاهب الفكرية كانت المذاهب الأدبية!

فالرومانسية وجدت صدى لها في الشرق كما في روايات جرجي زيدان التي شوه بها التاريخ الإسلامي ليحاكي الرومانسيين الإنجليز،

---

(٥٠) المصدر السابق: ٤٤٤.

(٥١) المصدر السابق: ٥٠.

(٥٢) ديوان الزهاوي: ٤٧٢، ٤٧٥.

أما المازني فلم تكن رومانسيته واضحة فحسب[٥٣] بل انه ليكتب في أحد كتبه تحت عنوان الفصل عبارة منقولة عن الكتاب المحرف المسمى المقدس تقليداً أعمى للكتاب الغربيين في القرن الماضي إذ كان من عادتهم أن توضع على رأس كل فصل عبارة شهيرة[٥٤].

على أن فريقاً من الأدباء إتجه بادىء الأمر إلى الترجمة، فتمت ترجمة أعمال معظم أدباء أوروبا المشهورين من شكسبير إلى تولستوي، ومع ان بعضها روائع إنسانية فقد كان الاتجاه الاباحي هو الطاغي على الترجمات كما في أعمال الكسندر دوماس واميل زولا وأناتول فرانس.

وظل الاتجاه الاباحي هو المسيطر تقريباً على حركة الترجمة الأدبية تحت ستار الواقعية حتى الحرب العالمية الثانية، ثم ظهرت أصداء اللامعقول على أثر نضوجها في الغرب حينئذ، كما ظهرت الكتابة الأسطورية التي اتخذها سارتر وكامو أسلوباً للتعبير عن فلسفة الضياع والعبث، إلا انهما استخدما أساطير اليونان. أما العرب أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم فقد استخدموا التاريخ الإسلامي والقصص القرآني كما في «على هامش السيرة» و«الفتنة الكبرى» و«أصحاب الكهف»... الخ.

وقد أسهمت وسائل الاعلام ــ التي يدير معظمها أناس علمانيون ــ من صحافة وإذاعة ومسرح... إسهاماً قوياً في تنمية الاتجاد الإباحي وتعميمه، وبالتالي في هبوط الأدب أسلوباً ومضموناً كما في كتابات إحسان عبد القدوس وشيعته نثراً وأعمال نزار قباني وزمرته شعراً.

---

(٥٣) انظر كتابه: إبراهيم الثاني.

(٥٤) انظر دراسات في حضارة الإسلام، جب: ٣٩٢.

ومع أن الأدب الحديث في غالبه علماني موضوعياً فقد ظهرت له دعوات علمانية ذاتية، تطالب بفصله عن الدين بل وعن الأخلاق تحت شعارات «الفن للفن» و«الأدب غير الملتزم» و«الأدب للشعب» و«الأدب للواقع». . .

وممن طالب بفصل الأدب عن القيم الدينية سلامة موسى، فمن كلامه قوله عن رسالة الأب:

«إن رسالته العصرية دينية ولكنها مع ذلك بشرية، وهذه الجملة الأخيرة تحتاج إلى تفسير، ذلك أن الأديان الغيبية القديمة كانت تحملنا تبعات وتطالبنا بواجبات ولكن القيم الأخلاقية والاجتماعية في هذه الأديان كانت قيم الآخرة ولم تكن قيم الدنيا، فكان علينا أن نكون صالحين نمارس الفضيلة ونصلي ونصوم حتى نستمتع بالفردوس ولا نتعرض للعقوبة بعد الموت فالقيم هنا أخروية، ولكن الأدب الفرنسي العصري بل الأوروبي كله يحملنا أيضاً تبعات ويطالبنا بواجبات ولكن القيم الأخلاقية والاجتماعية فيه هي قيم الدنيا فقط، فيجب أن نكون صالحين لأن نمارس الفضيلة كي نخدم المجتمع البشري ونرقى بشخصيتنا أخلاقاً ومعارف ونجعل من كوكبنا فردوساً نجد فيه السعادة والخير والشرف»(٥٥).

وكما برزت الوجودية في إنتاج أنيس منصور والماركسية في كتابات نجيب محفوظ برز الإتجاه الضائع الناهج نهج اللامعقول في شعر بدر شاكر السياب كما في «أنشودة المطر» ومثله الشاعر اللبناني الملقب «أدونيس»(*).

على أن الاتجاه إلى اللامعقول لم يفض إلى الثورة على الأدب

---

(٥٥) الأدب للشعب: ١١٢.

(*) اسمه الأصلي: احمد سعيد علي.

الأصيل في ــ مضمونه ومحتواه بل تعداه إلى الشكل والأسلوب ــ مثلما فعل اليوت «اليهودي»[٥٦]. بالشعر الإنجليزي ــ وذلك بظهور ما يسمى الشعر الحر الذي هو في الحقيقة نوع من الهذيان والإسهال العقلي ــ على حد تعبير الشيخ الغزالي في إحدى محاضراته.

وقد بدأه باكثير والسياب بترجمة الشعر الأوروبي إلى عربية منثورة ثم جاء الجيل التالي الذي كان هزيلاً ممسوخاً في كل شيء فانحصر إنتاجه في هذا الهذيان.

وما دمنا قد تعرضنا لذكر ذلك الغثاء فلنأت بمثال له.

يقول أحد أدعيائه (محمد الفيتوري):

«نار خطايانا
تسيل في حنايانا
فلنتكىء على عظام موتانا
ولنصمت الأنا...
برج كنيسة قديمة وراهب قلق
وغيمة تشد قدميها وتعبر الأفق
ورجل بلا عنق...
وإمرأة على الرصيف تنزلق
وقطة في أسفل السلم تختنق
وصوت ناقوس يدق
يرسم دورة على الفضاء، ويدق... الخ»

يقول الشيخ الغزالي بعد إيراد هذا الغثاء:

«ودعك من أضغاث الأحلام التي ينقلك إلى جوها هذا الكلام

(٥٦) انظر تهافت العلمانية، عماد الدين خليل، فصل: الشهود، علمًا بأنه إليوت يدعي انه غير ذلك، أنظر ترجمته في (الشعر بين رواد ثلاثة) منح خوري.

المفكك... ودعك من تقطع الروابط العقلية بين هـذه الألفاظ المتصيدة، فهي كما قيل: سمك، لبن، تمرهندي...

«ولكن الشيء الذي لا تدعه والذي يثير انتباهك حتما هـو جراثيم الاستعمار الثقافي أو الغزو الصليبي الذي سيطر على هذا الشاعر الهائم.

«فهو في القاهرة المدينة المعروفة بشمسها الصـاحية ومـآذنها السامقة وصبغتها الإسلامية الأولى، ولكن التبعية الفكرية والنفسية الغالبة على هذا الشخص التائه جعلته لا يرى إلا الغيوم وأبراج الكنائس والرهبان القلقين ورنين النواقيس وكأنه في لندن أو رومة لا في مصر!!»[٥٧].

---

(٥٧) حصاد الغرور: ١٩٤ ــ ١٩٥.

ثالثاً ـ في الاجتماع والأخلاق

كانت الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي قد انحرفت منذ بضعة قرون، لكن صورة الانحراف لم تبلغ أوجها إلا في مطلع العصر الحديث حيث أصبح المجتمع في أخلاقه وتقاليده وعاداته ينطلق من منطلقات غير إسلامية إذ غلبت الأعراف الجاهلية والعواطف المتهورة والعادات المستحدثة على الأخلاق الإسلامية الأصيلة، غير أن الناس بحكم العاطفة الدينية الموروثة وبما جبلوا عليه من الغيرة على فضائل الخلق كانوا ينسبون كل قيم وموازين وأعراف مجتمعهم للدين، أو ــ على الأقل ــ يلتمسون لها فيه أصولاً، ورسخ ذلك الإنحراف المتمسح بالدين حتى أصبح هو الواقع المألوف الذي كان لدى الناس إستعداد للوقوف في وجه من يحاول تغييره سواء أكان مجدداً إسلامياً أم مفسداً أجنبياً، وهم ــ على أي حال ــ يبررون موقفهم بالإستناد إلى الدين.

وفي القرن الماضي إحتك المجتمع الإسلامي المنحرف بالمجتمع الغربي الشارد عن الدين، ومنذ اللحظة الأولى أحس الغرب ــ المغرور بتقدمه المادي ــ بتفوقه الاجتماعي على الشرق الذي لا شك أنه كان لديه من الفضائل ما يفتقده الغرب، لكن نظرة الغالب إلى المغلوب لا تسمح بالرؤية الصحيحة عادة، لا سيما والروح الصليبية من ورائها.

وبالمقابل أحس المجتمع الشرقي بالإنبهار القاتل واستشعر النقص المرير، ولم يتردد الغربيون الكفرة في القول بأن سبب تخلف الشرقيين هو الإسلام فقد استمدوا ذلك من الوهم الذي كان يسيطر على أولئك بأنهم مسلمون حقاً!

وهكذا كان الطريق مفتوحاً لمهاجمة الأخلاق الإسلامية وتدمير مقومات المجتمع من خلال مهاجمة ذلك الواقع المتخلف الذي لا يمثل الإسلام، وكان النموذج الغربي المشاهد ــ الذي فصل الأخلاق عن الدين ــ يزيد الأمر قوة ووضوحاً.

وإذ علمت قوى الصليبية الحاقدة ــ من مستعمرين ومبشرين ومستشرقين ــ أن البؤرة التي تتجمع فيها أصول أخلاق ومقومات المجتمع المسلم هي المحافظة على العرض وأنها مفترق الطريق بين هذا المجتمع وغيره ــ فقد وضعت المخططات الماكرة لسلب هذه الميزة من المسلمين بإفساد المرأة المسلمة وإشاعة الدياثة بينهم.

ولما كانت الأمة الإسلامية هي المسؤولة ــ أولاً وآخراً ــ عن كل هذا، ولما كان الجانب الذاتي من المشكلة هو الأخطر والأهم، فسوف نوليه جل اهتمامنا.

وفي بداية الأمر علينا أن نستحضر في أذهاننا الصورة الساخرة التي وصف بها المؤرخون المسلمون دياثة الإفرنج الصليبيين[1] لنقارنها بهذه الصورة التي يقدمها لنا الجبرتي ضمن حوادث سنة ١٢١٦هـ:

«ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حلوات الوجوه لابسات

(١) انظر الاعتبار أسامة بن منقذ: ١٣٥ تحقيق فيليب حتي.

الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت إليهم (أي إلى الفرنسيين) نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخضاعه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم، فزيوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع أولئك المأسورات وغيرهن من النساء الفواجر، ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حوز الفرنسيس ومن والاهم وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها (؟) فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار، واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات وخصوصاً عقول القاصرات. وخطب الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم فيظهر حال العقد الإسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها، وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزينات بزيهم ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعية والأحكام العادية والأمر والنهي والمناداة، وتمشي المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها، وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصي يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ويأمرن وينهين في الأحكام.

«ومنها أنه لما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء إلى الخليج وجرت فيه

السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة وصحبتهم آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المقاديف بسخيف موضوعاتهم وكتائف مطبوعاتهم (؟) وخصوصاً إذا دبت الحشيشة في رؤوسهم وتحكمت في عقولهم فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم شيء كثير»[٢].

إذن فقد ظهرت مؤشرات واضحة على أن من المسلمين من هو مهيأ نفسياً لتقبل أسلوب الحياة الاجتماعية اللاديني الوافد من الغرب وأن منهم من هو على استعداد لأن يدعو أمته لذلك لو حظى بالعناية اللازمة وعاش عيشة أوروبية!.

ومنذ أيام محمد علي ابتدأت حركة الابتعاث إلى الدول الأوروبية، وكان من أشهر المبتعثين الأوائل الشيخ رفاعة الطهطاوي الذي يعد كذلك من رواد الاصلاح! هذا الشيخ المبتعث كتب عن مدينة باريس «باريز» كتاباً يصف فيه لأبناء أمته الحياة الاجتماعية في فرنسا آنذاك، تعرض فيه لوصف النوادي والمراقص فقال:

«والغالب أن الجلوس للنساء ولا يجلس أحد من الرجال إلا إذا اكتفت النساء، وإذا دخلت امرأة على أهل المجلس ولم يكن ثم كرسي خال قام لها رجل وأجلسها ولا تقوم لها امرأة لتجلسها، فالأنثى دائماً في المجالس معظمة أكثر من الرجل، ثم أن الانسان إذا دخل بيت

---

(٢) عجائب الآثار: ٢/٤٣٦ ـ ٤٣٧.

صاحبه فإنه يجب عليه أن يحيي صاحبة البيت قبل صاحبه ولو كبر مقامه ما أمكن، فدرجته بعد زوجته أو نساء البيت»[٣].

«ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة (؟) لا من الفسق، فلذلك كان دائمًا غير خارج عن قوانين الحياء، بخلاف الرقص في أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات، أما في باريس فإنه نطّ مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبداً، وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية، وهكذا، وسواء كان يعرفها أو لا، وتفرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن لسآمة أنفسهن من التعلق بشيء واحد، كما قال الشاعر:

أيا من ليس يرضيها خليل ولا ألفا خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

وقد يقع في الرقص رقصة مخصوصة بأن يرقص الانسان ويده في خاصرة من ترقص معه، وأغلب الأوقات يمسكها بيده، وبالجملة فمس المرأة أياً كانت في الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى، وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عد هذا من الأدب»[٤].

هذا الكلام يوحي لقارئه بدلالات نذكر منها اثنتين:

١ ــ إن الأخلاق ليست مرتبطة بالدين، وهي فكرة انقدحت في ذهن الشيخ لكنه لم يستطع أن يعبر عنها بجلاء، فها هو المجتمع يمارس ألوان الدياثة التي لا يرضاها الدين طبعاً ولكنها مع ذلك ليست

(٣) تخليص الابريز في تلخيص باريز: ١٦٨.
(٤) المصدر السابق: ١١٩.

خارجة عن قوانين الحياء ولا يشم منها رائحة العهر بل هي معدودة في باب الأدب!

وقد نمت هذه الفكرة وترعرعت حتى قيل صراحة: أن الحجاب وسيلة لستر الفواحش وأن التبرج دليل على الشرف والبراءة، ومن ثم فلا علاقة بين الدين والأخلاق.

٢ ــ إن هذا المجتمع الديوث يكرم المرأة ويحترمها، وفي المقابل نرى المجتمع الاسلامي يحافظ على العرض لكنه يحتقر المرأة ــ حسب الواقع آنذاك ــ وبذلك نصل إلى المفهوم الذي وجد في أوروبا نفسه وهو أن حقوق المرأة مرتبطة بتحررها من الدين فما لم ينبذ الدين فلن تحصل على هذه الحقوق!

وقريب من قصد رفاعة ما قصده أحمد فارس الشدياق إذ وصف بأسلوبه المقامي الخاص الحياة الغربية ووضع المرأة فيها في كتابه «الساق على الساق»[٥] وهكذا وجدت البذرة الأولى لما سمي «قضية المرأة»!.

على أن الحركة التي تقوم على الوعي لا على السذاجة لم تكن منطلقة من آراء هذين ــ رفاعة والشدياق ــ وأمثالهما، بل من أفكار شخصية أخرى هي شخصية جمال الدين الأسد أبادي المعروف بالأفغاني.

كان جمال الدين متأثراً بشعارات الماسونية ــ التي رفعتها الثورة الفرنسية ــ لا سيما شعار المساواة، واعتقد أن من أعظم علل الشرق أن المرأة فيه ليست متساوية مع الرجل في الحقوق والواجبات، وكان من تلاميذه الذين سرت فيهم هذه الفكرة محمد عبده، وقاسم أمين

---

(٥) انظر مثلاً: فصل في وصف باريس: ٦٢٣.

الذي كان مترجماً لجمعية العروة الوثقى[٦] وقد سبق الحديث عن الأول أما الأخير فهو مبتعث إلى فرنسا للدراسة يقول عنه مؤرخ حياته:

«ويعود قاسم إلى قاعة المحاضرات بجامعة مونبلييه وهو أشد رغبة في تعرف المزيد عن الحياة في أوروبا، وهناك يجد زميلته «سلافا»... فلا يتردد في سؤالها أن تصحبه إلى المجتمعات الفرنسية وتقبل هي في سرور باد، وصحبته فتاته إلى كثير من الحفلات وتعرف إلى كثير من الأسر فوجد حياة اجتماعية تختلف عن الحياة في مصر، وجد السفور بدل الحجاب والاختلاط بدل العزلة والثقافة بدل الجهالة»[٧].

وعاد قاسم إلى مصر يحمل إلى أمته فكرة خطرة عرضها على أصدقائه فتردد بعضهم وأيده أكثرهم وخاصة الزعماء مثل: سعد زغلول ومصطفى كامل وأحمد لطفي السيد[٨] وكذلك علي شعراوي زوج هدى شعراوي ـ الملقبة بزعيمة الحركة النسائية وغيرهم ممن قال عنهم كرومر «أسميهم حباً في الاختصار أتباع المرحوم المفتي السابق الشيخ محمد عبده»![٩].

وأظهر قاسم فكرته تلك في كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» وعند صدور الأول شك كثيرون في كونه كاتبه لما حواه الكتاب من عرض ومناقشة الأقوال الفقهية والأدلة الشرعية التي كان

---

(٦) انظر قاسم أمين: ٢٠ و ٣٤.

(٧) قاسم أمين: ٤٠.

(٨) سبق الكلام عن لطفي السيد وسيأتي الحديث عن سعد زغلول، أما مصطفى كامل فيذكر مؤرخ حياته انه كان له أم روحية فرنسية تدعى جولييت آدم.. الخ، انظر مصطفى كامل حياته وكفاحه، أحمد رشاد: ٧١ مع أن بينه وبين قاسم خلافات كثيرة.

(٩) أحمد لطفي السيد: ١٣٧

مثل قاسم قليل البضاعة منها، ولكنهم لم يشكوا في أن الذي دفعه إلى الفكرة أحد رجلين أما كرومر وأما محمد عبده[10] ويحل لطفي السيد الاشكال في كتابه قصة حياتي إذ يقول:

«إن قاسم أمين قرأ عليه وعلى الشيخ محمد عبده فصول كتاب «تحرير المرأة» في جنيف عام ١٨٩٧ قبل أن ينشره على الناس»[11].

وجاء مثل هذا في كتاب «قاسم أمين» أيضاً[12].

وعلى أية حال فقد ظهر كتابه «تحرير المرأة» الذي يمكن تلخيص أفكاره فيما يلي:

١ ـ إن المرأة مساوية للرجل في كل شيء و«إن تفوقه البدني سببه استعمال الأعضاء»[13] ـ ويتضح من هذا تعريضه بالقرآن الكريم وتأثره بالداروينية ـ.

٢ ـ «إن الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الاسلامية لا للتعبد ولا للأدب بل هما من العادات القديمة السابقة على الاسلام والباقية بعده «وهي عادة عرضت على المسلمين» من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين منها براء» لكن بالنسبة للأمم الأخرى فإن هذه العادة «تلاشت طوعاً لمقتضيات الاجتماع وجرياً على سنة التقدم والترقي»[14].

---

(١٠) قاسم أمين: ١٥٨.

(١١) أحمد لطفي السيد: ١٣٣.

(١٢) ص: ١٥٨ ـ ١٥٩.

(١٣) تحرير المرأة: ١٩.

(١٤) تحرير المرأة: ٧٩، ٦٨، ٦٧.

٣ ــ إن الحجاب ليس عائقاً عن التقدم فحسب بل هو مدعاة للرذيلة وغطاءً للفاحشة في حين أن الاختلاط يهذب النفس ويميت دوافع الشهوة!.

وقد حرص قاسم على تبرئة نفسه من تهمة الدعوة إلى تقليد الغرب في مناداته بهذه الفكرة[١٥] مدعياً أن الدافع الوحيد هو الحرص على الأمة والغيرة على الدين والوطن، فهو يزعم أن أصل فكرته هو الرد على «داركور» المستشرق الذي هاجم الحجاب، ولست أدري ماذا ترك قاسم لداركور!

لكن كتابه الثاني «المرأة الجديدة» يكذب ادعاءاته تلك فهو يقول فيه:

«هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه وليس له دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يتعرفوا شؤون المدنية الغربية، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها، وإذا أتى ذلك الحين ــ ونرجو ألّا يكون بعيداً ــ إنجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقنا أن من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية»[١٦].

وقد طبق ذلك في بيته فأحضر لابنتيه مربيتين ــ إحداهما فرنسية والأخرى إنجليزية[١٧] وظل قاسم حريصاً على دعوته داعياً إلى فكرته «إلى آخر نسمة من حياته القصيرة ففي ليلة وفاته بالسكتة القلبية في ٢٣ ابريل ١٩٠٨ كان يقدم طالبات رومانيات في نادي المدارس العليا»[١٨].

---

(١٥) انظر تحرير المرأة: ٨٣.

(١٦) قاسم أمين: ١٩٢ ــ ١٩٣.

(١٧) المصدر السابق: ٧٧.

(١٨) أحمد لطفي السيد: ٢١٥.

وقد ناصر قاسماً وأيده كثير من الزعماء والأدباء والصحفيين، منهم غير من ذكرنا سلفاً الشاعر ولي الدين يكن الذي يقول من قصيدة له:

«أزيلي الحجاب عن الحسن يوماً
وقولي ملكتك يا حاجبه
فلا أنا منك ولا أنت مني فرح ذاهباً ها أنا ذاهبه»[19]

والشاعر العراقي الزهاوي، ومن ذلك قوله:

هزأوا بالبنات والأمهات وأهانوا الزوجات والأخوات
هكذا المسلمون في كل صقع حجبوا للجهالة المسلمات
سجنوهن في البيوت فشلوا نصف شعب يهم بالحركات
منعوهن أن يرين ضياء فتعودن عيشة الظلمات
... إن هذا الحجاب في كل أرض ضرر للفتيان والفتيات[20]

وكانت الصحافة أعظم المؤيدين للفكرة التي انتشرت في بلاد الشام والمغرب على أثر نجاحها في مصر.

أما بلاد الشام فمن الواضح أن الدعوة فيها تعرقلت بالنسبة لمصر حتى أن أول كتاب يتحدث عنها لم يصدر إلا سنة ١٩٢٨ أي بعد وفاة قاسم بعشرين سنة، وهو الكتاب الذي ألفته ـ أو ألف باسم ـ نظيرة زين الدين بعنوان «السفور والحجاب» ولعل مما يثير الانتباه أن الذي قرظه هو علي عبد الرازق صاحب «الاسلام وأصول الحكم» وكان مما قال:

«إني لأحسب مصر قد اجتازت بحمد الله طور البحث النظري

(١٩) ولي الدين يكن، مناهل الأدب العربي: ٤٥.
(٢٠) ديوان الزهاوي: ٣١٩.

في مسألة السفور والحجاب إلى طور العمل والتنفيذ، فلست تجد بين المصريين إلا المخلفين منهم من يتساءل اليوم عن السفور هو من الدين أم لا ومن العقل أم لا، ومن ضروريات الحياة الحديثة أم لا بل نجدهم حتى الكثير من الرجعيين المحجبين منهم يؤمنون بأن السفور دين وعقل وضرورة لا مناص لحياة المدنية عنها».

«... أما أخواننا السوريون فيلوح أن للسفور والحجاب عندهم تاريخاً غير تاريخه في مصر، فهم لم يتجاوزوا بعد طور البحث النظري الذي بدأه بيننا المرحوم قاسم أمين منذ أكثر من عشرين سنة، ولكنهم على ذلك يسيرون معنا جنباً إلى جنب في الطور الجديد الذي نسير فيه، طور السفور الفعلي الكلي الشامل»[٢١].

وأما بلاد المغرب فقد كانت تونس أسبقها إلى السفور والدعوة إليه إذ كتب الطاهر الحداد سنة ١٩٣٠ كتابه «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» وفي الامكان أخذ نموذج لتأييد فكرته من المحاولة الفنية التي اشترك فيها محمود بيرم شاعراً وعلي الدعاجي راسمًا، ذلك أن الشاعر قام «يؤرخ للمراحل التي قطعتها المرأة التونسية قبل أن تلقي الحجاب وذلك من خلال ستة عشر بيتاً جسمت كل رباعية منها مرحلة من مراحل تطور الحجاب أبرز معانيها ووضحها علي الدعاجي بأربعة رسوم ظهرت فيها المرأة في وضعيات متباينة.

«ترسم الأبيات الأولى والصورة امرأة ضرب البرقع سفحاً دون ظهور أي جزء منها، وقد شبه بيرم إنسدال ذلك البرقع الأسود على ذلك الوجه الصبوح بانسدال الليل على النهار:

سجى الليل ألا يرجى   لهذا الليل من آخر
سواد يحجب الحق   كقلب الجاحد الكافر...

---

(٢١) مجلة الهلال اغسطس ١٩٢٨.

«وعندما دحرجت المرأة في الصورة الثانية جزءاً من النقاب ظهر القليل من نور وجهها المكفن، فوصف الشاعر هذه المحاولة بالنور الخادع . .

يلوح النـور خـداعـاً كلون الضاحك الغـادر
ضيـاء يـرسـل الشـك لقلب الجازع الصابر . . .

«وتزيح المرأة في ريشة الرسام الدعاجي ذلك الخمار حتى الذقن دفعة واحدة تستقبل نور الحياة والشمس، فيـرى الشاعر في هذه الخطوة المحتشمة بداية لصبح من الثقة المتبادلة بين الجنسين:

بدا الصبح وفي الصبح تجلى روضهـا النـاظـر
وقال الورد في الخدين غضوا عن دمي الطاهر . . .

«وفي النهاية لا تجد المرأة موجباً لبقاء هذا النقاب متدلياً عند الجيد فتزيحه دفعة واحدة، وتنتزع معه بذلك رواسب التقاليد الضيقة، فتظهر الشمس لعين الحق ويغمر نورها الدنيا:

وفي الشمس ترى الدنيا جميعـاً حسنهـا بـاهـر
يـرتل كـل ذي صـوت ثنـاء المبـدع القـادر
ويعلم كـل ذي عيـ ـنين ما الحسناء بالعاهر
هنـالـك تحكم الأفهـا م بين العف والفاجر[٢٢]

هذا من الوجهة النظرية أما التطبيق الواقعي للفكرة فقد حمل العبء الأكبر منه الحركة التي أسميت «حركة النهضة النسائية» وأشهر رائداتها: هدى شعراوي وسيزا نبراوي سكرتيرتها، وباحثة البادية ومنيرة ثابت، وقد التف حولهن عصبة ممن خلعن رداء الحياء وسخرن أنفسهن لخدمة الدوائر الصليبية.

---

(٢٢) مجلة الفكر، تونس، ديسمبر ١٩٧٥، عدد خاص عن المرأة في عام المرأة!

إشتد الحماس لهذه الحركة ـ في فترة عصيبة حرجة ـ وهذا التوقيت المشبوه يوحي بأن وراء الأكمة ما وراءها! ـ ذلك أنه في سنة ١٩١٩ هبت مصر في وجه الاستعمار ووقف الشعب بشجاعة مع عدد من المخلصين حقيقة يطالب بحقه من الحرية والحياة، وفي تلك الظروف الصاخبة التي تتميز بالغليان والاضطراب وفي غمرة الثورة العارمة نشطت دعوتان مريبتان متآخيتان، إحداهما استغلت ظروف الثورة لسلخ الأمة عن انتمائها وهي الدعوة إلى اللادينية تحت ستار الشعار الذي رفعته الزعامات المصطنعة «الدين لله والوطن للجميع» والأخرى: دعت إلى نسف الفضائل الاسلامية من خلال دعوتها إلى «تحرير المرأة».

في ذلك الجو العاصف انبرت هدى ورفيقاتها للدفاع عن حقوق الوطن وطرد المحتلين ولكن بماذا؟ لقد خرجن في مظاهرة ومزقن الحجاب وأحرقنه في ميدان عام، وكان هذا أعظم إسهام منهن في الثورة، وإذ حدث أن الجنود البريطانيين ـ لحاجة في نفس يعقوب ـ طوقوا الشوارع ساعة المظاهرة واعتدوا على بعض المتظاهرات ـ فقد بدا ذلك في أعين الشعب محاولة من بريطانيا لمنع المرأة المصرية من التحرر، وبذلك اكتسبت الحركة صفة البطولة الوطنية!![٢٣].

وتظهر الحقيقة أجلى وأوضح إذ علمنا أنه في تلك الفترة نفسها كان أتاتورك يهدم الاسلام تحت زيف البطولة الوطنية أيضاً.

لقد اعتبرت هذه البطولة مبرراً كافياً للانقضاض على الأخلاق بل لمهاجمة أحكام الاسلام علانية، إذ ردد دعاة الإباحية قولهم: أليس الجنس اللطيف الذي أدى دوره في الثورة الوطنية بإخلاص جديراً بأن

---

(٢٣) انظر كتاب «سعد زغلول» بقلم سكرتيره: محمد إبراهيم الجزيري: ٢٠٣ فما بعد.

يتساوى في كل شيء مع الجنس الخشن؟ أتريدون أن تقدم المرأة للوطن كل شيء ولا يقدم الوطن لها شيئاً؟!.

ولكن الحق لم يلبث أن انكشف وإذا بالحركة النسائية في حقيقتها حركة عميلة مريبة ترتبط خارجياً بالدوائر الاستعمارية وداخلياً بالزعماء المصطنعين.

أما ارتباطها بالاستعمار ـ والجمعيات التبشيرية خاصة ـ فيؤيده خطاب هدى شعراوي الذي ألقته في مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي بروما، وهذه مقدمته:

«إنه ليسرني حقيقةً أن أرى نفسي بينكن في هذه الجمعية المحترمة التي أمكن للمرأة المصرية أن تجيء لتناقش في حقوقها لأول مرة في التاريخ، وأنه لما يدعوني إلى الاغتباط والفخر إختياري لإظهار تلك الرابطة بين بنات النيل وأخواتهن في أوروبا»(٢٤).

وتختتم خطابها قائلة:

«والآن قبل أن أعود أرجو أن تسمحن لي أيتها السيدات على طلبكن بإلحاح إبداء الرغبة في إشراك المرأة المصرية في واجب «الاتحاد» الجليل ولنا عظيم الرجاء في أن نصل بفضل نصائحكن الغالية التي نعتبرها السبيل الهادي والنسج على منوالكن الذي نجد فيه خير كفيل إلى تحقيق آمالنا ورغائبنا، ونضع تحت تصرفكن أنفسنا في خدمة مبادئكن ونشر آرائكن»(٢٥).

أما صلتها بالزعماء المصطنعين فيؤكدها بصفة قاطعة سكرتير سعد زغلول ـ زعيم حزب الوفد ـ في كتابه عن حياته فقد ذكر أن

---

(٢٤) المرأة وآراء الفلاسفة: ١٤٢.
(٢٥) المصدر السابق: ١٤٤.

سعداً هو الزعيم الحقيقي للحركة النسائية مستشهداً بخطابه الذي ألقاه بمناسبة زيارة وفد مختلط من طلبة مدرسة الحقوق الفرنسية لمصر، ومنه:

«إنني من أنصار تحرير المرأة ومن المقتنعين به لأنه بغير هذا التحرير لا نستطيع بلوغ غايتنا ويقيني بهذا ليس وليد اليوم بل هو قديم العهد فقد شاركت منذ أمد بعيد صديقي المرحوم قاسم بك أمين في أفكاره التي ضمنها كتابه الذي أهداه لي (يريد كتاب المرأة الجديدة) . . »[٢٦].

ويضيف الكاتب أن زوجة سعد كانت مثقفة ثقافة فرنسية وأنه كان يمنحها الحرية الكاملة (!) ويبدو من مسيرة زوجة سعد أنها أول زوجة زعيم سياسي عربي ـ تقريباً ـ تظهر معه سافرة في المحافل والصور، وتتسمى على الطريقة الغربية «صفية زغلول» كما أنها أول من اتخذت بدعة لقب «أم المصريين»[٢٧].

ويذكر الكاتب أن «صفية زغلول» هي الزعيمة النسائية الحقيقية لكنها آثرت ألا تظهر ذلك وأسندت هي وزوجها الأمر إلى هدى شعراوي التي عينها سعد «رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات»[٢٨].

على أن سكرتير الزعيم يثبت ـ دون أن يدري ـ إدانة الزعيم والحركة النسائية وارتباطها بالاستعمار، وذلك في معرض حديثه عن صديقة سعد «منيرة ثابت» الملقبة «الفتاة الثائـرة» و«أول صحفية مصرية» فهو يقول:

---

(٢٦) سعد زغلول: ٢٠٣.
(٢٧) سعد زغلول: ٢٠٤.
(٢٨) سعد زغلول: ٢٠٨.

«كانت الوزارة الزيورية تضطهد الصحافة الوفدية وتغلق جرائدها واحدة بعد أخرى ولا تسمح لوفدي بأية رخصة جديدة، وعلى حين فجأة غابت الآنسة منيرة ثابت أياماً عن بيت الأمة ثم عادت تحمل رخصتين لصحيفتين جديدتين باسم «الأمل» و«لسبوار» أولاهما عربية سياسية أسبوعية والثانية فرنسية سياسية يومية، وقدمتهما للرئيس (سعد) لتكون رهن تصرفه أما كيف حصلت على الرخصتين فلا أعرف عنه إلى اليوم شيئاً»[29]. ثم تطور الأمر إلى تشكيل أحزاب نسائية أهمها الحزب النسائي (١٩٤٥) وحزب بنت النيل (١٩٤٩)، وقد نشرت الصحف المصرية نفسها فضائح عن هذه الأحزاب تثبت أنها كانت تتلقى الأموال من السفارات الغربية لا سيما الاميركية والانجليزية[*].

وكان من ثمرة الحركة النسائية ولادة الصحافة النسائية، فقد صدرت مجلة «فتاة الشرق» قبل الحرب العظمى الأولى، ومما تجدر الاشارة إليه أن كل عدد من أعدادها يحوي نماذج وصوراً لأزياء الشهر[30] التي ظهرت في أوروبا، الأمر الذي مهد لوقوع المرأة المسلمة في شباك مصيدة الأزياء اليهودية كما وقعت المرأة النصرانية في الغرب.

وأسهمت المجلات غير النسائية بنصيبها في الحركة فكانت «الهلال» ومثلها المقتطف والعصور تنشر إلى جانب المناقشات الفكرية للموضوع صور المتبرجات من شرقيات وغربيات وتحيطها بهالة من التعظيم تغري القارئات بمحاكاتهن.

وفي المجال التعليمي حرص لطفي السيد وطه حسين وأتباعهما

---

(٢٩) سعد زغلول: ٢١٢.

(*) أنظر الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار، محمد عطية خميس: ٨٩.

(٣٠) انظر المجلد الأول من المجلة المذكورة سنة ١٩١٣، مركز البحث العلمي.

على أن يكون التعليم مختلطاً فيه الذكور والاناث واشتد الصراع في الجامعة من أجل ذلك، وكتب الرافعي «شيطان وشيطانة» رداً على طه حسين وسهير القلماوي، كما كتب مقالاً يحيي فيه طلبة الجامعة الذين رفضوا الاختلاط[٣١] ولكن الانتصار كتب لدعاة الاختلاط، فقد كان في صفهم الزعماء السياسيون ـ ومعظم الصحف، وكل القوى الدخيلة من مبشرين ومستشرقين في الجامعة وغيرها، إذ أن هذه القوى مجتمعة فزعت لظهور الحركة الاسلامية الطلابية وحاربتها أشد الحرب.

ولم يقنع الكتاب النسائيون بما حققته الدعوة من مكاسب ونجاح ولعل مرد ذلك إلى أن الأسياد ينتظرون المزيد، بل ظلت الحرب النفسية مستمرة فبعضهم يغرق في المبالغة والوهم حتى يجعل وضع المرأة هو المسؤول عن مشكلات مصر من أولها إلى آخرها، كما قال سلامة موسى:

«تعدد مشكلاتنا يوهم اختلافها في الأصل وأنها لا يتصل بعضها ببعض، ولكن المتأمل المفكر يستطيع أن يجد النقطة البؤرية لجميع هذه المشكلات والنقطة البؤرية الوحيدة هنا هي أن نظامنا الاقطاعي في نظرته للعائلة ومركز المرأة والأخلاق الأبوية والنظرة الاجتماعية، كل هذا يعود إلى مشكلة واحدة هي أن آراءنا الاقطاعية القديمة التي ورثنا معظمها عن الدولة الرومانية الملعونة(لا يريد أن يعترف بالاسلام) لم تعد تصلح للحياة العصرية وأن متاعبنا وأرزاءنا واصطداماتنا تنبع من هذا الكفاح الذي نكافحه نحو حياة ديموقراطية جديدة نتخلص بها من الحياة الاقطاعية القديمة»[٣٢].

---

(٣١) وحي القلم: ١٦٣/٣.

(٣٢) الأدب للشعب: ٦٦ ـ ٦٧.

أما إسماعيل مظهر فقد جمع شبهاته القديمة وآراء غيره ونسقها في كتاب أسماه «المرأة في عصر الديمقراطية» جاء فيه:

«ومضى الكثيرون متعامين عن الحق الواضح الجلي قائلين بأن قضية المرأة قضية محلولة وأن الزمن القديم قد وضع لها القواعد وفصل الفصول وأتم الفروع، مؤتمين في ذلك بنظريات وأقوال أبلاها الزمن وناء عليها الدهر، فأصبحت مهلهلة فضفاضة بادية العورات، ولكنهم يحاولون ستر عوراتها بالثرثرة الفارغة كقولهم «المرأة للبيت» وقولهم «الرجل قوام على المرأة» وقولهم كما قيل من قبل «المرأة ليس لها نفس»...»(٣٣).

وفيه: «لقد اتخذ الرجعيون الذين يرهبون التطور فرقاً من أوهام سلطت عليهم أو رغبة في بسط سلطانهم على النساء... من بضعة نصوص أشير بها إلى حالات قامت في عصور غابرة سبيلاً إلى استعباد النساء استعباداً أبديا، لقد حُضّت المرأة في ذلك العصر أن تقر في بيتها وأن لا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى»(٣٤) ثم أخذ يناقش كلا الدليلين:

«إن المعنى الذي يستخلصه أصحاب الرجعية من حض المرأة على أن تقر في البيت معنى غامض كل الغموض في هذا العصر. وبالرغم من ذلك الغموض الذي يكتنفه فإنهم لا يريدون أن يفسروه حتى تتحدد المعاني القائمة في نفوسهم منه.

أما إذا أرادوا أن تكون المرأة سجينة البيت فكيف يوفقون بين

---

(٣٣) ص: ٩٦.
(٣٤) ص: ١١٨.

هذا المعنى وبين حاجات الحياة الضرورية؟ وإذا أرادوا أن يكون تفسيره أن تقر المرأة في البيت إذا لم يكن لها ما يشغلها خارجه، فذلك هو الواقع في حياتنا الحديثة»[٣٥].

«... ولكن المصيبة التي أصابنا بها أولئك المستغرقين (كذا) في النظر في الحياة بمنظار القبلية البدائية، أنهم يعتقدون أن كل تجمل تبدو به المرأة هو تبرج وأنه تبرج الجاهلية الاولى، ذلك في حين أن كلمة «التبرج» ليس لها حدود التمرينات الرياضية، وفي حين أنه لم يصلنا عنهم وصف شامل لتبرج الجاهلية الاولى!!!».

«... فغالب الظن بل الأرجح تغليباً أن المقصود به (أي التبرج) عادة ألفت في الأزمان الأولى كانت في نشأتها شعيرة من شعائر الوثنية، أي شعيرة دينية، فإن البغاء على ما يعرف الآن من تاريخه وتطوره قد نشأ في أوله نشأة دينية، فكان شعيرة من شعائر التقرب من الآلهة...».

ثم يقول:

«فلما جاء الإسلام... عطف إلى ناحية المرأة فاعتبرها نصف انسان وأضفى عليها من الكرامة والاحترام ذلك القدر الذي لا يزال حتى الآن موضع انبهار كل المشترعين» «... غير أن خمسة عشر قرناً من الزمان كافية في الواقع لأن تهيء العقلية الانسانية إلى خطوات أخرى في التشريع للمرأة...».

«ومن هذه الناحية لا أرى ما يمنع مطلقاً من أن ترفع المرأة إلى منزلة المساواة بالرجل في جميع الحقوق المدنية والسياسية: في الميراث وفي قبول الشهادة وفي العمل وفي الاستقلال الفكري والاقتصادي،

---

(٣٥) ص: ١٢٠.

وبالجملة في جميع الأشياء التي تكمل بها انسانيتها، ذلك بأنها انسان»[٣٦].

ثم تلاه خالد محمد خالد وكتابه «الديمقراطية أبداً» وكان نصيب المرأة من ديمقراطيته شيئين:

١ ــ حق المرأة في وقف تعدد الزوجات، وعلى ذمته ينسب إلى محمد عبده أنه قال «يجب تحريم التعدد الآن عملاً بحيث لا ضرر ولا ضرار»[٣٧].

٢ ــ تأميم الطلاق ــ على حد تعبيره ــ[٣٨].

أما حسين مؤنس فيعد الحجاب الإسلامي هو العائق الأكبر في سبيل انتماء مصر للغرب ذلك أنه ربطها بالمجتمعات الشرقية المتخلفة في حين أن المرأة المصرية القديمة كالمرأة الاوروبية الحديثة سواءً بسواء وحضارتها واحدة، يقول:

«وقد انهارت المجتمعات الشرقية كلها بسبب ظلمها للمرأة وحرمانها إياها من مكانها وحقها الطبيعيين، وهذه حقيقة لم يتنبه لها معظم من يدرسون تواريخ هذه الدول الشرقية من المشارقة ولكنها معروفة للدارسين من أهل الغرب لأن مجتمعهم «يقوم على المرأة والرجل مجتمعين، ومن ثم فهم يعرفون أهمية المرأة في المجتمع الإنساني، ويشيرون إلى ذلك ويقررون أنه أساس تقدم مجتمعهم على غيره من المجتمعات، وهذه الحقيقة ــ على ما يبدو من بساطتها ــ

(٣٦) ص: ١٣٧ ــ ١٣٨.
(٣٧) ص: ١٦٤.
(٣٨) الكتاب المذكور انظر: ١٦٤ ــ ١٦٥.

تفرق بين مجتمع ومجتمع وحضارة وحضارة، بل هي الحد الفاصل بين الحضارات التي أينعت وعاشت والحضارات التي ذبلت وماتت».

والحضارة المصرية القديمة من الطراز الذي أعطى المرأة حقها واعترف بها ومنحها حقها كاملاً في البيت وفي ميدان العمل والحياة، بل إن عينك لا تقع على رسم مصري قديم إلا وجدت المرأة فيه إلى جانب الرجل ورأيتها رافعة الرأس تسير معه وتعمل معه...

«وحضارة مصر مشتركة من هذه الناحية الأساسية مع حضارتنا الراهنة وأنا أقول «حضارتنا» لأنك سترى أن ما نسميه اليوم بحضارة الغرب إن هو إلا الحضارة المصرية القديمة متطورة في اتجاه مستقيم»(٣٩).

وهكذا ظل الناعقون يصيحون من كل مكان ويسلكون كل اتجاه ــ فكرياً أم عملياً ــ حتى آل الأمر إلى الواقع المؤلم الذي عبّر عنه أوفى تعبير «جان بول رو» بقوله:

«إن التأثير الغربي الذي يظهر في كل المجالات ويقلب رأساً على عقب المجتمع الإسلامي لا يبدو في جلاء أفضل مما يبدو في تحرير المرأة»(٤٠).

لقد عمت الفوضى الأخلاقية العالم الإسلامي من أقصاه إلى أدناه على تفاوت في ذلك، وتولى الجيل الذي رباه المستعمرون تربية جيل جديد أكثر مسخاً وانحلالاً، وحوربت أحكام الله على يد أبطال الاستقلال أكثر مما حوربت بأيدي المستعمرين، ولنستمع إلى «رو» وهو يقرر ذلك قائلاً:

«في تركية سنة ١٩٢٩ صدر قانون مدني على غرار قانون

---

(٣٩) مصر ورسالتها: ٥١ ــ ٥٢.
(٤٠) الإسلام في الغرب: ١٧٨.

«نوشاتيل» المدني السويسري فحرم تعدد الزوجات وقضى على الحجاب والحريم ونظرة الطلاق، وفي برهة وجيزة جعل من المرأة التركية شقيقة المرأة السويسرية وصنوها»[٤١].

ثم يقول:

«والمرأة التركية عصرية تماماً فهي ترتدي أثواب السهرة العارية الكتفين والظهر كما لا تحجم عن ارتداء «المايو» ولكنها تتحاشى التطرف في ذلك، وأما الغزل وأحاديث الغرام فهي أمور لا تتم في العلن وكذلك التقبيل لا يجري جهراً، وما من أحد يشكو من التفكك الخلقي»[٤٢].

«وفي المغرب تمكن العهد الاستقلالي من أن يحقق في بضع سنوات ما لم يستطعه الاستعمار في عشرات السنين.

«وفي الجزائر أوحت الثورة للنساء بالكفاح فخرجت العذارى المحاربات من بيوتهن ونزعن الحجاب لأول مرة منذ أن اعتنقت بلادهن الإسلام، وهنا تكون المعركة النضالية قد فعلت ما عجز السلام عن فعله «أي كما فعلت الثورة الشعبية المصرية».

وفي تونس «أعلن السيد بورقيبة عدة قرارات هي بمثابة ثورة اجتماعية جديدة (١٠ آب سنة ١٩٥٦) وكان المقصود بهذه الثورة منع تعدد الزوجات وجعل السن الدنيا لزواج الفتاة الخامسة عشرة ثم تحرير المواطنين والمواطنات الذين تخطوا العشرينات من عمرهم من موافقة الوالدين إذا ما أرادوا عقد الزواج، وفي نفس الوقت أعلن

---

(٤١) الإسلام في الغرب: ١٨١.

(٤٢) المصدر السابق: ١٨٦.

السيد بورقيبة بأن الطلاق لا بد من أن يخضع للمحاكم[٤٣]....».

هذا وقد نشرت مجلة العربي في استطلاع لها عن تونس صورة للوحات الدعاية المنصوبة في الشوارع ففي كل ميدان لوحتان إحداهما تمثل أسرة ترتدي الزي المحتشم مشطوبة بإشارة (×) والأخرى تمثل أسرة متفرنجة متبرجة ومكتوب تحتها «كوني مثل هؤلاء»!

أما القرارات التي أشار إليها رو فهي تلك القوانين التي تعاقب من يتزوج ثانية بالحلال وتبرىء بل تشجع من يخادن عشراً بالحرام!

على أن السلاح الفتاك الذي استخدم لهذه الفضيلة وتقويض المجتمعات الإسلامية ونقل الأوبئة الاجتماعية الغربية هو وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وسينما وتلفزيون، تلك التي تعرض بصورة فنية وأساليب متطورة كل ضروب الفتنة وصنوف الإنحلال، وقد أصبحت بما لديها من قدرة التأثير وسعة القاعدة تشكل جبهة عريضة عاتية تبدو حيالها أية محاولة للإصلاح أو نداء للفضيلة عاجزة جداً[٤٤].

إلى جانب ذلك يأتي التعليم المختلط والنوادي المختلطة والشواطىء (البلاجات) المختلطة، وتأتي الأزياء الخليعة المستوردة من بيوت اليهود في الغرب، وتأتي موانع الحمل ووسائل الاجهاض.

إلى جانب ذلك يكون الاختلاط الفاضح في دوائر الحكومة والمؤسسات وفي وسائل المواصلات وفي الشقق والمساكن وفي كل مكان في معظم أقطار العالم الإسلامي.

ومن هنا فلا عجب أن سمعنا بين الحين والحين عن جرائم

---

(٤٤) انظر كتاب سقوط القاهرة، عبد المنعم شميس.

(٤٣) المصدر السابق. ١٨٨ ــ ١٨٩

اجتماعية تضاهي تلك التي تحدثنا عنها في أوروبا وأميركا من قتل واختطاف واغتصاب وتشرد. ولا عجب أن تنتشر الأمراض الإجتماعية الفتاكة الناشئة عن فقد كل من الجنسين خصائصه المميزة، وليس ما نشاهده من تخنث الرجال وترجل النساء إلا صورة من ذلك.

ولا عجب أيضاً أن تتقوض البيوت وتنهار الأسر ويصبح جنوح الأحداث مشكلة اجتماعية تعاني منها بلاد تدعي أنها إسلامية.

إن التربية غير السليمة لا يمكن أن تنتج إلا جيلاً غير سليم، وها هوذا الجيل المعاصر المنكود تتجاذبه الشهوات والشبهات وتمزقه التناقضات والغوايات، وتغتاله النزوات المتهورة والاغراءات القاتلة، فلا يستطيع إلا أن يسلم نفسه ذليلاً لشياطين الجن والإنس ينهشون فكره وجسمه ويلهبون ظهره بسياطهم حتى يسقط شلوا ممزقاً على مذبح الفسق والإباحية.

والعجيب حقاً أنه مع هذه النذر كلها لا تزال الدعوات المحمومة على أشدها ولا تزال الموجة في عنفوانها ولا تزال الصيحات تتعالى من كل مكان مطالبة بنبذ التقاليد وفصل الأخلاق عن الدين.

البَابُ الخامس

حُكمُ العِلمانيّة في الإسلام

الفصل الأول:

هل للعلمانية في العالم الإسلامي مبرر؟

الفصل الثاني:

حكم العلمانية في الإسلام.

الفصل الأول

هل للعلمانية في العالم الاسلامي مُبرّر ؟

ألعلمانية فكرة مستوردة لا يشك في ذلك أعداؤها ولا يماري فيه أحد من دعاتها ومعنى ذلك بداهة أنها ليست من صميم الإسلام ولا هي حتى من انتاج المنتسبين إليه، ولذلك وجب ـ قبل كل شيء ـ أن ننظر إليها نظرتنا إلى أية بضاعة مستوردة من جهة حاجتنا إليها أو عدمها، فما لم نكن بحاجة إليه فإن المفروض فينا باعتبارنا عقلاء أن نميز ونختار ونأخذ أخذ الواعي الحذر.

وبتطبيق هذه البدهية على العلمانية نجد أنها بضاعة نحن في غنى تام عنها، أي أن من الحمق والغباء أن نستجلبها حتى وإن كانت نافعة ومجدية بالنسبة للمجتمعات والظروف التي أنتجتها، فكيف إذا كانت كما سبق ـ ما دخلت مجالاً من مجالات الحياة إلا وثمرتها الشقاء المطبق والضياع المرير؟.

ثم أنه يجب سلفاً الا ننسى أننا لسنا مخيرين أصلاً في قبول هذه الفكرة أو رفضها، وإننا ـ حتى ونحن نناقشها على ضوء هذه البدهيات ـ إنما نناقشها من قبيل الفرض الجدلي والنزول إلى مستوى الخصم «وأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين» وإلا فإن ما سيأتي تقريره من حكم العلمانية في دين الله لا يدع لنا فرصة للتفكير أو التردد.

وبالرغم من ذلك نقول: «هل للعلمانية في العالم الإسلامي مبرر؟ هل لها ما يسوغها من الأسباب سواءً أكان في العقيدة أم الشريعة، في التصور أم في التطبيق؟

وقبل أن نفكر في الجواب سوف تستولي على أذهاننا تلك المشاهد المروعة التي عرضت سابقاً عن الحياة العلمانية في الغرب ولسان حالها يصرخ في وجوهنا أن احذروا أن تلقوا بأنفسكم في الجحيم!.

وإذا استعرضنا بسرعة خاطفة ما سبق أن تحدثنا عنه سلفاً من قصة العلمانية في اوروبا بأسبابها ودوافعها فسوف نصل دون جهد إلى نتيجة واضحة هي أن العلمانية رد فعل خاطىء لدين محرف وأوضاع خاطئة كذلك، وإنها نبات نكد خرج من تربة خبيثة ونتاج سيء لظروف غير طبيعية.

فأوروبا نكبت بالكنيسة وديانتها المحرفة وطغيانها الأعمى وسارت أحقاباً من الدهر تتعثر في ركابها ثم انتفضت عليها وتمردت على سلطتها، فانتقلت إلى انحراف آخر وسارت في خط مضاد إلا أنه أعظم خطراً وأسوأ مصيراً.

انتقلت من جاهلية تلبس مسوح الدين إلى جاهلية ترتدي مسوح التقدم والتطور، وهربت من طغيان رجال الدين والاقطاعيين فوقعت في قبضة الرأسماليين وأعضاء الحزب الشيوعي.

وذلك الانتقال وهذا الهروب دفعت إليه ظروف تاريخية بيئية نابعة من واقع الحياة الاوروبية خاصة، مع العلم بأنه لم يكن ضرورياً أن يتخذ رد الفعل الاوروبي تلك الصفة بعينها وأن مجيئه على هذا الشكل ليس حتمياً.

أي أنه لم يكن حتماً على مجتمع ابتلى بدين محرف أن يخرج عنه ليكون مجتمعاً لا دينياً بل الافتراض الصحيح هو أن يبحث عن الدين الصحيح.

فإذا وجدنا مجتمعاً آخر يختلف في ظروفه عن ذلك المجتمع ومع ذلك يصر على أن ينتهج اللادينية ويتصور أنها حتم وضرورة فماذا نحكم عليه؟... وكيف يكون الحكم أيضاً إذا كان هذا المجتمع الآخر يملك الدين الصحيح؟. إن أول ما لاحظناه في دين اوروبا هو التحريف في العقيدة والشريعة: عقيدة التثليث المستغلقة المضطربة والأناجيل المحرفة المتضاربة ثم النظرة القاصرة التي فصلت الدين عن الدولة والحياة وحصرته في الأديرة والكنائس.

فهل ذلك أو شيء منه في الإسلام؟

* * *

لنبدأ بالتثليث أي ما يتصل بعقيدة الالوهية:

وبدون أدنى مبالغة نقول أنه ليس من دين ولا نحلة على وجه الأرض أيسر فهماً وأعظم اتساقاً مع الفطرة وموافقة للعقل من العقيدة الإسلامية بل هي الفطرة ذاتها التي يعد ماعداها انحرافاً وضلالاً والتي لا تتغير بحال:

«فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عيها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (الروم: ٣٠).

هذه العقيدة الفطرية تشرحها سورة واحدة صغيرة قلّ أن يوجد مسلم لا يستظهرها **«قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد»**. وهي السورة التي نزلت جواب الهيأ للمشركين

عندما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصف لهم ربه[1].
هكذا وحدانية سهلة سلسة تتشربها النفس البشرية بطريقة تلقائية دون تعقيد أو تكلف، فلا أقانيم ولا أبوة وبنوة ولا تشبيه ومكافأة.

وهذه الحقيقة هي التي تجذب اهتمام وتركيز دراسي الإسلام من أول لحظة وتدفع من كتبت له الهداية منهم إلى نفض ما علق بفطرته من ركام والدخول في دين الله بكل طمأنينة ذلك أن «أول ما يستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الإسلامية هو الاستقامة والبساطة والوضوح،... وهذه السمة التي تجتذب الأفراد الذين يدخلون في هذا الدين من الاوروبيين والأميركيين المعاصرين فيتحدثون عنها بوصفها أول ما طرق حسهم من هذا الدين وهي ذاتها السمة التي تجتذب البدائيين في افريقيا وآسيا في القديم والحديث لأنها سمة الفطرة التي يشترك فيها الناس أجمعين متحضرين وبدائيين»[2].

ويأتي مصداق ذلك على لسان أحد الداخلين في الإسلام من النصارى:

«بدأت أدرس الأديان بصفة عامة والإسلام على وجه الخصوص فأيقنت في غضون دراستي أن دنيا تفكيري واحساسي أقرب للإسلام منها للمسيحية وبالتدريج اكتشفت أن الإسلام كمنهج حياة كان ينسجم من كافة الوجوه مع فطرتي البشرية وأستطيع هنا أن أضرب مثالاً نظرياً وآخر عملياً:

«عندما درست وجهة النظر الإسلامية حول النبي عيسى عليه السلام عرفت أنني لم يحدث قط أن آمنت بأن عيسى عليه السلام ابن الله، كما عرفت فيما بعد من أستاذ بروتستانتي أن عدداً كبيراً من

---

(١) انظر لباب النقول المطبوع مع الجلالين: ٣٨٤.
(٢) خصائص التطور الإسلامي: ٢٢٨.

المسيحيين ــ حوالي ٨٠٪ منهم ــ أقرب إلى الإسلام منه إلى المسيحية في هذه الناحية على الأقل من عقيدتهم. أما من الناحية العملية فحتى قبل اسلامي كنت أنفر من الخمور والرقص وما شابه ذلك من الأمور التي عرفت فيما بعد أنها محرمة في الإسلام، وهكذا كان الإسلام بالنسبة لي كعملية اكتشافي لفطرتي «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[٣].

والعجيب في قضية التثليث أن تنسب اوروبا الفضل في انكارها إلى فلاسفة عصر التنوير (ق١٨) من أمثال فولتير وتوم بين، ويعرب بعض الباحثين عن دهشتهم لأن عقلية جبارة كتلك التي يتمتع بها ديكارت لم تستنكر هذه العقيدة ولو بكلمة واحدة.

هذا في حين أن الإسلام ــ دين الله الحق ــ سبق إلى نقض هذه العقيدة وإبطالها ليس من خلال تنفيره العام من الشرك وانكاره المطلق فحسب بل أفرد الحديث عنها استقلالاً وفصله من وجوه منوها بأنها عقيدة وثنية قديمة وهي الحقيقة التي لم تعرفها اوروبا إلا بعد ظهور علم مقارنة الأديان الذي يعد من أحدث علومها النظرية. قال تعالى: «وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل»[٤].

أما بالنسبة للأناجيل فإن سلامة القرآن الكريم من من التحريف وحفظه بنصه الكامل حفظاً أبدياً لأمر حسي مقطوع به لا يماري فيه إلا مكابر ينكر عقله وحسه قبل أن ينكره ففي امكان

(٣) رجال ونساء اسلموا، عرفات كامل العشي: ١/٢٤ ــ ٢٥.
(٤) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٢٠٠.

الشاك في حقيقة ذلك أن يأخذ نسخة مطبوعة من القرآن الكريم من ماليزيا مثلاً وأخرى من مصر وثالثة من أميركا ثم يقارن بينها وبعد أن يتضح له أنها متطابقة تماماً ــ وهو ما لا بد منه ــ فليقارن احداها بأية نسخة مخطوطة منه سواء في إحدى مكتبات الهند أو في أحد متاحف اوروبا ليجد الحقيقة عينها تتكرر لديه[٥].

وقديماً يذكر الإمام البيهقي رحمه الله قصة واقعية مروية عن القاضي يحيى بن أكثم قال: «دخل يهودي على المأمون فتكلم فأحسن الكلام فدعاه المأمون إلى الإسلام فأبى فلما كان بعد سنة جاءنا مسلمًا فتكلم فأحسن الكلام فقال له المأمون: ما كان سبب اسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن الأديان فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها الكنيسة فاشتريت مني وعمدت إلى الانجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها البيعة فاشتريت مني. وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ فيها نقص وزيادة وأدخلتها الوراقين فتصفحوها فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها فعلمت أن هذا كتاب محفوظ فكان هذا سبب اسلامي.

«قال يحيى ابن أكثم فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الحديث فقال مصداق هذا في كتاب الله تعالى. قلت في أي موضع؟ قال: قال الله تعالى في التوراة والانجيل: (بما استحفظوا من كتاب الله) فجعل حفظه اليهم فضاع. وقال «انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» فحفظه فلم يضع»[٦].

---

(٥) لا يحتج أحد بالطبعات التي تصدرها احياناً هيئات معادية للإسلام فهي تفتضح بمجرد صدورها.

(٦) الخصائص الكبرى: ١٢٨/٣.

وهذه الحقيقة الكبرى تقف كالصخرة الصماء أمام جهود المستشرقين وفلول الحاقدين على الإسلام قديماً وحديثاً لم يستطيعوا منها نيلاً ولا تحويلاً.

أما تحريف الشريعة بفصلها عن شؤون الحياة وقصرها على طائفة مخصوصة بل على فترات محدودة من حياة تلك الطائفة ـ فقد حفظ الله تعالى دينه الحق من ذلك أيضاً، ولم تمر على الإسلام تلك الظروف التاريخية السيئة التي حالت دون تطبيق شريعة عيسى عليه السلام:

فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يلحق بالرفيق الأعلى حتى كانت للإسلام دولة يقوم كل جليل من أمرها ودقيق على هديه الالهي دولة فريدة في عالم الأرض كله واستمرت دولة الإسلام تنمو وتتسع وانضوى تحت حكم الله شعوب وأمم العالم المتحضر من بلاد الصين إلى المحيط الأطلسي ولم يبق خارجاً عن دائرته إلا اوروبا التي كانت مطمورة في ظلمات بعضها فوق بعض والقبائل الوحشية في أواسط أفريقية وشمال وجنوب شرق آسيا.

وهكذا لم تتعرض الشريعة الإسلامية لاضطهاد يذهب معالمها ويطمس حقائقها ويجعل تطبيقها في واقع الحياة أمراً مستحيلاً كما حدث للنصرانية.

هذا بالنسبة للعوامل الخارجية أما العوامل الذاتية فإن الشريعة الإسلامية سلمت من عبث العابثين وتحريف المبطلين. فعلى الرغم من كثرة الفرق الهدامة والطوائف الموتورة فإنها جميعاً عجزت عن تحقيق أهدافها وغمرها التاريخ في طياته والشريعة غضة طرية كأنما انزلت اليوم.

أما القرآن فأمر حفظه ـ كما سبق ـ أشهر من أن يدور حوله نقاش.

وأما السنة فسلامتها وحفظها معجزة من معجزات هذا الدين الخالدة فقد قيض الله لها رجالاً يستظهرون مئات الألوف من الأسانيد والأحاديث غيباً، لو أن أحدهم شك في كلمة بل في حرف لذكر ذلك في روايته أداء للأمانة وتبرئة للذمة. واستنبط المسلمون علمًا لا نظير له بين الأمم السابقة واللاحقة وهو علم «مصطلح الحديث» الذي وضعت له أصول وقواعد يذهل لها الباحثون المعاصرون وما يزال في الأمة علماء معاصرون محتفظون بسلسلة السند حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أن الكتب المدونة تملأ الآفاق.

ونتيجة للضبط المتقن والدقة البالغة كانت الأمة واثقة كل الثقة في قدرة علمائها على كشف كل مدسوس على السنة، فقد جيء إلى الرشيد «بزنديق فأمر بقتله فقال: يا أمير المؤمنين أين أنت عن أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام. ما قال النبي منها حرفاً واحداً؟.

فقال الرشيد: أين أنت يا زنديق عن عبدالله بن المبارك وأبي إسحاق الفزاري ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفا[7].

وظلت هذه الأمة الاسلامية قروناً تعيش حياة متسقة موحدة المنهج والسلوك لا أثر فيها لشيء من الانفصال الشعوري أو العملي بن الشريعة والسياسة أو بين الدين والدنيا على النحو الذي رأيناه في النصرانية.

نعم وقع في حياة الأمة الاسلامية انحراف بل انحرافات لكنها

---

(٧) تحذير الخواص: السيوطي: ١٦٣.

انحرافات شخصية عملية أملتها الأهواء والأطماع وأسهمت في إرسائها عوامل ليس هذا مجالها. أما الشريعة ذاتها فقد ظلت سليمة محفوظة وبقيت منهجاً سامياً ثابتاً ترتقي إليه الأمة في فترات اليقظة والاصلاح، ولم يذهب أبداً من حس الأمة بمجموعها أن تقيس الواقع بالشريعة وأن تنظر إلى الانحراف وإنْ طال على أنه انحراف. حتى في أحلك العصور وأحرجها كان ضمير الأمة يقظاً وكان فيها علماء أفذاذ يصححون المفهومات ويردون المنحرفين إلى الأصل الثابت الوضاء.

يقول الإمام ابن القيم الذي عاش في الفترة المظلمة التي تلت سقوط بغداد واكتساح التتار للرقعة الاسلامية (تـ ٧٥١ هـ):

«وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل. وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح وفاسد فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها والباطل ضدها ومنافيها. وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها وهو مبني على حرف واحد وهو عموم رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده وإنما حاجتهم إلى من يبلغ عنه ما جاء به فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم وعموم بالنسبة إلى كل من يحتاج إليه من بعث إليه في أصول الدين وفروعه فرسالته كافية شافية عامة لا تحوج إلى سواها ولا يتم الايمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به. وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي وآداب

الجماع والنوم والقيام والقعود والأكل والشرب والركوب والنزول والسفر والإقامة والصمت والكلام والعزلة والخلطة والغنى والفقر والصحة والمرض وجميع أحكام الحياة والموت.

«ووصف لهم العرش والكرسي والملائكة والجن والنار والجنة ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأى عين.

«وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله وعرفهم صلى الله عليه وسلم من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما لم يعرف به نبي غيره. وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده، اللهم إلا من يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه.

«وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبداً.

«وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها وما يتحرزون به من كيده ومكره وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه، وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه.

«وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أمور معايشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة.

«وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ولم يحوجهم إلى أحد سواه، فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به من ظن ذلك، وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق الله أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به واستغنوا به عما سواه وفتحوا به القلوب والبلاد وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم»[٨].

* * *

أما السلطة الكهنوتية فلا وجود لها في الاسلام لا بالشكل الذي رأيناه سلفاً في أوروبا النصرانية ولا بغيره.

ذلك أن الاسلام ــ وهو دين التوحيد الخالص ــ إنما أنزله الله لتحرير العباد وإخراجهم من عبودية العباد إلى عبادة الله وحده وطاعته دون سواه في التلقي وفي الاتباع، في المنهج والسلوك وعلى ذلك جاء الأمر صريحاً قاطعاً فيما يتعلق بصرف أي نوع من أنواع العبادة الكثيرة لغير الله، كائناً من كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً أو طاغوتاً متألها فالأمر كله سواء، كله كفر: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ ـ ٣: ٧٩ ــ ٨٠.

وهذا هو الفارق الجوهري الأول في المسألة بين الاسلام والنصرانية المحرفة فوجود هيئة كهنوتية تشرع لخلق الله أمراً أو نهياً في

---

(٨) اعلام الموقعين: ٤/٣٧٥ ــ ٣٧٦.

العقيدة أو الفروع هو شرك أكبر بالله تعالى سواء أجاء ذلك في صورة مراسيم بابوية أم قرارات مجمعية أم منشورات كنسية.

وقصة عدي بن حاتم ـ التي ستأتي قريباً ـ توضح ذلك كل الوضوح، ولذلك جاءت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب مناسبة لمقتضى الحال التي كانوا عليها من عبادة الأفراد وتقديس المخلوقين فحينما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طواغيت الأرض يبلغهم دعوته كان نص كتاب هرقل زعيم النصارى الروم هكذا:

«من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين و﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[9] رواه البخاري.

وهذا تعريض جلي بأن النصارى يعبد بعضهم بعضاً وأن الله تعالى يدعوهم إلى الاسلام الذي ينفي ذلك أشد النفي.

وعندما اختلف بعض الصحابة رضي الله عنهم مع ابن عباس رضي الله عنهما في مسألة متعة الحج احتجوا عليه بفعل أبي بكر وعمر فقال:

«يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء! أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون: قال أبو بكر وعمر» هذا مع أن

---

(٩) فتح الباري: ١/٣٢. والأريسيون: قيل هم الفلاحون وقيل الأتباع عموماً، أنظر المصدر نفسه: ٣٩ [ولا مانع أن يكونوا الموحدين المنتسبين إلى آريوس].

أبا بكر وعمر رضي الله عنهما أفضل الأمة وأبعدها عن الأمر بما يخالف الكتاب والسنة.

فأين هذا من قرارات الفاتيكان التي ما تزال تصدر بعد المسيح بألفي سنة تحل وتحرم كما تشاء؟ ومسألة إباحة الطلاق وعدمها أشهر من أن تذكر.

ولا مجال للمقارنة بين الشرك الذي ترتكبه المجامع النصرانية ومجالس الكرادلة وغيرها وبين الاجتهاد الذي يباح لمن كان أهلاً له من علماء المسلمين.

فالاجتهاد هو استنباط ونظر في النصوص الشرعية الموحاة قرآناً أو سنة وليس تشريعاً مستقلاً كما هو الحال في القرارات الكنسية.

ثم إن الاجتهاد لا يعدو كونه رأياً فردياً لا عصمة فيه من الخطأ ولا يلزم أحد اتباعه بل يحق لأي إنسان أن يخالفه ما دامت المخالفة تتمشى أيضاً مع روح الشريعة ومدلولات النصوص.

والقاعدة المشهورة «كل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم» هي عبارة قالها كثير من العلماء واتفق عليها الأئمة الأربعة وغيرهم ولا يخالف فيها إلا من خلع ربقة الاسلام بالكلية كغلاة الروافض(*).

والفارق الجوهري الثاني في المسألة هو أنه لا واسطة بين الله وخلقه في الاسلام على الاطلاق اللهم إلا أن الرسل صلوات الله

(*) في كتاب الحكومة الاسلامية «... إن الأئمة لا نتصور فيهم السهو أو الغفلة» ص ٩١ وفي ص ٧٨ «... إن الامام مرجع للناس في جميع الأمور والله قد عيّنه وأناط به كل تصرف وتدبير... فتكون أفعاله وأقواله حجة على المسلمين يجب إنفاذها ولا يسمح بالتخلف عنها...».

عليهم يبلغون عن الله تعالى، والعلماء يبلغون عنهم وقد يسمون وسطاء بالنظر إلى ذلك أما التوسط بمعناه الذي تولته الكنيسة النصرانية فهو في دين الله شرك أكبر ولا وجود له تاريخياً.

نعم وجد ما يشبه ذلك عند بعض المتصوفة مع مريديهم وبين الجهلة من العوام بالنسبة للأموات والصالحين ولكنه ـ مع اختلافه عن التوسط الكنيسي ـ ليس من الاسلام ولم يقره علماء الأمة المعتبرون.

قال شيخ الاسلام في رسالة له فريدة:

«وما سوى الأنبياء من مشايخ العلماء والدين فمن أثبتهم وسائط الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته يبلغونهم ويعلمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم فقد أصاب في ذلك، وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى الله والرسول إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الاطلاق بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم:

«العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»... ومن أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه كالحُجّاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم... فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل وهؤلاء مشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أنداداً»[١٠].

---

(١٠) الواسطة بين الحق والخلق: ١٦: ١٧.

وقد أدرك «اتيين دينيه» هذه الحقيقة وكانت إحدى دوافع اعتناقه للإسلام يقول:

«الوسيلة هي احدى كبريات المسائل التي فاق بها الاسلام جميع الأديان إذ ليس بين الله وعبده وسيط وليس في الاسلام قساوسة ولا رهبان، إن هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الأديان وأنهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان إخلاصهم وحسن نياتهم»[11].

إن الاسلام ليس فيه شيء اسمه رجال دين أصلاً بل أن هذه الكلمة المحدثة لا يستعملها إلا مغرض مضلل أو ساذج مخدوع. فالتصور الاسلامي أساساً يرفض فكرة وجود أشخاص أو مجالات دنيوية لا علاقة لها بالدين أو دينية لا علاقة لها بالحياة بل هو يجعل النفس البشرية ومثلها الحياة البشرية وحدة متناسقة ويخاطبها على هذا الأساس ويربطها بالله تعالى مباشرة في تـوحيـد خالص مجرد (راجع الفصل السابق). والله تعالى يقول: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾ ـ ٢: ١٨٦ ـ ويقول ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ ٣ ـ ١٣٥. فأين هذا من تعاليم النصرانية المحرفة حيث يجلس المذنب على كرسي الاعتراف أمام عبد مخلوق مثله يقر بذنوبه ويلتمس منه المغفرة والرضوان؟

لقد صان الله الاسلام من تلك الملابسات التي أدت إلى وجود الطائفة الكهنوتية النصرانية محرفة لدين الله محتكرة لكتبه فلم يوجد مثل هذه الطائفة في واقع الحياة الاسلامية كما أنه لم يوجد لها مبرر في العقيدة والتصور.

---

(١١) أشعة خاصة بنور الإسلام: ٢٣.

ونتيجة ذلك الطبيعية هي أن الطغيان الفظيع الذي مارسته الكنيسة وكان أحد أسباب العلمانية لا وجود له في تاريخ الاسلام.

فالطغيان الديني ذلك الذي يحتكر تعاليم الوحي ويحرف ألفاظها ومعانيها ويسير الجيوش الصليبية لسحق المخالفين من الفرق في الرأي ويقيم محاكم التفتيش لتصيدهم لم يوجد له ــ ولله الحمد ــ نظير في تاريخنا الاسلامي.

والطغيان السياسي ذلك الذي يستذل الحكام لأشخاص رجال الدين ويعرض الشعوب لطائلة عقوبة الحرمان العام بسبب نزوة غضب تعتري أحد البابوات ويسخر الناس ويكبل ما منح الله للإنسان من حق الحياة الحرة ــ لم يكن في الاسلام مثله أبداً.

والطغيان الاقتصادي ذلك الذي يتحكم في موارد وأرزاق البشر ويستذلهم بالعمل المجاني في إقطاعيات الكرادلة والقساوسة ويفرض الضرائب الباهظة على الأمم والأفراد لحساب خزانة الفاتيكان لا وجود لمثله في الاسلام مطلقاً. بل إن الله تعالى أنزل قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ ــ ٩: ٣٤ ــ قبل أن يدور في خلد أوروبا الثورة على إقطاع رجال الدين والمطالبة بتحديد مخصصاتهم.

والطغيان الفكري والعلمي ذلك الذي وقف حجر عثرة في سبيل رقي البرية وأقام محاكم التفتيش لإحراق العلماء أحياء، وطارد الباحثين التجريبيين كما تطارد الشرطة عصابات الحشاشين وصفد العقل البشري باغلال التعصب والجمود، وكفر الناس لأنهم اكتشفوا ما يعينهم على فهم بعض حقائق الوجود أو ظروف العيش.. هذا الطغيان الرهيب لا وجود له في الاسلام ولا يمكن أن يوجد بحال في دين يجعل العلم فريضة شرعية والفكر عبادة سامية ويسوي بين مداد

العلماء ودماء الشهداء بل يعد الكلب المعلَّم وسيلة طاهرة في حين أن الكلب الجاهل حيوان نجس!

وكيف تكون نفرة بين العلم والدين وحلقات ودروس الطب والفلك والرياضة بل الشعر والأدب كلها تعقد في الجوامع جنباً إلى جنب مع حلقات الحديث والفقه والتفسير؟. والطبيب والفلكي والرياضي يجلس جنباً إلى جنب مع الفقيه وكبير القضاة في مجلس الخليفة؟ والمراصد وبيوت الحكمة تغدق عليها الأموال من بيت مال المسلمين؟

إنه لا مجال للمقارنة ولا داعي للايضاح...

* * *

يبقى بعد هذا من عقائد النصرانية وشعائرها التي نفرت الناس منها وتسببت في ثورتهم عليها مسألة الخطيئة الموروثة وموضوع الطقوس التعبدية:

أما الخطيئة الموروثة ــ التي أزعجت فولتير وباسكال بل أقلقت الضمير الأوروبي كله وأرقته منذ أن اعتنقها إلى الآن وبذرت اليأس والقنوط في النفوس فلجأ الكثيرون إلى الأديرة والصوامع كما سبق الكلام عن الرهبانية ــ أما هذه فإن الموقف الاسلامي منها قطعي وصريح.

فمن جهة معصية آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة نجد أن الواقعة ذُكرت في القرآن مذيلة بذكر التوبة والاستغفار وبيان أن الله تعالى قبل التوبة وغفر الخطيئة ففي سورة البقرة ينتهي سياق القصة إلى قوله جل شأنه ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ ٣٧.

وفي سورة الأعراف تكون عاقبة الخطيئة ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (٢٣).

وفي سورة طه يقول تعالى: ﴿وعصي آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ ـ ١٢١ ـ ١٢٢.

فالله تعالى تاب على آدم وهو ما يزال بعد في الملأ الأعلى ولم يهبط إلى الأرض إلا بعد ذلك، والآيات الكريمة لا تعطي الخطيئة ذلك الحجم المهول الذي تعطيها إياه تعاليم الكنيسة المحرفة فهي أمر عرضي في حياة آدم عليه السلام بل في حياة كل بشر، تمحوه التوبة ويذهبه الاستغفار.

صحيح أن حكمة الله تعالى اقتضت أن تجعل المعصية سبباً في الاخراج من الجنة ولكن الله تعالى قبل أن يخلق آدم قال للملائكة ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فموضع الاستخلاف أساساً هو الأرض وعليها يكون الابتلاء وليس ذلك لعنة في ذاته بل هو غاية الحكمة.

ولذلك حج آدم موسى عليهما السلام حين عاتبه على أنه تسبب في إخراج بنيه من الجنة، فرد عليه آدم كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم «أفليس تجد فيما أنزل الله عليك أنه سيخرجني منها قبل أن يدخلنيها». قال بلى «قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى (ثلاثا)[١٢] [أي غلبه بالحجة].

هذا ومن جهة أخرى فإن التصور الاسلامي يقرر ويؤكد حقيقة عظمى وقاعدة جليلة تضمنها قوله تعالى: ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى.

---

(١٢) اصل الحديث في البخارى وهذه رواية الشعبي. انظر فتح الباري: ١١/٥٠٥.

وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ ـ٥٣ : ٣٨، ٣٩ـ فلا يؤخذ الله تعالى أحد بذنب غيره مهما كانت الصلة بينهما أي أنه حتى لو فرضنا ـ جدلاً ـ إن آدم عليه السلام لم يتب فإنه وحده المؤاخذ بمعصيته إن لم يغفرها الله له ولا ذنب للبشرية لا المسيح ولا غيره.

أنه ـ حسب قاعدة العدل الرباني ـ لا يجوز أن يؤاخذ أحد غير آدم بخطيئته حتى ولو كان ابن الشيطان الذي أغواه بالخطيئة ـ فضلاً عن أن يكون ابن الله ـ كما تقول الكنيسة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً أو أحداً من بني آدم.

وبذلك خلا التصور الاسلامي من الأفكار والنظريات التي ابتدعتها الكنيسة باعتبارها من مستلزمات الخطيئة سواء ما يتعلق منها بذات الله عز وجل وبالانسان.

وكان علماء المسلمين أسبق من فلاسفة عصر التنوير واتباع مدرسة النقد التاريخي في هذا المضمار يقول أحدهم:

«. . . فنسبوا الإله الحق سبحانه إلى ما يأنف أسقط الناس وأقلهم أن يفعله بمملوكه وعبده! وإلى ما يأنف عباد الأصنام أن ينسب إليه وكذبوا على الله عز وجل في كونه تاب على آدم عليه السلام وغفر له خطيئته، ونسبوه إلى أقبح الظلم حيث زعموا أنه سجن أنبياءه ورسله وأولياءه في الجحيم بسبب خطيئة أبيهم، ونسبوه إلى غاية السفه حيث خلصهم من العذاب بتمكينه أعداءه من نفسه حتى قتلوه وصلبوه وأراقوا دمه، ونسبوه إلى غاية العجز حيث عجزوه أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة ونسبوه إلى غاية النقص حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ففعلوا به ما فعلوا. . .

«وبالجملة فلا نعلم أمة سبت ربها ومعبودها وإلهها بما سبت به هذه الأمة كما قال عمر رضي الله عنه «إنهم سبوا الله مسبة ما سبه

إياها أحد من البشر» وكان بعض أئمة الاسلام إذا رأى صليبيا أغمض عينيه وقال: لا أستطيع أن أملأ عيني ممن سب إلهه ومعبوده بأقبح السب.

«ولهذا قال عقلاء الملوك (ملك الهند): ان اجتهاد هؤلاء واجب شرعاً وعقلاً فإنهم عار على بني آدم مفسدون للعقول والشرائع»[13].

هذا الكلام نموذج من بين انتقادات عقلية لا حصر لها دوّنها علماء المسلمين قبل أن يخلق سبينوزا وباسكال وفولتير بقرون وقبل أن تفكر اوروبا في شيء اسمه «النقد التاريخي» أو حرية التفكير.

* * *

وينتهي بنا المطاف إلى شعائر النصرانية وطقوسها لا سيما الطقس الأكبر (العشاء الرباني) الذي كان وما يزال من أعظم حجج المناهضين للنصرانية لما يصدم به العقل والبديهة والحس.

ولا نحتاج إلى توكيد أن الاسلام ليس فيه شيء من هذا ولا ما يشبهه. فإن الاسلام وهو دين الله الحق أجل وأسمى من أن يشتمل على مثل هذه الطقوس الوثنية المنقولة عن الأمم الغابرة. إن الله تعالى منّ على البشرية بالاسلام منة عظيمة إذ حررها من مثل هذه السخافات وأنزل شعائر هي في غاية الحكمة والسمو والاتساق مع العقل والفطرة شعائر لا غموض فيها ولا تمتمات ولا أسرار مقدسة، ليس أدل على ذلك من أن كثيرا من الغربيين يؤخذ بروعة مشهد

---

(١٣) الإمام ابن القيم: اغاثة اللهفان: ٢/٢٨٤.

المسلمين وهم يصلون إلى درجة أن ذلك كان سبباً في دخول بعضهم أو تفكيره في أن يدخل في الاسلام. يقول توماس ارنولد:

«إنه لا يتأتى لأحد يكون قد رأى ذلك المشهد أن يبلغ تأثره به أعماق قلبه وأن لا يلحظ ببصره القوة التي تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها»[١٤].

«وقال رينان: لم أدخل مسجداً إلا شعرت بانفعالات نفسية وأسف بالغ حينما أذكر أنني لست مسلمًا»[١٥].

ويقارن المستشرق الأمريكي «بودلي» بين النصرانية والاسلام في ذلك قائلاً: «لو أن القديس بطرس عاد إلى روما لامتلأ عجباً من الطقوس الضخمة وملابس الكهنوت المزركشة والموسيقى الغربية في المعبد المقرونة باسمه، ولن يعيد البخور والصور والرقى إلى ذهنه أي شيء من تعاليم سيده المسيح. ولكن إذا ما عاد محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى أي مسجد من المساجد المنتشرة بين لندن وزنزبار فإنه سيجد نفس الشعائر البسيطة التي كانت تقام في مسجده في المدينة الذي كان من الآجر وجذوع الشجر»[١٦].

أما المهزلة التاريخية العظمى (صكوك الغفران) التي تعد بحق صفحة سوداء في تاريخ الانسانية فلا يستطيع أحد من أعداء الاسلام أو دعاة العلمانية مهما بلغت به المكابرة أن يزعم أنها وجدت في التاريخ الاسلامي فضلاً عن أصوله التشريعية ذاتها. فهذه المهزلة الأضحوكة لم يعرفها المسلمون حتى في أحط وأحلك عصورهم حين

---

(١٤) إلى الدين الفطري الأبدي: الطرازي: ٢٦٣.

(١٥) المصدر السابق: ٢٦٤.

(١٦) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين: ٢٣ ــ ٢٤.

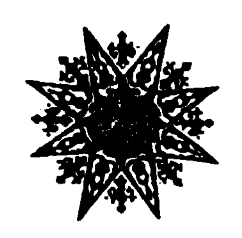
فشا الجهل وعلقت بعض الخرافات بأذهان الجهلة والعوام ولم يحدث قط أن كتب أحد مشايخ الصوفية أو من يسمون أولياء وثيقة غفران بل نستطيع أن نقول أن ذلك لم يدر في خلده ولم يخطر له على بال.

ذلك أن الأمة الاسلامية مهما انحرفت وتخبطت تظل لديها مسكة من عقل وبقية من ايمان تمنعها عن ارتكاب مثل هذه الحماقات الصفيقة التي لم يتورع عنها بابوات الكنيسة قرابة ثلاثة قرون.

* * *

هذه الفروق الجوهرية الكبرى بين الاسلام والديانة الكنسية وبين تاريخه وتاريخها تقدم إجابة ضخمة ساطعة على السؤال الذي طرح سلفا وهو: هل للعلمانية في العالم الاسلامي مبرر...؟

وما علينا بعد ذلك ان غالط المغالطون وتمحّل المخادعون ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ (٢٥ : ٤٣).



الفصل الثاني

حكم العلمانية في الإسلام

إن العلمانية ــ كما عرضناها في الأبواب السابقة تفصيلاً ــ لا تستدعي في حقيقة الأمر ــ كبير جهد لبيان تناقضها مع دين الله تعالى «الإسلام» فهي من ذلك النوع من الإتجاهات والأفكار التي قال عنها علماؤنا قديماً «إن تصوره وحده كاف في الرد عليه»!.

ولكن نظراً لما أصاب كثيراً من التصورات الإسلامية من إنحراف وغبش في أذهان الناس ولما يثيره أعداء الإسلام ــ الظاهرون والمتسترون ــ من شبهات وأباطيل فإن من الضروري تجلية تلك التصورات وكشف هذه الشبهات.

وإذا كان التوحيد هو أعظم حقيقة في التصور الإسلامي ــ بل في الوجود كله ــ فإنه كذلك أكبر نقيض للعلمانية ومن ثم كان لا بد من معرفته حق المعرفة.

إن التوحيد هو القضية التي احتدمت فيها المعركة بين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وبين أقوامهم، وانقسمت البشرية بسببها قسمين متناحرين: مسلمين موحدين ومشركين ضالين. ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه أنه لا إله إلاَّ أنا فاعبدون﴾ (٢١ ــ ٢٥).

وقبل أن نحاول إيضاح المفهوم الحقيقي لعقيدة التوحيد يحسن بنا النظر إلى حال الأقوام الذين بعثت فيهم الرسل واشتبكت معهم في صراع دائب على مدار التاريخ، ذلك أن معرفة حالهم هي خير معين لمعرفة العقيدة التي أنزلها الله لتصحيح هذه الحال.

وما دامت مهمة المرسلين واحدة وقضيتهم مع أممهم واحدة فلننظر إلى الأمة التي بعث بها النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم بآخر وأكمل الرسالات. كيف كانت تصوراتها؟ وكيف كان منهج حياتها؟ وبصفة أخص فيم ولماذا اشتد النزاع بينها وبين دعوته صلى الله عليه وسلم؟.

إن الدارس لعقائد الجاهلية العربية يجد ـ من أول وهلة ـ أنها لم تكن تنكر وجود الله أبداً بل كانت توحده في معظم أفعاله تعالى كالخلق والرزق والتدبير والاحياء والاماتة... والشواهد على ذلك كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾. وفي كلام العرب وشعرهم كقول امرىء القيس:

إذا ما اتقى الله الفتى ثم لم يكن
على أهله كلا فقد كمل الفتى[1]

وكانوا يقرون بمشيئة الله النافذة في الكون وقدره الذي لا يرد: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ ٦/١٤٨، ﴿ومن يدبر الأمر فسيقولون الله﴾ ١٠ ـ ١٣.

ومنه قول عنترة:

يا عبل اين من المنية مهربي ... إن كان ربي في السماء قضاها[2]

---

(١) ديوان امرىء القيس بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: ٣٦٦.

(٢) ديوان عنترة: ١٨٣.

وكانوا يؤمنون بالملائكة ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا **لولا** أنزل علينا الملائكة﴾ ٢٥/٧٧. ويؤمنون كذلك بالرسل ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتي رسل الله﴾ ٦/١٢٤. **ومنه قول** النابغة:

فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون[٣]

وكانوا يؤمنون بالكتب ويسمون اليهود والنصارى أهل الكتاب ﴿وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ ـ ٢٥/٣٢ ـ أي كالتوراة والإنجيل.

وكان منهم من يؤمن بالبعث والحساب كقول زهير:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم[٤]

وكذلك كان لدى الجاهليين العرب بعض الشعائر التعبدية: منها تعظيم البيت الحرام وطوافهم حوله ووقوفهم بعرفات وتعظيم الأشهر الحرم، قال النابغة في وصف الحُجاج:

مشمرين على خوص مزممة ... نرجو الإله ونرجو البر والطعما[٥]

ومن ذلك ذبحهم ونذرهم لله كما في قصة نذر عبد المطلب واهدائهم للبيت الحرام وتخصيص شيء من الحرث والأنعام لله ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ ـ ٦/١٣٦.

ومن الناحية التشريعية كانت الجاهلية العربية تقيم بعض الحدود كحد السرقة فقد ذكر ابن الكلبي والقرطبي في تفسيره أن

---

(٣) ديوان النابغة: ١٢٦.

(٤) شرح ديوان زهير: ٨١.

(٥) ديوان النابغة: ١٠٢.

قريشاً كانت تقطع يد السارق[٦] وهو حد معروف في الشرائع السابقة ــ كما في حديث المخزومية وشفاعة زيد لها ــ وشيء آخر سبقت ــ بل فاقت ــ به الجاهلية العربية الجاهليات اللادينية المعاصرة وهو «حرية التدين» فكان منهم الحنفاء الذين يتعبدون ببقايا دين إبراهيم عليه السلام وكان منهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكان منهم عبدة الكواكب وعباد الأوثان وبعضهم كان يعبد الجن أو الملائكة.

هذا كله غير المزايا الخلقية التي كانت البيئة التي بعث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم تحوي منهم ما لا تحويه البيئات الأخرى!

ولكن ــ وهذا هو المهم ــ بماذا حكم الله على هذا المجتمع، وكم حسبت هذه الأمور كلها في ميزان الإسلام؟

إن الله تعالى حكم على هذه البيئة ــ وعلى الواقع الأرضي كله حينئذ ــ بأنها كفر وجاهلية وعدّ تلك الأمور جميعها صفراً في ميزان الإسلام وحتى ما أقر من معتقداتها جاء على أساس جديد وفي صورة جديدة كإنما هو ــ فعلاً ــ شيء جديد.

ولذلك نشبت المعركة الطويلة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد النزاع، معركة شرسة ونزاع حاد، حتى أن السيف كان الحكم الأخير.

والشيء المثير ــ أيضاً ــ أن موضوع هذه المعركة العنيفة الطويلة لم يكن سوى كلمة واحدة هي كلمة «لا إله إلاّ الله» كلمة يصر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أقصى حدود الإصرار وترفضها الجاهلية العربية إلى أبعد مدى للإنكار، يرفضونها عن علم ويقين بأن

---

(٦) أضواء البيان الشنقيطي: ٣: ٣٩٢.

لها معنى عظيًا ومدلولاً خطراً وأنها تستتبع مسؤوليات جسيمة وتكاليف ثقيلة.

منذ اللحظة الأولى حين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى لا إله إلاّ الله كان الجواب الفوري «اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب» فالقضية واضحة في أذهانهم: إن الإلتزام بهذه الكلمة معناه الرفض الجازم والتخلي الكامل عن كل ما عدا الله من معبوداتهم وطواغيتهم المختلفة: طاغوت الأوثان وطاغوت الزعامة وطاغوت القبيلة وطاغوت الكهانة وطاغوت التقاليد... الخ والإستسلام الكامل لله ورد الأمر كله ـ جليله وحقيره وكبيره وصغيره ـ إلى الله تعالى وحده لا شريك له، وهذا موقف واحد من مواقف الصراع حول هذه الكلمة:

«لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عم قل لا إله إلاّ الله. كلمة أشهد لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب...»[٧].

أرأيت؟! رجل في ساعة الإحتضار الأخيرة يراد منه أن يقول هذه الكلمة ـ الخفيفة على اللسان ـ فما الذي يجعل طواغيت قريش تتشبث بهذا الإصرار المستميت على ألاّ يقولها؟ وما الذي يجعل هذا الرجل يلفظ أنفاسه دون أن ينقطها؟ لو كانت المسألة مسألة لفظ باللسان لما حدث شيء من هذا أبداً... ولكنه المعنى الخطير والمغزى

(٧) صحيح مسلم: ٢١٤/١ مع شرح النووي.

العميق الذي أدركه هؤلاء المشركون وغفل عنه أكثر المسلمين في العصور الأخيرة.

وإذا كان معنى لا إله إلَّا الله الكفر بالطاغوت والإِيمان بالله ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا إنفصام لها﴾ ٢ : ٢٥٦ ـ وهو أيضاً نفي العبادة عما سوى الله تعالى كما قال كل نبي لقومه ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وإذ كانت هذه هي دعوة الرسل جميعاً ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ـ ١٦ : ٢٦ ـ فإن حقيقتها لا تتجلى إلَّا بمعرفة حقيقة هذين: «الطاغوت، والعبادة»...

١ ـ **الطاغوت**:

جاءت هذه الكلمة في القرآن والسنة كثيراً، وخير تعريف لها ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله: «الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله»[٨].

من هذا يتبين أن «الطاغوت» لفظ عام يشمل كل ما يضاد «لا إله إلَّا الله» سواء أكان شعاراً أم نظاماً أم قانوناً أم شخصاً أم راية أم حزباً أم فكرة... الخ. ولذلك ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ إن الطواغيت كثيرون ثم حدد رؤوسهم بخمسة:

«**الأول**: الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله والدليل قوله تعالى ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألَّا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.

الثاني: الحاكم الجائر المغير لأحكام الله والدليل قوله تعالى ﴿ألم

(٨) إعلام الموقعين: ٥٢.

تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾.

الثالث: الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

الرابع: الذي يدعي علم الغيب من دون الله. . .

الخامس: الذي يعبد من دون الله وهو راض بالعبادة. . .»[٩].

وعلى هذا نستطيع القول بأن الشرك ـ ذنب البشرية الأكبر ومدار الصراع بين الأمم والرسل ـ هو عبادة الطاغوت مع الله أو من دونه في أمرين متلازمين: «الإرادة والقصد، والطاعة والاتباع».

أما شرك الإرادة والقصد فهو التوجه إلى غير الله تعالى بشيء من شعائر التعبد كالصلاة والقرابين والنذور والدعاء والإستغاثة، تبعاً للسذاجة الجاهلية القائلة ﴿ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (٣٩: ٣)، وطاغوت هذا النوع هو الصنم أو الوثن أو الجني أو الطوطم. . . الخ.

وأما شرك الطاعة والاتباع فهو التمرد على شرع الله تعالى وعدم تحكيمه في شؤون الحياة بعضها أو كلها وهو مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية كما أنه السمة المشتركة بين الجاهليات كلها على مدار التاريخ وبه استحقت أن تسمى جاهلية مهما بلغ شأنها في الحضارة والمعرفة ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾. وطاغوت هذا النوع هو الزعماء والكهان

---

(٩) مجموعة التوحيد: ١٢.

والكبراء والأنظمة والأوضاع والتقاليد والأعراف والقوانين والدساتير والأهواء . . . الخ .

والواقع أن كلا النوعين من الشرك مردهما إلى أصل واحد وهو تحكيم غير الله والتلقي عنه، فإن مقتضى تحكيمه وحده ألّا تتوجه البشرية إلى غيره بأي نوع من أنواع العبادة والقربات وألّا تتوجه وتسير في حياتها كلها إلّا وفق ما شرع لها في كتبه وعلى لسان رسله. قال تعالى ﴿إن الحكم إلّا لله أمر ألّا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (١٢٠ : ٤٠).

فرد الأمر كله إلى الله واتخاذه وحده حكمًا في كل شيء هو بعينه العبادة التي أمر الله ألّا يصرف شيء منها لغيره وهذا هو ذات الدين القيم الذي لا يرضى الله تعالى سواه وإن جهله أكثر الناس على مدار التاريخ .

إذا تقرر هذا فكل ما يجابه هذه الحقيقة أو جزءاً منها فهو طاغوت في أي صورة كان وفي أي عصر ظهر، ولا يكون الإنسان ــ فرداً أو مجتمعاً ــ شاهداً ألّا إله إلّا الله حقيقة إلّا بالكفر به والبراءة منه وأهله .

من أجل ذلك كان العربي يقول هذه الكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينخلع عن الجاهلية إنخلاعاً تاماً وينسلخ من كل أعرافها وأوضاعها وقيمها وموازينها وإيحاءاتها وينضم إلى موكب الإيمان وهو متجرد لله منقاد لأوامره بلا تردد أو إستثناء . . .

٢ ــ العبادة :

العبادة هي العلاقة بين هذا الكون بكل ما فيه من جمادات وأحياء وبين الخالق سبحانه وتعالى وهي الغاية من الوجود الإنساني

بل من وجود المخلوقين المكلفين إنساً وجناً ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

والمختار من تعريفاتها ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو أنها «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»(١).

وقد أثبت رحمه الله في رسالة العبودية أن الدين كله داخل في العبادة مؤيداً ذلك بالأدلة الشرعية واللغوية(٢).

وقد سبقت الإشارة إلى أن ذلك هو منطوق قوله تعالى ﴿إن الحكم إلاَّ لله أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه ذلك الدين القيم﴾ وهو كذلك مفهوم قوله جل شأنه ﴿وما أمروا إلاَّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ (٩٨: ٥).

وزاد هذه الحقيقة إيضاحاً تلميذه ابن القيم ـ رحمه الله ـ الذي أسهب في بيان قواعد العبادة ومراتبها واستغراقها للنشاط البشري كله فقال: «ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية وبيانها: إن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح وعلى كل منها عبودية تخصه والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح»(١٠).

ثم فصل القول في الجوارح فقال: «أما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً إذ الحواس خمسة وعلى كل حاسة خمس عبوديات» وذكر كل نوع مع الشرح والتمثيل.

ويوضح هذا بتوسع ما قاله الشهيد سيد قطب رحمه الله عند

---

(١٠) مدارج السالكين: ١/١٠٩

الحديث عن قوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والانس إلاَّ ليعبدون﴾ ومنه:

«... إن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر فالجن والانس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر والله لا يكلفهم بهذا وهو يكلفهم ألواناً أُخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم. وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان نعرفها من القرآن من قول الله تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة» فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض والتعرف إلى قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها وتحقق إرادة الله في إستخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها، كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي تناسق مع الناموس الكوني العام.

«ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى أوسع وأشمل من مجرد الشعائر وإن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً وإن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين:

الأول: هو إستقرار معنى العبودية لله في النفس أي إستقرار الشعور على أن هناك عبداً وربّاً، عبداً يَعبد ورباً يُعبد. وأن ليس وراء ذلك شيء وإن ليس هناك إلاَّ هذا الوضع وهذا الإعتبار ليس في هذا الوجود إلاَّ عابد ومعبود وإلاَّ رب واحد والكل له عبيد.

والثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير وبكل حركة في الجوارح وكل حركة في الحياة التوجه بها إلى الله خالصة والتجرد من

كل شعور آخر ومن كل معنى غير معنى التعبد لله»[11].

وهذه المعاني دل عليها صريح القرآن كما في قوله تعالى ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك لله﴾ (٦: ١٦٢/١٦٣).

ولذلك فإن نهي الله تعالى عن الاشراك به في عبادته وإخلاصها له وحده كما في قوله تعالى ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألاَ لله الدين الخالص﴾ (٣٩/٢: ٢) وقوله ﴿قل أفغير الله تأمرونيٍّ أعبد إليها الجاهلون﴾ (٣٩: ٦٤)، يتوجه إلى هذه المعاني بجملتها كما سيأتي تفسيره في حديث عدي ابن حاتم رضي الله عنه.

إن فطرة الإنسان وطبيعة تكوينه وافتقاره الذاتي لهي قاطعة الدلالة على أنه «عبد» ولا يمكن أن يكون غير ذلك وما عليه إلاَّ أن يختار معبوده...

وقد أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة العبودية «أن الإنسان على مفترق طريقين لا ثالث لهما، فإما أن يختار العبودية لله، وإما أن يرفض هذه العبودية فيقع لا محالة في عبودية لغير الله»[12].

وكل عبودية لغير الله كبرت أمٍ صغرت هي في نهايتها عبادة للشيطان ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ وهذا هو المؤدى الأخير مهما تنوعت الأساليب وتعددت السبل.

يشمل ذلك العرب الذين قال الله تعالى فيهم ﴿أن يدعون من دونه إلاَّ أناثاً وان يدعون إلاّ شيطاناً مريداً﴾ (٤: ١١٧)، ويشمل كذلك كل عبادة لغير الله على مدار التاريخ.

---

(١١) المجلد السابع، ج ٢٧، ص ٢٨.

(١٢) مقدمة رسالة العبودية: ٦.

«لقد تغيرت ولا شك بعض مظاهر العبادة فلم يعد هناك تلك «الاناث» التي كان العرب في شركهم يعبدونها ولكن عبادة الشيطان ذاتها لم تتغير وحلت محل الاناث القديمة أوثان أُخرى: الدولة والزعيم والمذهب والحزب والعلم والتقدم والإنتاج والحضارة والتطور والمجتمع والوطن والقومية والإنسانية والعقلانية «والمودة» والجنس والحرية الشخصية . . .

«عشرات من الاناث الجديدة غير تلك الاناث الساذجة البسيطة التي كان يعبدها العرب في الجاهلية تضفى عليها القداسات الزائفة وتعبد من دون الله ويطاع أمرها في مخالفة الله وفي تغيير خلق الله . . . ما تغيرت إلّا مظاهر العبادة . . . «تطورت»! ولكن الجوهر لم يتغير . . . إنه عبادة الشيطان»[١٣] .

* * *

على ضوء هذا الفهم الإجمالي لمعنى «الطاغوت والعبادة» يتضح لنا المعنى الحقيقي للا إله إلّا الله الذي هو ــ كما سبق ــ الكفر بالطاغوت وأفراد الله تعالى بالعبادة .

وانطلاقاً من هذا المفهوم نستطيع أن نرى حكم الله في العلمانية بسهولة ووضوح أنها باختصار: نظام طاغوتي جاهلي يتنافى مع لا إله إلّا الله من ناحيتين أساسيتين متلازمتين:

أولاً ــ من ناحية كونها حكمًا بغير ما أنزل الله .

ثانياً ــ من ناحية كونها شركاً في عبادة الله .

ومع جلاء هذه الحقيقة ويسر إدراكها فإننا سنتناولها بشيء من التفصيل مناقشين للشبهات المتهافتة التي قد تثار حولها .

---

(١٣) دراسات قرآنية: محمد قطب: ٤٦٩ .

أولاً ــ الحكم بغير ما أنزل الله:

في الكلام السابق عن الطاغوت عرفنا أنه باختصار الحكم أو الحاكم بغير ما أنزل الله وهنا نريد إيضاح حكم العلمانية بتطبيقها على قاعدة «إن الحكم إلاّ لله» التي هي مضمون الإسلام ومقتضى كلمة «لا إله إلاّ الله»:

إن العلمانية تعني ــ بداهة ــ الحكم بغير ما أنزل الله فهذا هو معنى قيام الحياة على غير الدين، ومن ثم فهي ــ بالبديهة أيضاً ــ نظام جاهلي لا مكان لمعتقده في دائرة الإسلام بل هو كافر بنص القرآن الكريم ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

وإن مما يثير الإنتباه إن أكثر الآيات الواردة في تكفير من لم يحكم بما أنزل الله ونفى الإيمان عنه ــ إن لم تكن كلها ــ إنما جاءت في سياق الكلام عن الذين يدّعون الإيمان من أهل الكتاب أو المتظاهرين بالإسلام وربما كانت الحكمة في ذلك أن من لم يدّعِ الإيمان بشيء من كتب الله كافر بالضرورة، وقضية تحاكمه إلى غير الله واضحة لا لبس فيها ولكن الوهم قد يصيب بعض من ينتسبون إلى أحد الكتب السماوية فيحسبون أنهم مؤمنون وهم لا يحكمون بما أنزل الله فيها بل يطيعون غير الله معه أو من دونه. يوضح ذلك الآيات المتتابعة في سورة المائدة من قوله تعالى ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾... إلى قوله تعالى ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون﴾ (٤٤ : ٥٠).

«وآية آل عمران» ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب

يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ (٢٣).

وآيات سورة النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً، ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً﴾ إلى أن قال جل ذكره ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليمًا﴾ (٥٩ : ٦٥). أما سورة الأنعام التي يكاد موضوع التشريع والحاكمية يستغرقها كلها فنلحظ ذلك في قوله تعالى «أفغير الله أبتغي حكمًا» ـ١١٤ـ مع قوله «أغير الله اتخذ ولياً»ـ١٤ـ وقوله «أغير الله أبغي رباً» ـ١٦٤ـ فسوّى بين الحاكمية والولاية والربوبية، وقال للمؤمنين ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشايطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعمتوهم إنكم لمشركون﴾ (١٢١).

وفي سورة التوبة يقول تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلاّ هو سبحانه عما يشركون﴾ (٣١)، وكذلك في سورة النور: ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾ إلى قوله تعالى ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ (٤٧ : ٥١). وفي سورة «محمد» صلى الله عليه وسلم ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول

لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر﴾ (٢٥: ٢٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

«لا ريب إن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر فإنه ما من أمة إلاّ وهي تأمر بالحكم بالعدل وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرها بل كثير من المتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله كسواليف البادية وكانوا الأمراء المطاعين. ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلاّ بالعادت الجارية التي يأمر بها المطاعون فهؤلاء إذا عرفوا أنهم لا يجوز لهم الحكم إلاّ بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك بل استحلوا أن يحكموا وبخلاف ما أنزل الله فهم كفار»[14].

وقال ابن كثير ــ رحمه الله ــ عند تفسير قوله تعالى ﴿فلا وربك لا يؤمنون. . .﴾ الآية (يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحَكِّم الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الإنقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال «ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليمًا» أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليمًا كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة﴾[15].

وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون﴾:

---

(١٤) مجموعة التوحيد، الرسالة الثانية عشرة: ٤١٣.

(١٥) تفسير القرآن العظيم: ١/٥٢٠.

«ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والإصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان الذي وضع لهم «الياسق» وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير قال تعالى (أفحكم الجاهلية يبغـون) أي يبتغون ويريدون وعن حكم الله يعدلون، (ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون) أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم لخلقه من الوالدة بولدها فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء».

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ ما رواه أبو حـاتم سنده عن الحسن البصري قال: «من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية. وبسنده عن طاووس» إنه كان إذا سأله رجل: أفضل بين ولدي في النحل؟ (أي في العطية) قرأ «أفحكم الجاهلية يبغون» مما يدل على حساسية السلف رضي الله عنهم المرهفة تجاه الموضوع وتنفيرهم من اتباع غير شرع الله في أي أمر وإن صغر.

وعقب ابن كثير على ذلك بذكر الحديث الذي رواه البخاري

عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغي في الاسلام سنة الجاهلية» الحديث[16] ومراده من ذلك بيان أن الجاهلية صفة تلحق كل من حكم بغير ما أنزل الله وليست فترة تاريخية إنتهت بظهور الاسلام.

ويقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله:

«... من الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ولا يكون كافراً بل هو كافر مطلقاً إما كفر عمل وإما كفر اعتقاد». ثم قال في تفصيل كفر الاعتقاد: «وهو أنواع: احدهما: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله... الثاني: ألا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً لكن اعتقد أن حكم غير الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع إما مطلقاً أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث التي نشأت عن التطور في الزمان وتغير الأحوال وهذا أيضاً لا ريب أنه كفر لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان وصرف حثالة الأفكار على حكم الحكيم المجيد.

الثالث: ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله ولكن اعتقد أنه مثله فهذا كالنوعين اللذين قبله في كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة...».

«الرابع: أن لا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله فضلاً عن أن يعتقد كونه أحسن منه لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهذا كالذي قبله...

---

(١٦) تفسير القرآن العظيم: ٢/٦٧.

الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه ومشاقة لله ولرسوله ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً وتفريعاً وحكماً وإلزاماً ومراجع ومستندات فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة... فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الاسلام مهيأة مكملة مفتوحة الأبواب والناس إليها أسراب إثر أسراب يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم الكتاب والسنة... فأي كفر فوق هذا الكفر وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة...»[17].

إن هذا الحشد من الآيات ـ وأمثالها في القرآن كثير بل إن موضوعها هو موضوع القرآن الرئيسي ـ مع ذكر ما ذكره العلماء في فهمها من الأقوال ليدل دلالة قاطعة على نفي الايمان عمن ابتغى غير الله حكماً في أية قضية من قضايا الحياة والحكم عليه بالكفر والشرك والنفاق والجاهلية كلها سواء وأن ورودها في حق مدعي الايمان بالله وكتبه لمما يزيد المعنى قوة وصراحة وجلاء.

بل إن قوله تعالى ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه وفي قضية فرعية هي الأكل مما لم يذكر إسم الله عليه.

فهل يبقى بعد هذا مجال للشك أو التردد؟

الحق أنه لا مجال لشيء من ذلك ولكن الغياب المذهل لحقائق الاسلام من العقول والقلوب والغبش الكثيف الذي أنتجته عصور

(١٧) تحكيم القوانين: ٥ ـ ٧.

الانحراف هذا وذاك هما اللذان يجعلان كثيراً من الناس يثيرون شبهات متهافتة لم تكن لتستحق أدنى نظر لولا هذا الواقع المؤلم.

من هذه الشبهات استصعاب بعض الناس إطلاق لفظ الكفر أو الجاهلية على من أطلقها الله تعالى عليه من الأنظمة والأوضاع والأفراد بذريعة أن هذه الأنظمة لا سيما العلمانية الديموقراطية ـ لا تنكر وجود الله ولا تمانع في إقامة شعائر التعبد وبعض أفراد الأنظمة العلمانية يتلفظون بالشهادة ويقيمون الشعائر من صلاة وصيام وحج وصدقة ويحترمون رجال الدين (!) والمؤسسات الدينية... إلخ. فكيف نستسيغ القول بأن العلمانية نظام جاهلي وأن المؤمنين بها جاهليون؟

ومن الواضح جداً أن الذين يلوكون هذه الشبهة لا يعرفون معنى لا إله إلا الله ولا مدلول «الاسلام» وهذا على فرض حسن الظن بهم وهو ما لا يجوز في حق كثير من المثقفين الذين يتعللون بهذه العلل.

إن تاريخ الدعوة الاسلامية وصراعها المرير وإن القرآن الكريم كله من أوله إلى آخره ومثله السنة ـ لتقطع الطريق على هذه الشبهة وقائليها.

هل تحمل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه العنت والمشقة والحرب والجهاد ثلاثاً وعشرين سنة متوالية وهل نزل القرآن الكريم موجهاً وآمراً وناهياً طوال هذه السنين من أجل أن يقول الجاهليون باللسان فقط... لا إله إلا الله ويقيموا الشعائر التي يمن دعاة العلمانية على الله أنهم يسمحون بها؟...

وما الفرق بين قول قريش يا محمد: أعبد آلهتنا سنة ونعبد آلهتك سنة وبين قول العلمانيين ـ لفظاً أو حالاً ـ نعبد الله في المسجد ونطيع

غيره في المتجر أو البرلمان أو الجامعة؟ أهو شيء آخر غير أن قسمة أولئك زمنية وقسمة هؤلاء مكانية أو موضوعية. ؟

إن الله تعالى يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ (٢ : ٢٠٨) والسلم هو الاسلام[١٨]. ويقول ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ (٨ : ٣٩).

ويقول ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً﴾ (٤ : ١٥٠) ــ ويقول ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وقد سبق أن أوضحنا أن التلفظ بالشهادة ليس هو وحده المقصود منها ونزيد ذلك إيضاحاً فنقول:

إن العلماء قد وضعوا ــ بعد استقراء وتتبع نصوص الكتاب والسنة ــ لشهادة ألا إله إلا الله وللإسلام شروطاً ووضعوا لها نواقض فمتى انتفى شيء من الشروط أو وجد شيء من النواقض فقد انتقض الأصل، والواقع المشاهد أكبر دليل على ذلك فكم بين من يتلفظون بالشهادة في بلاد المسلمين من ملحدين ومرتدين ومشركين لا شك في أمرهم فلو أن النطق بالشهادة لا شروط له ولا نواقض لكان هؤلاء مسلمين حتماً.

ومن نواقض الاسلام العشرة ــ غير الشرك الذي هو الناقض الأكبر والذي لا شك أن العلمانية نوع منه كما سيأتي ــ ناقضان:

١ ــ «من اعتقد أن غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم أكمل من

---

(١٨) انظر تفسير الطبري: ٢/٣٢٣.

هديه أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر».

٢ ـ «من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر»[١٩].

ولعل مما يقطع دابر كل شبهة أن نستشهد بكلام الاثبات من علماء المسلمين السابقين لعصرنا الذين نظروا إلى القضية من وجهة فقهية خالصة:

سئل شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن حكم قتال التتار «الذين يقدمون إلى الشام مرة بعد مرة وقد تكلموا بالشهادتين وانتسبوا إلى الاسلام ولم يبقوا على الكفر الذي كانوا عليه في أول الأمر» وقبل أن نقرأ الفتوى علينا أن نتذكر أن قانون التتار هو «الياسق» الذي ذكر ابن كثير سابقاً وسيشير شيخ الاسلام إليه فيها فأجاب رحمه الله بفتوى طويلة قيمة منها:

«كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الاسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين. . . ».

«وكذلك إن امتنعوا عن تحريم الفواحش أو الزنا أو الميسر أو الخمر أو غير ذلك من محرمات الشريعة وكذلك إن امتنعوا عن الحكم في الدماء والأموال والأعراض والابضاع ونحوها بحكم الكتاب والسنة وكذلك إن امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار. . . قال الله تعالى «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتى

---

(١٩) مجموعة التوحيد: ٣٧ ـ ٣٨.

يكون كله لله وقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ وهذه الآية نزلت في أهل الطائف وكانوا قد أسلموا وصلوا وصاموا لكن كانوا يتعاملون بالربا . . . والربا آخر المحرمات في القرآن وهو مال يوجد بتراضي المتعاملين فإذا كان من لم ينته عنه محارباً لله ورسوله فكيف بمن لم ينته عن غيره من المحرمات التي هي أسبق تحريماً وأعظم تحريماً».

ثم استشهد رحمه الله بالأحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الأمر بقتال الخوارج ووصفه لهم بالمروق من الدين كما يمرق السهم من الرمية مع قوله عنهم «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم» واستشهد بإجماع الصحابة رضي الله عنهم على قتال مانعي الزكاة مع أنهم يقيمون الصلاة ويقرون بالشريعة ولم يمتنعوا عن دفع الزكاة إلّا تأوّلاً بأن دفعها خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم على ظاهر الآية ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ فكيف بغير المتأول بل كيف بمن خرج على الشريعة من أصلها؟ وذكر ــ رحمه الله ــ أن مما يوجب تكفير ملك التتار وقتاله أنه «يرد الناس عما كانوا عليه في سلك الأنبياء والمرسلين إلى أن يدخلوا فيما ابتدعه من سنته الجاهلية وشريعته الكفرية فهم يدعون دين الاسلام ويعظمون دين أولئك الكفار على دين المسلمين ويطيعونهم ويوالونهم أعظم بكثير من طاعة الله ورسوله وموالاة المؤمنين. والحكم فيما شجر بين أكابرهم بحكم الجاهلية لا بحكم الله ورسوله» ــ يعني أنهم يتحاكمون إلى الياسق ــ ثم قال «ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين إن من سوغ اتباع غير دين الاسلام أو اتباع شريعة غير شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر وهو ككفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض﴾ كما قال تعالى:

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾.

«وإذا كانت الردة عن أصل الدين أعظم من الكفر بأصل الدين فالردة عن شرائعه أعظم من خروج الخارج الأصلي عن شرائعه»...

«فإن المسلم الأصلي إذا ارتد عن بعض شرائعه كان أسوأ حالاً ممن لم يدخل بعد في تلك الشرائع مثل مانعي الزكاة وأمثالهم ممن قاتلهم الصديق»[20].

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فاستشهد على هذه المسألة بإجماع العلماء على تكفير العبيديين المعروفين خطأً بالفاطميين قائلاً:

«ويقال أيضاً بنو عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمن بني العباس كلهم يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويدعون الاسلام ويصلون الجمعة والجماعة فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم وأن بلادهم بلاد حرب وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين»[21].

وقد طبق حفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن شروط لا إله إلا الله على من أسماهم «عباد القبور والطواغيت والأصنام» فقال في شرح قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾:

«فإنهم أحبوهم مع الله، وإن كانوا يحبون الله تعالى ويقولون

---

(٢٠) الفتاوى الكبرى: ٤/٢٨٠ ـ ٢٩٣.

(٢١) مجموعة التوحيد: ١١٧ ومثله في الفتاوى الكبرى: ٤/٢٣١.

لا إله إلا الله ويصلون ويصومون فقد أشركوا بالله في المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه لأن المشرك لا يتقبل منه عمل ولا يصح منه، وهؤلاء وإن قالوا «لا إله إلا الله» فقد تركوا كل قيد قيدت به هذه الكلمة العظيمة من:

١ ــ العلم بمدلولها لأن المشرك جاهل بمعناها ومن جهله بمعناها جعل لله شريكاً في المحبة وغيرها وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الاخلاص.

٢ ــ ولم يكن صادقاً في قولها لأنه لم ينف ما نفته من الشرك ولم يثبت ما أثبتته من الاخلاص.

٣ ــ وترك اليقين أيضاً لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شك فيه ولم يقبله وهو الحق.

٤ ــ ولم يكفر بما يعبد من دون الله كما في الحديث (يعني حديث: من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبدون من دون الله حرم الله ماله ودمه. رواه مسلم) بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الند ومحبته له وعبادته إياه من دون الله... [٢٢].

وبناءً على ما سبق يتضح أن تلك الشبهة ــ شبهة التلفظ بالشهادة وإقامة بعض الشعائر ــ لا وزن لها ولا اعتبار بجانب البراهين القاطعة والحقائق النيرة في معنى لا إله إلا الله.

وجدير بنا أن نقف قليلاً عند قول شيخ الاسلام أن الردة عن شرائع الدين أعظم من خروج الخارج الأصلي عنها لنقول:

---

(٢٢) فتح المجيد: ٨٢ ــ ٨٣ والترقيم مضاف اما بقية شروط الشهادة فهي المحبة والانقياد والقبول.

إن هذا هو ما أدركه المخطط اليهودي الصليبي كما سبق في وصية زويمر فقد يئس المخطط من إخراج المسلمين عن أصل دينهم إلى المذاهب الإلحادية والمادية فلجأ ـ بعد التفكير والتدبير ـ إلى ما هو أخبث وأخطر: لجأ إلى اصطناع أنظمة تحكم بغير ما أنزل الله وفي الوقت نفسه هي تدعي الاسلام وتظهر احترام العقيدة فقتلوا إحساس الجماهير وضمنوا ولاءها وخدروا ضميرها ثم انطلقوا يهدمون شريعة الله في مأمن من انتفاضتها ولذلك لا يجرؤ أرباب هذه الأنظمة على التصريح بأنهم ملحدون أو لا دينيون بينما يصرحون ـ مفتخرين ـ بأنهم «ديموقراطيون» مثلاً.

هذا مع أن الطريق واحدة والنهاية حتماً ستكون واحدة غير أن الصورة لم تكتمل بعد[٢٣].

* * *

وهناك شبهة أو علة أخرى أصبحت «تقليدية» لكثرة ما رددها الببغاوات وهي أن الشريعة ثابتة والحياة متطورة والثابت لا يفي بمتطلبات المتطور ومن ثم كان لا بد من إيجاد مصدر آخر للتشريع يعتمد على العلم العصري والتجارب الانسانية مع الاحتفاظ للدين بدائرة التوجيه الروحي للأفراد وهذا هو حال العلمانية!

وهذه الشبهة ـ التي أطلقها أول ما أطلقت أعداء الاسلام الحاقدون ـ لا يطرحها إنسان عرف الله حق معرفته وقدره حق قدره، فإنها تعني بداهة ـ اتهامه تعالى عن ذلك علواً كبيراً بالجهل والقصور، والموقف الواجب اتخاذه حيال قائلها هو قبل كل شيء دعوته إلى الايمان وتعريفه بقدر الله تعالى.

---

(٢٣) انظر «في ظلال القرآن»: ٣/١٢١ فما بعدها.

لكننا سنقطع النظر عن هذا ونفترض ورودها من إنسان يريد التثبت من دينه وحينئذٍ نقول: إن هذه الشبهة لا تستحق أن تكون موضع نظراً إلا إذا سلمنا بثبوت طرفيها وهما:

١ ــ إن الشريعة ثابتة بمعنى أنها أحكام جامدة لا تقبل المرونة محدودة لا تقبل التوسع.

٢ ــ إن الحياة البشرية متطورة بمعنى أنها لا شيء فيها ثابت على الاطلاق.

والواقع أن كلا الافتراضين خاطىء تماماً وأن مصدر هذه الشبهة إنما هي اللوثة التي أصابت أوروبا فانتقلت من الايمان بالثبات المطلق إلى التطور المطلق حتى حسبت كل تغير تطوراً ــ وهو ما سبق الحديث عنه في الباب الثاني.

إن التصور الاسلامي لا يقر الثبات المطلق ولا يؤمن بالتطور المطلق بل ينفرد باعتبار قانون سير الحياة هو «الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت»[٢٤] وهي ميزة ما كانت لتكون لولا أنه من عند الله.

ونتيجةً لذلك جاءت الشريعة حاكمة لكلا طرفي الحياة البشرية الثابت والمتغير في إطار عام لا يشذ عنه شيء منهما.

ولقد كان سلف الأمة يعون حقيقة تغير الحياة وتطورها تمام الوعي.

نتبين ذلك من قولة عمر بن عبد العزيز المشهورة « يجدّ للناس من الأقضية بقدر ما أحدثوا من فجور».

ونتبينها من عدول الشافعي ــ حين انتقل إلى مصر ــ عن كثير

---

(٢٤) انظر فصل «الثبات» من كتاب خصائص التصور الإسلامي: ٨٦.

من آرائه الفقهية التي استنبطها بالعراق حتى أصبح له مذهبان: قديم وجديد.

ونتبينها من القاعدة الأصولية التي تنص على تغير الفتوى بتغير الظروف والأحوال.

أدركوا هذا مع إدراكهم الجازم للحقيقة العميقة الكبرى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ (٥ : ٣) كما سبق في كلام ابن القيم من الفصل السابق. ومع إيمانهم المطلق بمدلول قوله تعالى ﴿أفغير الله ابتغى حكمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ (٦ : ١١٤)، وفهم هذه الحقيقة بجانب فهم قاعدة الوجود الكبرى ﴿وما خلقت الجنس والانس إلا ليعبدون﴾ يرسم الاطار العام للشريعة والدائرة الشاملة للحياة البشرية والتي لا تزيد على ثلاثة أقسام:

١ ــ جوانب ثابتة متعلقة بحقيقة الانسان ذاته أنّى وجد في أي زمان ومكان تلك الحقيقة التي لا تتغير ولا تتبدل على الاطلاق: وهذه جاءت الشريعة لها بأحكام تفصيلية ثابتة كثباتها، فصلها الله تعالى تفصيلاً كالشعائر التعبدية المحضة من صلاة وصيام وحج وكأحكام الطهارة المختلفة وكأحكام الأسرة من نكاح وقوامة وطلاق وعدة وكالمحرمات الرئيسية الثابتة من زنا وخمر وسرقة وخيانة... إلخ. فهذه فصلت بمقتضى الحكمة والهداية الربانية التي لا يملكها البشر ولو وكل شيء منها إليهم لضلوا وتاهوا.

٢ ــ جوانب ثابتة الجوهر والهدف لكنها متجددة الصور متغيرة الأساليب حسب سنة الله الكونية: مثل نوع الحكم وطريقته والمنهج الاقتصادي للأمة والخطة التعليمية... وما أشبهها.

وهذه وضعت لها الشريعة قواعد وضوابط عامة لا يصح أن تخرج عنها.

فالحكم مثلاً يقوم على أصول منها: أن يكون بما أنزل الله وأن يكون شورياً ومراعاة جلب المصالح ودرء المفاسد وسياسة الناس بالعدل وتوفير أقصى حد ممكن من الأمن والطمأنينة للرعية... وتركت التفصيلات ـ رحمة من غير نسيان ـ إلى اجتهاد الأمة مثل كيفية وشروط المبايعة والعزل وتحديد الشورى وكيفية تنظيم الولايات والقضاء وتحديد المصلحة أو المفسدة... إلخ.

والاقتصاد يقوم على أصول منها: أن المال كله لله والبشر مستخلفون فيه، وجوب تأمين الضروريات لكل فرد، تحريم أكل أموال الناس بالباطل في أي صورة تحريم الربا والمكوس، النهي عن الاحتكار والجشع، النهي عن أن يكون دولة بين الأغنياء، الحث على الانفاق ووجوبه إذا اقتضت الضرورة... إلخ.

أما أسلوب وضع الخطط الاقتصادية، وضمان تحقيق هذه الأصول وكيفية التعامل المباح بين المؤسسات العامة والخاصة وإشراف الدولة أو سيطرتها على الإنتاج أو التجارة وما أشبه ذلك فهي موكولة أيضاً إلى اجتهاد الأمة في حدود تلك الأصول.

وهكذا بقية مجالات الحياة المماثلة.

هذا مع التنبيه إلى أن الاجتهاد ـ المباح أو الواجب هنا ـ يجب أن تتوفر فيه فوق كونه طبعاً فيما لا نص شرعياً فيه شروط منها:

(أ) أهلية المجتهد فليس من حق أي موظف أو مسؤول أن يجتهد حسب هواه.

(ب) ألا يصادم نصاً أو قاعدة شرعية أخرى.

٣ ـ الأمور الدنيوية المحضة: ونعني بها الأنشطة البشرية التي لا علاقة لها في ذاتها بالهدى والضلال والتي اقتضت حكمة الله تعالى أن تعتمد على سعي الانسان وخبرته كي يحقق بنفسه معنى استخلافه في الأرض واستعماره فيها وذلك كالضرب في الأرض لاكتشاف أسرار الكون أو ما يسمى «خواص المادة» واستخدامها لترقية الحياة البشرية وتذليل صعابها وكسائر الأعمال والمسائل التطبيقية التي تخضع للتجربة البشرية ويمكنها معرفتها بالتنقيب عن نواميس الكون المسماة «القوانين الطبيعية» مثل شؤون الزراعة والصناعة والعمارة وكل مظاهر الحياة المادية[٢٥].

وهذه موكولة بكاملها إلى الجهد البشري إلا أنها بوقوعها في دائرة الحياة البشرية تخضع للغاية الأساسية من الوجود «العبادة» من جهة أنها جزء من الحركة الانسانية التي ينبغي أن تكون كلها لله وحده لا شريك له فهي بصفة عامة مندرجة تحت «المباح» الذي هو أحد الأحكام التعبدية الخمسة ولكن الأحكام الأخرى «الوجوب، الندب، الحرمة، الكراهية» قد تسري عليها إما لغرض الاستخدام أو كيفيته وبالجملة فهي سلاح يستخدمه الشرطي كما يستخدمه اللص لكن المؤمن يستخدمها باعتباره الشرطي الحارس لحدود الله تعالى.

وبما أنه ليس في الحياة البشرية شيء يبقي بعد هذه الأقسام أو يخرج عنها فلم يعد هنالك ما يبرر أية شبهة حول إسلام الحياة كلها لله خالصة له وحده مستقيمة على حكمه وشرعه.

---

(٢٥) انظر قبسات من الرسول: الفصل الأخير وتهافت العلمانية: ١٤، ١٥ ومنهاج الإسلام في الحكم: ٣٨، ٣٩.

ثانياً ــ الشرك في عبادة الله

كما أن هذا الدين يوحد الخالق سبحانه وتعالى برد الأمر كله إليه فإنه يوحد المخلوق بجعله عبداً خالصاً لله تعالى لا تتجاذبه الشركاء ولا تمزقه السبل.

إن الوحدة هي الحقيقة الكبرى في الكون: فالخالق تعالى واحد والكون بسننه ونواميسه واحد والانسان في جوهره وغاية وجوده واحد.

والكون بكامله يتجه إلى الله إتجاهاً واحداً بالعبادة ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ ٣:٨٣ ــ وكذلك ينبغي للمخلوق الاختياري «الانسان» أن يتجه، وإلا فالتصادم والتمزق والضياع.

لقد اختصر ألفرد نورث وايتهيد نظرية غوته واشبنجلر الضخمة عن إنهيار الغرب في كلمة واحدة «تجزئة الطبيعة»[٢٦] أي إفتعال التصادم بين ما هو فطري وما هو منطقي، وما هو طبيعي وما هو غير طبيعي، ما هو روحي وما هو مادي.. واختصرت الوجودية مأساة الانسان في كلمة واحدة أيضاً «التمزق» بين الأنا والعالم بين الطبيعي وما فوق الطبيعي بين الشعور والمنطق.

والظروف والملابسات التي عرضناها بتوسع فيما سبق هي المسؤولة عن تقسيم حياة الناس والانسان في الغرب إلى دوائر مستقلة لا علاقة لاحداها بالأخرى ومن ثم جاء دور الانهيار المحتوم.

هنا تتجلى رحمة الله تعالى بعباده حين منحهم بالاسلام التصور الصحيح الذي «يخاطب الكينونة الانسانية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها، يردها إلى جهة واحدة تتعامل معها،

(٢٦) انظر سقوط الحضارة، كولن ولسن: ١٣٠.

جهة واحدة تطلب عندها كل شيء وتتوجه إليها بكل شيء، جهة واحدة ترجوها وتخشاها وتتقي غضبها وتبغي رضاها، جهة واحدة تملك لها كل شيء لأنها خالقة كل شيء ومالكة كل شيء ومدبرة كل شيء.. كذلك يرد الكينونة الانسانية إلى مصدر واحد تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها وقيمها وموازينها وشرائعها وقوانينها، وتجد عنده إجابة على كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والانسان بكل ما يثيره من علامات الاستفهام.

«عندئذ تتجمع هذه الكينونة، تتجمع شعوراً وسلوكاً وتصوراً وإستجابة في شأن العقيدة والمنهج وشأن الاستمداد والتلقي وشأن الحياة والموت وشأن السعي والحركة وشأن الصحة والرزق وشأن الدنيا والآخرة فلا تتفرق مزقاً ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق[٢٧].

وهنا يتجلى كذلك مدى الانحراف الذي حصل بالتفريق بين العقيدة والشريعة وبين الدنيا والآخرة وبين العبادات والمعاملات، ذلك الانحراف الذي أدى إلى إنحسار مفهوم الدين ومفهوم العبادة إلى أقصى الحدود.

هذا الانحراف حين يصبح فكرة واعية ومبدأ مرسوماً يفرق دين الله ويمزق حركة الانسان أي عبادته ويفصل دنياه عن آخرته أو كما قال محمد أسد «يفصل الانسان عن مصيره» حينئذ يكون هذا الانحراف شركاً في عبادة الله لا يقبله الله ولا يرضاه وهذا هو الشأن في العلمانية.

أما التفريق بين العقيدة والشريعة فحسبنا ما أسلفناه عن حكم من لم يلتزم بشريعة الله من الآيات والدلائل ويكفي أن الايمان

---

(٢٧) خصائص التصور الإسلامي: ١٢٨ ــ ١٢٩.

بالعقيدة ينتفي بمجرد رفضه ذلك الالتزام وأما التفريق بين الدنيا والآخرة بين الحركة والمصير فقد عرضنا له عند الحديث عن الانحراف في الحياة الاسلامية ولا بأس أن نزيده هنا شيئاً من التفصيل:

إن الدنيا في التصور الاسلامي لها قيمة ذاتية غير كونها وسيلة للآخرة، ذلك أنها المكان الذي تتجلى فيه صفات الله تعالى وأسماؤه من رحمة وغضب وعقوبة ومغفرة وقدرة وإرادة، كما أنها المكان الذي تقع فيه العبادة الاختيارية لله تعالى ومن ثم استحقت إنزال الكتب وإرسال الرسل.

من هنا كانت كل حركة الانسان فيها مفروضاً أن تكون لله ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ حتى الحركات التي تبدو علاقاتها بالعبادة في أذهاننا بعيدة:

فالمتعة الشخصية مثلاً هي عبادة لها أجرها بالنسبة للمؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم «وفي بضع أحدكم صدقة» الحديث.

وقال «كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رميه بقوس وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق»[٢٨].

والصناعة التي يقوم بها الفرد أو الأمة المسلمة عبادة أيضاً ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾ (٢١ : ٨٠).

وفي قصة ذي القرنين يبرز السياق القرآني قيمة استخدام العلم الصناعي في مصلحة البشرية على يد الخبير المسلم.

---

(٢٨) سنن الترمذي: ٤/١٣٤ وهو صحيح وزاد النسائي «وتعلم السباحة»!

وفي الحديث «أن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به والممد به»[٢٩].

ومثلها الزراعة «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[٣٠].

و«ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[٣١].

وهكذا كل نواحي الحياة الانسانية للمؤمن، قال بعض السلف «والله أني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي».

وقد كتب أحد العلماء كتاباً أسماه «البركة في فضل السعي والحركة» أثبت فيه أن النية الحسنة تقلب حياة المؤمن كلها عبادة بجميع حركاتها وسكناتها وأن الزراعة والصناعة والتجارة من فروض الكفايات[٣٢].

وتطبيق هذه الحقيقة هو حقيقة الاخلاص كما قال سهل التستري: «نظر الأكياس في تفسير الاخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركاته وسكناته في سره وعلانيته لله تعالى وحده لا يمازجه شيء..»[٣٣].

وقد أدرك هذه الحقيقة القلائل الذين هداهم الله للاسلام بعد طول تمزق وضياع يقول أحدهم «محمد أسد»:

«يختلف إدراك العبادة في الاسلام عما هو في كل دين آخر: إن

---

(٢٩) سنن الترمذي: ١٧٤/٤ وقال: حسن صحيح.

(٣٠) رمز في الفتح الرباني لرواية أحمد والبخاري له في الأدب المفرد وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير ٧/٢.

(٣١) فتح الباري: ٣/٥.

(٣٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الوصابي ت ٧٨٢ هـ.

(٣٣) مقدمة المجموع للنووي: ١٧/١.

العبادة في الاسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص كالصلوات والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الانسان العملية أيضاً، وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم عبادة الله، فيلزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموع مظاهرها كلها على أنها تبعة أدبية متعددة النواحي وهكذا يجب أن نأتي أعمالنا كلها حتى تلك التي تظهر تافهة على أنها عبادات: أي نأتيها بوعي وعلى أنها تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه الله، تلك حال ينظر إليها الرجل العادي على أنها مثل أعلى بعيد ولكن أليس من مقاصد الدين أن تتحقق المثل العليا في الوجود الواقع؟

«إن موقف الاسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل، إنه يعلمنا أولاً أن عبادة الله الدائمة والمتمثلة في أعمال الحياة الانسانية المتعددة جميعها هي معنى هذه الحياة نفسها ويعلمنا ثانياً أن بلوغ المقصد يظل مستحيلاً مادمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين: حياتنا الورحية وحياتنا المادية، يجب أن تقترن هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا لتكون كلاً واحداً متسقاً إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى في سعيها للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا».

«هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه هي فرق آخر بين الاسلام وبين سائر النظم الدينية المعروفة ذلك أن الاسلام على أنه تعليم لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة بين الأرض وخالقه فقط.

ولكن يعرض أيضاً بمثل هذا التأكيد على الأقل للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية أن الحياة الدنيا لا ينظر إليها على أنها صدَفة عادية فارغة ولا على أنها طيف خيال للآخرة التي هي آتية لا ريب فيها من غير أن تكون منطوية على معنى ما ولكن على أنها

وحدة إيجابية تامة في نفسها والله تعالى «وحدة» لا في جوهره فحسب بل في الغاية إليه أيضاً، من أجل ذلك كان خلقه وحدة ربما في جوهره إلا أنه وحدة في الغاية منه بكل تأكيد.

«وعبادة الله في أوسع معانيها ــ كما شرحنا أنفاً ــ تؤلف من الاسلام معنى الحياة الانسانية هذا الادراك وحده يرينا إمكان بلوغ الانسان الكمال في إطار حياته الدنيوية الفردية. . .»(٣٤).

إن الانسان ــ كما قررنا سلفاً ــ عبد بفطرته وطبيعته سواء أكان من سكان الأحراش أو ناطحات السحاب، وكون العبودية صفة ذاتية ملازمة له يحتم عليه أن يسير وفق إرادة معبود ما، إما الله تعالى وإما سواه غير أنه لما كان لا يمكن أن يستغني عن الله بحال وأن يخرج عن نواميس الله الكونية مهما بلغ من الكفر والجحود فإنه ليس أمامه سوى أحد إحتمالين:

١ ــ أن يسير وفق منهج الله تعالى وبذلك يتلاءم ويتناسق مع الكون ومع نفسه، ومع نواميس الله الثابتة فيصير وحدة واحدة متجهة إلى الله في طريق واحد.

٢ ــ أن يختار غير طريق الله وهذا لا يجعله خالصاً لغير الله على الاطلاق مهما كابر وألحد. ذلك أن جوانبه غير الارادية على الأقل لا يمكن أن تنفصل بحال عن السير وفق سنن الله ونواميسه.

ونتيجة ذلك أن من اختار غير طريق الله لا يعدو أن يكون قد حكم على نفسه بالتمزيق والتشتت والتصادم اللهم إلا لو استطاع أن ينفذ من كون الله ويتحدى سننه وهو أبعد المحال.

---

(٣٤) الإسلام على مفترق الطرق: ٢٣ ــ ٢٥.

ولقد صور الأسلوب القرآني هذه الحالة أبلغ تصوير:

﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلمًا لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (٣٩ : ٢٩).

وهذا يصدق على كل من تلقى عن غير الله حتى وإن ادعى الاسلام، يقول الدكتور عماد الدين خليل:

«إن الانسان الذي يؤمن بالاسلام ذلك الايمان المبتور المشوه سرعان ما يجد أمامه هوة سحيقة تمنعه من الاندماج والتعامل الصحيح مع هذا الدين، ذلك أنه محا الايمان ـ في قرارة نفسه ـ من بعض عناصر ومقومات الاسلام وأكده في عناصر ومقومات أخرى وهو بعمله هذا لم ينل من وحدة الاسلام الدائم شيئاً ولكنه وجه ضرباته إلى صميم الكيان الانساني وإلى وحدة الذات الانسانية ذلك أنه سيجد نفسه مضطراً إلى الاستعاضة عن العناصر والقيم التي رفضها بعناصر وقيم أخرى يجيء بها من هنا وهناك ويرصها رصاً، عناصر لا تمتلك ـ بمجموعها ـ توحد القيم الاسلامية وتكاملها لأنها لم تنبثق عن تصوره الأصيل. . ثم هي فيما بينها تعاني تناقضاً محزناً لأن كل عنصر أو كل مجموعة من القيم جيء بها من تصور فرد من الأفراد، انسان من ملايين الناس وما هي في الحقيقة سوى نتاج ردود فعل نفسية وفكرية لهؤلاء الأفراد مع واقع معين بأمدائه المحدودة بحدود الزمان والمكان ومن ثم سيتشتت هذا الانسان (الآخذ) وسيضيع. . إنه آمن بوحدة عقائدية متكاملة ظاهراً، لكنه ـ في حقيقية ـ تكامل زائف لأنه سعى إلى رص عناصر لا إنسجام فيما بينها ولا تآلف في تركيبها وحاول ـ جهلاً وعناداً ـ أن يجعل منها منهجاً موحداً لحياة موحدة لا تقبل التجزئة»[٣٥].

---

(٣٥) تهافت العلمانية: ٦٢ ـ ٦٣.

وبذلك تتبين خطورة الادعاءات الزائفة الخادعة بأن الاسلام دين عبادة بمعنى أنه رابطة روحية بين الانسان وربه لا صلة لها بحركة الانسان في الحياة ـ فرداً أو مجموعاً ـ تلك الادعاءات التي تلغي الاسلام من أساسه وتهدم العبادة من أصلها، ولا تتورع مع ذلك أن تمن على الله أنها أعطته جزءاً من كيان الانسان وحركته ـ اللذين لا يقبلان التجزؤ أصلاً ـ جزءاً يسميه أدعياؤها الروح في مقابل إعطاء المادة للشيطان، أو الفترة الروحية في مقابل إعطاء العمر كله للشيطان، هذا والله تعالى يقول لهم «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[٣٦].

إن هؤلاء بتقسيماتهم العوجاء لا يضرون الله شيئاً ـ سبحانه هو الغني الحميد ولكنهم ينزلون بأنفسهم وبالبشرية من ورائهم أفدح الخسارة وأوخم العاقبة.

لنسمع ما يقوله أحد أولئك الأدعياء (وهو وإن كان غير مسلم فإن كثيراً ممن يحسبون أنفسهم مسلمين يؤمنون بما يقول لكنهم قد يواربون ويلبسون):

«لو كان المتفقهون يعنون بالروحانية (يقصد الدين) أن وراء هذه الحياة قوة غير منظورة هي مصدر كل حياة وأن هذه القوة لا يحدها زمان ولا مكان وهي التي تلهم الانسان المحبة والصلاح والخير..

«وبكلمة أخرى لو كانت الروحانية لا تتعدى العلاقة بين الانسان والله ولا تتدخل في شؤون الانسان الحياتية في دنياه وتحصر تدخلها في شؤونه فيما بعد الحياة فليس من شأن أحد وإن لم يكن

---

(٣٦) حديث قدسي رواه مسلم: ١١٥/١٨ بشرح النووي.

مؤمناً أن يحمل هذه الروحانية تبعة الجمود الفكري وما ينتج عنه من تأخر وجهل ولكن المتفقهين لا يكتفون بهذا ولا يقفون عند هذا الحد بل هم يتوسعون في فقههم ويحشرون الروحانية في كل أمر من أمور الدنيا حتى كادوا يقيدون بها العقل البشري ويمنعونه من الانطلاق مبشرين بالحتمية التي توحي بها الروحانية ومغلقين الباب دون أي جدل أو نقاش أو معرفة ويذهب بعضهم إلى أبعد من التبشير إذ يسن الشرائع كي يتقيد بها الناس في حياتهم الفردية والعائلية والمعاشية والاجتماعية والاقتصادية موهمينهم أن هذه الشرائع إنما هي وحي هبط من الله الكلي القدرة فمن يخضع لها كانت له السعادة السرمدية ومن يكفر بها أو يبحث فيها يستحق العذاب في دنياه ويستحق نار جهنم فيما وراء دنياه»(٣٧).

أليس هذا هو بعينه ما يريده رافعو شعار «الدين لله والوطن للجميع» وشعار «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين» من أدعياء الاسلام أو ليس هذا أيضاً هو ما يطبقه الذين يجعلون للدين برامج «روحية» ضمن أجهزة الاعلام الشيطانية وأحكاماً شخصية ضمن قوانين الحكم الجاهلية ويقولون أن مكان الدين هو المسجد فقط ويحجون لبيت الله في العمر مرة ويقصدون بيوت أعداء الله شرقاً وغرباً كل حين يتلقفون المناهج ويتلقون التشريعات؟

أي قيمة لمثل هذه الأقوال والادعاءات والواقع المأساوي في أوروبا الذي عرضنا نماذج له في كل مجال يكذبها وينافيها، أوروبا التي طبقت العلمانية على الفكر والحياة من قبلنا فلم تجن إلا الدمار والضياع، ألا نتعظ بها ونستفيد من تجربتها؟ أليس الأجدر بالمسلمين

---

(٣٧) قصة الإنسان، جورج حنا: ٢٥٨.

أن يحمدوا الله على أن حرم الشرك وأبطله ورحمهم بشريعة لا تمزق فيها ولا ضياع. ؟

إننا نتوجه بالسؤال إلى من يدعي الاسلام من هؤلاء فنقول: إذا أخرجنا ــ على سبيل التحكم ــ جزءاً من النشاط الانساني في الحياة ــ إما السياسة وإما غيرها ــ عن دائرة الدين فمن أين نتلقى منهج وقيم وموازين هذا الجزء؟

وأياً ما كان الجواب فإن نتيجته ومؤداه أمر واحد لا ريب فيه: التلقي عن غير الله. قد يقال نتلقى ذلك ونستمده من التجربة البشرية على مر العصور أو من إجتهادنا الذاتي وأفكارنا الخاصة أو ما تمليه الظروف والملابسات العصرية أو.. من أي شيء كان. المهم أن النتيجة المنطقية لذلك هي الشرك بالله وهل هناك صورة من صور الاعتراف بالشرك أصرح من هذه؟ أعني شرك الطاعة والاتباع ــ إنه شرك في عبادة الله وإن كان الذين يمارسونه قد يجهلون معنى عبادة الله، وما ذلك بغريب على الجاهليين فإن عدي بن حاتم ــ رضي الله عنه ــ في الجاهلية لم يكن يتصور أن ذلك عبادة فإنه لما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم «تلا صلى الله عليه وسلم قوله: «إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ــ فقال عدي (وكان نصرانياً) يا رسول الله لسنا نعبدهم!، قال: أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلى. قال النبي صلى الله عليه وسلم فتلك عبادتهم»(٣٨).

قال شيخ الاسلام إبن تيمية «تعليقاً على ذلك: «قد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم»(٣٩).

---

(٣٨) انظر رواياته في الدر المنثور: ٣/ ٢٣٠ وأصله في الترمذي: كتاب التفسير وسنده حسن.

(٣٩) فتح المجيد: ٨٦ نقلاً عن الايمان.

وليست عاقبة هذا الشرك هي الخلود المؤبد في النار فحسب بل إن أتباعه ليصلون نار الضياع والتمزق والقلق في هذه الدنيا ومع أننا قد سردنا أمثلة عديدة على ذلك فلا بأس هنا أن نورد بعض النتائج السيئة للعلمانية على الانسان الذي يعيش في ظل حياة ترتكز قاعدتها على هذا المبدأ الاشراكي:

يقول الدكتور عماد الدين خليل:

«في ظلال المجتمع العلماني يتمزق الانسان بناء على تمزق مصيره، وتزدوج شخصيته إعتماداً على الثنائية التي اصطنعها بين المادة والروح والجدران التي أقامها بين تجربتي الحس والوجدان والجفاء الذي باعد به زيفاً بين عالمي الحضور والغياب بين ما هو قريب مرئي وما هو بعيد لا تراه العيون والتصور الذي يصدر عنه ذلك الانسان لا يوائم ـ بحال ـ بين العلاقات المعقدة المتشابكة التي تحكم الكون والعالم والحياة بل هو تصور يفصل بالقسر والعناد بين هذه العلاقات جميعها يمزقها تمزيقاً ويعمل فيها تقطيعاً وتشويهاً فتغدو طاقات الكون والانسان والحياة وما بينها جميعاً من وشائج وإرتباطات ـ تغدو في حس العلماني وتصوره فوضى يسودها الانفصال والصداء والجفاء.. الدين يتناقض مع العلم، والفلسفة العقلية ترفض التشبث الطبيعي بالواقع الملموس والمذاهب الطبيعية لا تلزم نفسها بقيم خلقية أو إنسانية..

وهكذا.. سلسلة من المصادمات التي لا تقتصر آثارها السيئة على العالم الخارجي فحسب بل في أعماق الانسان وتجربته الذاتية كذلك.. ذلك أن كل قيمة وطاقة أو فاعلية مما ذكرنا ترسم له مصيراً معيناً وتسعى إلى شده إليه فيغدو بالتالي مشدوداً إلى مصائر شتى متفرقة متناقضة لا يسودها التوحد والانسجام. وهذا هو السبب العميق الذي يؤدي ـ في العلمانية ـ إلى التمزق والازدواج، فالانسان العلماني

يقسم فعالياته الحياتية إلى قطاعات ومساحات منفصلة يسعى في كل منها إلى تشكيل مصيره في إطار ذلك القطاع أو تلك المساحة وبطريقة (انعزالية) تماماً عن سائر الفعاليات، وهو خلال ذلك لا بد وأن يشعر بالتناقض المرير بين فاعليات حياته جميعاً. . وينظر ـ أخيراً ـ فيرى حياته وقد تشتتت وكيانه الذاتي وقد أصيب بالازدواج «أشعر وهذا شعور كثير من الناس الذين هم من جيلي أشعر أن هناك خطأ في التفريق بين الروح والجسد. . إنني أحلم بشكل من الحياة فيه يسعى الانسان (كله) روحاً وجسداً في سبيل تحقيق ذاتي أعمق بشكل لا تكون فيه الروح والمشاعر عدوين كل منهما للآخر، وفيه يستطيع الانسان أن يتحقق بالوحدة في ذات نفسه وبمعنى مصيرة»(*).

«لقد فتح ذلك الانسان وعيه على حقيقة محزنة وهي أن ليس ثمة مصير موحد يتحقق وينتمي إليه، ومن ثم غدت حياته مزقاً مبعثرة لا يجمعها رباط ولا يشدها مصير. . يدخل المحراب ليسجد لله ويلعن الطبيعة ويخرج إلى المصنع لينحني للآلة ويكفر بالله. . يركض وراء (العقل) ليخطط له منهاجاً في الحياة الاجتماعية ويسعى إلى الدين ليهبه الطريق في حياته الفردية. دنياه تتجه إلى الشمال وأخراه تتجه إلى اليمين. فإن أراد الدنيا إبتعد عن الآخرة، ضاع منه مصيره الخالد. . وإن أراد الآخرة إبتعد عن الدنيا ضاع منه مصيره الحيوي القريب. . وإن وقف في المنتصف يريد أن يوحد مصيره: هنا وهناك، روحه وجسده، عقله وإلهه، محرابه ومصنعه، تمزق!! لأنه يعتقد حتى ـ قرارة ذاته ـ أن إرادة الله تسير بإتجاه معاكس تماماً لارادة الانسان ولما كانت حياة الانسان (لا تفرغ) من المعنى بل هي إستمرار شعوري أو فكري وعملي. ولما كان هذا الانسان في حالة الاستمرار التي يحياها يسعى إلى تشكيل مصائر شتى إصطنع بينها التناقض والصدام فيمكن

(*) من قوله «أشعر. . . إلى هنا من كلام محمد أسد.

القول ـ عندئذ ـ إن وحدته قد غدت زائفة تماماً وأنه حرم من مصيره عن طريق تشويه وتمزيق إلتزاماته بالقيم التي تسود الكون والحياة والعالم بحيث يستطيع أن يقول في أوج ضياعه: أريد أن أفلت من المصير»[٤٠].

والقضية نفسها ـ قضية توحيد الذات والارادة والهدف أي بالمصطلح الاسلامي توحيد العبادة ـ تعرض لها مؤلف أميركي يعمل طبيباً نفسياً واضطر المسكين بحكم عمله إلى الكتابة لمرضاه عن أفضل طريق للتخلص من إرهاق الحياة العصرية وقلقها لكنه في الفصل الأخير من كتابه نسي المرضى واشتغل بنفسه. إنه مريض هو أيضاً! لماذا؟ لأنه كما يقول لا يملك الايمان الصحيح!

فهو يصرخ مستنجداً «إنني محتاج للدين لتنظيم حياتي»[٤١].

ولكن أي دين؟ أهو النصرانية المحرفة؟ كلا، إنه يرى أن إيمانها ناقص مشوه: «ومعركتي مع رجال اللاهوت لا ترجع إلى أنهم يقولون لي عن الله أكثر مما يجب بل لأنهم يقولون أقل بكثير مما يجب، فأنا أبغي معرفة كل شيء عنه سبحانه وتعالى، فأنا مثل الطفل الشره الذي يحصل في عيد الميلاد على لعبات ست فيبدي أنه صدم لأنه لم يحصل على كل ما في حانوت لعب الأطفال من لعب»[٤٢].

لذلك يعترف في جرأة نادرة:

«إن العالم الغربي لم يهضم بعد الديانات العظيمة التي نشأت في الشرق الأوسط إنه لم يخرج بعد من العصور المظلمة»[٤٣].

---

(٤٠) تهافت العلمانية: ٨١/٨٣.

(٤١) لمن ترهقهم الحياة، هارولد فينك: ٢٧٤.

(٤٢) المصدر السابق: ٢٧٠.

(٤٣) المصدر السابق: ٢٧٦.

إنه لعجيب أن يكون هذا الرجل طبيباً يداوي الناس وهو مريض ولكن الأعجب منه هو أن يبحث الحائرون في الغرب عن دين ينظم حياتهم في حين أن الذين منحهم الله الموهبة الكريمة في الشرق يقولون لا علاقة للدين بشؤون الحياة ويريدون أن ينظموا حياتهم بتناقضات وفلسفات أولئك الحيارى!!

ونزيد الأمر إيضاحاً بإيراد شاهد على أن الشركاء المتشاكسين يفقدون الانسان الأرض الثابتة التي يستطيع الوقوف عليها ويزجون به في متاهات لا قرار لها وصدامات لا سبيل للخلاص منها يقول «سمول»:

«إن رأسمالنا الأخلاقي ـ إذا تحدثنا بوجه عام ـ إنما يتكون من مجموعة من الأخلاقيات الاقليمية يعوزها التجانس. وبهذه الأخلاقيات يحتفظ المجتمع بحركته ولكنه رغم هذا يبعثر مجهوداً هائلاً يبذله في تلك الاحتكاكات التي تعوق حركته، إننا لا نملك مستوى أخلاقياً عاماً تستطيع أن تحتكم إليه طبقة من الناس ضد أخرى وتستمد منه حكماً تلتزم بقبوله الطبقة التي تخسر القضية»

«فلنفترض على سبيل المثال أننا وسط صراع من صراعات العمال وأصحاب الأعمال وقد إقتُرح أن تحال المشكلة إلى التحكيم، ثم تقابل ممثلو الطرفين المتنازعين فإنه سرعان ما يتبين أن النزاع لا يمكن الفصل فيه على أسس أخلاقية فإن للأطراف المتنازعة وربما لهيئة التحكيم أيضاً مستوى أخلاقياً مختلفاً فأخلاقيات العاملين تقوم على أساس فكرة حق العمل. أما أخلاقيات المحكمين فإنها قد تتأرجح بين تفسير رجل القانون للقانون المدني وبين فكرة الفيلسوف المتأمل عن الحقوق المثالية الانسانية للانسان بوصفه إنساناً أي أنه لا يوجد أخلاقيات مشتركة نرجع إليها فلا المتقاضون ولا المحكمون

يستطيع أيهم أن يقنع الآخرين بضرورة التسليم بقاعدة عليا من الحق»[٤٤].

أرأيت؟! أن المجتمع الذي يرفض التحاكم إلى شرع الله والسير على هداه لا يستطيع أن يملك قاعدة عليا من الحق لأن لكل معبود من الشركاء قاعدته الخاصة وسبيله المختلف ولا سبيل أبداً إلى توحيد هذه القواعد إلا بالتخلص من الشركاء جميعاً والاتجاه المنقاد المستسلم لله تعالى وحده لا شريك له.

وبين فوضى الأرباب والآلهة والطواغيت والمعبودات ذات الأسماء والشعارات المختلفة والصور المتباينة يسير المؤمن الموحد بخطى ثابتة في طريق واضح أبلج لا زلل فيه ولا عثار وهو مملوء ثقة ويقيناً بأن اختياره لغير هذا الطريق أو تردده في الاستمساك به معناه الكارثة الكبرى والخسارة الفادحة.

﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون. ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين. بل الله فأعبد وكن من الشاكرين﴾ (٣٩: ٦٤ ـ ٦٦).

□ □ □

---

(٤٤) الجماعة، ماكيفر وزميله: ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

المراجع

(١) الله جل جلاله: سعيد حوى، ١٣٩٢.

(٢) الله واحد أم ثالوث، مجدي مرجان، مصر.

(٣) الله يتجلى في عصر العلم، مجموعة من العلماء، ت الدمرداش سرجان، القاهرة ١٩٦٨م.

(٤) إبراهيم الثاني، إبراهيم عبد القادر المازني. دار الشروق ١٣٩٥هـ.

(٥) الاتجاهات الفكرية عند العرب، على المحافظة، بيروت ١٩٧٥.

(٦) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، طبعة خاصة بيروت ١٩٧٠م.

(٧) أثر العلم في المجتمع، برتراندرسل، ت تمام حسان، مصر.

(٨) أحاديث في السياسة والاجتماع، ساطع الحصري، بيروت ١٩٦٢م.

(٩) أحجار على رقعة الشطرنج، وليم غاي كار، ت؟ بيروت.

(١٠) أحمد لطفي السيد، حسين فوزي النجار، سلسلة أعلام العرب، مصر.

(١١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، مصر ١٣٨٧هـ.

(١٢) الأدب للشعب، سلامة موسى، مصر ١٩٦١م.

(١٣) أساليب الغزو الفكري، على جريشة وزميله، ١٣٩٧هـ مصر.

(١٤) اسبانيا أرضها وشعبها، ذوروتي لودر، ت. طارق فودة القاهرة ١٩٦٥م.

(١٥) أسس التربية في الوطن العربي نشرة مؤتمر التربية العربي القاهرة ١٩٦٥م.

(١٦) الإسلام روح المدنية، مصطفى الغلاييني، المكتبة الأهلية، ١٣٤٤هـ.

(١٧) الاسلام المفترى عليه، محمد الغزالي، الكويت.

(١٨) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ت. عمر فروخ، ط ٢، بيروت.

(١٩) الإسلام في الغرب، جان بول رو، ت. نجده هاجر وزميله، مصر ١٩٦٠م.

(٢١) الإسلام قوة الغد العالمية، باول شمتز، د. محمد شامة القاهرة ١٣٩٤هـ.

(٢٢) الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرازق، تعليق ممدوح حقي، بيروت ١٩٦٦م.

(٢٣) الإسلام والخلافة، علي حسني الخربوطلي، بيروت، ١٩٦٩م.

(٢٤) الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي ط ٢، مصر.

(٢٥) الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، مصر ١٩٦٧.

(٢٦) اشتراكيتهم واسلامنا، بشير العوف، بيروت ١٩٦٦.
(٢٧) أشعة خاصة بنور الإسلام، ناصر الدين دينية ١٣٧٩هـ مصر.
(٢٨) أصل الأنواع، تشارلزداروين، ت. إسماعيل مظهر، بيروت، ١٩٧٣م.
(٢٩) اضمحلال الامبراطورية الرومانية، ادوارد جيبون، ت. محمد علي أبودرة، بيروت، ط ١.
(٣٠) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، مصر ١٣٨٦هـ.
(٣١) اظهار الحق، رحمة الله الهندي، تحقيق عمر الدسوقي، الدار البيضاء، ١٣٨٤هـ.
(٣٢) الاعتبار، اسامة بن منقذ، تحقيق فليب حتي، برنستون، أميركا ١٩٣٠م.
(٣٣) اعلام الموقعين، الإمام ابن القيم، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر ١٣٧٤هـ.
(٣٤) اغاثة اللهفان، الإمام ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي مصر، ١٣٥٧هـ.
(٣٥) أفكار ورجال (قصة الفكر الغربي) جرين برنتن، ت. محمود محمود، مصر ١٩٦٥.
(٣٦) أقوم المسالك... خير الدين التونسي، تحقيق المنصف الشنوي، تونس.
(٣٧) إلى الدين الفطري الأبدي، مبشر الطرازي الحسيني، القاهرة.
(٣٨) امرأة في الثلاثين، بلزاك، ت. عبد الفتاح الديدي، مصر.
(٣٩) امرؤ القيس (ديوان شعر) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر ١٣٧٧هـ.
(٤٠) الانتربولوجيا الاجتماعية، ادوارد ايفانز، الهيئة المصرية للكتاب.
(٤١) الانسان بين المادية والإسلام، محمد قطب، مصر ١٩٥٧.
(٤٢) الانسان ذلك المجهول، أليكس كارل، ت. شفيق أسعد فريد، بيروت.
(٤٣) الانسان في المجتمع المعاصر، بوسكية ـ فاتييه، ت. مصطفى كامل فودة القاهرة ١٩٦٩م.
(٤٤) الانسان والأخلاق والمجتمع، فلوجل، ت. عثمان نوبة وزميله مصر ١٩٦٦.
(٤٥) الانسان والعلاقات البشرية، ستيوارت تشيس، ت. أحمد حمودة، مصر ١٩٥٥.
(٤٦) أوليفرتويست (رواية) شارل ديكنز، منير البعلبكي، بيروت ١٩٧٣م.
(٤٧) أين محاضن الجيل المسلم، يوسف العظم جدة، ١٣٨٩هـ.
(٤٨) البداية أم النهاية، ماركي تشايلد وزميله، ت. عادل حامد، بيروت.
(٤٩) البركة في فضل السعي والحركة، أبو عبد الله الحبشي الوصابي، مصر.
(٥٠) بروتوكولات حكماء صهيون، ت. محمد خليفة التونسي، ط ٥، مصر.
(٥١) بؤس الفلسفة، كارل ماركس، ت..
(٥٢) تاريخ أوروبا العصور الوسطى، أ. هـ. فشر، ت. مصطفى زيادة، مصر ١٩٦٦.
(٥٣) تاريخ البشرية، منظمة اليونسكو، ت. عثمان نوبة وزملاؤه، مصر ١٩٧١م.
(٥٤) تاريخ الجبرتي (عجائب الآثار...) بيروت.
(٥٥) تاريخ الدولية العلية العثمانية، محمد فريد، بيروت ١٣٩٧هـ.
(٥٦) تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، نبيه أمين فارس وزميله، ط ٦، بيروت ١٩٧٤م.
(٥٧) تاريخ العالم، جمع جون أ. هامرتن، ت. ادارة الترجمة مصر.
(٥٨) تاريخ علم الاجتماع، جاستون بوتول، ت. محمد عاطف غيث وزميله، مصر ١٩٦٤م.
(٥٩) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، القاهرة ١٩٥٧م.
(٦٠) تاريخ النظرية السياسية (بحوث في...) عبد الكريم أحمد القاهرة ١٩٧٢.

(٦١) تاريخ ونظام التعليم في مصر، منير عطا الله وزملاؤه، القاهرة ١٩٧٢م.
(٦٢) تحذير الخواص من أحاديث القصاص، السيوطي، تحقيق محمد الصباغ، المكتب الإسلامي ١٣٩٢هـ.
(٦٣) تحرير المرأة، قاسم أمين، ط ٣ مصر.
(٦٤) تحكيم القوانين، الشيخ محمد بن إبراهيم، مكة ١٣٨٠هـ.
(٦٥) تخليص الابريز في تلخيص باريز، رفاعة الطهطاوي، تحقيق مهدي علام وزملاؤه، مصر.
(٦٦) تدهور الحضارة الغربية، أسوالد شبنجلر، ت. أحمد الشيباني، بيروت ١٩٦٤م.
(٦٧) تطور المجتمع الأميركي، كينث لن، ت. نعيم موسى، دار اليقظة ١٩٦٦م.
(٦٨) تطور المجتمع عبر التاريخ، سيغال، بدون.
(٦٩) التطور والثبات، محمد قطب، دار الشروق، ١٣٩٧.
(٧٠) التعصب والتسامح، محمد الغزالي، القاهرة.
(٧١) تفسير القرآن العظيم الحافظ ابن كثير، مصر (الحلبي).
(٧٢) تفسير المنار. محمد عبده، جمع رشيد رضا، ط ٢ بيروت.
(٧٣) تكوين العقل الحديث، ج. هـ. راندال، ت. جورج طعمة، دار الثقافة.
(٧٤) التلمود تاريخه وتعاليمه، ظفر الإسلام خان، بيروت، ط ٢.
(٧٥) توجيه المراهق، دجلاس توم، ت. جابر عبد الحميد وزملاؤه، مصر ١٩٦٢.
(٧٦) تهافت العلمانية، عماد الدين خليل، بيروت، ١٣٩٥هـ.
(٧٧) ثلاثة قرون من الأدب، أشرف على التأليف: فورستروفوك، وأشرف على الترجمة جبرا إبراهيم بيروت.
(٧٨) الثورة الفرويدية، بيرفوجيرولا، ت. حافظ الجمالي، دمشق، ١٩٧٢م.
(٧٩) جامع البيان (تفسير الطبري) ابن جرير الطبري، مصر (الحلبي) ١٣٨٨هـ.
(٨٠) جامع الترمذي (السنن) الترمذي، تحقيق أحمد شاكر مصر ١٩٥٦م.
(٨١) جاهلية القرن العشرين، محمد قطب، دار الشروق، ١٣٩٨٧هـ.
(٨٢) جذور البلاء، عبد الله التسل، بيروت، ١٣٩٠هـ.
(٨٣) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين، محمد علي يوسف، بيروت ١٩٦٦.
(٨٤) جمهورية افلاطون، ت. حنا خباز، بيروت.
(٨٥) الجماعة، ر. م. ماكيفر، ت. محمد علي أبو دره، القاهرة ١٩٦٨م.
(٨٦) حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد، حواشي شكيب ارسلان، عجاج نويهض ١٩٧٤م.
(٨٧) حديث عيسى بن هشام، محمد المويلحي، كتاب الهلال ٩٧ لعام ١٣٧٨هـ.
(٨٨) حرب الفلاحين في المانيا، فردريك انجلز، ت. محمد أبو خضور، دمشق.
(٨٩) الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار، جمع محمد عطية خميس، القاهرة.
(٩٠) حرية الفكر، سلامة موسى، بيروت، ١٩٦١م.
(٩١) حصاد الغرور، محمد الغزالي، ط ١ الكويت.
(٩٢) حصوننا مهددة من داخلها، محمد محمد حسين، الكويت ١٣٨٧هـ.
(٩٣) حفني ناصف، محمود غنيم، سلسلة أعلام العرب، مصر.

(٩٤) الحكومة الاسلامية، الخميني، ط بيروت.
(٩٥) حكومة العالم الخفية، سبيريدوفيتش، ت. مأمون سعيد بيروت ١٩٧٤م.
(٩٦) حياة الحقائق، غوستاف لوبون، ت. عادل زعيتر مصر ١٣٦٨هـ.
(٦٧) حياة المسيح، العقاد، مصر، ١٣٧٧هـ.
(٩٨) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، القاهرة ١٩٦٥.
(٩٩) الخصائص الكبرى، السيوطي، تحقيق محمد خليل هراس، مصر.
(١٠٠) خمس حالات من التحليل النفسي سيجموند فرويد، ت. صلاح مخيمر، مصر ١٩٧٢.
(١٠١) دائرة المعارف الإسلامية، المستشرقون، ت. محمد ثابت الفندي وزملاؤه، مصر ١٣٥٢هـ
(١٠٢) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، القاهرة، ١٣٣٦هـ.
(١٠٣) الدبلوماسية والمكيافيلية، محمد صادق، بيروت ١٣٩١هـ.
(١٠٤) دراسات أدبية، يوسف الشاروني، مكتبة النهضة، ١٩٦٤م.
(١٠٥) دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق.
(١٠٦) دراسات في حضارة الإسلام، هـ. جب، ت. احسان عباس وزملاؤه، بيروت ١٩٧٤م.
(١٠٧) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، بيروت.
(١٠٨) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ت. حسن إبراهيم وزملاؤه مصر ١٩٧١م.
(١٠٩) دفاع عن الشريعة، علال الفاسي، بيروت ١٩٧٢م.
(١١٠) الديمقراطية أبداً، خالد محمد خالد، مصر ١٩٥٣م.
(١١١) الديناميكا الحرارية، إبراهيم إبراهيم شريف، مصر ١٩٧٠م.
(١١٢) الذات والغرائز، سيجموند فرويد، ت. محمد عثمان نجاتي، القاهرة ١٩٦١م.
(١١٣) رائد الثقافة العامة، كورنيلوس هيرشبرغ، ت. محمد يوسف نجم وزملاؤه، بيروت ١٩٦٣م
(١١٤) رجال ونساء أسلموا، عرفات كامل العشي، الكويت ١٣٨٨هـ.
(١١٥) الرجل الصنم، ضابط تركي سابق، ت. عبد الله عبد الرحمن، بيروت.
(١١٦) رسالة في اللاهوت والسياسة، سبينوزا، ت. حسن حنفي، مصر ١٩٧١م.
(١١٧) ركائز الايمان، محمد الغزالي، القاهرة، ١٩٧٤م.
(١١٨) الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون غطاس كرم، بيروت ١٩٤٩م.
(١١٩) روائع اقبال، أبو الحسن الندوي، دمشق ١٣٧٩هـ.
(١٢٠) روح الجماعات، غوستاف لوبون، عادل زعيتر، القاهرة ١٩٥٥.
(١٢١) زعماء الإصلاح، أحمد أمين، القاهرة، ١٩٦٥م.
(١٢٢) زعماء وفنانون وأدباء، كامل الشناوي، مصر.
(١٢٣) الزنديق الأعظم، جوزيف جاي ديس، ت. أحمد نجيب هاشم، مصر.
(١٢٤) الزهاوي (ديوان شعر جميل صدقي) بيروت ١٩٧٢م.
(١٢٥) زهير بن أبي سلمى، (ديوان شعر) كرم البستاني، بيروت ١٣٨٤هـ.
(١٢٦) الساق على الساق، أحمد فارس الشدياق تعليق نسيب وهيبه بيروت.
(١٢٧) السبيل إلى عالم أفضل، كارل بيكر، ت. عبد العزيز اسماعيل، القاهرة ١٩٤٨م.
(١٢٨) سطور مع العظماء، محمد كامل المحامي، بيروت ١٣٨٩هـ.

(١٢٩) سعد زغلول، محمد إبراهيم الجزيري، مصر.
(١٣٠) السقطة، البيركامو، ت. أنيس زكي حسن، بيروت ١٩٧٣م.
(١٣١) سقوط الحضارة، كولن ولسن، ت. أنيس زكي حسن، بيروت ١٩٧١م.
(١٣٢) سقوط القاهرة، عبد المنعم شميس، القاهرة ١٩٥١م.
(١٣٣) السلام العالمي والإسلام، سيد قطب، دار الشروق ١٣٩٤هـ.
(١٣٤) سلسلة تراث الانسانية، مجموعة من الأساتذة، الهيئة العامة للكتاب، مصر.
(١٣٥) شرح الطحاوية، القاضي ابن أبي العز الحنفي، تحقيق محمود شاكر، مصر.
(١٣٦) شروط النهضة، مالك بن نبي، بيروت.
(١٣٧) الشعر بين نقاد ثلاثة ت. منح خوري، بيروت.
(١٣٨) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكة، ت. فاروق بيضون وزميله، بيروت ١٩٦٩م.
(١٣٩) الشيخ والبحر، أرنست همنغواي، ت. منير البعلبكي، بيروت ١٩٦١م.
(١٤٠) الشيطان والرحمن، جان بول سارتر، ت. سامي الجندي، بيروت.
(١٤١) الشيوعية والانسانية، عباس محمود العقاد، بيروت ط ٢.
(١٤٢) صحيح الإمام مسلم مع شرح الندوي. مصر.
(١٤٣) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مالك بن نبي، بيروت ١٩٦٩م.
(١٤٤) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، الندوي، القاهرة.
(١٤٥) الصنم الذي هوى، ستة من كتاب الغرب، ت. فؤاد حمودة، المكتب الإسلامي ١٩٦٠م.
(١٤٦) ضرب الكليم، محمد اقبال، ت. عبد الوهاب عزام، مصر ١٩٥٢م.
(١٤٧) الطاقة الروحية، هنري برجسون، ت. سامي الدروبي، بيروت ١٩٦٣م.
(١٤٨) طبائع الاستبداد، عبد الرحمن الكواكبي مصر ١٣٥٠هـ.
(١٤٩) الطبقة الجديدة، ميلوفان دجيلاس، تقديم قدري قلعجي، بيروت.
(١٥٠) طرطوف، موليير، ت. يوسف محمد رضا، بيروت، ١٩١٧.
(١٥١) الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، ت. عفيف البعلبكي، بيروت ١٩٦٤م.
(١٥٢) الطريق الطويل للانسان، روبرت. ل. ليرمان، ت. ثابت جرجس، بيروت ١٩٧٣٠م.
(١٥٣) الطفولة الجانحة، جان شازال. ت. أنطوان عبده، بيروت ١٩٧٢م.
(١٥٤) عائد من الجحيم، أنطوان دومازه، بلدون، ١٩٧٢م.
(١٥٥) عالم العصور الوسطى، ج. ج. كولتون، ت. جوزيف نسيم، مصر.
(١٥٦) العبودية، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن الباني، المكتب الإسلامي ١٣٨٩هـ.
(١٥٧) العقل والدين، وليم جيمس، ت. محمود حب الله، مصر ١٣٦٨هـ.
(١٥٨) العقل والمادة، برتراندرسل، ت. أحمد إبراهيم الشريف، القاهرة ١٩٧٥م.
(١٥٩) العقلية البدائية، ليفي بريل، ت. محمد القصاص، مصر.
(١٦٠) عقيدة ختم النبوة. . . (رسالة ماجستير) أحمد سعد حمدان جامعة أم القرى.
(١٦١) العلم أسراره وخفاياه، هارلد شابلي وزميلاه، ت. الفندي وزميله، مصر ١٩٧١م.
(١٦٢) علم الاجتماع ومدارسه، مصطفى الخشاب، القاهرة ١٣٨٧هـ.

(١٦٣) علم النفس في مئة عام، ج. ك. فلوجل، ت. لطفي فطيم، بيروت ١٩٧٣م.
(١٦٤) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، اميل بوترو، ت. أحمد فؤاد الأهواني، مصر ١٩٧٣م
(١٦٥) العلم يدعو للإيمان، كريسي موريسون، ت. محمود صالح الفلكي مصر ١٩٦٣م.
(١٦٦) عنترة بن شداد (ديوان شعر) تحقيق كرم البستاني، بيروت ١٣٨٤هـ.
(١٦٧) عندما يحكم الطغاة، علي جريشة، مصر ١٩٧٥م.
(١٦٨) العهد الجديد (الأناجيل والرسائل) مصر ١٩٧٦م.
(١٦٩) العهد القديم (التوراة) بيروت ١٩٥١م.
(١٧٠) الغارة على العالم الإسلامي، إ. ل. شاتليه، ت. محب الدين الخطيب، ط ٢ مصر.
(١٧١) الغرب والشرق الأوسط، برنارد لويس، ت. نبيل صبحي، ١٩٦٥م.
(١٧٢) الغزو الفكري، جلال كشك، ط ٣، الكويت.
(١٧٣) الغصن الذهبي، جيمس فريزر، ت. أحمد أبو زيد ١٩٧١م.
(١٧٤) الفتاوي الكبرى شيخ الإسلام ابن تيمية، مصر ١٣٢٩هـ.
(١٧٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، الحافظ ابن حجر، مصر (المطبعة السلفية) ١٣٨٠هـ.
(١٧٦) الفتح الرباني، السيوطي، تحقيق النبهاني، مصر.
(١٧٧) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن حسن، تحقيق الفقي القاهرة ١٣٧٧هـ.
(١٧٨) فرويد وبافلوف هاري ويلز، ت. شوقي جلال، مصر.
(١٧٩) الفضاء الخارجي والانسان، مجموعة من العلماء السوفيت، ت. زكريا فهمي، مصر ١٩٧٢م
(١٨٠) فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم، زكريا هاشم زكريا، مصر.
(١٨١) فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، القاهرة ١٣٨٨هـ.
(١٨٢) الفكر الإسلامي دراسة وتقويم، غازي التوبة، بيروت ١٩٧٧م.
(١٨٣) الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، فاروق سعد، مطبوع مع كتاب الأمير، بيروت ١٩٧٥م
(١٨٤) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، هنترميد، ت. فؤاد زكريا، مصر ١٩٧٥م.
(١٨٥) فن البحث العلمي، د. أ. ب. بفردج. ت. زكريا فهمي، الألف كتاب ١٩٦٣م.
(١٨٦) في التربية، برتراند رسل، ت. سمير عبده، بيروت ١٩٦٤م.
(١٨٧) في ظلال القرآن، سيد قطب، ط ٦ بيروت.
(١٨٨) قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام. . .، جلال العالم، ط ٢، بيروت.
(١٨٩) قاسم أمين، ماهر حسن فهمي، سلسلة أعلام العرب، مصر.
(١٩٠) قبسات الرسول، محمد قطب، مصر.
(١٩١) قذائف الحق، محمد الغزالي، بيروت، ١٩٧٧م.
(١٩٢) قصة الانسان، جورج حنا، بيروت ١٩٥٩م.
(١٩٣) قصة الإيمان، نديم الجسر، بيروت ١٩٦٩م.
(١٩٤) قصة الحضارة، ول ديورانت، ت. محمد بدران، القاهرة ١٩٥٧م.
(١٩٥) قصة النزاع بين الدين والفلسفة، توفيق الطويل، ط ٢ مصر.
(١٩٦) قواعد المنهج، علم الاجتماع، إميل دوركايم، ت. محمود قاسم، القاهرة. ١٩٧٤م.
(١٩٧) القومية العربية في ضوء الإسلام (رسالة ماجستير) صالح العبود، جامعة الملك أم القرى

(١٩٨) القومية والغزو الفكري، جلال كشك، بيروت.
(١٩٩) كتب غيرت وجه العالم، روبرت داونز، ت. أحمدصادق وزميله، ادارة الثقافة.
(٢٠٠) الكنز المرصد في قواعد التلمود، د. روهلنج وزميله، ت. يوسف حنا نصر الله، بيروت ٣٨٨.
(٢٠١) الكنز (معجم عربي فرنسي) جروان السابق، بيروت.
(٢٠٢) لباب النقول في أسباب النزول (مع الجلالين) السيوطي، مصر.
(٢٠٣) اللامنتمي، كولن ولسن، ت. أنيس زكي حسن، بيروت ١٩٥٨م.
(٢٠٤) لمن ترهقهم الحياة، هارولدفنيك، ت. محمد الخلوجي، القاهرة ١٩٦٩م.
(٢٠٥) ليس بالعلم وحده، فانفربوش، ت. لجنة من الأساتذة، بيروت ١٩٦٩م.
(٢٠٦) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، بيروت ١٣٨٧هـ.
(٢٠٧) ماركسية القرن العشرين روجيه غارودي، ت. نزيه الحكيم، بيروت ١٩٧٢م.
(٢٠٨) مباديء الإسلام، أبو الأعلى المورودي، بيروت.
(٢٠٩) مباديء فلسفة المستقبل، لودفيغ فويرباخ، ت. الياس مرقص، بيروت.
(٢١٠) المجتمع، ر. م. ماكيفر وزميله، ت. علي أحمد عيسى، مصر ١٩٦١م.
(٢١١) المجتمع الإسلامي والمذاهب الهدامة، مذكرة السنة الرابعة كلية الشريعة المدينة ١٣٩٤هـ.
(٢١٢) المجتمع الأميركي عارياً، فينس باكارد، ت. عبد الحميد سليم، مصر ١٩٧٢م.
(٢١٣) المجتمع البشري، برتراند راسل، ت. عبد الكريم أحمد ورميله، مصر ١٩٦٠م.
(٢١٤) المجموع، الإمام النووي، ط ١ مصر.
(٢١٥) مجموعة التوحيد، ابن عبد الوهاب وابن تيمية وغيرهما من العلماء.
(٢١٦) محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، سيجموند فرويد، ت. أحمد عزت راجح، القاهرة.
(٢١٧) محاضرات الموسم الثقافي بالكويت، حكمت هاشم، الكويت، ١٣٧٦هـ.
(٢١٨) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ط ٤ مصر.
(٢١٦) محمد رسولاً نبياً، عبد الرزاق نوفل، بيروت، ١٣٩٤هـ.
(٢٢٠) محمد عبده، العقاد، سلسلة أعلام العرب، مصر.
(٢٢١) محمد في مكة، مونتغمري واط، ت. شعبان بركات، بيروت.
(٢٢٢) مختارات من مقالات مرسن آرسن، ت. محمود محمود، مصر ١٩٥٥.
(٢٢٣) مختصر دراسة التاريخ، أرنولد توينبي، ت فؤاد نبيل، القاهرة ١٩٦١م.
(٢٢٤) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، محمد محمود الصواف ١٣٨٩هـ.
(٢٢٥) مدارج السالكين، الأمام ابن القيم، تحقيق محمد حامد فقي، بيروت ١٣٩٢هـ.
(٢٢٦) مدام بوفاري، جوستاف فلوبير، ت. محمد مندور، ١٣٩٧هـ.
(٢٢٧) مدخل إلى علم السياسة، هارولد لاسكي، ت. عز الدين محمد حسين، القاهرة ١٩٦٥م.
(٢٢٨) المذاهب الاقتصادية الكبرى، جورج سول، ت. راشد البراوي، مصر ١٩٦٥م.
(٢٢٩) مذهب النشوء والارتقاء، منيرة على الغاياتي، تقديم محمد البهي، مصر ١٣٩٥هـ.
(٢٣٠) المرأة بين الفقه والقانون، مصطفى السباعي، ط ٤ المكتب الإسلامي.
(٢٣١) المرأة في عصر الديمقراطية، اسماعيل مظهر، مصر ١٩٤٩م.

(٢٣٢) المرأة وآراء الفلاسفة. حسين فوزي، مصر ١٣٤٤هـ.
(٢٣٣) المرشد الأمين، رفاعة الطهطاوي، مصر ١٢٨٩هـ.
(٢٣٤) مستقبل الثقافة في مصر (نقد) سيد قطب، جدة ١٣٨٩هـ.
(٢٣٥) المسند، الإمام أحمد بن حنبل، بيروت.
(٢٣٦) المسيحية، أحمد شلبي القاهرة ١٩٦٥م.
(٢٣٧) المسيحية والقومية العربية، عبادي العبد العبادي، مصر ١٩٥٨م.
(٢٣٨) المشاكل الانسانية للمدنية الصناعية، التون مايو، ت. مبارك ادريس، القاهرة.
(٢٣٩) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، كرسون، ت. عبد الحليم حمود، ط ٢، القاهرة.
(٢٤٠) مصر ورسالتها، حسين مؤنس، مصر.
(٢٤١) مصطفى كامل حياته وكفاحه، أحمد رشاد، سلسلة أعلام العرب، مصر ١٩٥١م.
(٢٤٢) مصير الانسان، ليكونت دي نوي، ت. خليل الجر، المنشورات العربية.
(٢٤٣) معالم تاريخ الانسانية، هـ. ج. ويلز. ت. عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٦٧م.
(٢٤٤) معالم التحليل النفسي، سيجموند فرويد، ت. عثمان نجاتي، القاهرة ١٩٦٦م.
(٢٤٥) معالم في الطريق، سيد قطب، مصر.
(٢٤٦) معجم الأدب المعاصر، بياردي بواديفر، ت. بهيج شعبان ١٩٦٨م.
(٢٤٧) معركة الإسلام، محمد محمود الصواف، ط ١، بيروت.
(٢٤٨) معركة التقاليد، محمد قطب، مصر ١٩٦٨م.
(٢٤٩) معركة المصحف، محمد الغزالي، ط ١ مصر.
(٢٥٠) المفسدون في الأرض، س. ناجي، دمشق ١٩٧٣م.
(٢٥١) مقدمة في علم الاجتماع، أرمان كوفيليه، ت. محمد بدوق وزميله، مصر.
(٢٥٢) الملل والنحل (مع الذيل) الشهرستاني. تحقيق سيد كيلاني، مصر ١٣٨٧هـ.
(٢٥٣) منازع الفكر الحديث، جود، ت. عباس فضلي، العراق ١٣٧٥هـ.
(٢٥٤) منشأ الفكر الحديث (ترجمة موجزة لقصة الفكر الغربي) عبد الرحمن مراد، دمشق.
(٢٥٥) منهاج الإسلام في الحكم، محمد أسد، ت. منصور محمد ماضي، بيروت ١٩٦٧م.
(٢٥٦) من هنا نعلم. محمد الغزالي، مصر ١٣٧٣هـ.
(٢٥٧) مواقف حاسمة في تاريخ العلم، جيمس ب. كونانت، ت. أحمد زكي، مصر ١٩٦٣م
(٢٥٨) الموجز في التحليل النفسي، سيجموند فرويد، ت. سامي محمود وزميله، مصر ١٩٧٠م
(٢٥٩) الموسوعة الذهبية، مجموعة من العلماء والادباء، سجل العرب ١٩٦٤م.
(٢٦٠) موسوعة الهلال الاشتراكية، دار الهلال، مصر.
(٢٦١) النابغة (ديوان) تحقيق كرم البستاني، بيروت ١٣٨٢هـ.
(٢٦٢) نابليون المسلم، أحمد جل الوحيد، ط ١، بيروت.
(٢٦٣) نحو التربية الإسلامية الحرة أبو الحسن الندوي، مصر ١٣٩١هـ.
(٢٦٤) نصوص مختارة من انجلز، جمع جان كانابا، ت. وصفي البنى، دمشق ١٩٧٢م.
(٢٦٥) نظاما البشرية الديمقراطية والشيوعية، وليم ابنشتين، ت. وديع سعيد، القاهرة ٦٥م.
(٢٦٦) نظام الحكم والسياسة في الولايات المتحدة هارولدزينك، القاهرة.

(٢٦٧) نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها، قيس القرطاس، بيروت ١٣٩١هـ.
(٢٦٨) نظم الحكم الحديثة، ميشيل ستيوارت، ت. أحمد كامل، القاهرة ١٩٦٢م.
(٢٦٩) النقد الأدبي، ستانلي هايمان، ت. إحسان عباس وزميله، بيروت ١٩٥٨م.
(٢٧٠) هل نحن مسلمون، محمد قطب، ط ٢، القاهرة.
(٢٧١) الواسطة بين الحق والخلق، شيخ الإسلام بن تيمية، المكتب الإسلامي.
(٢٧٢) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، أبو الأعلى المودودي، بيروت ١٣٨٦ هـ.
(٢٧٣) وجهة الإسلام جب وزملاؤه، ت. محمد أبو ريده، مصر.
(٢٧٤) الوجودية مذهب انساني، جان بول سارتر، ت. يوسف كمال الحاج، بيروت.
(٢٧٥) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، تحقيق العريان، القاهرة.
(٢٧٦) وداعاً أيها السلاح، آرنست همنواي، ت. ن. يوسف، بيروت ١٩٦٩م.
(٢٧٧) ولي الدين يكن (ديوان) سلسلة من مناهل الأدب العربي، بيروت.

المراجع الأجنبية

1. Encyclopaedia Britannica. (1972)

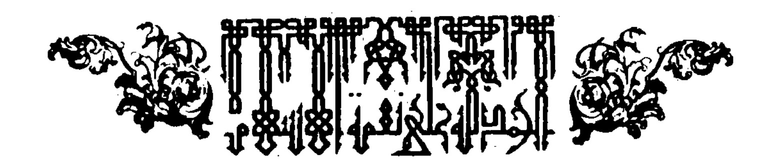
2. Webster's new world dictio. of the American language.

3. Oxford Advanced learner's Dictio. of current English. 1974.

4. Webster's Third New international Dictio. (1976).

5. Religion in the Middle Est. A.J. ARBERY, London, (1968).

ملحوظة: لم أدخل في هذا الفهرس الكتب التي اكتفيت بالإشارة إليها في صلب الموضوع، كما لم أدخل فيه الصحف والمجلات.



فهـــرس الموضوعات

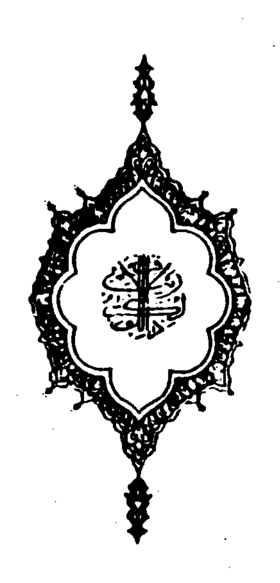
الباب الثاني
أسباب العلمانية

الباب الثالث

العلمانية في الحياة الاوروبية

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس
حكم العلمانية في الإسلام



مطبوعات

مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي

١ ــ تاريخ يحيى بن معين ١ ــ ٤.
٢ ــ موسوعة إبراهيم النخعي الفقهية ١ ــ ٢.
٣ ــ تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب.
٤ ــ تفسير المعاني من شعر أبي الطيب المتنبي، لأبي المرشد المعرّي.
٥ ــ شرح الكوكب المنير، لابن النجار الفتوحي الحنبلي ١ ــ ٤.
٦ ــ المساعد في شرح تسهيل الفوائد.
٧ ــ كتاب الأمثال، لأبي عبيد القاسم بن سلام.
٨ ــ منال الطالب في شرح طوال الغرائب، لابن الأثير.
٩ ــ مختصر أصول الفقه، لابن اللحام.
١٠ ــ الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، لابن الرفعة.
١١ ــ من كلام أبي زكريا في الرجال.
١٢ ــ عثمان بن سعيد الدرامي.
١٣ ــ برنامج الوادياشي.
١٤ ــ التبصرة في النحو، للصيمري.
١٥ ــ شرح الكافية، لابن مالك.
١٦ ــ غريب الحديث، للخطابي.
١٧ ــ الكواكب النيرات.
١٨ ــ الأوائل، للطبراني.
١٩ ــ المغني في أصول الفقه، للخبازي.
٢٠ ــ إتحاف الورى بأخبار أم القرى.
٢١ ــ الدليل الشافي على المنهل الصافي.
٢٢ ــ موسوعة فقه ابن مسعود.
٢٣ ــ الإقناع في القراءات.
٢٤ ــ موقف الإسلام من نظرية ماركس.
٢٥ ــ العلمانية.